

غوته

رحلة إيطالية

1786-1788

ترجمها عن الإنكليزية: **فالح عبد الجبار**





المؤلف: غوته / المترجم: فالح عبد الجبار / عنوان الكتاب: رحلة إيطالية

الطبعة الأولى: ٢٠١٧.

صورة الغلاف: **Johann Heinrich Wilhelm Tischbein**

تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

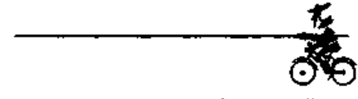


دار السويدي للنشر والتوزيع

أبو ظبي، ص.ب: 44480 / الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 0097126447474 / فاكس: 0097126449797 / alrihla@gmail.com

ISBN: 978-88-99687-69-4



منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:

Alzaia Naviglio Pavese. 120 / 20142 Milano / Italia

العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.

www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة للترجمة 2016 - 2017

غوته

رحلة إيطالية

1788-1786

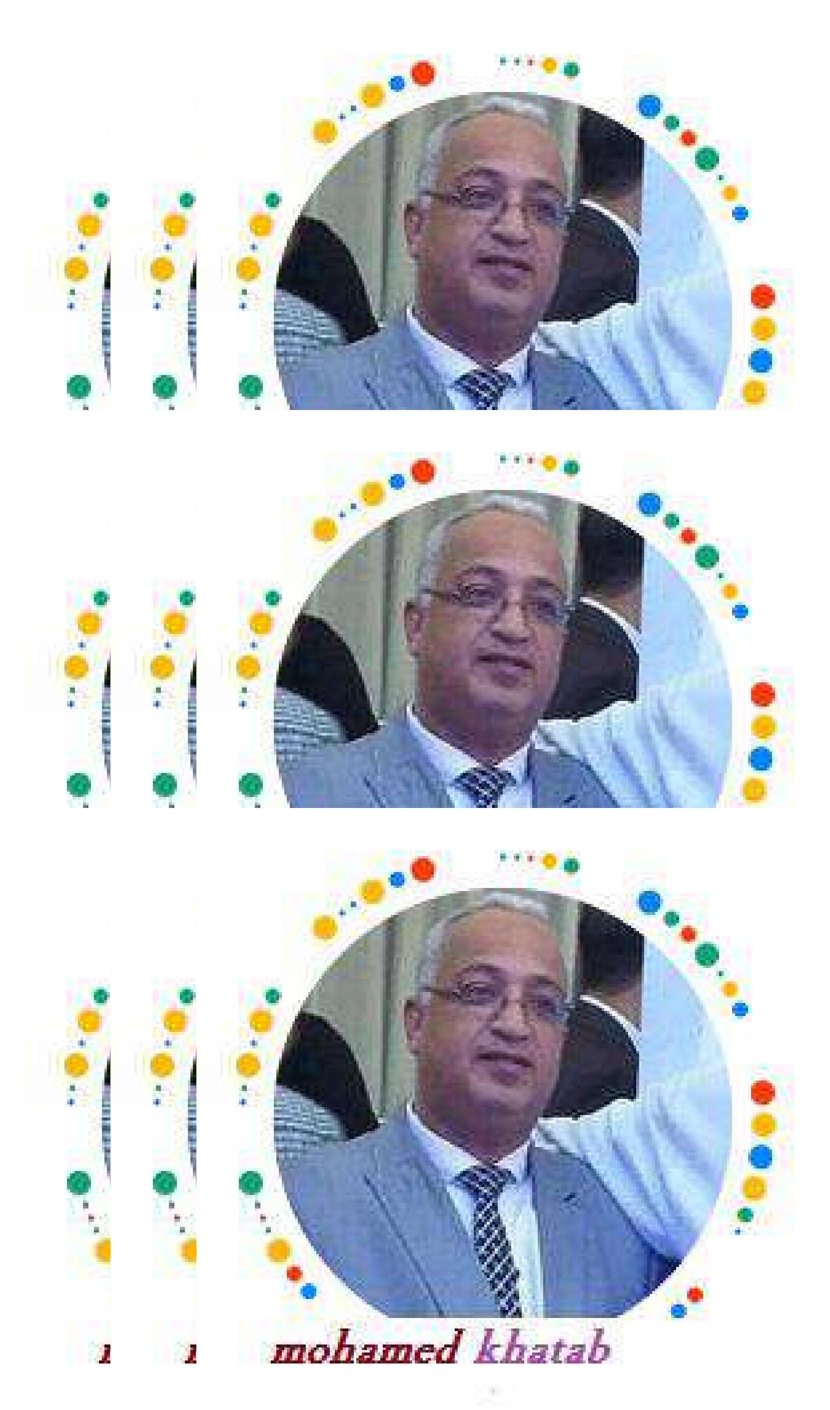
ترجمها عن الإنكليزية: **فالح عبد الجبار**



يشرف على هذه السلسلة: نوري الجرّاح

المتوسط




mohamed khatab

استهلال

أُعلن عن جائزة ابن بطوطة للأدب الجغرافي سنة ٢٠٠٣. وتهدف إلى تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات واليوميات، وهو ميدان خطير ومُهمَل. وقد تأسّست الجائزة إيماناً من "المركز العربي للأدب الجغرافي - ارتياد الآفاق" و"دار السويدي"، بضرورة الإسهام في إرساء تقاليد حُرّة في مَنْح الجوائز، وتكريساً لعُرْف رمزي في تقدير العطاء الفكري، بما يؤدّي بالضرورة إلى نبش المخبوء والمجهول من المخطوطات العربية والإسلامية الموجود في كنف المكتبات العربية والعالمية، وإخراجه إلى النور، وبالتالي إضاءة الزوايا الظليلة في الثقافة العربية عبر علاقتها بالمكان، والسفر فيه، والكشف عن نظرة العربي إلى الذات والآخر، من خلال أدب الرحلة، بصفته من بين أبرز حقول الكتابة في التراث العربي، لم ينلْ اهتماماً يتناسب والأهمّيّة المعطاة له في مختلف الثقافات. مع التنويه بتزايد أهمّيّة المشروع وجائزته في ظلّ التطوّرات الدراماتيكية التي يشهدها العالم، وتنعكس سلباً على علاقة العرب والمسلمين بالجغرافيات والثقافات الأخرى، فالأدب الجغرافي العربي (وضمناً الإثنوغرافيا العربية) من شأنه أن يكشف عن طبيعة النظرة والأفكار التي كوّنها العرب والمسلمون عن "الآخر" في مختلف الجغرافيات التي ارتادها رحّالتهم وجغرافيوهم، ودوّنوا انطباعاتهم وتصوّراتهم الخاصة بهم عن الحضارة الإنسانية، والاختلاف الحضاري حيثما حلّوا.

في دورتها هذه - كما في دوراتها السابقة - تواصل الجائزة التوقّعات

المتفائلة لمشروع تنويري عربي، يستهدف إحياء الاهتمام بالأدب الجغرافي، من خلال تحقيق المخطوطات العربية والإسلامية التي تنتمي إلى أدب الرحلة والأدب الجغرافي، بصورة عامة، من جهة، وتشجيع الأدباء والكتّاب العرب على تدوين يومياتهم المعاصرة في السفر، وحضّ الدارسين على الإسهام في تقديم أبحاث ودراسات رفيعة المستوى في أدب الرحلة.

***

مكتبة عربية لأدب الرحلة. مَن كان يُصدّق؟ موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرحّالة مدوّنات، هي لوحات فنّيّة مدهشة، ومشاعر حميمة، وخلجات وجدانية فيّاضة، وخواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، وحدس شاعري، وابتكار فني، وجمال في التعبير، وخيال يعانق الواقع، ويوقظ الذاكرة، فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، وبلدان قريبة وبعيدة، وأماكن جديدة، وزوايا لم تُستكشَف، يرتادها عاشق مغامر، كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها، وكأنه يتأمّل نفسه في مراياها... تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعياً وراء فَهْم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المُدُن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حيّة عابرة للزمان، كما هي عابرة للمكان.

***

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة، أما وقد أصبحت الكُتُب بالمئات، ودخل المشروع وجائزته في النصف الثاني من العقد الثاني؛

فإنني لأُحيّي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة، فرساناً امتطوا صهوات الجياد، واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلّع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحّالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع "ارتياد الآفاق"، وتألّقوا في مسالكه. أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكُتُب، وهي تنقلنا بين المُدُن والبلدان والقارّات، هؤلاء هم غواصّو لآلئ الرحلة العربية، ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمّة من الناظرين في كل جهات الأرض، وسفراؤها إلى العالم، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة، وأهل الحوار مع الآخر، بصفته أنا أخرى، وشريكاً على هذا الكوكب.

في أسواق المُدُن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطّات القطار نمرّ بألوان من كُتيّبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفاً خاصة بها.

الرحلة، كما آلت إليه، سفر في الأرض، وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

***

تَهْدفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتّاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ، جابوا العالم، ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة

الغربية لدى النُّخب العربية المثقّفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب. والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً، ستملأ مجلّدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيّئ لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة"، تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي؛ لتؤسّس للظاهرة الاستعمارية، بوجهيها العسكري والفكري.

***

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكّن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورِ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحْري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم - كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة - ركّز - أساساً - على تتبّع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثّلة في التطوّر الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق.

لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين - غالباً - بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة، لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما - أساساً - من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطوّر الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من

حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المَدَنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السِّلسلة من كُتُب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادَّة سرديَّة مشوِّقة، تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش ممّا التقطته عيون تتجوّل، وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء، ويحلِّلها، ويراقب الظواهرَ، ويتفكَّرُ بها.

***

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السِّلسة أسّست - وللمرّة الأولى - لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة، تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمُتعةِ، وهي - إلى هذا وذاك - تغطّي المعمور في أربعِ جهات الأرض، وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكوّنات الذات الحضارية للعرب والمسلمين، من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكّرون والمتصوّفة والحجّاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحّالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

***

ختاماً، أحيي رحّالة من طراز آخر، أولئك المثقّفين المبدعين القائمين على مشروع ارتياد الآفاق، والعاملين فيه، والمتحلّقين حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية، بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم، ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ، وسهروا على فكّ رموزها، وتحقيقها، وإخراجها إلى النور؛ ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة، ما تزال عناوينها تتوالى، وسلاسلها تتعدّد؛ ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن - من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب - أنها ثقافة إنسانية، فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه، ودوّن رحّالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية، ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر.

فهنيئا للقارئ العربيِ الجادّ بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام.

محمد أحمد السويدي

أبو ظبي حزيران/يونيو ٢٠١٦

الجزء الأول


https://telegram.me/maktabatbaghdad

من كارلزباد إلى برينر

الثالث من أيلول (سبتمبر) عام ١٧٨٦

انسللتُ مغادراً كارلزباد في الثالثة فجراً، لولا ذلك لما سمحوا لي بالمغادرة. فلعل أصدقائي الذين احتفلوا احتفالاً لطيفاً بعيد ميلادي يوم الثامن والعشرين من آب، اكتسبوا بذلك حقّ احتجازي، ولكنْ؛ لم يعد بوسعي الانتظار أكثر من ذلك. حزمتُ حقيبتَي سفر؛ واحدة كبيرة وأخرى صغيرة، وقفزتُ إلى عربة البريد؛ لأصل زوتا في الساعة السابعة والنصف. كان الصباح ضبابياً هادئاً، وجميلاً، فبدا لي ذلك فأل خير. كانت الغيوم العليا أشبه بالصوف المنفوش، أما السفلى؛ فمدلهمّة. بعد ذلك الصيف البائس، كنتُ أتطلّع إلى التمتّع بخريف حسن. وصلتُ إلى ايجر عند الظهيرة. كانت الشمس حارقة، وخطر لي أن هذا المكان يقع على نفس خط عرض بلدتنا. غمرني السرور، وأنا أتناول وجبة الغداء تحت شمس صافية على خط العرض الخمسين.

إن أول ما تقع عليه عين المرء وهو يدخل بافاريا هو دير فالدزاسين. وقد كان الرهبان الذين يملكون هذا المبنى الثمين أكثر حكمة من سائر الناس. فالدير يقع في غور أشبه بالوعاء أو الحوض، وسط مراع جميلة، وهو محاط من كل الجهات بتلال خصبة، لطيفة التموّج. ويملك الدير القيعان في أرجاء الريف كله. والتربة هنا بالأصل ألواح صخر، تفتّت صلصالاً. أما صخر الكوارتز؛ فلا يتفتّت، ولا يحتّ، بل يحافظ على التربة رخوة خصبة.

وتبدأ الأرض بالارتفاع ارتفاعاً مطرداً على طول الطريق إلى تيرشن رويت، وتتدفّق الجداول باتجاه إيجر أو الألب. بعد تيرشن رويت، تنخفض الأرض جنوباً، وتمضي الجداول صوب الدانوب. وأجد أن بمقدوري أن أؤلف بسرعة فكرة عن طوبغرافيا المنطقة، بمجرّد النظر حتّى إلى أصغر جدول، وملاحظة جهة سريانه، وحوض التصريف الذي ينساب إليه. ويمكن للمرء أن يحصل، بهذه الطريقة، على صورة ذهنية عن العلاقة بين الجبال والوديان حتّى في المنطقة التي لا يملك إطلالة كاملة عليها.

قبل الوصول إلى تيرشن رويت، طرقنا شارعاً عريضاً من الطراز الأول معبّداً برمل الجرانيت. إن الجرانيت المفتّت هو خليط من الفلسبار (سليكات الألمنيوم) والصلصال، وهو راسخ الوطء متين اللحام؛ بحيث يغدو الشارع سلساً مثل أرضية صقيلة، وهذا أمر مرغوب نظرا لأن الرقعة التي يمرّ بها مسطّحة وسبخة. بتنا ننحدر أسفل التل، فمضينا بسرعة، تشيع السرور على خلاف الخطو البطيء للارتحال في بوهيميا.

(أرفق طياً قائمة بالأماكن التي توقّفنا عندها).

وصلنا ريجنزبرج عند العاشرة من صباح اليوم التالي، قاطعين بذلك مائة وأربعة أميال في بحر واحد وثلاثين ساعة. انبلج الفجر، ونحن بين شواندورف وريجنشتاوف، ولاحظتُ أن التربة تغيّرت نحو الأفضل، فلم تعد حطاماً، جرفته الأمطار من الجبال، بل خليطاً راسباً غرينياً. لابد أن أمواج المدّ من الدانوب، في العصور البدائية، كانت تصل إلى ريجن، وتغمر كل الوديان التي تصرّف مياهها الآن إلى ذلك الحوض. وإن هذا الغمر هو الذي شكّل المنخفضات المستَصْلَحَة من البحر التي تعتمد عليها الزراعة. ويصحّ ذلك على كل وديان الأنهر، كبيرها وصغيرها. ويمكن للمراقب، بملاحظة حضورها أو غيابها، أن يكتشف بنظرة واحدة، إن كانت التربة صالحة للزراعة.

ريجنزبرج موقع جميل. وكان لابد لموقع الأرض من أن يُغري بإنشاء مدينة، وقد أبدى سادتها الروحيون حصافة في التقدير. إنهم يملكون كل الحقول المجاورة، أما في المدينة ذاتها؛ فثمّة كنيسة جوار كنيسة، ودير جنب دير.

يذكّرني الدانوب بنهر الماين. إن النهر والجسور في فرانكفورت تؤلف مشهداً أجمل، غير أن بلدة شتات أم هوف التي تقع على الضفة البعيدة من الدانوب تبدو مثيرة للإعجاب.

كان أول ما قمتُ به زيارة كُلّيّة الجزويت؛ حيث يؤدّي الطلاب مسرحيتهم السنوية. شاهدتُ نهاية عرض أوبرا، وبداية عرض تراجيدايا. لم يكن أداء الممثّلين بأسوأ من أداء مجموعة من هواة بلا خبرة، وكانت أزياؤهم جميلة حقاً، بل بالغة الروعة تقريباً. ذكّرني عرضهم المسرحي، من جديد، بالحكمة الدنيوية للجزويت. فما كانوا ليرفضوا أي شيء قادر على توليد أثر، وكانوا يعرفون تماماً كيف يستخدمونه بحنو وحرص. وما كانت حكمتهم ثمرة حساب بارد لا شخصي، فقد كانوا يفعلون كل شيء بتذوّق، وعطف، ومتعة شخصية في التنفيذ، على غرار ما يمنحه العيش نفسه. تضمّ هذه الطائفة الدينية العظيمة بين أعضائها صانعي أرغنات، ونقّاشي خشب، ومزخرفين، وعليه لابد أن تضمّ - فيما تضمّ - أناساً يكرّسون أنفسهم إلى المسرح، بحكم المزاج والموهبة. ومثلما كان هؤلاء البشر الحكماء يعرفون كيف يشيدون كنائس ذات بهاء عظيم، فقد كانوا يستثمرون عوالم الحواسّ لابتداع دراما موقّرة.

إنني أكتب هذا من مكان يقع عند خط العرض التاسع والأربعين. كان الصباح بارداً حقاً، إلا أنه تفتّح عن نهار بديع، رغم شكاوى الناس هنا أيضاً من الصيف الماطر البارد. الهواء معتدل اعتدالاً فائقاً للعادة، بفضل

وجود النهر العظيم، غير أن الثمر، على أي حال، ليس كما أشتهي. أكلتُ بعض الكمّثرى اللطيفة، لكني أتوق إلى الأعناب والتين.

وأظلّ أفكّر في شخصية الجيزويت ونشاطاتهم. إن بهاء وكمال تصاميم كنائسهم ومبانيهم الأخرى تثير الرهبة والإعجاب. يستخدم الجزويت في التزيين الذهب والفضة والجواهر استخداماً مسرفاً؛ لتدويخ المتسولين من كل المراتب، مضيفين إلى ذلك - بين الفينة والفينة - لمسة ابتذال لاجتذاب العوام. لقد تفتّقت الكاثوليكية الرومية، دوماً، عن هذه العبقرية، لكني لم أشاهدها منفّذة بمثل هذا الذكاء الوقّاد، وبمثل هذه المهارة والاتّساق، ممّا يمتاز به الجزويت. وعلى خلاف الطوائف الدينية الأخرى، ابتعد الجزويت عن المناسك القديمة للعبادة، وطعّموها، تبعاً لروح العصر، بالجلال والفخامة. ثمّة معدن نفيس هنا، يصقلون منه عيّنات لهواة جمع المعادن. وهو يبدو مثل نوع من السجق الحجري، ولابد أنه قديم أو بدائي، ولونه ضارب إلى الخضرة، وهو ذو مسامات، وممزوج بالكوارتز، وقد طُعّم بقطع كبيرة من اليشب الصلب، الذي يحوي - بدوره - كرات مدوّرة صغيرة من البريشه. رأيتُ عيّنة شديدة الإغراء، لكنها كانت ثقيلة، وقد أقسمتُ ألا أحمّل نفسي أعباء الأحجار في هذه الرحلة.

ميونخ، في السادس من أيلول (سبتمبر)

غادرتُ ريجنزبرج في الساعة الثانية عشرة والنصف. ومن آباخ؛ حيث يرتطم الدانوب بالأكمات، إلى زاله. يأسرك الريف بجماله. حجر الكلس هنا يشبه - من حيث النوع - حجر الكلس حول آوستيرودو في جبال هارتس، فهو متماسك، وذو مسامات.

وصلتُ هنا عند السادسة صباحاً. وبعد الطواف في أرجاء المكان نحو اثنتي عشرة ساعة. لا أجد عندي الكثير ممّا يُقال. في معرض الفن،

شعرتُ نوعاً ما بالضياع، فعيناي لم تألفا بعد عادة النظر إلى اللوحات، لكني شاهدتُ بعضاً من الأعمال البديعة. فتخطيطات روبنز من معرض اللوكسمبورج، مثلاً، أثارت غبطتي. وكان ثمّة معروض ثمين وغريب، هو منمنمة عن عمود طروادة. الأرضية لازوردية والأجسام مذهّبة. قطعة بديعة من المهارة الحرفية، ومتعة للنظر.

وأدركتُ في قاعة التحفيات الكلاسيكية إدراكاً ممضاً أن عيني ليستا مدرّبتين على حسن تقدير مثل هذه الأشياء. لذا؛ شعرتُ أني كفيل بأن أبدّد وقتي سدى، إن بقيتُ مدّة طويلة. لم أجد ما يستهويني، وعجزتُ عن تشخيص سبب هذا النفور.

في قاعة الأعمال الكلاسيكية الغابرة، أدركتُ إدراكاً مُضنياً بأن عينيّ لم تتدرّبا على رؤية هذه الأشياء بمنظار التقدير. لهذا السبب، شعرتُ أنني سأبدّد وقتي سدى، إن بقيتُ هناك مدّة طويلة. لم يكن ثمّة ما يجذبني، رغم أني لا أعرف لذلك سبباً. لفت انتباهي عمل من أعمال دروسوس، وثمّة قطعتين من أنطوانين، إضافة إلى قطع قليلة أخرى، أثارت ارتياحي. وعلى العموم، فإن ترتيب الأعمال ليس ممّا يسرّ. كان الدافع وراء هذا الترتيب حسناً، كما هو جلي، إلا أن القاعة، أو قل ردهة القبو كانت ستبدو في مظهر أفضل، لو أن هناك مَن يعتني بنظافتها وترميم ما يعتورها. ووجدتُ في متحف التاريخ الطبيعي معادن بديعة من تيرول. كنتُ على معرفة سابقة بهذه المعادن، بل إني أحوز على عيّنات منها.

صادفتُ عجوزاً تبيع التين، وهو أول تين أتذوّقه. ما ألذّه! رغم أن ميونيخ تقع على خط العرض الثامن والأربعين، فإن الأثمار ليست عذبة المذاق. الكل يشتكي من برودة الجو والنقيع. قبل الوصول إلى ميونيخ حطّت غمامة ضباب تكاد أن تكون مطراً، أما الريح القارسة؛ فقد هبّت علينا طوال النهار

كله من جبال تيرول. وحين نظرتُ في اتجاه الجبال من جهة البرج، وجدتُها تتوارى في الغيم، أما السماء؛ فسوداء مدلهمّة. اغفروا لي إكثار الحديث عن الريح والطقس: فالرحّالة في البراري يعتمد عليها اعتماد المُبحر في الأمواه. وإنه لمن المشين حقاً أن يُسفر خريفي في البلاد الغريبة عن فصل لا يبشّر بالخير شأن ما كانه الصيف في وطني.

أنا الآن في طريقي إلى إينزبروك. وإني لأذهل عن رؤية ما يقع عن يميني أو عن شمالي، وذلك بسبب الهدف الذي استبدّ بخيالي طوال هذه المدّة؛ بحيث إنه همد في عقلي!

ميتينفالد، السابع من أيلول (سبتمبر)، المساء:

يبدو أن ملاكي الحارس، قد غمر عقيدتي بكلمة آمين، وإني لممتنّ له الامتنان كله؛ إذ سدّد خطاي إلى هذا المكان في مثل هذا النهار البديع. إن حوذيي الأخير طفح بالغبطة؛ لأن يكون هذا النهار أول الصيف كله. ثمّة خرافة مضمرة في دخيلتي تقول إن الطقس الحسن سيستمرّ.

لابد أن أقراني سيغفرون لي تكرار الحديث عن درجة الحرارة والغيوم. حين غادرتُ ميونيخ في الساعة الخامسة، كانت السماء قد صفت. كانت الغيوم ماتزال محتشدة فوق جبال تيرول، أما الندف السفلية منها؛ فتربض بلا حراك. أما الطريق؛ فيمضي في المرتفع من تلال الحصى الغريني؛ حيث يمكن للناظر أن ينعم برؤية نهر إيزار الجاري في الأسفل. ويسهل على المرء إدراك كُنْه حركة المدّ من المحيط البدائي. وجدتُ في الكثير من أكوام حجارة الجرانيت نظائر للعيّنات التي أدخلتُها في مجموعة نفائس ما اعطانية كنيبل. أما الضباب المنبعث من النهر والسهول الخضراء؛ فقد مكث بعض الوقت، ثمّ تبدّد آخر المطاف. أما تربة الأرض الممتدة بين تلال الحصى، التي ينبغي أن تتصوّرها متموجة، ساعة بعد ساعة من الارتحال؛

فهي خصبة، وشبيهة بتربة وادي ريجن. عدنا إلى نهر إيزار عند نقطة تنتهي فيها التلال إلى جرف، يبلغ في ارتفاعه نحو مائة وخمسين قدماً. وحين وصلتُ إلى فولفرات هاوزن، بلغتُ خط العرض الثامن والأربعين. كانت الشمس تسطع سطوعاً حاداً. ليس ثمّة مَن يوقن أن الطقس الحسن سيستمرّ؛ وتجد أن الكل يُدمدم بالشكوى من مناخ السنة المنصرمة الذي بلغ مبلغاً من السوء والرثاء لم يدع معها رحمة الخالق تنزل لوقفه.

وإذ اقتربتُ الجبال وئيداً، انفتح أمامي عالم جديد كل الجدّة. ثمّة دير شامخ، هو كناية عن مبنى أبيض، طويل، ومديد، يربض في سهل خصيب، تحفّه جروف صخرية، سامقة. أما الطريق؛ فيصعد إلى كوخلزيه، ثمّ يرتقي أبعد إلى فالخن زيه. وهناك رأيتُ أولى القمم المكلّلة بالثلج في حياتي، وحين عبّرتُ عن دهشتي من هذا القرب الكبير من خط الجليد، قيل لي إن عاصفة رعدية مصحوبة بالثلج اندلعت بالأمس، ليس إلا. يؤول أبناء هذه الأصقاع مثل هذه التقلّبات الجوّية على أنها وعد بمناخ أفضل، ويتوقّعون من أولى ندف الثلج المتساقط علائم تبدّل في حرارة الجو. إن سائر الأكمات المحيطة بالمكان هي من حجر الكلس. وهذا أقدم التشكيلات الجيولوجية الخالية من أية متحجّرات. إن الجبال الجيرية هذه تمتدّ في سلسلة عظيمة، متصلة بلا انقطاع، من دالماتيا إلى جبل ماونت سانت جوتارد، وما وراءه. وقد جاب هاكيت معظم هذه السلاسل. وتتّكئ السلاسل على قاعدة صخرية بدائية غنية بحجر الكوارتز والصلصال.

وصلتُ فالخنزيه في الساعة الرابعة والنصف، بعد أن مررتُ بمغامرة سعيدة قبل ساعة أو نحوها. كان هناك عازف قيثار صحبة ابنته اليافعة، البالغة إحدى عشرة سنة، يمشي قبلنا على الطريق، فرجاني أن أدع ابنته تركب معي في العربة. أما هو؛ فبقي على مساره ماشياً، حاملاً قيثارة.

أفسحتُ لها مكاناً للجلوس إلى جانبي، فقعدتْ، ووضعتْ علبة قبّعات جديدة كبيرة، بعناية عند قدميها. كانت الفتاة مخلوقة يافعة حلوة، سنحت لها الأحوال أن ترى الشيء الكثير من الدنيا. فقد مضت مع أمّها في رحلة حجّ على الأقدام إلى مزار ماريا . آينزيدلن، وقرّرت الاثنتان القيام برحلة حجّ أخرى على الأقدام إلى مزار سانت ياجو دي كومبوستيلا. لكن الموت اختطف الأمّ قبل أن تؤدّي النذر. وقالت لي الفتاة إن كل ما يفعله المرء إكراماً واجلالاً للعذراء، أمّ الرب، هو أقل من القليل دوماً. وحكتْ لي كيف أن حريقاً مسعوراً أتى على بيت كامل؛ ليسوّيه بالأرض رمادا، لكنها رأت بأمّ عينها صورة سيدتنا العذراء سليمة في إطارها الزجاجي في كوّة من كوى الدار. لاريب أن هذه معجزة بحقّ. والفتاة تجوب الدنيا مشياً؛ وقد عزفت في رحلتها الأخيرة في مدينة ميونيخ أمام الأمير. وقد أدّت الوصلات الموسيقية، على العموم، في حضرة واحد وعشرين من الشخصيات المَلَكية. كانت الفتاة ذات عينين عسليتين واسعتين، وجبهة شامخة، تجعّدها أحياناً، وهي حلوة المعشر، بلا مراء. وكان حديثها يسترسل في عفوية طليقة حلوة، خصوصاً حين تجلجل في ضحك صاخب مثل طفل، أما عندما كانت تركن إلى الصمت؛ فقد كانت تزمّ شفتها العليا زمّاً؛ لكيما تضفي على نفسها - كما هو جلي - مظهر الأهمّيّة، ممّا كان يسبغ على محياها تعبيراً منفّراً. تجاذبتُ الحديث معها في مواضيع شتّى، فبدت على دراية ومعرفة بها جميعاً، بل كانت نبهة إلى تفاصيل ما يجري حولها. فمثلاً إنها سألتني، ذات لحظة، عن اسم شجرة. كانت تلك شجرة قيقب حلوة، سامقة، هي أول قيقبة أراها في رحلتي. وقد انتهبت الفتاة إليها في الحال، واغتبطت بمرأى المزيد من هذه الأشجار، التي استطاعت أن تشخّصها. أفادتْني أنها كانت في الطريق إلى معرض في بولزانو، وأنها تفترض أنني بسبيلي إلى المعرض أيضاً. وقالت إننا إذا صادف والتقينا

هناك، فينبغي أن أشتري لها هدية. وعدتُها بذلك. وفهمتُ أنها ستعتمر قلنسوتها الجديدة التي صُنعت لها في ميونيخ، حسب الطلب، وسدّدت هي الثمن ممّا تكسب. وقالت إنها ستدعني أرى القلنسوة مقدّماً. وهنا فتحت علبة القبّعات؛ لأشاطرها إعجابها بغطاء الرأس هذا المزدان بتطريز فاخر، ومظهر بهيج.

وتشاطرنا الغبطة بأفق آخر مسرّ: أكدت لي أن الطقس سيكون رائعاً؛ لأنها تحمل معها بارومترها الخاص. قيثارها. فالوتر الثالث؛ إذ يتوتّر، يُنبئ بتحسن الطقس، وهذا ما حصل اليوم. تقبّلتُ فأل الخبر منها، وافترقنا بلطف، على أمل اللقاء قريباً.

عند معبر برينر، الثامن من أيلول (سبتمبر)، المساء

جيء بنا، أو قل سيق بنا، أخيراً، إلى موئل هادئ للراحة، فاق في لطفه كل ما كنتُ آمل. هذا نهار من النهارات التي ستبقى ذكراها معي حلوة على مدى سنوات. غادرتُ ميتنفالد في الساعة السادسة. ثمّة ريح عاتية جلت صفحة السماء كُلّيّة. كان البرد شديداً، كما هو متوقّع له في شهر شباط، إلا أن المشهد كان نادراً، ومتلوّناً. فأشعّة الشمس تنبجس من هنا، وسفوح التلال المعتمة بأشجار البلوط من هناك، وأكمات الصخور الجيرية الرمادية بين الاثنين، بينما ذرى الجبال المكلّلة بالجليد تبرز في أولى أعماق المشهد، بإزاء سماء زرقاء صافية.

قرب شارنيتز يدلف المرء إلى تيرول. ثمّة جدار صخري يسدّ منفذ الوادي، عند الحدود، ويرتبط هذا الجدار بالجبال الجاثمة على الجانبين: المنحدر الصخري، على هذا الجانب، معزّز بالجلاميد، أما الأكمة على الجانب الآخر؛ فتنتصب في اتجاه شاقولي. المشهد لطيف. بعد زيفيلد، يزداد الطريق إثارة. فابتداء من بنيديكت بيورين فصاعداً، يمضي الطريق

صعوداً من مرتفع إلى آخر، وتنحدر الجداول كلها منه نحو حوض نهر إيزار، أما الآن؛ فأخذتُ أنظر من الأكمة إلى وادي انزبروك، فرأيتُ إينستنج تهجع في الأسفل. كانت الشمس في كبد السماء، ترسل أشعّتها الساخنة التي اضطرّتني إلى أن أنضو عني بعض دثاراتي. الواقع أن تبدّل درجات الحرارة المطّرد اضطرّني إلى تغيير أرديتي مراراً في سحابة ذلك النهار.

بدأنا على مقربة من تسيرل ننزل إلى وادي إنزبروك. إن جمال المشهد لأخّاذ حقاً، يزيده سديم الشمس فتنة. أسرع حوذي المركبة بوتيرة أشدّ ممّا كنتُ أتمنّى؛ فهو لم يسمع القدّاس، وكان توّاقاً لحضوره في انزبروك؛ لأن المناسبة هي عيد مولد العذراء، فاندفعت عربتنا مدوّية نزولاً من التل المجاور للحانة مروراً بحائط القدّيس مارتن، وهو كناية عن جرف صخري هائل. كنتُ على يقين من أنني قادر على بلوغ الموضع الذي يقال إن الإمبراطور ماكسميليان تاه فيه، لكنه نزل منه دونما عون من الملائكة، رغم أن عليّ أن أعترف أن هذا المسعى هو التهوّر بعينه.

تقع إنزبروك في موضع ساحر وسط واد فسيح، خصيب، يجثم بين أكمات عالية، وسلاسل جبلية سامقة. بادئ الأمر، تبادر إليّ أن أتوقّف في هذا الموضع، لكني شعرتُ أن روحي في قلق وتململ. رحتُ أسلّي نفسي قليلاً بالتحدّث مع ابن صاحب الحانة، الذي كان يشبه "سوللر" بلحمه ودمه(*). ما أغرب هذه اللقاءات المتّصلة التي تحصل لي مع شخصيات مؤلّفاتي، الواحد بعد الآخر.

لقد عمّت النظافة والترتيب كل شيء استقبالاً لمأدبة ميلاد العذراء، وإن أناساً أصحاء، موفوري الحال يقومون بالحج إلى ويلتن، وهو من العتبات المقدّسة التي تقع على مسافة ساعة من المسير عن المدينة،

---

*) سوللر هو إحدى شخصيات مسرحية غوته الكوميدية الموسومة: الضالعون (١٧٦٨).

في اتجاه الجبال. وحين شقّت عربتي طريقها وسط الحشد الجذل، الزاهي عند الساعة الثانية بعد الظهر، كان الموكب في أوجه.

يزداد المشهد بهاء وجمالاً بعد بلدة إنزبروك. وتمضي العربة؛ لترتقي مرتفعاً جبلياً عبر طريق معبّد، ويرسل المرتفع مياهه المبثوثة إلى وادي إنزبروك، ويمتّع النظر بمشاهد خلابة، على قدر كبير من التنوّع. ويتحاشى الطريق الصخور الحادّة، فيلتفّ حولها، أو يشقّ طريقه عبرها. ويرى المرء على الطرف الآخر من الوادي سفوحاً رقيقة، حُرثت، وزُرعت. وتنتشر على السفوح قرى كثيرة، ومنازل صغيرة وكبيرة، وشاليهات مَطليّة كلها بالكلس الأبيض، وسط الحقول والشجيرات، الممتدّة على سفح فسيح، عال. وسرعان ما تغيّر المشهد كله: فالحقول المزروعة تحوّلت إلى مرعىً كبير، ثمّ انقلب المرعى نفسه إلى غور عميق. لقد حزتُ على بعض الأفكار التي أضيفها إلى نظرياتي في علم الكون وأصله، لكنها ليست جديدة كل الجدّة، ولا مثيرة للعجب. وطفقتُ أحلم في النموذج الذي تحدّثتُ عنه طويلاً، والذي أتمنّى أن أوضح به كل الأمور التي تجري في عقلي وفكري، والتي لا أستطيع أن أدفع الآخرين إلى أن يروها ماثلة في الطبيعة.

ازداد الظلام قتامة، وحلكة؛ وتلاشت ملامح الأشياء الفردية الصغيرة؛ لتذوب في كتل، ما تني تكبر وتتضخّم في جلال مهيب. أخيراً بات كل شيء يتحرّك أمام ناظري مثل صورة حلم غامض، ثمّ، بغتة، رأيتُ ذرى الثلج السامقة ثانية مضاءة بأشعّة القمر.

أنا - الآن - بانتظار الفجر كيما ينير هذا الموقع العَصي الذي انحشرتُ فيه على الخط الفاصل بين الشمال والجنوب.

دعوني أضيف ملاحظات أخرى عن الطقس، الذي يحنو عليّ هذا الحنو كله، لعل مَردّ ذلك ما أبديه له من اهتمام كبير. في السهول،

يتقبّل المرء سوء الطقس أو حسنه كحقيقة راسخة، لا مناص منها، أما في الجبال؛ فإن المرء يجد نفسه حاضراً في موضع خَلْق الطقس نفسه. كثيراً ما شهدتُ ذلك بأمّ عيني في ثنايا ما قمتُ به من رحلات، أو مشي، أو صيد، أو حتّى قضاء أيام أو ليال وسط الأكمات في الغابات الجبلية، فتلبّستْني فكرة خيالية، لا قِبَلَ لي بأن أنضوها عن عقلي، شأنها شأن أية خيالات من هذا القبيل. تعرفون أني درجتُ على أن أثابر على التماس صبر أصدقائي.

حين ننظر إلى الجبال، من قريب أو بعيد، ونرى ذراها متلألئة في نور الشمس تارة، أو ملفّعة بالضباب، أو مجلّلة بالغيم الذي تقذفه العواصف تارة، أو مجلوْدة بسياط المطر المدرار حيناً، أو مَكسوّة بالجليد حيناً آخر، فإننا نعزو هذه الظاهرات كلها إلى الجو؛ لأن سائر حركات الجو وتبدّلاته ظاهرة للعيان. أما أشكال الجبال من الجهة الأخرى؛ فتبدو للعين ثابتة بلا حراك؛ ولأن الجبال تبدو راسخة متحجّرة هامدة، بل ساكنة، فإننا نظن أنها ميتة. ولكني موقن اليقين كله، وهذه الفكرة راسخة عندي منذ أمد بعيد، أن معظم تبدّلات الجو الظاهرة إنما ترجع فعلاً إلى أثر الجبال الخفي الذي لا تُدركه الحواسّ. بتعبير آخر، إني أؤمن أن قوّة الجاذبية التي تنبعث من كتلة الكرة الأرضية، وبخاصة انعكاساتها، ليست - على العموم - كمّاً ثابتاً متساوياً، بل هي أشبه بالنبض، سواء جاء ذلك عن ضرورة باطنية أم نجم عن تصادف برّاني، وإن هذا النبض ليتسارع حيناً، ويخفّ حيناً. لعل وسائلنا لقياس هذا التذبذب في النبض محدودة، بل بدائية، لكن ردود أفعال الجو المرهفة إزاء تقلّبات النبض تكفي لأن تزوّدنا بمعطيات قاطعة عن فعل هذه القوى اللامرئية. فحين تخفّ قوّة الجاذبية في الجبال عن السحب، حتّى وإن يكن ذلك مقدار شعرة، فإن أثر ذلك يظهر في التو، فنرى أن الهواء ينخسف وزناً ومرونة. ولا يعود بوسع الجو أن يحتفظ

بالندى - ميكانيكياً أو كيمياوياً - منتشراً بين ثناياه، فتنحدر الغيوم نزولاً، ويهطل المطر مدراراً، بل إن الغيم المدلهمّ المطار يهبط قريباً من السهول. أما حين تشتد قوّة جاذبية الجبال في سحب الأشياء؛ فإن الهواء يستعيد مرونته؛ لتعقبه ظاهرتان هامتان. فأولاً تحشد الجبال حول قممها كتلاً هائلة من الغيوم، وتسمّرها هناك في ثبات مستكين، كما لو أنها قمم جديدة، تعلو هاماتها. بعد هذا تصطرع القوى الكهربائية باطنياً، فتدفع الغيوم وتُنزلها في زوبعة رعدية مصحوبة بالضباب والمطر. ويمكن للهواء المرن، الآن، أن يتشبّع بالمزيد من الندى، ويبدّد الباقي من الغيوم. ولقد رأيتُ بأمّ عيني امتصاص مثل هذه الغيمة بشكل متميّز. بقيت الغيمة متشبّثة بأكثر القمم انحداراً، وهي ملوّنة ببقايا أشعّة الشمس الغاربة. وبالتدريج تنفكّ حوافّ الغيمة، رويداً رويداً، وتتطاير ندف منها في البعيد، ثمّ ترتفع عالياً، وتتلاشى هباء. هكذا تبدّدت كتلة الغيم العملاقة أمام ناظري، كما لو أن يداً خفية فكّت غزولها من النول.

وإذا كان أصدقائي سيبتسمون إزاء هذا القارئ الجوي المشّائي ونظرياته الغريبة، فلعلّني قادر على أن أثير ضحكاتهم المجلجلة بتأمّلات وجيزة أخرى. لقد شرعتُ في هذه الرحلة كيما أهرب من عناء ما كابدتُ على خط العرض الحادي والخمسين، آملاً أن أدخل - وهذا ما ينبغي أن أعترف به - جنّة مصر على خط العرض الثامن والأربعين. لكني ما حصدتُ سوى الخيبة، وهذا ما كان ينبغي لي أن أدركه سلفاً. فخط العرض بذاته لا يصنع المناخ، أما سلاسل الجبال؛ فهي التي تصنعه، خصوصاً العابرات للبلدان من الشرق إلى الغرب. وإن بلدان الشمال تعاني الأمرّين ممّا يقع هناك من تغيّرات جوية عظمى، لا تنقطع. وهكذا يبدو أن طقس الصيف الفائت، في سائر بلدان الشمال، قد تبلور هنا على يد سلسلة الألب العملاقة، التي أكتب لكم منها. لقد انهمر المطر هنا مدراراً متصلاً طوال

الأشهر الماضيات، وهبّت الرياح من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي؛ لتدفع السُّحُب الماطرة شمالاً. أما المناخ في إيطاليا؛ فهو حسن، بل جافّ تماماً، كما تفيد الأخبار.

دعوني الآن أقول بضعة كلمات عن أحوال النبات، الذي يتأثّر عظيم التأثّر بالمناخ والارتفاع والبَلَل. لم ألمح حتّى الآن أيّ تغيّر حادّ، لكنْ؛ ثمّة تحسّن ملحوظ. ففي الوديان التي تسبق الوصول إلى إينزبروك، شاهدتُ الثمار، مثل التفّاح والكمّثرى، تتدلّى من الأغصان. أما الخوخ والعنب؛ فيُستورد من إيطاليا، أو بالأحرى من جنوب تيرول. وتزدان الحقول المحيطة بإينزبروك بزراعة الشوفان والقمح. وحين صعدنا في اتجاه برينر، رأيتُ أولى أشجار الصنوبر، ثمّ لمحتُ أول شجرة بلّوط قرب شونبرج. ولا أدري إن كانت ابنة عازف القيثارة ستسألني عن أسمائها أيضاً.

أما بالنسبة إلى النباتات؛ فأنا واعٍ تمام الوعي لعظمة مقدار ما ينبغي لي، بعد، أن أتعلّمه. ولم أرَ - حسب علمي - سوى النبتات المألوفة عندي، على طول الطريق الموصل إلى ميونيخ. أما بعد ذلك؛ فإن عجالة الرحلة، والسفر ليل نهار، لم يأذنا لي بالمراقبة الحصيفة، رغم أني حملتُ أطلس لينايوس للنبات معي، ومصطلحاته محفورة عميقاً في ذهني. (ترى متى سأجد الوقت والسَّكِينة اللازمين للتحليل، وهو أمر لا قِبَلَ لي به، إن كان لي أدنى قدر من المعرفة لنفسي؟) شحذتُ انتباهي لمراقبة الخصائص العامة للنباتات؛ وحين رأيتُ أول زهرة من زهور الجنطايا بالقرب من فالخنزيه، قفز إلى ذهني أنني لا أجد النبتات الجديدة إلا بالقرب من موارد الماء.

وانصبّ اهتمامي على التأثير البدهي لارتفاع الأرض. ولم يقتصر الأمر على أني شاهدتُ نبتات جديدة، بل رأيتُ أيضاً نبتات مألوفة ذات نمو مغاير في نوعه. وتجد في السهوب أن السيقان والأغصان متينة مكتنزة،

والأوراق عريضة يانعة، أما هنا في أعالي الجبال؛ فإن السيقان والأغصان نحيفة، والبراعم متباعدة تباعداً كبيراً لافتاً للنظر، أما الأوراق؛ فتبدو مستدقّة الطرف. لاحظتُ ذلك في شجرة صفصاف، وفي نبتة الجنطايا المزهرة، فأقنعني ذلك أن الأمر ليس أمر اختلاف في الأجناس. فبالقرب من فالخنزيه رأيتُ نبتات الأسل أطول وأنحف من مثيلاتها في السهل.

إن جبال الألب الجيرية التي طفقتُ على الارتحال في جنباتها حتّى الآن ذات لون رمادي، وأشكال جميلة متبدّلة دون اتساق، رغم أن الصخور هنا مقسّمة إلى طبقات متدرّجة وأكمات وسلاسل. ولمّا كانت الطبقات المتموّجة تبرز أحياناً، وكان الصخر لا يتفتّت، ويتآكل في اتساق تامّ في كل مكان، فإن الأكمات والقمم تتّخذ أشكالاً غريبة. وتستمرّ هذه التشكيلات في ارتفاع كبير وصولاً إلى بلدة برينر. لكني صادفتُ شكلا محوّراً من هذه التشكيلات بالقرب من البحيرة العليا. فثمّة صخرة جيرية صلدة بيضاء اللون، تتّكئ على فلقات صخر بلّوري متشقّق ضارب إلى الخضرة الداكنة، وإلى اللون الرمادي الغامق، وكانت الصخرة الجيرية تتألّق، وهي تربض فوق ركام حصاها المتفلّق، وهو كناية عن كتلة متشقّقة تشقّقاً عميقاً. ووُجدتُ فلقات الصخر البلّوري في بقعة أخرى إلى الأعلى، رغم أنها بدت ذات قوام أخفّ من الصخر البلّوري السفلي. ولمّا مضيتُ صعوداً، وجدتُ نمطاً خاصاً من الصوّان، أو بالأحرى نوع من الجرانيت القريب الشبه من الصوّان، كذلك الذي يعثر عليه المرء في نواحي إيلبوجن. إن الأكمة المقابلة لوادي إنزبروك هي كناية عن صخر بلّوري مفلوق. وإن الجداول التي تجري من هذه الجبال لا تجرف معها سوى هذا البلّور والجير الرمادي.

إن كتلة الجرانيت العملاقة التي يتّكئ عليها كل هذا ليست بعيدة بأي حال. وتبيّن خريطتي أننا على منحدر برينر الكبرى تماماً، الذي تنبع منه كل جداول الأصقاع القريبة.

أما انطباعي عن المظهر الخارجي للناس هنا؛ فهو كما يلي: إنهم يبدون شجعاناً مستقيمين، ومتشابهين في بنية أجسادهم. وهم يمتازون بعيون داكنة واسعة؛ كما أن حواجب النساء داكنة ورقيقة الشكل، في حين أن حواجب الرجال متينة وكثّة. وإن القبّعات الخضر التي يعتمرها الرجال تضفي على الصخور الرمادية مسحة بهيجة، وتزدان القبّعات بأشرطة أو حوافّ مطرّزة من قماش التفتا، فتضفي على المظهر أناقة حلوة. وما من قبّعة تخلو من زهرة أو ريشة أيضاً. أما النساء، من جهة أخرى؛ فإنهنّ يُسئنَ إلى مظهرهنّ بارتداء قلنسوات كبيرة، واسعة معمولة من قماش قطني أبيض، وهي تبدو مثل قلنسوات فظيعة، ممّا يرتديه الرجال عند النوم. وإن غرابة مظهرهنّ لتبرز للعيان حين نعلم أن كل النساء، عدا نساء هذه البقعة، إنما يعتمرنَ قبّعات زاهية، تشبه ما يعتمره الرجال.

سنحت لي الفرصة مراراً أن ألاحظ أن الناس هنا يعلّقون أهمّيّة كبرى على ريش الطاووس، بل أيّ ريش برّاق زاهي الألوان. ولابد للمرتحل الجَوّاب في هذه الآفاق من أن يحمل في متاعه بعض الريش؛ لأن ريشة منها تقوم - في اللحظة المناسبة - مقام أحسن بقشيش، يتلقّاه الناس هنا.

وإذ اجمع وأرتّب وأخيط هذه الوريقات؛ لكيما أعطي لأصدقائي متابعة وجيزة عن مغامراتي حتّى اللحظة الراهنة، وأخفّف عناء من التجارب والأفكار عن ذهني، فإنني أنظر بفزع واحتراز إلى بعض أقسام المخطوطة التي جلبتُها معي. وأقول لنفسي: أليست هذه الوريقات رفيق سفري؟ أو لن يكون لها أثر عظيم على مستقبلي؟

أخذتُ كل كتاباتي معي إلى كارلزباد؛ كيما أعدّ الطبعة الخاصة التي يعتزم جوشن نشرها. أما تلك التي لم تُطبع بعد؛ فلدي - أصلاً - نسخ منها، خُطّت بيراع جميل على يد سكرتيري المتمرّس فوجل، الذي جاء بصحبتي إلى كارلزباد. وأمكن لي، بفضل عونه وتعاون هيردر الوفي، أن

أرسل المجلّدات الأربعة الأولى إلى الناشر، وأن أعتزم ارسال المجلّدات الأربعة الأخيرة لاحقاً. إن بعض مضامين المجلّدات لا تزيد عن خلاصات أعمال، بل حتّى مجرّد شذرات، والحقّ أقول لكم إن سبب ذلك يرجع إلى عادتي السيئة في الشروع بتأليف كتاب، ثمّ فقدان الاهتمام به، وطرحه جانباً، وقد تفاقمت هذه العادة المشينة على مرّ الأيام، فباتت تلازم كل ما ينبغي أن أقوم به.

ولمّا كانت هذه المخطوطة معي، فقد نزلتُ عن طيبة خاطر عند طلب الأوساط الثقافية في كارلزباد، وألقيت في تلاوة جهورية كل ما لم تقع عليه عيون السامعين. وتناهت إليّ - حيثما قرأتُ نصوصي - شكاوى من أن القطع المكتوبة غير مكتملة، كما تناهت إليّ تمنيات بأن أسهب، وأطيل.

إن معظم الهدايا التي تلقّيتُ في عيد ميلادي لا يزيد عن قصائد عن مؤلّفاتي الناقصة، قصائد يشتكي فيها واضعوها من عاداتي السيئة في التأليف. وكانت إحدى القصائد تحمل العنوان المميّز التالي: "الطير". تحكي القصيدة عن سرب من هذه المخلوقات الحلوة جاء في وفد إلى "الصديق الحقّ"(*)، راجياً إيّاه كل الرجاء أن يقيم ويؤثّث المملكة التي طالما وعد بإقامتها منذ أمد بعيد. أما التخيلات الأخرى عن نثار كتاباتي غير المكتملة؛ فلا تقلّ حذقاً وذكاء ولطفاً عمّا جاء في القصيدة أعلاه، ممّا بعث الروح في هذا النثار، فأخبرت أصدقائي عن مشاريع أخرى في جعبتي، ورحتُ أفصّل فيها تفصيلاً. فزاد هذا من إلحاح الطلبات، وسنحت بذلك الفرصة أمام هيردر الذي حاول أن يُقنعني أن أصطحب كل مخطوطاتي معي، وأن أعكف عليها، بل وأن أعيد النظر، قبل هذا وذاك، في مسرحية إيفجيني، وأن أكرّس لها ما تستحقّ من انتباه. الواقع

---

*) الصديق الحقّ (Treufreund) هي شخصية من شخصيات مسرحية غوته الكوميدية الموسومة: الطير Die Vogel، وقد صيغت بمحاكاة لمسرحيات أريستوفانيس عام ١٧٨٠.

أن إيفجيني في صيغتها الحالية أقرب إلى الخلاصة منها إلى مسرحية غير ناجزة. لقد كتبتُها بشعر منثور، يقع - أحياناً - على وزن الخفيف، أو على أوزان أخرى متعددة. وإنني لأعلم علم اليقين أن النص يحتاج إلى قراءة حاذقة؛ كيما أخفي مواطن الزحاف والإقواء، وبخلاف ذلك، فإن هذه المثالب ستترك أثرها السيئ على المسرحية.

حثّني هيردر على إكمال العمل حثّاً مفعماً بالجدّ. لقد أخفيتُ عنه مشاريعي لتوسيع آفاق رحلتي. وكان يظنّ أن الرحلة لن تزيد عن خلوة أخرى في الجبل، ولمّا كان يسخر دوماً من هوسي المشبوب بعلم المعادن وطبقات الأرض (الجيولوجيا)، فقد نصحني بأن أمسك القلم، وأعكف على العمل الأدبي، عوض أن أحمل المطرقة؛ لأدقّ على الصخر الهامد. وعدتُه بأن أسعى هذا المسعى، لكن ذلك كان محالاً حتّى وقتذاك. أما الآن؛ فقد استللتُ نص مسرحية إيفجيني من حزم المخطوطات، وعزمتُ على أن أحملها معي رفيق سفر دائم في بلد دافئ فاتن. النهارات طويلة، ولا شيء يعكّر صفو أفكاري، كما أن جلال المشهد لا يثلم نصل خيالي الشعري: على العكس، فهذا الخيال يحبّ الحركة والهواء الطلق، ويجتمع بفضلهما.

من برينر إلى فيرونا

ترينتو، الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، الصباح الباكر

بعد انصرام خمسين ساعة ضاجّة بالحياة، وصلتُ إلى ترينتو في الساعة الثامنة من مساء الأمس، وخلدتُ مبكّراً إلى النوم، وأنا الآن من جديد في حال يسمح بمواصلة السرد. في مساء التاسع من أيلول، وبعد أن أكملتُ الحصّة الأولى من تدوين يومياتي، فكّرتُ أن أحاول رسم صورة للحانة والبريد في برينر، لكني لم أنجح في مسعاي. لقد أخفقتُ في التقاط معالم المكان، وعدتُ إلى المنزل، وأنا ممتعض بعض الشيء. وسألني صاحب النزل إن كانت بي رغبة للانطلاق في الحال نظراً لأن القمر سيبزغ قريباً، والطريق سيكون رائعاً. كنتُ أعرف أنه يريد لجياده أن تعود في الصباح التالي؛ لكي تحمل له كومة القشّ الثانية، وأن نصحه هذا لم يكن مجرّداً من المصلحة، بأيّ حال، إلا أنه توافق مع رغائب قلبي، فقبلتُ العرض في خفّة وابتهاج. انبجست الشمس ثانية، أما الهواء؛ فكان منعشاً: حزمتُ حقائبي، وانطلقتُ عند السابعة. كانت الغيوم قد تبدّدت، وأطل علينا مساء جميل.

أغفى الحوذي في أثناء المسير، وراحت الجياد تخبّ خبباً متسارعاً أسفل التل على طريق خبرته مراراً. وكانت الجياد تُبطئ الخطو تلقائيا كلّما مرّت بالمستوي من الطريق. بعدئذ صحا السائس من غفوته، وراح يسوطها من جديد. وسرعان ما بلغنا آديج، ونحن ننطلق كالسهم بين الأكمات

العالية. بزغ القمر؛ ليضيء كتل الجبال العملاقة. وبدت بعض طواحين الهواء الرابضة على ضفّة النهر الهادر وسط أشجار البلوط المعمّرة شبيهة بلوحة من أعمال ريشة إيفردنجن.

وحين بلغتُ فيبيتينو زهاء التاسعة، اتّضح لي أنهم يريدونني أن أغادر في الحال. وصلنا ميزاسيلفا مع دقّات الساعة عند منتصف الليل. كان الكل نياماً، باستثناء الحوذي الجديد. رحنا نغذّ السير صوب بريسانون، وحين بلغناها، تعرّضتُ ثانية إلى الاختطاف، إن جاز القول، فوصلتُ إلى كولما مع انبلاج الفجر. لقد سعى الحوذيون المتعاقبون إلى أن ينهبوا الأرض نهباً، بسرعة جنونية، قطعت عليّ أنفاسي، مع ذلك وجدتني - رغم ما ألمّ بي من ندم على السفر بمثل هذه العجالة ليلاً عبر هذه الأصقاع الحلوة - سعيداً في قرارة نفسي على المضي والإسراع نحو هدفي المنشود، بينما الريح المؤاتية تدفعنا من الظهر دفعاً.

مضت العربة بلا توقّف. وصلتُ ترينيتا في السابعة صباحاً، وانطلقت بي العربة ثانية. ومضينا في الرحلة شمالاً حتّى لاحت بولزانو أخيراً وهي تستحمّ بنور الشمس محاطة بجبال شاهقة شديدة الانحدار، زُرعت سفوحها إلى علوّ كبير.

ينفتح الوادي صوب الجنوب، أما من جهة الشمال: فتظلّله جبال تيرول. ثمّة نسيم منعش يتخلّل المنطقة كلها. هنا ينعطف نهر آديج نحو الجنوب ثانية. وتكتسي سفوح التلال بالكروم. وتمتدّ الكروم على عرائش تتدلى منها عناقيد حمراء في اتساق ونظام؛ لتنضج على وهج الدفء المنبعث من التربة القريبة من العثوق. ولا يخلو قاع الوادي، المكرّس للرعي عموما، من أعناب تنمو على عرائش مماثلة مرصوفة معاً في صفوف متوازية، تفسح فيما بين جنباتها المجال لزراعة الذرة، التي تنبجس سيقانها

عالية، لتبلغ - أحياناً - عشرة أقدام. وإن الأزهار الليفية لم تُقطع بعد، فالزّرّاع لا يقطفونها إلا بعد شيء من التسميد للنبات.

حين وصلتُ بولزانو، كانت الشمس تسطع سطوعاً باهراً. سررتُ لمرأى وجود تلك الكثرة من التجّار، في آن واحد. تلوح على هؤلاء الرجال مسحة المقاصد الجادّة والنعمة بالرفاه. ثمّة نساء يجلسنَ في الساحة عارضات الثمار للبيع في سلال منبسطة القاع بعرض أربعة أقدام. وتجد الخوخ والكمّثرى مرصوفة في عناية بجانب بعضها البعض تفادياً للخدش والتلف. بغتة تذكّرتُ رباعية، نُقشت على نافذة نزل في ريجنزبرج:

مثلما أن الخوج والبطيخ
هو لفم البارون،
فإن العصي والهراوات
هي للمجانين، كما يقول سليمان. (بالفرنسية في الأصل)

جلي أن هذه الرباعية من تأليف بارون من الشمال، ولكنْ؛ بوسع المرء أن يكون على يقين تام من أنه كان سيغيّر رأيه لو أنه زار هذه الأنحاء.

بعجّ سوق بولزانو بتجارة الحرير؛ ويجلب الباعة أيضاً كل ما تقع عليه أياديهم من قماش وجلود في المناطق الجبلية. غير أن كثرة من التجّار لا تأتي إلا لاستلام النقود، وأخذ الطلبيات، وتقديم قروض جديدة. بودّي أن أتحرى سائر المنتجات المتنوّعة المعروضة للبيع، لكن رغائب القلب لن تدعني أستقرّ، وأستكين، وإنني لمتلهّف كل اللهفة إلى المغادرة في الحال.

رحتُ أعزّي نفسي بفكرة أن زماننا هذا حريص على الإحصائيات، وأن كل ما يدور في سوق البلدة قد سُجّل وطُبع في كُتُب، يمكن للمرء أن يرجع إليها، إن دعت الحاجة. أما في الوقت الحاضر؛ فأنا منشغل تماماً

بالانطباعات الحسّية التي لا يسع أي كتاب أو أية لوحة إيفاءها حقّها. والحقّ أنني إذ وضعتُ قواي على الملاحظة والرصد موضع الاختبار، فقد وجدتُ اهتماماً جديداً بالحياة. ترى إلى أيّ حدّ ستأخذني معرفتي العلمية والعامة؟ وهل يمكن لي أن أتعلّم النظر إلى الأشياء بعينين صاحيتين طريتين؟ وكم يسعني أن أستوعب بنظرة واحدة؟ وهل يمكن لي أن أزيل أخاديد العادات الذهنية القديمة؟ هذا ما أحاول اكتشافه. إن حقيقة سعيي إلى مراقبة نفسي تُبقيني في يقظة ذهنية طوال الوقت، وأجد أنني قد طوّرتُ مرونة جديدة في عقلي. لقد كنتُ معتاداً على أن أعمل على التفكير، والإرادة، وإصدار الأوامر، وإملاء النصوص، أما الآن: فيتعيّن أن أشغل نفسي بأسعار صرف النقود، وتصريف النقود، ودفع الفواتير، وتدوين الملاحظات، وكتابة النصوص بنفسي.

يشقّ المرء الطريق من بولزانو إلى ترينتو طوال تسعة أميال عبر بلاد تزداد خصباً فوق خصب. إن كل ما يصارع من أجل النمو في أعالي الجبال، يزدهر هنا بحيوية وعافية ويُسر، فالشمس ساطعة وساخنة، فيوقن المرء بوجود الخالق.

نادتْني امرأة فقيرة، وطلبت مني أن أدع طفلتها تركب معي في العربة؛ لأن الأرض الساخنة تحرق قدميها. قمتُ بهذا الإحسان كعمل من أعمال الخير إكراماً لجبروت نور السماء. كانت الطفلة ترتدي زياً غريباً مبهرجاً، ولم أفلح في أن أنتزع منها كلمة واحدة في أية لغة.

يجري نهر آديج الآن مجرى هادئاً، وتنبجس منه في مواضع شتّى جزر عريضة من الحصى. وتزدحم ضفّتا النهر والتلال بالمزروعات الكثيفة، التي تدفع المرء للتخيّل بأن كل محصول يخنق الآخر، الذرة، التوت، التفّاح، الكمّثرى، السفرجل، والجوز.

تكتسي الجدران بأوراق اللبلاب المتسلّق الثخين السيقان، الذي يمتدّ؛ ليغطّي الصخور؛ وتثب السحالي من الشقوق، أو تنحشر فيها، هي وغيرها ممّا يتحرّك، فيذكّرني ذلك كله باللوحات المفضّلة عندي. وإن النساء اللواتي يتبخترنَ بشعورهنّ المجدولة، والرجال بصدورهم العارية، وستراتهم الخفيفة، والثيران الضخمة التي تُساق من البيوت إلى السوق، والحمير القميئة المحمّلة بأحمال ثقيلة، هذه التفاصيل الحية كلها تؤلّف مشهداً، يحمل المرء على تذكّر هذه اللوحة أو تلك من أعمال هاينريش روس. حين يحلّ المساء، ويرى المرء بضع غمامات هامدة في الهواء الساكن مستريحة فوق الجبال واقفة في السماء بدل أن تندفع عبرها، أو حين تتعالى أصوات الجداجد بعيد الغروب، أشعر أنني في سكينة مع العالم، لا بغريب، ولا بمَنْفي. وأجدني متمتّعاً بكل شيء، كما لو أني وُلدتُ هنا، وترعرت هنا، وأنني عدتُ لتوّي من رحلة صيد حيتان في جرينلاند.

بل إنني أرحّب بالغبار الذي يتطاير - أحياناً - كالغمام حول عربتي، كما لو أن هذا هو حاله في موطني الذي بعدتُ عنه طويلاً. إن صرير الجداجد الذي يشبه وقع الأجراس يزيد الحضور بهجة. وهو صرير قوي، لكنه ليس مزعجاً. بل إن هذا الصرير يبلغ غاية اللطف حين يحاول بعض الصبيان العفاريت أن يصفّر صفيراً قوياً، يفوق حقل الجداجد الصادحة هذه: فالصبيان والجداجد يبدون كمَن يحفّزون بعضهم على رفع العقيرة بالصفير. وإن كل مساء هنا هو على غاية الكمال الذي كانه النهار.

لو أن أحداً من ساكني الجنوب أوالمولودين فيه سمع خواطر حماستي هذه إزاء الموجودات؛ لظنّ أني طفل غرير. لكني كنتُ أعرف ذلك كله حين كنتُ أعاني، ويا للأسى، تحت سماء لدود، أما الآن؛ فإني أنعم بلذّة الإحساس بهذه السعادة، بوصفها استثناء، وهي سعادة، ينبغي لنا أن نتمكّن من التنعّم بها، بحكم طبيعتنا، وكحقّ من حقوق وجودنا.

ترينتو، الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، المساء

طفتُ في البلدة العتيقة تماماً رغم وجود منازل بهية، شُيّدت حديثاً. تحوي الكنيسة لوحة زيتية، تصوّر مجلساً محتشداً، ينصت إلى موعظة، يلقيها كبير قساوسة الجيزويت. أودّ حقاً أن أعرف ما يُلقيه كبير القساوسة هذا على مستمعيه. إن كنيسة هؤلاء الآباء جلية للعيان من أعمدة الرخام الحمراء التي تزدان بها واجهتها. أما باب الكنيسة؛ فتغطّيه ستارة ثقيلة، تصدّ الغبار. رفعتُ الستارة، ودخلتُ إلى الردهة المُفضية إلى المصلى. إن الكنيسة الفعلية مغلقة أصلاً بحاجز من القضبان المتصالبة، إلا أن بمقدور المرء أن يرى الكنيسة كلها من خلاله دون عناء. كانت هادئة وفارغة؛ إذ لم تعد تُستخدم للخدمة المقدّسة. وكان بابها الخارجي مفتوحاً؛ لأنه يتعيّن أن تكون كل الكنائس مفتوحة في ساعة صلاة المساء.

وبينما كنتُ واقفاً أتفرّج على معمار الكنيسة، الذي بدا لي شأن معمار كل الكنائس التي شيدت على يد طائفة الجيزويت، دخل رجل عجوز، وخلع بيريته السوداء على الفور.

كان رداءه الأسود البالي يشي بأنه قسّ مفقر. ركع قبالة حاجز القضبان المتصالبة، وراح يتلو صلاة قصيرة، ثمّ نهض من جديد. وأخذ يتمتم مع نفسه، وهو يستدير: "طيب، لقد طردوا الجيزويت، لكنْ؛ عليهم في الأقلّ أن يدفعوا لهم ثمن الكنيسة التي بنوها(*) أعلم تماماً الآلاف المؤلّفة التي أنفقوها على هذه الكنيسة، وعلى المدرسة الدينية." بعد الفراغ من هذا القول، انصرف، وانسدلت الستارة من ورائه.

رفعتُ الستارة ثانية، وانتظرتُ في هدوء. كان ما يزال يقف في أعلى الدرجات، وهو يتحدّث مع نفسه: "الإمبراطور لم يفعلها، إنما فعلها البابا."

---

*) معلوم أن كليمنت الرابع عشر قمع طائفة الجيزويت في العام ١٧٧٣.

والتفت صوب الشارع غير عارف بوجودي: "الإسبان أولاً، ثمّ نحن، بعد ذلك الفرنسيون. إن دم هابيل يصرخ على أخيه قابيل." نزل الدرجات، ومضى إلى الشارع، وهو يواصل الدمدمة. لعلّه رجل عجوز كان الجيزويت يقيمون أوده، ففقد عقله بعد المصاب الذي حلّ بالطائفة، وهو يأتي الآن كل اليوم إلى الكنيسة، ويجيل الطرف في قوقعتها الفارغة بحثاً عن ساكنيها السابقين، ويصلّي لأجلهم قليلاً، ويلعن أعداءهم.

ثمّة شابّ، استعلمتُ منه عن جوانب الإثارة في هذه البلدة، أطلعني على منزل يُدعى بـ"دار الشيطان"؛ إذ يقال إن الشيطان الميّال إلى الخراب، جمع أحجاره، وبناه في ليلة واحدة. ولم يُفلح هذا الإنسان طيّب السريرة في ملاحظة السمة البديعة في هذا المنزل. فهو البناء الوحيد الذي يتميّز بحسن الذوق ممّا رأيتُه في ترينتو، ولعلّ أحد الإيطاليين الطيّبين بناه في فترة سابقة.

تركتُ البلدة في الساعة الخامسة مساء. وتكرّر أداء الليلة الفائتة؛ إذ بدأت الجداجد صريرها الجماعي بعيد الغروب مباشرة. كان الطريق يمضي لمسافة ميل تقريباً بين جدران، أمكن لي أن أرى فوقها عرائش الكروم. هناك جدران أخرى ليست على ارتفاع كاف، وقد شيّدت من الحجارة وأشواك العليق، وغير ذلك، لمنع عابري السبيل من قطف عناقيد العنب. ويرشّ أصحاب الكروم العناقيد القريبة من الطريق بالحامض. إن ذلك يفسّر مذاق العنب، لكنه لا يُفسد النبيذ، فالأحماض تزول خلال التخمّر.

الحادي عشر من أيلول (سبتمبر)، المساء

ها أنذا في روفيرتو؛ حيث تتغيّر اللغة بغتة. في شمال هذه البلدة تتأرجح اللغة بين الألمانية والإيطالية. أما الآن؛ فلديّ - لأول مرّة - حوذي إيطالي المحتد بالكامل. لا يفقه صاحب النزل الألمانية، ويتعيّن عليّ أن

أضع مواهبي اللغوية موضع الاختبار. ما أسعد أن أرى، من الآن فصاعداً، أن اللغة التي طالما أحببتُ، قد أصبحت لغة الكلام الحيّ المشترك.

توربول، الثاني عشر من أيلول (سبتمبر)، العصر

لكم أتمنّى أن يكون أصدقائي معي، للحظة واحدة؛ كيما ينعموا بمتعة النظر إلى المشهد الشاخص أمامي.

كان بمقدوري أن أبلغ فيرونا الليلة، لكني لم أرغب في تفويت فرصة مشاهدة بحيرة جاردا، والمشاهد الطبيعية الخلابة التي تحفّ شواطئها، ولقد جازتني الطبيعة خير مجازاة على هذا الخروج عن الطريق. بعد الخامسة مساء، انطلقتُ من روفيرتو؛ لنرتقي جنبات واد جانبي، يضخّ مياهه إلى نهر آديج. يعلو هامة الوادي جرف صخري عملاق، ينبغي للمرء أن يعبره قبل أن ينحدر نزولاً إلى البحيرة. رأيتُ بعض شظايا جيرية، تصلح لأن تكون مواضيع مناسبة لدراسات في الرسم الزيتي. يبلغ المرء في آخر المسار النازل قرية صغيرة ذات ميناء صغير، أو بالأحرى دكّة رسو عند الطرف الشمالي من البحيرة. تُدعى القرية توربول. ولقد شاهدتُ في أثناء ارتقاء الجرف الصخري أشجار تين، تحفّ الطريق، أما حين نزلنا المنحدر المنبسط الذي تحفّه الصخور؛ فقد وقعت عيناي على أولى أشجار الزيتون في حياتي، وهي مثقلة بحبات الزيتون. كما رأيتُ ضرباً من التين البري الأبيض الصغير، الذي وعدتْني به الكونتيسة لانثيري، والذي ينمو هنا على هواه.

ثمّة باب في الغرفة التي أجلس فيها، ينفتح على باحة في الأسفل. رصفتُ مائدتي في مقدمة الباحة، ورسمتُ تخطيطاً سريعاً للمنظر. وباستثناء الزاوية الواقعة عن يساري، يمكن لي أن أرى كامل امتداد البحيرة. يزدان الشاطئان بلألاء ما لا يعدّ من القرى الصغيرة، وتحفّهما التلال والجبال.

بعد منتصف الليل، تبدأ الريح بالهبوب من الشمال إلى الجنوب. وإن على مَن يرغب في التوجّه إلى البحيرة أن يفعل ذلك في هذه الساعة بالذات؛ لأن السويعات التي تسبق بزوغ الشمس تدفع تيار الهواء إلى الانقلاب في الاتجاه المعاكس. أما الآن بعد أن بلغنا سويعات العصر؛ فإن الريح تهبّ قوية في وجهي، حاملة لي الابتراد والانتعاش. ويفيدني فولكمان(*) أن هذه البحيرة كانت تُدعى بيناكوس، في سالف الأيام، ويورد بيتاً من أشعار فيرجيل، يأتي فيه على ذِكْرها. (باللاتينية في الأصل).

وهذا أول بيت شعر لاتيني، أرى موضوعه بأمّ عيني. واليوم إذ تزداد الريح هبوباً، ويتلاطم موج البحيرة عالياً؛ ليتكسّر على دكّة الرسو، أجد أن هذا البيت من القريض، يصدق على الحال مثلما كان صادقاً قبل قرون وقرون. لقد تغيّرت كثرة من الأحوال، لكن الريح تظلّ تحوم في أجواء البحيرة، وأن بيت فيرجيل خلّد نبلها حتّى يومنا هذا.

كتب على خط العرض ٤٥ درجة و٥٠ جزء

رحتُ أتنزّه مشياً على الأقدام في برودة المساء. ها أنذا حقاً في بلاد جديدة، بيئة غير مألوفة بالمرّة. يعيش الناس هنا حياة هَنية متبطّرة، أشبه بحياة أحمق في الجنّة. ابتداء، لا تحمل الأبواب أقفالاً، رغم أن أصحاب النزل يطمئنونني على سلامة متاعي حتّى لو كان كله معمولاً من الماس. ثمّ إن النوافذ تُغلق بورق زيتي بدل الزجاج. أخيراً ثمّة افتقاد إلى بيوت الخلاء الضرورية تماماً؛ بحيث إن المرء يُعاد إلى حالة الفطرة الطبيعية. وحين سألتُ أحد الخَدَم عن خلاء معيّن، أومأ بيده إلى الفناء، قائلاً: هنا أسفل السّلّم، يمكن أن أخدمكَ.

---

*) ي. ي. فولكمان هو مؤلّف كتاب: أخبار تاريخية ونقدية من إيطاليا. وهو الدليل الذي حمله غوته في رحلته. والبيت هو من أشعار فيرجيل الزراعية، المجلّد الثاني، الجزء الخامس، ص ١٥٩، ١٦٠.

وسألتُه: "أين؟"

فجاءني جوابه الودود: "في أيِّ مكان تشاء" (الحوار بالإيطالية في الأصل).

ويلاقي المرء - أينما حلّ - أقصى ضروب اللامبالاة، رغم أن المكان يعجّ بالحركة والضجيج. فنساء الجوار يتجاذبنَ الحديث، ويزعقنَ طوال النهار، لكنْ؛ لديهنّ، في الوقت ذاته، عمل ما ينبغي أن يؤدّينه أو شي ما يتعهّدنه بالرعاية. وإنني لأبحث عن مرأى امرأة متبطِّرة بلا عمل.

أعلن صاحب النزل ببلاغة إيطالية متأنّقة بحقّ أن من دواعي سعادته أن يقدّم لي أبدع طبق من سمك التروت. يصطاد السمّاكون التروت قرب توربول؛ حيث ينحدر جدول من أعالي الجبال، أما الأسماك؛ فتحاول الصعود أعلى التيار. ويحصل الإمبراطور على عشرة آلاف جولدن من رسوم حقوق صيد السمك. والتروت سمك كبير. يزن بعضه خمسون رطلاً. وهو منقّط من الرأس حتّى الذيل. إن هذا الصنف من السمك ليس التروت الحقيقي، لكن مذاقه لذيذ ورائع، شيء بين سمك السالمون وسمك التروت.

إن أبدع ما ألتذّ به هنا هو الثمار. إن التين والكمّثرى على أشهى ما يكون، ولا عجب في ذلك، فهذه الثمار تنضج في رقعة، تنبت فيها أشجار الليمون.

الثالث عشر من أيلول (سبتمبر)، المساء

انطلقتُ في الساعة الثالثة فجراً مع اثنين من المجذفين. في البدء، كانت الريح مؤاتية، فاستخدما الأشرعة. أما عند انبلاج الفجر؛ فقد خفّت الريح، وبان الصباح بديعاً رغم الغمام. مررنا ببلدة ليمون؛ حيث تزدان حدائقها المتدرّجة على سفوح التلال بأشجار الليمون، التي أسبغت عليها

مظهر الترتيب والترف. وتتألف كل حديقة من صفوف من دكّات بيضاء مربّعة الشكل، مرصوفة على مسافة متساوية من بعضها البعض، وهي ترتقي التل على شكل درجات. وتمتدّ قضبان متينة؛ لتربط هذه الدكّات، ولتحمي الأشجار المزروعة بينها من غائلة الشتاء.

إن التقدّم البطيء يميل إلى كفّة ملاحظة وتأمّل مثل هذه التفاصيل المبهجة. بعد أن اجتزنا مالسيساين، انعطف هبوب الريح، وانقلب شمالاً، كما هو حاله خلال النهارات. كان التجذيف بإزاء قوّة هذه الريح الجبّارة لا طائل من ورائه، فاضطررنا إلى الرسو في ميناء مالسيساين، وهي أول بلدة من البندقية تقع على الشاطئ الشرقي من البحيرة. حين يتعامل المرء مع واقع الأمور، فلا فائدة تُرتجى في القول: "اليوم سأبلغ هذا الموضع أو ذاك." لسوف أعمل على الإفادة القصوى من هذا التوقّف، قدر الإمكان، وبخاصة في رسم تخطيط للقلعة، وهي مبنى بديع، يقع على الشاطئ. أعددتُ تخطيطاً أولياً للقلعة في أثناء مرورنا هذا الصباح.

الرابع عشر من أيلول (سبتمبر)

إن الريح المعاكسة التي ساقتني بالأمس إلى ميناء مالسيساين، زجّتني في مغامرة خطرة، خرجتُ منها - بفضل الاحتفاظ برباطة الجأش - ظافراً، ولكنها تبدو الآن طريفة حين أستعيدها في الذاكرة.

خرجتُ - تبعاً لما عزمتُ عليه سلفاً - لأمضي مشياً على الأقدام إلى القلعة القديمة، المباحة لكل راغب، فهي بلا بوّابات، ولا أقفال، ولا خفراء. جلستُ في الفناء قبالة البرج القديم المشاد فوق صخرة، بصورة متداخلة مع هذه الصخرة عينها. وجدتُ موضعاً مثالياً للشروع في الرسم عند الدرجة الثالثة أو الرابعة من مدرج حجري، ينتهي إلى باب موصد. ثمّة في إطار هذا الباب مقعد صغير منحوت من الحجر، من ذلك الضرب الذي يصادفه المرء في المباني القديمة في بلادنا.

لم يمض عليّ وأنا جالس للرسم طويلاً حين جاء عدّة أشخاص إلى الباحة، ورمقوني بنظرات متفحّصة، ثمّ راحوا يمشون جيئة وذهاباً. لقد اجتمع حشد حقاً. بغتة توقّفوا، ووجدتني مطوّقاً. أدركتُ أن رسمي قد ولد إثارة، لكني لم آبه لذلك، وتابعتُ الرسم في هدوء. أخيراً اندفع رجل رزيل المظهر نحوي بجسده، واقترب مني اقتراباً كبيراً، وسألني عمّا أفعل. أجبتُ أنني أرسم البرج القديم حتّى أحتفظ بتذكار عن بلدة مالسيساين. قال إن هذا ممنوع، وإن عليّ أن أكفّ في الحال. ولمّا كان الرجل يلهج بلكنة أهل البندقية التي يصعب عليّ فَهْمها، أجبتُ أنني لا أفقه ما يقول. عند هذه اللحظة، مزّق صفحة الرسم بلا مبالاة إيطالية مميّزة، وتركها على لوحة النضد. حين وقع ذلك، لاحظتُ أن بعض الواقفين أبدى علائم السخط، وبخاصة رجل عجوز قال إن هذا لا يجوز. واوضح أن عليهم استدعاء العمدة(*) فهو خير حكم في مثل هذه الأمور.

وقفتُ على الدرجة العليا، وظهري إلى الباب مواجهاً الحشد، الذي ظل يتّسع. وإن نظرات التحديق المتلهّفة والتعابير السمحة على وجوه معظم الواقفين، وغير ذلك من سمات حشد من الأغراب، أمدّني بشعور جارف من الطرافة. وتخيّلتُ أنني أرى أمامي جوقة من مسرحية "الطير"، تلك الجوقة التي سخرتُ منها أيما سخرية، بوصفي "الصديق الحقّ"، على خشبة مسرح إيترزبرج. وحين جاء العمدة مع موظّف المالية، كنتُ في ذروة الجذل، فحيّيتُه دون تحفّظ. ولمّا سألني عن سبب رسمي لقلعتهم، قلتُ في تواضع إنني لم أكن أعلم أن هذه الأطلال هي قلعة، وأشرتُ إلى الحالة الخربة للبرج والأسوار، وغياب البوّابات، وباختصار إلى انفتاح هذا المكان كله دون صادّ أو واق، وأكّدتُ له أنني ما خطر لي قطّ أنني أرسم شيئاً سوى الأطلال. أجاب: إن كانت هذه القلعة مجرّد أطلال خربة، فما

---

*) podesta، بالإيطالية في الأصل.

قيمة رسمها إذنْ؟ رحتُ أسهب في عرض فكرتي بتفاصيل متشعّبة كسباً للوقت، وطمعاً في استمالته. قلتُ له إنهم يعرفون - ولا ريب - أن كثرة من الرحّالة العظام قصدوا إيطاليا لمشاهدة أطلال روما، وإن روما حاضرة الدنيا دُمِّرت على يد البرابرة، وأنها حافلة بالخرائب التي يرسمها الناس مئات المرّات، وإن أطلال الماضي الغابر لم تُحفظ كلها على غرار مدارج فيرونا، التي آمل أن أراها قريباً.

كان العمدة يقف قبالتي على درجة أدنى: رجل طويل القامة، رغم أنه ليس نحيلاً بأي حال، يبلغ الثلاثين من العمر تقريباً. إن القسمات المتبلّدة لوجهه الغبي تتّفق تمام الاتفاق مع النبرة البطيئة البلهاء التي يطرح بها أسئلته. أما موظّف المالية، وهو أضأل حجماً وأكبر فطنة، فقد بقي حائراً، لا يعرف كيف يتصرّف في هذه الحالة الجديدة غير المألوفة. طفقتُ أتحدّث عن هذا الأمر أو ذاك.

ويبدو أن الجمهور استطاب الإصغاء، وحين وجّهتُ كلماتي إلى بعض النساء ذوات الوجوه السمحة العطوف، رأيتُ أنني بدأتُ أقرأ على سيمائهنّ علائم القبول والرضى.

ولكني حين أتيتُ على ذِكْر مدارج فيرونا، التي تُعرف هنا باسم "الحلبة"، هدر خبير الإحصاء، الذي كان يستجمع قوى عقله في تلك الأثناء؛ ليقول: لعلّ ذلك مناسب تماماً في حالة نصب روماني ذي شهرة عالية، لكن هذه الأبراج لا قيمة لها قطّ سوى أنها علامة تُثبت الحدود الفاصلة بين جمهورية البندقية وإمبراطورية النمسا، ولهذا السبب لا يجوز التجسّس عليها. تفاديتُ طعنات هذا القول بأن أوضحتُ في استفاضة أن مباني القرون الوسطى ليست أقل شأناً ولا أقل جدارة بالاتباه من صروح أزمنة الإغريق والرومان، رغم أنني لا أتوقّع منهم أن يقدّروا معالم

الجمال، مثلما أقدّرها أنا، في هذه المباني بسبب اعتيادهم عليها منذ الصغر. من محاسن الصدف، أن شمس الصباح غمرت البرج والصخور والأسوار بشعاع رقيق لطيف، فمضيتُ في وصف جمال المشهد بحماسة بالغة. ولمّا كان جمهوري يقف وظهور أفراده إلى الشمس، ولا يرغب أحد فيه أن يشتّ انتباهه عني، فقد أخذوا جميعاً يديرون رؤوسهم إلى الوراء، مثل الطائر اللوّاء الذي يلوي عنقه في غرابة؛ لكيما يروا بأعينهم ما كنتُ أشنّف أسماعهم به. حتّى العمدة استدار، وإن يكن في مهابة أكبر؛ بدا الجمع أحمق، بل على درجة من الحمق، أثارت جذلي الصاخب، فلم أوفّر عليهم ما يمكن إطراؤه، حتّى اللبلاب المتسلّق الذي يكسي الصخور والأسوار منذ قرون عدّة.

عاد موظّف المالية إلى ذريعته: لا ضير في ذلك كله، لكن الإمبراطور جوزيف سيّد مثير للشغب، يضمر - بلا مراء - مخطّطات شريرة لجمهورية البندقية، وإنني قد أكون واحداً من رعاياه، ممّن أُرسلوا للتجسّس على الحدود.

هتفتُ بنبرة مجلجلة: "ما أبعدني عن أن أكون من رعايا الإمبراطور. بوسعي أن أفخر أنني، مثلكم، مواطن جمهورية، وهي وإن كانت لا تصمد في المقارنة مع جبروت وعظمة دولة البندقية العظمى، فإنها تنعم بحكم ذاتي، ولا تدانيها مدينة أخرى من مُدُن ألمانيا في نشاطها التجاري، وتراثها وحكمة مجلس مستشاريها، أقصد أنني ابن فرانكفورت على الماين، مدينة ذائعة الصيت والمكانة، ولابد أنكم سمعتُم بها."

هتفت شابّة حلوة المحيّا "من فرانكفورت على الماين. والآن يمكن لكَ، أيها السيد العمدة، أن تعرف في الحال أيّ ضرب من الناس هو هذا الغريب. أنا متيقّنة من أنه رجل شريف. نادوا جيورجيو. فقد خَدَمَ هناك لفترة طويلة. وهو خير رجل مُؤهّل لتبيان جلية الأمر كله."

ازداد عدد الوجوه العطوفة من حولي، أما مثير المتاعب الأصلي؛ فقد توارى عن الأنظار، وحين وصل جيورجيو، كان المدّ قد انقلب إلى صالحي. كان جيورجيو رجلاً في العقد الخامس من العمر، ذا وجه مألوف من الوجوه الإيطالية الضاربة إلى لون الزيتون. كان يتحدّث ويتصرّف كإنسان، لا شيء غريب عليه في هذه الدنيا قط. أخبرني في الحال أنه كان في خدمة بولونجارو، وأنه سيكون سعيداً لسماع أخبار هذه الأسرة وأخبار المدينة التي يتذكّرها في سرور بالغ. ولحسن الحظ أنه مكث هناك أيام شبابي، فكان لهذه المصادفة فائدة مضاعفة في أن أقدر على أن أحكي له، بالضبط، ما وقع في أيامه، وأن أقص عليه ما جرى من تغيّرات بعد تلك الأيام. كنتُ على معرفة بسائر العوائل الإيطالية، لذا؛ أمكن لي أن أسرد عليه أخبارها جميعاً، فأصابه سرور من الوقائع الكثيرة التي سمعها، ومنها، أن السنيور أليسينا، مثلاً، احتفل بالعيد الذهبي لقرانه عام ١٧٧٤، وأنه ضرب ميدالية بالمناسبة، عندي واحدة منها. وتذكّر الرجل أن اسم زوجة هذا التاجر الموسور، قبل القران، هو برنتانو. وأمكن لي أن أحكي له كثرة من التفاصيل عن الأطفال والأحفاد، كيف كبروا، وكيف عاشوا، وتزوّجوا، وأنجبوا بدورهم.

وبينما كنتُ أمدّه بأدقّ المعلومات عن كل ما أستطيع إيراده، كانت قسمات وجهه تتقلّب بين الفرح والجدّ في نوبات متعاقبة. لقد كان بالغ السعادة وبالغ التأثّر. نمت علائم الإثارة على قسمات المحتشدين، وباتوا يتلقّفون كل كلمة ونأمة من حوارنا، رغم أنه كان على جيورجيو أن يُترجم بعض العبارات إلى لهجتهم المحلية.

وفي الختام قال: "أيها السيد العمدة(*)، أنا على قناعة تامّة أن هذا الرجل سيّد شريف مثقّف، يرتحل ابتغاء توسيع معارفه. وينبغي أن نعامله معاملة الصديق، وأن نمنحه حُرّيّة التصرّف؛ كيما يذكرنا بالخير عند أبناء

*) بالإيطالية في الأصل.

وطنه، ويشجّعهم على القدوم إلى مالسيساين، التي يستحقّ موقعها البديع إعجاب الأجانب."

أضفتُ إلى كلمات الودّ هذه ما يقوّيها ويعزّزها بالثناء على البلدة، وريفها، وأهلها، دون أن أنسى - بالطبع - الإشادة بحصافة وحكمة السلطات فيها.

حظي قولي باستقبال حسن، وأُعطيتُ الإذن بأن أسرح نظري للتفرّج على كل ما أرغب وأريد في الجوار، في صحبة السيد جيورجيو. أما صاحب النزل الذي استأجرتُ غرفة عنده، فقد انضمّ إلينا الآن، واغتبط لفكرة أن يتوجّه الأجانب وحداناً وزرافات إلى نزله، ما إن يذيع خبر بلدة مالسيساين وما فيها من مواقع جديرة بالزيارة. وتفحّص صاحب النزل شتّى أغراضي ومتاعي بفضول شديد، وأبدى حسده البيّن على مسدّساتي الصغيرة، التي يمكن إيداعها بيُسر في جيب المعطف. وهو يعتقد أن الحظ حليف أولئك الناس الذين يُؤذَن لهم بحمل مثل هذه الأسلحة النارية الجميلة، فحملها ممنوع عليهم تحت طائلة عقوبات شديدة. وكنتُ أقاطع إلحاحه المتودّد، بين الفينة والفينة؛ لأعبر عن الامتنان لمَن حرّرني.

وأجاب صاحبنا النزيه "لا داعي لأن تشكرني، فلستَ مَديناً لي بشيء. لو كان العمدة يعرف مسؤولياته جيداً، ولو فكّر المحاسب في أمور تتعدّى مصالحه الذاتية، لما أفلتّ من إسارهم بسهولة. فالعمدة كان محرجاً حرجاً أكبر ممّا أصابكَ، والمحاسب لم يكن ليكسب قرشاً من القبض عليكَ، وكتابة تقرير رسمي عنكَ، وإرسالكَ مخفوراً إلى فيرونا. لقد أدرك ذلك بعد قليل، وكنتَ أصلاً طليق السراح قبل أن نختتم حوارنا."

قبيل المساء، جاءني هذا الرجل الطيب؛ ليصحبني إلى رؤية كرمة

أعنابه، التي تقع في موقع لطيف على شاطئ البحيرة. وقد صاحبنا ابنه اليافع، البالغ خمسة عشر عاماً، الذي تسلّق الأشجار، بأمر من ابيه؛ ليلتقط لي أشهى الثمار، أما الأب؛ فراح ينتقي لي الناضج من العناقيد.

وجدتني وحيداً صحبة هذين الكائنين البسيطين العطوفين، في تلك العزلة المكينة في هذه الزاوية الصغيرة من العالم، فخطر لي، وأنا اتأمّل مغامرة الصباح، أن الإنسان مخلوق غريب، فمن أجل أن يتمتّع بشيء، يستطيع التمتّع به بسلام وسكينة وصحبة ممتعة، تجده يوقع نفسه في شرك المتاعب والأخطار، بسبب رغبة حمقاء في تملّك المعالم، وتملّك كل ما تحتويه بأسلوب غريب خاص به وحده.

قبيل حلول منتصف الليل، صحبني مالك النزل إلى القارب حاملاً سلّة صغيرة من الفاكهة التي أعطانيها جيورجيو على سبيل الهدية. هبّت ريح مؤاتية، فتركتُ الشاطئ الذي كان يهدّدني بأن يغدو ساحل اللاعودة.

والآن عن رحلتي في أمواه البحيرة. تكلّلت هذه الرحلة بالنجاح، بعد أن انتعشت روحي ببهاء صفحة المياه المتلألئة كالمرآة، وجمال شاطئ بريسكيا. وعلى طول الشاطئ الغربي؛ حيث لم تعد الجبال شديدة الانحدار، وحيث الأرض تتموّج في لطف ولين نحو البحيرة، شمخت بلدات جارجنانو، وبوجلياكو، وسيسينا، وتوسكولانو، وموديرنو، وجاردوني، وسالو، على شكل صفّ واحد طويل، لمسافة ساعة ونصف من الإبحار. ما من كلمات تكفي لوصف سحر هذا الريف المأهول بمثل هذه الكثافة. رسونا في باردولينو عند الساعة العاشرة صباحاً، وحملتُ متاعي على بغل، وامتطيتُ أنا بغلاً آخر. امتدّ الطريق عبر كثيب صخري، يفصل حوض البحيرة عن وادي نهر آديج. ولعل المياه الأولية من كل الجانبين كانت تلتقي في هذا الموضع، هذا السدّ العظيم من الحصى. بعد ذلك مرّت حقب

أهدأ. أودعت التربة الخصبة؛ لتكسو سدّ الحصى، لكن الحرّاث يصطدمون دوماً بجلاميد، ما تني تنبجس في طريقهم. ويحاول هؤلاء التخلّص من أكبر قدر ممكن من هذا الحصى وهذه الصخور، بأن يركموها في صفوف من أكوام؛ بحيث إن الطريق مطوّق من الجانبين بجدارين متماسكين من ركام الحصى هذا. ولمّا كانت البقاع الواقعة على خط العرض هذا تفتقر إلى البَلَل الكافي، فإن أشجار التين زرية المظهر حقاً. ولا أثر لعين ماء قط. ويصادف المرء - أحياناً - بركاً تحوي ماء الأمطار المتراكم، وتعمد البغال والحوذيون أحياناً، إلى أن يَرووا ظمأهم منها. وتحفّ ضفّة النهر، في الأسفل نواعير، نُصبت لسقاية الحقول السفلى، عند الضرورة.

وإن بهاء المنظر الجديد الذي يطلّ على الناظر، حين يهبط أخّاذ بدرجة تفوق الوصف. وتمتد في الاتجاهات كلها مسافة أميال وأميال حدائق مستوية حسنة التنظيم محاطة بجبال شاهقة وكثيبات عالية. ووصلتُ فيرونا قبيل الساعة الواحدة من الرابع عشر من أيلول؛ حيث أكتب هذه السطور لإكمال الحصّة الثانية من سجلّ اليوميات. والآن يتوجّب أن أخيط الأوراق في رزمة. إنني أتوق إلى رؤية مدرجات فيرونا هذا المساء توقاً عظيماً.

أما بالنسبة إلى الطقس في هذه الفترة؛ فعندي الملاحظات التالية: كانت ليلة التاسع والعاشر من أيلول تتقلّب بين سماء صافية وسماء غائمة، وكانت ثمّة هالة دائمة تحيط بالقمر. وفي حدود الساعة الخامسة فجراً، ادلهمّت السماء بغيوم رمادية، لكنها غيوم خفيفة، سرعان ما تبدّدت خلال النهار. وكلّما أوغلتُ في النزول، ازداد القطس لطفاً، ولمّا بلغنا بولزانو، وتركنا كتل الهضاب والجبال الشاهقة وراءنا، تبدّل طابع الجو بالكامل. إن تباين تلاوين الزرقة يميّز خلفية مشهد عن خلفية مشهد آخر، وأتاح لي هذا أن أرى أن الجو مفعم ببخار الماء الموزّع باتساق، وأن بمقدور الهواء أن يمسك بهذا البخار، ويعلّقه في سكون، فلا هو يتكثّف قطرات

ندى أو مطر، ولا يتجمّع غماماً. ولمّا مضيتُ أبعد في النزول إلى السهول الواطئة، لاحظتُ بجلاء كيف تتصاعد أبخرة الماء من وادي بولزانو، وكيف أن طبقة أفقية خفيضة من السحاب الرمادي تعلو هامات الجبال في الجنوب، وتندفع صعوداً إلى المناطق العليا في الشمال، من دون أن تحجبها عن الأنظار، بل تلفعها بغلالة مضبّبة. واستطعتُ أن أرى فوق الجبال القصية ما يسمّى انتفاخ الماء. إلى الجنوب من بولزانو، بقي الطقس بديعاً طوال الصيف، مع سقوط "ماء" خفيف (يسمّون نثيث المطر هنا: ماء)(*) سرعان ما تليه أشعّة الشمس. سقطت بضع قطرات بالأمس، بين الحين والآخر، لكن الشمس بقيت مشرقة طوال الوقت. لم يحظ أهل هذه الأنحاء بمثل هذه السنة الحميدة منذ دهور، وقد أينعت كل المحاصيل على أحسن وجه؛ أما الطقس السيئ؛ فقد أرسلوه إلينا.

سأذكر الصخور والمعادن ذِكْراً وجيزاً، نظراً لأن فيربر في كتابه "رحلة إلى إيطاليا" وهاكيت في مؤلّفه "عبر الألب"، سبق أن عالجا هذا الموضوع معالجة كافية.

مررتُ بموقع لاحتفار المرمر قرب كولما، عند الفجر، بعد ربع ساعة من عبور مضيق بيرنر. لا ريب في أن هذا المرمر يرتكز إلى نفس النوع من الصخر المفلوق الذي شاهدتُه على الجانب الآخر من المضيق. ولمّا نزلنا إلى أبعد من ذلك، رأيتُ نثاراً، يدلّ على وجود رخام أحمر. لقد كانت الأكمات تبلغ من الروعة وأكوام الصخور المنثورة على الطريق صغيرة ومناسبة إلى درجة كبيرة؛ بحيث إنني كنتُ سأجمع لنفسي متحفاً معدنياً صغيراً، يشبه متحف فويجت، لولا أني لم أكن على هذا القدر من الجشع، ولولا أني كنتُ راغباً في أن أقتصر على أخذ عيّنات صغيرة ليس إلا. ووجدتُ بُعيد مغادرة كولما نوعاً من الرخام الأحمر الذي ينشطر إلى ألواح أفقية

(*) Acqua. بالإيطالية في الأصل.

مستوية، أما في منطقة تقع بين برونزولو وإيجنا؛ فقد وجدتُ ضرباً آخر من الرخام الأحمر ينفلق إلى ألواح عمودية. ويرى فيربر أن أصل هذا الرخام بركاني، لكن ذلك كان قبل أربعة عشر عاماً، يوم كانت حمم البراكين في أوج قذفها(*). وإن هاكيت نفسه يسخر من هذا الافتراض النظري.

ليس عندي سوى النزر اليسير ممّا أقول عن السكان، وهو سيئ. بعد عبور برينر، لاحظتُ، بعد سطوع النهار، أن ثمّة تغيّراً جلياً في المظهر الجسدي للناس. وأعتقد أن شحوب بشرات النساء قبيح بخاصة. فقسمات النساء تشي بالبؤس، أما أطفالهنّ؛ فلا يقلّون بؤساً في منظرهم. لعل مظهر الرجال أحسن قليلاً. أما بنيانهم الجسدي؛ فمتناسق وسليم. وأظن أن اعتلال حالهم يرجع إلى اغتذائهم الدائم على الذرة والحنطة السوداء، أو كما يسمّونها العصيدة الصفراء والعصيدة السوداء.

تُطحن حبوب الذرة والحنطة السوداء طحناً دقيقاً، ويُغلى الطحين في الماء حتّى يتماسك قوامه ويثخن؛ ليؤكل من بعد ذلك. أما في تيرول الألمانية؛ فإنهم يعجنون الطحين، ويقطعون العجين قطعاً صغيرة، يقلونها بالزبدة، أما في تيرول الإيطالية؛ فإن العصيدة تؤكل كما هي، أو يُضاف لها مبروش الجبن. ولا يذوق هؤلاء اللحم إلا مرّة في السنة. إن مثل هذه الوجبة الفقيرة تصيب الأمعاء بالإمساك، وبخاصة عند الأطفال والنساء، وإن وجوههم المصابة بالدنف تشي بالضرر الذي أنزلوه بأنفسهم. كما أنهم يتناولون الثمار، واللوبياء التي يسلقونها، ويضيفون إليها الثوم وزيت الزيتون. وتساءلتُ إن لم يكن ثمّة فلاحين ميسوري الحال، فقيل لي: "هناك بالطبع فلاحون ميسورون".

---

*) هذه إشارة إلى الخلاف حول تكوين تضاريس قشرة الأرض بين مدرسة البركانيين، التي ترى أن نشاط البراكين هو العامل الأرأس في هذا التكوين، ومدرسة البَحْريين التي ترى أن تشكيلات الصخور هي مقذوفات من المحيطات. وكان جوتيه من أنصار البَحْريين.

"ألا يُطعمون أنفسهم طعاماً أفضل؟"

"كلا، فهذا هو طعامهم المعتاد."

"ولكنْ؛ ماذا يفعلون بالمال الذي يجنونه؟ علام ينفقونه؟"

"آه، هناك سادتهم، أرباب الأرض، الذين يأخذونه منهم ثانية." تلك هي خلاصة المحادثة التي أجريتُها في بولزانو مع ابنة صاحب النزل.

وسمعتُ منها أيضاً عن أصحاب الكروم منتجي الأنبذة. رغم أنهم في الظاهر أحسن حالاً، الا أن وضعهم في الواقع أتعس. فهم واقعون كُلّيّاً تحت رحمة التجّار، الذين يقرضونهم المال في السنوات العجاف، حتّى يقيموا أودهم، ويشترون منهم النبيذ بثمن بخس، في السنوات الحسنة. ولكن الحياة تجري على هذه الشاكلة في كل مكان.

إن نظريتي عن أثر الطعام الذي يتناولون تجد ما يؤكّدها في حقيقة أن النساء في المُدُن يبدينَ في عافية أكبر. ولقد رأيتُ وجوهاً حلوة متورّدة، وأجساداً أقصر قليلاً من أن تناسب وزنهنّ ورؤوسهنّ الكبيرة. وصادفتُ بين الحين والآخر بعضاً ممّن يبدون ودودين وطيّبي السريرة حقاً. أولئك الرجال الذين نعرفهم من أهالي تيرول المترحّلين. فهؤلاء يبدون أقل عافية من النساء، حين يكونون في أرضهم، ولعل مَردّ ذلك أن النساء يزاولنَ أعمالاً بدنية أكثر، ويتحرّكنَ بوتيرة أكبر، في حين يهجع الرجال في أعمال ساكنة، في دكان بيع، أو حرفة. وكان البشر الذين صادفتُهم جوار بحيرة جاردا ذوي بشرات أشدّ دكنة، من دون أثر لتورّد في خدودهم؛ مع ذلك، كانوا يبدون مرحين، وبعيدين عن اعتلال الصحّة بالمرّة. ولعل دكنة البشرة عندهم تعود إلى تعرّضهم المتصل لأشعّة الشمس، التي تسلخ سفوح جبالهم بضراوة.

من فيرونا إلى البندقية

فيرونا، السادس عشر من أيلول (سبتمبر)

إن المدرج هو أول نصب عظيم من أنصاب العالم القديم تقع عليه عيناي. وياله من مدرج يحتفظ بمعالمه! حين دخلتُه، ثمّ حين جبتُ في أرجائه وصولاً إلى حافته العليا، غمرني شعور خاص بأنني أنظر في فراغ، رغم عظمة المدرج. فما ينبغي لهذا المدرج أن يُرى فارغاً، بل أن يكون ضاجّاً بالبشر، كما كان حاله في الآونة الأخيرة في مناسبة تكريم جوزيف الأول والبابا بايوس السادس. ويقال إن الإمبراطور الذي اعتاد استقبال الحشود، ذُهل للأمر. ولكنْ؛ ما كان للمدرج أن يترك الأثر العميق التام إلا في العصور الغابرة، يوم كان الشعب شعباً بحقّ، أكثر ممّا هو عليه الحال في يومنا هذا. فمثل هذا المدرج قد صُمّم، في الأساس؛ لكي يثير عجب الناس، وأن يزرع فيهم الشعور بالهناء.

وحين يقع ما يستأهل المشاهدة على مستوى القاع، ويشرأبّ كل فرد في الجمع لكي يطل على المشهد، فإن الجالسين في المؤخّرة يلتمسون شتّى السبل؛ كيما يسدّدوا أنظارهم من فوق الجالسين في الصفوف الأمامية: فالبعض منهم يقف فوق المصاطب، والبعض يعتلي البراميل، والبعض يجلب عربات، ويضع عليها دكّة من الخشب بالعرض؛ لتقوم مقام صقالة للفرجة، والبعض يرتقي التلال المحيطة بالمدرج. وتجدهم يؤلّفون، على هذا النحو، نوعاً من حفرة بشرية في لمح البصر. أما إذا تكرّر عرض

المشهد في البقعة عينها؛ فإنهم يقيمون سرادقات مؤقّتة لمَن يستطيع دفع الثمن نقداً، أما الباقون؛ فيتدبرون أمر الفرجة على خير ما يستطيعون. إن مهمّة المهندس المعماري تكمن في أن يلبّي هذه الحاجة. ويبتدع بفنه المعماري حفرة متدرِّجة، سلسة قدر الإمكان، أما الجمهور؛ فيؤلّف زينة المكان. وحين يتحشّد أولاً في تراصف شديد، يذهلون من أنفسهم. فهم معتادون في غير هذه الأوقات على أن يروا بعضهم البعض غادين ورائحين هنا وهناك في ارتباك، ماضين في سبيلهم دون انتظام أو اتفاق. أما في المدرج؛ فإن هذا الوحش الهائل المتعثّر المتقلّب برؤوسه الغفيرة، وعقوله الكثيرة، يرى نفسه، بغتة، موحّداً في جماعة نبيلة، ملتحماً في كتلة، فهو جسد واحد، يضجّ بروح حية واحدة. ويشعر الجميع ببساطة هذا الشكل الإهليلجي، باعتباره ألطف الأشكال، وأكثرها راحة لعين الناظر، وإن كل رأس من الحشد يقوم مقام مقياس لضخامة نطاق المجموع. أما حين يخلو مبنى المدرج، من البشر؛ فلن تجد معياراً لقياس ضخامته، أو صغره.

ولا ريب أن الثناء واجب على أهالي فيرونا للطريقة التي حافظوا بها على هذا الصرح. إن المرمر البني الضارب للحمرة الذي شيّد منه المدرج يتأثّر بتقلّبات الطقس، فتراهم يواظبون على ترميم الدرجات التي أصابها التآكل، وإن سائر الدرجات تقريباً تبدو زاهية، جديدة. وهناك عبارة منقوشة على المرمر تمجّد ذكرى شخص معيّن، يُدعى هيرونيموس مورينيوس على ما كرّسه من جهده للحفاظ على هذا الصرح. ثمّة جزء صغير من السور الخارجي تُرك منتصباً في مكانه، ولا أظن أن بناءه قد أُكمل البتّة. وهناك قباب لصق ساحة كبيرة تُدعى "إيل برا"، تُؤجّر لبعض الفنانين، وإنه لمن دواعي سرور العين أن ترى هذه الكهوف ضاجّة بالحياة من جديد.

إن أجمل بوّابات المدينة باب يُدعى "بورتا ستوبا" أو "ديل باليو"، وهي

مغلقة بساتر من الآجرّ. ولا يبدو على الساتر، إن نظرنا إليه من بعيد، أنه قد صُمّم بمثابة بوّابة، ولا يمكن للمرء أن يتلمّس مكامن الجمال فيه حتّى يراه عن كثب. واعتقادي الشخصي أن فنان العمارة قصد بهذه البوّابة أن تكون مدخلا مستقيماً إلى موضع الشارع الرئيس (الكورسو)، ذلك أن تناسب البوّابة مع الشارع الحالي مختلّ تماماً؛ إذ لا يوجد على يسار المدخل سوى بعض الثكنات، أما الخطّ المتعامد مع وسط البوّابة؛ فيقود إلى دير راهبات، كان لابد من هدمه. ولعل ثمّة إدراك لهذه الضرورة؛ زد على هذا أن النبلاء والموسرين ما كانوا ليقبلوا فكرة بناء منازلهم في مثل هذا الحي البعيد عن مركز البلدة. ولعل الفنان المعماري مات قبل أن يُكمل مشروعه، فسُدّت البوّابة بساتر من الآجرّ، وطُوي المشروع إلى الأبد.

السادس عشر من أيلول (سبمتبر)

إن رواق مسرح فيلارمونيكو المزدان بأعمدة ستّة ضخام يبدو مثيراً للإعجاب. في حين أن التمثال النصفي للمركيز مافي، وهو تمثال بالحجم الطبيعي وضع في فسحة مدهونة فوق الباب مسنداً بعمودين من الطراز الكورنثي، ويصوّر الماركيز في باروكة ضخمة من الشعر المستعار، فيبدو سقيماً تافهاً بالمقارنة مع جلال الرواق. إن المبنى جليل بما فيه الكفاية، وحتّى يكون جديراً بعظمة الأعمدة، فلابد للتمثال النصفي من أن يكون ضخماً. أما في الوضع الحالي؛ فإن التمثال النصفي يرتكز على قاعدة صخرية صغيرة، دون أن ينسجم مع الكل.

كما أن الردهة التي تحيط بالمجاز المسقوف صغيرة جداً، بل أصغر ممّا ينبغي، وإن تماثيل الأقزام الصغار حاملي الفلوت تبدو ضئيلة قياساً إلى هذا الصرح الأيوني العملاق الأملس. ولكنْ؛ لابد للمرء من أن يغفر هذه المثالب إكراماً للمتحف البديع الذي أُنشئ تحت صفّ هذه الأعمدة. يقدّم المتحف معروضات آثارية كثيرة، احتفرت من فيرونا وجوارها، وهي

مرصوفة بعناية. وهناك أعمال إتروسكية وإغريقية ورومانية من غابر الأزمنة، كما أن هناك أعمالاً أخرى من فترات قريبة. وإن المنقوشات النحاسية الناتئة مرصوفة على الجدران، وهي تحمل الأرقام التي وضعها لها مافي حين وصفها في كتابه "فيرونا المصوّرة". وهناك مذابح كَنَسية، وشظايا أعمدة، وتحفيات قديمة مماثلة، إلى جانب حامل مرمري ثلاثي القوائم، تنهمك فيه الجنّيات بخصال الآلهة. ولقد سبق للفنان رافائيل أن استنسخ كائنات مماثلة استنساخاً، أحاطها بهالة من الجلال، ووضعها في الرسومات التي زيّنت الكوى في فارنسينا.

تعبق الريح التي تهبّ من قبور القدماء بعبير خاص، كما لو أنها مرّت بتل من الزهور. لكأن أنصاب المقابر مفعمة بالحياة والحركة ممثّلة لمشاهد من جري الحياة اليومية. ها هنا زوج وزوجة يطلان من زاوية، كما لو كانا يطلان من نافذة. وها هناك أب وأمّ وولد ينظرون إلى بعضهم البعض برقّة لا تُوصف. وها هنا عريسان متشابكا الأيدي، وها هناك أب يسترخي على أريكة، ويبدو متجاذباً الحديث مع أفراد أسرته. إن راهنية هذه المنحوتات مؤثّرة للغاية في نظري. ويرجع تاريخها إلى عهد قريب في الفن، لكنها تمتاز جميعاً بالبساطة والانسياب الطبيعي وقوّة التعبير. ولا يوجد بينها فارس في درعه الفولاذيّ، يجثو على ركبتيه انتظاراً للنشور السعيد. اكتفى الفنان، بدرجات شتّى من المهارة، في أن يمثّل الواقع البسيط للكائنات البشرية، مخلّداً وجودها، ومسبغاً عليها حياة سرمدية. فما من أحد بينها يطوي ذراعيه خشوعاً، أو يبتهل بأنظاره إلى السماء. فهم، أولئك الناس الذين ما يزالون على الأرض، واقفين جوار بعض، غارقين في الاهتمام ببعض، وفي حبّ بعضهم البعض. وإن هذه الأعمال لتعبّر تعبيراً ساحراً عن هذه العلائق كلها، رغم وجود قدر من الضعف في مهارة الصنعة. وثمّة عمود مزيّن من الرخام أمدّني بزاد للتفكير.

ورغم لطف هذا المتحف الجديد بالإعجاب، فمن الواضح أن الرغبة النبيلة في حفظ التراث التي ألهمت مؤسّسيه لم تعد في الوجود. فالحامل الثلاثي الثمين سيتحوّل في القريب إلى خراب؛ لأنه يقف في العراء مُعرَّضاً، من جانبه الأيمن، إلى عوامل الطقس المدمّرة. وإن بالوسع حفظ هذا الكنز، بمجرّد تزويده بغطاء خشبي.

لو كان بناء قصر بالازو ديل برفيديتوري قد اكتمل، لأصبح قطعة معمارية بديعة. مايزال النبلاء يقومون بقسط كبير من البناء، لكن الجميع، لسوء الحظ، إنما يبني في نطاق مقر إقامته القديم، وتقع مقرّات الإقامة هذه - في الغالب - في ممرّات صغيرة ضيّقة. ويجري الآن - على سبيل المثال - بناء واجهة بديعة لأحد معاهد اللاهوت، المطلّ على زقاق في إحدى الضواحي النائية.

وإذ كنتُ أمرّ قريباً من مدخل معتم لمبنى غريب المظهر، في صحبة أحد معارف الصدفة، سألني في طيبة قلب إن كنتُ أرغب في الدخول إلى باحة المبنى هنيهة. كان هذا المبنى - في الواقع - قصر بالازو ديلا راجيوني، ولمّا كان القصر شاهقاً، فإن باحته بدت، بسبب ذلك، بمثابة بئر هائل. وقال لي "هنا يُحتجز كل المجرمين والمشبوهين". وإذ أجلتُ الطرف فيما حولي رأيتُ ثمّة في كل طابق ممراً مفتوحاً مطوّقاً بقضبان حديد مشبك، تمرّ بالعديد من الأبواب. وكلّما اقتيد سجين من زنزانته إلى غرف التحقيق، حصل على نفحة من الهواء الطلق، وتعرض، في الآن ذاته، إلى أنظار الناس. ولمّا كانت غرف التحقيق لا تُعدّ ولا تُحصى، فإن ممرّات المبنى كانت تضجّ بقرقعة السلاسل، تارة في هذا الطابق، وأخرى في ذاك. يا له من وجود مفزع. ولابدّ لي من الاعتراف بأن المزاج الرائق الممراح الذي ألقت به مسرحية "الطير"، سيوضع على المحك القاسي، لو أنني كنتُ في هذا المكان.

عند المغيب، تجوّلتُ على طول حافة المدرج الشبيه بالحفرة، ممتعاً النظر بالأطلال على مشهد المدينة والريف المحيط. كنتُ وحدي بالتمام. أما جمهور المدينة؛ فهو في الأسفل، يطرق الأحجار الكبيرة التي ترصف إيل برا. رجال من شتّى المنابع، ونساء من الطبقة الوسطى. ورحتُ أنظر من علٍ، كالطير؛ لأرى النساء وهنّ في أرديتهنّ السوداء يلحنَ مثل المومياءات.

إن الزندال والفيستا اللذين يؤلّفان كامل خزانة ملابس المرأة في هذه الطبقة، هما في الواقع زيّ يلائم، بجلاء، أناساً لا يكترثون كثيراً بحسن الهندام، بل يودّون الخروج بين الناس في الأوقات كلها، تارة إلى الكنيسة، وتارة في نزهة. والفيستا هي - في الواقع - تنّورة سوداء من قماش التفتا، تُوضَع فوق التنّورة الأصلية. فإن كانت المرأة ترتدي تحتها فستاناً أبيض نظيفاً، فإنها تعرف كيف تكشف عن وجوده، بأن تزيح التنورة السوداء قليلاً إلى الجنب، في رشاقة. وتُثبّت التنّورة السوداء بحزام، يشدّ الخصر، ويغطّي طيّات الصدار، الذي قد يكون من هذا اللون أو ذاك. أما الزندال؛ فهو شال ذو قلنسوة، وله شراشيب هدبية طويلاً، ويسند القلنسوة، التي تعتمر بها الرؤوس، إطار من الأسلاك، أما الحواشي؛ فتربط حول الجسم مثل الوشاح، وتتدلى نهاياته على ظهر المرأة.

١٦ أيلول (سبتمبر)

صادفتُ اليوم - على مبعدة ألف خطوة من حلبة المدرج - مشهداً عاماً حديثاً. ثمّة أربعة نبلاء من فيرونا يلعبون نوعاً من لعبة كرة مع أربعة رجال من فيشنزا. إن الفيرونيين يمارسون هذه اللعبة مع بعضهم طوال العام مدّة ساعة أو ساعتين قبل حلول الظلام. أما في هذه المناسبة؛ فقد تجمّع حشد كبير نظراً لأن المباراة تجري مع فريق من الأغراب. ولعل الحشد الذي جاء لمشاهدة المباراة بلغ في الأقل أربعة إلى خمسة آلاف. ولم ألمح امرأة واحدة في الحشد، من أية طبقة كانت.

حين ذكرتُ آنفاً حاجات الجمهور في مثل هذه المناسبات، أشرتُ إلى نوع المدرج الذي يصطنعه الناس بصورة عفوية، عارضة، نظراً لأن الواقفين في المؤخّرة يحاولون النظر من فوق رؤوس المشاهدين في المقدّمة. وهذا ما رأيتُ نشوءه وابتداعه الآن. واستطعتُ، حتّى من مسافة بعيدة، أن أسمع التصفيق الحماسي المغتبط بنجاح أية ضربة. تدور اللعبة على النحو التالي: هناك لوحان من الخشب مائلان قليلاً، يُوضعان بعيداً عن بعضهما بمسافة مناسبة. أما المهاجم؛ فيقف فوق لوحه الخشبي حاملاً بيده اليمنى مضرباً خشبياً مدوّراً مرصّعاً بالمسامير. وحين يرمي أحد أفراد فريقه الكرة نحوه، يعدو لملاقاتها حتّى يزيد قوّة الضربة بالمضرب. أما الفريق الآخر؛ فيحاول ردّ الكرة بالمثل، فتظل الكرة تحلّق بين هذا الفريق وذاك، حتّى يخطئ أحدهم، فتسقط على الأرض. إن أوضاع وقوف وحركة اللاعبين خلال المباراة أخّاذة وجديرة بأن تُنقَش على المرمر، خصوصاً تلك الوقفة التي يتّخذها المهاجم حين يعدو انطلاقاً من لوح البداية، ويرفع ذراعه مسدّداً المضرب للكرة. لقد ذكّرني هذا المشهد بالمصارع الروماني في فيلا بورجيزه. لقد كان اللاعبون كلهم - تقريباً - شباباً أشدّاء مفتولي العضل، يرتدون ملابس بيضاء قصيرة لصيقة بأجسامهم. وكان كل فريق يتميّز عن الآخر بشارات مختلفة اللون. ويبدو من المفارقة الغريبة أن يمارسوا هذه اللعبة قرب سور المدينة القديم؛ حيث لا تتوفّر مستلزمات وقوف النظّارة. لمَ لا يخوضون المباراة في حلبة المدرج؛ حيث يتوفَر مجال مناسب؟!

١٧ أيلول (سبتمبر)

سوف أعلّق باقتضاب على سائر الصور التي رأيتُ. إن الغرض من قيامي بهذه الرحلة البديعة ليس لكي أضلّل نفسي، بل لكي أكتشفها في الأشياء التي أرى. ويجب أن أعترف بصدق أنني لا أفقه إلا القليل من

فنّ أو صنعة الرسّام، وينبغي أن أقصر ملاحظاتي على مواضيع اللوحات، والمعالجة التصويرية العامة للموضوع.

إن كنيسة سان جيورجيو أشبه بمعرض للفن. إن جميع الصور هي قطع لتزيين المذبح، وهي تتباين في براعتها إلا أنها جديرة بالمشاهدة جميعاً. ولكنْ؛ أية مواضيع كان على هؤلاء الفنانين تصويرها؟! ولأي طرف؟! مطر من المنّ بارتفاع ثلاثين قدماً، وبعرض عشرين قدماً، مع صورة مرافقة، هي معجزة الأرغفة الخمسة! ما الذي يستحقّ الرسم في هذا؟ ثمّة جياع ينقضّون على كِسَر وفتات من الخبز، وثمّة خبز يُقدَّم إلى ما لا عَدّ له من الأشخاص الآخرين. لقد استجمع الرسّامون عصارة أدمغتهم لكي يُضفوا على هذه الابتذالات مغزى راقياً. مع ذلك، فإن العبقرية التي حفزها الطلب على هذه الأعمال، أبدعت الكثير من اللوحات الآسرة. لقد واجه أحد الرسّامين معضلة تصوير القدّيسة أوسولا بصحبة عذراواتها البالغات أحد عشر ألفاً، فوجد لذلك حلاً ذكياً. تظهر القدّيسة واقفة في مقدمة اللوحة ناظرة كما لو أنها قد غزت البلاد. وتمتاز القدّيسة بمظهر عذراء الأمازون، فهي نبيلة الملامح، ولكنها تفتقر إلى الجمال الجاذب. أما جنودها العذراوات؛ فيظهرن في اللوحة، وهنّ ينزلنَ إلى الشاطئ من السفن، ويسرنَ في موكب منتظم، تتلاشى معالمه في منظور اللوحة. أما لوحة تيتيا الموسومة "صعود العذراء في الكاتدرائية"؛ فقد أصبحت قاتمة جداً. وإن المرء ليشعر بالامتنان؛ لأن الفنان رسم العذراء المقبلة على دخول المَلَكُوت، تشخص ببصرها إلى أصدقائها على الأرض، بدل أن ترفع بصرها إلى السماء.

ووجدتُ في متحف جيرارديني أعمالاً جميلة بريشة أوريتو. كانت تلك أول مرّة أسمع فيها باسمه. حين يعيش المرء في بلاد نائية، فإنه لا يسمع

إلا بأسماء كبار الفنانين في المجرّة، وغالباً ما يقنع بمجرّد معرفة الأسماء؛ أما حين يقترب المرء من عالم الفن؛ فإن لألاء نجوم الصفّ الثاني والثالث من حيث الحجم والمكانة، يتبدّى للناظر، حتّى تصل العين أخيراً إلى رؤية التشكيلة كلها. فالعالم أكبر، والفن أغنى وأرحب ممّا يظن المرء في افتراضه الأول. ثمّة لوحة لابدّ لي من إغداق الثناء الخاص عليها. تصوّر اللوحة كائنين بشريين تصويراً نصفياً. لقد هجع شمشون لتوّه؛ ليغرق في النوم في حضن دليلة، التي تمدّ يدها من فوق جسده؛ لتتناول مقصّاً موضوعاً على طاولة قرب فانوس. إن التنفيذ بالغ الرهافة. ولقد ذُهلتُ بلوحة داناي في قصر بالازو كانوسا.

ويحوي قصر بالازو بفيلاكوا الكثير من الكنوز. هناك لوحة تُدعى "الفردوس" بريشة تينتوريتو. الواقع أنها تصوّر تتويج مريم العذراء في حضرة سائر الأنبياء والرُسُل والقدّيسين والملائكة، والبطاركة، وما شاكل. لقد أعطت اللوحة لعبقرية تينتوريتو المغتبطة الفرصة السانحة لتجلي ثرائها. وإن تقدير عمق رؤية هذا الفنان، وبراعة ريشته، وتنوّع وسائله في التعبير، إنما يتطلّب أن يملك المرء هذه اللوحة، وأن يضعها نصب عينيه على امتداد كامل عمره. إن تكنيك اللوحة خال من أية مثلبة. فحتّى وجوه أنأى الملائكة، التي تتلاشى في غيوم المجد، ذات ملامح فردية خاصة. وإن أكبر الشخوص لا يزيد ارتفاعه عن قدم؛ أما صورة مريم العذراء، والمسيح الذي يضع تاج المَلَكُوت على رأسها؛ فلا يزيد حجمها عن أربع بوصات. ولعل أبدع المخلوقات في هذه اللوحة، من دون ريب، هي حواء - التي ماتزال، كما كانت في القديم، مثيرة حسّيّاً.

ثمّة بورتريهات قليلة بريشة بول الفيروني زادت احترامي لهذا الفنان. إن مجموعة التحفيات بديعة، وبخاصة ابن نيوبي المسجّى في رقدة الموت.

إن أغلب البورتريهات نصفية، وتشمل صورة لأوغسطوس اللابس تاجاً مَدَنياً، وأخرى لكاليجولا، وهما عملان مثيران للانتباه والإعجاب رغم ترميم الأنفين فيهما. إنني أميل بطبعي إلى تقدير الحسن والجمال، وعليه فإن القدرة على أن أغرف منه يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة بحضرة مثل هذه الأشياء السامية تشيع فيّ شعوراً غامراً بالسعادة.

إن البلاد التي يتمتّع فيها الجميع بطلوع النهار، ويستمد بهجة أكبر من السماء، تضفي على الغروب أهمّيّة خاصة. فالأعمال كلها تتوقّف، والسائرون في الدروب يؤوبون إلى بيوتهم، ويحرص الآباء على رؤية بناتهم في البيت. فالنهار قد انقضى. أما نحن السيميريون، أي شعب الظلام؛ فقلّما نعرف المعنى الحقّ للنهار. فسماواتنا ملفعة بضباب دائم وملبّدة بغيوم أبدية، فلا نعود وبعدئذ نكترث إن كان ثمّة نهار أو ليل، ما دمنا لا نتوفّر إلا على النزر اليسير من الوقت للتنزّه مشياً، والتمتّع بالخروج في الهواء الطلق. أما هنا، حين يجن الليل؛ فإن اليوم المؤلّف من صباح ومساء، ينتهي فعلاً، ينصرم في أربعة وعشرين ساعة، ليبدأ الزمن بعدها من جديد. وتُقرع الأجراس، وتكرّ المسبحة بالدعاء، وتدخل الوصيفة إلى الغرفة حاملة نوّاسة مضاءة؛ لتقول: "عمتُم مساء!" (بالإيطالية). إن أمد هذه الفترة يتباين بتباين الفصول، والناس الذين يعيشون هنا يضجّون بقدر كبير من الحيوية؛ بحيث إن التباين لا يربكهم، نظراً لأن ملذّات وجودهم تتصل، لا بالساعة المحددة، بل بالفترة المحددة من اليوم. ولو فرضنا عليهم مواقيت الساعة الألمانية بالدقة، لاضطربت أمورهم؛ لأن منهجهم في قياس الوقت يرتبط وثيق الارتباط بطباعهم. فقبل ساعة أو ساعة ونصف من مغيب الشمس، ينطلق النبلاء في عرباتهم، فيمضون أول الأمر إلى منطقة برا، ثمّ يقطعون الشارع العريض وصولاً إلى بورتا نوفا، ويعبرون البوّابة؛ ليلتفّوا حول سور المدينة. وما إن يأزف أوان الليل حتّى يعود الجميع؛ ويتوجّه البعض منهم

إلى الكنائس لتلاوة الابتهالات؛ كما يتوقّف آخرون في برا؛ حيث يقترب الفرسان من العربات؛ ليتجاذبوا أطراف الحديث مع السيدات. ويستمرّ ذلك لفترة غير قصيرة. ولقد أمطرت السماء مطراً كافياً لإخماد الغبار. فكان المنظر حيوياً ساراً.

وابتغاء التكيّف مع أهم عادات أهل هذه البلاد، ابتكرتُ لنفسي طريقة، تُسهّل عليّ تعلّم نظامهم في حساب الساعات. وإن المخطّط المرفق يقدّم لكم فكرة عن هذا النظام. إن الدائرة الداخلية تسجّل ساعات اليوم الأربع والعشرين، من منتصف الليل حتّى منتصف الليل، مقسّمة إلى فترتين، تتألف الواحدة من اثنتي عشرة ساعة، مثلما نحسبها نحن، ومثلما تسجّلها ساعاتنا. أما الدائرة الوسطى؛ فتبيّن كيف تُدقّ الأجراس هنا في هذا الوقت من العام، وهم يدقّون اثنتي عشر دقّة مرّتين خلال أربع وعشرين ساعة، ولكنْ؛ حين تدقّ ساعاتنا الثامنة، فإنهم يدقّون الواحدة، وهكذا حتّى اكتمال دورة الاثنتي عشرة ساعة. أما الدائرة الخارجية؛ فتبيّن كيف يحسبون الأربع وعشرين ساعة. فحين تدقّ الساعة السابعة، في الليل، وكنتُ أعرف أن منتصف الليل يحلّ في الخامسة، مثلاً، فإنني أطرح خمسة من سبعة؛ لأصل إلى النتيجة، وهي أن الساعة هي الثانية فجراً.

أما إذا سمعتُ دقّات السابعة في النهار، وكنتُ أعرف أن الظهر يحلّ في الخامسة؛ فإنني أقوم بعملية الطرح نفسها، والجواب أن الساعة هي الثانية بعد الظهر. أما إذا عنّ لي أن أشير إلى هذه الساعات وفقاً للاستخدام المحلي، فإن عليّ أن أتذكّر أن الظهر يُدعى الساعة السابعة عشر؛ وعندئذ يتوجّب أن أضيف هذا المقدار (سبعة عشر) إلى اثنين، فتكون الساعة هي التاسعة عشر. حين يتعلّم المرء هذه الطريقة أول مرّة، ويبدأ بالحساب وفقاً لها، فإنها تبدو له أصعب وأعقد من أن تصلح

للممارسة. ولكنْ؛ ما إن يعتاد المرء على ذلك، ويستمدّ ضروب التسلية من الحسابات على غرار ما يفعل السكان المحلّيّون، الذين يجدون ضروب المسرّة في هذا الحساب، وإعادة الحساب بلا انقطاع، مثل الأطفال الذين يتمتّعون بالصعوبات الحسابية سهلة الحلّ. ولمّا كانت أصابعهم تتحرّك دوماً، فإنهم يقومون بالعَدّ في مخيّلتهم، ويذهلون للأرقام.

زد على هذا، أن عملية العَدّ بأكملها أسهل عليهم بما لا يُقاس؛ لأنهم لا يُبدون أدنى اهتمام بمنتصف النهار، أو منتصف الليل، ولا يقارنون، كما نفعل، عقارب الساعة. فهم يكتفون، ببساطة، بعَدّ ساعات الليل حين تدقّ، أما خلال النهار؛ فإنهم يضيفون هذا الرَّقْم إلى الرَّقْم المتغيّر، الذي يمثّل الظهيرة، والذي يعرفونه تماماً. أما بقية التفاصيل؛ فموضّحة في الجدول المرافق للمخطّط الوارد على الصفحات التالية.

تجد الناس هنا غارقين في المشاغل، ماضين إليها دوماً، بل إن بعض الشوارع؛ حيث الدكاكين والمشاغل الحرفية المحتشدة مع بعضها، تبدو ضاجّة بالمرح. ليس لهذه الدكاكين واجهات أمامية مغلقة، فهي مفتوحة على الشارع، ويمكن للمرء أن ينظر ويرى ما بداخلها، ويراقب العمل الجاري . الخيّاطون يخيطون، والحذّاؤن يتمّطون ويُسمّرون بالمطرقة، وهم يعملون، ونصف أجسادهم في الشارع. أما في الليل حين تبدأ الفوانيس بالاحتراق والإنارة؛ فإن المشهد أخّاذ.

وتضجّ الساحات، أيام السوق، بأكداس عالية من الثوم والبصل، وكل ضروب الخضار والثمار. وتجد الناس ينادون، ويصخبون، ويقذفون الأشياء، ويتشاجرون، ويقهقهون، ويغنون طوال النهار. إن لطف المناخ ورخص الطعام تجعل الحياة ميسورة للجميع. بل إن الغناء والموسيقى

يصدحان بقوّة أكبر آناء الليل. ويمكن للمرء أن يسمع أنشودة مارلبوروه(*) في كل شارع، مصحوبة هنا وهناك بعزف آلة القانون أو الكمان. وتجدهم يصفّرون، ويحاكون كل ضروب أصوات الطير؛ بل تتناهى إلى المرء أشدّ الأصوات غرابة. وفي وفرة ومرح حياة هؤلاء، يجد المرء أن ظل الأمة هذا جدير بالاحترام.

وإن قذارة بيوتهم وافتقارها إلى الخلاء، وهو ما يصدمنا صدمة كبيرة، ينبعان من المنبع نفسه؛ فهم دوماً في الهواء الطلق، خارج البيوت، وكل واحد فيهم خليّ البال، ولا يكترث بشيء. وإن الطبقات الاجتماعية الدنيا تتقبّل المقسوم بطيبة خاطر، بل إن الطبقات الوسطى تعيش هي الأخرى على اغتنام حظوظ السعادة كما تأتي، وأما الموسرون والنبلاء؛ فيحشرون أنفسهم في بيوتهم، ويوصدون الأبواب، رغم أن البيوت لا تتوفّر على كل أسباب الراحة، كما في بيوت الشمال. وتراهم يقيمون الحفلات في المباني العمومية. وإن أروقة وباحات المباني قذرة، تفوح منها رائحة الغائط، إلا أنهم يجدون هذا الوضع طبيعياً ومقبولاً. فالناس يشعرون دوماً أن لهم الأولوية قبل كل شيء. فالأثرياء هم أثرياء، يشيدون القصور، والنبلاء هم نبلاء، يحكمون، ولكنْ؛ ما إن يبتني أحدهم رواقاً أو باحة، حتّى يستخدمها الكل لقضاء حاجاتهم، وأن أكبر حاجاتهم عجالة هو التخلّص بأسرع ما يمكن من فضلات ما تناولوه بأسرع ما يمكن. وإن أي إنسان يعترض على ذلك، ينبغي ألا يقوم بدور الجنتلمان، وهذا يعني أن عليه ألا يتصرّف وكأن جزءاً من مسكنه ملكية عامة؛ لكنه يوصد بابه، وهذا مقبول. أما في المباني العامة؛ فإن الناس لا يفكّرون قطّ في التخلّي عن حقوقهم هذه، وهذا ما يتشكّى منه الأجانب المقيمون في شتّى أنحاء إيطاليا.

---

*) أنشودة مالبروك (مالبوروه)، هي قصيدة هجائية شعبية عن الجنرال الإنجليزي مالبوروه، يعود تاريخها إلى حرب السنوات السبع (١٧٠٧ـ١٧١٢).

تجوّلتُ اليوم في أرجاء المدينة متنعّماً في عادات أهلها وتقاليدهم، وآدابهم، وخصوصاً ما يتصل بالطبقات الوسطى، الأكثر عدداً وهمّة وحركة. تجدهم يؤرجحون أياديهم عند المشي. أما النبلاء، الأعلى مكانة، والذين يتمنطقون بالسيوف أحياناً؛ فلا يؤرجحون سوى ذراع واحد؛ لأنهم جروا على عادة إبقاء اليد اليسرى عند الخصر.

ورغم أن الناس يمضون إلى أشغالهم دون التفات إلى ما يشتّت الذهن، فإن عيونهم تلتقط كل ما يبدو مخالفاً للعادة. فحين وصلتُ المدينة، وجدتُ الكل ينظر إلى جزمتي عالية الرقبة، التي لا يرتديها أحد هنا حتّى في الشتاء؛ لأنها غالية الثمن. ولما صرتُ، الآن، أرتدي حذاء عادياً، وجوارب عادية، لم يعد أحد يكترث بالالتفات إليّ. ولكنْ؛ في الصباح الباكر من هذا اليوم، حين كان الكل يسعى ويمضي عجولاً هنا وهناك حاملاً الزهور أو الثمار، أو الثوم، أو غير ذلك من منتجات السوق، وجدتُ أنهم، ويا للدهشة، لا يرفعون أبصارهم عن بضعة أغصان من شجرة السرو كنتُ أحملها. وتتدلّى من الأغصان أكواز صنوبر مخروطية، خضراء؛ كما كنتُ أحمل خصلة مزهرة من نبات الكبر. بقي الجميع، صغاراً وكباراً، يحملقون في أصابعي، وأفكار غريبة تدور، كما يلوح من سيمائهم، في رؤوسهم(*).

كنتُ قد التقطتُ هذه الأغصان في جاردينو جيوستي؛ حيث تنتشر أشجار سرو عملاقة، تخفق في الفضاء مثل بوم ضخمة. إن أشجار الطقسوس الصنوبري، في حدائقنا الشمالية مقلّمة تقليماً معيّناً، ولعلّها محاكاة لهذا النتاج البديع للطبيعة. فهذه شجرة يتطلّع كل فرع من فروعها، من أدنى فرع حتّى أعلى فرع، مشرئباً إلى السماء، وهي تعمر نحو ثلاثمائة سنة. إنها لشجرة جديرة بالتوقير. واعتماداً على تاريخ تأسيس هذه الجنينة، يمكن القول إن أشجار سروها قد بلغت هذه الذروة من عمرها المديد.

---

*) تُستخدم أغصان السرو، عادة، للتعبير عن الحزن بفقدان عزيز، فهي إمارة حِداد.

فيشينزا، ١٩ أيلول (سبتمبر)

يمضي الطريق من فيرونا إلى فيشينزا في اتجاه الشمال الغربي، بموازاة الجبال. يساراً، يرى المرء سلسلة متصلة من سفوح التلال المؤلّفة من الرمل الصخري، وحجر الكلس، والطين، والتراب الكلسي، والمنطقة تعجّ بالقرى والقلاع والمنازل المنفردة. أما يميناً؛ فثمّة سهل فسيح، ينبسط أمام النظر، يشقّه طريق عريض مستقيم متين البنيان، راحت عربتنا تمضي عليه، محفوفة بحقول خصبة. ثمّة أشجار زُرعت في صفوف طويلة، وتمتدّ كروم أعناب فوق ذؤاباتها، وتتدلّى أغصانها الرقيقة منحنية تحت ثقل عناقيد الأعناب التي تنضج باكراً في هذه الأصقاع. على هذا النحو، ينبغي لحبال الزينة المزهرة أن تبدو.

إن الدرب مطروق لكل رائح وغاد. ولقد سررتُ تماماً لرؤية شتّى عربات الجرّ واطئة العجلات، والشبيهة بالصحون، تجرّها أربعة ثيران، وتحمل أحواضاً خشبية ضخمة معبّأة بالأعناب؛ لتذهب من حقول الكروم إلى معاصر النبيذ. وحين تفرغ الأحواض يقف السائقون في وسطها. يذكّرني هذا المشهد بموكب باخوسي(*) ظافر. وإن فسحة التربة الفارغة بين صفّين من عرائش الكروم تُزرع عادة بكل أنواع الحبوب، وبخاصة الذرة والدُّخْن.

وتنبجس - على مقربة من فيشينزا - سلسلة تلال جديدة، تتّجه شمالاً وجنوباً. يقال إنها بركانية. فتُسوّر السهل، وتُغلقه. وتهجع المدينة عند قاع التلال، أو قل بالأحرى على حوافّ الحلقة نصف الدائرية منها.

١٩ أيلول (سبتمبر)

وصلتُ قبل بضعة ساعات، وتمكّنتُ من مشاهدة مسرح تياترو أوليمبيكو، وغيره من المباني التي صمّمها بالاديو. هناك كتاب مزدان

---

*) آلهة الخمر عند الإغريق.

بتخطيطات من الجرافيك، يوفّر للقارئ الأجنبي معلومات مفيدة، وقد دبّجه إنسان ذو معرفة مكينة بالفن. لابدّ لك من أن تشاهد هذه المباني بأمّ عينيك؛ لكي تدرك رهافة فنّها. وما من نسخة مكرّرة عن تصاميم بالاديو بقادرة على أن تعطي المرء فكرة كافية عن تناسق أبعادها البديع؛ فلابدّ من مشاهدة المباني في نسقها ومنظورها الفعلي.

لقد كان بالاديو إنسانا عظيماً، عظيماً في تصوّراته الذهنية، وعظيماً في طاقة التنفيذ. وإن مشكلته الكبرى هي المشكلة ذاتها التي تواجه سائر المعماريين المعاصرين، ونعني بذلك إيجاد التوازن الحصيف لاستخدام الأعمدة في المعمار المحلي، نظراً لأن مركّب الأعمدة والجدران يبدو - على الدوام - متنافراً. ألا ما أكثر ما بُذل من جهد في ذلك، وما أبدع الحضور الملموس لإبداعاته، وقدرتها على أن تجعلنا ننسى أننا مُنوّمون مغناطيسياً! ثمّة مسحة من القداسة في موهبته، وهي ميزة تُقارَن بقدرة شاعر عظيم، يبتدع من اصطراع عوالم الحقيقة بعوالم الوهم عالماً ثالثاً، يسحرنا بوجوده المستعار.

إن مبنى مسرح تياترو أوليمبيكو هو إعادة خَلْق للمسرح الكلاسيكي، ولكنْ؛ على نطاق أصغر، وبجمال أخّاذ، لا نظيرله. وحين نقارن هذا المسرح بمباني مسارحنا، نجده أشبه بطفل أرستقراطي ثري واسع الثقافة، بإزاء رجل دنيوي ذكي، يعرف - رغم أنه ليس على هذه السعة من الثراء والتميّز والثقافة - ما يمكن له أن يحقّقه اعتماداً على نفسه.

حين يتفحّص المرء المباني النبيلة التي ابتدعها معمار بالاديو في هذه المدينة، ويلاحظ مدى الأذى الذي أصاب واجهاتها بفعل عادات الرجال القذرة، أو يلاحظ مدى تنافر هذه الصروح الثمينة، التي ابتدعها عقل جبّار متفوّق، مع نسق حياة الإنسان العادي، يدرك المرء نفسه أن هذا

هو حال كل شيء سواها في هذه المدينة. فالإنسان لا يحظى إلا بالنزر اليسير من الشكر والامتنان من الناس حين يحاول هذا الإنسان أن يبذل جهده للارتقاء بقيمهم الأخلاقية، وأن يمنحهم تصوّراً أسمى عن أنفسهم، وأن يمحضهم إحساساً بالنبل الحقّ. أما حين يغدق المرء الثناء الكاذب على "الطيور"، ويحكي لها قصصاً خرافية عن الجنّيات، ويتستّر يومياً على مواطن ضعفها؛ فإنه يغدو الرجل المناسب لها. لهذا السبب تجد أن رداءة الذوق تكثر في زماننا هذا. لا أقول قولي هذا لكي أحطّ من قدر أصدقائي، فكل ما أقوله هو أن الأمور على هذا النحو، وأن على المرء ألا يعجب، إن كانت على هذا الحال.

ثمّة مبنى قديم ينتصب جوار الباسيليكا (بناء روماني الطراز)، يشبه قلعة من القلاع، وله كثرة من النوافذ ذات الأحجام المتباينة. يصعب وصف مدى اعوجاج هذه الكتلة المبنية بناء مغلوطاً. لا ريب أن خطّة المعماري الأصلية استدعت هدم هذه القلعة هي وبرجها. ولكنْ؛ لابدّ لي من لجم مشاعري؛ لأنني أصادف هنا، كما في كل مكان آخر سواه، ما أرغب فيه، وما أرغب عنه، جنباً إلى جنب.

٢٠ أيلول (سبتمبر)

بالأمس قصدتُ دار الأوبرا، وامتدّ العرض بعد منتصف الليل، بينما كنتُ أتحرّق لأن أصيب شيئاً من النوم. لقد ضمّ العرض خليطاً غير موفّق، ونتفاً من أوبرا "السلاطين الثلاثة" وأوبرا "اختطاف من سيراجليو". لقد كانت الموسيقى لطيفة الوقع على المسامع، غير أنها - على الأرجح - من تأليف موسيقار من الهواة؛ ولم أجد فيها فكرة تحفزني بجدّتها. أما الراقصان الرئيسان؛ فقد أديا الرقصة الألمانية برشاقة فائقة.

المسرح حديث البناء، لكن أناقته متواضعة، وهو موحّد الديكور، بما يناسب بلدة نائية. ويتدلى من كل مقصورة بساط موحّد اللون؛ باستثناء

مقصورة القائد الأكبر (بالإيطالية)، فهي تتميّز ببساط أطول بعض الشيء.

وكانت المغنّية الأولى تحظى بشعبية ضارية، وقد تلقّت استحسان وتصفيق الجمهور وقوفاً، كلّما ظهرت على المسرح، بل إن "الطيور" كانت تهتاج فرحاً كلّما أجادت غناء مقطوعة من المقطوعات، وكانت تُصيب في الإجادة في الغالب. وتتّسم المغنية بمزاج تلقائي، وقوام رشيق، وملامح لطيفة، وصوت شجي، كما كانت جمّة التواضع في تصرّفها؛ إلا أن حركات وإيماءات يديها كانت تفتقر إلى الرشاقة. ولا أظن أني سأقصد دارة الأوبرا ثانية. ذلك أنني أشعر أنني "طير" مخفق.

٢١ أيلول (سبتمبر)

اليوم، قصدتُ الدكتور تورا، الذي يكرّس جهده، منذ سنوات خمس، في دراسة النبات دراسة متفانية حقاً، فجمع أكداساً من نماذج الأزهار الإيطالية في مختبر، وصنع حديقة للنباتات من أجل الأسقف الراحل. أما الآن؛ فقد انتهى ذلك كله. فممارسة الطّبّ أشغلتْه عن دراسة التاريخ الطبيعي، كما أن الديدان أتت على محتويات مختبره النباتي، ومضى الأسقف إلى جوار ربّه، وزُرعت الحديقة النباتية الآن بالمفيد من الملفوف والثوم.

الدكتور تورا رجل حضاري واسع العلم. وقد حدّثني عن تاريخه بصراحة وتواضع، وأدب جمّ، لا تخطئه العين، إلا أنه لم يُبد أي استعداد لأن يُطلعني على مجموعته من النباتات، ولعلّها ليست في وضع لائق للفرجة. وهكذا بلغت محادثتنا نقطة النضوب.

المساء

زرتُ سكاموزي، وهو شيخ معماري، أصدر كتاباً عن بالاديو، علماً أنه هو ذاته فنان مؤهّل ومتفان. وأبدى سروراً عظيماً باهتمامي، وزوّدني ببعض المعلومات، وقال إن البناء الذي أشاده بالاديو، والذي شُغفتُ به أيّما

شغف، هو البيت الذي سكنه الفنّان نفسه. وحين يشاهد المرء البناء عن كثب، يجد فيه ملامح أغنى ممّا يتصوّره عند مشاهدة الصورة. أودّ أن أرى صورة له بالألوان، عسى أن تعيد للبناء المسحة اللونية التي اكتسبها من الحجر ومرور الزمن عليه. ولا يتوهمنّ أحد أن المعماري أشاد لنفسه قصراً منيفاً. فهو أكثر المنازل تواضعاً في العالم، وله نافذتان، تفصل بينهما فسحة جدار، يمكن لها بسهولة أن تستقبل نافذة ثالثة. ولعل المرء سيرسم صورة مسلّية، إن صوّر هذا المنزل قابعاً بين جيرانه. وإن كاناليتو هو الرجل المؤهّل للقيام بذلك.

توجّهتُ اليوم لمشاهدة منزل بديع، يُدعى روتوندا. وينتصب هذا المنزل على رابية خفيضة، تبعد مسافة نصف ساعة عن المدينة. وهو بناء مربّع الشكل، يحيط صالة مضاءة من عل. وتنطلق من كل ضلع من الأضلاع الأربعة درجات عريضة، تقود إلى رواق مزدان بستة أعمدة. ولعل فن العمارة لم يبلغ مثل هذا الشأو العظيم من الفخامة والبذخ. فالمساحة الواسعة التي أُغدقت على السلالم والأروقة تزيد بكثير عمّا كُرّس للبيت نفسه، ابتغاء أن يكون لجوانب المنزل مظهر معبد فخم. وإن المنزل نفسه يبدو بمثابة مَسْكَن، أكثر ممّا هو منزل. فالفناء والغرف بديعة التناسق والأبعاد، ولكنْ؛ يصعب القول إن بإمكانها، كمنزل صيفي، أن تفي بحاجات أسرة نبيلة. غير أن لمنزل روتوندا هذا مرأى بديع، من أية جهة عاينه المرء. وحين يدور المرء حوله، يجد أن تنوّع الأثر البصري الناشئ عن الشكل المربّع وجلال الأعمدة خارقان للعادة. ولقد حقّق المالك طموحه البيّن في أن يخلف لوَرَثَته صرحاً هائلاً ونصباً مادياً يجسّد ثراءه. ومثلما أن المرء يمكن أن يرى المنزل في كامل بهائه من أية زاوية أطل بها عليه من الريف، فإن مشاهد الريف من مختلف جهات المنزل لا تقل عنه روعة. فمن هنا ترى المراكب الكبيرة تنساب على صفحة المياه قادمة من فيرونا إلى برينتا، وتطل على الضياع الكبيرة للماركيز كابرا،

الذي رغب في أن تحتفظ أسرته بالضياع كاملة، غير مقسّمة. وإن العبارات المنقوشة على الجملونات الأربعة، والتي تؤلّف معاً جملة تامة، لجديرة بالتسجيل. (باللاتينية في الأصل)

إن السطر الأخير لغريب حقاً. فهذا الرجل الذي يملك كل هذا الثراء بين يديه، والذي كان بمقدوره أن يفعل ما يشتهي، مايزال يشعر أن عليه أن يمسك ويطيل البقاء. ولا ريب أن في الإمكان تعلّم هذا الدرس بتكلفة أقل.

٢٢ أيلول (سبتمبر)

حضرتُ الليلة اجتماعاً في أكاديمية الأولمبيين. ليس في هذه المناسبة شيء جاد، مع ذلك ماتزال مرغوبة؛ لأنها تضيف على حيوات هؤلاء الناس نكهة ما. لقد احتشدوا في قاعة فسيحة حسنة الإضاءة مجاورة لمسرح تياترو أوليمبيكو. وحضر اللقاء القائد الأكبر وعدّة ممثّلين عن النبلاء. وعلى العموم، بلغ الحضور نحو خمسماية شخص، كلهم من أهل الثقافة والعلم.

وكان موضوع التصويت الذي اقترحه رئيس الأكاديمية هو: مَن الذي قدّم الخدمة الأعظم للفنون. الابتكار؟ أم المحاكاة؟ لا بأس بهذه الفكرة، لأننا لو وضعنا البدائل، وناقشناها فرادى، لامتدّ السجال قروناً.

واغتنم الأكاديميون هذه المناسبة إلى الحدّ الأقصى، فابتدعوا شتّى ضروب الحجج شعراً ونثراً، وكان بعضها جيداً تماماً. زد على هذا أن جمهور القاع أبدى صنوف الحماس، وهتف وصفّق وضحك من باب الاستحسان. لو أمكن لنا أن نقف أمام أبناء موطننا على هذا الغرار لنخاطبهم شخصياً، عوض أن يقتصر الواحد منا على صبّ خيرة أفكاره في صفحات مطبوعة لكتاب، ينهمك فيها قارئ وحيد مركون في زاوية؛ ليقضم منها على قدر ما يستطيع.

وبالطبع بقي اسم بالاديو يتردّد مراراً كلّما كان المتحدّثون يميلون إلى عنصر المحاكاة. في ختام المساجلات؛ حيث يتوقّع المرء تكاثر النكات دوماً، أشار أحدهم في فطنة بيّنة إلى أن كثرة من المتحدّثين اهتمّت بالمعماري بالاديو بما فيه الكفاية، وعليه فإنه ينزع إلى إطراء فرانشيسليني، صناعي الحرير الكبير. وطفّق يبيّن أن محاكاته العظيمة الاقمسة ليون وفلورنسا أثْرَتْ هذا الرجل المبدع، وأثْرَتْ، من خلاله مدينة فيشينزا أيضاً؛ وعليه فإن المحاكاة أعظم من الابتكار بما لا يُقاس. قال قولته تلك بكثير من الطرافة الممراحة؛ بحيث إن الجمهور لم يكفّ عن الضحك. وعلى العموم حظي أنصار المحاكاة بالقسط الأكبر من التصفيق؛ لأنهم عبّروا عمّا يفكّر به جمهور القطيع، بمقدار ما يمكن للقطيع أن يفكّر.

فمثلاً إن الحاضرين صفّقوا بحماسة كبيرة لمغالطة سفسطائية بائخة تماماً؛ لأنهم لم يتلمّسوا قوّة العديد من المحاججات الرائعة التي قيلت لصالح الابتكار.

إنني لسعيد تماماً بخوض هذه التجربة، وممّا يبعث على الرضى أن يرى المرء أن بالاديو مايزال، حتّى بعد وقت طويل من موته، موضع تقدّيس مواطنيه، بوصفه النجم الهادي والمَثَلَ الأعلى.

٢٢ أيلول (سبتمبر)

في الصباح الباكر، قصدتُ تيين التي تقع إلى الشمال في اتجاه الجبال. إنهم يشيدون بناء جديداً على أساسات المبنى القديم نفسها، وهي ممارسة شائعة، تبيّن الاحترام العميق لتراث الماضي الحسن. تربض القلعة في موقع بديع، على منبسط واسع من الأرض، تحفّه من الخلف جبال جيرية مباشرة دون توسّط تلال أو سفوح. وإن المسافر القادم على الطريق الممتدّ في خط مستقيم مغلق النهاية، إلى القلعة، يرى على

الجانبين جداول، ترحّب به، ويسمع خرير الماء الجاري لسقاية حقول الرز الواسعة التي اجتازها لتوّه.

لم أشاهد حتّى اللحظة سوى مدينتين إيطاليتين، ولم أتجاذب الحديث إلا مع نفر من الأشخاص، لكني بتّ أعرف الكثير من الطليان جيداً. إنهم أشبه بالحاشية المَلَكية، ويعدّون أنفسهم خير شعوب العالم قاطبة، وهو رأي، يستطيعون التمسّك به بحصانة، وذلك بفضل بعض الخصال المعيّنة البديعة التي حُبوا بها دون مراء. وفي اعتقادي أنهم شعب ممتاز؛ ولكيما يدرك المرء ذلك، ما عليه إلا أن يراقب الأطفال والعوام، كما أفعل باستمرار؛ لأنني في صحبة هؤلاء طوال الوقت، وهي صحبة ممتعة دوماً. وما أجمل وجوههم وأرشق أجسادهم! لابد لي من أن أغدق الإطراء تلو الإطراء على أهالي فيشينزا، ففي بلدتهم، ينعم المرء بكل مباهج الحياة في مدينة عظيمة. فهم لا يحدّقون فيك مهما صنعت؛ وحين تتحدّث إليهم، يجيبونك بأدب جمّ مستعدين للحديث معك. وأجد النساء هنا لطيفات المعشر. لا أودّ بهذا القول الانتقاص من نساء فيرونا، فهن يتمتعنَ بأجساد مكتنزة، وملامح حلوة، خاصة، لكن الشحوب يعلو وجوه غالبيتهنّ، كما أن الزندال (الشال ذو القلنسوة) لا يناسبهنّ أبداً، لأن المرء يتوقع أن يجد تحت هذا الزي البديع فتنة تثير الكوامن. أما هنا فقد رأيت بعضاً من أجمل المخلوقات. وإن النساء ذوات الشعر الأسود الفاحم الأجعد فاتنات فتنة لا تُبارى. هناك نساء شقراوات أيضاً، لكنهن لا يتفقنَ مع ذوقي في الجمال.

بادوا، ٢٦ أيلول (سبتمبر)، المساء

وصلت هنا بحقائبي ومتاعي، بعد رحلة استغرقت ثلاث ساعات ونصف الساعة من فيشينزا في عربة سباق أحادية المقعد، يسمّونها

سيديولا. كان بالوسع قطع المسافة عينها في نصف هذه المدّة؛ غير أني كنتُ أتوق إلى الاستمتاع بروعة النهار في الهواء الطلق، لذلك لم أتأسّف كثيراً؛ لأن سائسي (vetturino) لم يفلح في الإيفاء بالتزامه. مضينا في العربة نحو الجنوب الشرقي صوب سهل خصيب، يقع بين سياجات وأشجار دون أن تقع عيناي على شيء مميّز. أخيراً، انبجست، من جهة اليمين، سلسلة جبال جميلة تمتدّ من الشمال إلى الجنوب.

إن وفرة الأزهار والفاكهة المتدلّية من الأشجار فوق الأسيجة والجدران لمذهلة حقاً. كانت السقوف مثقلة باليقطين، أما الخيار غريب الشكل؛ فكان يتدلى من الأعمدة والعرائش.

وحظيتُ من برج المراقبة بإطلالة على مشهد مجيد للريف المحيط. فإلى الشمال ثمّة جبال الألب التيرولية، المكلّلة ذراها بالجليد، المتخفّية وراء السحاب، والملتقية في الشمال الغربي بتلال فيشينزا. أما إلى الغرب فأقرب؛ فتلوح للناظر الخطوط الصارمة لتموّجات تلال إيسته. وأما إلى الجنوب الشرقي؛ فثمّة سهل منبسط متصل، يمتدّ إلى آخر الأفق مثل بحر أخضر، وهو مزدان بالأشجار، شجرة بعد أخرى، وحرشاً بعد حرش، وحقلاً بعد حقل، ومرصّع ببيوت بيضاء وفيلات وكنائس، لا عَدّ لها، تنبجس من هذا البساط الأخضر. وبوسع المرء أن يرى برج سان ماركو والأبراج الأخرى الأدنى في مدينة البندقية في الأفق رؤية جلية.

٢٧ أيلول (سبتمبر)

أخيراً حصلتُ على أعمال بالاديو، ليس النسخة الأصلية ذات الرسوم المحفورة على الخشب، بل نسخة مصوّرة برسوم محفورة على النحاس، نشرها سميث، وهو رجل بديع، شغل في السابق منصب القنصل الإنجليزي في البندقية. ولابد للمرء من أن يثني على الإنجليز تقديرهم

المديد لما هو حسن، كما يثني عليهم سخاءهم وهمّتهم في نشر هذا العمل الحسن.

وبمناسبة هذا الشراء، دخلتُ مكتبة، والمكتبة في إيطاليا مكان غريب. إن سائر الكُتُب مجلّدة تجليداً خاصّاً بالإبرة، وإن المرء ليجد دوماً صحبة حسنة في أي وقت من النهار دخل. فكل مَن له صلة، على أي حال، بالأدب. من الكَهَنُوت الدنيوي، إلى النبيل، إلى الفنان. يطرق باب المكتبة، ويدلف. وحين تدخل، تطلب كتاباً، وتتصفّح محتوياته، أو تنخرط في حديث إن أطلتَ المناسبة. حين دخلتُ، كان ثمّة نصف دزّينة من الزبائن، وحين سألتُ عن أعمال بالاديو، التفتوا جميعاً بأنظارهم إليّ. وبينما كان الكُتُبي يفتّش عن المؤلّف الذي طلبتُ، راحوا يتحدّثون بصوت مسموع عن بالاديو، ويزوّدونني بشتّى ضروب المعلومات عن الطبعة الأصلية والنسخ المعاد طبعها. وكانوا جميعاً على معرفة بالكتاب، وعلى دراية بمزايا المؤلّف. ولمّا كانوا يحسبونني معمارياً، امتدحوا رغبتي في دراسة أستاذ المعمار هذا الذي يملك من المقترحات المفيدة والعملية ما يتفوق حتّى على فيتروفيوس، نظراً لأنه درس العصور الكلاسيكية القديمة دراسة مستفيضة، وحاول تكييف معرفته مع حاجات زماننا. وعقدتُ حديثاً طويلاً مع هؤلاء الرجال الودودين، وتعلّمتُ منهم الكثير عن المواقع الجديرة بالمشاهدة في المدينة.

ونظراً لأن ثمّة كثرة من الكنائس شيّدت هنا تكريماً للقدّيسين، فمن المفيد أن يتوفّر فيها مكان لإقامة النُّصب التذكارية للنابهين الأذكياء. لابدّ أن البورتريه النصفي للكاردينال بيمبو يشخص بين عمودين آيونيين. إن له وجهاً وسيماً، ويبدو منطوياً على نفسه بقوّة الإرادة، كما أن له لحية كبيرة. وثمّة عبارة منقوشة على المبنى (باللاتينية في الأصل).

رغم شهرة الجامعة في هذه المدينة، فإن بنايتها سبّبت لي الصدمة. وانني لأشعر بالسعادة لأنني لم أدرس فيها. فمثل هذه المدرسة الضيقة لا تخطر على بال حتّى التلميذ الألماني، الذي غالبا ما يعاني الآلام من المقاعد الصلبة في قاعة المحاضرات. وإن قاعة التشريح، بالذات، هي مثال ساطع على الرغبة في حشر أكبر عدد ممكن من الطلاب. ويجلس المستمعون في طبقات تعلو بعضها بعضاً في نوع من مدرج، يشبه القمع. ويضطر الطلاب إلى توجيه أنظارهم من الجرف العلوي إلى الأسفل؛ حيث المنبر الضيق الذي يؤوي منصّة طاولة التشريح. ولمّا كان ضوء النهار لا يبلغ المنصّة، فإن الأستاذ يعرض درس التشريح على ضوء نوّاسة.

أما حديقة قسم علم النبات؛ فأكثر لطفاً. وإن الكثير من النباتات يبقى في الأرض طوال الشتاء كله، إن زُرع قرب الجدران. وباقتراب نهاية تشرين الأول، يسقّف هذا المكان، ويُدفأ خلال أشهر الشتاء الباردة، على قصرها. إن الطواف للتفرّج على أنواع جديدة من النباتات يبعث على السرور، ويمدّ المرء بالمعرفة. وإن ما يصحّ على النباتات المألوفة إنما يصحّ على الأشياء المألوفة: ففي النهاية، نكفّ عن التفكير فيها تماماً. ولكنْ؛ ما فائدة النظر من دون تفكّر؟ ها هنا؛ حيث أواجه أخلاطاً شتّى من النباتات، أجد أن فرضيتي بأن سائر أشكال النبات يمكن أن تُشتَقّ من نبتة واحدة أصلية تزداد وضوحاً وإثارة. الواقع، ليس بالإمكان فرز أجناس وأنواع النبات بدقّة إلا بعد قبولنا بفكرة نشوئها عن أصل واحد. واعتقادي أن هذا الفرز قد جرى، حتّى الآن، بصورة تعسّفية تماماً. عند هذه المرحلة من فلسفتي في علم النبات، أجدني في طريق مسدود، ولا أرى سبيلاً للفكاك منه. غير أن هذا الموضوع بأكمله يبدو لي عميق الغور ذا نتائج بعيدة المدى.

إن الساحة التي تُدعى براتوديلا فاله؛ حيث يقام المعرض الرئيس في

حزيران مترامية الأطراف. وإن منظر الأكشاك الخشبية في وسط الساحة منفّر حقاً. لكن البادويين يؤكدون لي أنهم سيشيدون سوقاً(*) من الحجر كالقائم في فيرونا. وإن المباني المحيطة بالساحة تبدو بهية، وتبشّر خطّة البناء بالخير.

وتنتصب حول حافة الدكة البيضوية في الساحة تماثيل مشاهير الرجال الذين تولّوا التدريس، أو تلقّوا التعليم هنا. ويسمح لكل مواطن أو أجنبي بأن يصنع تمثالاً بحجم معيّن لأي من أقربائه، أو أبناء جلدته، بمجرّد إثبات حسناته وصلته بالجامعة.

وتحيط بالدكة البيضوية قناة. وتزدان الجسور الأربعة للقناة بتماثيل ضخمة للبابوات والقضاة الأوائل للمدينة، إضافة إلى تماثيل أخرى صغيرة، نصبتها طوائف الحرفيين، وأفراد خواصّ وأجانب. ولقد تبرع ملك السويد بتمثال لجوستاف أدولفوس الذي يُقال إنه أمّ محاضرة في بادوا. وأحيا الأرشيدوق ليوبولد ذكرى بترارك وجاليليو. وإن التماثيل منحوتة بأسلوب حديث تماماً، وإن بعضها، وهو قليل، بالغ التكلّف، وبعضها الآخر قريب إلى الحياة، لكنها جميعاً صُنعت بأزياء عصر الشخصيات، ووفقاً لمكانتها الرسمية. ولا تحوي العبارات المنقوشة ما يجافي الذوق أو الرفعة.

وتُعدّ هذه الفكرة مناسبة حقاً في أية جامعة، ولكنْ؛ لا أبدع منها في بادوا؛ لأن المرء يجد هنا إحياء للماضي الذي بات الآن مغلقاً.

وتوجد في مكان اجتماعات يعود إلى أخوانية دينية مكرّسة للقدّيس أنطوني لوحات قديمة شبيهة بأعمال المدرسة الألمانية القديمة، بينها لوحات بريشة تيتيان، تعكس التقدّم في الفن الذي أحرزه بما يفوق ما أحرزه أي رسّام على الجانب الآخر من جبال الألب حتّى الآن. كما رأيتُ أيضاً

*) fiera حرفياً معرض، وفي القديم سوق.

المزيد من اللوحات الحديثة. ورغم أن هؤلاء الفنانين ما عاد بمقدورهم بلوغ الجلال السامي لأسلافهم، فإنهم قد أصابوا نجاحا بالغاً في الأجناس الخفيفة. وإن لوحة قطع رأس القدّيس يوحنّا المعمدان، بريشة بيازيتا، هي لوحة جيدة تماماً، إن غفرنا لهذا المعلّم ما عنده من تكلّف.

يظهر القدّيس يوحنّا المعمدان راكعاً، وركبته اليمنى تتكئ إلى صخرة، ويداه مضمومتان، وهو ينظر متضرّعاً إلى السماء. ونرى خلفه جندياً، يمسك بوثاق القدّيس، وينحني إلى الأمام؛ ليرى إلى وجه القدّيس، وكأنه مندهش من رباطة جأشه. ويصوّر القسم العلوي من اللوحة جندياً آخر واقفاً بطوله، وهو يتهيّأ، كما يبدو، لتسديد الضربة الفاتكة؛ إلا أنه لا يحمل سيفاً، وهو يقوم بحركة معيّنة بيديه، توحي وكأنه يتمرّن على تسديد الضربة مسبقاً. ويوجد دونه جندي ثالث، يستلّ السيف من غمده. إن فكرة اللوحة مناسبة، وإن لم تكن على قدر ملحوظ من العَظَمَة، أما التكوين؛ فاستثنائي ومؤثّر.

ورأيتُ في كنيسة أريميتاني بعض اللوحات المذهلة بريشة مانتينا، وهو واحد من أقدم الأساتذة. ما أروع واقعيتها الصارمة الواثقة! إن هذه الواقعية بالذات، التي لا تكتفي بإثارة المخيلة، بل تتميز بالرسوخ، والوضوح، والدقة الرهيفة، كما تتميز بالتقشف والجهد الجهيد، هي المنبع الذي استمدّ منه الرسّامون اللاحقون مكامن قوّتهم، وهو ما لاحظتُه في رسوم تيتيان. وبفضل هؤلاء الأسلاف أمكن لعبقرية الأخلاف وطاقاتهم أن تسمو فوق الأرض، وأن تبتدع أشكالاً سماوية تحتفظ، مع ذلك، بالواقعية. على هذا النحو تطوّر الفن بعد العصور المظلمة.

إن قاعة الجمهور في قصر بالازوكوميونال، التي أغدقوا عليها بحق لقباً معزّزاً جامعاً هو: الصالون (بالإيطالية)، هي كناية عن قوقعة هائلة مغلقة، يصعب على المرء أن يحتفظ بصورتها في ذهنه حتّى وإن كان

قد عاد منها لتوّه. يبلغ طول القاعة ثلاثماية قَدَم، وعرضها ماية قَدَم، أما ارتفاعها من الأرضية حتّى السقف المزدان بالقناطر؛ فيصل إلى ماية قَدَم. لقد بلغ اعتياد الناس على العيش في الهواء الطلق حداً أعاق المعماريين في قضية وضع قناطر سقيفة فوق ساحة السوق، كما يقال. فوجود مثل هذه المساحة الواسعة المسقوفة بالقناطر يخلّف لدى المرء شعورا غريباً حقاً. فهو يرمز إلى التناهي المنغلق الأقرب إلى الطبيعة البشرية منه إلى السماء المرصّعة بالنجوم. إن السماء تدفعنا للخروج من ذواتنا، أما هذا الحيّز المغلق؛ فيدفعنا إلى الانكفاء داخل ذواتنا.

ولهذا السبب عينه، أودّ أن أغنم بعض الراحة في كنيسة القدّيس سانت جيوستينا التي يبلغ طولها أربعماية وخمسة وثمانون قَدَماً، أما العرض والارتفاع؛ فيتناسبان مع هذه الأبعاد. جلستُ الليلة هناك في زاوية من هذه الكنيسة؛ لأغرق في التأمّل. وشعرتُ بوحدة مطبقة، فما من كائن في الخليقة، حتّى ذلك الذي صادف أنْ فكّر بي تلك اللحظة، كان سيبحث عني في هذا الركن القَصي.

حزمتُ حقائبي مرّة أخرى. سأرتحل غداً صباحاً إلى برنيتا في قارب. أمطرت السماء اليوم، لكن الجو صاف الآن، وآمل أن أرى برك الماء في ضوء الشمس الساطع، وأرسل التحايا إلى أصدقائي من أحضان بريدا ملكة البحر.

البندقية

لقد دوّن في صحائفي على كتاب القدر أن تكون الساعة الخامسة من عصر الثامن والعشرين من أيلول عام ١٧٨٦ هي موعد رؤيتي للبندقية أول مرّة في حياتي؛ حيث دخلتُ هذه المدينة. الجزيرة الرائعة، جمهورية فراء السمور هذه. والآن، لم تعد البندقية، حمداً للعلي القدير، محض اسم

يرنّ في أذني، اسمٍ فارغ، أو محض حالة ذهنية غالباً ما أفزعتني أنا العدو اللدود للكلمات المجرّدة.

حين حاذى أول جندول أراه قاربنا. وهم يفعلون ذلك لجلب المسافرين المتعجّلين إلى بلوغ البندقية عجلة كبرى. تذكّرتُ لعبة صغيرة من يفاعتي الأولى، لم أكترث بها كثيراً على مدى عشرين عاماً. كان أبي قد اقتناها خلال رحلة في إيطاليا، وهي كناية عن نموذج بديع للجندول؛ وكان أبي شغوفاً بهذا الجندول أيما شغف، وكان يأذن لي أحياناً، إبداء للمعاملة المتميّزة، أن ألعب بها. وحين ظهر الجندول بقيدومه المصفّح بالفولاذ وحجرته السوداء، حيّاني كصديق قديم.

وجدتُ مقاماً مريحاً في نزل "ملكة إنجلترا"، وهو ليس ببعيد عن ساحة بياتزا سان ماركو. تطلّ نوافذ غرفتي على قناة ضيقة، تمر بين صفّين من المنازل العالية؛ وثمّة جسر بممر واحد أسفل النوافذ، أما قبالتي؛ فثمّة ممر ضيق، مزدحم. سأمكث في المقام هنا حتّى تكتمل رزمة بريدي إلى ألمانيا، وأشبع نهمي للمشاهدة والفرجة، ولعل ذلك يستغرق ردحاً من الزمن. ها أنذا قادر أخيراً على التنعم بلذة الانفراد بنفسي الذي طالما تقتُ إليه، فما من موقع يتيح للمرء أن يكون وحيداً أكثر من الحشد الكبير، الذي يشقّ فيه المرء طريقه عنوة، ويكون غريباً بالكامل. ففي طول البندقية وعرضها لا يوجد مَن يعرفني، باستثناء شخص واحد على الأرجح، ومن غير المتوقّع تماماً أن أصادفه في الحال.

البندقية، ٢٨ أيلول (سبتمبر)، ١٧٨٦

دعوني أدوّن بضع كلمات عن مغامراتي منذ أن تركتُ بادوا. لقد كانت الرحلة في مياه برينتا، وفي قارب عمومي، صحبة مسافرين على قدر بالغ من التهذيب، نظراً لأن الإيطاليين يلتزمون جانب الأدب الجمّ في التعامل

مع بعضهم البعض مريحة، وسارة. يعجّ شاطئا النهر بالجنائن، والمنازل الصيفية المشادة من الخشب، في أملاك صغيرة، تمتدّ حتّى ضفّتي النهر، وتحاذي الطريق العمومي المزدحم، في بعض الأحيان. ولمّا كنا نمضي في النهر نزولاً من مستوى إلى مستوى أدنى، مارّين بسلسلة بوّابات مغلقة، فقد حصلت تأخيرات بين الحين والآخر، أفدنا منها بالرسو عند الشاطئ، والتلذّذ بأطايب الفاكهة المقدّمة لنا. بعد هذا، كنا نركب القارب، ونواصل الانزلاق على صفحة الماء وسط عالم جديد نابض بالحياة.

هناك صور متنوّعة شتّى ممّا يراه المرء، وقد أضيفت إليها صورة جديدة. ثمّة حاجّان وجدا لهما مستقراً في هذه الأصقاع، رغم مجيئهما من ألمانيا. وهما أول الحجّاج الذين أراهم عن هذا القرب. وينعم هذان بحقّ السفر المجاني في وسيلة السفر العمومية هذه. ولمّا كان المسافرون الآخرون قد فضّلوا تحاشي هذين الحاجّين، فقد جلسا في موقع معزول عند المؤخّرة مع النوتي موجه الدفّة. إن وجود مثل هؤلاء الحجّاج أمر نادر هذه الأيام. الواقع أن الكل راح يحدّق فيهما باستغراب، ويعاملهما معاملة تخلو من الاحترام، والسبب، كما يبدو، أن كثرة من الأوغاد كانوا يجوبون الريف متخفّين في زي حجيج. وحين عرفتُ أن الحاجين ألمانيان لا ينطقان بكلمة في أية لغة أخرى، توجّهتُ للتحدّث إليهما، وعلمتُ أنهما جاءا من منطقة بادربورن. يقارب الرجلان الخمسين من العمر، ولهما وجهان أسمران، طافحان بالطيبة. كان مقصدهما بادئ الأمر زيارة مقام الحكماء المجوس الثلاثة في كولون. بعد ذلك راحا يجوبان في أرجاء ألمانيا، أما الآن؛ فإنهما يقصدان روما. بعد ذلك، يعتزمان العودة للمقام في شمال إيطاليا؛ وبعدئذ سيؤوب أحدهما عائداً إلى مسقط رأسه في ويستفاليا، أما الآخر؛ فيواصل الحجّ إلى مقام القدّيس ياجو دي كومبوستيلا.

إن عادة الطواف والحجّ هذه تقليدية تماماً، إلا أن الرجلين كانا مدثّرين

بكثرة من الثياب الوسطية، وبدا عليهما أنهما في حال أفضل من عادة لبس التفتا الطويلة التي يمس ذيلها الأرض ممّا نرتديه عادة في حفلات الرقص التنكّرية حين تريد التنكّر في إهاب حاجّ. وإن كل ما يرتديه هذان من غطاء كتف عريض، وقبّعة مدوّرة، وما يحملانه من محارة مدوّرة، هي أكثر أواني الشرب بدائية، إنما يكتسب معناه من استعماله المباشر. وكانا يحتفظان بجوازي سفرهما في علبة من القصدير. لعل أغرب ما في متاعهما هو حقائبهما المغربية الحمراء، الصغيرة المعمولة من جلد الماعز، التي تحوي الحاجات الصغيرة اللازمة في حياتهما اليومية. وقد استخرجا منها ما يلزم لرتق ثيابهما.

وسعد النوتي، موجّه الدفة، بوجود مترجم مثلي، فطلب مني أن أوجه إليهما أسئلته. وبهذا الطريق، علمتُ المزيد عن آرائهما ووجهتهما في الارتحال. اشتكى الاثنان شكوى مريرة من أقرانهم المؤمنين، بل حتّى من القسس والرهبان. وقالا إن الورع، كما يبدو، نادر تماماً، وإنهما لم يجدا مَن يميل إلى تصديق ورعهما؛ وقد عاملهم سائر مَن في المناطق الكاثوليكية، دون استثناء، كما لو كانا شرّيرين طريدين، رغم أنهما أطلعا الناس على توجيهات الطواف التي وضعها رؤوساهم في الكنيسة، وأبرزا جوازي سفرهما الموقّعين من أسقف موطنيهما. من جهة أخرى، وصفا لي في غبطة عظيمة حُسن ما لقياه من معاملة من جانب البروتستانت، وبخاصة لُطف معاملة راعي أبرشية ريفية في سوابيا، ولطف معاملة زوجته، التي أقنعت زوجها المتردد نوعاً ما بأن يأذن لها في أن تُطعمهما زاداً، كانا بمساس الحاجة إليه. وحين همّا بالمغادرة أعطتهما تالراً(*) واحداً. فكان ذلك هبة من السماء، أسعفتْهما عند العودة ثانية إلى منطقة كاثوليكية. وبعد أن قصّا عليّ هذه الحكايات، قال أحدهما بنبرة طافحة بالجدّ:

*) التالر هو العملة الألمانية وقتذاك.

"بالطبع، نحن ندعو لهذه المرأة بالخير في صلواتنا كل يوم، ونبتهل إلى العلي القدير أن يفتح عينيها مثلما فتح لنا قلبها، وأن يفسح لها، حتّى بعد هذا التأخّر، مكاناً رؤوماً في أحضان الكنيسة الوحيدة الحقّ، ونأمل؛ كما نؤمن، أن نلتقيها في فردوس النعيم، في الدنيا الآخرة."

كنتُ جالساً على الدرجات الصغيرة المؤدّية إلى سطح السفينة، وأنا أترجم زبدة هذه المحاورة للنوتي، موجّه الدفة، ولآخرين ممّن تركوا القمرة، وتجمّعوا للإصغاء في هذا الحيّز الضيق. في غضون ذلك، جيء بالطعام إلى هذين الحاجّين، وهو نزر يسير؛ لأن الإيطاليين لا يستطيبون الجود. بعد ذلك، أخرج الحاجان قصاصات صغيرة مكرّسة، تحمل صور الحكماء المجوس الثلاثة، ونصوص تراتيل ابتهال باللاتينية، وطلبا مني أن أوزّعها على الجماعة الصغيرة من الواقفين، وأن أشرح لأفرادها قيمتها الكبيرة. ونجحتُ في هذا الأداء أيضاً. وحين عبّرا عن الحيرة في العثور على الدير الذي يؤوي الحجيج في مدينة كبيرة مثل البندقية، وعدهما النوتي العطوف، أن يدفع ثلاثة سنتافيات، حال الرسو، لصبي سيرشدهم إلى الدير النائي. وأضاف، في صوت خفيض، إنهما لن يصيبا الكثير من الراحة هناك. إن مؤسّسة الدير هذه التي أُنشئت على مقياس كبير؛ لكي تؤوي ما لا يعلمه إلا الله من أعداد الحجيج الغفيرة، قد تقلّصت الآن، وأُحيلت إيراداتها؛ لكي تُنفَق على أغراض أخرى. وكنا نبحر، في أثناء الحديث، في مياه نهر برينتا، مخلّفين وراءنا جنائن بديعة، وقصوراً منيفة، وملتقطين نظرات خاطفة من مُدُن الشاطئ المزدهرة. أخيراً ولجنا البحيرات الصغيرة، فتحلّقت الجندولات حول سفينتنا، في الحال. ودعاني مسافر من لومباردي، وهو رجل ذائع الصيت في البندقية، إلى أن أشاركه الجندول حتّى نبلغ المدينة بسرعة قصوى، ونتحاشى عذاب الجمارك (بالإيطالية). أراد البعض إبقاءنا، إلا أننا أفلحنا، ببقشيش متواضع، في أن نتخلّص من هؤلاء، وأن ننزلق على صفحة الماء، في ذلك المغيب الهادئ، صوب مبتغانا.

٢٩ أيلول (سبتمبر)، عيد القدّيس ميكائيل

لقد قيل الكثير، وكُتب الكثير عن البندقية، إلى درجة أني لا أريد أن أصف المدينة وصفاً مسهباً. ولسوف أكتفي بذِكْر انطباعاتي المباشرة. إنّ أشدّ ما يذهلني هنا هو الناس مرّة أخرى، الناس في وجودهم الجماعي الفطري المحض.

إن هذا الجنس من بني البشر لم يلتجئ إلى هذه الجزر طلباً للّهو، ولا كان مَن لحق بهم بعد ذاك قد جاء بمحض الصدفة؛ فالضرورة علّمتهم أن يجدوا الأمان في أكثر المواقع وعورة. وقد تحوّلت هذه النقيصة، فيما بعد، إلى مزية كبرى لصالحهم، وأمدّتهم بالحكمة والحصافة، في وقت كان معظم العالم الشمالي مايزال غارقاً في الظلمات. وقد أسفر ذلك عن مآل منطقي بزيادة عدد سكّانهم وثرائهم. كانت المنازل متلاصقة وكثيفة، أما الرمل والسبخ؛ فقد تحوّلا إلى أرصفة صلدة. ونمت البيوت عالية مثل أشجار باسقة، كثيفة؛ لتعوّض في العلو ما حُرمت منه في الاتساع بالعرض. ولمّا كانوا حريصين على كل بوصة من اليابسة، وكانوا محشورين حشراً في حيّز ضيق منذ البداية، فقد رسموا دروباً ضيقة، تفصل بين صفّين من البيوت، وتبلغ الدروب من الضيق مبلغاً، لا يسمح بمرور أكثر من شخصين. أما الشوارع والساحات؛ فقد احتلّها الماء. نتيجة ذلك أن قيّض للبندقي أن يتطوّر وينمو كجنس خاص من المخلوقات، ولهذا السبب، فإن البندقية أيضاً لا تشبه سوى نفسها، ولا تُقارَن إلا بذاتها. وأن القناة الكبرى، المسمّاة "جراندي كانالي"، تمضي ملتوية كالأفعى بين جوانب المدينة، ولا تشبه في هذا أياً من شوارع العالم، وما من ساحة يمكن أن تُقارَن بالمتّسع من الماء القابع قبالة بياتزا سان باركو المغلقة من أحد جوانبها بنصف دائرة هي مدينة البندقية نفسها. وهناك، بإزائها، إلى اليسار قليلاً، جزيرة سان جيورجيو ماجيور، وإلى اليمين حيّ اليهود مع قناته، ثمّ هناك، في

أقصى اليمين، مقرّ الجمارك بمدخل، يصبّ في "القناة الكبرى"؛ حيث تنتصب معابد ضخمة، شُيّدت من المرمر المتلألئ. تلك هي، بإيجاز، أبرز المعالم التي تجذب الناظر، بمجرّد أن يغادر ساحة بياتزا سان ماركو من خلال العمودين.

أسرعتُ، بعيد العشاء، إلى الخروج من دون دليل، بعد أن دقّقتُ النقاط الأربع في البوصلة، وقذفتُ بنفسي في متاهة هذه المدينة، التي تقطعها القنوات؛ لتربطها الجسور في كل النقاط. وإن كثافة، بل تكدّس المدينة عَصي على التخيّل، ما لم يشاهده المرء بأمّ عينيه. وعلى العموم، يمكن للمرء أن يقيس عرض أيّ درب، بمجرّد أن يفرد ذراعيه. أما في الدروب الأضيق؛ فإن المرء سيخدش مرفقيه إن تخصّر؛ وهناك أحياناً درب أعرض، أو لربمّا ساحة صغيرة فسيحة بعض الشيء، لكن الضيق النسبي هو القاعدة التي تنطبق على كل شيء.

وجدتُ طريقي بسهولة إلى القناة الكبيرة وجسرها الرئيس المسمّى بونتي ريالتو، وهو كناية عن قوس منفرد من الرخام الأبيض. وحين نظرتُ إلى الأسفل، وجدتُ القناة تحفل بالجندولات، والمراكب التي تجلب المؤن من البرّ الرئيس أو من البرّ عموماً؛ لتُفرغها في هذه النقطة. ولمّا كان اليوم عيد القدّيس ميكائيل، فإن المشهد ضاجّ بالحياة، على نحو خارق.

إن القناة الكبرى، التي تفصل بين الجزيرتين الرئيستين اللتين تتألّف منهما البندقية، لا تحوي غير جسر واحد وحيد، هو جسر ريالتو، ولكنْ؛ بالوسع عبورها في قوارب مكشوفة من شتّى النقاط. ورحتُ أراقب باستمتاع كبير، هذا اليوم، عبور نساء أنيقات متّشحات بنقاب أسود، في هذه القوارب، وهنّ في طريقهنّ إلى كنيسة "كبير الملائكة المبجّل". تركتُ الجسر، ومشيتُ قاصداً إحدى نقاط الرسو؛ لكي أفوز بنظرة قريبة

من هاته النساء، وهنّ يصعدنَ إلى القوارب للعبور. وجدتُ بين حشدهنّ أكثر من محيّا حلو، وقوام أهيف.

وحين شعرتُ بالإعياء، تركتُ الدروب الضيقة، وتهالكتُ على مقعد في جندول. وإذ كنتُ راغباً في التمتّع بالمنظر من الجهة المعاكسة، مررتُ بالطرف الشمالي من القناة الكبرى، ملتفّاً حول جزيرة سانتا كيارا، وصولاً إلى البحيرات، فدخولاً إلى قناة دار القضاء الكبرى، حتّى بلغتُ ساحة بياتزا سان ماركو. وحين استرخيتُ في الجندول، شعرتُ بغتة، كما ينبغي لكل بندقي أن يشعر، أنني سيد بحر الأدرياتيك. تذكّرتُ أبي في حنو، فما من شيء يغمره بالسعادة أكثر من وصف هذه الأشياء. وكذا كان حالي، كما أعرف. فكل ما يحيط بي أنا هو صرح بديع ثمين، لا يمثّل حاكماً واحداً مفرداً، بل شعباً بأكمله. لعل بحيراتهم الصغيرة تمتلئ بالطمي، والأبخرة العفنة الضارّة تخيم على مستنقعاتهم، والتجارة التي يمارسون تتدهور، وسلطانهم السياسي يضعف، لكن ذلك لن يزيح ذرّة من جلال وعظمة جمهورية البندقية في عيني مراقب واحد. وأن البندقية خاضعة، مثل كل ما له وجود عظيم، لعبث الزمان.

٣٠ أيلول (سبتمبر)

قضيتُ الوقت حتّى المساء أستكشف. من دون أي دليل أيضاً. أقصى أحياء المدينة. إن لسائر الجسور سلالم، حتّى يستطيع الجندول أو أي مركب أكبر أن يمرّ من تحت أقواسها دون عناء. حاولتُ أن أجد طريق دخولي وخروجي من وإلى متاهة الدروب دون أن أسأل أحداً عن الاتجاه، ومحدداً مساري بالاعتماد على مؤشّر البوصلة. إن بالإمكان القيام بذلك، وأجد أن طريقتي في الاعتماد على التجربة الشخصية هي الأفضل. لقد بلغتُ أنأى تخوم المناطق السكنية، ودرستُ طريقة العيش، وأخلاق وآداب

السكان. إنهم يختلفون في ذلك من منطقة إلى أخرى! يا للسماء! أي مخلوق طيّب ومسكين هو الإنسان، بعد كل هذا وذاك.

ثمّة كثرة من البيوت الصغيرة تنبجس مباشرة من القنوات، غير أن المرء يجد، هنا وهناك، ممشى حسن التعبيد، يتيح للواحد أن يمشي الهوينا بين الماء والكنائس والقصور. وهناك ممشى حجري لطيف، في الحي الشمالي، يمكن للمرء أن يرى منه الجزر الصغيرة، ومنها جزيرة مورانو، وهي نسخة مصغّرة من البندقية. وأن البحيرات الصغيرة التي تتخلّل هذه الرقعة نابضة بالحياة، بفعل وجود ما لا عَدّ له من الجندولات.

المساء

اشتريتُ اليوم خارطة للمدينة. وبعد دراسة متأنّية لتفاصيلها، مضيتُ صعوداً إلى برج كنيسة سان ماركو. كان الوقت ظهراً، والشمس تسطع سطوعاً قوياً، يتيح لي أن أميّز الأماكن القريبة والبعيدة من دون تلسكوب. إن البحيرات تطفح مع ارتفاع المدّ، وحين توجّهتُ بناظري في اتجاه الليدو، وهو لسان ضيّق من البرّ ينتهي عند البحيرات، رأيتُ البحر لأول مرّة. ثمّة أشرعة تمضي على صفحة الأمواه، وهناك في البحيرات أنفسها سفن شراعية وفرقاطات راسية. وكان يُفترض بهذه الفرقاطات أن تواكب الأدميرال إيمو، الذي يحارب الجزائريين، لكن سوء الأحوال الجوية احتجزها هنا. وإن تلال بادوا من الشمال، ومدينة فيشينزا وسلسلة الألب من الغرب، تُكمل إطار الصورة المحيطة بالبندقية.

الأول من تشرين الأول (أكتوبر)

اليوم هو الأحد، وراعني في أثناء تجوالي مقدار الأقذار في الشوارع. دفعني ذلك إلى التفكير. يبدو أن ثمّة نوعاً من ضوابط الشرطة في هذه المسألة؛ لأن الناس يكنسون، ويضعون الأزبال في زوايا معيّنة، وقد رأيتُ

مراكب كبيرة تقف في نقاط معيّنة؛ لتأخذ القمامة. كانت المراكب تأتي من الجزر المحيطة؛ حيث يحتاج الناس إلى النفايات؛ ليستخدموها سماداً. لكن هذا التدبير ليس محكوماً بمنطق أو نظام صارم. ولا يمكن للمرء أن يغفر وجود القاذورات؛ لأن المدينة قد صُمّمت لأجل أن تكون نظيفة نظافة أية مدينة هولندية. فكل الشوارع معبّدة ببلاط حجري؛ وإن الدروب في أنأى الأحياء معبّدة في جوانبها، على الأقل، بالآجرّ؛ وإن سطوح الشوارع قد رُفعت قليلاً في المنتصف، وشُقّت على جانبيها مجار، تجمع المياه، وتنقلها إلى مجاري تصريف مغطّاة. إن هذه وغيرها من الابتكارات التقنية هي، بجلاء، إبداعات معماريين أكفاء، خطّطوا لكي تكون البندقية أنظف المُدُن، وأكثرها تميّزاً بلا استثناء. ووجدتُ نفسي، وأنا أمشي، أبتكر لوائح صحّيّة، وأرسم خططاً أولية لعمل مفتّش شرطة متخيّل يعنى بهذه القضية عناية جادّة. وهذا يبيّن مدى توق الإنسان إلى أن يكنس عتبة جاره.

الثاني من تشرين الأول (أكتوبر)

أسرعتُ، أول ما أسرعتُ، إلى كاريتا. سبق لي أن اكتشفتُ في كتابات بالاديو إشارة إلى دير، كان يعتزم أن يعيد فيه بناء منزل خاص، نموذجي لرجل مُوسر مضياف من الأزمنة الكلاسيكية.

وقد أثارتني خطّة بنائه، في تصميمها العامّ، كما في تفاصيلها، وتوقّعتُ أن أرى إعجازاً في الجمال. يا للأسى، فلم يكتمل سوى عشر البناء إلا بالكاد. ولكنْ؛ حتّى هذا النزر اليسير كان جديراً بعبقرية هذا الرجل القدسية. إنني على يقين من أنني مصيب بقولي إنني لم أر شيئاً يضاهي ذلك في الجلال، والكمال، في حياتي كلها. ينبغي للمرء أن يتأمّل في مثل هذا العمل سنوات.

أما الكنيسة؛ فأقدم عهداً. وحين يغادرها المرء، فإنه يلج ردهة من

الأعمدة الكورنثية التي تدفع المرء إلى نسيان كل الهذر الكَنَسي. فمن هذه الجهة ثمّة غرفة ملابس الكَهَنَة، ومن تلك ثمّة قاعة اجتماع الكَهَنَة، إلى جانب أبدع ما رأيتُ في العالم من سلالم ملتوية. ولهذا السلّم عمود درابزون عريض ومفتوح، ودرجات حجرية، ثُبّتت في الجدار، مرتّبة ترتيباً تسند فيه كل درجة الدرجة الأخرى التي تعلوها. ويمكن قياس جمال بناء هذا السلّم بواقع أن بالاديو نفسه أبدى استحسانه له. وتطل الردهة على باحة داخلية فسيحة. ولسوء الحظ لم يكتمل من البناء الذي كان يُفترض أن يحيط الباحة سوى الجناح الأيسر. ثلاثة صفوف من أعمدة عملاقة. وتزدان طبقته الأرضية بالأروقة، أما الطابق الأول؛ فهو كناية عن مبنى ذي قناطر، ينفتح على حجرات؛ وأما الطابق العلوي؛ فعبارة عن جدار بنوافذ.

إليكم الآن كلمة عن مادة البناء. إن رؤوس وقواعد الأعمدة والأحجار الرئيسة للأقواس هي الأجزاء الوحيدة المقتطعة من الرخام. أما الباقي؛ فمعمول، لا من الآجرّ، بل من طين مفخور. لم أر مثل هذا البلاط من قبل. وقد صُنعت أجناب الأقواس وأفاريزها من هذا البلاط. لقد فخرت مادة هذا البلاط جزئياً، أما أقسام البناء بأكمله؛ فقد رُبطت ببعضها بطبقة خفيفة من الملاط. ويبدو أن البناء، بما هو عليه، قطعة واحدة متكاملة، فما أجمله لو أُكمل بكل أقسامه، ودُهن بالألوان. غير أن مخطّط البناء، كما هو حال الكثير من المباني اليوم، كان على مقياس ضخم أكثر من اللازم. وقد افترض الفنان أن الدير الحالي سوف يُهدَم، وأن بعض البيوت الملاصقة سوف تُشترى لأجل التوسيع. ولعل السبب في توقّف البناء نضوب المال، وتبدّد الاهتمام. أيتها الأقدار الرحيمة، يا مَن تحسنين وتخلدين الكثير من الغباوات، لِم لم تأذني باكتمال هذا العمل؟!

الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر)

تمتاز كنيسة إيل ريدينتوري، وهي إنجاز نبيل آخر من إنجازات بالاديو، بواجهة أبدع من واجهة كنيسة سان جيورجيو. لقد كان بالاديو مفعماً بروح القدماء، بقوّة لا مردّ لها، وكان يدرك بحدّة تفاهة ضيق التفكير في زمانه، شأنه شأن أي إنسان عظيم، يرفض الامتثال للعالم، ويعمل على تحويله وفقاً لمُثُله العليا. واستنبطتُ من ملاحظة عابرة وردت في كتابه أنه كان مستاء من عادة بناء الكنائس المسيحية في هيئة المباني الرومانية القديمة، الباسيليكا، وحاول أن يجعل مبانيه المقدّسة تقارب شكل المعبد الكلاسيكي. أفضى هذا المسعى إلى اختلالات معيّنة في التناسب، اختلالات عالجها بالاديو، ويا للسعادة، في إيل ريدينتوري، لكنها جَلية للعيان في كنيسة سان جيورجيو. ويقول فولكمان شيئاً ما بخصوص ذلك، لكنه يخطئ في إصابة الهدف المبتغى.

إن المعمار الداخلي لكنيسة إيل ريدينتوري لا يقل بهاء عن معمارها الخارجي. فكل تفصيل، حتّى المذبح، هو من عمل بالاديو. وللأسف، فإن الروازين التي خُصّصت للامتلاء بالتماثيل، إنما تحتلّها الآن منحوتات خشبية هزيلة مدهونة كلها بالألوان.

الثالث من تشرين الأول (أكتوبر)

أسرف الأخوة الكبوشيين في تزيين أحد جوانب المذبح، تبجيلاً لذكرى القدّيس فرانسيس. ولم يتركوا رخاماً عارياً سوى الأعمدة الكورنثية؛ أما الباقي؛ فقد ستروه بما يلوح أنه تطريز عربي بديع. ولقد أثارت إعجابي على نحو خاص السيقان اللولبية والأوراق المطرّزة بخيوط من ذهب، وحين عاينتُها عن كثب، اكتشفتُ الخدعة الذكية. فكل ما توهّمته ذهباً كان معمولاً، في الواقع، من القشّ المضغوط حتّى يستوي، ويُلصق على

ورق في تصاميم أخّاذة. ودُهنت الأرضية بألوان صارخة أخّاذة، وقد نُفّذ الديكور كله بذوق رفيع. ولو أن مادة هذه القطعة اللطيفة صُنعت من الذهب، بدل القشّ المكرّس لهذا الدير؛ لبلغت كلفتها بضعة آلاف من التالرات. وبالمناسبة، من المفيد أن نحذو حذوهم في هذا.

ولاحظتُ مراراً، من رصيف يطلّ على الماء إنسانا قميئاً، يحكي حكايات بلهجة أهل البندقية التي لا أفقه منها كلمة واحدة، لسوء الحظ. وكان جمهوره يتألّف، بمعظمه، من أناس يتحدّرون من أدنى الطبقات. لم تبدر من أحدهم ضحكة، ونادراً ما علت وجه أحدهم بسمة. ولم يكن في أخلاقه ما ينمّ عن التطفّل أو التساخف، بل كان بالأحرى وقوراً، كما أن تنوّع حركاته، ودقّة ايماءاته، ينمّان عن براعة فنية وذكاء فطين.

أمسكتُ الخريطة بين يدي، ورحتُ أشقّ طريقي في متاهة الدروب للوصول إلى كنيسة منديكانتس. ها هنا أكاديمية الموسيقى التي تتمتّع في الوقت الحاضر بسمعة رفيعة. ثمّة نساء يترنّمنَ بموشّحات دينية خلف جوقة المنشدين، وكانت الكنيسة حافلة بالمستمعين، والموسيقى تصدح بديعة، والأصوات رخيمة عذبة. وأنشد مغنّي الصوت العالي قسماً من "الملك شاؤول"، البطل في هذا العمل الفني. لم يسبق لي أن سمعتُ مثل هذا الصوت قط. كانت بعض مقاطع الموسيقى ذات جمال لا متناه، وكان النص موائماً للإنشاد. بنوع من اللاتينية الإيطالية، التي تدفع المرء إلى الابتسام أحياناً، لكنها تضفي على الموسيقى رحابة تامة.

كان الأداء سيكون ممتعاً غاية الإمتاع لو أن المايسترو اللعين كفّ عن تضبيط الإيقاع برزمة ملفوفة من أوراق النوطات على حاجز بأسلوب متغطرس، كما لو أنه كان يدرّب تلاميذ مدرسة. لقد تدرّبت الفتيات على القطعة تمريناً متكرّراً؛ بحيث لم يكن ثمّة موجب لهذا القرع المتواصل من

جانب المايسترو، وهو يشبه في هذا إنساناً، يريد لنا أن نقدّر جمال تمثال لطيف بأن يُعلّق خرقاً حمراء على مفاصله.

لقد كان هذا الرجل موسيقاراً، لكنه لا يسمع، كما يبدو، الإيقاعات الناشزة التي كان يصدرها لتخرب تناغم الكل. لعلّه يريد جذب الانتباه إلى نفسه بهذا التصرّف الغريب؛ لعله كان سيُقنعنا بمزاياه على أحسن وجه، لو حرص على كمال الأداء. إنني أعرف أن هذا الضرب من إرباك الإيقاع مألوف عند الفرنسيين، لكني لم أكن أتوقّعه من الإيطاليين. غير أن الجمهور بدا معتاداً على ذلك. ولم تكن هذه هي المناسبة الوحيدة التي أرى فيها الجمهور يتوهّم أن الشيء الذي يفسد متعة العمل هو جزء ضروري منه.

ذهبتُ ليلة أمس إلى أوبرا في سان موسيه (إن أسماء المسارح هنا تُستمدّ من اسم أقرب كنيسة)، ولم أتمتّع بالعرض كثيراً. فنصّ الأوبرا وموسيقاها، ومغنّوها، كانوا يفتقرون جميعاً إلى تلك الطاقة الجوهرية التي تلزم مثل هذه العروض؛ كيما تبلغ الكمال. لا أقول إن كل محتويات العرض كانت سيئة، بل القول إن المرأتين تولّتا عناء إجادة التمثيل والإرضاء في آن. وكان ذلك جديراً بالثناء، على أي حال. كانت كل واحدة من هاتين المرأتين ذات قوام جميل وصوت رخيم، بل كانتا مخلوقتين مفعمتين بالحيوية والانبساط. أما الرجال؛ فكانوا يغنّون بلا أدنى ذوق، وكانت أصواتهم تفتقر إلى البراعة تماماً.

أما الباليه؛ فقد خلا من الأفكار، وقد استقبله الجمهور بالجئير معظم الوقت. وهناك واحد أو اثنين من الراقصين، من الجنسين، حظوا بتصفيق صاخب. ويبدو أن الراقصات الإناث اعتبرنَ أن من واجبهنّ أن يسمحنَ للنظّارة بالتعرّف على كل مواضع الفتنة من أجسامهنّ.

اليوم، رأيتُ نوعاً مختلفاً من الكوميديا، تمتّعتُ به أكثر من سابقه. ففي قصر الدوقية شاهدتُ محاكمة هامّة، تصادفتْ مرافعاتها، لحسن

حظي، خلال العطلة. كان أحد المحامين يتمتّع بكل ما يميّز مهرّج المسرح من مبالغات: فهو قصير وسمين، ولكنْ: سريع الحركة، وذو مظهر جانبي بارز، وصوت جهوري، ولباقة مهيّجة للعواطف، وكأن كل ما يقول يصدر عن أولئك أعماق فؤاده.

وأسمّي هذه المرافعة كوميديا نظراً لأن كل الأمور، على الأرجح، قد سُوّيت قبل بدء المرافعة العامة؛ فالقُضاة يعرفون ما ينبغي لهم قوله، والأطراف المتنازعة تعرف ما ينتظرها. مع ذلك، فإني أحبّذ هذا النوع من المرافعات على نظامنا البيروقراطي المعقّد والصاخب. دعوني أحاول أن أعطيكم فكرة عن الطريقة المسلية التلقائية، غير الرسمية التي تجري بها هذه الشؤون هنا في البندقية.

ثمّة قاعة فسيحة في قصر الدوقية، يجلس فيها القضاة على هذا الجانب، في شكل نصف حلقة. وتربض قبالتهم منصّة كبيرة بما يكفي لمقاعد عدّة أشخاص، يجلسون إلى جانب بعضهم البعض، وهم محامو الطرفين المتخاصمين. وهناك مصطبة قبالتهم، يجلس عليها المدّعي والمدّعى عليه. حين دخلتُ القاعة، كان محامي المدّعي قد غادر المنصّة، نظراً لأن جلسة هذا النهار ليست مخصّصة للمبارزة القانونية، فهي مكرّسة لقراءة كل الوثائق، وثائق الإثبات والنفي، بصوت مسموع، رغم أن الوثائق مدوّنة. ثمّة حاجب مهزول، يرتدي سترة سوداء كالحة، ويحمل بين يديه ملفّاً ضخماً، يستعدّ لأداء واجبه كقارئ وثائق. كانت القاعة ملأى بالنظّارة، ومن الواضح أن هذه القضية القانونية كانت هامّة تماماً في نظر جمهور البندقية، كما في نظر الأطراف المتخاصمة.

إن أملاك الوقف (Fideicommisums) تتمتّع بمكانة حقوقية رفيعة في الجمهورية. وما إن يُختم على أملاك معيّنة بهذا الطابع، حتّى تحتفظ به

على الدوام، حتّى لو كانت قد بيعت، لهذا السبب أو ذاك، قبل بضعة قرون خلت، وانتقلت إلى أيادي كثرة من المالكين. وإذا ما أُثيرت قضية حقوق الملكية أبداً، فإن أحفاد العائلة الأصلية يستطيعون الجهر بحقهم في التملّك، ولابد من عودة الأملاك إليهم.

وكان التحكيم في القضية الحالية ذا أهمّيّة خاصة؛ لأن الشكوى مرفوعة على الدوج(*) نفسه (Doge)، أو بالأحرى على قرينته، التي كانت جالسة هناك، على الأريكة الصغيرة، متلفّعة بشالها ذي القلنسوة (الزندال). كانت سيدة من عمر معيّن، ذات مظهر نبيل، وملامح اعتيادية، ويعلو وجهها تعبير حادّ، بل حتّى مرير. وكان أهل البندقية فخورين بأن يروا الأميرة تمثل في المحكمة عَلَنَاً، وفي قصرها بالذات.

بدأ الحاجب تلاوة الوثائق، وعندئذ فحسب أدركتُ مغزى الرجل القميء الجالس على مقعد واطئ وراء طاولة صغيرة، ليس بعيداً عن منصّة المحامين، كما أدركتُ أهمّيّة الساعة الزجاجية الرملية الموضوعة أمامه. لا يحسب الوقت طالما كان الحاجب يواصل التلاوة، أما إذا رغب المحامي في مقاطعة التلاوة، فإنه يُمنح فترة محددة من الوقت. حين يطالع الحاجب الوثائق، تضطجع الساعة الزجاجية الرملية على جانبها، ويد الرجل القميء على تماس معها. ولكنْ؛ ما إن يفتح المحامي فمه، حتّى ينصب الرجل الساعة على قاعدتها، ويضجعها على جنبها حال فراغ المحامي من المرافعة.

وعليه، حين يرغب المحامي في أن يجذب انتباه الجمهور أو يعترض على الدليل المقدّم، فإن ذلك يتطلّب منه مهارة فائقة في أن يقدّم تعليقات محكمة، بالغة الايجاز. وحين يفعل ذلك فإن إله المواقيت،

---

*) الدوج هو القاضي الأول في جمهورية البندقية وقتذاك.

ساتورن القميء المعني بالساعة الزجاجية، يرتبك أيما ارتباك، ويظلّ يقلّب الساعة تارة إلى وضع أفقي، وطوراً إلى وضع عمودي كل دقيقة، ويجد نفسه في حال أخرق كحال الأرواح الشريرة في مسرحية الدمى، حين يزعق المهرّج الشرّير (بيرليك، بيرلوك!)(*) في تتابع سريع؛ بحيث لا يعرف المنادون أيتعيّن عليهم أن يأتوا أم ينصرفوا.

إن الشخص الذي اعتاد سماع المقارنة بين الوثائق في ساحة القضاء هو وحده القادر على تخيّل هذه الطريقة في تلاوة نصوص الوثائق، قراءة سريعة رتيبة، لكنها فصيحة وواضحة. وإن المحامي البارع ليعرف كيف يُزيل الشعور العامّ بالرتابة والمَلَل بإطلاق تعليقات ظريفة، يستجيب لها الجمهور بضحك مجلجل. وأتذكر واحدة من النكات، وهي من أطرف ما أمكن لي استيعابه.

كان الحاجب يتلو نص وثيقة، تفيد أن المالك، الذي تعلو الشبهات حقّه في التملّك، باع الأملاك موضع الخلاف. فطلب المحامي من الحاجب التمهّل في القراءة، لكن الحاجب مضى في القراءة قائلاً: "أنا أعطي، وأورّث"، فهتف المحامي بوجهه "ماذا لديك حتّى تعطي، أو تُورّث؟ أيها الشيطان الفقير الجائع، الذي لا يملك قرشاً!" ثمّ أضاف، بعد أن تمالك نفسه، وهدأت نبرته "على أي حال، يمكن قول الشيء نفسه عن صاحبنا المالك البديع. لقد أراد أن يُعطي وأن يورث ملكاً، لا يخصّه أكثر ممّا يخصّكَ أنتَ." تبع ذلك ضحك هادر، استمرّ وقتاً طويلاً، لكن الساعة الزجاجية أُعيدت في الحال إلى وضعها الأفقي، ومضى الحاجب في التلاوة، وهو يعبس في وجه المحامي. غير أن هذا التهريج مُرتّب، بأكمله، منذ البداية.

---

*) بيرليك، بيرلوك، هي كلمات سِخرية في مسرحية "الدكتور فاوست" القديمة للدمى.

الرابع من تشرين الأول (أكتوبر)

شاهدتُ في مسرح تياتروسان لوقا، بالأمس، مسرحية كوميدية مرتجلة، أدّاها الممثّلون بالأقنعة، وبعزف موسيقي بارع. وبالطبع، كان أداء الممثّلين متبايناً. فمثلاً إن بانتالوني أجاد كثيراً، وثمّة امرأة تميّزت بأداء رائع وحضور مسرحي مكين، رغم أنها ليست من الممثّلات البارزات. كان موضوع المسرحية خيالياً، أو شبيهاً بالمواضيع التي تمثّل في بلادنا بعنوان "المكّار".

أصبنا متعة كبيرة على مدى ساعات ثلاث بالموقف الهزلي تلو الآخر. ولكنْ؛ من جديد، إن الاساس في المسرحية كلها هم عامّة الناس؛ فالنظّارة يشاركون في المسرحية، ويغدو الجمهور جزءاً من المسرح. فخلال ساعات النهار تعجّ الساحات والقنوات والجندولات وردهات المباني بالحياة؛ إذ يأخذ الشاري والبائع، والمتسوّل والنوتي، وربّة البيت والمحامي، بالبيع والشراء، والغناء والمقامرة، والصراخ والحلف بالأيمان. وفي المساء، يتوجّه هؤلاء أنفسهم إلى المسرح؛ ليشاهدوا حياتهم الحقيقية معروضة أمامهم في إيجاز وتكثيف قابل للتصديق، ولكنها ممزوجة بحكايا خرافية، ومفصولة عن الواقع بواسطة الأقنعة، مع ذلك، يظل العرض، بشخوصه، وتصرّفاته، يمثّل الحياة التي يعيشون، ويعرفون. وتراهم يفرحون بذلك، مثل الأطفال، فيصفّقون، ويهتاجون، ويصخبون في تهريج عامّ. وهم لا يتبدّلون في سلوكهم هذا، من مغيب إلى مغيب، ومن منتصف الليل إلى منتصف ليل آخر. والحقّ أني لم أشهد تمثيلاً تلقائياً طبيعياً تلقائية الممثّلين لابسي الأقنعة، وهذا فن رفيع لا يمكن بلوغه إلا بالتوفّر على طبيعة فائقة المرح، وبالمران المديد.

وأنا أكتب هذه السطور يندلع هرج منتظم تحت نافذتي، رغم أننا تجاوزنا منتصف الليل، وهؤلاء الصاخبون الهائجون ينتوون معاً شيئاً ما،

خيراً أو شراً. وسعمتُ الآن ثلاثة أشخاص يحكون قصصاً في ساحة أو دكة، وكذلك اثنين من المحامين واثنين من الواعظين، وجمهرة من الممثّلين الكوميديين. وإن لدى هؤلاء جميعاً خصال مشتركة، ليس لأنهم أبناء جلدة واحدة، يعيش فيها الناس في الحياة العامة طوال الوقت، وأنهم توّاقون للكلام فحسب، بل لأنهم أيضاً يحبّون محاكاة بعضهم البعض، ويملكون لغة إيماء مشتركة، ترافق ما يقولون ويشعرون.

اليوم هو عيد القدّيس فرانسيس، وقد توجّهتُ إلى كنيسة الفينا المكرّسة لهذا القدّيس. إن صوت الأب الكبوتشي الهدار يختلط بزعيق الباعة أمام الكنيسة. كنتُ أقف في مجاز المدخل بين الاثنين، وبدت الأصوات غريبة حقاً.

الخامس من تشرين الأول (أكتوبر)

زرتُ هذا الصباح المستودع العسكري، الذي أجده مثيراً للاهتمام، نظراً لجهلي بأمورالبَحْريّة، فتدبّرتُ أمر تعلّم بضعة حقائق أولية هناك. كنتُ كمَن يزور عائلة قديمة ماتزال فيها بقايا حياة، رغم أنها بلغت أرذل العمر. إنني ألتذّ دوماً بمراقبة الرجال، وهم يعملون، وقد شاهدتُ الكثير ممّا تجدر رؤيته. صعدتُ إلى سفينة حربية، تحوي ٨٤ مدفعاً، وكان بدن السفينة ا لمكتمل قائماً بذاته. قبل ستة أشهر احترقت سفينة حربية مماثلة عن آخرها على صفحة مياه نهر ريفا شيافوني. ولمّا كانت عنابر البارود ليست ملأى بالكامل، فإن انفجارها لم يتسبّب في ضرر كبير للناس؛ كل ما حصل أن نوافذ المنازل القريبة في الجوار، تكسرت.

وإذ كنتُ أرقب الرجال يعملون بأفضل أنواع ألواح خشب البلّوط، تحفّزت ذاكرتي بتأمّلات ذهنية عن نموّ هذه الشجرة القيّمة. لا أستطيع أن أكرّر بالقدر الكافي كيف أن معرفتي المكتسبة بجهد جهيد عن هذه

الأشياء الطبيعية، التي يتّخذها الإنسان مادة أولية ويحوّلها تبعاً لغاياته وحاجاته، تساعدني على أخذ فكرة أوضح عن تقنيات الحرف. تماماً مثلما أن معرفتي بالجبال والمعادن المستخرجة منها تنفعني نفعاً كبيراً في دراستي لفن العمارة.

وابتغاء وصف سفينة البوسنتاور بكلمة واحدة، فإنني سوف أسمّيها سفينة شراعية نموذجية. إن البوسنتار القديمة، التي تتوفّر رسومات كثيرة عنها حتّى الآن، تبرّر حملها هذا اللقب أكثر من البوسنتار الحالية، رغم أن بهاء النموذج الحالي يدفع المرء إلى نسيان النموذج الأصلي. وغالباً ما أجدني أعود إلى تصوّري القديم بأن في مقدور الفنان أن يبتدع شيئاً أصيلاً، إن أسندت إليه مهمّة أصيلة. وقد أُسندت إليه، في حالتنا هذه، مهمّة صنع سفينة شراعية جديرة بحمل رؤوساء الجمهورية في أكثر أيامهم خطورة إلى مرابض قولتهم البَحْريّة التقليدية، وقد أبلوا في صنع السفينة بلاء حسناً. ولا ينبغي للمرء أن يقول إنها مثقلة بالزينة، لأن السفينة بأكملها ماهي إلا حلية زينة واحدة. إن سائر النقوش الخشبية مذهّبة، ليس لها من غرض سوى أن تكون حلّة بهية، يرفل بها السادة في بهاء مقدّس أمام شعبهم.

وكما نعلم، فإن الناس الذين يحبّون تزيين قبّعاتهم، يحبّون أن يروا رؤساءهم في حلة فاخرة أيضاً. وإن سفينة الدولة هذه إرث ثمين للأجيال، إرث يذكّرنا بعَظَمَة إيمان البندقيين بأنفسهم، وبعَظَمَة ما كانوا عليه أيضاً.

مساءً

عدتُ لتوّي من مشاهدة مسرحية "المأساة"، وأنا ما أزال أضحك، وإذنْ؛ دعوني أصف هذه المهزلة على الورق في الحال. لم تكن هذه القطعة المسرحية سيّئة، فقد كوّم فيها المؤلّف كل الأوراق المأساوية للتراجيديا، كما أن الممثّلين اضطلعوا بأدوار حسنة. إن أغلب المواقف

مبتذل تفه، لكن بعض المشاهد كان طرياً وموفّقاً. تدور القصّة عن اثنين من الآباء يبغضان بعضهما، أما أبناء وبنات هاتين العائلتين المتناحرتين، فهم واقعون في غرام بعضهم بشكل جارف، بل إن اثنين منهما يتزوّجان في السر. وتعجّ الأحداث بمَشاهد العنف والقسوة المستمرّة، ولا يبقى في النهاية ما يكفل سعادة الفتيان والفتيات سوى أن يتقاتل الأبوان، وينتهيان بتسديد الطعنات المميتة لبعضهما البعض، فتسدل الستارة وسط تصفيق عاصف. ولم يكفّ الجمهور عن الهتاف "اخرجوا" (بالإيطالية)، حتّى جاء البطلان الرئيسان من خلف أحد جوانب الستارة؛ لينحنيا تحية للجمهور، وينصرفا من الجانب الآخر.

لم يكتف الجمهور بذلك، بل واصل التصفيق مطالباً بخروج "الموتى!" (بالإيطالية) حتّى خرج الأبوان القتيلان في المسرحية؛ لينحنيا إكراماً للجمهور؛ حيث تصاعدت بعض الأصوات "برافو، أيها الموتى" (بالإيطالية)، وأبقاهما الجمهور بعض الوقت قبل أن يأذن لهما بالخروج من خشبة المسرح. وابتغاء تقدير وإدراك كامل هذه السخافة، ينبغي للمرء أن يشاهدها بنفسه. إن أذنيّ ماتزالان تطنّان بعبارات الاستحسان "برافو، برافو!" التي يظل الإيطاليون يلهجون بها أبداً، أما الآن؛ فإن هذا الاستحسان والثناء يغدق حتّى موتى المسرحية. عمتُم مساء! نلفظ نحن الشماليين هذه العبارة في أية لحظة بعد المغيب، بمجرّد أن ننصرف عن بعضنا؛ أما الإيطاليون؛ فيقولون "طاب مساؤك" (بالإيطالية) مرّة واحدة، ببراعة، حين يُؤتى بالنوّاسة إلى الغرفة في اللحظة الفاصلة بين النهار والليل، ولذا؛ فإن لهذه العبارة معنى مغايراً تماماً. إن اصطلاحات أية لغة عَصية على الترجمة، ذلك أن كل كلمة، من أنبل الكلمات إلى أكثرها ضعة، إنما تتّصل بفرادة شخصية، ومعتقدات، وطراز حياة الشعب الذي ينطق بها.

السادس من تشرين الأول (أكتوبر)

تعلّمتُ كثرة من الأمور من المسرحية التراجيدية التي شاهدتُها بالأمس. ابتداء، أصغيتُ إلى الكيفية التي ينطق بها الإيطاليون الأوزان الشعرية المؤلّفة من أحد عشر مقطعاً. وأرى الآن بأية مهارة جمع الفنان كوزي استخدام الأقنعة بالشخصيات التراجيدية. فهذه هي الخلطة المناسبة لأناس، ينشدون إثارة عواطفهم بأكثر السبل فظاظة. فهم لا يتأثّرون عاطفياً بسوء المصير. بل يتمتّعون بقوّة وحسن إلقاء البطل للشعر. إنهم ينقادون انقياداً كبيراً بالخطابة والإلقاء، كما يريدون، في الآن ذاته، أن يضحكوا على بعض السخافات.

وإن اهتمامهم بأية مسرحية يقتصر على ما يشعرون بأنه واقعي. فمثلاً حين أعطى الطاغية السيف لابنه، وأمره بأن يقتل زوجته الواقفة أمامه، عبّر الجمهور عن سخطه إزاء هذا المطلب غير المعقول، وبلغ صخب الجمهور حداً، كاد يوقف العرض كله. راحوا يزعقون على الرجل العجوز؛ كي يستعيد السيف من ابنه، وهي حركة كان من شأنها، بالطبع، أن تخرّب مسار الأحداث اللاحقة في النص. في الختام، نزل الابن المحرج، ورجا الجمهور في تواضع جمّ أن يصبر قليلاً؛ لأن الأمور ستنتهي إلى المآل الذي يريدون. غير أن المشهد الذي اعترض عليه الجمهور كان، من الوجهة الفنّية الصرف، سخيفاً ولا معقولاً، وإنني لأتّفق قلبياً مع مشاعرهم.

وإنني لأفهم الآن فهماً أفضل الخطب الممطوطة في المسرحيات التراجيدية الإغريقية. فما كان الأثينيون أقل حبّاً للكلام من الإيطاليين، بل إنهم يتفوّقون على الطليان في براعة الكلام. ولابد أن كتّابهم المسرحيين قد تعلّموا الكثير من خطابات منابر القضاء، التي كانوا يقضون فيها أياما بكاملها.

وإذ تفحّصتُ المباني التي أنجزها المعماري بالاديو، وبخاصة كنائسه، فقد وجدتُ الكثير ممّا يستحقّ النقد إلى جوار كثرة من البراعة العظيمة. وبينما كنتُ أتساءل في دخيلتي إن كنتُ مخطئاً أو مصيباً بحقّ هذا الرجل العظيم، بدا وكأنه يقف إلى جواري، ويقول: "لقد فعلتُ هذا وذاك خلافاً لإرادتي؛ مع ذلك، فقد فعلتُه؛ لأنه أقرب الأشياء الممكنة إلى المثال الذي أريد، في ظل الظروف القائمة وقتذاك."

وكلّما أوغلتُ في التفكير بالرجل، قوي شعوري بأنه، حين كان يتفحّص ارتفاع وعرض كنيسة أو منزل قديم يُراد بناء واجهة جديدة لها أو له، كان يقول لنفسه: "كيف يسعنا أن نعطي لهذا المبنى أنبل صورة ممكنة؟ لأن المطالب المتناقضة كفيلة بأن تدفعك إلى تشويه الأشياء هنا وهناك، بل قد تحصل أيضاً بعض النشازات. غير أن البناية ككل ستظهر في أسلوب نبيل، ولسوف تتمتّع بتنفيذ العمل." على هذا النحو، نفّذ بالاديو تصوّره العظيم الماثل في عقله، حتّى وإن كان هذا التصوّر غير موائم تماماً للمكان، فكان عليه أن يُفسده في التفاصيل.

إن جناح كاريتا، إذنْ، ينبغي أن يكون ذا قيمة مضاعفة عندنا؛ لأن الفنان أُعطي حُرّيّة التصرّف، وكان بوسعه أن يطيع إملاء عبقريته دون قيد أو شرط. ولو أن بالاديو أكمل بناء الدير، لما بقي اليوم عمل معماري أكثر كمالاً منه في طول العالم وعرضه.

وكلّما أوغلتُ في قراءة كتاباته، ولاحظتُ، كحالي الآن، معالجتَه للمعمار الكلاسيكي القديم، زاد وضوح فَهْمي لأسلوبه في التفكير والعمل. كان رجلاً مقلاً في الكلمات، لكن لكل كلمة وزنها الكبير. وإن مجلّده الرابع، الذي يدرس المعابد الكلاسيكية، مدخل رائع لتعريف القارئ الذكي.

السابع من تشرين الأول (أكتوبر)

شاهدتُ ليلة أمس، في مسرح سان كريسوستومو مسرحية إليكترا لكريبيلون. مترجمة بالطبع. لا أستطيع أن أصف كيف وجدتُها تفهة المذاق، ولا أن أصف ما استبدّ بي من شعور فظيع بالمَلَل.

الواقع أن الممثّلين أجادوا، وعرفوا كيف ينقلون مغزى مقاطع معيّنة إلى الجمهور. ففي مشهد واحد هناك لا أقل من ثلاث مناسبات، يقوم فيها أوريستيس، بطل المسرحية، بالسرد، المطرّز شعراً. أما الممثّلة التي تتولى دور إليكترا، وهي امرأة صغيرة نابضة بالحيوية؛ فكانت تتلو الشعر تلاوة طليقة، لكن تمثيلها يتميّز بالغلوّ شأن دورها، وهذا أمر مؤس. من جديد تعلّمتُ شيئاً آخر. إن البحر الإيطالي الخفيف لأوزان الشعر المؤلّف من أحد عشر مقطعاً لا يناسبِ الإلقاء الشعري؛ لأن المقطع الأخير قصير دوماً، وهذا يدفع الممثّل، دون إرادة، إلى أن يرفع عقيرته في نهاية كل بيت.

حضرتُ هذا الصباح القدّاس الكبير في كنيسة سانتا جيوستينا؛ حيث يتوجّب على الدوج، في مثل هذا اليوم من كل عام، أن يحضر للاحتفال بذكرى انتصار قديم على الأتراك. وترسو السفن المذهّبة، التي تحمل الأمير وبعض النبلاء، في الساحة الصغيرة؛ ويصطفّ سوّاق القوارب، وهم يرتدون برّات خاصة بالمناسبة، ويرفعون المجاذيف في شكل متقاطع؛ أما رجال الدين وكَهَنَة الطوائف؛ فينتظرون على الشاطئ حاملين شموعاً مضاءة، على أعواد أو شمعدانات فضية، وهم يتدافعون بالمناكب؛ لكي يصطفّوا بانتظام، بانتظار الضيف الكبير؛ ومُدّت صقالة النزول من السفن إلى الشاطئ، وفُرشت بالسجاد: في البدء، يخرج الفرسان بثيابهم البنفسجية الطويلة، بعد ذلك، يخرج السناتورات في أرديتهم الحمراء، وأخيراً يبرز الدوج الكبير، بردائه الذهبي الطويل، ورداء الكتفين المعمول

من فراء القاقم، والقلنسوة الفريجية الذهبية، وخلفه ثلاثة من الخَدَم يرفعون ذيل الرداء.

إن رؤية هذا الحَدَث يجري في ساحة صغيرة قرب أبواب الكنيسة التي رُفعت عليها الرايات المُنتزَعة من الأتراك، يشبه مُشاهدة السجّاد القديم المطرّز بمشاهد وألوان جميلة، وقد غمرني ذلك بمتعة كبيرة، أنا الهارب من الشمال. إن مشهداً كهذا المشهد سيبدو غريباً تماماً في وطني؛ حيث ترتدى السترات القصيرة، كقاعدة (بالفرنسية)، في كل المناسبات والاحتفالات، وإن أعظم حفل نستطيع تخيّله هو استعراض عسكري، يحمل فيه الجنود البنادق. أما هنا؛ فإن الثياب طويلة الذيل، والمراسيم غير العسكرية، تأتي في سياقها الطبيعي.

إن الدوج رجل حلو المحيا مهيب الطلعة. ورغم أنه معتلّ الصحة، كما يبدو بجلاء، فإنه يتمالك نفسه إكراماً لجلال المناسبة، منتصب القامة تحت وطأة ردائه الثقيل. وهو يبدو مثل جدّ كبير لهذا الجنس كله، ويلوح في تصرّفه بالغ الكياسة والتهذيب. كانت ثيابه لائقة، وجذّابة، والقلنسوة الشفّافة الصغيرة التي يرتديها تحت القلنسوة لا تخز العين؛ لأنها تستقر على شعر لطيف ببياض الثلج.

يصحب الدوج نحو خمسين من النبلاء، معظمهم جميل الطلعة. ولم أشخص قبيحاً واحداً بينهم. وكان بعضهم طويل القامة، ذا رأس ضخم، يزدان بشعر مستعار أشقر مجعّد. أما قسمات وجوههم؛ فكانت بارزة، والبشرة ناعمة بيضاء، لا تشوبها شائبة منفّرة. بل كانوا يبدون أذكياء واثقي النفس بهيجين بعيدين عن التكلّف.

أخذ الموكب مكانه في الكنيسة، وبدأت مراسيم القدّاس. دخلت

الطوائف في أزواج من الباب الغربي، وبوركت بالماء المقدّس، وركعت أمام المذبح، ثمّ أمام الدوج، ثمّ أمام النبلاء، وغادرت من الباب الواقع على اليمين.

أعددتُ العدّة هذا المساء لسماع الغناء الشهير لسائقي القوارب، الذين ينشدون أشعاراً من تاسو واريوستو على إيقاع أنغامهم الخاصة. ويتوجّب حجز هذا العرض الغنائي مسبقاً؛ لأنه صار الآن من الأحداث النادرة، وينتمي بالأحرى إلى أساطير الماضي، شبه المَنسية. حين جلستُ على مقعدي في الجندول، كان القمر قد بزغ، وطفق مغنّيان، أحدهما يجلس عند القيدوم، والآخر عند الدفة، يترنّمان بالقصيد تلو القصيد بالتناوب. وإن النغم الذي نعرفه من روسو(*) يقع وسطاً بين الحوار المُغنّى وتراتيل الكورس، ويمضي - دوماً - بإيقاعات زمنية واحدة دون ضربات محدّدة. وإن انتقالات المقام هي من الصنف ذاته، ويغيّر المغنّون طبقة الصوت تبعاً لمحتوى الشعر في نوع من الترنيم.

لن أخوض في مسألة نشوء هذا الضرب من الأنغام، وفي تطوّره. حسبي القول إنه المثال الملائم لشخص يغنّي خالي البال مع نفسه، مُكيِّفاً النغم مع القصائد التي يحفظها عن ظهر قلب.

يجلس المغنّي على شاطئ جزيرة، أو ضفّة قناة، أو في الجندول، ثمّ يصدح بأعلى صوته. وإن الناس هنا يقدّرون قوّة الصوت العالي أكثر ممّا عداه. ويتوخّى المؤدّي أن يمضي بصوته إلى أبعد مدى على صفحة الماء، فيسمعه مغنّ آخر في البعيد. ولمّا كان يعرف النغم والكلمات، فإنه يجيب مكملاً البيت التالي من الشعر. ويعود المغنّي الأول؛ ليجيب عليه، فيردّ عليه الثاني، وهكذا دواليك. فيغدو كل واحد صدى للآخر.

---

*) جان جاك روسو، في كتابه: مجموعة آريا ومقطوعات شاعرية عاطفية وثنائيات باريس ١٧٥٠.

ويواصلان ذلك ليلة بعد ليلة دون كلل أو ملل. وإذا ما اختار المصغي الموقع المناسب؛ أي في وسط المسافة بين الاثنين، فإن غناءهما يسحر، كلّما تباعدت الشقّة بينهما.

ولتقديم نموذج عن ذلك، ربط سائق القارب الجندول على ساحل دار القضاء، ومشى بمحاذاة القناة في الاتجاه المعاكس. وأخذتُ أروح وأغدو، تاركاً المغنّي الذي يوشك على الغناء، متّجهاً صوب الآخر الذي توقّف لتوّه.

وشعرتُ، للمرّة الأولى، بأثر هذا الضرب من الغناء. فالاستماع إلى صوتيهما من بعيد مذهل حقاً، فهو تأسٍّ من دون حزن، فانفجرتْ دموعي من المآقي. فَسَّرْتُ الدموع بأنها ثمرة مزاجي في تلك اللحظة، لكن خادمي العجوز قال لي: لقد أراد مني أن أسمع النساء اللواتي يغنين في الليدو، وبخاصة نساء مالاموكو وبيليسترينا. وقال لي، إنهنّ ينشدنَ أشعار تاسو بالنغم نفسه، أو بنغم مقارب، وأضاف: "إن من عادتهنّ الجلوس عند شاطئ البحر، بينما يتوجّه أزواجهنّ لصيد السمك في البحر، فيغنّين تلك الأغاني بأنغام تنفذ إلى القلب، حتّى يردّ عليهنّ أزواجهنّ الغناء، من أقاصي البحر، فيظلّون يتحاورون هكذا."

أليست هذه العادة جميلة؟! ولعلّني أجرؤ على القول إن وَقْعَ مثل هذه الأصوات الغنائية المتحدّية لهدير الأمواج، قد لا يلوح لمَن يقف قريباً؛ كي يصغي لطيفاً تماماً. لكن الحافز على مثل هذا الغناء حافز إنساني أصيل، يُخرج أنغام المقام، الذي صدع الباحثون عقولهم لفَهْمه دون طائل، إلى الحياة. إنها صرخة كائن بشري وحيد، يطلقها في هذا العالم المترامي حتّى تبلغ مسامع كائن بشري آخر وحيد، وتُحرّك كوامنه للتجاوب.

الثامن من تشرين الأول (أكتوبر)

زرتُ قصر بالازوبيساني مورينا لمشاهدة لوحات باولو فيرونيس. تُصوِّر إحدى اللوحات إناث عائلة داريوس، وهنّ يركعنَ عند أقدام الإسكندر وهيفاستوس. الأمّ تتوهّم أن هيفاستوس هو الملك، لكنه يرفض هذا التشريف، ويومئ إلى الملك الحقيقي. هناك أسطورة ترتبط بهذه اللوحة تفيد أن فيرونيس قضى فترة طويلة ضيفاً في هذا القصر، وإنه رسم اللوحة سراً تعبيراً عن امتنانه لكرم الوفادة، ثمّ طواها، وتركها تحت سريره، على سبيل الهدية. لاريب أن اللوحة جديرة بمثل هذا التاريخ الخارق. إن قدرته على خَلْق الانسجام بالتوزيع الماهر للضوء والظل، والألوان الموضعية، من دون أن يترك لأي لون أن يطغى على اللوحة، وهذا جلي تماماً. وماتزال اللوحة في حالة سليمة تماماً، وتبدو جديدة، كأنها رُسمت البارحة. حين تتعرّض لوحة من هذا النوع إلى أي تلف، فإن ذلك يُفسد بهجتنا بها من دون أن نعرف لذلك سبباً.

يقال إن فيرونيس أراد، ذات مرّة، أن يرسم حكاية من القرن السادس عشر، ولم ينتقده أحد على الأزياء. إن تدرّج توزيع الأفراد، الأمّ في المقدمة، ووراءها الزوجة وبناتها، منتظم، وطبيعي، وسعيد. وإن الأميرة الصغرى، التي تركع خلف الجميع، فأرة صغيرة حلوة ذات تعبير جريء. وهي تبدو غير راضية أبداً؛ لأنها أتت في آخر الركب.

إن نزوعي في النظر إلى العالم من خلال عيني الرسّام الذي كانت لوحاته آخر ما رأيتُ، أمدّني بفكرة غريبة. طالما كانت عيوننا مدرّبة منذ الطفولة بفعل الأشياء والمواضيع التي تحيط بنا، فإن رسّام البندقية لابد وأن يرى العالم مكانا أشدّ سطوعاً بالنور، وأكثر بهجة، ممّا يراه معظم الناس. أما نحن الشماليين: فنقضي الردح الأكبر من حيواتنا في بلد معتم، بل

أقبح بكثير، من جرّاء الأوساخ والغبار، ممّا يجعل انعكاس الضوء ضعيفاً، كما أن معظمنا يضطر إلى السكن في غُرف ضيقة مزدحمة، وعليه لا يمكن لنا أن نطوّر، غريزياً، عيناً تنظر إلى العالم بمثل هذا الحبور.

وإذ انزلقتُ في القارب على صفحة مياه البحيرات وسط نور الشمس الباهر، ورأيتُ أصحاب الجندولات بأزيائهم الملوّنة الزاهية واقفين برشاقة على خلفية سماء زرقاء، ويجذفون بضربات هنية على صفحة المياه المائلة للخضرة، شعرتُ أنني أنظر إلى آخر وأفضل لوحة من أعمال فنّاني مدرسة البندقية. إن نور الشمس الساطع يرتقي بالألوان المحلّيّة إلى مصافّ لألاء مدوخ، بل إن الأجزاء الواقعة في الظل تحمل من الضوء ما يكفي لإرسال شعاع منير منه. ويمكن قول الشيء ذاته عن الانعكاسات في الماء. فكل شيء مرسوم على صفحة الماء في وضوح أخّاذ، على خلفية جلية. ولا يحتاج المشهد إلى أكثر من تلألؤ موجة زبد أبيض؛ لتضع النقاط على الحروف.

لقد امتاز تيتيان وفيرونيس بمثل هذا الوضوح إلى أقصى درجة، وحين لا نجده في أعمالهما، فهذا يعني أن اللوحة تعرّضت للتلف، أو للتلاعب بريشة آخر.

إن قباب وقناطر وواجهات المباني الرومانية ذات العماد في سان ماركو مسربلة كُلّيّةً بموزائيك متنوّع الألوان، على أرضية ذهبية مشتركة. وإن بعضها حسن، وبعضها رديء، تبعاً لأستاذ الفن الذي صنع النموذج الأصلي. فكل شيء يتوقّف على هذا النموذج؛ لأن بالإمكان محاكاة أواستنساخ الجميل أو القبيح، بواسطة قطع صغيرة مربّعة من الزجاج.

إن فن الموزاييك، الذي منح القدماء تعبيد أرضيات مبانيهم، ومنح

المسيحيين تزيين القناطر العليا في كنائسهم، قد انحدر الآن إلى وهدة تزيين علب السعوط والأساور. إن زماننا لأسوأ ممّا نظن.

يحوي متحف كازا فارسيتي مجموعة من القوالب المأخوذة عن أحسن قطع النحت القديم، ولقد سبق لي أن رأيتُ بعضاً منها في مانهايم وأماكن أخرى. ثمّة تمثال عملاق لكليوباترا، وقد التفَّ على زندها صل سامّ، وهي ترقد رقدة الموت. وتمثال لنيوبي، وهي تحمي بعباءتها ابنتها الصغيرة من سهام أبوللو. وتماثيل لبعض المصارعين الرومان. وتمثال لعبقري مجنّح، يهجع مستريحاً. وثمّة فلاسفة جالسون، أو واقفون.

هناك كثرة من البورتريهات النصفية المثيرة، تسترجع مجد الأيام الخوالي زمن القدماء. وإنني لأحس، ويا للأسى، أنني متخلّف عن ركب معرفة هذه الحقبة، عزائي الوحيد أنني أعرف الدرب الموصل إليها. لقد فتحه بالاديو لي، كما فتح لي الدروب المفضية كلها إلى الفن والحياة. قد يلوح هذا القول غريباً على الأسماع، لكنه ليس متناقضاً تناقض حالة جاكوب بوَهْمه، الذي فتح له رد جوبيتر - كبير آلهة الرومان - مغاليق أسرار الكون، بينما كان ينظر إلى إناء من القصدير. وتحوي المجموعة أيضاً على شظايا من سطح أعمدة معبد أنطونيوس وفوستينا في روما، الذي يذكّرني، بحداثته العجيبة، بتيجان أعمدة البارثينيون المنتصبة في مانهايم. ما أشدّ اختلاف ذلك كله عن قدّيسينا، الذين يقعون على قاعدتهم الحجرية، مكدّسين الواحد فوق الآخر بأسلوب التزيين الغوطي، أو عن أعمدتنا التي تشبه غلايين التبغ، أو عن أبراجنا الصغيرة المدبّبة، أوعن أزاهيرنا المصبوبة من الفولاذ. حمداً لله، أنني نضوتُ كل هذه الخردة البالية مرّة وإلى الأبد.

ينتصب عند مدخل دارة البَحْريّة أسدان عملاقان من الرخام الأبيض؛ يربض الأول واقفا على قائمتيه الأماميتين، راسخ الجنان، أما الثاني؛ فيتمدّد

بطوله مستلقياً. ويبلغ التمثالان مبلغاً من الضخامة، تجعل كل ما حولهما يبدو قميئاً، وإن المرء ليشعر بالانسحاق، لولا أن أعمال الفن السامية هذه التي تنعش الروح وتسمو بها دوماً. يقال إن الأسدين يرجعان إلى أفضل حقب الفن الإغريقي، وإن أهالي البندقية جاؤا بهما من بيراوس خلال العهد الذهبي للجمهورية.

ثمّة منحوتات بارزة على النحاس عُلّقت على جدار كنيسة سانتا جيوستينا، هازمة الأتراك، ولعلّ هذه النحاسيات جاءت من أثينا أيضاً، ولكنْ؛ تصعب رؤيتها بسبب ارتفاع منصّة كورس المنشدين. وتُصوِّر هذه المنحوتات النحاسية الحكماء المجوس يتجادلون في صفات الخالق. ولقد لفت سادن الكنيسة انتباهي إليها، موضحاً، حسب الحكاية الشائعة، أن تيتيان اتّخذها موديلاً لرسم الملائكة في لوحته الشهيرة: مصرع القدّيس بطرس الشهيد. لا ريب في أن هذه الموديلات ذات جمال لا يوصف.

ورأيتُ في باحة أحد القصور تمثالاً ضخماً عارياً، يُصوِّر ماركوس أجريبا؛ وإن الدلفين المتلوي بجواره يشير إلى أن ماركوس كان بطلاً بَحْرياً. ما أصدق القول بأن التمثيل البطولي للكائن البشري، ببساطته الذاتية، يضفي عليه هالة قدسية جديرة بالآلهة.

أنعمتُ النظر في الخيول المبثوثة في مبنى سان ماركو. يمكن للمرء، من الأسفل، أن يرى أن للخيول لمعاناً معدنياً أصفر جميلاً، غير أن بعضها الآخر مَكْسُوّ بطبقة نحاسية مائلة للخضرة. قيل لي إنها كانت ذات يوم مَطلية بالذهب، غير أن التدقيق فيها عن كثب يكشف للناظر أنها مكشوطة ومثلّمة في كل مكان، نظراً لأن البرابرة لم يجشّموا أنفسهم عناء قطعها بالمبرد؛ ليأخذوا الذهب، فراحوا يخلعونها خَلْعاً بالفؤوس. كان من شأن ذلك أن يتركها في حال أسوأ ممّا هي عليه الآن؛ ولكنها ماتزال تحتفظ بأشكالها الأصلية في الأقل.

أقلّني جندول في وقت مبكّر من هذا الصباح، أنا وحاجبي المسنّ، إلى الليدو. نزلنا عند الشاطئ، ومضينا سيراً على الأقدام عبر شريط اليابسة. وسمعتُ ضجّة تصمّ الآذان: إنه البحر، الذي أطل علينا. كانت الأمواه العالية تتكسّر في موجات كبيرة، رغم أن المياه كانت تنحسر؛ لأن الوقت هو الظهيرة، ميقات تدنيّ المدّ. ها أنذا أخيراً أرى البحر بعينيّ هاتين، وأمشي على بساط جميل من الرمل اللدن، الذي يخلّفه البحر في جَزْره. لكم تمنّيتُ أن يكون الأطفال بصحبتي! كانوا سيُشغفون بالمحار حقاً. ورحتُ ألتقط، كالطفل، الكثير من هذا المحار، لحاجتي إليه في استخدامات خاصة. ثمّة الكثير من الحبّار في هذه الأنحاء، وأنا أحتاج إلى قواقع المحار؛ لأخفّف بها السائل الحبري الذي ينفثه.

ثمّة مقبرة للإنجليز تقبع غير بعيد عن الشاطئ، وهناك مقبرة أخرى لليهود، على مقربة منها؛ إذ لا يؤذن لا لهؤلاء ولا لأولئك بأن يرقدوا رقدتهم الأبدية في أرض طاهرة. رأيتُ قبر القنصل الخيّر، سميث، وقبر زوجته الأولى. إنني مَدين له بنسختي من كتاب بالاديو، فوقفتُ عند ضريحه؛ لأتلو صلاة عرفان وشكر، وكان قبره مُدنّساً، فنصفه خاسف في الرمل.

ينبغي تصوّر الليدو بمثابة كثيب رملي. فالريح تهيّج الرمل، وتنفثه في الاتجاهات كلها، فيتراكم على كل الجوانب في طبقات متموّجة. وإن استمر الحال، فلن يقدر أحد على أن يهتدي إلى هذا القبر، رغم أنه أعلى من مستوى الأرض قليلاً.

ما أبدع منظر البحر! سأحاول أن أمخر عبابه في سفينة مع صيّادي السمك، فالجندول لا يجرؤ على مغامرة الولوج إلى أمواه البحر الفسيح.

وجدتُ على الشاطئ ضروباً شتّى من النبات، وقد أمدّتني خواصّها

المشتركة بفَهْم أعمق لطبائعها الفردية. فكلها نباتات ريّانة راسخة عصيرية، وصلبة، ومن الواضح أن ذلك يرجع إلى فعل ما يحويه الرمل من ملح، وإلى الملح العالق في الهواء، إنها تطفح بالنسغ مثل النبتات البَحْريّة، لكنها بعيدة الشبه عن أزاهير الجبال. وتميل ذؤوابات أوراقها إلى التدبّب المستدقّ الواخز مثل العوسج، وحين يحصل هذا، فإن النتوءات المدبّبة تنمو طويلة حادّة. وجدتُ إضمامة من هذه الأوراق، ظننتُها نوعاً من الحشيشات غير المؤذية، فإذا بها مدجّجة بأسلحة ماضية، وإن الأوراق وبراعم البذور والسويقات متينة متانة الجلود. الواقع أنه شوكي البحر (ويسمّى باللاتينيو: أرينجيوم ماريتيموم). سأجلب معي بذوره وبعض أوراقه المكبوسة.

يعرض سوق الأسماك ضروباً لا حصر لها من زاد البحر الوفير، ومن المبهج حقاً أن يتجوّل المرء في هذا السوق؛ ليتفقّد ضروب مخلوقات البحر، التي فارقها الحظّ، فسقطت في الشباك.

التاسع من تشرين الأول (أكتوبر)

نهار ثمين من البداية إلى النهاية! زرتُ بيليسترينا التي تقع قبالة كيوجيا؛ حيث تشيد الجمهورية دفاعات عملاقة لصدّ البحر، يسمّونها I murazzi موانع، وتُبنى هذه الدفاعات بكتل من الصخر دون إسمنت، ويُقصد بها حماية الليدو في أيام العواصف. إن البحيرات هنا هي من إبداع الطبيعة. وإن تفاعل أمواه المَدّ وتراب اليابسة، وما يرافق ذلك من تدنٍّ تدريجي في منسوب المحيط الأصلي، قد شكّل لساناً واسعاً من المستنقعات عند الطرف الأقصى من بحر الأدرياتيك، وتغمره مياه المَدّ، فلا يبين، ثمّ يبرز جزئياً خلال الجزر.

نشطت البراعة البشرية في الأقسام المرتفعة من الأرض، فخرجت

البندقية إلى الوجود بادئ الأمر كعنقود مؤلّف من مئات الجزر المحاطة بمئات أخرى من الجزر. واحتفر الناس، بتكلفة عظيمة، ولكنْ؛ بهمّة أعظم، قنوات عميقة لتمكين السفن الحربية من بلوغ النقاط الهامة حتّى في ذروة الجزر.

وإن كل ما أبدعتْه الفطنة والعمل الشاقّ في الأزمنة الخوالي، تحافظ عليه الفطنة والعمل الشاقّ في الوقت الحاضر. هناك فجوتان اثنتان في الليدو يمكن للبحر أن ينفذ خلالهما إلى البحيرات الأولى قرب القلعة، كاستيللو، والثانية قرب كيوجيا. وتنساب مياه المَدّ، في العادة، مرّة كل يوم، لتدخل وتخرج، وأن التيار يجري دوماً في المجرى ذاته. وأن أمواه المدّ العالية تغمر بقع المستنقعات، لكنها تترك الكثيب ظاهراً، أو جافاً.

غير أن الحال سينقلب تماماً، لو أن البحر هجم على اليابسة، وأحدث اختراقات جديدة فيها؛ بحيث ينفذ المَدّ، ويتراجع على هواه.

ولن يؤدّي هذا الاختراق إلى غمر المُدُن الصغيرة مثل الليدو وبيليسترينا وسان بيترو، وغيرها فحسب، بل إنه سيسدّ منظومات المواصلات المائية؛ أي القنوات بالغرين. ولسوف يؤدّي ذلك إلى تحويل الليدو إلى جزائر، والجزائر التي تقع خلفها إلى ألسنة من اليابسة. ولدرء هذا المآل، توجّب على أهالي البندقية أن يبذلوا كل جهد لحماية الليدو، حتّى تعجز غوائل الطبيعة الجامحة عن تدمير أو تعديل ما سبق للإنسان أن غزاه، وقهره، وأضفى عليه الشكل والاتجاه الموائمين لأغراضه الخاصة.

ومن محاسن الحظ المتميّز أن البحر لا يستطيع، حتّى في أقوى اضطراب لمياه المَدّ العاتية، أن يلج إلا من نقطتين، وإن المداخل موصدة دونه في كل الأمكنة الأخرى. وهذا ما يخمد سورة غضبه، وما هي إلا سويعات حتّى يرضخ البحر، فيتراجع، ويجزر.

الواقع، ليس لدى أهل البندقية ما يخشون منه إلا قليلاً: فبطء تراجع البحر يضمن لهم سلامتهم لآلاف الأعوام، وأما التحسين الذكي لمنظومة القنوات النظيفة من الطمي؛ فإنه يكفل لهم بأن يحافظوا على ممتلكاتهم من الضرر.

ما أروع الحال لو أنهم حرصوا على نظافة المدينة قليلاً! لعل رمي الأزبال في القنوات ممنوع تحت طائلة أشدّ العقوبات، لكن ذلك لا يمنع الناس من رمي كومة هائلة من الأزبال والنفايات في القنوات بعد أن تتراكم في زوايا الشوارع، أو، وهذا هو الأسوأ، إلقاء هذه النفايات في المجاري التي فُتحت أصلاً لتصريف مياه الأمطار، ممّا يسدّ مجاريها، ويهدّد بإغراق الساحات دوماً. بل إني رأيتُ هذه المجاري في ساحة سان ماركو الصغيرة، الموزّعة توزيعاً حصيفاً شأن المجاري الكبيرة مسدودة، تفيض من جرّاء رمي الأقذار فيها.

وتكتسي الدروب، في الأيام الماطرة، بالوحل تحت الأقدام؛ وإن المعاطف والعباءات tabarros التي يرتديها الناس طوال أيام السنة، تتلوّث بالوحل، كلّما عبر المرء جسراً، ولمّا كان الجميع يرتدي أحذية وجوارب. لا أحد يفكّر في احتذاء جزم. فإنها تتلطّخ بالوحل. الواقع إنه ليس وحلاً عادياً، بل نوع عفن الرائحة، يشبه الروث. وترى الكل يُنزل اللعنات والكلمات المقذعة، ولكنْ؛ ما إن يصحو الجو، حتّى يتوارى الطين عن الأنظار. ويقال عن حق إن الجمهور العمومي دائم التذمّر والشكوى، وإنه لا يحظى بخدمات حسنة، لكنه لا يتحرّك قيد أنملة؛ كيما تتحسّن الخدمات المقدّمة إليه. إن بالإمكان وضع كل هذه الأمور في نصابها، لو أن سلطات المدينة أبدت اكتراثاً.

في مساء هذا اليوم عدتُ للصعود إلى أعلى كامبانيلا. لقد رأيتُ

البحيرات، آخر مرّة، في ذروة أمجاد المَدّ، أما الآن؛ فإني أتوق إلى رؤيتها في أدنى مهانة الجزر، حتّى تكتمل الصورة الذهنية. غريب تماماً أن أرى اليابسة تحيط بي كل صوب؛ حيث لم تكن هناك قبلئذ، سوى مرآة الماء. لم تعد الجزر جزراً، بل بقع من كثيبات تنبعث من مستنقع سبخ، ذي لون رمادي ضارب إلى الخضرة، يتقاطع مع القنوات. وتكتسي المستنقعات بنباتات بحُرّيّة، وهي لابد صاعدة بالتدريج، رغم دفق أمواه المَدّ التي لا تترك هذه النباتات في حالها.

لنعد إلى البحر. أنعمتُ اليوم في مراقبة السلوك الطريف للرخويات والطحالب والسرطان؛ ما أعجب الكائنات العضوية! وما أقدرها على التكيّف! كيف لها أن تكون هنا، وكيف لها أن تكون ذاتها! ما أنفع معرفتي بالتاريخ الطبيعي لي، على قلّتها وبساطتها، وما أشدّ توقي لزيادة هذه المعرفة! ولكنّ توفّر كل هذا الزاد من المعرفة للتشارك، يُوجِب عليّ ألا أستثير أصدقائي بتعابير الإعجاب وحدها.

إن سدود البحر التي ذكرتُها آنفاً تُشاد على الشكل الآتي: يبدأ الدرج بعدّة درجات حادّة، يعلوها سطح قليل الميلان، ثمّ تعلوه درجة أخرى، فسطح مائل، بعدها ينتصب جدار عمودي، يتكلّل في أعلاه بإفريز مائل. ويتسلّق البحر المتصاعد الدرجات والسطوح المائلة، ولا يتكسّر موجه أو يعبر الجدار العمودي وإفريزه إلا إذا هاج هيجاناً مضطرماً.

وتأتي مع ارتفاع المَدّ ضروب الرخويات والطحالب أحادية الساق، وغيرها من المخلوقات الصغيرة القادرة على الحركة، وبخاصة سراطين البحر. وقبل أن تتمكّن هذه من أن تجد لها متشبّثاً بحائط البحر ينحسر المَدّ. ولا تعرف هذه المخلوقات الزاحفة جلية ما يحصل بادئ الأمر، ويبدو أنها تتوقّع عودة الغمر الفائض. لكنه لا يعود. وسرعان ما يجفّ

الحجر تحت أشعّة الشمس الساطعة، فتبدأ، عندئذ، بالتراجع السريع. وهذا يمنح سراطين البحر فرصة لقنص الطرائد. ليس هناك أمتع للنظر من مراقبة حركات هذه الكائنات. فكل ما يراه المرء هو جسم مستدير، وذراعين طويلتين، تنتهيان بكمّاشتين؛ أما أرجلها الخيطية؛ فلا تُرى. وهي تتبختر متمايلة، كما لو أنها تمشي على عكازات، وما إن يبدأ أحد الرخويات بالتحرّك، حتّى تندفع السراطين بقوّة إلى أمام، وتولج كمّاشات مخالبها بين قشرة هذه الرخويات والأرض؛ لكي تقلبها على قفاها، وتفترس الحلزون الأعزل. ولكنْ؛ ما إن تدرك الرخويات وجود عدوّها، حتّى تلصق نفسها بالحجارة عن طريق المَصّ. وهنا يقوم سرطان البحر بحركات غريبة، ورشيقة. فهو يدور حول قشرة الحلزون كالقرد، لكنه يفتقر إلى القوّة اللازمة للتغلّب على العضلات الجبّارة لمثل هذا المخلوق الصغير. ويتخلّى عن مسعى الحفر، ويسرع بحثاً عن مخلوق آخر تائه، في حين يتابع الحلزون الأول طريقه ببطء. ولم أر سرطاناً واحداً يُفلح في مسعاه، رغم بقائي ساعات في موقع المراقبة.

العاشر من تشرين الأول (أكتوبر)

أخيراً حظيتُ برؤية كوميديا حقيقية! عرض مسرح تياترو سان لوقا اليوم مسرحية "لاباروف كيوزوته"، وهي واحدة من المسرحيات القلائل التي دبّجها دولدوني، وما تزال تُعرض. يمكن ترجمة عنوان المسرحية بصيغة تقريبية إلى: "شجار وعراك في كيوجيا". إن شخوص المسرحية جميعاً هم أبناء بلدة كيوجيا، من صيّادي سمك وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم. وإن النص ليحاكي محاكاة بارعة عادات هؤلاء الناس، وشجاراتهم، وسورات غضبهم، وطيبة سريرتهم، وسطحيّتهم، وفطنتهم، وفكاهتهم، وتلقائية تصرّفاتهم. لقد كنتُ في كيوجيا بالأمس لا غير، لذا؛ فإن وجوه هؤلاء ماتزال مطبوعة في عين باصرتي، وما تزال أصواتهم ترنّ في أذني. تمتّعتُ بالمسرحية تمتّعاً

كبيراً، واستطعتُ أن أتابع الحوار على نحو جيد، رغم أني لم أفقه كل التلميحات المحلّيّة المبطّنة. وإن حبكة المسرحية تجري على النحو التالي: نساء كيوجيا يجلسنَ، كالعادة، عند عتبات بيوتهنّ على طول جبهة الماء، وهنّ منهمكات في الغزل، أو الحياكة، أو الخياطة، أو تطريز المخرمات. يمرّ شابّ، ويلقي التحية على واحدة منهنّ بحرارة أكبر من بقية الأخريات. يطلق ذلك العنان لمشادة حامية الوطيس، وتبدأ الألسن بالاحتدام، وتزداد سلاطة وهزءاً، وتتواتر الشتائم المقذعة، في حدّة متزايدة، وتُكال الاتهامات من هنا ومن هناك، حتّى تكشف امرأة سليطة عن المستور. عند هذا الحدّ، تستعر نيران الجحيم، وتضطرّ السلطات إلى التدخّل.

أما الفصل الثاني من المسرحية؛ فيدور في قاعة المحكمة. ولمّا كانت السلطات لا تأذن بتمثيل النبلاء على المسرح، فإن أمين الخزانة يتولّى دور العمدة (بالإيطالية)، ويأمّ النساء بالمثول أمامه، الواحدة بعد الأخرى على انفراد. فيثير عمله هذا الشكوك؛ لأنه واقع في غرام البطلة، وهو سعيد كل السعادة لاغتنام فرصة الاختلاء بها، والحديث إليها بعيداً عن الأنظار. ونراه يبثّها لواعج حبّه بدل أن يستجوبها.

وهنا تندفع امرأة أخرى واقعة في غرامه، ومحترقة بجنون الغيرة، مقتحمة غرفة الخلوة مصحوبة بعاشق المرأة الأولى المحتدم غضباً، ثمّ بقية النساء. تبدأ دورة جديدة من تقاذف الاتهامات، ويندلع شجار عنيف آخر في قاعة المحكمة، مثلما حصل في المشهد الأول على ضفة الماء.

وتبلغ ضروب اللهو ذروتها في الفصل الثالث، وتنتهي المسرحية بحلّ عجول، فُرض على النص فرضاً.

هناك شخصية واحدة أعدّها ابتكاراً دراميا موفّقاً. فمن بين سائر هؤلاء الناس الفضائحيين المهذارين، ثمّة صيّاد سمك عجوز يعاني من

معوقات جسمانية نتيجة شظف العيش منذ الطفولة. وإن الكلام، على وجه الخصوص، يقتضي منه جهداً جهيداً؛ إذ يتعيّن عليه أن يحرّك شفتيه، ويومئ بيديه إيماءات عنيفة قبل أن يتدبّر آخر الأمر التفوّه بما يريد قوله، ولمّا كان لا يستطيع التعبير عن نفسه إلا بجمل قصار، فقد طوّر لنفسه أسلوباً مقتضباً جاداً في الكلام، ممّا يسبغ على أقواله طابع أمثال، أو حِكَم. ويقدّم ذلك ثقلاً معاكساً رائعاً، للتصرّفات المنفلتة الجامحة عند الشخصيات الأخرى.

ولم أشهد في حياتي قطّ مثل هذا الفرح الطاغي الذي أبداه أفراد الجمهور، وهم يرون أنفسهم وعوائلهم مُصوَّرة هذا التصوير الواقعي الأخّاذ على المسرح. فكانوا يطلقون ضحكاتهم وهتافات استحسانهم من البداية إلى النهاية. وقام الممثّلون بعملهم على أروع وجه. فلقد مثّلوا معاً كل صنوف الشخصيات التي يجدها المرء وسط عامة الناس. وكانت السيدة الأولى في المسرحية فاتنة حقاً. وقد أبلت بلاء حسناً في دورها السابق كبطلة في مسرحية تراجيدية. وعلى العموم، استطاعت الممثّلات، وبخاصة البطلة، تقليد أصوات وإشارات وأمزجة الناس ببراعة تلقائية. غير أن أكبر الثناء ينبغي أن يُزجى إلى المؤلّف لابتداع هذا النص المبهج الممتع، من اللاشيء. ولا يمكن لأي مؤلّف مهما كان أن يحقّق ذلك ما لم يكن على صلة حميمة بهؤلاء الناس المحبّين للهو والمتعة. لقد كتبت النصَّ يدُ خبير ماهر.

لم أشاهد من فرقة ساتشي التي كَتَبَ لها جوزي نصوصه، والتي تفرّقت الآن سوى الممثلّة سميرالدنيا، وهي قصيرة مكتنزة، ولكنْ؛ مليئة بالحيوية، والممثّل بريجيليو، وهو رجل متين البنيان، يمتاز بقدرة تعبيرية عالية في وجهه وحركاته.

إن الأقنعة التي لا تملك في بلدنا من معنى وحياة أكثر من المومياءات، تبدو هنا بمثابة تعبير متجانس ومتميّز عن البلاد: فكل عمر من الأعمار، وكل نمط من الشخصيات أو المهن، يتجسّد هنا في زيّ خاصّ معيّن، ولمّا كان الناس يمضون في حياتهم مرتدين بزات أنيقات طوال الشطر الأعظم من العام، فلا يوجد ما هو طبيعي أكثر من مشاهدة الوجوه متنكّرة في الأقنعة على المسرح أيضاً.

الحادي عشر من تشرين الأول (أكتوبر)

لمّا كانت العزلة وسط حشد كبير غير ممكنة على المدى الطويل، فقد عقدتُ علاقة مع فرنسي عجوز. إنه لا يفقه كلمة من الإيطالية، وهو يشعر بالانشداه المطبق، رغم كل رسائل التعريف به. إنه رجل يتمتّع بمكانة مرموقة، ويمتاز بأدب جمّ، لكنه لا يستطيع الخروج من قوقعته. لابد أنه في أواخر العقد الخامس. وقد خلّف في الوطن ابنه البالغ سبعة أعوام، وهو ينتظر أخباره في لهفة كبيرة. إنه يترحّل في أرجاء إيطاليا براحة كبيرة، ولكنْ؛ بسرعة أكبر. كل مبتغاه أن يرى البلاد، ويتعلّم، في أثناء طوافه، قدر ما يستطيع. تدبّرتُ أن آخذه في بضعة نزهات مفيدة، وأن أقدّم له بعض المعلومات النافعة. وإذ رحتُ أحدّثه عن البندقية، سألني عن طول إقامتي فيها. وحين قلتُ له "منذ أسبوعين" وفي أول زيارة" أجاب:

هذه أول شهادة على حسن سلوكي بما أستطيع أن أقدّم. لقد مضى عليه في البندقية أسبوع واحد، وهو ينتوي الرحيل غداً. إن الالتقاء بتجسيد لفرساي في بلد أجنبي لتجربة أثمن من كنز. وقلتُ لنفسي "ها أنت ذا تجد نوعاً آخر من الرحّالة." فلقد أذهلني تماماً أن أرى رجلاً وفير الثقافة كبير الشجاعة والصدق، يرتحل من دون أن يلاحظ أي شيء في العالم خارج ذاته.

الثاني عشر من تشرين الأول (أكتوبر)

شاهدتُ بالأمس عرضاً مسرحياً جديداً في سان لوقا، عنوانه "إنجليزي في إيطاليا" (بالإيطالية). ولمّا كان هناك عدد كبير من الإنجليز يعيشون في إيطاليا، فمن الطبيعي أن يراقب الناس سلوكهم، وكنتُ آمل أن أطّلع على رأي الإيطاليين في ضيوفهم الأثرياء، السارّين. غير أن المسرحية لم تتمخّض عن أي زَبَد. فثمّة مشاهد معيّنة هازلة ممّا هو مألوف، وما عدا ذلك عَرْض غَثّ ومُتحذلق. زد على ذلك أن المسرحية خلتْ من أيّ طبع إنجليزي، وحفلت بإشارات أخلاقية مبتذلة مألوفة في إيطاليا، عن أمور عادية، لا قيمة لها.

أخفقت المسرحية، وكادت تشيع بصيحات الاستهجان. ولم يشعر الممثّلون أنهم في بيئتهم ومحيطهم، على غرار ما شعروا في ساحة كيوجيا. كانت هذه آخر مسرحية أشاهدها هنا، وقد أمدّتني بشيء واحد في الأقل. إنها شحذت حماستي لتمثّلات الحياة الإيطالية الحقيقية التي رأيتُها في الليالي السالفة.

بعد أن راجعتُ مدوّنات يومياتي للمرّة الأخيرة، وأضفتُ بضع إشارات من الملاحظات المسجّلة، سأقوم الآن بترتيب الأوراق في نظام منسّق، وأطويها، وأرسلها؛ كي تخضع لحُكم أصدقائي.

ثمّة الكثير في هذا السجلّ ممّا كان ينبغي أن أصفه بدقّة أكبر، وأن أجليه وأصقله، لكني سأترك النص على حاله؛ لأن الانطباعات الأولى، حتّى وإن لم تكن صائبة على الدوام، قيّمة وغالية علينا. آه، لو كان لي أن أرسل إلى أصدقائي البعيدين نفحة من الوجود الخليّ هنا! صحيح أن الإيطاليين لا يملكون أدنى فكرة واضحة عن البلدان الواقعة خلف الجبال، ولكن ما يقع وراء جبال الألب يبدو لي ضباباً غامضاً أيضاً، رغم أن وجوها

حميمة تطل عليّ من خلل هذا الضباب. إن المناخ وحده ليدفعني إلى تفضيل هذه البقاع على كل ما عداها، لولا أن للمنبت والتقاليد قيوداً جبّارة، توثّق رباطنا. ولا احبذ العيش عيشاً دائماً، سواء هنا أو في أي مكان آخر لا تتوفر لي فيه مهنة اعمل فيها. ذلك أن جدّة الأشياء هنا تشغلني انشغالاً مستديماً. وإن فن العمارة ينهض من رمسه مثل شبح من أشباح الماضي؛ ليحثّني على دراسة مبادئه وأصوله، لا لكي أمارسها أو أتمتّع بها كحقيقة حيّة، بل لكي أبجّل، في صمت، الوجود السامي لحقب الماضي التي بادت إلى الأبد، شأنها شأن قواعد لغة ميتة.

لمّا كان بالاديو يحيل، باستمرار، إلى فيتروفيوس، فقد اشتريتُ طبعة جالياني، إلا أن هذا المجلّد يثقل، بوزنه الكبير، على متاعي، مقدار ما يثقل بمحتواه على رأسي، حين أعكف على دراسته. وإني لأجد بالاديو، بطريقته المميّزة في التفكير والإبداع، مفسّراً لفيتروفيوس أوضح وأجلى من نص مترجمه الإيطالي. ليست قراءة فيتروفيوس هينة إطلاقاً: فالمجلّد مكتوب بأسلوب غامض، ولابد من دراسته دراسة نقدية. وأروح اتصفّح صفحات الكتاب، أو، إن توخّيتُ الدقّة، أقرؤها مثل موجز، بدافع الوفاء، لا طلباً للمعرفة. إن الشمس تغرب باكراً، ويتوفّر لي وقت أطول للقراءة والكتابة.

إن كل ما كان مهماً لي في يفاعتي، يعزّ على قلبي الآن أيضاً، حمداً لله. وممّا يبعث في البهجة أنني أجد نفسي، مرّة أخرى، مُتجرّئاً على مقاربة الكلاسيكيات. ويمكن لي الآن، أخيراً، أن أعترف بعلّة خفية، أو مسّ الجنون الباطن عندي. فعلى مدى سنوات وسنوات لم أتجرأ قط على أن أعاين أي مؤلّف لاتيني، أو أي مؤلّف يستثير صورة إيطاليا. وإن حصل هذا مصادفة، عانيتُ تباريح الألم. وكان هيردر غالباً ما يقول متهكّماً إنني تعلّمتُ كل لاتينيّتي من سبينوزا؛ لأن كتاب سبينوزا هو المجلّد اللاتيني

الوحيد الذي رآني أطالعه. ولم يدرك مدى حرصي على أن أحصّن نفسي من مداهمة الكلاسيكيات، وإن شدّة القلق المحض هي التي ساقتْني إلى أن ألوذ بتجريدات سبينوزا. وقد وقعتُ، منذ فترة قريبة، على ترجمة لديوان الهجاء لهوراس، قام بها فيلاند، لكن قراءتها أثارت شعوراً فيّ بالتعاسة؛ فبعد مطالعة صفحتين ليس إلان وجدتني أخرج عن طوري مغتاظاً.

لقد بلغت رغبتي الجامحة في مشاهدة هذه التكوينات بأمّ عيني حداً من الضخامة؛ بحيث لو أنني لم أتخذ القرار الذي أعكف على تنفيذه الآن؛ لتمزّقتُ إرباً. وما كانت الاستزادة من المعرفة التاريخية لتسعفني. فالأشياء كانت قيد أنملة من ملمس اليد، مع ذلك شعرتُ أن ثمّة حاجزاً منيعاً، يصدّني عنها. أما الآن؛ فإنني لا أشعر بأنني أراها للمرّة الأولى، بل إني الآن في مجرى المشاهدة الثانية.

١٤ تشرين الأول (أكتوبر)
بعد ساعتين من مغيب الشمس

أكتب هذه الأسطر في اللحظات الأخيرة من مكوثي هنا. فسفينة الشحن المتوجّهة إلى فيرارا ستنطلق في أية لحظة. لستُ نادماً على المغادرة، ذلك أن إطالة بقائي لكي أغرف المزيد من الإمتاع والكسب، توجب عليّ أن أعدّل خطّتي الأصلية. زد على هذا أن الجميع يغادرون البندقية الآن متوجّهين إلى جنائنهم وضياعهم في البرّ الرئيس. لم أقض هنا سوى فترة قصيرة، لكني استوعبتُ أجواء هذه المدينة بدرجة كافية، وأعلم انني سأحمل معي صورتها، وهي صورة واضحة وجلية، مهما تكن ناقصة.

من فيرارا إلى روما

١٦ تشرين الأول (أكتوبر)

الصباح الباكر، على متن السفينة

مايزال المسافرون نائمين في القمرة، لكني أمضيتُ الليلتين الأخيرتين على ظهر المركب متلفّعاً بعباءتي. ولم يبرد الجوّ إلا في سويعات الفجر الأولى. عبرتُ الآن خط العرض الخامس والأربعين، وينبغي أن أعود إلى لازمتي القديمة: سأكون سعيداً بأن أدع سكان هذه البلاد يحتفظون بكل شيء، لو أمكن لي، مثل ديدو، أن أحمل في قرب من جلد الثور ما يكفي من مناخهم؛ لأحيط به منازلنا. حقاً، إن المناخ ليقلب حياة المرء بأسرها. لقد كان الطقس رائعاً خلال الرحلة البَحْريّة، أما المشهد المتغيّر أبداً؛ فأشبه بلحن رعوي. ويجري نهر البو برفق في وسط سهوب مترامية. ولا يمكن للمرء أن يرى مناظر بعيدة؛ إذ تحفّ بالضفّتين أشجار وغياض. ورأيتُ النوع ذات من السدود الصبيانية التي شاهدتُها في آديج. وهي غير كفوءة على غرار سدود ساله.

فيرارا، ١٦ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

وصلتُ هنا في السابعة صباحاً بالتوقيت الألماني، وأتوقّع أن أغادرها غداً. أشعر لأول مرّة في رحلتي بثبوط الهمّة، ولا مبالاة مطبقة إزاء هذه المدينة، قليلة السكان، وسط هذا السهل المنبسط. لقد كانت شوارع هذه المدينة عينها ذات يوم تطفح بالحياة، بفضل بلاط رائع. ها هنا

عاش أريوستو خائباً، وعاش تاسو تعيساً. أما نحن؛ فنقنع أنفسنا بأننا متنّورون، بمجرّد أن نزور مقام ضريحيهما. يحوي ضريح أريوستو قدراً كبيراً من الرخام الموزّع أسوأ توزيع. وعوضاً عن السجن الذي رزح فيه تاسو، ثمّة قفص خشبي، أو خزانة فحم ما كانت لتحويه قطعاً. في البدء، لا أحد من الموجودين في البيت يعرف ما يريد المرء أن يراه. وبعد فترة يتذكّرون التفاصيل، ولكنْ؛ ليس قبل أن يصل البقشيش إلى أياديهم. وتذكّرتُ لطخة البحر الشهيرة للدكتور لوثر، التي يتبارك بلمسها سادن القلعة بين الحين والآخر. لابد أن ثمّة في كل مسافر شيء من رحّالة جوّال، يدفعه للبحث عن مثل هذه العلامات. استبدّ بي الغمّ شيئاً فشيئاً، ولم يخفّف غائلته عني سوى الانجذاب إلى معهد أكاديمي جميل، أسسه كاردينال محلي، وأوقفه للبّر. غير أن بعض صروح وأنصاب العالم القديم أعادتني إلى الحياة.

وازدادت بهجتي بفضل لوحة، تُصوِّر يوحنّا المعمدان، وهو يواجه هيرود وهيروديا س. كان الرسول المعمداني في ردائه الصحراوي المعتاد، وهو يومئ إلى السيدة إيماءة متّقدة متحمّسة. أما السيدة؛ فتنظر نظرة جامدة إلى الملك الجالس جوارها، وأما الملك؛ فينظر نظرة هادئة، ولكنْ؛ ماكرة، إلى المفعم حماسة. ويربض كلب أبيض، متوسّط الحجم، عند قدمي الملك، في حين أن كلباً بولونيزيا صغيراً، يُبصبص من تحت تنّورة هيروديا س. وينبح هذان الكلبان على الرسول. يا لها من فكرة بديعة!

تشينتو، ١٧ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

أكتب إليكم من موطن جويرتشينو بعد أن اعتدل مزاجي، وطاب عمّا كان عليه بالأمس. إن تشينتو بلدة صغيرة نظيفة ودودة، تقطنها نحو خمسة آلاف نسمة. وكالمعتاد، كان أول ما أقوم به هو أن أصعد البرج. رأيتُ بحراً من أشجار الحور تنبت في جنباته مباني ومزارع صغيرة، وكل مبنى محاط

بحقله الخاص. وكانت تلك أمسية خريفية، لا نحظى بها حتّى في صيفنا إلا ما ندر. بدأت السماء المدلهمة طوال النهار، تصفو بعد أن مضت كتل الغيم شمالاً وجنوباً في اتجاه الجبال. أتوقّع نهاراً رائقاً في الغداة.

قنصتُ لحمة من إبينانيس، التي أقترب منها الآن. يقتصر الشتاء هنا على شهري كانون الأول (ديسمبر) وكانون الثاني (يناير)؛ أما نيسان (إبريل)؛ فهو شهر الأمطار، في حين أن بقية الأشهر تتميّز بمناخ موسمي لطيف. ولا يطول سقوط المطر هنا قط. أما شهر أيلول (سبتبمر)؛ فكان أفضل وأحمى من شهر آب (أغسطس). فرحتُ لمرأى أبينانيس في الجنوب، بعد أن شبعتُ من مرأى الريف المنبسط. سأكتب في الغد من عند سفوحها.

كان جويرتشينو يحبّ بلدته شأن سائر الإيطاليين، فهم يرتقون بالوطنية المحلية إلى مصافّ العبادة. وإن هذا الشعور البديع يقف وراء العديد من المؤسّسات الرائعة، علاوة على العدد الغفير من القدّيسين المحلّيّين. ولقد أُنشئت هنا، بتوجيه من المعلّم، أكاديمية للرسم، ثمّ ترك البلدة بعد أن فرغ من عدّة لوحات، يقدرها المواطنون حتّى يومنا هذا، تقديراً كبيراً، وهو تقدير في محلّه.

شُغفت بلوحة معيّنة من لوحاته، تُصوِّر المسيح يتجلّى لأمّه بعد انبعاثه. إنها تجثو عند قدميه متطلّعة إلى وجهه بحنان، لا يُوصَف. وهي تلمس بيدها اليسرى خاصرته، أدنى الجرح، وهو جرح فظيع، يُفسد اللوحة كلها. أما المسيح؛ فيطوّق عنقها بإحدى ذراعيه، وينحني إليها؛ لكي يراها عن كثب. لن أقول إن اللوحة غير طبيعية، لكنها غريبة بعض الشيء. ورغم ذلك، فإن بطل اللوحة يبقى مثيراً للعطف الكبير. إنه ينظر إليها نظرة هادئة حزينة، كما لو أن ذكرى عذاباته وعذاباتها لا شفاء لها بقيامه، بل هي ذكرى ماثلة في روحه الطاهرة. لقد قام سترينج باستنساخ هذه

اللوحة بالحفر على الخشب، ولسوف يسعدني أن يتمكّن أصدقائي من رؤية هذا النموذج في الأقل. واجتذبتني صورة متقنة بديعة للعذراء. إن طفلها الرضيع يحاول بلوغ الثدي، الذي تتردّد في أن تكشفه له، بتواضع. وفي لوحة أخرى، نرى الطفل قبالتنا، في مقدّمة اللوحة، أما العذراء؛ فتنحني وراءه؛ لترفع يده؛ كيما يباركنا بأنامله المرفوعة. يا لها من فكرة مُسرّة، تتّفق وروح الأسطورة الكاثوليكية.

إن جويرتشينو فنان وطيد وذُكُوري بعيد عن الفظاظة. وتتّسم أعماله بجمال أخلاقي وسحر روحي، وسيماء شخصية، تفرده في الحال عن غيره من الرسّامين، بمجرّد أن تقع العين المدرّبة على التفاصيل في لوحاته. إن عمل ريشته لمذهل. ويستخدم في رسم ثياب شخوصه ظلالاً متميّزة حلوة، بلون بني ضارب إلى الحمرة، ويتناغم هذا اللون تناغماً بديعاً مع الأزرق، لونه المفضّل في اللوحات. أما مواضيع لوحاته الأخرى؛ فتخلو من السعادة. لقد عذّب هذا الفنان المرهف نفسه؛ كيما يرسم مواضيع غير ثرّة، بدّدت خياله وموهبته. وإنني لمسرور برؤية أعمال هذه المدرسة الهامة في فن الرسم، رغم أن هذه الإطلالة السريعة لا تحقّق الإمتاع التامّ المنشود.

بولونا، ١٨ تشرين الأول (أكتوبر)، ليلاً

غادرتُ تشينتو في الصباح الباكر، ووصلت بولونا بعد ذلك بقليل. وإذ علم أحد الأدلاء العارفين بأني لا أنوي المكوث طويلاً، راح يطوف بي سراعاً في الشوارع مروراً بكثرة من الكنائس والقصور التي لم يتح لي ضيق الوقت أن أراجع تفاصيلها في دليل فولكمان عن أماكن الزيارة، ولكنْ؛ من عساه يعرف كم من هذه الأماكن سأتذكّر حين أعود إلى مراجعة السجلّ في المستقبل؟! ولكنْ؛ دعوني أقدّم بعض الشذرات عن الزيارة.

ابتداء هناك لوحة سيسيليا للفنان رافائيل. أكدت لي عيناي ما كان

ذهني يقرّ به دوماً: لقد أنجز هذا الرجل ما كان الآخرون لا يجرؤون على أكثر من أن يحلموا به. ترى ما عسى أن يقول المرء عن هذه اللوحة، بخلاف أنها بريشة رافائيل؟!: خمسة قدّيسين في صفّ واحد. الأسماء لا تهمّ. رُسموا رسماً، يبلغ ذروة الكمال؛ بحيث إن المرء ليرضى بأن يموت في التو طالما بقيت هذه اللوحة إلى الأبد. غير أن فَهْم وتقدير أعمال رافايل على خير وجه، يوجب على المرء ألا يكتفي بتمجيده، بوصفه ربّ الرسم، الذي ظهر على الأرض بغتة، من دون أب أو أمّ، مثل ميلكيزدك؛ لابد - إذنْ - من معرفة أسلافه، وأساتذته. وإن هؤلاء أناساً راسخو الجذور في أرض الحقيقة؛ ذلك أن أعمالهم، ودقّتهم المرهفة، هي التي أرست الأساس العريض، فهم الذين تنافسوا على أن يرفعوا درجة درجة صرح الهرم الذي تتربّع عبقرية رافائيل السامية على قمّته، بعد أن وضع الصخرة الأخيرة لاكتمال الهرم، وبلغ الذروة التي ما جاراه أو فاقه فيها أحد.

لقد حفزت مشاهدة رسومات الأساتذة الأقدمين عندي الاهتمام التاريخي، مثل رسومات فرانسيسكو فرانتشيان، وهو رسّام بالغ الرهافة، أو بيترو دي بيروجيا، هذا الرسّام البديع الذي يبلغ من الجودة حداً، يدفع المرء إلى أن يصفه بأنه روح جرمانية شريفة. آه لو أن الحظ حالف ديورر، فساقه إلى التوغّل في إيطاليا جنوباً. مسكين ديورر.إنني أرثي لحال هذه العبقرية. التي رأيتُ لها لوحات مذهلة في ميونيخ. حين أخطأت الحساب في البندقية، وأبرمت صفقة مع عصابة من الكَهَنَة، ضيّعت عليه أشهراً من عمره، وحين جابت هولندا وقايضت أحسن لوحاتها المؤهّلة لجني ثروة (كما كان ديورر يأمل) لقاء ببغاوات، أو رسمت لوحات شخصية للخَدَم الذين جلبوا لها طبقاً من الفاكهة، لمجرّد أن تتجنّب دفع البقشيش! إن التفكير في مآل هذا الفنان المسكين الغرّ، تهيّج مشاعري، على نحو خاص، ذلك لأن مصيري، في الأعماق، يشبه مصيره؛ الفارق الوحيد أنني أعرف خيراً منه كيف أعتني بنفسي.

إن بولونا مدينة موقّرة مثقّفة، تعجّ بالناس. وهم يتجوّلون بين الأقواس التي تحفّ معظم الشوارع، وتقيهم وهج الشمس ونقيع المطر، فيما هم يبيعون ويشترون، أو يعقدون الصفقات، أو يقفون، أو يتثاءبون. هربتُ من هذه الحشود قبيل المساء، وصعدتُ إلى أعلى البرج؛ لأتنسّم الهواء الطري المنعش، وأتمتّع بالمشهد. تلوح تلال بادوا من جهة الشمال، وتلوح وراءها سلاسل جبال الألب السويسرية والتيرولية والفريوليانية، كامل سلسلة الشمال في الواقع الغارقة، آنذاك، في الضباب، أما إلى الغرب؛ فثمّة أفق رحب مفتوح، لا تقطعه سوى أبراج مودينا؛ وإلى الشرق ثمّة سهل فسيح أجدب، يمتدّ إلى بحر الأدرياتيك، وأما إلى الجنوب؛ فثمّة سفوح تلال أبينانيس المزروعة حتّى أعلاها، والمزدانة بمباني الكنائس والبيوت الريفية، كما هو حال تلال فيشينزا.

تخلو صفحة السماء من أية غمامة، أما الأفق؛ فمثقل بضباب، قال لي حارس البرج إنه لم يتلاش منذ ستّ سنوات. فيما مضى من أيام، كان بالوسع مشاهدة بيوت وكنائس فيشينزا بالمنظار المقرّب، أما هذه الأيام؛ فالرؤية نادرة، حتّى في أصفى النهارات وأحلاها. فهذا الضباب يتشبّث بسلسلة الجبال الشمالية، وإن هذه السمة هي التي تجعل موطن الآباء العزيز بلداً من بلدان الظلام السرمدي. وأشار حارس البرج أيضاً إلى أن سقوف مباني المدينة كلها تبدو جديدة كل الجدّة، بفضل اعتدال الهواء؛ فما من آجرّة على السقف تآكلت بأثر الرطوبة، أو اكتست بطحالب العفن. وهذا حقّ، غير أن ذلك قد يرجع إلى نوعية الآجرّ نفسه. ففي الأيام الخوالي، كان الآجر المفخور في هذه البقاع ذا نوعية ممتازة.

من المفزع النظر إلى البرج المائل، ولعلّه شيّد بهذا الميلان عن قصد. وحسب نظريتي، فإن أيام النزاعات الأهلية شهدت تحويل كل مبنى كبير

إلى قلعة، كما أن كل أسرة متنفّذة شادت لنفسها برجاً. وبعد فترة، تحوّل هذا النزوع إلى هواية ومَعْلم شرف في آن؛ وراح الكل يرغب في أن يتباهى بامتلاك برج. وبمضي الوقت، كثرت الأبراج العمودية، وشاعت إلى حدّ الابتذال، فرغب البعض في بناء برج مائل. إن صحّ هذا الافتراض، فإن على المرء أن يقرّ أن المعماري والمالك أصابا هدفهما؛ إذ لم يعد الناس يكترثون بالأبراج المعتدلة، وصاروا يهتمّون بالمحدّب منها. ارتقيتُ هذا البرج المائل فيما بعد. إن طبقات الآجرّ تتدرّج أفقياً. حقاً إن بالوسع إشادة أكثر المباني جنوناً، بمجرّد توفّر قضبان الحديد والملاط.

١٩ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

أمضيتُ سحابة نهاري مكتفياً بالنظر والمشاهدة. والحال في الفن يشبه الحال في الحياة. فكلّما توغّل المرء في العمق، اتّسعت الرؤية. ثمّة في سماء الفن ما لا يُحصى من النجوم الجديدة، تظهر كل يوم، مثل كاراتشي، وجويدو، ودومينتشينو، وغيرها، وهي تحيّرني حقاً. إن التمتّع بأعمال أطفال الحقب السعيدة اللاحقة يقتضي من المعرفة وحصافة الحُكم ما أفتقر إليه، وما لا يمكن نيله إلا بالتدريج. إن العقبة الأساس في فَهْم هؤلاء الرسّامين تكمن في سخف موضوعاتهم، التي تثير حنقي، رغم توقي الشديد إلى أن أحبّها، وأعجب بها.

لكأن أبناء الآلهة قد اقترنوا ببنات البشر، وأنجبوا منهنّ حشداً من الوحوش. ولا يختلف الحال بين هذا وذاك، حتّى مع عبقري مثل جويدو. وتجد نفسك في غرفة تشريح، أو عند قوائم منصّة الشنق، أو على حافة حفرة الجثث. إن أبطاله يعانون دوماً، ولا يعترضون. لا وجود لأي اهتمام بالحياة اليومية، وثمّة دوماً انتظار لوقوع أعجوبة تأتي من الخارج. وإن الشخوص هم إما مجرمون أو مجانين، باستثناء الحالات التي يعمد فيها

الفنان، كملاذ أخير، إلى تقديم صبي عار، أو صبية حلوة وسط حشد النظّارة، أو حين يعامل الأبطال القدّسيين، كما لو كانوا تماثيل لعرض الأزياء، حين يلفّهم بعباءات، تنسدل على أجسادهم في طيّات بديعة. ما هذا بأسلوب للتعبير عن فكرة كائنات بشرية! وما كان على الفنان أن يرسم إلا واحداً من كل عشرة من هؤلاء، وحتّى هذا الواحد لم يُؤذَن للفنان بأن يرسمه من الزاوية المناسبة!

إن اللوحة الكبيرة التي وضعتْها ريشة جويدو، في كنيسة منديكانتي، هي، من الوجهة الفنية، الكمال الذي تصبو إليه كل لوحة، لكن الموضوع هو قمّة السخافات التي تُفرض على الفنان فرضاً. إنها لوحة عاطفية جامحة. أحسب أن مجلس السناتورات أثنى عليها بإجماع، وأعلى شأنها أيضاً. تُصوِّر اللوحة ملاكين جديرين بالتسرية عن نفس مضطربة، يندبان جسداً ميتاً.

إن شخصية القدّيس بروكولو لا بأس بها، ولكن الأخريات! . كل هذا الحشد من الأساقفة والقسس البلهاء! وتحت هذا الحشد ملائكة أطفال، يلهون بالصفات؛ ويبدو أن الفنان، وهو يرى السكّين مسدّدة إلى عنقه، قد فعل ما ينبغي لإنقاذ نفسه، فبذل خير ما بوسعه ليقول إنه ليس ذلك البربري الذي فعل هذا.

هناك لوحة لشخصيتين عاريتين بريشة جويدو: واحدة تمثّل يوحنّا المعمدان في الصحراء، وأخرى تمثّل سيباستيان، وقد رُسمت بإتقان كبير، ولكنْ: ماذا تقول هاتان الشخصيتان؟ أحدهما يتثاءب، والآخر يتمطّى.

حين أعاين التاريخ بهذا المزاج القاتم، أجدني ميّالاً للقول: في البدء، سما الإيمان بالفنون، بعدئذ جاءت الخرافة؛ لتدمّرها.

بعد العشاء، رقّ شعوري، وخفّتْ غلوائي، عمّا كنتُ عليه في الصباح، فدوّنتُ الملاحظات التالية:

يزدان جدار قصر بالازو تاري، بلوحة شهيرة للفنان جويدو، تُصوِّر العذراء، وهي تُرضع الوليد. إن حجمها في اللوحة أكبر من الحياة، لكأن الآلهة قد رسمت رأسها. إن تعبيرها وهي تنظر إلى الرضيع عند ثديها، ينمّ عن الخشوع التامّ المطبق، لكأن ذلك الطفل الذي ترضع ليس ثمرة حبّ ومرح، بل طفل سرّيّ سماوي؛ ولا يسعها أن تتصرّف بخلاف ذلك، ولا يسعها أيضاً، في تواضعها الجمّ، أن تفهم لمَ حصل لها ذلك. أما بقية فضاء اللوحة؛ فيحتلّه ثوبها الفضفاض كثير الطيّات، الذي أبدى خبراء الفن المتضلّعون إعجاباً كبيراً به، أما أنا؛ فلم أفهم مغزاه، أو كُنهه. مَردّ ذلك، أن الألوان أعتمت في الغرفة سيّئة الإنارة، والنهار الغائم.

ورغم حالة الارتباك التي ألمّتْ بي، فقد أحسستُ أصلاً أن استخدام عيني وخبرتي وفضولي بدأ يُؤتي ثماره في إعانتي على تلمّس دربي في هذه المتاهات. ولقد أعجبتُ كثيراً، على سبيل المثال، بلوحة جويرتشينو الموسومة: الختان، نظراً لأني بتّ، الآن، أعرف أعماله معرفة حسنة، وأحبّها تماماً. وصفحتُ له مواضيعه المجافية للذائقة، ورحتُ أتمتّع بإبداع تنفيذه. لم يترك الفنان فسحة للتحليل، وقد لوّن كل شيء بأسلوب دقيق، وأداء يقارب الكمال، كما لو أنه يُزخرف على المينا.

كان حالي أشبه بحال النبي بلعام المرتبك، الذي بارك حيث جاء؛ ليلعن؛ وكان هذا كفيلاً بالتكرار، لو بقيت فترة أطول.

ولكنْ؛ حالما أرى لوحة أخرى لرفائيل، أو لوحة يمكن أن تُنسب إليه، حتّى أستعيد مزاجي الرائق وسعادتي الغامرة. وجدتُ لوحة سانت أجاثا،

وهي لوحة متقنة، وإن لم تُحفظ حفظاً سليماً. لقد أضفى الرسّام على القدّيسة سمات العافية والثقة بالنفس والعذرية، لكنه أبعد عنها البرود والخشونة. إن صورة هذه القدّيسة محفورة عميقاً في ذهني. ولسوف أتلو عليها، بالروح، مقاطع من "إفيجيني"، ولن أدع بطلة مسرحيتي تتفوّه بشيء سوى ما تقوله هذه القدّيسة.

وحين أفكّر بهذا "العبء اللذيذ"، الذي أحمله معي في طواف الحج هذا، أجدني مرغماً على الاعتراف بأن تياراً جديداً ومقلقاً من الصور الشعرية يتدفّق في ذهني بموازاة كل هذه المواضيع العظيمة التي يحفل بها الفن والحياة، والتي يتعيّن أن أتعاطى معها. بعد أن غادرتُ تشينتو، عزمتُ على مواصلة تأليف "إفيجيني"، ولكنْ؛ ما الذي حصل؟ ابتدع خيالي حبكة درامية عن إفيجيني في دلفي، ورحتُ أعكف على توسيع الحبكة. إليكم فحواها في أوجز صورة:

تدخل إليكترا إلى معبد أبوللو، وهي واثقة أن أوريستيس يجلب صورة ديانا من تاورس إلى دلفي. وتحمل إليكترا الفأس الدامية التي أنزلت المصاب في بيت بيلوبس، وتقدّمها إلى آلهة المعبد نذراً وكفارّة أخيرة. وبمصادفة منحوسة، يدخل إغريقي إلى المعبد، ويُنبئها أنه رافق أوريستوس وبيلاديس إلى تاوريس، ورأى الصديقين يُساقان إلى حتفهما، أما هو؛ فقد أسعفتْه الأقدار في أن يفرّ. تفقد إليكترا رشدها من هول ما تسمع، وتحار أين تصبّ سورة غضبها، على الآلهة أم البشر.

في غضون ذلك، تصل أفيجينا وأوريستوس وبيلاديس إلى دلفي أيضاً. وحين تلتقي الشقيقتان من دون أن تتعرّفا إلى بعضهما، فإن رباطة جأش إفيجينا وسموّها الإلهي يتجلّيان في تضادّ بين مع جموح عاطفة إليكترا البشرية. وإن الإغريقي الذي سبق وأن أفلح في الفرار، يرى إفيجينا، ويتعرّف

عليها، بوصفها الكاهنة التي ضحّت بصديقيه، كما يظنّ، فيكشف سرّها لإليكترا. تلتقط إليكترا الفأس من المذبح، وتوشك أن تفتك بإفيجينا، لكن انعطافة حسنة في مجرى الأحداث تدرأ وقوع هذه الجريمة المروّعة. إن أمكن لي كتابة هذا المشهد بشكل متقن، فسيكون أفضل مشهد يُعرض على المسرح قاطبة، ولكنْ؛ من أين لي الوقت الكافي لكتابة هذا الفصل، إن شاء الروح القُدُس؟!

ولمّا كان تسابق الكثير من الأشياء الحسنة والمرغوبة يثير توجّسي، فينبغي أن أحكي لأصدقائي حلماً رأيتُه في المنام قبل عام مضى، وقد شعرتُ أن لهذا الحلم مغزاه. رأيتُ في المنام أني نزلتُ البرّ من قارب كبير نوعاً ما، في جزيرة خصبة، وفيرة الخضرة؛ حيث قيل لي إني واجد أجمل طيور الحجل. شرعتُ في الحال أساوم أهل الجزيرة على هذه الطيور، التي راحوا يذبحونها، ويجلبونها لي بأعداد كبيرة. كنتُ أعرف أن هذه طيور حجل، ورغم أن الأحلام تمسخ الأشياء عادة، فقد كانت لطيور الحجل هذه ذيول طويلة مزدانة بطرر قزحية، تشبه العيون؛ أي تشبه ما يزدان به ريش الطاووس، أو بعض طيور الحبّ النادرة. جلب أهل الجزيرة الطيور إلى سطح القارب، ورصفوها في صفوف منتظمة؛ بحيث كانت رؤوسها تتدلى داخل القارب، أما ذيولها الملوّنة الحلوة؛ فتشرئبّ بريشها خارج القارب. وبدت الطيور في نور الشمس الساطع كومة بديعة من الألوان، يصعب تخيّلها، وبلغ عدد هذه الطيور حداً من الضخامة؛ بحيث لم يبقَ ثمّة مجال لنوتي الدفة ولا للمجذفين أي مكان. بعد هذا مضينا على صفحة المياه الساكنة، ثمّ أخذتُ أعدّ في ذهني قائمة بأسماء الأصدقاء الذين أعتزم أن يشاركوني هذه الذخائر. أخيراً وصلنا ميناءً كبيراً، وتهتُ وسط السفن العملاقة ذات الصواري، ورحتُ أمضي من سطح سفينة إلى سطح سفينة أخرى، لكي أجد مكاناً آمناً لرسو قاربي الصغير.

إن مثل هذه الصور الخيالية تمدّنا بمتعة عظيمة، ولمّا كنا نحن الذين نبتدعها، فإن لها، ولا ريب، وشيجة رمزية بحيواتنا ومصائرنا.

زرتُ الأكاديمية العلمية الشهيرة المسمّاة "المعهد" أو "الدراسات". يقع المعهد في مبنى ضخم، وبخاصة في باحته الداخلية، أما مظهره؛ فيبدو متقشّفاً، وأما المعمار؛ فليس من الصنف الحسن. ولا يفتقر السلّم ولا الممرّات إلى النقوش والأفاريز المجّملة، ويبدو كل شيء في تناسب سليم وفخم؛ ولقد ذُهلتُ، وهو ما ينبغي الإقرار به، بثراء الأشياء الجميلة المثيرة، التي جُمعت هنا. ولكني لم أشعر تماماً بالارتياح، نظراً لأني ألماني اعتاد على نمط ليبرالي من نظم التعليم.

وعادت إلى ذهني ملاحظة سابقة: رغم أن يد الزمن تُغيّر كل شيء، فإن البشر يتمسّكون بشكل الشيء، كما عرفوه أول مرّة، حتّى بعد أن تتغيّر طبيعة هذا الشيء ووظيفته. إن الكنائس المسيحية ما تزال تتمسّك بشكل البناء الروماني المعروف بـ "البازيليكا، رغم أن شكل المعبد، على الأرجح، أنسب لطقوسها ومراسيمها. وإن المعاهد العلمية ما تزال تشبه الأديرة؛ لأن الأبحاث والدراسات العلمية وجدت ملاذها الآمن الهادئ في زوايا التقى هذه. وإن المحاكم في إيطاليا تكون فسيحة أو فخمة على قدر ما يسمح به ثراء سكان هذه المنطقة أو تلك. فالمحكمة يمكن أن تُعقد في ساحة سوق مكشوفة؛ حيث كانت العدالة تأخذ مجراها في زمان القدماء. أولاً نمضي نحن لبناء أكبر مسارحنا بكل توابعه ولوازمه تحت سقف واحد، كما لو أن أول سقيفة للعروض تُقام مؤقّتاً بتسمير بضعة ألواح بالمسامير؟ إن ضخامة عدد الطلاب المتعطّشين للمعرفة، في زمن الإصلاح الديني، أرغمهم على السكن في منازل الأسر، ولكنْ؛ كم طال بنا الوقت قبل أن نعلم ملاجئ الأيتام، ونزوّد الأطفال الفقراء بالتعليم الدنيوي الضروري لهم؟!

٢٠ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

قضيتُ جلّ هذا النهار الجميل في العراء. كلّما اقتربتُ من الجبال، اشتدّ اهتمامي بالصخور والمعادن. إنني أبدو مثل أنتايوس الذي يشعر دوماً أن ثمّة قوّة جديدة تنبعث فيه كلّما لامس أمّه الأرض.

مضيتُ على صهوة جواد إلى باديرنو؛ حيث يوجد ما يسمّى بالبولونيز الثقيل، وهو معدن السبّار اللمّاع. وهم يصبّونه هنا كتلاً صغيرة مثل الكعك، وبعد أن يتكلّس، يأخذ بالتوهّج في الظلام، كما لو أنه تعرّض من قَبْلُ للنور. إنهم يسمّون هذا المعدن: فوسفوري (بالإيطالية).

وخلفتُ في طريقي بعضاً من التلال الحجرية الرملية، ووقعتُ على جلاميد من حجر الميكا الزجاجي، مشرئبّة في الأرض. إن التلّ الذي يحوي معدن السبّار الوهّاج لا يبعد كثيراً عن تنّور حجري، وجدول يتألّف من التقاء جدويلات عدّة. في البدء، ظننتُ أن ذلك طيناً رسوبياً، أي غرينياً، جرفه المطر من الجبال، ولكنْ؛ بعد إلقاء نظرة فاحصة، عن كثب، وجدتُ أن صخره الصلب ما هو إلا صخر بلّوري منحوت نحتاً رقيقاً، ويتناوب مع رقائق من الجبس. وإن الصخر البلّوري ممتزج امتزاجاً شديداً بحبيبات الحديد؛ بحيث إنه يتعرّض، بفعل عوامل الهواء والرطوبة، إلى تغيّر تامّ. فهو ينتفخ، ثمّ تتلاشى صفيحات الرقائق، ويتشكّل نوع من صلصال صدفي الشكل، متفتّت، له سطوح تتلألأ مثل الفحم القاري. ولم أقتنع حقاً بحصول هذا التحوّل إلا بعد أن فحصتُ عيّنات كبيرة، وكسرتُ شظايا عديدة؛ لأرى سطوحها من كلا الوجهين. إن السطوح الصدفية مبقّعة بحبيبات بيضاء، وأحياناً صفراء. وبالتدريج يتفكّك سطح التل بأكمله حتّى يبدو مثل كتلة ضخمة من حبيبات الحديد المتذرّي. وتحوي الطبقات الصلبة على سطوح خضراء وحمراء متصلة أكثر. ورأيتُ، مراراً، آثار خامات الكبريت.

وتسلّقتُ جلاميد في أخدود، جرفتْها مياه الأمطار من الجبال، وسُررتُ لمّا رأيتُ العديد من عيّنات معدن السبّار اللامع الذي كنتُ أبحث عنه، مشرئبّاً من جنبات الجلمود المتفتّتة. كانت هناك عيّنات معيّنة نظيفة تماماً، وأخرى مَكْسُوّة بالطين. يمكن للمرء أن يرى، في الحال، إنها ليست فُتات غرين، غير أن تعيين ما إذا كان تشكّل هذا السبّار موازياً لتشكّل البلّور الصخري، أم أنه نتيجة انتفاخ أو تفتّت هذا الأخير، إنما يتطلّب فحصاً مدقّقاً. إن العيّنات التي وجدتُها، صغيرها وكبيرها، تضاهي حجم البيضة، وإن أصغر العيّنات يبدو أشبه بالكريستال. وتزن أثقل قطعة نحو ثمانية أونصات ونصف الأونصة. ووجدتُ في الصلصال ذاته حبّات كريستال طليقة بديعة، من الجبس. وبمقدور الخبراء أن يستخلصوا استناجات أدقّ من هذه العيّنات التي سأجلبها معي. ها أنذا مثقل بالصخور ثانية! لقد جمعتُ أكثر من اثني عشر رطلاً من معدن السبّار الثقيل.

٢٠ تشرين الأول (أكتوبر)، ليلاً

كم ستطول بي الكتابة لو عنّ لي أن أطلعكم على كل الأفكار التي طافت في ذهني اليوم. لكني أشعر أنني مدفوع بقوّة قاهرة للمضي، ولا يمكن لي أن أركّز على اللحظة الراهنة إلا بمشقّة بالغة. يبدو أن السماء قد أصغت إلى ابتهالاتي وتضرّعاتي؛ لأنني سمعت الآن أن ثمّة سائق عربة (بالإيطالية) مغادر إلى روما، وعليه يتوجّب هذه الليلة، وفي الغد، أن أسوّي أموري، وأنجز بعض العمل.

لوجانو، في ابينانينس

١٢ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

لا أعلم اليوم إن كنتُ قد خرجتُ من بولونا، أو أنني أُخرجتُ منها. بتعبير آخر، أُعطيتُ فرصة المغادرة في وقت أبكر، فاغتنمتُها بسرعة. وإذنْ؛

ها أنذا الآن في نزل بائس، بصحبة ضابط بابوي متوجّه إلى مسقط رأسه، بيروجيا. ابتدأتُ الحديث معه، عندما رافقتُه في العربة ذات العجلتين، بتوجيه الثناء له. قلتُ له إنني سعيد، بوصفي ألمانياً اعتاد معاشرة العسكريين، أن أسافر بصحبة ضابط بابوي. وأجاب "أستطيع أن أتفهّم عطفك على المهنة العسكرية، فقد قيل لي إن الجميع في ألمانيا جنود، ولكنْ؛ أرجوك ألا تستاء من قولي إنني أفضّل، شخصياً، أن أنضو عني هذه البزّة العسكرية، وأن أتفرغ لإدارة ضيعة أبي الصغيرة، رغم أن واجباتي العسكرية خفيفة، وإنني أسكن سكناً مريحاً في ثكنة بولونا. إنني الابن الأصغر لأبي، وينبغي أن أتولّى الأمور حين يأزف الوقت."

٢٢ تشرين الأول (أكتوبر)

إن جيريدو ليست سوى جحر صغير في إبينايس، لكنني سعيد جداً مع ذلك؛ لأنني أعرف أن الطريق يقرّبني أكثر فأكثر من هوى قلبي. انضمّ إلينا اليوم شخصان، إنجليزي وامرأة، يزعم أنها أخته. إن لديهما جوادين جميلين، وهما يسافران من دون خَدَم، وإن الجنتلمان يتصرّف تصرّف سائس ووصيف مجتمعين. إنهما يتشاجران حول كل شيء تقريباً، ولعلّهما خرجا من بطون كتاب أرخنهولتز(*).

إن إبينايس جزء غريب من العالم. فهناك سلسلة جبال هائلة تبرز عند حافة السهل الواسع لنهر البو، من باطن الغور، وتمتدّ إلى الطرف الجنوبي من إيطاليا، وعلى جانبيها البحر. ولو أن هذه الهضبة الجبلية لم تكن على هذا القدر من العلو والتعقيد الذي يتحدّى فعل المَدّ في الحقب الموغلة في القدم، لما زاد ارتفاعها عن بقية أرجاء البلاد، ولصارت أبدع مناطق إيطاليا جمالاً وألطفها مناخاً. عوضاً عن ذلك تجد أن هذه سلسلة غريبة

---

*) ي. ف. أرخنهولتز (١٧٤٣ ـ ١٨١٢) مؤلّف كتاب: إنجلترا وإيطاليا.

من الجبال المتعرّجة، التي يستعصي على المرء أن يعرف إلى أين تمضي الجداول والغدران. ولو كانت الوديان طافحة، وكانت الأراضي المنبسطة أكثر استواء وأفضل إرواء، لأمكن مقارنة هذه الأصقاع ببوهيميا، باستثناء أن الجبال مختلفة الشكل تماماً.

ولكنْ؛ لا يجوز تصوّرها في صورة صحراء. فرغم أنها بلاد جبلية، إلا أنها مزروعة تماماً، وتزدهر فيها أشجار الكستناء، والقمح، وإن المحاصيل خضراء زاهية أصلاً. وتحفّ الطريق أشجار بلّوط دائمة الخضرة، وثمّة أشجار سرو باسقة تحفّ بالكنائس والأديرة.

بالأمس كانت السماء ملبّدة بالغيوم، أما اليوم؛ فالسماء صاحية، والجوّ لطيف.

بيروجيا، ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

لم أكتب كلمة واحدة منذ ليلتين. كانت الحانات التي ننزل فيها سيئة تماماً، لا تتوفّر فيها فسحة حتّى لبسط ورقة كتابة. زد على هذا أن مكبّ خيوط الرحلة لا يدور على منوال مريح وسلس، كما كان حاله من قبل، وأن كل شيء بدأ يقع في الاختلاط والتشوش.

في الساعة العاشرة بتوقيتنا، وفي الثالث والعشرين منه، غادرنا أبيناينس، ووجدنا فلورنسا رابضة في واد فسيح، كثيف الزراعة على نحو مذهل، ومنقّط بالفيلات والمنازل، على مدى البصر.

مضيتُ في جولة سريعة في المدينة؛ لأرى قبّة الكاتدرائية وبيت المعمودية Battistero. هاأنذا، مجدداً، بإزاء عالم جديد ينفتح أمام ناظري، لكني لم أرغب في البقاء طويلاً. إن موقع جنائن بوبولي مذهل حقاً. أسرعتُ في المغادرة قدر ما أسرعتُ في المجيء.

إن نظرة واحدة تكفي لأن تُنبئ المرء بأن الناس الذين شادوا المدينة ينعمون بالرفاه، ويرفلون في نعمة التعاقب الحميد لحكومات حسنة. إن أشدّ ما يثير العجب في توسكاني هو الأشغال العامة؛ أي الطرق والجسور، فهي جميلة وفخمة. وتمتاز في آن واحد بالكفاءة والتناسق، جامعة الفائدة بالرشاقة، ويلاحظ المرء، في كل مكان، مدى العناية الدقيقة بها، خلافاً للأملاك البابوية، التي يبدو أنها تبقى في الوجود لمجرّد أن الأرض ترفض أن تبتلعها.

إن كل ما نطقتُ به آنفاً عن أبينانيس ينطبق على توسكاني، فهي تربض في بقاع أدنى بكثير، وإن البحر القديم تولّى مهمّته بمراكمة تربة رملية عميقة ذات لون أصفر فاقع، وملمس لدن، يسهل العمل عليه. ويحتفر الفلاحون أخاديد عميقة، ولكنْ؛ على الغرار القديم نفسه. وإن محاريثهم بلا عجلات، وشفراتها ثابتة، لا تتحرّك. ويتقوّس ظهر الفلاح خلف الثيران، وهو يدفع المحراث في التربة؛ لكي يقلبها. تجري الحراثة خمس مرّات كل عام، ولا يستخدم الزرّاع إلا القليل من السماد الذين ينثرونه بأياديهم. أما في موسم البذار؛ فيقيمون أضلاعاً ضيقة، تفصلها أخاديد عميقة حتّى تجري فيها مياه الأمطار. ويزرعون القمح فوق أكتاف السواقي، حتّى يسهل عليهم المشي في الأخاديد عند الحاجة. إن هذه الطريقة معقولة تماماً في منطقة، يداهمها خطر انهمار الغزير من الأمطار، أما في هذه المنطقة ذات المناخ البديع؛ فلا أدري لمَ يلجؤون إليها. رأيتُهم يقومون بذلك قرب أريزو. يتعذّر على المرء أن يجد حقولاً أنظف وأرتب من هذه أينما كان؛ إذ يصعب على المرء أن يرى حتّى نتفة خالية من الأرض؛ والتربة نظيفة، كما لو أنها مصفّاة. ويبدو أن القمح يجد هنا أفضل مستلزمات نموّه، وهو ينمو بالفعل على أحسن ما يكون. ويزرع الفلاحون، بين عام وآخر، الباقلاء عَلَفاً للخيل، التي لا تعلف الشوفان. إن عرانيس الترمس زاهية الخضرة من

الآن، ولسوف تنضج في آذار (مارس). والكتّان ينبت، ويكبر. إنهم يتركونه في تربته طوال الشتاء، فلا يزيده الصقيع إلا متانة.

إن أشجار الزيتون غريبة الأطوار حقاً؛ فهي تبدو أشبه بالصفصاف؛ لأن لحاءها يتفلّق ويتقشّر، إلا أنها تبدو أمتن. ينمو الجذع ببطء، لكن قشرته ملساء ذات حبيبات ناعمة. وإن الأوراق شبيهة بأوراق الصفصاف، لكنها أقلّ كثافة على الأغصان. تزدان سفوح ومنحدرات التلال المحيطة بفلورنسا بأشجار الزيتون والكروم، أما الفراغات بين الاثنين؛ فتُزرع حبوباً. أما الحقول اللاحقة، قرب أريزو؛ فهي أقلّ فوضى. وفي اعتقادي أنهم لا يصدّون النباتات المتسلّقة بالقدر الكافي؛ فالمتسلّقات تؤذي أشجار الزيتون وغيرها، وإن من السهل اجتثاثها. تخلو هذه البقاع من المراعي. وقيل لي إن الذرة استنزفت التربة. وقد تدهورت الزراعة بصور شتّى منذ البدء بغرس الذرة. أعتقد أن ذلك راجع إلى قلّة ما يستخدمون من سماد.

هذه الليلة ودّعتُ الضابط البابوي بعد أن وعدتُه بزيارته في بولونا خلال رحلة الإياب. إنه نموذج كامل للإيطالي المعتاد. إليكم بعض الحكايات لتصوير شخصيته.

رآني ذات مرّة مستغرقاً في تفكير صامت، فقال ما ترجمته:

"لمَ تُنعم التفكير إلى هذا الحدّ الكبير؟! لا ينبغي للإنسان أن يفكّر. فالتفكير يورث الشيخوخة!" ثمّ قال، بعد أن تحدّثنا قليلاً:

"لا يجوز للإنسان أن يستغرق في التفكير في شيء واحد فقط؛ لأن ذلك سيورثه الجنون؛ يجب أن يدع المرء آلاف الأشياء تطوف في رأسه."

وإن ذهنية هذا الإيطالي تتجلّى على أحسن صورة في الحوار التالي. لقد لاحظ بجلاء أنني بروتستانتي، لذا، بعد بعض اللفّ والدوران؛ استفسر

مني إن كنتُ لا أمانع في الإجابة عن بعض الأسئلة، لأنه سمع الكثير من الأشياء الغريبة عن البروتستانت، ويودّ أن يحصل على معلومات مباشرة من مصدرها الأول آخر المطاف.

"هل حقاً إن كنيستكم تأذن لكم بمطارحة فتاة جميلة الغرام من دون الزواج بها؟ هل يأذن قساوستكم بذلك؟"

أجبتُ "إن قساوستنا عقلاء، لا يجشّمون أنفسهم عناء التدخّل في مثل هذه الأمور الصغيرة؛ وبالطبع، لو أننا طلبنا منهم الإذن، فلن يوافقوا قطّ." فهتف في عجب "وهل حقاً أنكم لستُم مرغمين على طلب الإذن منهم؟! يا لكم من سعداء! وبما أنكم لا تعترفون أمام الكاهن، فإنه لن يسمع عن ذلك قط."

وهنا شرع يلعن قساوسته، ويثني على حُرّيّتنا المباركة. ثمّ أضاف:

"والاعتراف؟ ماذا بشأن الاعتراف؟ يقولون لنا إن على سائر البشر، حتّى لو كانوا من غير المسيحيين، أن يعترفوا بذنوبهم. وبما أنهم غير نادمين، ولا يستطيعون الاعتراف وفق الطريق القديم، فإنهم يعترفون أمام شجرة هرمة، وهذا تصرّف سخيف وشرّير، لكنه مع ذلك برهان على أنهم يعترفون بلزوم الاعتراف."

شرحتُ له وجهات نظرنا بصدد الاعتراف وممارسته. فقال إن آراءنا مناسبة تماماً، ولكنها لا تختلف كثيراً عن الاعتراف أمام شجرة. وتردّد هنيهة، ثمّ سألني بكامل الجدّ أن أصدقه القول بشأن قضية أخرى. لقد أسرّه أحد قساوسته، وهو إنسان صادق مخلص الإخلاص كله، أن الكنيسة تأذن لنا بالزواج من أخواتنا. فوجدتُ في هذا القول اشتطاطاً يتجاوز كل حدّ. وحين أنكرتُ هذا، ورحتُ أقدّم له عرضاً لبعض الأصول العقلانية لمعتقداتنا،

رآها عادية، بل مبتذلة تماماً، وفقد اهتمامه بما أقول. ثمّ انتقل إلى مسألة أخرى، وقال:

"قيل لنا إن فريدريك الأكبر، الذي حقّق الكثير من الانتصارات، حتّى على المؤمنين الصادقين من أبنائنا، والذي تطبق شهرته الآفاق، هو في الواقع كاثوليكي رغم أن الكل يتصوّره هرطيقاً. فلديه فتوى خاصة من البابا بأن يكتم معتقده. وكما تعلم فإنه لا يدخل كنائسنا، بل يتعبّد في مصلى سرّيّ تحت الأرض، وإن الندامة تسحق فؤاده؛ لأنه لا يستطيع أن يُعلن جهاراً عن مذهبه الحقّ المقدّس؛ لأنه إن فعل ذلك فإن البروسيين، الأجلاف المتعصّبين لهرطقتهم، سيفتكون به في الحال، فلا يعود ذا نفع للقضية. لهذا السبب أعطاه الحبر الأعظم فتوى الكتمان، بالمقابل، فإن فريدريك يعتنق المذهب الوحيد الحقّ، وينشره سرّاً."

تركتُ صاحبي يهرف بكل هذه الأقوال من دون محاججة، واكتفيتُ بالقول إن من المتعذر التوثّق من ذلك مادام الأمر سرّاً. ومضت أحاديثنا في الوجهة ذاتها. ودُهشت حقاً ممّا يُبديه القساوسة من ضروب المكر، فهم يُنكرون أو يلوون الحقائق التي تمسّ الدائرة الغامضة التي تحيط بمعتقدهم الديني التقليدي، أو تُلقي عليه ظلالاً من الشك.

فوليجنو، ٢٦ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

غادرتُ بيروجيا في صباح مجيد، وشعرتُ بنعمة الانفراد بنفسي من جديد. إن موقع البلدة جميل، ومنظر البحيرة ساحر. سأتذكّر الاثنين أبداً. انحدر الطريق، بادئ الأمر، أسفل تلة، ثمّ مضى بعد ذلك على امتداد واد لطيف، تحفّه من جانبيه تلال بعيدة، حتّى بلغ بنا موضعاً، لاحت منه أسيسي في الأفق.

أعرف من قراءة مؤلّفات بالاديو وفولكمان أن معبد منيرفا يقع هنا، وقد شيّد خلال عهد أوغسطوس، ومايزال محتفظاً بمبناه على أحسن صورة.

تركتُ سائسي (بالإيطالية)، وأذنتُ له بالعودة إلى فوليجنو. كنتُ توّاقاً إلى التمشّي في هذا العالم الصامت، وصعدتُ الطريق المرتقي إلى أسيسي سيراً على الأقدام، وريح عاتية تهبّ في وجهي. أشحتُ وجهي في نفور من الأساسات الضخمة لكنيستين، تقعان عن يساري التي شيدت الواحدة فوق الأخرى مثل برج بابلي، وهما مرقد القدّيس فرانسيس. خشيتُ أن يكون الجمهور المحتشد هناك من طينة الضابط البابوي. وسألتُ صبياً لطيف المُحيّا عن الطريق إلى ماريا ديلا منيرفا، فاصطحبني إلى المدينة الرابضة على سفح تلّة. أخيراً وصلنا المدينة ثمّ.انظرْ وتعجّبْ .ها هنا ينتصب المعبد، أول صرح كلاسيكي كامل أراه بعيني. إنه معبد متواضع، يناسب بلدة صغيرة كهذه، غير أن كمال تصميمه؛ ليجعله حلية للناظر، أينما كان.

ولمّا كنتُ قد قرأتُ الكثير في مؤلّفات فيتروفيوس وبالاديو عن الأسلوب الأمثل لتصميم المُدُن، والطراز الأمثل لمواقع المعابد والمباني العمومية، فقد تعلّمتُ معاملة هذه الأمور باحترام كبير. ولقد كان القدماء، في هذا الأمر، كما في سواه، عظماء بالفطرة. يقع المعبد في منتصف الطريق الموصل إلى الجبل، في نقطة التقاء تلّتين، على رقعة منبسطة من الأرض، يسمّونها اليوم بياتزا (أي ساحة بالإيطالية). الواقع أن الساحة تميل ميلاناً طفيفاً، وتلتقي عندها أربعة شوارع، اثنان من أعلاها، واثنان من أدناها؛ لتؤلّف صليب القدّيس أندرو، وهو صليب يفتقر إلى الاتّساق. لعل البيوت التي تواجه المعبد، وتحجب مرآه، ما كانت قائمة أيام القدماء. ولو أُزيلت هذه البيوت؛ لأمكن للناظر أن يرى في القيعان الخفيضة ريفاً خصباً إلى الجنوب، ولأمكن لمرقد منيرفا أن يلوح للناظر من كل الجهات.

لكن تنظيم الشوارع يعود إلى عهد أقدم، نظراً لأنها تحاكي تعرّجات محيط الجبل. لا يقع المعبد في مركز المربّع، ولكنه أُقيم في موضع، يتيح للمقبل من روما أن يراه في المنظور القريب. ويتعيّن على المعماري أن يجيد تخطيط الموقع، علاوة على إجادته تخطيط رسم البناء.

لا يكلّ المرء عن النظر إلى الواجهة والإعجاب بالتتابع المنطقي للعمارة. إن النسق كورنثي، والمسافات بين الأعمدة مقاسة بوحدتين ثابتتين. وإن قاعدة الأعمدة أو الوطيدة المربّعة التي تسندها، تبدو كأنها تقف على منصّة، غير أن هذا محض وَهْم؛ لأن أساسات أعمدة الهيكل قد ثُقبت في خمسة مواضع، وتوجد في كل فجوة خمس درجات، تفضي إلى ما بين الأعمدة. ويمكن للمرء أن يصل، عن طريقها، إلى المنصّة التي تقف عليها الأعمدة فعلاً، ثمّ يدخل المعبد. إن هذه الفكرة الجريئة، فكرة ثقب أساسات الأعمدة، عقلانية تماماً، في إطار البناء ذاته؛ إذ لما كان المعبد يربض على تلّة، فإن بناء درج للوصول إلى ردهته، يعني أن يمتدّ هذا الدرج إلى وسط الساحة، ويقلّص فضاءها. ويتعذّر علينا الآن أن نعرف عدد الدرجات الأصلية؛ لأن معظمها مدفون في التراب، وقد كُسي موضعه ببلاط التعبيد. أرغمتُ نفسي إرغاماً على مغادرة المعبد، وكُلّي عزم على أن ألفت انتباه المعماريين إلى هذا البناء حتّى يعدّوا لنا صورة دقيقة عن خريطة عمارته. وأدركتُ من جديد قلّة ما تستحقّه التقاليد المكتسبة الشائعة، من ثقة. فبالاديو، الذي اعتمدتُ عليه ضمناً، أعدّ مخطّطاً لهذا المعبد، ولا يضع في رسومه منصّات صلدة للأعمدة على الأرض، ممّا يضفي على الأعمدة ارتفاعاً غير متناسب، ولا متناسق؛ إذ يضيف على المعبد الحقيقي ذي الرقّة العظيمة ضخامة متعملقة على غرار بالميرا. أعجز عن وصف عمق الأحاسيس التي استثارها هذا العمل في نفسي، لكنني أعرف أنها ستظل تُزهر إلى الأبد.

كان المساء لطيفاً، وكنتُ أمشي على الطريق الروماني النازل في نعمة الرضى، حين سمعتُ من ورائي، على حين غرّة أصواتاً هادرة فظّة، تتلاسن ملاسنة حامية.

قلتُ في نفسي لابد أنهم درك (sbirri)؛ إذ سبق أن لاحظتُ بعضهم في البلدة. ركّزتُ سمعي، من دون أن ألتفت، لكي ألتقط عباراتهم، مواصلاً السير في رويّة. وسرعان ما أدركتُ أني موضوع الملاسنات. مرّ بي أربعة رجال، اثنان منهم مسلّحان بالبنادق، وهم يُدمدمون. بعد أن سبقوني بضعة خطوات، التفتوا إليّ، وأحاطوا بي؛ ليسألوني عمّا أفعل هناك. أجبتُ إنني غريب، وإنني جئتُ مشياً على الأقدام من أسيسي، أما حوذي مركبتي؛ فاتجه بالعربة إلى فوليجنو. وجدوا صعوبة في تصديق قولي. إذ كيف يمكن لامرئ أن يكتري عربة، ثمّ يمضي على قدميه. وسألوني إن كنتُ قد قصدتُ الجران كونفنتو، فأجبتُ بالنفي، لكنني أكدتُ لهم أني أعرف هذه البناية منذ سنوات، وأنني عزمت هذه المرّة، باعتباري معمارياً، أن أتوجّه لمعاينة معبد ماريا ديلا منيرفا، الذي يُعدّ، كما يعلمون، أعجوبة في المعمار. لم يُنكروا ذلك، لكنهم قالوا إنهم شعروا بالمهانة؛ لأنني لم أبد ضروب التوقير لقدّيس البلدة، ولم يخفوا عني شكوكهم في أنني قد أكون مهرب سلع ممنوعة. بيّنتُ لهم سخف الارتياب في شخصي على أنه مهرّب، وهو يمشي وحده خالي الوفاض، وبلا متاع أصلاً. اقترحتُ عليهم العودة إلى البلدة معهم، والتوجّه إلى العمدة (بالإيطالية)؛ لأريه وثائق سفري؛ ليؤكد لهم أنني مسافر أجنبي محترم. تبادل الأربعة الهمس فيما بينهم، ثمّ قالوا لي ألا موجب لذلك. لقد تصرّفتُ طوال الوقت تصرّفاً هادئاً وقوراً، وأخيراً تركوني، ومضوا إلى البلدة. تابعتُهم بناظري: هنا، في مقدّمة المشهد، يسير أربعة زعران، ووراءهم في المؤخّرة، معبد منيرفا يطل عليّ في حنان، كما لو أن منيرفا نفسها تريد مواساتي. التفتّ ببصري

إلى كاتدرائية القدّيس فرانسيس الواقعة إلى يساري، وهممتُ بالسير في سبيلي، حين انفصل رجل أعزل عن جماعة الأربعة، وعاد أدراجه؛ ليقترب مني في شيء من المودّة. وقال "عزيزي، أيها الأجنبي، يجب عليك في الأقل أن تعطيني بقشيشاً؛ لأنني أؤكد لك أنني عرفتُ للتو بأنك إنسان شريف، وقد أقنعتُ أصحابي بذلك بصراحة، لكنهم حادّو الطباع، سريعو الغضب، لا يعرفون ما في الدنيا. ولابد أنك لاحظتَ أنني كنتُ أول مَن رحّب بكلماتك، وأيّدكَ في أقوالك." أثنيتُ عليه موقفه، ودعوتُه إلى أن يعمل في المستقبل على حماية أيّ غريب قد يفد إلى أسيسي بدافع الدين أو الفن، خصوصاً إن كان معمارياً يروم أخذ قياسات معبد منيرفا ورسم مخطّط عنه، فصورة هذا المعبد لم تحظ بتخطيط أو حفر على الخشب. وقلتُ إن مثل هؤلاء الزوّار الأجانب سوف يكلّلون هامات البلدة بالمجد، وإنه لو قدّم لهم يد العون، فإنهم لابدّ وأن يعبّروا له عن امتنانهم، وعند هذه الكلمات، وضعتُ في يده بضع قطع نقود فضية، أثارت سروره؛ لأنها فاقت كل ما يتوقّع. رجاني أن أعود لزيارة أسيسي قريباً؛ إذ لا يجوز لي مهما كان السبب أن أفوّت على نفسي فرصة وليمة القدّيس الحافلة بالتبجيل والتسلية. وقال أيضاً، لو أن رجلاً بهي الطلعة مثلي يودّ الاختلاء بأنثى حلوة، فإن معظم النساء الجميلات المحترمات في أسيسي سيبدينَ الاستعداد لاستقبالي بتوصية منه. واستأذن بالانصراف بعد أن وعدني وعداً جاداً أنه سيذكرني هذا المساء في دعائه عند ضريح القدّيس، وأن يتضرّع في صلاته داعياً لي بالتوفيق في رحلتي. وهكذا افترقنا، وزال الكرب بعودتي إلى الوحدة مع الطبيعة والاختلاء إلى نفسي. إن الطريق الموصل إلى فوليجنو، الذي يمضي بمحاذاة الجبل، ويطل على الوادي، طريق جميل، وإن سيري على هذا الدرب الذي استغرق نحو أربع ساعات، هو من أجمل النزهات الساحرة في حياتي كلها.

إن الارتحال مع الحوذيين (بالإيطالية) شأن منهك، وإن الثناء الوحيد ممّا يقال فيه هو أن بوسع المرء دوماً أن ينزل من العربة؛ ليمشي. ولقد رضختُ طوال الطريق في فيرارا إلى الانجرار على هذا النحو. إن إيطاليا التي حَبَتْهَا الطبيعة بكل المزايا الحلوة متخلّفة تماماً عن سائر البلدان في ركب المخترعات الميكانيكية والتقنية، التي باتت، بعد هذا وذاك، عماد الراحة واليُسر في الحياة. إن عربة السائس تُدعى una sedia؛ أي "ذات المقعد الواحد"، ولا ريب أنها محوّرة عن المحفّات القديمة التي كانت العجائز المسنّات أو كان الأعيان والوجهاء يُحمَلون فيها على البغال. أما البغل الذي كان يُربَط بين عمودي المؤخّرة؛ فقد استبدل به الآن عجلتان، وهذا هو كل التطوير المضاف. وما يزال المرء يهتزّ الآن اهتزازه عصر ذاك، قبل قرون. وينطبق الحال نفسه على منازلهم، وأمورهم الأخرى. إن الحلم الرعوي عن الإنسان البدائي الذي يعيش في العراء، ولا يلجأ إلى الكهوف إلا في حالات الاضطرار والطوارئ، هو حقيقة قائمة هنا. ولكيما يرى المرء هذه الحقيقة، ما عليه إلا أن يلج مساكنهم، خصوصاً في أنحاء الريف، فهذه المساكن تحتفظ بكل خصائص الكهوف.

وتجدهم خالين تماماً من الهمّ فارغي البال؛ لأنهم يخشون من أن يودي بهم التفكير إلى شيخوخة مبكّرة. وبفعل هذا الإهمال الذي لا نظير له، تجدهم يتقاعسون عن إعداد المؤونة اللازمة لأماسي الشتاء الطويلة، فيعانون، نتيجة ذلك، كالكلاب، طوال فترة مديدة من العام. وإن النزل هنا في فوليجنو يشبه منزلاً أسرياً هوميروسياً. يتجمع الكل هنا في حجرة حول موقد مفتوح زاعقين مثرثرين. ويأكل الجميع سوية على مائدة واحدة طويلة، كما في لوحة وليمة العرس في قانا. وجلب أحدهم، لدهشتي، قنّينة حبر، لذا؛ سأنتهز الفرصة للكتابة، رغم أن هذه الصفحات ستشي ببرودة طاولة الكتابة وبُعدها عن الإيفاء بالمرام.

أدركتُ لتوّي مدى جرأتي في السفر في أرجاء هذا البلد منفرداً من دون تهيئة مناسبة. وإن اختلاف العملات، وتبدّل الحوذيين، وتباين الأسعار، وتغيير حانات المبيت التعيسة، تؤلّف إزعاجاً يومياً، وأن كل مَن يرحل لأول مرّة طامحاً إلى التنعّم بمتع لا تنقطع، كفيل بأن يعاني الخيبة مراراً، وأن يضطر إلى التصدّي للكثير من العناء. غير أن أمنيتي الوحيدة كانت وما تزال أن أزور هذا البلد، وأراه، مهما كلّف الثمن، ولن أنطق كلمة شكوى واحدة حتّى لو جرّوني إلى روما جرّاً مربوطاً إلى عجلة إكسيون.

تيرني، ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر)، المساء

ها أنذا أجلس ثانية في كهف، تهدّم بفعل زلزال في العام الماضي. تربض بلدة تيرني وسط تلال جيرية، تحاذي سهلاً منبسطاً. وهي، شأن بولونا الواقعة على الجهة الأخرى، تربض عند قاع سلسلة جبلية.

بعد أن غادرنا الضابط البابوي، جاءنا الآن قسّيس، رفيق سفر. وبالطبع فقد شخّصني باعتباري هرطيقاً، لكنه مستعدّ لأن يجيب عن كل أسئلتي حول الشعائر والطقوس وما شاكل. إن التعرّف على أناس جُدُد طوال الوقت يمدّني بما جئتُ لأجله؛ وإن الإصغاء إلى الناس، وهم يتجاذبون الحديث فيما بينهم، يزوّد المرء بصورة حقيقية عن البلاد. فهم يتخاصمون خصاماً مريراً، ويغرقون في أغرب أنواع الروح المحلّيّة للأقاليم، أو النزعة الوطنية للبلدات والمُدُن، ولا يطيقون بعضهم البعض. وهناك نزاعات أبدية بين مختلف الطبقات، تُخاض بحمية خارقة، تجعل المرء يبدو كمَن يشارك ليل نهار في مسرحية كوميدية يعرّي فيها الجميع ذواتهم، مع ذلك، فإنهم قادرون على ضبط جموحهم بسرعة أيضاً، وعلى الانتباه الفوري لاستياء أيّ غريب من سلوكهم.

ارتقيتُ الدرب إلى سبوليتو، ووقفتُ فوق قناة حجرية لنقل الماء،

وهي تقوم أيضاً مقام جسر يربط تلاً بآخر. هناك عشرة أقواس من الآجرّ تقطع الوادي، شاخصة هناك، في سكون، عبر القرون كلها، أما الماء؛ فينساب على الدوام في كل أحياء سبوليتو. هذا ثالث عمل من أعمال العصور القديمة ممّا رأيتُ، وهو يجسّد الروح النبيلة ذاتها. إن الإحساس بالصالح العام، الذي يؤلّف عماد عمارتهم، هو بمنزلة طبيعة ثانية في نفوس الأقدمين. من هنا منشأ المدرجات، والمعابد، والقنوات العلوية. وأدركتُ، لأول مرّة، سبب بغضي للمنشآت الاعتباطية مثل القلاع المسمّاة فينتركاستن(*) في فايسنشتاين، على سبيل المثال، فهي هباء، لا معنى له، قطعة فظيعة هائلة من الحلوى. ولقد شعرتُ بالنفور ذاته من آلاف المباني الأخرى. فهذه الأنصاب ليست سوى جهيض؛ لأن كل ما لا يملك سبباً عقلياً لوجوده إنما هو جثّة هامدة، تخلو من العَظَمَة، أو لن تبلغها قط. ألا ما أكثر المتع والأفكار التي أمدّتني بها هذه الأسابيع الثماني الأخيرة، مشكورة! إلا أنها أبهضتني بقدر كبير من العناء أيضاً. أحاول أن أبقي عيني مفتوحتين على سعتهما طوال الوقت، وأتذكّر أكبر قدر من التفاصيل، وأمتنع عن إصدار الحكم خارج حدود قدرتي.

إن الكنيسة الصغيرة الغريبة الجانبية لسان كروسيفيسو، ليست، في رأيي، بقايا معبد، كان قائماً ذات يوم في هذا الموضع. من الجلي أن الأعمدة والركائز والسطوح، قد وُجدت هنا، واستُخدمت في البناء. فكانت النتيجة بناءً سخيفاً، وإن كان لا يخلو من مهارة. يتعذّر وصف هذا المبنى، ومن المؤكد أن ثمّة صورة عنه منقوشة على الخشب في مكان ما. إن الصعوبة المحيّرة في السعي لتكوين فكرة عن العصور القديمة تكمن في أننا لا نملك ما نمرّ به سوى الأطلال، فتظل محاولات إعادة تركيب الماضي ناقصة.

---

*) الفينتركاستن هي قلعة ضخمة مثمّنة الأضلاع عند فيلهلم شوهه، بالقرب من كاسل، ألمانيا.

أما ما يسمّى بالتربة الكلاسيكية؛ فمسألة أخرى. إذا أحجمنا عن مقاربة هذه التربة مقاربة خيالية، وركّزنا على دراستها في واقعها المباشر المتاح لحواسّنا، فإنها ستتجلّى للعيان بوصفها مسرحاً لأحداث جسام، جرت، وحُسمت. لقد دأبتُ على معاينة أي مشهد بعين جيولوجي وطوبوغرافي، متجاوزاً خيالي وعاطفتي؛ لكي أحافظ على باصرة عقلي في المراقبة الجلية المتجرّدة. فإن توفّق المرء في أن يقوم بهذه المراقبة المتجرّدة منذ البدء، تدفّق التاريخ تلقائياً ومنطقياً في كل بهائه العجيب. إن أشدّ ما يستبدّ بي من رغائب الآن أن أطالع تاسيتوس في روما.

ينبغي ألا أغفل ملاحظاتي عن المناخ. حين مضينا بالعربة في أبينواينس، بعد مغادرة بولونا، كانت الغيوم ما تزال تندفع شمالاً، إلا أن وجهتها تغيّرت لاحقاً صوب بحيرة تراسيمينو؛ حيث توقّفت هناك ساكنة، باستثناء قلّة منها، واصلت الحركة إلى أقصى الجنوب. وهذا يبرهن أن سهل نهر البو المترامي الأطراف، لا يرسل كل غيومه، في فصل الصيف إلى جبال الألب التيرولية، بل يوجّه بعضاً منها إلى أبينواينس، وهذا هو، على الأرجح، سبب موسم الأمطار هناك. شرع الزّرّاع في جني الزيتون، وهم يلتقطونه باليد؛ أما في أماكن أخرى؛ فإنهم يقطفون بضرب الأغصان بالعصي. إذا بكّر الشتاء بالقدوم، فإنهم يتركون بقايا الثمار في أغصانها حتّى الربيع. ولقد رأيتُ بعضاً من أضخم أشجار الزيتون المعمّرة في رقعة صخرية من الأرض.

إن آلهات الشعر والغناء والفنون، لا يزرنَ المرء في اللحظة المناسبة، شأن الشياطين. لقد سقنَني اليوم إلى بَلْورة فكرة في غير أوانها. فإذ كنتُ أقترب من مركز الكاثوليكية، وأنا محاط بالكاثوليك، ومحشور على مقعد عربة جوار قسّ، وساع إلى تلمّس وإدراك حقيقة الطبيعة ونبل الفن، انبجستْ في ذهني فكرة جامحة، تفيد أن كل آثار المسيحية الأولى قد

انطمست، وامّحتْ من الوجود. وحين كنتُ أراها بعين الخيال في نقائها الأول، كما سجّلتها أعمال الرُّسُل، كنتُ أرتعد من وثنية عصر الباروك المشوّهة، التي فرضتْ نفسها على تلك البدايات البسيطة البريئة. وداهمتْني من جديد أسطورة اليهودي الجوّال، الذي شاهد كل هذه التطوّرات الغريبة، وعاش ليشارك في ذلك المشهد الخارق يوم عاد المسيح؛ ليتفقّد ثمار تعليمه، فداهمه خطر الصلب مرّة ثانية. وينبغي لعبارة "غفران الصلب الثاني" venio iterum crucifigi أن تقوم مقام عنوان لهذه الكارثة.

ثمّة أحلام أخرى مماثلة، تحوم أمام ناظري. وفي عجلتي لمواصلة الرحلة، نمتُ بكامل حلّتي، دون أن أجد ما يسرّ الفكر سوى أن أتخيّل مَن يوقظني قبيل انبلاج الفجر؛ لكي آخذ مكاني في العربة، وأمضي مرتحلاً، وأنا وسنان، تاركاً صور الأحلام تنطلق؛ لتفعل بي ما تشاء.

سيتا كاستيلانا، ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر)

ينبغي ليومي الأخير أن ينقضي من دون تسجيل. لم تبلغ الساعة الثامنة بعد، لكن الكل نيام، وأنا حُرٌ في تأمل الماضي، والتطلّع إلى المستقبل القريب. كان الصباح بارداً جداً، والنهار صافياً ودافئاً، والمساء جميلاً مع شيء من الريح. غادرنا تيرني باكراً، وبلغنا نارني قبيل طلوع النهار، لذا؛ لم أستطع مشاهدة الجسر. التلال الجيرية تحيط بها من كل صوب، دون أثر لأية تشكيلات صخرية.

تربض أوتريكولي على رابية غرينية، تشكّلت في حقبة موغلة في القدم، وقد شيّدت البلدة من مقذوفات البراكين المجلوبة من الضفّة الأخرى للنهر. ما إن يعبر المرء الجسر حتّى يجد نفسه على أرض بركانية، مؤلّفة إما من حمم البراكين، أو من صخور متحوّلة سابقة عليها. صعدتُ العربة تلاً،

أميل إلى القول إنه من المعادن البركانية الرمادية اللون. وهو يحوي الكثير من البلّورات البيضاء التي تشبه فصوص العقيق. وقد بُلِّط الطريق الرئيس المؤدّي إلى سيتاكاستيلانا من هذه البلّورات الصلبة، فأكسبته سطحاً أملس بديعاً لسير المركبات. لقد أُنشئت المدينة على كثيب من حجر بركاني كثير المسامات، يتخلّله، كما أظن، الرماد والحجر الزجاجي وشظايا حمم البراكين. إن المشهد الذي تطل عليه القلعة رائع. ويشخص جبل سوراكته وحده في عزلة زاهية. لعل هذا الجبل يتشكّل من الحجر الجيري، وينتمي إلى مقاطعة أبينانيس. وتربض المناطق البركانية في مستوى أوطأ بكثير، لا يقطعها سوى الماء الدافق، الذي يحتّها حتّاً، حافراً فيها أشكالاً بالغة الروعة، تتّخذ صورة أكمة مشرئبّة، أو صوراً أخرى تصادفية.

وإذنْ؛ روما، غداً مساءً! لا أصدّق ذلك حتّى اللحظة. ترى ما عساني أتمنّى بعد أن تتحقّق هذه الأمنية؟ لا أجد خيراً من التفكير في النزول إلى موطني بسلام في قاربي المليء بطيور الحجل؛ لأجد أصدقائي يرفلون في الهناء والعافية، سعداء بلقياي ثانية.

روما

الزيارة الأولى، تشرين الأول ١٧٨٦ ـ شباط ١٧٨٦

روما، الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٨٦

ها أنذا أخيراً أنهي صومي عن الكلام، وأرسل لأصدقائي تحية سارّة. آمل أن يغفروا لي تكتّمي، ورحلتي شبه السّرّيّة إلى هذه البلاد. فلم أجرؤ حتّى أن أكاشف نفسي عن المكان الذي أقصد، وكنتُ، طوال الطريق، أخشى أن أكون سادراً في حلم؛ ولم أصدّق عيني حتّى اجتزتُ مدخل بورتا ديل بوبولو، أعني أني كنتُ في روما حقاً.

دعوني أقول الآتي: أنتم في القلب من أفكاري باستمرار في أثناء وجودي هنا في روما، وسط كل هذه الأشياء التي لم أتوقّع، قط، أن أراها رؤية العين. لم أعتزم القيام بهذه الرحلة المديدة، المنفردة إلى مركز العالم إلا بعد أن أدركتُ أننا جميعاً في الوطن مكبّلون، روحاً وجسداً، إلى الشمال، وإن كل رغبة في زيارة هذه الأصقاع قد تلاشت، فتولّدت عندي الرغبة العارمة في الانطلاق.

وما إن ارتوت هذه الرغبة، حتّى عاد أقراني وأرض موطني إلى موقع الاعتزاز الأثير في فؤادي، واشتدّت رغبتي في العودة اشتداداً؛ لأنني بت على يقين من أن الكنوز الكثيرة التي سأرجع بها إلى الوطن ستخدمني وتخدم الآخرين هادياً ومربّياً طوال حياة المرء.

الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)

ها قد حللتُ، أخيراً، في المدينة الأولى في العالم! لو أني شاهدتُها

قبل خمسة عشر عاماً بصحبة دليل ذكي يرشدني، لقلت إنني إنسان على جانب كبير من الحظ. ولكنْ؛ لمّا قيّض لي أن أزورها بمفردي، وأن أعتمد على حكم ما تراه عيناي، فإنني مغتبط في الأقل لحصولي على هذه النعمة بعد هذا العمر.

لقد مضيتُ عبر جبال تيرول أنهب الأرض نهباً، كما لو كنتُ في فرار، لا في رحلة. شاهدتُ فيشينزا وبادوا والبندقية مشاهدة مدقّقة، ورأيتُ فيرارا وتشينتو وبولونا مشاهدة عابرة، أما فلورنسا؛ فلم أرها إلا بالكاد. كان توقي لبلوغ روما يتنامى ويكبر مع مرور كل لحظة، حتّى لم يعد ثمّة ما يحفزني على التوقّف؛ حيث لم أقض سوى ثلاث ساعات هناك. والآن، ها قد وصلت مبتغاي، وهدأ روعي، وأخذتُ أشعر أنني وجدتُ سَكِينة ستلازمني في حياتي كلها. ذلك لأن المرء، إن جاز لي القول، حالماً يبصر بأمّ عينيه الكل الذي سمع عنه نتفاً وأجزاء، حتّى تبدأ له حياة جديدة.

لقد تحقّقت كل أحلام شبابي؛ وإن أول صورة محفورة على الخشب ممّا أتذكّر. حيث كان أبي يعلّق مناظر روما في ردهة المنزل. تتجسّد أمام ناظري في الحياة، وإن كل ما عرفتُه منذ أمد بعيد عن طريق اللوحات والرسوم والكليشيهات المحفورة على المعدن والصور المحفورة على الخشب، وتماثيل الجبس، والموديلات المعمولة من الفلّين ينتصب أمامي الآن. وأينما جلتُ رأيتُ مباني وأنصاباً مألوفة في عالم غير مألوف؛ وإن كل شيء يطابق ما تخيّلتُه عنه، ومع ذلك، فكل شيء جديد. ويصحّ هذا القول على ملاحظاتي وأفكاري بالمثل. فما كانت تدور في رأسي فكرة واحدة جديدة كل الجدّة، أو مفاجئة قط؛ بل إن أفكاري القديمة ازدادت الآن رسوخاً، وتماسكاً، ونبضاً بالحياة؛ بحيث يمكن القول إنها باتت جديدة.

ترى ما الذي حدا بالمرأة الجميلة جالاتيا، التي نحتها الفنان بيجماليون

كما حلم بها أن تكون، وأخرجها إلى الوجود النابض، على خير ما يفعل أي فنان، إلى أن تأتي وتقول له أخيراً "ها أنذا"، ولتكون المرأة الحيّة خلاف التمثال المجسدّ.

زد على هذا أن من المفيد معنوياً أن أعيش بين أناس حسّيّين، كُتب وقيل عنهم الكثير، أناس يحكم عليهم كل أجنبي وفق ما يحمل من معايير. وانني لأعذر مَن ينتقدهم، أو يستهجن سلوكهم؛ لأن حياتهم بعيدة كل البُعد عن حياتنا؛ بحيث إن التعامل معهم صعب ومكلف على الأجنبي.

٣ تشرين الثاني (نوفمبر)

من الأسباب الكبرى التي أقنعتُ بها نفسي؛ لأبرّر غَذّ المسير إلى روما أن عيد سائر القدّيسين يصادف في الأول من تشرين الثاني (نوفمبر)، واتّضح الآن أن هذا المبرّر وَهْم وضلال. وكنتُ قد قلتُ لنفسي: إذا كانوا يُبدون كل ضروب التبجيل هذه لقدّيس واحد، فأيّ مشهد عظيم سيكون في عيد سائر القدّيسين. لكم كنتُ مخطئاً. فالكنيسة لم تشجّع إقامة حفل عام بارز، وكانت كل جماعة دينية، في الأصل، تحيي ذكرى قدّيسها الراعي في إطارها المحلي، أما الآن؛ فإن الوليمة التي تقام في يومه الموعود، أي اليوم المكرّس لتجلّيه، هي الحفل الذي يتجلّى فيه كل قدّيس بأبهى مجده.

صادفنا، بالأمس، "عيد كل الأرواح"، فكان حظي أفضل. كان البابا(*) يحيي ذكرى كل الأرواح في مصلاه الخاص الواقع على تلّة كويرينال(**). كان الدخول مباحاً للكل مجاناً. هرعتُ إلى مونتي كافالو مع تيشباين. كانت الساحة الواقعة أمام القصر فسيحة ومتناسقة، رغم أنها غير منتظمة من حيث الشكل. وقعت عيناي هناك على الصرحين العملاقين. إن إدراك

*) هو البابا بايوس السادس (١٧٧٥ - ١٧٩٩).

**) هو واحد من التلال السبعة التي شيّدت عليها روما القديمة.

كُنه هذين يتجاوز طاقة العين أو قدرة العقل. مضينا مسرعين مع الحشود؛ لنعبر باحة فسيحة، ونرتقي درجات ضخمة، وصولاً لدهاليز قبالة المصلى البابوي. غمرتْني فكرة وجودي تحت سقف واحد مع خليفة المسيح بشعور غريب. كانت شعائر القدّاس الاحتفالي قد بدأت، وكان البابا والكرادلة في المصلى أصلاً. كان الحبر الأعظم رجلاً وسيماً وقوراً، أما الكرادلة؛ فمن شتّى الأعمار والقامات.

وتملّكتني بغتة رغبة عجيبة في أن أرى أبا الكنيسة يفتح فمه الذهبي، وأن يتحدّث عن تحوّلات الغبطة التي شعرتْ بها أرواح المباركين؛ ليغمرنا بتحوّلات غبطة مماثلة. وحين رأيتُه يكتفي بالطواف في مذبح المصلى، وهو يتمتم الكلمات مثل أيّ قسّ عادي، تحرّكت الخطيئة الأصلية للبروتستانتي الماكث فيّ، فلم أجد أية متعة، مهما كانت، في قدّاس التضحية الذي يقام هنا في العادة. ألم يعمد المسيح، وهو بعد طفل، إلى تفسير نصوص الكتاب المقدّس، بأعلى صوته؟! ولمّا بلغ شبابه، لم يعمد بالتأكيد إلى نشر تعاليمه أو أداء معجزاته في صمت؛ لأننا نعرف من مضمون الأناجيل، أنه كان يحب أن يُفصح، وأنه اجاد الإفصاح. وقلتُ في نفسي، ما عساه يقول حين يرى إلى ظلّه على الأرض، وهو يذرع مذبح المصلى جيئة وذهاباً؟ وقفزت عبارة "غفران الصلب الثاني" venio iterum crucifigi إلى ذهني. لكزتُ صاحبي؛ لكي يخرج معي إلى الجوّ الرحب للحجرات المسقوفة والمزينة بالجداريات. وجدنا الكثير من الزوّار يتفرّجون على اللوحات، نظراً لأن "عيد كل الأرواح"، هو أيضاً عيد كل الفنانين في روما. ففي هذا اليوم لا يُفتح المصلى وحده للجمهور، بل تُفتح سائر حجرات القصر ساعات وساعات. إن الدخول مجاني، ولا يتعرّض المرء لمنغّصات السادن.

تفرّجتُ على الرسوم الجدارية، ووجدتُ بعض الأعمال الرائعة بريشة

فنانين، لم أسمع بأسمائهم من قبل. مثل كارلو ماراتي، الذي سرعان ما شغفتُ بأعماله، وأُعجبتُ بها أيما إعجاب. غير أن لوحات الفنانين الذين درستُ أسلوبهم من قبل هي التي أمتعتني أكبر إمتاع. شاهدتُ لوحة سانت بيترونيا بريشة جويرتشينو. كانت هذه اللوحة موجودة، بالأصل، في كنيسة القدّيس بطرس، وقد استعيض عنها الآن بنسخة من الموازييك، وذُهلت ذهولاً أعظم بلوحة أخرى له، هي لوحة تيتيان، التي تبزّ سائر لوحاته الأخرى ممّا رأيتُ حتّى الآن. ولا يسعني أن أجزم إن كان تقديري الكبير لهذه اللوحة يرجع إلى أن حواسّي باتت الآن أكثر رهافة، أم أن اللوحة هي حقاً خير أعماله. وتُصوِّر اللوحة شخصية أسقف مهيب متدثّر برداء قدّاس كَهَنُوتي جميل، تزدان بتطريزات ذهبية وشخوص. يحمل الأسقف، في يده اليسرى، صولجاناً، ويتطلّع إلى السماء منغمراً بالغبطة. كما يحمل في يده اليمنى كتاباً مفتوحاً، تلقّى منه لتوّه، وحياً مقدّساً. وتقف وراءه عذراء جميلة، تحمل سعفة، وتنظر في اهتمام رقيق إلى الكتاب. وثمّة عن يمين الأسقف عجوز جاد الملامح، يقف على مقربة من الكتاب، من دون أن يُبدي به أي اهتمام، كما يظهر. لعل المفتاح الذي يحمله في يده يمنحه اليقين بقدرته على استجلاء كُنه الكتاب بنفسه. قبالة هذه المجموعة، ثمّة شابّ فتيّ عار رشيق الجسد مقيّد بحبال، وقد اخترقت السهام جسده، وهو ينظر في استياء شفيف. وهناك في الفسحة الفاصلة بين المجموعتين راهبان، يحملان صليباً وزنقبة، ويسرحان ببصرهما المتفاني صوب السماء؛ حيث تحوم فوق الخرائب نصف الدائرية التي تحيط بالشخوص البشرية أمّ في أعالي المجد ناظرة نظرة رحمة وإشفاق على هؤلاء البشر في الأسفل، وهي تحمل في حضنها طفلاً متورّداً، ويمدّ الطفل الإكليل الذي في يده بحركة بهيجة، كما لو أنه يروم أن يرمي الإكليل إلى البشر في الأسفل. وتعلو الأمّ والطفل والهالة الثلاثية حمامة قدسية مثل حجر العقد.

يكمن وراء هذا التكوين الفني، ولابد، تقليد قديم، يسمح بجمع كل هذه العناصر والشخوص، التي تبدو بعيدة عن التطابق، في كل واحد له مغزاه. إننا لا نسأل كيف ولماذا، بل نتقبّل هذا الكل بما هو عليه، ونعجب لفنه النفيس.

هناك جدارية بريشة جويدو أقل إبهاماً من ذلك، وإن تكن غامضة بعض الشيء. ثمّة عذراء أشبه بطفلة، جالسة تخيط في هدوء، محاطة بملاكين حاضرين لتلبية رغائبها عند الإشارة. ومغزى هذه الجدارية الساحرة أن ملكوت السماء يصون براءة الأطفال وجدّهم مثلما يُكبرهما. ولاحاجة هنا إلى أسطورة أو تأويل.

إليكم الآن حكاية مسلّية لتخفيف هذه التأمّلات الثقيلة نوعاً ما عن الفن. علمت منذ حين أن بعض الفنانين الألمان، وهم من معارف تيشباين على ما يبدو، كانوا يحدّقون فيّ، ويخرجون، ثمّ يعودون لإلقاء نظرة أخرى فاحصة. وقد عاد تيشباين لتوّه، بعد أن تركني وحدي بضع دقائق، ليقول:

"لاشك أن هذه الحكاية ستكون طريفة إلى أبعد حد. فالشائعات قد انتشرت عن وجودك في روما، مثيرة فضول الفنانين عن الأجنبي الوحيد الذي لا يعرفه أحد. هناك واحد من وسطنا كان يتبجّح على الدوام بأنه التقاك، بل إنه على معرفة حميمة بك، وهي قصّة وجدنا صعوبة في تصديقها. لذا: سألنه أن يلقي عليك نظرة، ويبدّد شكوكنا. لقد أعلن في الحال أنك لستَ الشخص المقصود، بل إنك مجرّد غريب، لا يشبهك أدنى شبه. وعليه فإن هويتك ما تزال طي الكتمان، حتّى الآن في الأقل، ولسوف نرى فيما بعد ما يثير الضحك."

منذ ذلك الحين، وأنا أخالط هؤلاء الفنانين بحُرّيّة أكبر، وأسألهم عن أسماء مبدعي شتّى الرسوم، التي كان أسلوبها غريباً عليّ. وقد اجتذبتني

بصورة خاصة لوحة، تُصوِّر القدّيس جورج، قاتل التنين ومحرِّر العذارى. عجز الكل عن معرفة اسم المعلّم راسم اللوحة، حتّى تقدّم رجل قصير متواضع، لم يكن قد فتح فمه؛ ليتفوّه بكلمة واحدة من قبل، ليقول إنها بريشة الرسّام البندقي بوردينون، وإنها واحدة من أبرع لوحاته. وأدركتُ سرّ انجذابي إليها؛ فاطّلاعي على مدرسة البندقية، أتاح لي أن أقدّر فضائل فنانيها خير تقدير. والفنان الذي قدّم لي هذه المعلومات هو هاينريش ماير، وهو رجل سويسري، يدرس الفن هنا منذ عدّة سنوات، بصحبة صديق، يُدعى كولا. إنه يرسم صوراً بالحبر للتماثيل النصفية القديمة، وهو متضلّع في تاريخ الفن.

٥ تشرين الثاني (نوفمبر)

مضت عليّ في روما سبعة أيام، وأخذتُ أكونّ بالتدريج فكرة عامة عن المدينة. إننا نجوب المدينة مشياً، وأنا أدرس تخطيط روما القديمة، وروما الحديثة، وأعاين الأطلال، والمباني، وأزور هذه الفيلا أو تلك. أما النصب الكبرى؛ فإنني أدرسها في روية وتمهّل؛ الواقع أني لا أفعل شيئاً سوى النظر، والدوران حول الشيء، ثمّ العودة إليه، وتدقيق النظر فيه مجدداً. لا يسع المرء أن يتعلّم عن روما إلا في روما نفسها.

وينبغي أن أعترف أنني أجد فصل روما القديمة عن الجديدة عملاً صعباً ومحزناً، ولكنْ؛ لابد من هذا الفصل، وكل ما يمكن أن آمله هو أن تُثبت جهودي، آخر المطاف، أنها لم تذهب سدى. يصادف المرء بقايا تدل على العَظَمَة والخرابِ في آن، ممّا يذهل الخيال. فما تركه البرابرة، خرّبه بناة روما الحديثة.

فها هنا كيان، عانى غوائل تحوّلات مهولة على مدى ألفي عام، مع ذلك، ما تزال التربة ذاتها، والتل ذاته، بل العمود نفسه، والسور عينه، كما

يجد المرء في أهل روما آثاراً من شخصية الأقدمين. وحين يتأمل المراقب في ذلك، فإنه يصير، إن جاز القول، معاصراً لكل إملاءات القدر الكبرى، فيزيد ذلك عليه صعوبة اقتفاء مسار تطوّر المدينة، لا لكي يدرك كيف جاءت روما الحديثة في أعقاب روما القديمة فحسب، بل لكي يرى أيضاً كيف تتعاقب الحقبة تلوالأخرى في هاتين الاثنتين معاً. سأحاول بادئ ذي بدء أن أتلمّس طريقي بنفسي على هذا الدرب شبه الخفي، ولا يمكن لي، إلا بعد الفراغ من ذلك، أن أنتفع من الدراسات الأولية البارعة التي كرّس لها باحثون بارزون وفنانون كبار حياتهم منذ القرن الخامس عشر حتّى يومنا هذا.

وإذ أطوف روما باحثاً عن صروح كبرى، أجد أن لضخامة المكان أثراً مهدّئاً. ففي المُدُن الأخرى يتعيّن على المرء أن يبحث عن المواضع المثيرة للاهتمام، أما هنا؛ فإن هذه المواضع تحتشد على المرء في غزارة. فأينما أجلتُ بصري، طالعتْني كل صنوف المناظر البعيدة والقريبة، من خلال المجازات الضيقة في قصور وخرائب، وحدائق ومنازل صغيرة واصطبلات وأقواس نصر وأعمدة عملاقة محتشدة قريباً من بعضها البعض احتشاداً، يتيح للمرء أن يخطّط صورها على الورق في رسم واحد. وإن المرء ليحتاج إلى ألف قلم؛ ليكتب. ما عساني أفعل هنا بقلم واحد؟! بعد ذلك، يشعر المرء بالإعياء بعد كل هذا النظر والإعجاب.

٧ تشرين الثاني (نوفمبر)

ليغفر لي أصدقائي إن بتّ، في المستقبل، أميل إلى الاقتضاب. فحين يسافر المرء، فإنه يلتقط ما يستطيع، ويحمل كل يوم شيئاً جديداً، فيسارع المرء إلى التفكير فيه، وبَلْورة حكم عنه. لكن هذه المدينة ليست سوى مدرسة هائلة، ويحفل كل يوم بكثرة كاثرة ممّا ينبغي قول شيء

عنه، إلى درجة أن المرء لا يجرؤ على أن يقول أي شيء عنها لنفسه. وحتّى لو طال المقام بالمرء هنا سنوات وسنوات، فإن الحكمة توجب الالتزام بصمت فيثاغوري.

٧ تشرين الثاني (نوفمبر)

أشعر أنني في حال حسن. إن الريح قاسية، أو كما يقول أهل روما إنها: brutto؛ أي قبيحة. الريح تهبّ في الظهيرة، ريح شرقية، مثقلة بالغبار، تجلب معها المطر يومياً، لكني لا أجد هذا المناخ مزعجاً؛ لأن الجوّ دافئ طوال الوقت، خلافاً لحال الأيام الماطرة في بلادنا.

أخذ تقديري للفنان تيشباين يزداد يوماً بعد يوم، لمواهبه، وأفكاره عن الفن، ومقاصده كرسّام. أطلعني على رسومه وتخطيطاته. الكثير منها واعد حقاً. إن بقاءه مع بودمر قد وجّه أفكاره صوب العصور الأولى للإنسان، حين وجد نفسه على الأرض، وواجه معضلة أن يغدو سيد المخلوقات.

حاول تيشباين أن يضع سلسلة من اللوحات التمهيدية لتمثيل هذا العصر العظيم رمزياً. جبال مَكْسُوّة بغابات هائلة، ووهاد تشقّها السيول، وبراكين هادرة، تقذف أعمدة من الدخان، ثمّ يأتي في مقدّمة اللوحة جذع مجثوث لشجرة بلّوط عملاقة، بانت جذورها، وثمّة أيل يختبر في الجذع متانة قرونه. وهي تفاصيل عميقة التصوّر، وساحرة التنفيذ.

ووضع تيشباين رسماً مثيراً تماماً، يُصوِّر الإنسان كمروّض خيول، مبرزاً تفوّقاً لا بالعضلات، بل بالمكر والدهاء على سائر الموجودات، من حيوانات البراري، إلى الهواء والأمواه. وإن هذا التكوين لينطوي على جمال خارق، ولابد أن يبلغ ذروة تأثيره حين يُنفّذ بالزيت. ولابد لنا من أن نحصل على رسم منه إلى فايمار. ويعتزم تيشباين أيضاً أن يرسم مجلساً من الحكماء

المسنّين، ما سيمنحه الفرصة لرسم شخوص واقعية. ويعكف هذا الفنان الآن، في حماسة بالغة، على وضع تخطيطات لمشهد معركة، تشتبك فيها زمرتان من الخيّالة بضراوة مشتركة. وتفصل الزمرتين وهدة عميقة، يتعذر على الجواد أن يثب عبرها إلا بجهد خارق. وإن الدفاع غير وارد. ولا مجال إلا للهجوم الجريء، والقرار المندفع، فإما النصر أو السقوط في الهاوية. إن هذه اللوحة ستُقدّم له الفرصة؛ كي يُبرز معرفته بتشريح الحصان وحركاته.

ويودّ تيشباين أن يرى هذه السلسلة من اللوحات التي يروم تنفيذها مرتبطة معاً بقصيدة، تشرح معناها، وتأخذ منها مادة الشخصيات المرسومة. الفكرة بديعة، وحتّى تُثمر يتعيّن علينا أن نقضي سنوات معاً.

لم أشاهد جداريات رافائيل، واللوحات العملاقة لمدرسة أثينا، إلى آخره، سوى مرّة واحدة. يشبه ذلك دراسة هوميروس اعتماداً على مخطوطة تالفة، بهت لون كتابتها. فالانطباع الأول لا يكفي البتة؛ وإن كمال التمتّع بهذه الأعمال يوجب على المرء أن يعاينها، ويعاينها مراراً. وإن أفضل الجداريات هي تلك المرسومة على السقوف، والتي تتّخذ من قصص الإنجيل موضوعاً؛ فهي تبدو زاهية، طرية، كما لو أنها رُسمت بالأمس. ورغم أن بعض هذه الجداريات فحسب قد رسمها رافائيل نفسه، إلا أنها جميعاً رُسمت اعتماداً على تصاميمه، وبإشراف مباشر منه.

أيام شبابي الأول كنتُ أغرق أحياناً في حلم يقظة، أرى فيه نفسه راحلاً إلى إيطاليا بصحبة مثقّف إنجليزي، ضليع في التاريخ العام، وفي تاريخ الفن. ولقد تحقّق حلم اليقظة هذا في صورة أبهج ممّا صوّره لي خيالي، ذلك أن الفنان تيشباين كرّس نفسه لأجلي، وأبدى استعداده الدائم لأن يُريني روما، التي عاش فيها طويلاً. كنا على صداقة مديدة بالمراسلة، أما الآن؛ فنحن على صداقة حميمة بالدم واللحم. ترى أين كان لي أن أجد

دليلاً خيراً منه؟! ويمكن لي الآن، بفضله، أن أتعلّم وأتمتّع أكثر ما أستطيع في الوقت الضيق المتاح لي. ويبدو لي ممّا أتلمّسه الآن أنني حين أغادر روما سوف أتمنّى أن أكون قد جئتُها توّاً.

٨ تشرين الثاني (نوفمبر)

إن غرابة، أو قل نزوة، ستر هويتي أسفرت عن حسنات ما كانت على البال. ولمّا كان الجميع يشعر أن الواجب يقتضي منه أن يغفل عن هويتي، فما كان بمقدور أحد أن يتحدّث عني إليّ؛ وعليه ما كان لهم إلا أن يتحدّثوا عن أنفسهم، وعن المواضيع التي تعنيهم. عاقبة ذلك أني طفقتُ أعرف كل شيء عمّا يفعله الكل، وأعرف كل أمر هام ممّا يدور. حتّى هوفرات رايفنشتاين(*) يحترم نزوتي؛ ولكنه، لسبب أجهله، يبغض الاسم المستعار الذي اتّخذتُه، فخلع عليّ لقب بارون، فصار اسمي الآن هو: البارون الساكن قبالة روندانيني. وهذا اللقب يكفي؛ لأن الإيطاليين ينادون الأشخاص بأسمائهم الأولى، أو القابهم. وهذا ما كنتُ أبتغيه؛ لأتفادى الإزعاجات التي لا تنتهي بالتعريف بنفسي ومؤلّفاتي.

٩ تشرين الثاني (نوفمبر)

أتوقّف للحظة أحياناً؛ لأستعرض، إن جاز القول، الذرى السامية لتجربتي حتّى الساعة. وأعود بخيالي، وأنا ممتلئ سعادة غامرة، إلى البندقية، ذلك المخلوق العجيب الذي خرج من البحر، مثلما خرج بالاس من رأس جوبيتر. ملأني بانثيون روما، العظيم في محتواه الباطني ومظهره الخارجي، إعجاباً. وجعلني القدّيس بطرس أدرك أن الفن، مثل الطبيعة، قادر على إلغاء كل معايير القياس. كما أن أبوللو بيلفيديري قلب كياني رأساً على عقب. ومثلما أن أدقّ الرسوم لا يعطي فكرة كافية عن هذه المباني، فإن

---

*) رايفشتاين (١٧١٩ ـ ١٧٩٣) دبلوماسي، كان في خدمة جوتا وروسيا، وهو معماري وخبير في الفن.

النماذج المعمولة من الجبس، على روعة ما رأيتُ منها، لا تؤلّف بديلاً عن رؤية الأصل المرمري.

١٠ تشرين الثاني (نوفمبر)

أرفل الآن في هناءة من الوضوح والهدوء ما لم أعهده منذ أمد بعيد. إن عادتي في معاينة الأشياء والقبول بها كما هي من دون ادّعاء، يضعني في موضع مريح، ويشيع في دخيلتي سعادة غامرة. ويحمل لي كل نهار موضوعاً جديداً رائعاً، ولوحة عظيمة جديدة، ومدينة بأسرها، ممّا يتجاوز قدرة الخيال على الاستيعاب، مهما طال أمد التفكير أو الحلم.

زرتُ اليوم هرم سيستيوس، وفي المساء، صعدتُ إلى قمّة البالاتين: حيث تربض أطلال القصور الإمبراطورية مثل الجلاميد. يتعذّر تقديم فكرة مناسبة عن مثل هذه الأشياء. فما من قطعة قليلة الشأن، وإن كان ثمّة شيء، هنا أو هناك، يجافي الذوق، فإن له نصيبه من العظمة التي تخيّم على الجميع.

حين أغرق في التأمّل الذاتي، وهو ما أحبّ أن افعله بين الحين والآخر، أكتشف في نفسي شعوراً، يمدّني ببهجة طافحة. دعوني أعبّر عن ذلك بالصورة التالية. إن مَن يعكف في هذا المكان على معاينة ما يحيط به معاينة جادّة، وكانت له عينان تريان حقاً، كفيل بأن ينمّي شخصية قوية: أي إنه يكتسب إحساساً بالقوّة، لم يعهده من قبل؛ إذ توسم روحه بميسم العمق، وبضرب من الجدّ خال من أيّ تحذلق، ونمط من الهدوء البهيج. ويمكن لي، في الأقل، أن أقول إنني لم أكن قط على هذا القدر من الإحساس المرهف بأشياء هذا العالم، كما هو حالي الآن. وإن المآل المبارك لهذا، على ما أعتقد، سيمسّ حياتي المقبلة بأسرها.

وإذنْ؛ دعوني ألتقط الأشياء، الواحدة بعد الأخرى، على جري ما تأتي؛ ولسوف تنتظم في الترتيب فيما بعد. لستُ هنا لمجرّد التسرية وقضاء الوقت، بل لكي أكرّس ذاتي للأشياء النبيلة المحيطة بي، وأعلّم نفسي قبل أن أشارف على الأربعين.

١١ تشرين الثاني (نوفمبر)

زرتُ اليوم حورية إيجيريا، وسيرك كاراكالا، والأضرحة الخربة على طول طريق فيا آبيا، وضريح ميتيلا، الذي جعلني أدرك، للمرّة الأولى، معنى البناء الصلد. لقد أشاد هؤلاء مبانيهم للأبدية؛ ولم ينسوا شيئاً في حساباتهم، باستثناء العنف المسعور للغزاة المخرّبين، الذين لا قدسية لشيء في اعتبارهم.

شاهدتُ أيضاً أطلال قناطر قناة الماء العظمى. ما أنبل الطموح الذي تمثّله هذه القناة، المرفوعة على قناطر وجسور عملاقة، لمجرّد تزويد الناس بالماء! وصلنا مبنى الكوليسيوم عند الشفق. ما إن تقع عيني الناظر على مبنى الكوليسيوم حتّى تبدو كل المباني الأخرى أقزاماً. يبلغ الكوليسيوم من الضخامة مبلغاً، يستعصي على الاحتفاظ بصورته في الذهن؛ وتستعيده الذاكرة في هيئة أصغر من حجمه، حتّى ينذهل المرء بضخامته، كلّما عاد إلى مشاهدته.

فراسكاتي، ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر)

الأصحاب كلهم يرقدون في الفراش، وأنا أكتب بقلم الفحم المخصّص للرسم. حظينا بأيام قلائل خالية من المطر، ومتنعّمة بإشراقة الشمس؛ بحيث إننا لا نتطلّع إلى مجيء الصيف. تقع بلدة فراسكاتي على سفح جبل، ويصادف الفنان عند كل منعطف أشياء بديعة. وتطل البلدة على مشهد رحب، بلا حدود؛ ويمكن لك أن ترى روما في البعيد، وأن ترى من

ورائها البحر الممتدّ، وتلال تيفولي إلى اليمين، وهلمّ جرّاً. لقد شيّدت الفيلات في هذه البقعة المريحة لأجل اللذّة، بلا مراء. فقبل قرن خلا، أخذ الموسرون الجذلون، من أهالي روما، يشيدون الفيلات في المواضع الجميلة نفسها التي شاد قدامى الرومان قصورهم فيها. جبنا الريف على مدى يومين؛ لنجد دوماً مواضع مثيرة جديرة بالمشاهدة.

مع هذا أجد صعوبة في تحديد أيّ الأوقات أكثر تسلية، النهارات أم الأماسي. فحالما تضع صاحبة المنزل الذي نسكنه النوّاسة النحاسية الثلاثية على الطاولة مشفوعة بعبارة "طبتُم مساءً!" (بالإيطالية)، نجلس في حلقة، ويضع كل واحد منا رسوماته وتخطيطاته المنجزة في النهار. تعقب ذلك مناقشات: أما كان بالوسع تصوير الموضوع من زاوية أخرى أفضل؟ ألم يجر تصوير شخصية المشهد في عجلة؟ الواقع أننا نبحث كل تلك العناصر المؤلّفة للفن التي يمكن الحكم عليها من التخطيط الأولي. وكان هوفرات رايفنشتاين هو الشخص المؤهّل بطبعه، وأهليّته، وسلطته، لإدارة الجلسات، وتدبيرها؛ غير أن فيليب هاكرت هو الذي ابتدع هذا العُرف الجدير بالثناء. وهاكرت رسّام مناظر بديع. وقد كان يصرّ على الجميع دوماً، سيان إن كنا فنانين أم هواة فن، رجالاً أو نساء، شيباً أو شبّاناً، وأياً كانت مواهبنا، أن يجرّبوا أيديهم في الرسم. وقد أعطى للجميع قدوة حسنة. وقد حافظ هوفرات رايفنشتاين على هذا التقليد، وبقي وفياً له حتّى بعد أن غادرنا صاحبه؛ وبوسع المرء أن يقدّر قيمة مثل هذا اللقاء في استثارة الاهتمام العملي بالرسم عند الجميع.

ويتجلّى تفرّد شخصية كل فرد من أفراد هذه الحلقة على نحو مثير. فمثلاً إن تيشباين، باعتباره رسّام مشاهد تاريخية، يعاين المناظر الطبيعية بطريقة تختلف اختلافاً بيّناً عن رؤية رسّام المناظر الطبيعية. فهو يرى

كتلاً هامة، ومواضيع بارزة؛ حيث لا يرى غيره شيئاً، وبعد هذا تجده يلتقط الكثير من الملامح الإنسانية البسيطة، في الأطفال، أو في الريفيين، والشحّاذين، وغير ذلك من بسطاء الناس، أو حتّى في الحيوان، الذي يستطيع أن يرسمه رسماً بارعاً بعدد قليل من ضربات الفرشاة، مزوّداً إيانا بالجديد من مادة النقاش.

وحين ينضب الحديث، تجد مَن يطالع بصوت جهوري صفحات من كتاب "النظرية" لسولزر، وهو تقليد جديد، أضافه هاكرت. ورغم أن هذا الكتاب ليس مُرضياً بالكامل إن حكمنا عليه بمعايير صارمة، فقد لاحظتُ بارتياح أثره الحسن على أناس ذوي مستوى وسطي في الثقافة.

روما، ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر)

ها قد عدنا ثانية! نزل المطر مدراراً هذه الليلة، مصحوباً بالرعود والبروق. وما يزال المطر ينهمر، لكن الجوّ دافئ. رأيتُ اليوم جداريات بريشة دومنيشينو في سانت أندريا ديلا فالي وكاراكي في معرض فارنيسي. ثمّة زاد وفير يكفي لأشهر، ويزيد، ناهيك عن ازدراده في يومٍ واحد.

١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)

تحسّن الجوّ، وطاب. رأيتُ في فارنسينا حكاية "النفس"، التي أحتفظ بنسخ ملوّنة منها؛ لأزيّن بها غرفي، منذ أمد بعيد. بعد ذلك، رأيتُ لوحة "تجلّي المسيح" لرافائيل في سانبيترو في مونتوريو. إن هذه اللوحات أشبه بقدامى الأصدقاء الذين أعرفهم منذ أمد بعيد عن طريق المراسلة؛ لألتقيهم الآن وجها لوجه أول مرّة. والفارق، حين يعيش المرء معهم، هو هتك ما يُضمره المرء من ضروب الحبّ أو النفور سريعاً.

وتحفل كل زاوية من الزوايا بأشياء بديعة، لا ذِكْر لها في كتاب، ولا

رواج لها في العالم بهيئة نسخ مقلّدة، أو نماذج حفر مصغّرة. سوف أجلب معي بعضاً منها، ممّا نفّذه فنانون شباب ماهرون.

١٨ تشرين الثاني (نوفمبر)

يتميّز تيشباين بخبرة عميقة في مختلف أنواع الصخر الذي استخدمه البنّاءون القدماء والمحدثون. لقد درس الجميعَ دراسة عميقة، معتمداً في ذلك على عينه الفنية اللاقطة: وغبطته في تلمّس التكوين المادي للأشياء. وكان قد أرسل لي قبل فترة إلى فايمار مجموعة مختارة من العيّنات التي سأجدها في لقائي عند العودة. في غضون ذلك، تجمّعت إضافة هامة إلى هذه العيّنات. فثمّة قسّ، يعيش الآن في فرنسا، قرّر وضع كتاب عن "أحجار الأقدمين"، فتلقّى قطعاً كثيرة من الرخام من جزيرة باروس، كتقدمة خاصة من مجمع التبشير. وتتراوح هذه القطع، نوعاً وشكلاً من أنعم الرخام إلى أخشن الصخر، غير أنها ذات نقاوة، تبلغ الكمال، باستثناء قطع قليلة، تخالطها بعض التكلّسات. وتُستخدم هذه الأخيرات للبناء، أما الرخام النقي؛ فللنحت. إن المعرفة الدقيقة بطبيعة المادة التي يُعمِل فيها النحّاتُ إزميلَه تساعد، بلا مراء، في الحكم على أعماله.

ثمّة وفرة من الفرص هنا، لعمل مجموعة من العيّنات. تجوّلنا اليوم في أطلال قصر نيرون المنثورة في حقل من نبات الأرضي. شوكي، فلم أستطع صدّ غواية أن نملأ جيوبنا بألواح من الجرانيت والرخام الأحمر أو الرخام الأبيض المنثور بالآلاف شاهداً على عَظَمَة الأسوار التي كَسَتْهَا ذات يوم.

ينبغي الآن أن أتحدّث عن لوحة غريبة ذات إشكالية، وهي أغرب ما رأيتُ من أشياء.

ثمّة فرنسي كان يعيش هنا منذ سنوات، اشتُهر عنه بأنه عاشق وجامع

لأعمال الفن. وحصل هذا الفرنسي، على نحو غامض لا يعرفه أحد، على رسم من القدماء بالباستيل، وقد رَمّم مينجز الرسم له، فأضافه هذا إلى مجموعته كقطعة نفيسة. يُصوِّر الرسم جانيميد، وهو يقدّم كأساً من النبيذ إلى جوبيتر، الذي يطبع عليها قبلة بالمقابل. ولمّا مات الفرنسي ترك الرسم، بموجب وصيته، إلى صاحبة الدار التي أجرها، مؤكداً أنها من أعمال الأقدمين. ثمّ مات مينجز، مرمّم اللوحة، لكنه أعلن على فراش الوت، أنها ليست من لوحات الأقدمين، بل عمل بريشته. فاندلع بذلك نزاع، له أول، وليس له آخر، بين شتّى الفرقاء. فأحدهم، مثلاً أقسم أن اعتراف مينجز كان طرفة، قيلت على سبيل الهزء، وادّعى آخر أن مينجز أضعف من أن ينجز رسماً كهذا، وإن الرسم أبدع حتّى من إمكانات رافائيل. رأيتُ الرسم بالأمس، ويجب أن أعترف أنني لم أر أحلى من قوام جانيميده، خصوصا الرأس والظهر. فباقي أجزاء الجسم مرمّمة. غير أن سمعة اللوحة قد اهتزّت، وليس هناك مَن يريد أن يخفّف عن المرأة المسكينة عناء كنزها.

٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر)

علّمتنا التجربة، بالقدر الكافي، أن هناك طلباً على اقتران الرسوم والنقوش الخشبية بشتّى أنواع الشعر، وأن الرسّام نفسه قد يكرّس أكثر لوحاته الوصفية لمقاطع معيّنة من القريض؛ وعليه فإن فكرة تيشباين بوجوب تعاون الشعراء والفنانين من البداية، ابتغاء تحقيق وحدة الغرض والرؤية، جديرة بالتقدير. وبالطبع، فإن المصاعب تقلّ إلى حدّ كبير لو أن القصائد كانت على قدر من القِصَر، يكفي لتدبيجها في جلسة واحدة، ومطالعتها بنظرة خاطفة. يحمل تيشباين في مخيّلته مواضيع رعوية سارّة، غير أن طابعها، ويا للعجب، لا يصلح بذاته للمعالجة شعراً أو رسماً. وقد حدّثني عنها في أثناء نزهاتنا سيراً على الأقدام، وحثّني على أن أندرج في مشروعه. وكان قد صمّم تخطيطاً رئيساً لمشروعنا المشترك هذا. ولولا خوفي من الانغماس في شيء جديد؛ لأصابتني الغواية، وأقدمتُ.

٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر)

في عيد القدّيسة سيسيليا

ينبغي أن أخطّ بضعة أسطر؛ لأبقي جذوة هذا النهار السعيد في الذاكرة، أو، في الأقل، لأدوّن سجلاً تاريخياً لما تمتّعتُ به. كان النهار صافياً من الغيم، ودافئاً. توجّهتُ مع تيشباين إلى الساحة قبالة كنيسة القدّيس بطرس. ذرعنا الساحة جيئة وذهاباً حتّى شعرنا بوهج حرارة أجسامنا، فجلسنا في ظلّ مسلّة. لا يتّسع إلا لاثنين بالكاد. وقضمنا عنباً، كنا قد اشتريناه من الجوار. بعد هذا، رحنا إلى مصّلى سيستين؛ حيث كان الضوء المسلّط على اللوحات الجدارية على أقوى ما يكون. وحين عاينّا أعمال مايكل إنجيلو البديعة هناك، انقسم إعجابنا بين لوحة "يوم الدينونة"، وبقية اللوحات المرسومة على السقف. إن ثقة هذا المعلّم بالنفس وحيويته وعظمة تصوّراته، لتستعصي على التعبير. وبعد أن عاينّا كل اللوحات، المرّة تلو الأخرى، غادرنا المصلى، ودخلنا كنيسة القدّيس بطرس. وكانت كل زوايا الكنيسة واضحة للعيان، بفضل نور الشمس الباهر. ولمّا كنّا عازمين على التمتّع ببهاء وروعة الكنيسة، فإننا لم نترك، هذه المرّة لذائقتنا الحرون حُرّيّة صَدِّنا، فأحجمنا عن النقد اللاذع. لقد تمتّعنا تماماً بكل ما هو جدير بالتمتّع.

بعد هذا صعدنا إلى السطح؛ حيث يجد المرء مُنَمْنَمَة عن مدينة حَسَنَة البناء، بمنازلها ودكاكينها، ونافوراتها، وكنائسها (أو هكذا تبدو في الأقل من الخارج)، إضافة إلى معبد كبير. مندرجة في الهواء الطلق، تخترقها الدروب الجميلة. ودخلنا إلى القبّة العليا؛ لنطل منها على أبينانيس، وجبل سوراكتي، والتلال البركانية خلف تيفولي، وفراسكاتي، وقلعة جاندولفو، والسهل المترامي وراءها حتّى البحر. ها هي ذي مدينة روما تحتنا، بطولها

وعرضها، وقصورها وقبابها، إلخ. لم تكن ثمّة نفحة هواء في هذه الكرة النحاسية التي تؤلّف القبّة، بل كان جوّها خانقاً، كما لو كنا داخل بيت تدفئة زجاجي. ولمّا فرغنا من أن نعبّ كل شيء، نزلنا، وطلبنا فَتْح الأبواب المُفضية إلى أفاريز القبّة والطرّة المطرّزة وصحن الكنيسة. بوسع المرء أن يدور حول القبّة، ويرى من علٍ كل ما يقع أسفل الكنيسة. ولمّا كنا واقفين على إفريز الطرّة المطرّزة، رأينا في الأسفل البعيد نيافة البابا ذاهباً للتعبّد عصراً. وما خذلنا القدّيس بطرس. عدنا إلى النزول، وخرجنا إلى الساحة، وتناولنا وجبة زهيدة، ولكنْ؛ لذيذة، في حانة قريبة، وبعدها رحنا إلى كنيسة القدّيسة سيسيليا.

إن وصف ديكورات هذه الكنيسة الضاجّة بالزوّار يستغرق صفحات وصفحات، فهي مَكْسُوّة بالزينة كسوة، لا تسمح برؤية حجر أصلي واحد في البناء. فالأعمدة مَكْسُوّة بمخمل أحمر ومُثبت بوشاح من مخرّمات ذهبية، وأما تيجان الأعمدة؛ فمَكْسُوّة بمخمل مطرّز، يتوافق مع شكلها نوعاً ما، وكذا حال الأفاريز والدعائم. أما فسحة الجدران بينها؛ فمغطّاة هي الأخرى بستائر زاهية اللون، فبدت الكنيسة بأسرها كما لو كانت قطعة موزاييك واحدة ضخمة. هناك أكثر من مائتي شمعة موقدة خلف المذبح، وعلى جانبيه؛ بحيث إن هناك حائطاً كاملاً مرصوفاً بالشموع، التي أنارت صحن الكنيسة إنارة باهرة. وهناك منصّتان قبالة المذبح، مَكْسُوّتان - هما أيضاً - بالمخمل، شيّدتا تحت عليّة الأرغن. ويقف كورس من المنشدين على المنصّة الأولى، أما فرقة الأوركسترا، التي لم تكفّ عن العزف؛ فتجلس على المنصّة الثانية.

ومثلما أن هناك حفلات موسيقية تُكرّس للكمان وحده، أو لغيره من الآلات، فإن الحفلات الموسيقية هنا مكرّسة للحناجر: فهنا حنجرة. من

السوبرانو. تصدح وتنشد منفردة لحين، ويرافقها الكورس بين آونة وأخرى، مدعّماً، بالطبع، بآلات الأوركسترا كلها. والأثر بديع.

ومثلما تنقضي كل الأيام الحلوة، تأتي هذه الأنغام إلى خاتمتها. وفي المساء، توجّهنا إلى دارة الأوبرا؛ حيث يعرضون أوبريت "أي ليتيجانتي".

أي: المتخاصمون(*)، ولكننا كنا مُتخمين بسماع ومشاهدة كل ممتع، فتجاوزنا دارة الأوبرا، ومضينا.

٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر)

ينبغي لي، على فائدة إخفاء هويتي، ألا أنسى مصير النعامة التي ظنّت أن لا أحد سيراها حين تخفي رأسها في الرمل. لقد التزمتُ بهذا التخفّي مبدئياً، لكنْ؛ ثمّة مناسبات توجب تخفيف القيود. لم أكن عازفاً عن لقاء الأمير لايشتنشتاين، شقيق الكونتيسة هاراخ، فأنا أكنّ لها أعظم التقدير، كما أنني تناولتُ العشاء في منزله عدّة مرّات. ولكني سرعان ما أدركتُ أن نزولي عند رغبته في تلبية دعوته سيُسفر عن عواقب أخرى، وهذا ما حصل. كنتُ قد سمعتُ سَلفاً عن المؤلّف أباتي مونتي ومسرحيته التراجيدية أريستوديمو، التي كانت بسبيلها لأن تُعرض على المسرح قريباً، وقد أُبلغتُ أن المؤلّف عبّر عن رغبته في أن يقرأها عليّ، طلباً لمشورتي. الواقع أني لم أرفض الطلب تماماً، لكني لم أحرّك ساكناً، وصادف أن التقيتُ الشاعر مع أحد أصدقائه في بيت الأمير؛ حيث ألقى علينا النص.

إن بطل المسرحية، كما تعلمون، هو ملك أسبارطة، الذي ينتحر بدافع الالتزام بكوابت الضمير. وألمح المؤلّف إلماحاً فطيناً إلى أن واضع "آلام فيرتر" لن ينزعج حين يجد أن بعض المقاطع المستلّة من روايته البديعة

---

*) أوبريت غنائي من تأليف جيامباتيستا لورينزي. Trai due littiganti il terzo gode "عندما يتخاصم اثنان يفرح ثالث".

قد اقتُبست في هذه المسرحية. وعليه، لم يكن في وسعي، حتّى داخل أسوار أسبارطة، أن أهرب من سورات غضب الشاب التعيس فيرتر.

تتجلّى في هذه المسرحية موهبة رائعة. إن أحداثها تمضي في خطو هيّن وئيد، وإن المشاعر، ولغة الخطاب الرقيقة رغم جموحها، تتساوق وثيمة النص.

أشرتُ، بأسلوبي الخاص، لا بالأسلوب الإيطالي، إلى حسنات المسرحية، فارتاح الكل من قولي، رغم أنهم، بقدر من انعدام الصبر الجنوبي، كانوا يتوقّعون المزيد، وبخاصة، رغبتهم في أن تنطق شفتاي كلمات نبوءة عن الانطباع الذي ستخلّفه في النظّارة.

تفاديتُ ذلك بالقول إنني أفتقر إلى معرفة هذا البلد، ونزعاته وذائقته. غير أني صدقتُ في قولي إن الجمهور الروماني مفسد، بالاعتياد على كوميديات الفصول الثلاثة، والأوبرا ثنائية المشهد كفاصلة، أو على الأوبرا الكبرى التي تحفل برقصات باليه، لا صلة لها بالموضوع، لذا؛ أجد صعوبة في أن أراهم يتمتّعون بالسير الهادئ النبيل، لقصّة تراجيدية، من غير تسلية فاصلة. علاوة على ذلك، قلتُ إنه يبدو لي أن الانتحار، عند الإيطاليين حَدَث، لا يندرج في نطاق مدركاتهم. يقتل المرء آخرين. نعم. وتسمع عن هذا القاتل كل يوم تقريباً. أما أن ينتزع المرء حياته ا لغالية، أو حتّى أن يفكّر في انتزاعها، فذلك ما لم أسمعه في روما. غير أني، على أية حال، سأكون سعيداً بالاستماع إلى أي دليل، أو حجّة، تبرهن لي ما يخالف توجّساتي، فليس ثمّة ما يسعدني خيراً من رؤية هذه المسرحية تجري على خشبة المسرح، والتصفيق لها بحرارة وصدق مع جوقة من الأصدقاء.

استُقبلت أقوالي هذه استقبالاً حاراً، وكان لديّ كل الأسباب التي

تحملني على الارتياح لثباتي دون رضوخ. إن عطف الأمير لايشتنشتاين هو الرقّة بعينها، وقد أنعم عليّ أكثر من مرّة، بفرصة أن أرى بمعيّته كنوز الفن، التي لا تشاهَد إلا بإذن خاص من المالكين، وإن نيل الإذن، يتطلّب حظوة في الأوساط العليا النافذة.

غير أن طلب ابنة "المدّعي بالعرش" بأن ترى "القرد النادر" تجاوز حدود تجرّعي للفكاهة الطريفة. رفضتُ الطلب، وعدتُ ثابت الجنان إلى الخفاء.

مع ذلك، أجد في هذا بعض ما يزعج. فأنا - الآن - على قناعة أكبر بدرس، استخلصتُه في وقت سابق من حياتي: إن الإنسان طيّب السريرة ينبغي أن ينخرط بهمّة ونشاط في الحياة الاجتماعية انخراط الرجل الأناني والضيّق الأفق والشرير فيها. من اليسير رؤية الصواب في هذا الاستخلاص، لكنْ؛ من العسير تطبيقه.

٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)

كل ما أستطيع قوله عن الإيطاليين هو الآتي: إنهم أطفال الطبيعة؛ ورغم أبّهة وملابسات دينهم وفنهم، ما كانوا ليختلفوا مثقال ذرّة عن طبائعهم، لو كانوا ما يزالون يعيشون في الغابات والكهوف. وأشدّ ما يثير استغراب الأجنبي جرائم القتل التي تقع كل يوم تقريباً. ولقد وقعتْ في حَيّنا وحده أربع جرائم قتل خلال الأسابيع الثلاثة المنصرمة. واليوم تتحدّث المدينة بأسرها عن جريمة أخرى، لكنها تكتفي بالكلام. ثمّة فنان سويسري شريف، يُدعى شفينديمان، وهو مُصمّم أوسمة، وآخر من تلاميذ هيدلنجر، هُوجم بغتة مثل فينكلمان. وإن مهاجمه، الذي دخل معه في شجار وتلاسن، سدّد له عشرين طعنة، وحين هبّ الدرك، طعن السفاح نفسه. وهذا خلاف المعهود هنا. فالجاني يلجأ في العادة إلى الاختباء في كنيسة، وينسدل الستار.

إن الحقيقة تقتضي أن أضيف الظلال القاتمة إلى الصورة الزاهية، بإيراد أخبار الجرائم والكوارث، والزلازل، والفيضانات. إن معظم الأجانب هلعون من الانفجار الحالي لبركان فيزوف، وتلزم المرء شخصية قوية، حتّى لا ينجرف هو الآخر في هذا الهلع.

إن لهذه الظاهرة الطبيعية - مثل الأفعى ذات الأجراس - سحراً، لا يُقاوَم. وتبدو كل كنوز الفن في روما لا قيمة لها في هذه اللحظة؛ نظراً لأن سائر الأجانب قطعوا زياراتهم لذخائر الفن، وأسرعوا إلى نابولي. سأقاوم هذا الإغراء، وأبقى في روما، وكُلّي يقين من أن الجبل سيترك لي شيئاً.

الأول من كانون الأول (ديسمبر)

وصل موريتز إلى روما؛ لقد لفت هذا الرجل انتباهي أول مرّة بكتاب سيرته الموسوم "أنطون رايزر"، وكتاب رحلاته المعنون "طواف في إنجلترا". هذا حقاً رجل من الطراز الأول، ونحن نتمتّع بصحبته حقاً.

هناك، في روما، كثرة من الأجانب الذين ما جاؤا لدراسة الفن، بل بحثاً عن أصناف أخرى من اللذائذ، وعليه يتوجّب على المرء أن يكون على أهبة الاستعداد لكل طارئ.

هناك أشباه فنون تتطلّب حذاقة يدوية وذائقة للحرف اليدوية، وقد تطوّرت هنا في روما تطوّراً عظيماً، واجتذبت اهتمام الكثير من الأجانب. من ذلك الرسم بألوان شمعية تثبت بالحرارة. وما هذه سوى عملية ميكانيكية، من أول خطوة، حتّى آخر إجراء: الشيّ. بوسع كل مَن تعلّم الرسم بالألوان المائية أن يزاولها؛ غير أن جدّة هذا الإنتاج غالباً ما تعوّض عن ضآلة القيمة الفنية للمنتوج. هناك فنانون أذكياء يعلّمون هذه الطريقة. فبحجّة إعطاء الإرشاد، يتولّون هم أنفسهم تنفيذ القسط الأكبر من العمل

بأناملهم؛ بحيث إن التلميذة الحلوة تُعجَب لموهبتها الدفينة حين ترى الصورة تنشأ في نحت شمعي بارز، وتتلألأ في إطارها الذهبي.

هناك مهنة أخرى لطيفة، تقوم في أخذ قطعة عملة معدنية، أو حجارة منقوشة، وضغطها على صفحة من الصلصال الناعم؛ بحيث ينطبع وجها العملة أو النقش في آن واحد.

إن إعداد عجينة الزجاج ذاتها تتطلّب قدراً كبيراً من الحذق والانتباه المركّز. من هذه المهن كلها يحتفظ هوفرات رايفنشتاين بالأدوات والعدّة الضرورية في منزله، أو على الأقل، في حارته.

٢ كانون الأول (ديسمبر)

عثرتُ مصادفة على كتاب آرخنهولتز عن إيطاليا. وحين يطالعه المرء يُعجب كيف أن هذه الخربشة العجول تنحدر إلى هباء. لكأن المرء يُلقي به إلى النار، ويراقب تحوّله ببطء إلى اللون البني، فالأسود، حتّى تنبعج صفحاته، وتتكسّر، ثمّ تتطاير دخاناً وسخاماً. لقد رأى المؤلّف كل شيء بالطبع، لكنّ هزال معرفته بما رأى لا تشفع له لهجته المتغطرسة المزدرية، وهو يرتكب الخطأ تلو الخطأ في مديحه، أو هجائه.

إن التمتّع بجوّ دافئ، لطيف، لا يتخلّله سوى يوم ماطر واحد، في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، تجربة جديدة عليّ. قضينا النهارات الصاحية في الهواء الطلق، والممطرة في غرفنا، وكنا نعثر على الدوام على شيء نتمتّع به، أو ندرسه، أو نقوم به.

وفي يوم الثامن والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر)، زرنا مصلى سيستين ثانية، وطلبنا إلى سَدَنَته أن يفتحوا لنا صالة اللوحات؛ لأن بالوسع رؤية السقف منه عن كثب. الواقع أن الصالة ضيقة، وقد انحشرنا فيها على

طول مشبك الحاجز الحديدي في صعوبة بالغة، وبشعور بالخطر الداهم. أنصح مَن يعانون دوار الأماكن العالية أن يمكثوا في الطابق الأرضي. غير أن اللوحات العظيمة التي طالعتْنا، كانت خير تعويض، نأمل فيه. بلغت بي الحماسة لمايكل إنجيلو في الوقت الحاضر شأو إنسان تذوّقي للطبيعة؛ لأنني عاجز عن النظر إليها بعيني عبقري، كما فعل هو. آه، لو أن ثمّة سبيل لحفر مثل هذه الصور عميقاً في الذاكرة! من الرسوم والنقوش التي تستنسخ لوحاته. غادرنا المصلى، وتوجّهنا إلى جداريات موزاييك رافائيل؛ ورغم أني أجد صعوبة في الاعتراف بالحقيقة، ينبغي لي القول إني لم أعد أرغب في النظر إلى موزاييك الجدارية هذه. لقد توسّعت عيناي، وأدمنتا على أشكال مايكل إنجيلو العظيمة، ولم تعودا تريان أية متعة في تفاهات الموزاييك وحكايات الأناجيل التي نقشها رافائيل؛ فهي، رغم جمالها، لا تضاهي أعمال مايكل إنجيلو. ما أعظم المتعة التي سأصيب لو أن الوقت سنح لي أن أرى أعمال الاثنين مراراً، وأن أقارن بينهما في تجرّد، نظراً لأن انطباعات المرء الأول قمينة بالتحيّز!

كانت الشمس حارّة تماماً حين كنا نجرجر أقدامنا إلى فيلا بامفيلي؛ لنبقى في جنائنها الحلوة حتّى المساء. وهي مرج فسيح، تحفّه أشجار بلّوط وصنوبر باسقة دائمة الخضرة، تتخلّلها أزاهير الربيع المشرئبّة برؤوسها الصغيرة إلى الشمس. أطلق المشهد فيّ تأمّلات مجرّدة في علم النبات، واصلتُها في اليوم التالي خلال سيري إلى مونتي ماريو، وفيلا ميليني وفيلا مادام. من الممتع البديع مراقبة سلوك النباتات حين لا يقطع البرد القارس نموّها الحيوي. لا يرى المرء هنا أية براعم، فيدرك للمرّة الأولى كُنه البرعم. إن شجيرة الأربتوس تزهر ثانية، في حين أن آخر ثمارها توشك على النضج. كما أن أشجار البرتقال تزهر، وهي ما تزال تحمل ثماراً ناضجة، أو بسبيلها إلى النضج، ولكن هذه الأشجار مستورة في هذا الوقت من العام، ما لم

تكن قائمة في الفراغ الواقع بين المباني. وهناك مجال للتأمّل في السرو، الذي يبلغ أبهى صوره حين يكتمل نموّه، ويعمّر؛ ليعلو في جماله على كل الشجر. سأزور حدائق عالم النبات في القريب؛ حيث آمل أن أغرف المزيد من العلم. ما من شيء يوازي متعة الحياة الجديدة التي يعيشها الإنسان المتأمّل حين يدرس بلاداً جديدة. وأظنّ أني تغيّرتُ حتّى نخاع عظامي، رغم أني ما أزال نفسي.

٣ كانون الأول (ديسمبر)

يجري الطقس في دورة ثابتة من ستة أيام. يومان من الصحو، يوم غائم، يومان أو ثلاثة أيام ماطر، وبعدها يعود الصحو. أحاول الإفادة من كل يوم قدر المستطاع.

إن المواضيع السامية التي تحيطني لا تفقد قطّ جدّتها. فأنا لم أشبّ وأترعرع وسطها. ولم أنتزع منها مكنون أسرارها. إن بعضها يجذبني بقوّة جبّارة تدفعني، أحياناً، إلى اللامبالاة إزاء غيرها، أو حتّى الإجحاف بهذا الغير. وعلى سبيل المثال، فإنني مفتون بالبانثيون وأبوللو بيلفيدري، ورأسين من تماثيل من العمالقة، ومصلى سيستين، افتتاناً لا أرى معه سواها. ترى كيف يتسنّى لنا، نحن الصغار، المعتادين على الصغار، أن نضارع مثل هذا الكمال السامي؟ وحتّى حين يتكيّف المرء إلى حدّ معيّن، فإن كتلة هائلة من الأشياء الجديدة تحتشد، وتنيخ بكلكها عليه، وتواجهه في كل خطوة يخطوها، مطالبة، كلاً على انفراد، بحقّها ونصيبها من انتباهه. كيف السبيل في هذه المتاهة؟ ما من سبيل سوى أن يدع المرء سائر هذه الأشياء تنمو وتترعرع، بالتدريج، داخل روحه، وأن يعكف على دراسة ما كتبه الآخرون عنها دراسة عميقة.

اقتنيتُ في الحال الطبعة الجديدة من كتاب فينكلمان: تاريخ فن

العصور القديمة، ترجمة فيا. درجتُ أقرأ منه في موضع تأليفه، فأسعفني كثيراً هو وصحبة الفنان الضليع العارف رهن المشورة.

أخذ التاريخ الروماني القديم يمدّني بمتعة توازي متعة التاريخ الإغريقي. وإن التواريخ والنقوش والعملات التي لم أكترث بها حتّى الساعة، باتت تفرض نفسها عليّ، وتنتزع انتباهي. وإن تجربتي مع التاريخ الطبيعي تتكرّر هنا بحذافيرها؛ لأن مجمل تاريخ العالم يرتبط بهذه المدينة، وإنني لأعتبر أن حياتي الثانية، مولدي الجديد وانبعاثي، إنما بدأ يوم دخولي إلى روما.

٥ كانون الأول (ديسمبر)

التقيتُ العديد من الأجانب خلال الأسابيع القليلة التي قضيتُها هنا، ورأيتُهم يجيئون، ويروحون، وأنا أعجب لافتقار العديد منهم إلى إبداء التقديروالاحترام لكل هذه الموضوعات الجديرة بالمشاهدة. حمداً لله أن هذه الطيور العابرة لن تؤثّر فيّ في المستقبل. فإن عنّ لواحد منهم، إذا ما عدتُ إلى الشمال ثانية، أن يحكي لي عن روما، فلن يثير حسدي الممض. فلقد رأيتُها بنفسي، وأعرف تماماً في أي موضع أقف.

٨ كانون الأول (ديسمبر)

بين آونة وأخرى ننعم بنهار رائق. وإن المطر النازل بين الحين والآخر يزيد العشب والجنائن خضرة. إن حضور الأشجار والنباتات ذات الخضرة الدائمة يمنع المرء من ملاحظة سقوط أوراق غيرها من الأشجار. أما أشجار البرتقال في الحدائق، التي تنمو من جنبات الأرض دون غطاء، مثقلة بالثمر.

أردتُ أن أقدّم وصفاً مسهباً لرحلة بالعربة إلى البحر، وصيد السمك الوفير الذي رأيناه هنا، لكن صاحبنا الطيب، موريتز، عاد مساء على صهوة جواد، وتعثّر جواده على رصيف روماني زلق، فسقط، وانكسر ذراعه. أسفر

الحادث عن وضع حدّ لمرحنا الجوّال، وحصر دائرتنا الضيقة من الأصحاب في سكينة منزلية.

١٣ كانون الأول (ديسمبر)

إنني سعيد؛ لأنكم عَدَدتُم اختفائي على نحو ما كنتُ آمل. أتوسل إليكم أن تصلحوا بيني وبين أي قلب شعر بالإساءة من هذا الاختفاء. فما قصدتُ إزعاج أحد، ولا أنا بقادر الآن على قول ما أبرّر به فعلتي. حاشا لله أن يدع الحوافز التي دفعتني إلى هذا القرار تمسّ مشاعر أيّ صديق.

إنني أتعافى ببطء من "الوثبةالمميتة"(*)، وأدرس أكثر مماً أمتّع نفسي. إن روما عالم كامل، وإن سنوات طويلة من العمر تلزم كي يصير المرء مواطناً فيها. ما أسعد المسافرين الذين يُلقون عليها نظرة عُجلى، ويمضون.

عثرتُ صباح هذا اليوم، مصادفة، على الرسائل التي كتبها فينكلمان من إيطاليا، ولكم أن تتخيّلوا بأيّ جموح عاطفي قرأتُ نصّها. فقبل واحد وثلاثين عاماً، وفي هذا الوقت نفسه من العام، وصل فينكلمان إلى روما، وهو على سذاجة تفوق حمقي. غير أنه اندفع، بجدّ ألماني حقّ، إلى القيام بدراسة مستفيضة دقيقة لعصور الأقدمين وفنهم. ألاما أشجع اقتحامه هذه الصعاب! وما أكبر مغزى أن أتذكّره هو، هنا، في هذه المدينة!

لو استثنينا أشياء الطبيعة الصادقة والمنسّقة في كل ممالكها، فما من شيء أفصح وأقوى أثراً من الانطباع الذي يخلّفه رجل حَسَن وذكي، أو عمل من أعمال الفن الأصيلة الخالية، شأن الطبيعة، من أية مثلبة. وإن المرء ليحسّ بهذا الأمر إحساساً عميقاً في روما بالذات؛ حيث تنطلق النزوات جامحة على هواها، وحيث تتأبّد كثرة من السخافات بفعل الثروة والنفوذ.

(*) satto mortale، باللاتينية في الأصل.

ثمّة مقطع محدّد من رسالة، وجّهها فينكلمان إلى فرانك، أثار حبوري. يقول المقطع:

"في روما، يتوجّب على المرء أن يبحث عن كل شيء بقدر من اللامبالاة، وإلا عُدّ فرنسياً. أعتقد أن روما مدرسة لكل العالم، ولقد دخلتُ هذه المدرسة التي شذّبتني، وعركتني."

إن ما يقوله ينطبق بالدقّة على طرائقي في البحث والاستقصاء. وما لم يطأ المرء أرض روما، فلن يتسنّى له أن يتصوّر أية مدرسة هي. فالمرء يُبعث هنا من جديد، إن جاز القول، وإن أفكاره السالفة تبدو مثل قماط الطفل. فالإنسان العادي تماماً يغدو هنا شخصاً بارزاً؛ لأن عقله يكبر ويتّسع، إلى حدّ هائل، حتّى لو بقيت شخصيّته على حالها.

ستصل هذه الرسالة إليكم في وقتها المناسب قبيل رأس السنة. فعسى أن يكون العام الجديد عام سعادة، وعسى أن يلتئم شملنا جميعاً قبل انصرامه! ما أروع أن نلتقي ثانية! لقد كان العام الفائت أهمّ فترة في حياتي؛ وسواء متّ في الغد، أو عشتُ ردحاً آخر، فإن حياتي ستظل جميلة. إليكم الآن كلمات موجّهة للأطفال، ولكم أن تتلوا نصّها عليهم، أو أن تسردوها لهم بكلماتكم أنتم.

هنا، لا يلحظ المرء الشتاء. فالثلج الذي يمكن لك أن تراه إنما يكلّل ذرى الجبال النائية شمالاً. وإن أشجار الليمون مزروعة على طول أسوار الحدائق. وسرعان ما سيكسوها أصحابها بالحصير الواقي، إلا أن أشجار البرتقال تظل في العراء. وتتدلى من هذه الأشجار المئات والمئات من أشهى الثمار. وهم لا يُقلّمونها، ولا يغرسونها في دلاء، كما نفعل في بلدنا، بل يتركونها تشخص حُرّة طليقة في التربة، على شكل صفوف منتظمة،

جوار أشقّائها. ولكم أن تتخيّلوا أن لا شيء أبهى وأحلى من مرأى مثل هذه الشجرة. ويمكن لكم، لقاء بنسات قلائل، أن تقضموا ما شئتُم من البرتقال. وإن مذاق البرتقال هنا لذيذ تماماً، لكن طعمه أشهى وأحلى في شهر آذار (مارس).

ذهبنا ذات يوم إلى ساحل البحر، ورأينا صيّادي السمك يُلقون شباكهم. فعادت بالوفير والغريب من السمك، والسلطعون، وغيرها من غرائب مخلوقات الطبيعة. وحوت الشبكة ضرباً من السمك، يصعق المرء بتيّار كهربي، إن لامسها.

٢٠ كانون الأول (ديسمبر)

إن حالي هو حال المزيد من الجهد والعناء، لا المزيد من اللذّة. وإن الانبعاث الجديد الذي يقلب كياني ويحوّله متواصل تماماً.

رغم أني كنتُ أتوقّع فعلاً أن أتعلّم شيئاً هنا، ولكنْ؛ لم يخطر لي قط أني سأبدأ من قاع المدرسة، وأن أنضو القديم الذي تعلّمتُ؛ أي أن أعيد تعليم نفسي بالكامل. وإذ أدرك هذا الحال الآن، وأتقبّله، أجدني كلّما أطرحتُ عاداتي القديمة في التفكير، ازددتُ سعادة. إنني أشبه بمعماري أراد أن يشيد برجاً، فوضع أساسات مغلوطة. لكنه يدرك هذا الغلط قبل فوات الأوان، فيهدم عن سابق قصد كل ما بناه على الأرض حتّى اللحظة. ويمضي في مسعاه لتوسيع مخطّط البناء وتحسينه، وإرساء ركائز أمتن، متطلّعاً في حبور إلى إشادة برج يدوم. عسى أن تستجيب السماء لدعائي، بأن يلاحظ الآخرون عندي هذا الأثر الأخلاقي الناجم عن العيش في عالم أرحب؛ لأني على يقين أن حسّي الأخلاقي يمرّ في طور تحوّل شأن حسّي الجمالي.

إن الدكتور مونتر هنا، في روما، بعد عودته من صقلية. وهو رجل حيوي، مندفع. لا أعرف مشاريعه، لكنه سيزوركم في شهر أيار (مايو)، ويحمل لكم الكثير ممّا يُروى ويُقال. إنه يجوب إيطاليا منذ عامين، لكنه خائب الظن بالإيطاليين؛ لأنهم لم يُبدوا أي تقدير لرسائل التوصية الهامّة التي جاء بها، والتي يُفترض أن تفتح له طريق الوصول إلى أرشيفات معيّنة، ومكتبات خاصة. نتيجة لذلك، لم يحقّق ما كان يصبو إليه. لقد جمع بعض العملات المعدنية الجميلة، كما أنه يمتلك - حسبما قال - مخطوطة، تصنّف العملات تاريخياً وفقاً لبعض خواصّها، على غرار تصنيف ليناو للنباتات. والأرجح أن يحصل هيردر على معلومات مستفيضة عن ذلك. ولعلّ بالإمكان استحصال الإذن باستنساخ المخطوطة. إن هذا الاستنساخ ممكن ولازم، فإن آجلاً أو عاجلاً، سيتوجّب علينا، نحن أيضاً، أن نعكف على القيام بعمل جادّ في هذا الحقل.

٢٥ كانون الأول (ديسمبر)

شرعتُ الآن في معاينة خير الأشياء للمرّة الثانية. فانقلاب إعجابي الأول إلى إحساس بالألفة، يكسبني قدرة أوضح على تقدير قيمتها. إن سبر اغوار ما ابتدعته يد الإنسان، يتطلّب أولاً أن تفوز الروح بحُرّيّتها التامّة.

إن الرخام مادّة خارقة. ويمنحنا أبوللو بلفيديري هذا الفيض من المتعة بفضل الرخام لا غيره. فنضارة الشباب السرمدية، التي يمتاز بها التمثال الأصلي، تخبو في الحال حتّى في أحسن نماذج الجبس.

يحوي قصر بالازو روندانيني، الواقع قبالة تمثال أبوللو، قناعاً لميدوزا بحجم أكبر من الحجم الطبيعي، يصوّر صلابة الموت المفزعة تصويراً بديعاً. وأمتلك نسخة من الجبس عن هذا القناع، لم يبقَ فيها شيء من فتنة الأصل. إن الرخام المائل للصفر، الذي يقارب لون البشرة، يمتاز بالسمو

والشفافية. أما الجبس، بالمقابل؛ فيبدو طبشوراً هامداً. مع هذا، أية متعة يستمدّها المرء حين يدخل ورشة صانع القوالب، ويرى إلى الأطراف البديعة للتماثيل، وهي تشرئبّ من القوالب، الواحدة بعد الأخرى. إن هذه القوالب تمدّني بنظرات جديدة تماماً إلى الأجساد. فسائر التماثيل المبثوثة في أرجاء روما، تصطفّ هنا جنباً إلى جنب. وهذا مثمر لأغراض المقارنة. ولم أقوَ على صَدّ اغراء شراء نسخة مصبوبة من رأس جوبيتر العملاق. وينتصب الرأس الآن جوار فراشي، في ضوء حسن، حتّى أستطيع أن أبتهل إليه بصلاتي عند طلوع الصباح. وعلى جلال جوبيتر وسُمُوّه، فقد كان سبباً وقوع حادث هزلي.

حين تأتي صاحبة النزل؛ لترتّب أغطية الفراش، تصحبها، في العادة، قطّتها المفضّلة. كنتُ جالساً في صالة النزل حين سمعتُ صوتها في غرفتي. بغتة، انفتح باب غرفتي. لن أقول في عجلة وهياج، فهذا أقلّ من مقامها. ودعتني إلى أن أسرع؛ لأرى المعجزة. ولمّا استفسرتُ عن جلية ما حصل، أجابت أن قطّتها تتعبّد أبانا الرب.

كانت السيدة قد لاحظت، منذ فترة، أن لهذه المخلوقة فطنة المسيحي، مع ذلك كان حصوله معجزة. هرعتُ إلى الغرفة؛ لأرى بنفسي، فوجدت معجزة بحقّ. إن التمثال النصفي لجوبيتر موضوع على مسند عال، ولمّا كان جسد التمثال مبتوراً عند أدنى الصدر، فإن الرأس يقارب ملامسة السقف. كانت القطّة قد وثبت إلى المسند، وأنشبت مخالبها على صدر الإله جوبيتر، ومطّت نفسها حتّى لامس خطمها لحيته المقدّسة، وراحت تلحس اللحية، غافلة عن صيحات إعجاب صاحبة النزل، أو عن دخولي.

لم أشأ أن أفسد على المرأة الطيّبة حماستها بأن أقدّم لها تفسيري الخاص لهذه التقوى السنّورية الغريبة. إن للقطط حاسة شمّ حادّة، ولعلّها

التقطت رائحة الشحم العالق بالتمثال من قالبه، وبخاصة بقايا الشحم التي تشبّعت بها طيّات ومفارق لحية جوبيتر.

٢٩ كانون الأول (ديسمبر)

ينبغي أن أحكي لكم المزيد عن تيشباين وصفاته الرائعة: وعلى سبيل المثال، كيف نمّى ثقافته، هذا الألماني الأصيل. وينبغي لي أيضاً أن أقول بامتنان إنه كان صديقاً مخلصاً لي خلال فترة مكوثي الثانية في روما. فلقد رعاني رعاية متّصلة، ودبّر لي حشداً من أعمال كبار الأساتذة، استُنسخت بخاصة لي، بعضها بالباستيل الأسود، وأخرى بالحبر والألوان المائية. ستكون هذه النسخ لي في ألمانيا ذات قيمة لا تُقدّر بثمن حين أكون بعيداً عن الأعمال الأصلية.

ابتدأ تيشباين حياته بالسعي إلى أن يكون رسّام بورتريهات، وتعرّض في مجرى عمله إلى الاحتكاك بأناس بارزين، وبخاصة في ميونيخ، شذّبوا ذائقته، ووسّعوا مداركه وأفقه.

حملتُ معي كتاب "أوراق مبعثرة"، وهو موضع ترحيب مضاعف هنا. وينبغي إبلاغ هيردر، على سبيل المجازاة، إبلاغاً مفصّلاً عن الانطباع الحَسَن الذي يخلّفه هذا الكتاب الصغير عند إعادة قراءته. ويقول تيشباين إنه لا يمكن أن يصدّق أن المؤلّف وضع كتابه هذا من دون أن يأتي إلى إيطاليا.

يعيش المرء، إن جاز القول، في مستعمرة الفن هذه، في غرفة ملأى بالمرايا، يرى فيها المرء، شاء أم أبى، نفسه وسواه المرّة تلو المرّة، بلا انقطاع.

لقد لاحظتُ مراراً أن تيشباين يتفرّس فيّ عن كثب، والآن عُرف السبب؛ إنه يروم رسم بورتريه لي. لقد أنجز التخطيط الأولي، وثبّت قماشة اللوحة على الإطار. سيكون البورتريه بالحجم الطبيعي. ويروم تيشباين أن يصوّرني

كرحّالة متلفّع بعباءة بيضاء، جالساً على مسلّة ساقطة، متطلّعاً إلى خرائب كامبانيا دي روما، في خلفية اللوحة. سيكون الرسم بديعاً، لكنه أكبر من أن يناسب بيوتنا نحن أهل الشمال. آمل أن أجد، ثانية، زاوية منعزلة لنفسي، لن يكون فيها مكان للبورتريه الشخصي.

رغم كل ضروب المحاولات التي بُذلت لجَرّي إلى الخروج من التخفّي، ورغم كل الشعراء الذين قرؤوا لي نتاجاتهم شخصياً، أو أرسلوها؛ ليقرأها آخرون نيابة عنهم، ورغم أني أستطيع أن أحتلّ موقعاً بارزاً كبيراً، بكلمة واحدة مني، فقد لزمتُ قراري. ومن الممتع حقاً أن أكتشف ما يسعون إليه. فكل حلقة صغيرة تُبدي بين آونة وأخرى روح البلدة الإقليمية النائية، رغم أن أفرادها يجلسون عند أقدام روما، ملكة العالم. الواقع أن هؤلاء لا يختلفون، هنا، عن أقرانهم في أي مكان آخر. وإنني لأشعر أصلاً بالقرف من فكرة ما يريدون أن يفعلوه معي، أو عن طريقي. فذلك يعني أن أنضمّ إلى زمرة، وأناصر أهواءها وأحابيلها، وأن أطري فنانيها ونقّادها، وأن أستصغر شأن غرمائها، وأن أتظاهر بكل ما يرضي أصحاب النفوذ والثراء. ما الذي يوجب عليّ أن أضيف صلواتي إلى هذه الابتهالات الجمعية التي تدفعني إلى أن أتمنّى لو أني كنتُ على كوكب آخر؟ وأيّ نفع في ذلك؟

كلا، إنني أرفض الانجرار إلى التورّط عميقاً، وأقصد من جهتي، إنني سأبقى بعيداً، وحين أعود إلى الوطن، سأقارع، في نفسي كما عند الآخرين، رغبة التسكّع التائه في العالم العريض الفسيح.

مبتغاي أن أرى روما الأزلية، لا روما المستبدلة أخرى كل عقد من السنين. لو توفّرت لديّ فسحة أكبر من الوقت، لاستثمرتُها على نحو أفضل. وإن التاريخ هو ما يطالعه المرء هنا بصورة تختلف عن أي مكان آخر في العالم. ففي سائر الأصقاع يبدأ المرء ممّا هو برّاني؛ ليمضي إلى

ما هو جوّاني؛ فالتاريخ كله يطوّقنا، والتاريخ كله، ينبعث منا. ولا يصحّ هذا على تاريخ روما وحدها، بل ينطبق على تاريخ العالم كله؛ إذ يمكن لي، في هذا المكان، أن أصاحب الفاتحين في غزواتهم إلى الفيسر أو إلى الفرات، أو، إن شئتُ أن أقف وأحدّق، وأن أنتظر عودة الفاتحين الظافرين في شارع فياساكرا. في غضون ذلك تجدني أقتات على النزر المقتّر من الحبوب والنقود؛ لأغرف حصّتي المشبعة من هذا البهاء.

٢ كانون الثاني (يناير) ١٧٨٧

يلهج المرء بما يشاء من الثناء على الكلمة المكتوبة، أو المنطوقة، غير أن ثمّة مناسبات تعجز فيها الكلمة عن أن تفي بالمرام. فلا سبيل لها، قطعاً، في أن توصل الطابع الفريد لأية تجربة، حتّى في شؤون عقلية صرفاً. أما حين ينغمس المرء في أن يعاين موضوعاً معيّناً لأجل ذاته، فإن قراءة أيّ نص عنه، أو سماع أية معلومة بصدده، إنما يورثان الإمتاع؛ ذلك أن الكلمة، ها هنا، تتّصل بالصورة الحيّة، وتسمح بالتأمّل والحكم.

اعتدتُم غالباً على الضحك من شغفي العاتي بملاحظة الصخر والنبات والحيوان من زوايا نظر معيّنة، وسعيتُم إلى أن تُثنونني عن ذلك. أما الآن؛ فانتباهي مُنصبّ على العمارة والنحت وفن الرسم، وسأجد في ذلك كله ما أتعلّم منه؛ لأجد ذاتي.

٦ كانون الثاني (يناير)

عدتُ لتوّي من زيارة موريتز، الذي فكّ الجبس عن ذراعه المكسور. والأمور على خير ما يرام. تعلّمتُ خلال هذين الأسبوعين اللذين قضيتُهما ملازماً صديقي الموجوع، بوصفي ممرّضاً، وسامع اعترافات، وكاتم أسرار، ووزير مالية، وسكرتيراً خاصاً له، ما قد يُثمر خيراً في المستقبل. وتميّزت هذه الفترة باقتران أشدّ الآلام بأندر المتع.

نصبتُ بالأمس نسخة جديدة من تمثال عملاق لرأس جونو على التلّة التي تطل عليها غرفتي، وإن النسخة الأُصلية للتمثال موجودة في فيلا لودوفيزي. كان تمثال جونو هو حبّي الروماني الأول، وأنا الآن أمتلكه. إن الكلمات لعاجزة عن وصف هذا العمل. لكأنه نشيد من أناشيد هوميروس. لكني أستحقّ هذه الصحبة البديعة؛لأن بمقدوري أن أعلن الآن أنني أكملتُ مسرحية إفيجيني أخيراً، أعني أنها ناجزة الآن، على الطاولة أمامي، في نسختين متماثلتين. فعسى أن تستقبلوها بعطف. ورغم أنكم، بالطبع، لن تجدوا على صفحاتها ما كان ينبغي أن أضعه فيها، فإنكم ستحزرون - في الأقل - ما كنتُ أروم كتابته.

اشتكيتُم مرّات عدّة من غموض بعض المقاطع في الرسائل التي ألمحت إلى النزاع الذي نشب في دخيلتي حتّى لحظة مشاهدتي أسمى المشاهد. إن رفيق سفري الإغريقي لم يكن قليل المسؤولية في حَثّي على التأليف لحظة كان ينبغي لي أن أعاين ما يوجد حولي.

يذكرّني ذلك بصديق رائع، أكمل كل الاستعدادات اللازمة لرحلة، يمكن لنا أن نسمّيها رحلة استكشاف. لقد دأب على مدى سنوات في الدراسة وادّخار المال، ثمّ، بغتة، فرّ مع ابنة غائلة من الأعيان، كما لو أنه أراد أن يضرب عصفورين بحجر.

وبالمثل، استبدّ بي مزاج متهوّر، فعزمتُ أن أصطحب إفيجيني معي إلى كارلزباد. دعوني أحكي لكم بإيجاز عن الأماكن التي انشغل فيها ذهني ببطلة مسرحيتي.

بعد أن خلفتُ برينر ورائي، أخرجتُها من الرزمة الكبيرة، وضممتُها إلى صدري. وحين قبعتُ على شواطئ بحيرة جاردا؛ حيث ريح الظهيرة

العاتية تقذف الموج المتكسّر على الشاطئ، تملّكني إحساس بالوحشة، يماثل إحساس بطلتي بالوحشة والوحدة على شواطئ تاورس. وهنا دوّنتُ الأسطر الأولى من الصيغة الجديدة للمسرحية. واصلتُ الكتابة في فيرونا، وفيشينزا، وبادوا، ثمّ كتبتُ بهمّة عالية في البندقية. بعدذلك، وصلتُ درباً مسدوداً، ووقعتُ في إغراء وضع مسرحية جديدة: إفيجيني في دلفي. ولولا تشتّت انتباهي، وإحساسي بالواجب إزاء المسرحية القديمة؛ لما انثنيتُ عن تنفيذ المسرحية الجديدة.

وما إن حللتُ في روما حتّى طفقتُ أعمل عليها باطّراد. وكنتُ في كل مساء أهيّئ نفسي، قبل أن آوي إلى الفراش، لمسك خطوط الحصّة التالية من النص صباح الغد، التي كنتُ أهجم عليها ما إن أستيقظ. وكانت طريقتي جدّ بسيطة. كنتُ أكتب مسودة أولية دون توقّف، ثمّ أقرأ المسودة بصوت مسموع لنفسي، سطراً سطراً، ونقطة نقطة، حتّى يبدو وقعها سليماً. أما النتيجة؛ فلكم أن تحكموا عليها. لقد تعلّمتُ من كتابتها أكثر ممّا أنجزتُ. سأرفق نص المسرحية ببعض التعليقات.

٦ كانون الثاني (يناير)

من جديد، عندي بعض الروحانيات الكَنَسية ممّا أحكيه لكم. قضينا ليلة عيد الميلاد في التجوّل، زائرين الكنائس التي أقامت القدّاس، من أشهرها، وأكثرها ذيوعاً، كنيسة مزوّدة بأرغن خاص، وآلات موسيقية أخرى، لا ينقصها صوت رعوي قط، من نايات الرعاة، إلى زقزقة الطيور، إلى ثغاء الحملان.

أما في يوم عيد الميلاد؛ فقد رأينا البابا في كنيسة القدّيس بطرس محاطاً برهط من أتباعه من الكَهَنُوت؛ حيث أقام القدّاس الأعظم. ورأيناه يجلس على عرشه البابوي حيناً، أو يقف أمامه حيناً آخر. إنه مشهد فريد في بابه، مشهد بديع، ملؤه السُّمُوّ والرفعة. غير أني كما تعلمون ديوجينوس

بروتستاني قديم، وأن أثر هذه الأبّهة عليّ سلبي، وليس إيجابياً. وبودّي أن أقول، مثل سلفي التقي، لهؤلاء الغزاة الروحيين للعالم: لا تحشروا أنفسكم بيني وبين منارة الفن المقدّس، والإنسانية البسيطة.

يصادف اليوم عيد الغطاس (أو الظهور)، وسمعتُ قدّاساً تُلي وفقاً للشعائر الإغريقية. إن هذه الطقوس تبدو لي أفضل، وأعمق، وأبسط، من الشعائر اللاتينية.

وإذ راقبت القدّاس، شعرتُ من جديد أنني بلغتُ من الكبر مبلغاً، لا يرضيه سوى الحقيقة. إن الشعائر، وعروض الأوبرا، والمواكب، وعروض الباليه، تفرّ مني فرار الماء من ظهر أوزة. أما أعمال الطبيعة، كغروب الشمس عند فيلا مادامـا، أو أعمال الفن، مثل تمثال جونو المؤلهة؛ فإنها تخلّف فيّ انطباعاً عميقاً مستديماً.

وإنني لأتوجّس منذ الآن من فكرة قدوم موسم المسرح التالي. ففي الأسبوع القادم، ستفتح سبعة مسارح أبوابها. وإن إنفوسي نفسه موجود هنا، وسيؤدّي مسرحية: "الإسكندر في الهند". كما ستُعرض مسرحية "سايروس"، إضافة إلى باليه: "فتح طروادة". لاريب أن ذلك سيكون عرضاً، يناسب الأطفال.

١٠ كانون الثاني (يناير)

ها هنا، إذنْ: "طفلة أحزاني". إن إفيجيني تستحقّ هذه الشاهدة بأكثر من معنى. حين تلوتُها على حلقتنا، أشّرتُ بعض الأبيات، وشذّبتُ بعضها نحو الأحسن، على ما أظنّ، وتركتُ الباقي على حاله، آملاً أن يصحّحها هيردر بلمسة، أو لمستين من قلمه. لقد انكببتُ على العمل فيها حدّ الذهول عن سواها.

إن السبب الذي يدفعني، منذ سنوات عدّة، إلى أن أفضّل الكتابة نثراً هو أن علم العروض عندنا في حالة كبيرة من الغموض. وإن أقراني الأذكياء الباحثين، تركوا الخيار لذائقة الكاتب وفطرته. ثمّة افتقار إلى مرتكز مبدئي في علم العروض. وما كنتُ لأجرؤ أبداً على إعادة كتاب إفيجيني في بحر (البسيط)، لولا أن هداني نجم كتاب موريتز "علم العروض". وإن صلتي الحميمة بالمؤلّف، وبخاصة خلال فترة رقوده في فراش المرض، أثارت عقلي، فاستزاد في هذا الموضوع، وإني لارجو أصدقائي أن يمحضوا نظريته اهتمامهم العطوف.

من الحقائق العجيبة أن لغتنا تخلو إلا من قلّة من المقاطع اللفظية الطويلة تماماً، أو القصيرة تماماً؛ وإن الأمر - في معظمها - يرجع إلى الذائقة والاختيار. واستخلص موريتز في نظريته وجود مراتبية متدرّجة في المقاطع اللفظية. وإن المقطع الأهمّ لمعنى المفردة طويل لفظياً، وهو يقصّر المقطع اللاحق، الأقلّ أهمّيّة للمعنى. من جهة أخرى، يكون المقطع اللفظي الواحد ذاته قصيراً، إن جاء بعد أو قبل المقطع الذي يحمل الوزن الأكبر للمعنى. ها أنتم ترون أن ثمّة مرتكزاً، نستطيع التمسّك به، حتّى على افتراض أن ذلك لا يحلّ كل شيء، فإن لدينا، في الأقلّ، خيطاً نهتدي به على الطريق. لقد امتثلتُ دوماً لنصح هذه القاعدة، ووجدتُها متساوقة مع إحساسي باللغة.

ذكرتُ آنفاً أنني قرأتُ مسرحيّتي على حلقتنا. دعوني الآن أوجزكم القول في مآل هذه القراءة. لقد اعتاد أولاء الشباب على أعمالي السابقة، المتخمة بعاطفة مشبوبة، فباتوا يتوقّعون شيئاً على غرار مسرحيتي: وثن من بيرليشنجن(*)، ولم يستطيعوا - بادئ الأمر - أن يحملوا أنفسهم على تقبّل المجرى الهادئ للأبيات، رغم أن بعض المقاطع البسيطة، ذات النبرة

*) دراما مبكّرة، وضعها غوته عام ١٧٧٢.

العالية، لم تمض من دون أن تترك أثرها. وأن تيشباين، الذي لا يميل بذائقته إلى مثل هذا الكبح للعاطفة، عبّر عن رأيه في استعارة أو ترميز جميل. لقد شبّه عملي، بنذر محروق، ينبعث منه دخان شفيف، يكبحه نسيم رقيق عن الصعود، فيمكث خفيضاً على الأرض، أما ناره؛ فتجهد لأن تشبّ ثانية. وإن رسمه المرفق مع النص ينطوي على فتنة ومغزى، على ما أظنّ.

وهكذا، فإن العمل الذي ظننتُه سيكتمل سريعاً، راح يسلّيني، ويحتجزني، ويشغلني، ويعذّبني على مدى أشهر ثلاثة كاملات. وما هذه بالمرّة الأولى التي أعامل بها أمراً على جانب عظيم من الأهمّيّة معاملة استخفاف، كما لو كان شأناً صغيراً؛ ولكنْ؛ كفانا جدالاً وتفلسفاً حول هذا.

أرفق لكم نقشاً جميلاً على الحجر. شبل صغير وذبابة تطنّ قرب أنفه. كان هذا من المواضيع المحبّبة إلى القدماء، فعالجوه مراراً وتكراراً. أحبّ أن أختم على رسائلكم بهذا النقش في المستقبل، حتّى يقوم هذا الختم الصغير مقام صدى فني، يتردّد بيني وبينكم.

١٣ كانون الثاني (يناير)

أتزوّد في كل يوم بالكثير ممّا أقصّه عليكم، وتعترضني كل يوم مشاغل وتوزّعات شتّى، تمنعني من تدبيج كلمة واحدة ذات معنى على الورق. زد على هذا، أن الأيام تزداد برودة قارسة، وإن كل الأمكنة رحيمة عدا الغرف التي تخلو من موقد أو مدفأة، ولا تصلح إلا للنوم أو للشعور بالضيق. مع هذا ثمّة أحداث تخلّلت الأسبوع الفائت، ولا ينبغي أن تمرّ من دون تسجيل.

ينتصب في قصر بالازو جيوستينياني تمثال منيرفا الذي أكنّ له أكبر الإعجاب. قلّما يشير فينكلمان إلى هذا التمثال، وحين يفعل، يورده في

السياق المغلوط. غير أني لا أشعر أني على قدر كاف من الأهلية لقول شيء بصدده. أطلْنا الوقوف ناظرين إلى التمثال، حتّى جاءت زوجة السادن؛ لتخبرنا أنه كان ذات يوم نحتاً مقدّساً. وإن الإنجليز، كما تقول بالإيطالية، الذين ينتمون إلى هذه الديانة نفسها، مايزالون يفدون لعبادة التمثال، وتقبيل إحدى يديه. (الحقّ أن إحدى اليدين بيضاء، أما بقية التمثال؛ فذات لون مائل إلى البني.) ومضت إلى القول إن رئيسة هذا المعتقد الديني زارت هذا المكان مؤخّراً، وخرّت راكعة ساجدة أمام التمثال. أما هي، زوجة السادن؛ فقد وجدت هذا السلوك، باعتبارها مسيحية قويمة، غريباً مضحكاً، ما دفعها إلى الإسراع بالخروج؛ لئلا تنفجر من الضحك. ولمّا رأت أني ملازم التمثال، ولا أقوى على فراقه أيضاً، سألتْني إن كانت لي حبيبة، تشبه صاحبة التمثال. إن العبادة والحبّ هما كل ما تفقهه هذه المرأة الطّيّبة في الدنيا؛ أما الإعجاب المنزّه عن الغرض بعمل سام من أعمال الفن، والتقدير الأخوي لروح إنسانية أخرى، فخارج عن نطاق تفكيرها إطلاقاً. وسررنا لسماع حكاية السيدة الإنجليزية، ومضينا ممتلئين رغبة في العودة قريباً. إن أراد أصحابي الاستزادة مني عن الأسلوب السامي للإغريق، فوصيّتي لهم أن اقرؤوا ما يقوله فينكلمان بصدده. إنه لا يذكر هذه المنيرفا في مناقشاته، لكن هذا النحت، إن لم أكن مخطئاً، هو من الأمثلة الأحدث عهداً عن الأسلوب المتقشّف في لحظة تحوّله إلى أسلوب الجمال: فالبرعم يوشك أن يتفتّح. وهذا الأسلوب الانتقالي يوائم شخصية مثل منيرفا.

إليكم، الآن حكاية مدوّية من صنف آخر! في يوم عيد الغطاس (أو الظهور)، الذي يحتفي بزفّ البشارة إلى الوثنيين، توجّهنا إلى مجمع التبشير. وسمعنا هناك، بحضور ثلاثة كرادلة، وحشد غفير أول خطاب يطرق هذا الموضوع: في أيّ موضع استقبلتْ مريم العذراء حكماءَ المجوس؟ في

إسطبل؟ وإن لم يكن هنا، فأين إذنْ؟ تُليت بعد ذلك قصائد باللاتينية على موضوعات مشابهة، بعدها تتالى علينا نحو ثلاثين دارس علوم دينية؛ ليلقوا على مسامعنا، الواحد بعد الآخر، قصائد قصاراً، كلٌّ بلغته الأمّ: المالا بارية والأبيروتانية، التركية، والموالدافية، والهيلينية، والفارسية، والكوكتشية، والعبرية، والعربية، والسريانية، والقبطية، والساراسينية، والأرمينية، والأيبرية، والمدغشقرية، والأيسلاندية، والمصرية، واليونانية، والأيسوريانية، والأثيوبية، وغير ذلك من لغات، لم أفقه منها شيئاً. ويبدو أن معظم القصائد دُبّج في أوزان اللغة القومية، وأُلقيتْ بترنيم خاص من نبرات العلو والخفوت، نظراً لورود بعض الإيقاعات والأصوات البربرية. أما الإغريقية؛ فصدحت كأنها نجم ثاقب، يتوهّج في كبد الليل. ضجّ الحضور بالضحك على كل الأصوات الأجنبية الغريبة، وبذا؛ انتهى هذا العرض نهاية هزلية هو الآخر.

إليكم حكاية أخرى صغيرة تبيّن مدى الخفّة التي تؤخذ بها المقدّسات في روما المباركة. ذات مرّة حضر الكاردينال الراحل الباني واحداً من هذه القدّاسات التي وصفتُها للتوّ. توجّه أحد طلاب العلوم الدينية الأجانب إلى الكاردينال، وقال بلسانه الغريب "كناجا! كناجا!"، فصدحت هذه الكلمات أشبه بالكلمات الإيطالية "كانجيا! كانجيا!" (أي وغد، وغد!). التفت الكاردينال إلى رهطه، وقال:

"مؤكّد أن هذا الشاب يعرفنا!"

١٣ كانون الثاني (يناير)

رغم كل ما أنجزه فينكلمان، فإنه ترك الكثير دون مساس، وإن كتابه ليترك المرء متعطّشاً. لقد جمع من المواد ما جمع، لكنه تعجّل في البناء، حتّى يشيد سقفاً في منزله. ولو كان حياً معافى، لكان أول مَن ينقّح ما كتب. وما أكثر ما كان سيضيف إلى ملاحظاته الأولية، ويفيد ممّا أنجزه

الآخرون، ممّن جاؤا في أعقابه، كما يفيد من نتائج الحفريات الأخيرة. وعندئذ، فإن الكاردينال الباني، الذي كتب الكثير لأجله، ولأجله امتنع عن قول الكثير، كان سيكون قد رحل عن الدنيا.

١٥ كانون الثاني (يناير)

طيّب، ها قد عُرضت مسرحية "اريستوديمو" أخيراً، وبنجاح كبير. ولمّا كان أباتي مونتي من أقرباء ابن أخ البابا، ويتمتّع بشعبية واسعة في المجتمع الراقي، فكان طبيعياً ألا يبدي هذا الوسط إلا الثناء على العمل، زد على هذا أن نظّارة الشرفات الخاصة أبدوا السخاء كله تصفيقاً. فمنذ البداية وقعت هذه الصفوة أسيرة حُسن بيان الشاعر، ورهافة أداء الممثّلين، فلم تفوّت فرصة للجهر بالاستحسان. ولم يكن الفنانون الألمان الجالسون في الصفوف الخلفية أقلّ ضجيجاً، وهو صخب مناسب لمرّة واحدة، فالمعروف عنهم أنهم صخّابون في كل المناسبات.

لزم المؤلّف بيته قلقاً من احتمالات استقبال الجمهور للمسرحية، غير أن الأنباء الحسنة تواترت عليه بعد كل مشهد، فقلبت قلقه الممضّ إلى فرح طاغ، على درجات. ويبرهن نجاح المسرحية أن التضادّ الدرامي المتين، شريطة أن يكون لكل عنصر في المتضادّات وجوده الحقيقي الخاص، قادر على الفوز برضا المختصّ والجمهور العام، سواء بسواء.

لقد كان العرض يستحقّ التقدير، وكان تمثيل وأداء الممثّل الرئيس، الذي بقي على الخشبة طوال الوقت تقريباً، رائعين كل الروعة؛ لكأنك ترى أحد ملوك الأقدمين بلحمه ودمه. وإن الأزياء التي تفتننا كثيراً حين نراها في التماثيل، قد قُلّدت تقليداً ناجحاً في الزي الذي ارتداه الممثّل، ومن الجلي أنه درس حقبة القدماء دراسة وافية.

١٦ كانون الثاني (يناير)

روما مهدّدة بخسارة كبيرة. ذلك أن ملك نابولي(*) سينقل تمثال هرقل فارنيزي إلى قصره. الفنانون كلهم في حداد. غير أن هذا النقل سيتيح لنا أن نرى ما لم يُبصره أسلافنا. لقد عثروا على الجزء العلوي للتمثال في ضيعة فارنيزي، من الرأس إلى الركبة، ثمّ القدمين والقاعدة. ولم يجدوا الساقين، من الركبة إلى الكاحل، فقام النحّات جوجليموديلا بورتا بنحت ساقين بديلتين، راح تمثال هرقل يقف عليهما حتّى الآن. لكنهم اكتشفوا الساقين الأصليتين في ضيعة بورجيزي، وعرضوهما في فيلا الأمير.

وقرّر أمير بورجيزي الآن أن يقدّم هاتين الساقين الثمينتين إلى ملك نابولي. فأُزيحت الساقان اللتان نحتهما ديلابورتا، وأعيدت الساقان الأصليتان إلى موضعهما. ورغم أن الجميع استحسنوا التمثال، بما هو عليه، فثمّة أمل بأن ننعم برؤية شيء جديد تماماً، وأكثر اتّساقاً.

١٨ كانون الثاني (يناير)

قضينا وقتاً ممتعاً بالأمس في عيد القدّيس أنطوني. ورغم أن الصقيع نزل علينا ليلاً، فإن النهار أسفر عن جوّ رائق ودافئ.

من الملاحظ تاريخياً أن سائر الأديان توسّع شعائرها وتأمّلاتها اللاهوتية، حتّى تصل، عاجلاً أو آجلاً، إلى النقطة التي تسمح فيها للبهائم بأن تأخذ قسطاً من الرعاية الروحية. وإن القدّيس أنطوني، وهو رئيس دير أو أسقف، هو القدّيس الراعي لكل ما يدبّ على أربعة قوائم، وإن عيده هو عيد قصفٍ ولهوٍ لهذه الدوابّ، التي تعاني ما تعاني في الأيام الأخرى، وعيد لسائسيها وأصحابها أيضاً. ويتوجّب على طبقة النبلاء في هذا العيد أن

---

*) هو الملك فرديناند الرابع (١٧٥١ـ١٨٢٥).

تلازم بيوتها، أو أن تمشي على القدمين، ويحبّ الناس أن يحكوا قصصاً مروّعة عن سادة أجلاف أرغموا حوذيهم على قيادة العربة في هذا العيد، فنزل بهم العقاب في حوادث خطيرة.

تقف الكنيسة في ساحة تبلغ من السعة مبلغاً. يوحي أنها خالية، لكنها اليوم تضجّ بالحياة. وثمّة جياد وبغال تحمل أشرطة زينة، دوّنت عليها أسماؤها. وقد قيدت إلى مصلى صغير منفصل عن مبنى الكنيسة الأصلي؛ حيث يوجد قسّ مسلّح بفرشاة ضخمة، يرشّ بها الماء المقدّس من دلاء وأوان، وُضعت أمامه. وهو يرشّ الماء بسخاء، وهمّة، وفكاهة؛ كيما يستثير البهائم. ويقدّم الحوذيون الأتقياء نذورهم شموعاً من شتّى الأحجام، وأما سادتهم؛ فيرسلون الصدقات والأعطيات، حتّى تُصان بهائمهم القيّمة النافعة، من ضروب الأذى والحوادث في العام المقبل. وتحظى الحمير والمواشي ذات القرن بنصيبها المتواضع من هذه البركات.

بعد ذلك، مضينا في نزهة على غير هدى تحت سماء إيطاليا المباركة. ووجدنا أنفسنا محاطين بكل ما يثير الاهتمام، غير أننا وطّدنا العزم هذه المرّة على أن نُسرّي عن النفس في اللهو والمرح.

١٩ كانون الثاني (يناير)

أخذنا اليوم عطلة جديدة، وتفرّجنا على جانب من مبنى الكابيتول، الذي أهملناه حتّى الآن. بعد هذا، عبرنا نهر التيبر، وكرعنا نبيذاً إسبانياً على متن سفينة، رست للتوّ. يُقال إنهم عثروا على رومولوس وريموس في هذا الحي. أما بالنسبة لنا؛ فقد عثرنا على عيد عنصرة مثلّث، فقد ثملنا من روح أقداس الفن، وذكريات الأقدمين، ومذاق النبيذ الحلو، في آن.

٢٠ كانون الثاني (يناير)

إن المتعة التي يستمدّها المبتدئ من نظرته السطحية الأولى، تحزنه لاحقاً حين يدرك أن هذه اللذّة ليست إلا وَهْماً، إن لم تكن راسية على معرفة وطيدة.

إنني على دراية معقولة بعلم التشريح، وقد اكتسبت بعض المعرفة عن تشريح الجسد البشري، وإن لم يخل ذلك من كثير مشقّة. وأجدني الآن، بفضل المراقبة المتّصلة للتماثيل، وقد ازددتُ تعلّقاً بموضوع التشريح على مستوى أرفع. إن معرفة الجزء لا الكل هو العنصر الأهمّ في التشريح الجراحي، ويكفي لهذا أن تتعرّف على عضلة واحدة بائسة صغيرة. أما في روما؛ فالأجزاء لا قيمة لها إلا بمقدار ما تُسهم في صوغ الهيئة الكاملة، وهذا هو السامي والجميل.

وهناك نموذج عن الجهاز العضلي للإنسان صُنع خصيصاً للفنانين؛ كيما يدرسوه في مستشفى سانتوسبيريتو، وهو نموذج يحظى بإعجاب شامل، ويشبه هذا النموذج مرسياس، أو قدّيساً، سُلخ عنه جلده.

وأعكف الآن على تثقيف ذاتي باتّباع عادات الأقدمين ودراسة الجمجمة، لا بوصفها كتلة عظام، نُضدت اصطناعاً، بل بمعيّة الغضاريف والأعصاب التي تمنحها الحياة والحركة.

وإن قلتُ لكم الآن إني أدرس المنظور أيضاً في المساء، فذلك سيبيّن، كما آمل، أنني بعيد عن التقاعس. ولهذا تجدني ساعياً إلى الجدّ، بما يفوق قدرتي على الأداء حقاً.

٢٢ كانون الثاني (يناير)

أما بصدد الذائقة الفنية وسط أفراد المستوطنة الألمانية هنا؛

فليس عندي ما أقول سوى: أن الأجراس تُقرع مدوّية، لكنها متنافرة.

يخيّم عليّ اليأس حيناً، لحظة أفكّر في كثرة الأشياء البديعة المحيطة بنا، وقلّة قدرتنا على الإفادة منها. غير أني أتطلّع متلهّفاً إلى العودة، والأمل في أن أقدر، في المرّة القادمة، على أن أرى هذه الأعمال العظيمة رؤية أجلى، بعد أن اقتصرتُ حتّى الآن على تلمّس طريقي مثل أعمى.

لا يتوفر، حتّى في روما، إلا القليل من الذخيرة المعدّة لشخص، يروم أن يدرس المدينة بأسرها دراسة جادّة. ويضطرّ الدارس إلى أن يغرف النزر اليسير من الشظايا المتفرّقة، الكثيرة، بل الوفيرة حقاً. والحقّ، أن قلّة من الزوّار تعني حقاً بالمشاهدة والتعلّم في أي أمر هام. وتجدهم أسرى خيلائهم، ونزواتهم، وهذا ما يدركه بوضوح ساطع كل مَن يتعامل معهم. وإن لكل دليل مقاصده الخفية من هذا الزائر أو ذاك، وكل دليل يريد أن يوصي بهذا التاجر أو ذاك، أو أن يروّج لأعمال فنانه الأثير. وما الذي يمنع هذا عن إتيان ذلك؟ أولا يرفض الجهلاء أبدع أو خير ما يُعرض عليهم؟!

ولعلّ خير خدمة تقدّم للدارس الجادّ، أن تعمد الحكومة، قبل إعطاء الإذن بتصدير نحت فني من أعمال القدماء، على وجوب عمل قالب لهذا النحت. ويمكن جمع هذه القوالب في متحف خاص. ولكنْ؛ حتّى لو عنّ للبابا أن ينفّذ هذه الفكرة؛ لانقلب عليه أصحاب المهن والتجارة؛ لأن الصراخ على فقدان الكثير من الأعمال القيّمة الهامّة، سيندلع بعد أعوام، خصوصاً وأن الإذن بتصديرها يمكن أن يستحصل بأساليب خفية ملتوية.

لقد ثارت المشاعر الوطنية وسط مستوطنة الألمان، منذ بعض الوقت، وبخاصة منذ عرض مسرحية أريستوديمو. فلم يكفّوا عن الترنّم بأناشيد الحمد والثناء لمسرحيتي: إفيجيني. وتواترت الطلبات عليّ لقراءة نتف

منها، فاضطررتُ آخر الأمر إلى أن أكرّر قراءة النص كله. وحين فعلتُ ذلك، وجدتُ أن هناك أبياتاً لها وقع على السماع خير من وقعها على الورق، وهذا يبرهن أن الشعر لا يُكتب للعين.

بلغت أنباء هذه القراءة مسامع رايفنشتاين وإنجيليكا(*)، فجاني الرجاء الملحف بأن أقدّم قراءة أخرى في منزلهما. طلبتُ إمهالي أياماً، ثمّ قدّمتُ عرضاً مسهباً عن فحوى الحكاية وتطوّر حبكتها. فكان هذا العرض أكثر تشويقاً عند أولاء المذكورين، بما فاق توقّعاتي، بل إن السنيور زوكي، الذي لم أتوقّع منه كبير إعجاب، أبدى اهتماماً صادقاً عطوفاً. ويسهل تفسير إعجابه، نظراً لأن مسرحيتي تتّفق، في المبنى والشكل، مع تقاليد الدراما الإغريقية والإيطالية والفرنسية، اتفاقاً معيّناً. ويجتذب هذا الشكل الإعجاب الشديد عند أولئك الذين لم يعتادوا على جرأة الدراما الإنجليزية.

٢٥ كانون الثاني (يناير)

أواجه صعوبة متنامية في أن أسرد سرداً ملائماً حكاية بقائي في روما. فكلّما توسّعتُ في مشاهدة المدينة، تفاقم الإحساس عندي بأني خائض في مياه عميقة.

من المحال فَهم الحاضر من دون معرفة الماضي، وعقد المقارنة بين الاثنين. وأحتاج لهذا وقتاً أكبر، وتشتّتاً أقلّ. إن موقع المدينة ذاته يعيد المرء القهقرى إلى زمن تأسيسها. وسرعان ما نكتشف أن الناس الذين استقرّوا هنا، وأنشؤوا مركزاً إمبراطورياً، ما كانوا عظماء، أو قادة حكماء. وليس ثمّة سلطان جبّار، اختارها موضعاً موائماً لمركز مستعمرة. كلا، فروما بدأت، أول ما بدأت، ملاذاً للرعاة والرعاع. وعمد شابّان قويان هميمان، إلى إرساء الأسس لقصور سادة العالم عند سفح تلك التلّة ذاتها التي

*) إنجيليكا كاوفمان، رسّامة سويسرية، زوجة الرسّام الإيطالي أنطونيو زوكي.

استقرّ عليها، ذات يوم، غاصب مستبدّ؛ ليلقي بهم في العراء، وسط أعواد القصب، والمستنقعات. وإن التلال السبعة، إن قيست بالقيعان الرابضة وراءها، ليست تلالاً البتّة؛ وما هي بتلال إلا قياساً إلى قاع نهر التيبر، الذي تحوّلت ضفافه إلى حقل ما ريتوس (Compus Maritus)، وإذا ما أتاح لي الربيع القيام بجولات أخرى، فلسوف أستطيع أن أصف سيئات هذا الموقع في إسهاب. ويسعني، حتّى في هذه اللحظات، أن أسمع، بكل ما في قلبي من إشفاق، ندب نساء ألبا على دمار مدينتهنّ، وسوقهنّ بعيداً عن هذا الموقع الجميل، الذي اختاره قائد ما محنّك. وأستطيع أن أصوّرهنّ، بعين الخيال، محتشدات على تلّة كوليان البائسة، ملفّعات بضباب نهر التيبر، ناظرات إلى فردوسهنّ المفقود. لا أعرف إلا القليل عن الريف المحيط بروما، لكني على يقين من أن روما أسوأ مستقرّ، ممّا استقرّت عليه الشعوب القديمة. وحين ابتلع الروم كل الأشواك، حتّى يعودوا إلى العيش والتمتّع بلذائذ الحياة، راحوا، آخر المطاف، يغادرون روما، من جديد؛ ليبنوا لهم فيلات ريفية على أطلال المُدُن التي دمّروها.

٢٥ كانون الثاني (يناير)

ممّا يبعث على الاطمئنان أن يرى المرء كثرة الناس الذين يعيشون عيشاً، ملؤه السكينة؛ حيث يعكف الواحد منهم على الغرق في مصالحه الخاصة. وجدتُ في بيت قسّ، كرّس حياته للفن، وإن يكن بلا موهبة أصيلة، نسخاً مثيرة من أعظم اللوحات، وهي نسخ كرّرها في صيغة مُنَمْنَمَات. ولعلّ أفضل هذه النسخ، العشاء الأخير، بريشة ليوناردو دافنتشي. يظهر المسيح على المائدة مع حوارييه الخلص، وقد اختار الرسّام اللحظة التي يطلق فيها المسيح نبوءته "يقيناً، واحد منكم سيخونني".

أحاول أن أُبرم اتفاقاً لعمل حفر عن هذه اللوحة، إما باعتماد هذه

النسخة أو غيرها. ولا ريب أن إنتاج نسخة دقيقة لاطّلاع الجمهور الواسع، سيكون أعظم عمل مبارك.

قبل أيام زرتُ قسّاً فرانسيسكانياً، يُدعى الأب جاكوير، وهو يسكن في ترينيتا داي مونتي. والأب جاكوير فرنسي المولد، ومعروف بكُتُبه في الرياضيات. وهو طاعن في السّنّ، إلا أنه بالغ اللطف والعطف. لقد عرف الكثير من كبارات الرجال في زمانه، بل أمضى أشهراً مع فولتير، الذي أحبّ هذا الأب كثيراً.

عقدتُ أواصر المعرفة مع كثرة من ذوي المكانة والسمعة من بين رجال الكَهَنُوت. وثمّة كثرة كاثرة منهم في الجوار، إلا أن ضرباً من الارتياب الكَهَنُوتي يدفع إلى تفادي الالتقاء ببعضهم.

ليست المكتبات هنا مراكز لتبادل الأفكار، ولا تحتلّ الإبداعات الأدبية الجديدة نصيبها فيها. وعليه، فخير ما يفعله الإنسان المتوحّد هنا أن يسعى إلى لقاء النسّاك.

بعد نجاح مسرحية "أريستوديمو"، التي بذلتُ جهداً كبيراً في الترويج لها، وقعتُ ثانية في فخّ الإغواء. وسرعان ما اتّضح بجلاء ما بعده جلاء أنهم لم يكونوا يقدّرون شخصي لذاته، بل كانوا يسعون إلى استخدامي أداة لتقوية حزبهم، ولو أني رضيتُ بهذا الحال، وانحزتُ إلى هذا دون ذاك؛ لما كنتُ لألعب إلا دوراً هامشياً، وجيزاً. ولمّا رأوا، الآن، أن استغلالهم إياي متعذّر، تركوني في سبيل حالي، وها أنذا امضي في طريقي بسلام.

نعم، لقد اكتسبت حياتي بيضة قبّان، فحظيتُ بتوازن حصيف؛ لم أعد أخشى الأشباح التي اعتادت أن تتّخذ مني لعبة. اهنؤوا وافرحوا، أنتم

أيضاً؛ فذلك يمدّني بسعادة كبرى، تُعينني على أن أقف على قدمي، وتدفعني إلى العودة إليكم.

٢٨ كانون الثاني (يناير)

يوحي لي كل ما يحيط بي أن أمضي في خطّين متوازيين من الاستقصاء، لن أتوانى عن اتّباعهما حين أرى طريقي في وضوح أكبر. الخط الأول هو الآتي: حين تقع عين المرء على مرأى الثراء الهائل في هذه المدينة، وإن كان مؤلّفاً من شظايا متناثرة، يجد نفسه ملزماً بالسؤال عن زمان مجيئها إلى الوجود. كان فينكلمان أول مَن حثّنا على وجوب التمييز بين شتّى الحقب، واقتفاء أثر تاريخ أساليب الفن والعمارة في نشوئها واندثارها المتعاقب. وإن أي محبّ صادق للفن سيقرّ بعدالة وأهمّيّة هذا الحَثّ.

ولكنْ؛ أنّا لنا أن نبلغ هذه المعرفة؟ فأعمال الحفر المُنجزَة أقلّ من المطلوب؛ ومع أن المبدأ العام قد أرسى على نحو جلي، فإن التفاصيل تبقى مبهمة غامضة. ثمّة حاجة إلى تدريب العين على الرؤية تدريباً خاصاً على مدى سنوات، ويتعيّن علينا، أولاً، أن نتعلّم ما تنبغي إثارته من أسئلة. ولا نفع في التردّد والتسويف. وما إن يقع الدارس الحصيف على السؤال الصحيح، ويدرك مغزاه وجسامته، حتّى يفهم أن الحكم، في هذا الميدان كما في سواه، محال من دون التوفّر على معرفة بالتطوّر التاريخي.

أما الخطّ الثاني في الاستقصاء؛ فيتعلق، حصراً، بفن الإغريق: ما هي الصيرورة التي عمل بها أولئك الفنانون المتفرّدون على أن يطوّروا، انطلاقاً من الجسم البشري، دائرة من الأجساد الشبيهة بالآلهة، دائرة هي ذروة الكمال الذي لا تشوبه شائبة، ولا ينقصه مَلمح عابر أو انتقالي؟ تُنبئني غريزتي أنهم ساروا على هدي الأحكام التي سارت عليها الطبيعة، وأعتقد

أني مقتف آثارها على الدرب. غير أن ثمّة عنصراً آخر فاعلاً، أجدني عاجزاً عن التعبير عنه.

٢ شباط (فبراير)

لا يسع المرء أن يقدّر روعة النزهة في روما تحت ضوء القمر، ما لم يجرّب ذلك بنفسه. فالكتل الهائلة من الضوء والظل تبتلع كل الموجودات، ولا يبقى منها سوى الخطوط العامة. لقد تمتّعنا حتّى الآن بثلاث ليال صافية بديعة. وبدا مبنى الكوليسيوم جميلاً جمالاً آخّاذاً. والمعروف أنه مُغلَق ليلاً، إلا أن ثمّة ناسك يعيش في مصلى صغير، كما أن هناك بعض الشحّاذين اتّخذوا من الدهاليز المتآكلة مستقرّاً للعيش. لقد أضرم هؤلاء ناراً في الطابق الأرضي، حمل النسيم الخفيف دخانها إلى الحلبة، فأسدل الدخان ستاراً على الأقبية السفلى، ولم يبقَ أمام النظر سوى الكتل الهائلة من الطوابق العليا، التي كانت مشرئبّة في العتمة. وقفنا عند قضبان مشبك الحديد، ورحنا نراقب، بينما القمر يقف عالياً منيراً، في كبد السماء. أخذ الدخان يتسرّب، تدريجياً، من خلل الثقوب والمنافذ، فبدا في ضوء القمر مثل ضباب خفيف. كان المشهد مذهلاً. هذا هو نوع الإنارة التي رأينا فيها البانثيون، والكابيتول، والساحة المطلّة على كنيسة القدّيس بطرس، وغير ذلك من الساحات العظيمة والشوارع.

إن للشمس والقمر، مثل الروح البشري، مهمّات خاصّة، يؤدّيانها هنا، خلافاً لما يفعلان في أماكن أخرى، فالكتل الصلدة العملاقة تبادلانهما اختلاس النظرات.

١٣ شباط (فبراير)

ينبغي أن أذكر ضربة من ضربات الحظ. إنها ضربة حظ صغيرة، لكن الحظ هو الحظ، ومَقدمه سعيد، كبُر أم صَغُر. يحفر الحفّارون في ترينينا

داي مونتي أساسات مسلّة جديدة. ويكتسي هذا التل بأكوام من التراب المحتفر من أطلال جنائن لوكولوس، التي ورثها القياصرة فيما بعد. وكان صانع الباروكات (الشعر المستعار) الذي يخدمني ماراً ذات صباح، فعثر في أكوام الترب والحجارة على قطعة من الطين المفخور المنقوش رسوماً. غسل الرجل القطعة، ودعاني لرؤيتها، فاشتريتُها منه في الحال. لا تزيد قطعة النقش الطيني عن حجم راحة اليد، ويبدو أنها كسرة من إناء كبير. أما النقش؛ فكناية عن حيوانين خرافيين، نصفهما نسر، ونصفهما أسد، يحيطان بمذبح أضاحي، وهما نقشان بديعان، يشيعان مسرّة فائقة في النفس. ولو كان هذا الشكل منقوشاً على الحجر؛ لصار ختماً حلواً.

١٥ شباط (فبراير)

قبيل التوجّه إلى نابولي، لم أستطع تفادي إعطاء قراءة أخرى لمسرحية إفيجيني. تألّف جمهور المستمعين من السنيورة إنجيليكا، وهوفرات رايفنشتاين، بل حتّى السنيور زوكي، الذي أصرّ على الحضور، نزولاً عند رغبة زوجته. وكان وقتذاك مشغولاً بالعمل على رسم معماري كبير، بأسلوب التزيين للديكورات، وهو أستاذ بارع في هذا الاختصاص. والمعروف أنه كان على صلة وثيقة بكليريساو، وقد عاشا معاً في دالماتيا. وكان زوكي يرسم الشخوص للمباني والأطلال؛ لينشرها كيريساو فيما بعد. فتعلّم، عن هذا الطريق، الكثير عن المنظور والمؤثّرات، حتّى بات في شيخوخته، يسلّي نفسه برسمها على الورق، بيُسر وبراعة.

استجابت إنجيليكا، بروحها الرقيقة الشفّافة، لمسرحيّتي استجابة عطوفة متفهّمة، أذهلتني. وعدتْني بأن تضع رسماً، يعتمد على أحد مقاطع المسرحية، وأن تقدّمه لي هدية تذكارية. وهكذا بتّ، وأنا أوشك على مغادرة روما، متعلّقاً تعلّقاً عميقاً بهؤلاء الناس، ذوي القلوب الطيّبة.

وممّا يبعث فيّ السعادة والأسى معاً أن أعرف أن ثمّة مَن سيحزن لفراقي.

١٦ شباط (فبراير)

عرفتُ بنبأ وصول إفيجيني سالمة على نحو مفرح ومدهش في آن. قبيل ذهابي إلى الأوبرا، تلقّيتُ رسالة بخط يد مألوف. ففرحتُ بها مضاعفاً؛ لأنها حملت ختم الأسد الصغير، وفهمتُ أن رزمتي وصلت سالمة. شققتُ طريقي إلى دارة الأوبرا، وبحثتُ عن مكان للجلوس تحت الثريّا الكبيرة. وبغتة، شعرتُ، هناك، وسط حشد الأغراب، أنني قريب من أصدقائي البعيدين، فتمنّيتُ أن أثب إليهم، وأعانقهم. أشكركم قلبياً على الإشارة البسيطة عن وصول المسرحية. آمل أن تحمل رسالتكم القادمة كلمة رضى عنها.

إليكم قائمة عن توزيع النسخ التي ستصدر عن جويشن على أصدقائي. إنني لا أكترث قطّ بمدى تجاوب الجمهور مع قطعتي، لكني أحرص حقاً على أن أقدّم لأصدقائي بعض الإمتاع.

إنني أميل دوماً إلى أن أثقل كاهلي بأكثر ممّا ينبغي. وحين أفكّر بالمجلّدات الأربعة القادمة التي أريد وضعها، يدور رأسي حقاً؛ وحين أفكّر بكل مجلّد على حدّة، يهدأ روعي قليلاً. لعلّ من الحصافة أن أكتب المجلّدات وفق مخطّطي الأصلي، وأن آتي بهذه الأشياء إلى الدنيا مجزّأة. بعد هذا يمكن لي أن أخوض في موضوعات جديدة بعزم جديد، وشجاعة جديدة، موضوعات أشعر فيها بالجديد من الاهتمام.

أمَا كان خيراً لي أن أفرغ من كتابة "إفيجيني في دلفي" عوض مصارعة أمزجة تاسو؟! لكني وضعتُ الكثير من روحي، بل أكثر ممّا ينبعي، في المسرحية، لا لشيء إلا لأهجرها دون طائل.

أجلس الآن في الصالة عند المدفأة؛ حيث وهج النار، التي تُغذّى بالحطب مرّة واحدة، لا غير، يمدّني بالشجاعة الكافية للبدء بصفحة جديدة. ما أبدع أن يستطيع المرء الإيغال بخياله في المسافات البعيدة؛ لينقل إليها ما يحيطه الآن.

الطقس جميل، والنهارات تطول على نحو بَيّن، وأشجار البقس والغار تُزهر شأن أشجار اللوز. وقعتُ هذا الصباح على مشهد خارق. رأيتُ في البعيد ما يبدو بمثابة أعمدة طويلة ذات ألوان برتقالية بديعة، في كل مكان. وعند معاينتها عن كثب، اتّضح أنها توازي ما يسمّى في بيوتنا الزجاجية بالأرجوان، أو ما يسمّيه علماء النبات سيرسيس سيليكواستروم. وإن أزهار الأرجوان البنفسجية الشبيهة بالفراشات، تنبجس من الساق مباشرة. إنهم يقلمّونها في الشتاء، وهذا سبب مشاهدتي لسيقان الأرجوان بهيئة قضبان خشب، أما براعم الأزهار؛ فقد نبتت آلافاً من الجذوع، لكأنها أسراب من الحشرات. ولا ينبت الزعفران أو النرجس بالكثرة ذاتها، إلا أنه يؤلّف زينة أكبر تناسقاً؛ حيثما ينبت.

أية أفراح وأية تجارب مثمرة مخبّئة لي الأصقاع الجنوبية من هذه البلاد؟! عجائب إبداعات الطبيعة تماثل عجائب إبداعات الفن: لقد كُتب الكثير عنها، مع ذلك يمكن لكل مَن يراها أن يرتّبها في نماذج جديدة.

حين أفكّر في نابولي، أو حتّى في صقلية، كما أعرفها من القصص والصور، أجد الحيرة تتلبّسني؛ لأن أرى أن هذا الفردوس الأرضي هو الموضع الذي تتفجّر فيه البراكين، وتنفث حممها الجهنّمية منذ قرون، زارعة الفزع واليأس في قلوب أولئك الذين يقطنون هذه البقاع، وينعمون بها.

وعلى كبر أملي في أن تتكشّف هذه الأنحاء عن بواطن هامّة، ينبغي

لي أن أنبذ هذه التصوّرات عن تفكيري حتّى أغرف أكبر ما يمكن أن أغرفه من عاصمة العالم القديم خلال ما بقي لي من أيام.

ها أنذا، منذ أسبوعين، دائم التجوال، من الصباح إلى المساء، معايناً الأشياء التي لم تسنح لي فرصة مشاهدتها من قبل، أو ملقياً نظرة ثانية أو ثالثة على خير ما أبصرتُ. بدأ كل شيء ينتظم في نسق واحد، ثمّة أعمال كبرى تندرج في مكانها اللائق، فاسحة المجال لأعمال كثيرة ثانوية في الفراغات القائمة. إن ملامح سلّم التفاضل تتبلور جلية عندي، وأما استجابتي العاطفية لما هو أعظم وأكثر أصالة؛ فهي - الآن - أكثر حُرّيّة، وأقل جموحاً.

عند هذا الحدّ يشعر المرء، تلقائياً، بالحسد من الفنانين، فحين يُنتجون هذه المشاهد العظيمة، ويحاكونها، إنما يقتربون من ماهيتها خيراً من أي إنسان يكتفي بالنظر والتفكّر. ولكنْ؛ بعد كل هذا، لا يسع المرء أن يفعل إلا ما يقع في متناول قدرته، لذا؛ نشرتُ كل أشرعة روحي حتّى بحر؟؟؟؟؟ مستكشفاً الشطآن.

حشي الموقد هذا اليوم بأحسن أنواع الفحم، وهو أمر نادر الحصول، نظراً لصعوبة العثور على امرئ، يتمتّع بالفراغ والميل الكافيين لتخصيص ساعة أو ساعتين للعناية بنار الموقد. سأغتنم فرصة لطف حرارة الجوّ؛ لأنقذ بعض يوم الثاني من شباط (فبراير) ذهبنا إلى مصلى كنيسة سيستين لقدّاس مباركة الشموع. أثار ذلك الضيق في نفسي، فغادرتُ مع أصدقائي. دفاتر ملاحظاتي قبل أن تستغلق على القراءة كُلّيّاً. وفكّرتُ في دخيلتي: تلك هي الشموع ذاتها التي سوّدت، طوال ثلاثة قرون، الرسوم الجدارية، وهذا هو البخور نفسه الذي حجب، بغطرسة المقدّس، شمس الفن بالغيوم، وأضعف نورها عاماً بعد عام؛ ليصيبها أخيراً بالكسوف التامّ.

خرجنا إلى الشوارع ماشين حتّى وصلنا سانت أونفوريو؛ حيث يرقد ضريح تاسو في زاوية منه. هناك تمثال نصفي لتاسو في مكتبة الدير. الوجه شمعي، وكفيل بإقناعي أنه قناع موت. ثمّة مواضع مشوّهة، وتالفة في التمثال، مع هذا يتكشّف القناع، خيراً من البورتريهات التي رُسمت له، عن شخصية إنسان موهوب رقيق مرهف نبيل، ومنطوٍ على نفسه.

كفانا اليوم طوافاً. يتوجّب الآن أن ألتفت إلى مجلّد فولكمان الثاني حول روما؛ لأستنسخ منه المقتبسات المتّصلة بما رأيتُ اليوم من أشياء. ينبغي أن أبدأ الحصاد قبل السفر إلى نابولي. ولابد أن اليوم السعيد سيحلّ حين أجمع الغلّة في السلال.

١٧ شباط (فبراير)

صفت السماء من الغيوم خلال شهر شباط (فبراير) كله، عدا عن أربعة أيام ماطرة، وإن الجوّ دافئ جداً عند انتصاف النهار. ويفضّل الجميع الخروج من البيت. لقد كرّسنا أنفسنا حتّى اللحظة إلى الآلهة والأبطال، أما الآن؛ فقد حلّ أوان المناظر الطبيعية، وإن جمال هذه النهارات يجتذبنا إلى الريف. أتذكّر أحياناً كيف يحاول فنانو الشمال رسم سقوف معمولة من القشّ وقلاع خربة، وتحويلها إلى منظر، أو التقاط مؤثّرات بصرية من الجداول، والأجمات والصخور المفتّتة، لإدخالها في الصورة، وعندئذ أتعجّب من التغيّر الحاصل في ذاتي، خصوصاً وأن هذه الأشياء ما تزال عالقة بي بدافع العادة. أما خلال الأسبوعين الماضيين؛ فقد استجمعتُ شجاعتي، وتجوّلتُ في العراء مُجهّزاً بقطع صغيرة من ورق الرسم قاصداً التلال والوديان التي تقع فيها الفيلات. وأعكف على وضع تخطيطات لمواضيع جنوبية أو رومانية نموذجية، دون كثير تفاصيل، منتقياً إياها كيفما اتفق، وساعياً، بالاعتماد على الخط، إلى إضفاء الضوء والظلّ عليها. بوسعي أن أرى بجلاء

ما هو حَسَن وما هو أحسن، ولكنْ؛ ما إن أحاول أن أضعه على الورق حتّى ينزلق متسرّباً من بين أصابعي، فلا ألتقط الحقيقة، بل ألتقط ما اعتدتُ التقاطه. إن التقدّم يستلزم الانضباط في المران المتّصل، ولكنْ؛ من أين لي الوقت الكافي لمثل هذا التركيز؟! مع هذا، أشعر أنني تحسّنتُ من نواحٍ عدّة خلال هذين الأسبوعين من المثابرة والاجتهاد المندفع.

يحبّ الفنانون أن يُلقوا عليّ الدروس؛ لأنني سريع الالتقاط. غير أن الفَهْم لا يشبه الفعل. فسرعة الاستيعاب مَلَكَة ذهنية، أما فعل الشيء الصحيح؛ فيقتضي ممارسة طول العمر. ومهما بلغت جهود الهاوي من الضعف، فإن عليه أن يجانب اليأس. إن الخطوط القليلة التي أرسمها على الورق، وهي - في الغالب - عجولة، ونادراً ما تكون دقيقة، تساعدني مع ذلك على الاستيعاب الأعمق للأجسام المادية. وكلّما أنعم المرء في مراقبة الأجزاء بدقّة وعن كثب، تسارع وصوله إلى إدراك الكل.

ولا يجوز للمرء، على أية حال، أن يقارن نفسه بفنان، بل أن يمضي في طريقه الخاص. إن الطبيعة ترعى كل أطفالها: فوجود الأعظم لن يعيق وجود الأدنى. أعني "أن الرجل الصغير يظلّ مع ذلك رجلاً"(*). لنترك الأمر عند هذا الحدّ.

قصدتُ البحر مرّتين، الأدرياتيكي مرّة، والمتوسّط مرّة، لكني مررتُ بهما مروراً عابراً ليس إلا. ولسوف نتعرّف على البحر بصورة أوثق عند وصول نابولي. إن كل ما فيّ قد بدأ الآن، بغتة، بالاندماج الواضح. لِم لم يحصل هذا قبلئذ؟! ولم يحصل بمثل هذا الثمن؟! عندي آلاف الأشياء، الجديد منها، والقديم، ممّا أودّ أن أخبركم به.

---

*) هذه العبارة مقتبسة عن مسرحية الدمى الهجائية التي وضعها غوته، بعنوان: السوق السنوي الدائم في قرية الأمتعة القديمة ١٧٧٢.

في المساء، بعد أن خمد سعار الكرنفال

لا أشعر بالراحة حين أغادر وأترك موريتزوحده. لقد أحرز بعض التقدّم، ولكنْ: ما إن يتركه المرء ليعنى بنفسه، حتّى يتوارى عن الأنظار في جحور اختفائه المفضّلة. لقد كتب بتشجيع مني رسالة إلى هيردر، أرفقها طياً، وآمل أن يحوي الجواب نصحاً نافعاً. إن موريتز إنسان طيّب طيبة استثنائية، وكان كفيلاً بأن يحرز تقدّماً أفضل، لو أنه التقى، بين الحين والآخر، أناساً عطوفين، قادرين على شرح وضعه إليه. ولو سمح له هيردر، في الوقت الحاضر، أن يكتب رسالة بين الحين والآخر، فإن ذلك سيعينه أكثر من أي شيء آخر. إنه غارق في عمل حفريات أركيولوجية، تستحقّ التشجيع حقاً. وليس بمقدور صديقنا هيردر أن يجد قضية أفضل من هذه يتوسّط فيها بما عنده من مكانة، ولا حقلاً أكثر خصوبة من هذا، يبذر فيها بذوره.

ملامح البورتريت الكبير الذي يرسمه تيشباين لي، بدأت بالبروز على قماشة اللوحة. لقد طلب من نحّات بارع إعداد أنموذج صغير من الطين، ولفّه بعباءة أنيقة. وهو يعكف على الرسم بمثابرة كبيرة اعتماداً على هذا النموذج، نظراً لوجوب إيصال اللوحة إلى مرحلة معيّنة قبل أن نغادر صوب نابولي، وإن مجرّد فرش هذه المساحة الكبيرة من القماشة بالدهان يتطلّب الكثير من الوقت.

١٩ شباط (فبراير)

بدّدتُ نهاراً كاملاً، قضيتُه بين الحمقى، ممّا أثار حنقي. حين أرخى الليل سدوله، مضيتُ للتريّض مشياً في فيلا مديتشي؛ كيما أستعيد هدوئي. بزغ القمر الجديد لتوّه. وبوسعي أن أرى جوار منجله الرقيق بقية قرص القمر المعتم بالعين المجرّدة، أما بالتلسكوب؛ فالرؤية جلية. تنيخ على الأرض، خلال النهار، غلالة رقيقة من الضباب، تشبه ما رأيتُه في

رسوم ولوحات كلود لورين، بيد أن ظاهرة الطبيعة هذه تبلغ ذروة جمالها في هذا المكان. أشجار اللوز المزهرة وسط أشجار البلّوط داكنة الخضرة، تؤلّف مشهداً جديداً بالغ الروعة والتناسق. والسماء قطعة زرقاء فاتحة من قماش التفتا، تنيرها الشمس. ولكنْ؛ ما أحلى ما ستكون عليه الطبيعة في نابولي! إن ذلك كله يؤكد تخيّلاتي النباتية، وأنني بسبيلي إلى إرساء علاقات هامّة جديدة، واكتشاف الطريقة التي تنمّي بها الطبيعة، بقوّة لا تُضاهى، الأكثر تعقيداً من الأشدّ بساطة. يقذف بركان فيزوف الحجارة والرماد، ويرى الناس قمّته المتوهّجة في الليل. آمل أن تقدّم لي الطبيعة الفاعلة أبداً سيلاً من الحمم على سبيل الهدية. وإني لأتحرّق شوقاً لأن أستحوذ على هذه المواضيع الجبّارة ملكاً خاصاً.

٢١ شباط (فبراير)، أربعاء الرماد

أخيراً انتهت الحماقة. أوقدت الشموع الوفيرة، مساء الأمس، مشهداً آخر من مستشفى المجاذيب. يتعيّن أن يرى المرء كرنفال روما حتّى يفقد كل رغبة في مشاهدته ثانية!

لا يستأهل ذلك كتابة حرف واحد، رغم أنه يصلح موضوعاً لحديث مسلٍّ. المزعج في كرنفال الشموع غياب البهجة الحقّ عند الناس، الذين لا يملكون ما يكفي من المال لإشباع رغائبهم القليلة، أو ما بقي لهم منها. فالكبار بخلاء في الإنفاق، والطبقة الوسطى مفلسة، والعوامّ بلا قرش. وبلغ الصخب في اليوم الأخير حدّاً لا يُصدّق، دون أن تكون هناك مَسرّة حقيقية. وكانت السماء الصافية البديعة تطلّ في براءة على كل هؤلاء المهرّجين.

ولمّا كان من المتعذّر على المرء أن يحجم عن وصف مثل هذه المشاهد، ولمّا كنتُ أرغب أيضاً في تسلية الأطفال، فإنني أرسل لكم بعض الرسوم الملوّنة عن أقنعة الكرنفال والأزياء الشائعة في روما. ويمكن

للأعزّاء الصغار أن يستخدموا هذه الرسوم بديلاً عن أيّ فصل مفقود من كتاب "العالم في صور" Orbus Pictus.

أغتنم اللحظات الفاصلة بين حزم المتاع؛ لأدون بعض ما نسيتُ. في الغداة، سنرحل إلى نابولي. أتوق إلى أن أنعم بحُرّيّة جديدة في فردوس الطبيعة هذا، وأجد حافزاً طرياً لاستئناف دراسة الفن عند عودتي إلى جلالات روما.

لا عناء في حزم الأمتعة. فأنا أقوم به الآن بجهد أقلّ، ممّا كنتُ أفعل قبل ستة أشهر، حين قطعتُ علائقي بكل ما هو عزيز عليّ. نعم، لقد مضت ستة أشهر على ذلك، ولم أضيّع لحظة واحدة من الأشهر الأربعة التي أمضيتُها في روما. أعني أني لم أبدّد الشطر الأعظم من الوقت، وما هذا بمغالاة.

أعرف أن مسرحية إفيجيني قد وصلتكم؛ وآمل أن أتلقّى ما يفيد أنها حظيت باستقبال حسن، لحظة تطأ قدمي أرض فيزوف.

إنه لامتياز عظيم أن يسافر المرء صحبة تيشباين، بما يمتاز به من عين لاقطة للطبيعة والفن. ولا يسعنا نحن الاثنين، بوصفنا ألماناً حقيقيين، أن نُحجم عن وضع الخطط للعمل. اشترينا أحسن أوراق الرسم، رغم أن عدد وجمال المواضيع التي سنصادفها كفيلة بأن تحدّ كثيراً من نوايانا الحسنة.

وطّدتُ العزم على أمر واحد: لن آخذ معي من أعمالي الشعرية سوى: تاسو Tasso. فأنا أعلّق عليه آمالاً عظيمة. لو كنتُ أعرف رأيكم في مسرحية إفيجيني؛ لأعانني ذلك، وأرشدني نظراً لأن نص: تاسو مماثل لذاك. وإن الموضوع هنا محدّد تحديداً أدقّ قياساً إلى المسرحية السابقة، مع هذا يحتاج إلى البَلْورة من حيث التفاصيل. وكل ما كتبتُه حتّى الآن لا يليق إلا بأن يُرمى بعيداً؛ وإن المخطوطة تهجع ساكنة منذ فترة مديدة، فترة طالت

أكثر ممّا ينبغي؛ ولا أجد الشخصيات ولا الحبكة ولا الإيقاع على أية مقربة من تصوّراتي الحالية.

وقعتُ في أثناء ترتيب الأوراق على رسالة منكم، تلومني على أنني أناقض نفسي في ما كتبتُ من رسائل. لم أكن واعياً لهذا، ولعلّه مرجّح تماماً، نظراً لأني أبعث الرسائل لحظة الفراغ من كتابتها. أشعر أن ثمّة قوى جبّارة تقذف بي في الجهات، ومن الطبيعي والحالة هذه أنني لا أعرف، دوماً، أين أقف.

ثمّة حكاية عن صيّاد سمك، فاجأته العاصفة ليلاً، فبذل جهده الجهيد لتوجيه دفّة القارب إلى ميناء الأهل. تشبّث به ابنه اليافع، وسأله: أبتاه، ما هذا الضوء الغريب الصغير، الذي أراه تارة في الأعالي، وتارة في الأسفل؟" وعده الأب أن يعطيه الجواب في اليوم التالي. واتّضح أن ذلك هو ضوء الفنار، الذي بدا لعيني الصبي، في القارب المتأرجح مع الموج العاتي، تارة يعلو، وتارة يهبط.

وبالمثل، أوجّه دفّة قاربي صوب الميناء وسط بحر عاتي الموج، مثبتاً بصري على شعاع الفنار، رغم أن هذا الضوء يلوح لناظري، متغيّر الموقع، إلا أني سائر عليه حتّى أصل البرّ سليماً معافى.

محتوم على المرء، عند أي إقلاع، أن يفكّر في الرحلات السابقات، مثلما يفكّر في الرحلة النهائية في المستقبل. ثمّة فكرة تلازمني وتلحّ عليّ إلحاحاً أشدّ من ذي قبل، وهي أننا نتحوّط للحياة تحوّطاً أكثر ممّا ينبغي. فأنا وتيشباين، مثلاً، نوشك على أن ندير الظهر للكثير من الأشياء البديعة، بما في ذلك متحفنا الشخصي المترع باللقى. ولدينا الآن ثلاثة نماذج من تمثال جونوس للمقارنة، إلا أننا نتركها، كما لو أننا لا نملك شيئاً.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

الجزء الثاني


https://telegram.me/maktabatbaghdad

نابولي

فيليتري، ٢٢ شباط (فبراير)

قضينا وقتاً ممتعاً في الوصول إلى فيليتري. قبل يومين، ادلهّمت السماء، وحمل الأفق ما يعد بعودة الطقس الحسن، وهكذا كان. انقشعت الغيوم تدريجياً، وبرزت بقع زرقاء من السماء بين الحين والآخر، حتّى أطلّت الشمس أخيراً؛ لتنير دربنا. مررنا بألبانو، وتوقّفنا، قبل بلوغ جينزانو، عند بوّابات منتزه، يمكن القول إن مالكه، الأمير كيجي، يحوزه دون أن يرعاه. ولعلّ هذا مَردّ رغبته في أن لا يرى أحد هذا المنتزه. لقد تحوّل إلى أحراش بدائية .أشجار، وشجيرات، وأعشاب، ودغل، ونباتات متسلّقة، تنمو كما تشاء متداخلة متعرّجة ساقطة يابسة، أو متعفّنة. ثمّة سور عال، يسدّ مدخل وادي المنتزه، غير أن هناك أيضاً بوّابة صغيرة من الحديد المشبك، تتيح للناظر أن يرى سفح الوادي البعيد، والقلعة التي تكلّل هامته. لا ريب أن هذا موضوع جميل لفنان موهوب.

حسبنا وصفاً. دعوني أن أضيف أن بمقدورنا ونحن هنا على هذا الكثيب، أن نرى جبال سيزي، ومستنقعات بونتين، والبحر والجزر. ثمّة غيوم مدرارة تتّجه صوب البحر، فوق المستنقعات، وتتراقص أشكال متغيّرة من النور والظلال فوق القفر المائي المنبسط. وثمّة أعمدة من الدخان تتصاعد من أكواخ مبعثرة، لا ترى إلا بالكاد، وهي تضفي أثراً جميلاً على المشهد عند ارتطامها بأعمدة نور الشمس.

تربض فيليتري على تلّة بركانية، تتّصل من طرفها الجنوبي بتلال أخرى، وتطلّ على كل المشاهد المترامية في الجهات الثلاث الأخرى.

زرنا متحف الفارس(*) بورجيا، الذي استطاع بفضل علائقه مع الكاردينال ومع مجمع التبشير في الفاتيكان، أن يجمع تحفيات بديعة. أوثاناً مصرية محفورة في أقسى أنواع الصخر، وتماثيل معدنية صغيرة من فترات أقدم وأحدث، ورسوماً ناتئة على النحاس المطروق، التي احتُفرت من المنطقة. وإن هذه النحاسيات تقود المرء إلى الاستنتاج أن الأقدمين هنا تميّزوا بأسلوب خاص بهم وحدهم.

ولاحظتُ وسط ركام الأشياء النادرة في هذا المتحف صندوقين صغيرين ملوّنين من منشأ صيني. يحمل الصندوق الأول رسماً، يُصوِّر مجمل عملية تربية دود القزّ، ويحمل الثاني رسماً، يُصوِّر زراعة الرزّ، وكلاهما ساذج من حيث الخيال، متقن من حيث التنفيذ.

أعرف أن من المعيب ألا يتردّد المرء كثيراً على هذه الكنوز لمعاينتها، وهي على هذا القرب الكبير من روما. عذري في ذلك مشقّة الطواف في هذه الأرجاء، وقوّة الطلسم الذي يقيّد المرء بدائرة روما السِّحْرية. وإذ كنا متوجّهين إلى نُزُلنا، مررنا بنساء جالسات عند عتبة منازلهنّ، هتفنَ بنا سائلات، إن كنّا نرغب في شراء بعض التحفيات. وحين أبدينا الاهتمام المتلهّف، جئنَ لنا بقوارير قديمة لغلي الماء، وملاقط جمر، وغير ذلك من آنية المنزل التي لا قيمة لها، وانفجرنَ ضاحكات على خداعهنّ إيّانا. استبدّ بنا الغضب بادئ الأمر، إلا أن دليلنا هدّأ سورتنا، وأبان أن هذه الحيلة ليست سوى تقليد قديم، ينبغي أن يخضع له كل أجنبي زائر في كياسة وترحاب.

---

*) مَرتبة اجتماعية في إيطاليا الإقطاعية، وردت كاسم علم في الأصل: Cavaliere.

أكتب هذه السطور في نزل بائس، وأشعر بالتعب والضيق إلى حدّ يمنعني من المضي في الكتابة. وإذنْ. طاب مساؤكم على أحسن وجه!

فوندي، ٢٢ شباط (فبراير)

واصلنا الرحلة في ساعة مبكّرة، قرابة الثالثة فجراً. انبلج الصبح علينا عند مستنقعات بونتين، التي تبدو كئيبة موحشة، مثلما يصفها الناس في روما عادة.

لا يسع المرء - وهو في رحلة مرور عابر - أن يصدر حكماً قاطعاً على مشروع طموح وكبير كمشروع عمليات تجفيف المستنقعات الذي بوشر به نزولاً عند أوامر البابا، إلا أن العمل، كما يلوح لي، سيصيب نجاحاً كبيراً.

لكم أن تتخيّلوا وادياً فسيحاً، يمتدّ من الشمال إلى الجنوب دون وهدة؛ لينغمس في الجبال شرقاً، ويشرئبّ إلى البحر غرباً. ويمتدّ على طول هذا الوادي بأسره خطّ مستقيم، يمثّل شارع فيا آبيا المرمّم، وتحفّه من اليمين القناة الكبرى، وهي قناة بزل للأراضي الواقعة جهة البحر، التي أُعيدت الآن إلى الزراعة. الواقع أن هذه الأراضي كلها مغروسة بالزروع على امتداد البصر، باستثناء بقع قليلة من الأغوار، أو قابلة للزرع، إن وُجد زارعون يستأجرونها.

أما الأراضي الواقعة على الجانب الجبلي من طريق فيا آفيا؛ فتمثّل مشكلة عويصة. لقد شُقّت القنوات العريضة التي تصبّ في القناة الكبرى، من خلال سدّة الشارع، لكنها لا تستطيع نقل مياه البزل. وقيل لي إن هناك خطّة لحفر قناة بزل ثانية على امتداد قاع الجبل. ثمّة أشجار صفصاف وحور نَمَتْ عرضاً، بفعل ما تحمله الريح من بذور، على امتداد ساحات واسعة، وبخاصة حول تيراتشينا.

لا تزيد محطّات السفر عن ظليلة واسعة مسقوفة بالقشّ. رسم تيشباين إحداها، فحظي بمشهد لا يتمتّع به أحد متعة كاملة سواه. أفلت حصان أبيض من إساره في أراضي البزل، وراح يحتفي بحُرِّيّته؛ ليخبّ ويعدو كالشهاب على التراب البنّيّ لهذه القيعان. بدا المشهد عظيماً، أما انخطاف تيشباين به؛ فقد أضفى عليه مغزى عظيماً.

أمر البابا بإشادة مبنى عظيم في موقع قرية ميسا السابقة، في وسط هذه المنطقة، ابتغاء إشاعة الأمل والثقة بالمشروع كله. وهكذا مضينا في الرحلة، لاهين في حوار حيّ، متذكّرين التحذير من الوقوع في إغفاءة على هذا الطريق. ولو أغفلنا عن التحذير، لكان الزفير الأزرق، الذي يخيّم، حتّى في هذا الوقت من العام، على الأرض بارتفاع معيّن، قد ذكّرنا بالعفونة الخطيرة. إلا أن هذه الزرقة جعلت مقام تيراشينا الصخري محبّباً، وأتيح لنا في الحال أن نرى البحر منبسطاً أمامنا. أما الجانب الآخر من مدينة الصخر هذه؛ فيقدّم مشهد مزروعات غير مألوف. فهناك أشجار التين الهندي التي تشقّ أوراقها اللدنة الكبيرة طريقها بين شجيرات الآس المتواضعة الضاربة إلى الخضرة الرمادية، والرمان الأخضر المشوب بالصفرة، وأغصان الزيتون ذات اللون الأخضر الشاحب. وتنبت على جانب الطريق أزاهير غريبة، لم نشهد لها مثيلاً من قبل. وتحفل المراعي بأزاهير النرجس والزنبق. طالعنا البحر عن يميننا حيناً، واحتجب حيناً، أما التلال الجيرية القريبة عن يسارنا؛ فظلّت متّصلة بلا انقطاع. إنها امتداد لهضاب أبينانس، وهي تنحدر من تيفولي حتّى تبلغ البحر الذي تفصلها عنه كامباني دي روما أول الأول، ثمّ تفصلها عنه ثانياً البراكين الخامدة في فراسكاتي والبانو وفيليتري، لتفصلها عنه أخيراً مستنقعات بونتين. ولعلّ نتوء جبل مونتي تشيرتشيللو، جيري هو الآخر، وهو يطلّ على البحر، ويواجه تيراشينا، مسجلاً نهاية مستنقعات بونتين.

نأينا عن البحر الآن، واقترينا من سهل فوندي. إن هذه البقعة الصغيرة من التربة الخصيبة المسوّرة بجبال غير وعرة، تستقبل كل مسافر بابتسامة. مايزال معظم البرتقال متدلّياً في الأغصان، والزرع الغرّ. قمح بمعظمه. يزيّن الحقول بالخضرة، أما البلدة الصغيرة؛ فتقبع هناك في الأسفل. ثمّة نخلة وحيدة تربض على الطريق، فحييناها. لقد أترعت ليلتنا. اغفروا لي عجالة القلم. فموضوعات الاهتمام أكثر من اللازم، ومقام نزولنا أبأس من اللازم. لكني عاجز عن ثَنْي الرغبة في تدوين شيء على الورق. وصلنا هنا عند المغيب، وحان وقت الرقاد.

سانت أجاتا، ٢٤ شباط (فبراير)

الغرفة باردة، بيد أن عليّ أن أصف لكم روعة النهار البديع. كان الفجر قد انبلج لتوّه حين غادرنا فوندي في العربة؛ لنجد في استقبالنا البرتقال المتدلّي فوق الأسيجة، على جانبي الطريق. إن الأشجار لمثقلة بالوفير من الثمر، إلى درجة لا تصدّقها عيناي. الوريقات الصغيرة في القمّة ضاربة إلى الصفرة، أما الأوراق السفلى؛ فخضراء زاهية. لقد كان ميجنون (*) Mignon محقاً تماماً في التلهّف لبلوغ هذا البلد.

بعد هذا، وصلنا حقول قمح حَسَنَة الحَرْث، تتخلّل صفوف القمح أشجار زيتون منتظمة. وحين تحرّكها الريح، تقلب قفا أوراقها الفضي نحو الشمس، أما الأغصان؛ فتتمايل في رشاقة. كان الصباح غائماً، غير أن ريحاً شمالية قوية تعد بقشع الغيوم.

أخذ الطريق الآن يجري على طول واد بين حقول ملأى بالصخور، ولكنها حسنة الزراعة، وزرعها الغضّ زاهي الخضرة. ورأينا في مواضع عدّة أرضية

---

*) الإشارة إلى غوته نفسه، مؤلّف قصيدة بعنوان: ميجنون، ومطلعها: "لن يعرفه إلا المشتاق شوقاً"، وقد وضعها عام ١٧٨٥.

دائرية فسيحة مفروشة بالحجارة لدرس الحبوب، وهي محاطة بأسوار واطئة. إنهم لا يجلبون الذرة إلى الإهراء، بل يدرسونها في الحقل. ضاق الوادي، وأخذ الطريق يرتقي باطّراد جرفاً صخرياً من الكلس الخاص، يحفّ به من الجانبين، بينما هبّت في ظهورنا ريح قوية، وبدأت ندف الثلج الخفيف تتساقط، وتذوب ببطء.

أثارت أسوار بعض المباني القديمة الممتدة في شبكة نموذجية فضولنا الكبير. كان الكثيب صخرياً، إلا أنه مزروع بأشجار الزيتون، أينما توفّرت أصغر فجوة لنموّها. بعد ذلك، اجتزنا سهلاً من غياض الزيتون، حتّى بلغنا بلدة صغيرة. ولاحظنا هناك شواخص أضرحة من زمان القدماء مَبنية في جدران حديقة، تتخلّلها كسر وشظايا من شتّى الأنواع، كما لاحظنا أرضيات فيلات قديمة مفروشة بالآجرّ، إلا أن التراب يكسوها الآن، مثلما تكسوها أجمات أشجار زيتون، نمت عشوائياً. وبعد هذا... نعم، بعد هذا، أطل بركان فيزوف مكلّلاً بغمامة من دخان.

استقبلتْنا أشجار البرتقال الوفيرة، مرّة أخرى، عند بلوغنا مولادي جايتا. مكثنا هناك ساعات قلائل. الخليج الرابض أمام هذه البلدة الصغيرة يطلّ على أفق البحر وشريط ساحله. ويتخذ الشاطئ هيئة هلال. وإن ذؤابة الهلال الواقعة على اليمين، وهي صخرة تربض عليها قلعة جايتا، ليست بعيدة، أما الذؤابة اليمنى للهلال؛ فأبعد بكثير. وحين يتابعها المرء ببصره يرى، أولاً، سلسلة جبال، ثمّ يرى بعد ذلك بركان فيزوف، والجزر التي تليه. وتواجه هلال الساحل، عند منتصفه تقريباً، جزيرة إسكيا.

وجدتُ في رمال الشاطئ أول نجمة بحر، وأول قنفذ بَحْري أراه في حياتي. والتقطتُ أيضاً ورقة خضراء حلوة، أخف من الرقوق، كما وجدتُ بعض الحصى الغريب. كان حجر الكلس والحصى هما الأكثر شيوعاً،

بيد أن هناك أيضاً عيّنات من حجر الحيّة الأخضر المرقّط، وحجر اليشب الأخضر الضارب للسواد، وحجر الكوارتز، والصوّان الداكن اللون، والرخام السمّاقي، وشتّى ضروب المرمر، والزجاج الأزرق المخضرّ، ويصعب على هذه العيّنات الأخيرة أن تأتي من هذه المنطقة، ولعلّها - على الأرجح - شظايا من بنايات قديمة. وهكذا يشهد المرء الأمواج تلعب أمام ناظريه ببهاء عالم مندثر أقدم عهداً. ومكثنا لاهين، مستمدّين ضروب التسلية من مراقبة طبائع الناس، الذين يشبهون في سلوكهم قبيلة بدائية من قبائل البشر. وبعد أن خلّفنا مولا وراءنا، صادفتْنا مناظر حلوة على طول الطريق، حتّى بعد أن توارى البحر عن الأنظار. وكان آخر ما نراه منه خليج جميل، عملنا له رسماً تخطيطياً. بعد هذا، مررنا بريف مُترَع بالثمار المسيّجة أشجاره بسياجات من نبات الصّبر المرّ. ورأينا أيضاً قناة علوية من الحجارة تمضي من الجبال صوب كومة أطلال وخرائب، لا شكل لها.

عبرنا نهر جاليجليانو، فمضى الطريق في اتجاه أكمة جبلية عبر رقعة خصيبة، لا تثير الاهتمام. أخيراً، لاح أول تل مؤلّف من رماد البراكين. وابتداء من هذه النقطة، دخلنا شبكة مترامية من التلال والوديان، تحفّها في الخلف سلاسل جبال مكلّلة بالثلج. ولفتت نظري بلدة شاردة على تلّة في الجوار. وتربض سانت أجاتا في الوادي؛ حيث يوجد نزل موقّر، رحّب بمقدمنا بمدفأة، وموقد، صُمّم على شكل صندوق. بيد أن غرفتنا كانت باردة برودة الصقيع، ولم تكن فيها نوافذ، بل مجرّد مغاليق. لذا؛ يتوجّب أن أسرع في كتابة هذه السطور.

نابولي، ٢٥ شباط (فبراير)

وصلنا أخيراً بسلام، وبفأل حَسَن. ليس عندي الكثير ممّا أضيف عن اليوم الأخير من رحلتنا. تركنا سانت أجاتا عند بزوغ الشمس. وهبّتْ طوال

النهار ريح شمالية شرقية في ظهورنا هبوباً عاتياً بلا هوادة، ولم تُفلح في تبديد الغيوم إلا عصراً، وعانينا كثيراً من البرد القارس.

قادنا الطريق ثانية بين وفوق تلال بركانية، أخذت التشكيلات الكلسية تخفّ من ثناياها. ثمّ وصلنا أخيراً إلى سهل كابوا، فمدينة كابوا ذاتها؛ حيث أمضينا استراحة منتصف النهار. أما بعد الظهر؛ فقد مضينا ننهب سهباً منبسطاً، يمتدّ على مدى البصر. وكان الطريق العريض العالي، يمضي وسط حقول قمح خضراء؛ وهي حقول عالية، ممتدّة أمام النظر مثل بساط. ثمّة صفوف من أشجار الصفصاف منزرعة في الحقول، تتخلّلها كروم، تستظلّ بأغصانها. تلك هي صورة الطريق التي لم تتبدّل حتّى نابولي. التربة هنا هشّة خالية من الأحجار، ومزروعة على أحسن صورة. وإن سيقان الكروم قوية طويلة، وتتشابك المتسلّقات مثل الشبّاك، من شجرة حور إلى أخرى.

كان بركان فيزوف يربض عن يسارنا طوال الوقت نافثاً غمامات دخانه الرهيبة، فاغتبط قلبي لمرأى هذه الظاهرة العجيبة رؤية العين أخيراً. صفت السماء باطّراد، حتّى أخذت الشمس تلفح مقامنا المزدحم المتأرجح، في العربة. ولمّا بلغنا ضواحي نابولي، خلت السماء تماماً من الغمام، فبتْنا حقاً في بلد آخر. وطفقت المنازل ذات السقوف المستوية تُنبئ بوجود طقس آخر، رغم أني أتجرّأ على القول إنها ليست مريحة من الداخل. الناس جميعاً في الشوارع يرفلون في أشعّة الشمس، طالما نزعت هذه إلى الطلوع. ويؤمن النابولي إيماناً راسخاً، أنه يعيش في الفردوس، وينظر إلى بلدان الشمال نظرة غمّ، تقبض الصدر. وهو يصوّر حياتنا في الشمال بقوله:

Sempre neve, case di Legnu, gran ignoranza, ma denari assai

وابتغاء تنوير سائر الشماليين، فمعنى العبارة هو هذا:

"الثلج ينزل على مدار السنة، والبيوت خشبية، والجهل كبير، لكن المال وفير."

تعلن نابولي عن نفسها منذ اللحظة الأولى، بوصفها مدينة مرحة حُرّة حَيّة! جيش غفير يمضي في كل حدب وصوب، الملك خارج إلى الصيد، الملكة حبلى، وكل شيء على ما يرام مع العالم.

٢٦ شباط (فبراير)

فندق السنيور ماريكوني، وسعة القلعة. (بالإيطالية) هذا هو العنوان الرنّان الطريف، الذي يمكن لسائر الرسائل من جهات الكون الأربع أن تصلنا فيه.

توجد على مقربة من القلعة الكبيرة عند البحر فسحة واسعة محاطة بالمنازل من كل الجهات، مع هذا، لا يسمّونها "ساحة" Piazza، بل "وسعة" Largo . أو المكان الفسيح، وهو اسم يرجع إلى عهد بعيد، على الأرجح، حين كانت المدينة ماتزال فضاء. عند أحد زوايا الوسعة ثمّة منزل كبير، استأجرنا فيه غرفة ركنية فسيحة، حتّى نتمتّع بتملّي الساحة الضاجّة بالحركة، دون أن يحجب عنا أي عائق هذا المشهد. وهناك شرفة من الحديد تحيط كل النوافذ، وتلتفّ حول الركن. ولا يملّ المرء من هذه الشرفة، لولا البرد القارس الذي يخزّ العظام. أما ديكور الغرفة؛ فبديع، خصوصاً الزخارف الدقيقة الغائرة في السقف؛ حيث تعلن لك مئات الزخرفات أنك لستَ بعيداً عن بومباي، أو أرض هرقل. وهذا كله حَسَن، ورائع، لولا أن الغرفة تخلو من مدفأة، أو موقد، ولمّا كان شباط (فبراير) يمارس حقوقه حتّى في هذه المدينة، فقد كنتُ أتلهّف إلى وسائل، تمدّني بالدفء.

جيء لنا بمرجل ثلاثي القوائم على درجة كافية من الارتفاع، تتيح للمرء أن يمدّ يده فوقه من غير أن ينحني، وربط بهذا المرجل الثلاثي وعاء غير عميق، مُلئ بجمر وهّاج دقيق، مَكْسُو بطبقة خفيفة مستوية، من الرماد. وقد تعلّمنا في روما وجوب الاقتصاد باستعمال وسيلة التدفئة هذه. ولابد من إزالة طبقة الرماد المتراكمة، بين الحين والآخر، بأسلوب حصيف، بواسطة رأس مفتاح، حتّى ندع الهواء يصل إلى الجمر. أما إذا فقد المرء صبره، وأجج مَجمرة الفحم؛ فقد يشعر بمزيد من الدفء للحظة، إلا أن الجمر سيذوي ويتلاشى، فيضطر عندئذ إلى أن يدفع المعلوم حتّى يملأ الوعاء فحماً من جديد.

لم أكن أشعر أنني على ما يرام، فأردتُ على نحو تلقائي المزيد من الراحة. مددنا بساطاً من القشّ؛ ليحميني غوائل الأرضية الحجرية الباردة. ولمّا كان الفراء غريباً على المدينة، قرّرتُ أن ألبس الصداري القصير الذي جئنا به معنا على سبيل المزاح. ربطتُ الصداري حول وسطي بحبل، انتزعتُه من حقيبة سفري. لابد أن منظري كان هزلياً، منظر يقع بين بحّار وكاهن كبوتشي. حين عاد تيشباين من زيارة بعض الأصدقاء، ورآني في هذا الحال، انخرط في ضحك صاخب، لا ينقطع.

٢٧ شباط (فبراير)

أمضيتُ أمسي بالمطالعة في الغرفة، بانتظار أن تمرّ وعكتي الخفيفة. أما اليوم؛ فقضيناه في غبطة أعجب المشاهد. بوسع المرء أن يكتب أو يرسم كما يشاء. لكن هذا المكان، بساحله، وخليجه، وبركانه، وقلاعه، وفيلاته، وبكل ما فيه، يتجاوز القدرة على الوصف. في المساء ذهبنا إلى جروتا دي بوسيلليبو، وبلغناه لحظة كانت أشعّة الشمس الغاربة تلقي نورها على المدخل مباشرة. يحقّ لي الآن أن أغفر لكل مَن يجنّ افتتاناً بنابولي،

وأن أتذكّر في محبّة عظيمة أبي، الذي طار صوابه بمثل هذه الانطباعات المكينة التي خلّفتها هذه الأشياء نفسها التي أراها اليوم. يقولون إن مَن يرَ شبحاً مرّة واحدة في حياته، لن يهنأ أبداً؛ العكس بالعكس: بوسعي أن أقول عن أبي إنه ما كان ليشعر بالتعاسة حين يعود بأفكاره، دوماً، إلى نابولي. أستطيع الآن أن أحتفظ برباطة جأشي، على طريقتي الخاصة، ولا أفقد صوابي، فتكاد عيناي تخرجان من محجريهما إلا حين يكون كل شيء كاسحاً بروعته في بعض اللحظات.

٢٨ شباط (فبراير)

زرنا اليوم رسّام المناظر الطبيعية الشهير، فيليب هاكرت، الذي ينعم بحظوة خاصة ومكانة كبيرة عند الملك والملكة. وقد خصّصا له جناحاً في قصر فرانكافيلا. وقد جُهِّز هذا الجناح بأثاث بديع على ذوق فنان مرهف، وهو يعيش فيه راضياً. وهاكرت رجل ذو تصميم وذكاء عظيمين، وهو يعرف كيف ينعم بلذائذ الحياة، رغم أنه إنسان مثابر دؤوب في عمله.

بعد ذلك، توجّهنا إلى شاطئ البحر، ورأينا كل أنواع السمك، وأغرب أشكال الكائنات البَحْرِيّة، التي يستخرجونها من الأمواج. كان النهار رائقاً، وجوّ ما وراء الألب محتملاً.

الأول من آذار (مارس)

في روما، اضطررتُ مراراً، وبأكثر ممّا أحبُ، على أن أهجر وجودي المعاند في الصومعة؛ لأشارك في الحياة الاجتماعية. ينبغي الإقرار أن من المفارقة أن يخرج المرء إلى العالم على نيّة البقاء وحيداً. وعجزتُ، على سبيل المثال، عن صَدّ دعوات الأمير فالديك الكريمة، فأتاح لي بفضل مقامه ونفوذه، أن أرى الكثير من الأشياء الجميلة بصحبته.

وقد قصد الأمير فالديك نابولي قبل مجيئنا، ولم نكد نطأ أرضها حتّى بادرنا بدعوة؛ لكي نرافقه في جولة بالعربة إلى بوزولي والريف المجاور. كنتُ أفكّر في رحلة إلى بركان فيزوف اليوم، لكن تيشباين أقنعني بوجوب قبول الدعوة، قائلاً إن رحلة في مثل هذا الطقس الحسن وبصحبة مثل هذا الأمير المتنوّر، ستكون مثمرة قدر ما تكون مَسرّة. وسبق أن تعرّفنا في روما على سيدة جميلة وزوجها، وهما صديقان ملازمان للأمير. علمنا أنها ستكون بين المدعوين، وعليه، فإننا نركن إلى أن ننعم بجولة مثيرة وسارّة.

كنتُ معروفاً لدى هذه الدائرة الراقية سَلَفَاً، ابتداء من مناسبة سابقة. خلال لقائنا الأولي، سألني الأمير عمّ أكتب، وكنتُ وقتها منهمكاً في كتابة إفيجيني انهماكاً كبيراً، دفعني إلى أن أقصّ عليه خلال تلك الأمسية الحكاية كلها بإسهاب. أعقبت ذلك مناقشات، وتولّد لديّ الانطباع أنهم كانوا يتوقّعون شيئاً أكثر حيوية، وأشدّ عنفاً.

الأول من آذار (مارس)، المساء

ترى مَن عساه لم يجرّب يوماً قراءة كتاب عابر، قلب كيانه، بل رسم له مجرى حياته، ثمّ رأى، عند القراءة الثانية، والتأمّل فيه من جديد، أن الكتاب لا يضيف له جديداً؟! (حصل لي هذا مرّة مع ساكونتالا(*)) أو لا يحصل الشيء نفسه في لقاءاتنا مع شخصيات بارزة؟!

كيف أصف نهاراً كهذا النهار؟ جولة في قارب؛ طواف قصير في عربة؛ نزهة على الأقدام وسط أكثر المناظر في العالم إثارة للعجب؛ أرض غادرة تحت سماء نقية؛ أطلال ذات بهاء يبز الخيال، بغيضة وحزينة؛ أمواه

---

*) ساكونتالا هي قصيدة درامية للشاعر الهندي كاليداسا، الذي عاش في القرن السادس. ولمّا كانت هذه القصيدة لم تُترجم إلى الألمانية حتّى عام ١٧٩١، فإن معظم النقّاد يرون أن غوته وضع حرف (س) (S) فقط، ولعلّه يقصد سبينوزا.

مضطربة؛ كهوف تنفث حمماً من غازات الكبريت؛ تلال مَكْسُوّة بمعدن البراكين، تمنع نموّ كل ما هو حي؛ بقاع مجدبة ومنفرة. بعد هذا، جاءت خضرة النبات المتجذّر أينما يمكن، الصاعد من قلب المادة الموات، مطوّقاً البحيرات وبرك الماء، مادّاً جموح غزواته إلى أسوار حفرة قديمة، مؤسّساً غابة نبيلة من البلّوط.

هكذا تتقاذف المرء أفعال الطبيعة، مثلما تتقاذفه أفعال البشر. فالمرء يتوق إلى أن يفكّر، ولكنه يشعر بأنه أضعف من أن يستطيع. في غضون ذلك، يواصل الأحياء عيشهم. ونحن بالطبع لا نفعل إلا الشيء نفسه في مواصلة العيش؛ غير أن لأهل الثقافة، الذين ينتمون إلى العالم، ويعرفون سبله، والذين تخدّرهم الأحداث الجسام، ينزعون إلى التأمّلات. وكلّما غرقتُ في التأمّل في مشهد لا متناه على الأرض، أو البحر أو السماء، أثابني إلى رشدي حضور سيدة لطيفة، ملؤها الودّ، اعتادت على أن تكون موضع اهتمامات الرجال، وهي أبعد ما تكون عن اللامبالاة بهم.

لم أغفل عن تدوين بعض الملاحظات خلال التنقّل. ولأجل الطباعة في المستقبل، وضعتُ خريطة عن الموضع؛ كيما نستخدمها، وهناك رسم سريع، وضعه تيشباين، يمكن أن يُعيننا كثيراً. أعجز هذا اليوم عن إضافة كلمة أخرى.

٢ آذار (مارس)

تسلّقتُ اليوم جبل بركان فيزوف، وكانت السماء مدلهمّة، والقمّة خبيئة في الغيوم. أخذتُ عربة إلى رسينان؛ حيث امتطيتُ بغلاً صاعداً الجبل عبر حقول الكروم. بعد هذا، عبرتُ مشياً موضع الحمم المقذوفة عام ١٧٧١، التي تكسوها طبقة رقيقة لزجة، من الإشنات، ثمّ صعدتُ حذاء الحمم. أخيراً بلغتُ الفوهة القديمة المسدودة حالياً، وصادفتُ

حمم البراكين الجديدة. بعض الحمم عمره شهران، وبعضه أسبوعان، وبعضه لا أكثر من خمسة أيام. والحمم الأخيرة ليّنة تماماً، بل باردة أيضاً. عبرتُ هذا الموقع، وتسلّقتُ تلّة من الرماد المقذوف حديثاً، والذي ما يزال ينفث الأبخرة في كل مكان. ولمّا كان البخار يتطاير بعيداً عني، فقد عزمتُ أن أحاول بلوغ الفوهة. ما إن قطعتُ خمسين خطوة حتّى تكاثف الدخان، ولم أعد أرى حتّى حذائي. ولم يُسعفني المنديل الذي اتّخذتُ منه كمّامة لأنفي. زد على هذا أن دليلي توارى عن الأنظار، وبات خطوي متعثّراً على كتل الحمم المقذوفة حديثاً. رأيتُ أن من الأفضل لي أن أعود أدراجي، بانتظار نهار أقلّ غيماً، وأخفّ دخاناً. ها أنذا أعرف، في الأقلّ، صعوبة التنفّس في مثل هذا الجوّ.

بخلاف ذلك، كان الجبل على أتمّ السكون، فلم يبعث أي حمم، لم يطلق أي هدير، ولم يقذف أية حجارة، خلال الأسابيع التي سبقت وصولنا. وعلى أي حال، فرغتُ من الاستطلاع حتّى أتمكّن من القيام بهجومي النظامي حالما يصحو الجوّ.

إن معظم المقذوفات البركانية التي وجدتُها معروف عندي سلفاً، غير أني اكتشفتُ ظاهرة واحدة، حيّرتني بوصفها أمراً استثنائياً، وإنني لأعتزم استقصاءها عن كثب بعد أخذ مشورة الخبراء وجامعي المقذوفات البركانية. تلك هي بطانة المدخنة البركانية التي اقتُلعت ذات مرّة، غير أنها انفجرت، وانفتحت مشرئبّة من الفوهة القديمة الممتلئة. إن كتل الحليمات العلوية الرمادية، هذه، تبدو لي وكأنها نتاج تكاثف الأبخرة البركانية الدقيقة تكاثفاً تلقائياً من دون تدخّل بَلَل الندى، أو أي تفاعل كيمياوي. يؤلّف لي هذا زاداً لمواصلة التفكير.

٣ آذار (مارس)

اليوم، تهبّ ريح شرقية مغبرّة وسط سماء مدلهمّة بالغيوم، الطقس الموائم لكتابة الرسائل بالضبط.

زد على هذا أني رأيتُ ما يكفي من الناس (على اختلاف أمزجتهم وأشكالهم)، ومن الجياد الرشيقة، والسمك الغرائبي.

لن أتفوّه بكلمة أخرى عن مواطن جمال المدينة وموقعها، التي وصفتُ وأطريتُ على أكبر ما يكون الوصف والإطراء. وكما يقولون هنا: فيدي نابولي، أي بوي موري! Vedi Napoli e poi muori. يحلو الموت بعد رؤية نابولي!" لا يسع المرء أن يلوم النابولي على انعدام رغبته في مغادرة مدينته، ولا أن يلوم شعراءها على مغالاتهم في الثناء على مقامها السامي: فنابولي ستظلّ مدينة رائعة حتّى لو أحاطتها براكين فيزوف آخر في الجوار.

لا أريد حتّى مجرّد التفكير في روما. فعند مقارنة روما بموقع نابولي الحُرّ الطليق، تبدو عاصمة العالم الواقعة على سهول التيبر مجرّد دير بائس، سيئ الموقع.

إن البحر والسفائن تفتح عيني المرء على إمكانات جديدة. بالأمس أبحرت فرقاطة إلى باليرمو قبالة جبل أشمّ، ولن يستغرق مرورها أكثر من ست وثلاثين ساعة.

راقبتُ الفرقاطة في لهفة، وهي تنشر أشرعتها عند المرور بين كابري وكيب منيرفا؛ لتختفي بعد ذلك. لو عنّ لي أن أراقب حبيبة تبحر بعيداً على هذا النحو؛ لفاض بي الشوق، وزهقت روحي. تهبّ اليوم ريح شرقية؛ وإذا ما قويت الريح، صنعت الأمواج القريبة من جدار الميناء مشهداً مُسرّاً. ولمّا كان اليوم هو الجمعة، فإن النبلاء يخرجون في مركباتهم؛ ليعرضوا

فخامة العربات، بل وبهاء الجياد أيضاً. ألا ما أجمل هذه المخلوقات! إنها أجمل ما في الوجود! لقد خفق قلبي لحُسن مرآها، لأول مرّة في حياتي.

٣ آذار (مارس)

أرسل إليكم بعض الوريقات التي توجز أيامي الأولى في هذا العالم الجديد، وأارفق لكم مع الرسالة مظروف رسالتكم الأخيرة، بعد أن حرقتُ ركناً منه دليلاً على أني اصطحبتُه معي إلى بركان فيزوف.

لا ينبغي لكم، لا في المنام ولا في أحلام اليقظة، أن تتصوّروني مُطوّقاً بالأخطار؛ كونوا على يقين أنني حيثما توجّهتُ، فلن أكون في خطر أكبر من خروجي على الطريق العامّ الموصل إلى بيلفيديري(*). ولا يسعني إلا أن أردّد قول نبي الله داوود في مزاميره: "الأرض وما عليها لله." لا أسعى إلى المغامرة مدفوعاً بفضول المتبطّر، أو غرابة الأطوار، ولكني أحمل ذهناً صافياً سريعاً في التقاط الطابع الجوهري للشيء، وهو يدعوني إلى أن أتحرّك، وأجازف أكثر من الآخرين. الرحلة البَحْريّة إلى صقلية آمنة تماماً، وصقلية نفسها ليست خطيرة أبداً، كما يزعم الكثيرون ممّن لم يقربوها على مَبعدة أميال.

لم يشهد جنوب إيطاليا أية زلازل في الفترة الأخيرة، باستثناء رميني والأصقاع المجاورة التي نزلت بساحتها الأضرار. إن للزلازل مزاجها المتفرّد؛ ويتحدّث الناس، هنا، عنها مثلما يتحدّثون عن الطقس، أو مثلما يتحدّث أهل تورينجيا عن حرائق الغابات.

سعدتُ لاستقبالكم الصيغة الجديدة من مسرحية إفيجيني بهذا العطف؛ ولعلّ سعادتي كانت ستزداد لو أنكم أبديتُم وعياً أكبر بمدى

---

*) المقام الصيفي لدوق فايمار.

اختلاف هذه الصيغة عن سابقتها. إنني أعرف على وجه اليقين ما فعلتُه بها، وعليه فإنني كفيل بالحديث عن الموضوع. كنتُ سأوغل في التغيير أكثر فأكثر. إن الحُسن يشيع الحبور، لكن الأحسن يزيد الحبور بهجة؛ أما في الفن؛ فلا اكتفاء إلا بالأحسن.

٥ آذار (مارس)

قضينا ثاني الآحاد في لينت، متجوّلين من كنيسة إلى أخرى. إن ما تعالجه روما بأقصى الإجلال والمهابة يعالج هنا بأقصى البهجة الممراح. لعل مدرسة نابولي في الرسم لا يمكن أن تُفهم فَهْماً حسناً إلا في إطار نابولي ذاتها.

ذُهلنا لرؤية الواجهة الغربية من إحدى الكنائس، وقد صُبغت من أعلى إلى أدنى. وتبرز فوق مدخل الكنيسة لوحة، تُصوِّر المسيح، وهو يطرد صرّافي النقود من المعبد؛ وترى هؤلاء الصرّافين يتدحرجون، من الجانبين، واقعين من درجات السّلّم، والفزع يعلو سيماءهم.

وتزدان الجدران الداخلية لكنيسة أخرى، بعد رواق المدخل، بلوحات جدارية، تُصوِّر طرد هيليودوروس. لا عجب في عجلة الفنان لوقا جيور دانو في الرسم، فالمساحة التي ينبغي ملؤها هائلة حقاً. حتّى منبر الوعظ لا يشبه منابر الوعظ في مُدُن أخرى، فهو لا يزيد عن عرش أسقف واحد، وكرسي واعظ واحد. وهناك منبر آخر رأيتُه، لا يزيد عن ردهة، يذرعها قس كبوتشي جيئة وذهاباً، وهو يقرع جمع المصلّين على خطاياهم، تارة من هذا الصوب في الردهة، وطوراً من ذاك الصوب.

أعجز عن الشروع في أن أصف لكم عظمة تلك الليلة، التي اكتمل فيها القمر بدراً، حين رحنا نهيم في الشوارع والساحات، ومنتزه كيابا،

الذي يبدو بلا نهاية، وعلى ساحل البحر. غمرني إحساس طاغ بلا تناهي المكان. إن القدرة على الحلم بهذه الصورة لجديرة حقاً بعناء القدوم إلى هذا الموضع.

تعرّفتُ خلال الأيام القليلة الماضية على رجل عظيم، يُدعى كافالييري فيلانجيري، المشهور بمؤلّفه "علم التشريع". إنه واحد من أولئك الشباب ذوي القلوب النبيلة التي لا يغيب عن فكرها أن الهدف هو سعادة بني البشر وحُرّيّتهم. وهو يتميّز بأدب جمّ، ممّا يميز السادة، كما يتميّز بنزوع دنيوي، ويخالط أدبه إحساس أخلاقي مرهف، يتخلّل شخصيته بأسرها، ويشعّ من ثنايا حديثه وسلوكه على نحو ساحر. والرجل متفان في خدمة مليكه، والنظام الملكي الحالي، رغم أنه ليس راضياً عن كل ما يجري. وتخيّم عليه، بالمقابل، مخاوف كبيرة من جوزيف الثاني. إن مرور خاطر صغير عن حاكم مستبدّ، حتّى لو كان شبح احتمال، يُفزع العقول النبيلة. أخبرني في صراحة تامة ما ينتظر نابولي على يد هذا الإنسان. ويحبّ فيلانجيري الحديث عن مؤلّفات مونتسيكيو، وبيكاريا، وعن مؤلّفاته أيضاً. فهي مفعمة بروح إرادة الخير، والرغبة الشابّة المخلصة، لإتيان الخير. لابد أنه ما يزال في العقد الثالث من عمره.

بُعيد تعارفنا، أطلعني على أعمال كاتب أقدم عهداً، تمتاز حكمته العميقة بأثر تنويري مجدّد على سائر الإيطاليين من أبناء هذا الجيل المساند للعدالة، يُدعى هذا المفكّر جيامبايتستا ڤيكو، وهم يعدّونه أعظم من مونتسيكيو. وبدا لي، من القراءة السريعة لكتابه، الذي قدّم لي كما لو كان كتاباً مُنزلاً، إنه يحوي رؤى ونبوءات عن تحقّق الخير والعدالة، أو وجوب تحقّقهما، في المستقبل، وهي نبوءات تعتمد على دراسة عميقة للحياة والتراث. ما أروع أن يكون لدى شعب من الشعوب

مثل هذا البطريارك الروحي: ذات يوم سيغدو هامان[*] إنجيلاً مماثلاً عند سائر الألمان.

٦ آذار (مارس)

رافقني تيشباين اليوم في ارتقاء جبل بركان فيزوف، على مضض، ولكنْ؛ بدافع الوفاء للرفقة. لا ريب أن منظر فيزوف منفر تماماً أمام روح فنان مثقّف مثل تيشباين، مَعني دوماً بأجمل ما في الأشكال البشرية والحيوانية، وبإسباغ الروح البشري على ما لا شكل له وروح. من صخور ومناظر طبيعية. ليفعمها إحساساً وذوقاً؛ أقول إن روحاً كهذه لابد أن تأنف هذه الكومة القاسية الصلبة التي يؤلّفها بركان فيزوف الذي يدمّر ذاته بذاته، ويعلن الحرب على أي إحساس بالجمال.

أخذنا مركبتين ذاتي مقعد واحد؛ لأننا لم نكن نثق بقدرتنا على الاهتداء إلى السبيل وسط زحام المدينة وفوضاها. وكان الحوذي يزعق بلا انقطاع: "اخلوا الطريق! اخلوا الطريق!" تحذيراً للحمير المثقلة بحمولة الأحطاب أو الأزبال، أو تحذيراً للعربات المارقة في الاتجاه المعاكس، أو الحمّالين الذين وسط زحام المدينة وفوضاها. وكان الحوذي يزعق بلا انقطاع:

"اخلوا الطريق! اخلوا الطريق!" تحذيراً للحمير المثقلة بحمولة الأحطاب أو الأزبال، أو تحذيراً للعربات المارقة في الاتجاه المعاكس، أو الحمّالين الذين ينوؤون بأحمالهم، أو عابري السبيل من المارّة أطفالاً ومسنّين؛ كي يتنحّوا جانباً، حتّى يواصل الخبب الجامح.

أسفرت أحياء الضواحي وجنائنها عن بوادر، تُنبئ أننا دخلنا مملكة بلوتو[**]. لقد كفّ المطر منذ فترة بعيدة، واكتست أوراق الأشجار دائمة

---

*) هو الفيلسوف الورع يوهان هامان (١٧٣٠ـ١٧٨٨) صديق الفيلسوف العقلاني عمانوئيل كانط. وهو داعية الجمع بين الإيمان والفلسفة دفاعاً عن المسيحية، واعتراضاً على الكانطية.

**) آلهة الجحيم والموتى عند الإغريق والرومان.

الخضرة بطبقة كثيفة من غبار مسود أقرب إلى الرماد؛ وكانت سقوف المنازل والأفاريز، بل كل ما هو مسطّح مَكْسُوّ بغلالة رمادية؛ غير أن السماء الزرقاء الجميلة والشمس الساطعة فوق رؤوسنا، تشهدان على أننا ما نزال بين الأحياء.

التقينا اثنين من الأدلاء عند سفح المنحدر الجبلي، أحدهما مُسنّ، والآخر فتى غضّ؛ إلا أنهما أهل للمهمّة. أخذني الدليل المُسنّ في عهدته، أما الفتى؛ فأخذ تيشباين، وجرّانا جرّاً إلى أعلى التل. وأقول "جرّاً" لأن كل دليل يتمنطق بحزام من الجلد، يتعيّن على الزائر أن يتمسّك به، ليُجر جرّاً إلى الصعود، على أن يتلمّس موقع قدميه بمعونة عصا.

على هذا النحو، بلغنا قاعدة منبسطة، ينبجس منها كوز الحبل. شظايا حطام القمّة تشخص قبالة الشمال. أما قبالة الغرب؛ فالمشهد جميل، يشبه حمّاماً منعشاً، يزيل عناء وأوجاع الجسد المكتوي بجهد التسلّق. بعد ذلك، درنا حول الكوز، الذي كان مستمرّاً في نفث الدخان، وقذف الحجارة والرماد.

ويمتاز هذا المشهد بالعَظَمَة والرفعة، طالما توفّرت فسحة كافية لبقاء المرء على مسافة آمنة. بغتة أطلق البركان هديراً مدوّياً هائلاً، قذف في أعقابه آلاف الحجارة، الصغير منها والكبير، ملفّعة بغيوم من الغبار، في الهواء. سقط معظم المقذوفات في الهاوية، وتسبّب الباقي في دويّ خارق عند الارتطام بالجدار الخارجي لكوز البركان. في البدء، سقطت الأحجار الثقيلة، مدوّية دوياً حادّاً؛ لتتدحرج بعدئذ على المنحدر، نعدّ عدّاً بطيئاً.

ضاقت الفسحة الفاصلة بين القمّة (بالإيطالية) والكوز على نحو تدريجي، حتّى وجدنا أنفسنا محاطين بالأحجار المقذوفة، التي تجعل

المشي عَصياً. خيّم الغمّ على تيشباين، وهو يرى إلى هذا الوحش البركاني، الذي لا يكتفي بقباحته، بل راح ينذربأن يحيقنا بالخطر أيضاً.

غير أن هذا الخطر الداهم ينطوي على شيء يحفز روح التناقضات البشرية على تحدّيه وملاقاته، لذا؛ قلت لنفسي إن بالإمكان تسلّق كوز البركان، وبلوغ حافة فوهته، ثمّ العودة، خلال الفترة الفاصلة بين القذف المتعاقب للحمم. اتخذنا موضعاً آمناً للجلوس في كنف صخرة مشرئبّة، وأنعشنا أنفسنا بما جلبنا من طعام، وطلبتُ مشورة الدليلين عمّا عزمتُ عليه. أبدى الفتى كل الثقة في خوض غمار المجازفة؛ غطّينا قبّعاتنا بمناديل من القماش والحرير، وأمسكت نطاقه الوسطي، بهذه اليد، والعصا باليد الأخرى، وانطلقنا.

كانت الصخور الصغيرة ما تزال تقرقع، والرماد ما يزال يتساقط حولنا، لحظة جرّني الفتى القوي فوق ركام الحصى المتوهّج. وقفنا هناك عند شفا الفوهة الهائلة؛ ثمّة نسيم خفيف يجلي الدخان بعيداً عنا، إلا أنه يستر باطن الفوهة بغلالة؛ وتتصاعد الأبخرة من حولنا من آلاف الشقوق؛ ونلمح بين الحين والآخر جدران الصخر المتشقّقة. لم يكن المشهد مريحاً، ولا مفيداً للتعلّم، مَردُ ذلك أننا لم نكن نستطيع أن نتبيّن أي شيء، فأطلنا المكوث حتّى نرى المزيد. ونسينا متابعة العَدّ البطيء للزمن، وبقينا واقفين عند الحافة الحادّة من الهاوية المروّعة، حين داهمنا بغتة دَويّ هائل، هزّ الجبل، وانقذفت شحنة هائلة من الحمم من أمام وجوهنا. أحنينا رأسينا غريزياً، كما لو أن في ذلك نجاتنا، حين بدأ سيل الأحجار يتساقط كالمطر. كفّت الأحجار الصخرية عن القرقعة في أثناء السقوط، فنزلنا بسرعة إلى أسفل الكوز، بعد أن نسينا أن فترة هدوء البركان قد انصرمت، وسعدنا بالنجاة. وتسربلنا، في أثناء هذا النزول،

بمطر مدرار من الرماد الذي غطى قبّعتينا وكتفينا بدثار سميك. وبعد أن لامني تيشباين لوماً ودوداً، وتناولنا شيئاً من المنعشات، استطعتُ أن أتفحّص بعناية حمم البركان، القديم منها والجديد. والتقط الدليل المُسن عيّنات منها، وذكر لي عمر كل عيّنة بدقّة. إن الحمم القديمة مَكْسُوّة بالرماد، وناعمة جداً؛ أما الحمم الجديدة، وبخاصة التي خرجت ببطء؛ فتبدو غريبة جداً.

حين تسيل الحمم ببطء، فإن سطحها يبرد، ويتحوّل إلى كتل صلبة. وإن بعض العوائق يوقف هذه الكتل، بين الحين والآخر. وتنجرف الكتل المتلكّئة بفعل مسيل الحمم الذائبة تحتها، فتتراكم فوق الكتل الساكنة. وتتكرّر هذه العملية المرّة تلو الأخرى حتّى يتحجّر السيل في أشكال متثلّمة. ويحصل شيء مماثل مع قطع الجليد الطائفة في النهر، غير أن تأثير ذلك على حمم البركان أقوى. وتوجد بين المنتوجات الذائبة، عديمة الشكل، أنماط معيّنة من الصخور البدائية. وأشار الدليلان إلى أن هذه حمم قديمة، انطلقت من أولئكأعماق البركان الذي يطلقها بين فترة وأخرى.

لاحظتُ في طريق العودة إلى نابولي منازل صغيرة مؤلّفة من طابق واحد، شيدت بأسلوب غريب من دون نوافذ؛ وإن مسارب النور الوحيدة إلى الغرفة تتمثّل في الباب المطل على الشارع. ويجلس ساكنوها في الخارج من الصباح إلى المساء، حتّى أوان الرقاد في كهوفهم.

إن هذه البلدة التي تعجّ بالضجيج حتّى خلال المساء، رغم أن هذا ضجيج من نوع مغاير، توقد فيّ رغبة البقاء فيها مدّة أطول لرسم التخطيطات التي أقدر عليها، لما فيها من مشاهد حيّة. بيد أني أشكّ في أن يتحقّق شيء على مثل هذا اللطف.

٧ آذار (مارس)

أخذني تيشباين هذا الأسبوع، عن وعي وتصميم، لرؤية جل كنوز الفن في نابولي وشرح مغزاها لي. لقد أفلح حتّى الآن، بوصفه خبيراً ورسّام حيوانات بارعاً، في إثارة اهتمامي في نحت برونزي لرأس حصان في قصر بالازو كولومبرانو، فذهبنا اليوم لمشاهدته. إن هذه القطعة المذهلة تقف في فسحة فوق نافورة الفناء، قبالة البوّابة الأمامية. لابد أن أثر هذه القطعة كان عظيماً، لدى النظر إليه في علاقته بأطراف وجذع الحصان الكامل.

لابد أن الحصان الكامل أكبر بكثير من الجياد الموجودة في مبنى سان ماركو، وحتّى لو اكتفينا بتفحّص رأس الحصان وحده، تفحّصاً دقيقاً وقريباً، فإنه يترك انطباعاً عميقاً بالتفرّد والعنفوان: عظم جبهة رائع، ومنخران نافثان، وأذنان منتصبتان، وعُرْف متطاير! أيّ مخلوق جبّار متّقد.

حين درنا على أعقابنا، لاحظنا تمثال أنثى منتصباً في فسحة فوق البوّابات. يرى فينكلمان أن ذلك يمثّل راقصة؛ لأنه يعتقد أن الحركات الرشيقة المتنوّعة، لهاته الراقصات كانت تثير رغبة النحّاتين في تخليدها لنا في الأشكال المرمرية الثابتة للحوريات والآلهات. إن هذه المخلوقة رشيقة حلوة؛ ويبدو أن رأس هذه المرأة قد انسلخ عن الجسد، فاستُعيض عنه بنحت رأس بديل؛ أما بقية التمثال؛ فسليمة تماماً، وتستحقّ هذه المرأة لتمثالها موقعاً أفضل.

٩ آذار (مارس)

استلمتُ اليوم رسائلكم العزيزة المؤرّخة في ١٦ شباط (فبراير). أرجوكم أن تواظبوا على الكتابة. لقد أعطيتُ توجيهات دقيقة للبريد في أثناء غيابي، وسأواصل هذا الترتيب إن تعيّن عليّ السفر بعيداً من هذا الموقع النائي يبدو أن من الغريب أن أقرأ أن أصدقائي لا يلتقون كثيراً، ولكنْ؛ من

المعروف أنه حين يعيش الناس على هذا القرب من بعضهم، فإن من الطبيعي ألا يلتقوا إلا لماماً.

بات الطقس كالحاً. هذه علامة تغيير. الربيع يقترب، والمطر سينهمر علينا. لم تعد قمّة فيزوف تُرى منذ أن صعدتُه. رأينا خلال الأماسي القليلة الماضية ألسنة اللهب تتصاعد منه أحياناً، أما الآن؛ فالبركان هادئ. ويُتوقّع أن ينفجر أشدّ عنفاً من ذي قبل.

قدّمت لنا عواصف الأيام الماضية صورة بحر رائع، وسمحت لي بدراسة حركات الموج وأشكاله. حقاً إن الطبيعة هي الكتاب الوحيد الذي تمتلئ صفحاته بإلهام من المحتويات.

أما المسرح، من الجانب الآخر؛ فلم يعد يمدّني بالمتعة. ويعرضون هنا، خلال فترة الصوم الكبير، عروض أوبرا دينية. والفرق الوحيد عن الأوبرا الدنيوية، أن العرض الديني يخلو من رقص الباليه بين الفصول؛ ما عدا ذلك، فإنه لا يقلّ عن نظيره الدنيوي مرحاً. ويعرض مسرح سان كارلو مسرحية "تدمير القُدْس على يد نبوخذ نصر". لم يعد المسرح، في نظري، سوى صندوق فرجة على مقاس مكبّر. ويبدو أنني فقدتُ القدرة على تذوّق مثل هذه الأشياء.

زرنا اليوم الأمير فالديك في قصر بالازو كابوديمونتي، الذي يضمّ مجموعة كبيرة من اللوحات والعملات، وغير ذلك من أشياء ثمينة، إلا أنها ليست معروضة بشكل حسن. وقد أكّد لي ما رأيتُ الكثير من التصوّرات التقليدية.

في بلداننا الشمالية، نتعرّف على الكثير من الأشياء، مثل العملات، والميداليات، وأواني الزهور، بل حتّى أشجار الليمون، من عيّنة واحدة

فقط؛ أما حين نشاهدها هنا، في مَنبتها الأصلي، بهذه الوفرة؛ فإنها تبدو مختلفة تماماً. فحيثما تندر أعمال الفن، تصبح الندرة نفسها ذات قيمة؛ أما هنا؛ حيث الوفرة شائعة؛ فإن المرء يستطيع أن يدرس قيمتها الجوهرية.

يدفع الشراة مبالغ كبيرة حالياً لقاء آنية الزهور الأتروسكية، ولكن على يقين من أنها تضمّ قطعاً استثنائية. فكل أجنبي يريد اقتناء واحدة. إن المرء ينزع هنا إلى فقدان الحذر في إنفاق المال قياساً إلى موطنه. وأخشى أن تجرّني هذه الغواية أيضاً.

من لطائف السفر أن الحوادث العادية تماماً تكتسب مسحة مغامرة، بسبب جدّتها وفُجاءتها. بعد العودة من قصر كابوديمونتي، قمتُ بزيارة أخرى، في المساء، لعائلة فيلانجيري. فرأيتُ امرأة شابّة تجلس على الأريكة إلى جوار سيدة المنزل، ولا يتّفق مظهر هذه الشابة مع سلوكها المنبسط الأليف. كانت ترتدي فستاناً خفيفاً من الحرير المقلّم، وشعرها مصفّف في تقليعة نزوة، فبدت هذه المخلوقة الصغيرة الحلوة أشبه بتلك الخيّاطات اللواتي يقضينَ جلّ وقتهنّ في إلباس النساء الأخريات حتّى ينسينَ أنفسهنّ، ولا يعدنَ يكترثنَ بمظهرهنّ. ولمّا كنّ يتلقينَ الأجر عن عملهنّ هذا، فلا يرينَ موجباً للاعتناء بهندامهنّ دون مقابل. ويبدو أن دخولي إلى المنزل لم يؤثّر فيها البتة، بل واصلت الحديث، وهي تقص الحكايا المضحكة عن أمور حصلت لها خلال الأيام القليلة الماضية، أو بالأحرى التي نجمت عن تصرّفها الطائش. حاولت سيدة المنزل أن تجد كلمة تقولها لي وسط هذا الحرمان من الكلام، بأن تشير إلى قصر كابوديمونتي وماله من موقع رائع وكنوز بديعة، لكن جهودها انتهت بالإخفاق. بعد هذا، وثبت السيدة الصغيرة الحيوية؛ لتقف على قدميها. وهي أحلى عندما تقف بطولها. لتستأذن، وتهرع إلى الباب، ولمّا مرّت بي قالت:

"ستأتي عائلة فيلانجيري للعشاء عندي ذات يوم من هذه الأيام. آمل أن أراك أيضاً." ومضت حتّى قبل أن أستطيع أن أنبس بكلمة قبول الدعوة. وفهمتُ من سيدة المنزل أنها الأميرة. س(*)، وأنها وثيقة الصلة بالعائلة. إن أسرة فيلانجيري ليست على ذلك القدر من الثراء، وهي تعيش في منزل متواضع، إلا أنه أنيق الطراز. وتخيّلتُ أن الأميرة الصغيرة لابد أن تكون على هذا المقام المتواضع أيضاً، خصوصاً وأنني أعلم أن مثل هذه الألقاب الرنّانة ليست نادرة في نابولي. دوّنتُ اسمها ويوم الدعوة، وساعتها، حتّى أتوجّه إلى المكان المحدّد في الوقت المحدّد.

١١ آذار (مارس)

لمّا كان بقائي في نابولي لن يطول، فإنني أزور المواضع البعيدة الهامة أولاً، أما المواضع القريبة؛ فرهن الإشارة. اتجهنا أنا وتيشباين إلى بومبي، ورأينا في كل حدب وصوب مناظر نعرفها من اللوحات، أما الآن؛ فنراها كلها مجتمعة، في مشهد واحد بديع.

تفاجئ بومبي كل ناظر بانضغاطها وصغر حجمها. فالشوارع ضيقة، وإن تكن مستقيمة ومحفوفة بالأرصفة، والبيوت صغيرة بلا نوافذ. لا يدخلها النور إلا من المداخل أو الأقواس المفتوحة. بل إن المباني العامة وشواهد القبور عند بوّابة المدينة، والمعبد، والفيلا القريبة منه، تبدو كلها بمثابة نماذج معمارية مصغّرة، أو لعباً للأطفال، أكثر منها بناءات حقيقية. إلا أن حجراتها ودهاليزها وأقواسها ملوّنة تلويناً بهيجاً. فالجدران ذات السطوح المستوية مزدانة بلوحات جدارية ثرّة التفاصيل، وإن تكن باهتة الألوان، ومتثلّمة. وتزدان اللوحات الجدارية بنقوش لطيفة، تنمّ عن ذوق رفيع: هناك لوحة جدارية، تُصوِّر أجساد أطفال وحوريات بحر فاتنات؛ وأخرى تُصوِّر

---

*) هي شقيقة فيلانجيري، وتُدعى تيريزا، أميرة، رافاشيري دي ساترينو.

حيوانات وحشية ومُروَّضة، تخرج من أكاليل زهور أنيقة. ورغم أن المدينة قد دُمّرت تماماً، أولاً بالبركان الذي دفنها بركام من الرماد والصخور، وثانياً بحفّاري الآثار الذين نهبوها، إلا أنها ما تزال تشهد على عَظَمَة الفطرة الفنية عند أهلها، وحبّهم الكبير للفن، وهي فطرة، لا يمكن لأكبر عشّاق الفن في يومنا هذا أن يحسّها، أو يفهمها، أو يتمنّاها.

في ضوء المسافة الكبيرة الفاصلة بين بومبي وبركان فيزوف، لا يمكن للحمم البركانية التي دفنت المدينة أن تصل إليها من الجبل، لا بفعل قوّة الانفجار البركاني، ولا بقوّة ريح عاتية: تصوُّري الشخصي أن الصخور وكتل الرماد الحارق انطلقتا في الأعالي، وبقيت سابحة في الهواءن مثل الغيم، قبل أن تنزل على المدينة المنحوسة.

وابتغاء التصوُّر الواضح لما حصل تاريخياً، يتعيّن على المرء أن يتخيّل قرية جبلية، دُفنت في الجليد. إن المسافات بين المباني، والمباني نفسها، المسحوقة تحت ثقل ما يتساقط عليها، قد دُفنت تماماً، وغابت عن النظر، باستثناء نتوء من جدار هنا أو هناك؛ وتحوّلت رقعة المدينة المدفونة إلى رابية، اتخذها الناس حقلاً للكروم والجنائن. ولعل الفلاحين الذين حرثوا أو احتفروا حقولهم هم أول مَن أصاب غنيمة الكنوز الثمينة.

خلّفت فينا هذه المدينة المحنّطة كالمومياء انطباعاً منفراً غريباً، ولم تنبسط أرواحنا إلا بعد أن جلسنا في عريشة حانة متواضعة، تطلّ على البحر، لتناول وجبة زهيدة. وانسحرنا بالسماء الزرقاء والبحر المتلألئ، فغادرنا على أمل أن نعود إلى هذا المكان، ونغرف متعتنا منه في يوم ما في المستقبل، حين يزدان هذا المكان الظليل بأوراق العنب.

ولمّا اقتربنا من نابولي، أثارت البيوت الصغيرة دهشتي لشدّة شبهها

بمنازل بومبي، لكأنها نسخ طبق الأصل عن تلك. طلبنا الإذن لدخول أحد هذه المنازل، فوجدناه نظيفاً مرتّباً، حَسَنَ الأثاث. مقاعد من القشّ المضفور، وخزانة بلون ذهبي، مزدانة بنقش من الأزهار الملوّنة، ومدهونة بدهان تلميع. ما تزال هذه المنطقة، رغم انصرام القرون ووقوع ما لا عدّ له من التغييرات، تفرض على ساكنيها العادات نفسها، والأذواق ذاتها، وضروب التسلية ذاتها، وطراز العيش ذاته.

١٢ آذار (مارس)

طفتُ اليوم في أرجاء المدينة على جري عادتي، مدقّقاً النظر في الكثير من النقاط التي آمل أن أصفها وصفاً مفصّلاً فيما بعد، أما الآن؛ فلا وقت كاف عندي، لسوء الحظ.

كل ما يصادف النظر ويطرق السمع يعطي الدليل على أن هذا بلد سعيد، يشبع إشباعاً كافياً الجوهري من الحاجات، وينمّي شعباً سعيداً بطبعه، فهذا شعب يستطيع أن ينتظر دون قلق مجيء الغد؛ ليحمل إليه ما يحوزه اليوم، لذا؛ تراه يعيش حياة هانئة محظوظة، قانعاً في الرضى الآني، واللذائذ المتواضعة، ملاقياً الآلام والاحزان، لحظة تأتي، بأسى شفيف. إليكم مثالاً باهراً عن ذلك:

كان الجوّ في الصباح بارداً رطباً، فنثيث المطر تساقط قبلئذ. وصلتُ إلى ساحة، بدت لي أحجارها المرصوفة، وكأنها قد كُنست، ونُظّفت تنظيفاً دقيقاً على غير العادة، فدُهشتُ لمرأى عدد من الغلمان بثياب رثّة، يتحلّقون في دائرة، ضاغطين أكفّهم على الأحجار المستوية، كما لو أنهم يتدفّؤون. في البدء، خطر لي أنهم يلعبون لعبة ما، لكن سيماءهم المتجهّمة أوحت أن هناك غرضاً عملياً ينشدونه بهذا السلوك. عصرتُ قوى تفكيري؛ لأحزر مبتغاهم، دون أن أجد تفسيراً مُرضياً، فكان عليّ

والحالة هذه أن أسأل أحداً عن سبب قعود هذه القرود الصغيرة على شكل دائرة، واتخاذها مثل هذا الوضع الغريب.

قيل لي إن حدّاداً من الجوار يحاول أن يضع طوق حديد في دولاب عربة، ويحقّق ذلك كالآتي: يُوضَع طوق الحديد على الأرض، ويُغطّى بنشارة دائرية من الخشب، وتُشعل حتّى يلين الحديد بدرجة كافية. وبعد أن تحترق النشارة عن آخرها، يُوضَع طوق الحديد، أو الدولاب، حول العجلة الخشبية، ويُزال الرماد بالكَنْس الدقيق. أما المتشرّدون الصغار أولاً؛ فيغنمون فرصة هذه السخونة العالقة ببلاط الشارع، ويمكثون عندها حتّى تمتصّ أجسادهم آخر نزر من الدفء فيه.

بوسعي أن أورد لكم أمثلة لا عدّ لها عن هذه القدرة على اغتراف الكثير من القليل، والإفادة من كل شيء قبل أن يضيع هباء. إن هؤلاء الناس يتفتّقون عن أبدع المواهب، لا لإصابة الثراء، بل للعيش خلواً من الهمّ.

المساء

ابتغاء الوصول إلى منزل الأميرة الصغيرة النزقة، في الموعد المحدّد، من دون أن أضيع طريقي في العثور على العنوان، استأجرتُ خادماً، قادني إلى بوّابة قصر كبير. ولمّا كنتُ لا أصدّق أنها تعيش في قصر منيف كهذا، فقد تهجّيت اسمها مرّة أخرى حرفاً حرفاً؛ لأتيقّن من أنني وصلتُ المكان المنشود. دخلتُ إلى فناء فسيح، فارغ محاط بالمبنى الرئيس، وملاحقه. وهو بناء معمول على طراز المعمار البهيج النابولي. فوجدتني قبالة مدخل هائل، وإزاء سلّم عريض، وإن يكن غير طويل، يحفّه من الجانبين خَدَمٌ في بزّات زاهية، اصطفّوا لاستقبالي، وانحنوا في احترام عند مروري. شعرتُ أنني مثل السلطان في حكاية فيلاند الأسطورية، فتصرّفتُ على غرار هذا السلطان، مستجمعاً كل شجاعتي بيدي هاتين. استقبلتني، في أعلى

السّلّم، ثلّة خَدَم، حتّى وصلتُ إلى كبير الخَدَم الذي فتح لي باباً؛ لأدخل صالوناً بديعاً، وخالياً تماماً. وإذ رحتُ أذرع الصالون من هذا الطرف إلى ذاك، لمحتُ ردهة جانبية، تحوي مائدة مُعدّة لاستقبال نحو أربعين ضيفاً، وهي مائدة فخمة، تضاهي الأبّهة في كل أرجاء القصر. دخل الصالة قسّ دنيوي: لم يسأل قطّ مَنْ أكون، ولا من أين أتيتُ، بل اعتبر وجودي حقيقة مفروغاً منها، وبدأ يحاورني في أدب جمّ.

انفتح باب مزدوج؛ ليفسح الطريق لدخول رجل مُسنّ، ثمّ انغلق وراءه في الحال. تقدّم القسّ للُقياه، فحذوتُ حذوه. حيّيناه بكلمات قليلة مهذّبة، ردّ عليها بصوت متلعثم متحشّرج، لم أتبيّن منه شيئاً. لعلّه كان يلهج بلغة الهوتينتوت(*). ولمّا اتخذ موقعه قريباً من المدفأة، عاد القسّ أدراجه، فحذوتُ حذوه. ودخل الآن راهب بنيديكتي(**) مهيب، صحبة أخيه الأصغر. تقدّم هو الآخر لإلقاء التحية على مضيفنا، ليتلقّى نصيبه من الكلمات الغريبة المتحشرجة، وينسحب للانضمام إلينا قريباً من النافذة. إن أعضاء الرهبانيات الدينية، وبخاصة ذوي الأناقة البالغة منهم، يتمتعون بأفضلية كبيرة في المجتمع، فعاداتهم، التي تشي بالتواضع والزهد، تضفي عليهم وقاراً مهيباً. وبمقدورهم أن يبدوا مذعنين من دون امتهان، أما حين يشمخون بكامل قاماتهم؛ ستجدهم يترعون بقدر من الرضى عن النفس لن يطاق في أية مهنة أخرى، إلا أنه يناسبهم تماماً. كان الراهب البنيديكتي من هذا الطراز. سألتُه عن مونتي كاسينو، فدعاني إلى زيارتها، ووعدني بأحرّ استقبال. في غضون ذلك، وفد الكثير من الضبّاط ورجالات البلاط، والقسس الدنيويين، وبعض القسس الكبوتشيين، فامتلأت الصالة بحشد كبير.

---

*) لغة جنوب افريقيا.

**) راهب من أتباع القدّيس بنيديكت.

جلتُ بنظري بحثاً عن السيدة دون جدوى. أخيراً انفتح الباب المزدوج على مصراعيه، وانغلق من جديد، فدخلت سيدة، بدت أكبر سناً من ربّة القصر. أقنعني حضور سيدة القصر. وهذا ما ظننتُها. أنني جئتُ إلى عنوان مغلوط، وأنني غريب عن أصحاب هذا القصر.

أعلن الخَدَم عن التوجّه إلى المائدة، فبقيتُ لصيقاً برجال الكَهَنُوت، آملاً أن أتسلّل معهما إلى فردوس صالة الطعام. في هذه اللحظة بالذات، دخل فيلانجيري وعقيلته مسرعين، ومعتذرين عن التأخّر؛ وبعد لحظة أخرى، جاءت الأميرة الصغيرة مسرعة إلى الصالون، وهي تبدي ضروب المجاملة في إلقاء التحايا، والانحناء، والإيماء، إلى الضيوف، وهي تمرّ بهم خفافاً، ثمّ توجّهتْ إليّ مباشرة. وهتفتْ "ما ألطف أن تفي بوعدك! تعال، واجلس جواري إلى المائدة؛ لتحصل على أشهى الطعام والأخبار. ولكنْ؛ انتظر لحظة! يجب أن أجد مكاني أولاً، ثمّ عليك أن تقتعد الكرسي المجاور في الحال." أطعتُها صاغراً، ومضيتُ وراءها في خط سيرها الملتوي، حتّى بلغنا أخيراً مكان جلوسنا. جلس الرهبان البنديكتيون قبالتي تماماً، وأما آل فلانجيري؛ فعن يميني. قالت الأميرة: "الطعام رائع، كل ما يلائم الصوم يُؤكَل، إلا الصفوة. سأقول لك ما هي ألذّ الأطباق. ولكنْ؛ دعني أولاً أذل أصدقاءنا الغالين من الكَهَنُوت. فأنا لا أستطيع أن أتحمّلهم. إنهم جميعاً أوغاد. فكلّما جاؤوا إلى المنزل انسلّوا ببعض الطعام. ما عندنا هنا، ينبغي أن نأكله مع أصدقائنا."

جيء بأطباق الحساء، وكان الراهب البنيدكيتي يتناول هذا الحساء في لباقة. هتفت به الأميرة في مرح "لا داعي للخجل، أيها المحترم! هل ملعقتكَ أصغر ممّا يجب؟ يجب أن نطلب ملعقة أكبر! لابد أنكم - أيها السادة - معتادون على تناول لقم كبيرة ملء الفم." أجاب الأبُ الكَنَسي

أن كل ما في هذا المنزل الأميري على أحسن وجه؛ بحيث إن الضيوف الذين اعتادوا على وسائل راحة أكبر بكثير ممّا اعتاد هو عليه راضون ومكتفون تماماً.

لمّا جيء بقطع الكعك الصغيرة المحشوّة بالمربى، أخذ الأب واحدة فقط. فهتفتْ قائلة، لِمِ لم يأخذ نصف دزّينة منها؟ مؤكّد أنه يعرف أن عجين الكعك المنفوخ سهل على الأحشاء. أخذ الرجل المتعقّل كعكة أخرى، وشكرها على لطف رعايتها، متظاهراً أنه لم يسمع نكتتها السمجة.

وجيء بقطع كبيرة من الفطائر، فواتتْها فرصة أخرى لصبّ الأذى الماكر: "خذ فطيرة ثالثة، أيها الأب! فأنت تبدو مصمّماً على بناء أساس متين." فأجاب القسّ "حين تتوفّر مثل هذه المواد البديعة، فإن للبناء متّسع من الوقت." وهكذا مضت في الإساءة تلو الأخرى، دون أن تتوقّف إلا لحظة؛ لتعينني على اختيار أشهى القواقع. في غضون ذلك، انصرفتُ للحديث مع جاري في مواضيع جادّة. الواقع أنني لم أسمع من آل فيلانجيري أية أقوال مبتذلة. وإن فيلانجيري، من هذه الناحية، يشبه صديقي جيورج شلوسر[*]، باستثناء فارق واحد أن فيلانجيري رجل من نابولي، ورجل واسع الخبرة بالحياة، ويمتاز بطبع ألين، وأيسر على العشرة.

لم تكفّ السيدة الشرّيرة الجالسة على يساري عن إيذاء القسس لحظة واحدة طوال العشاء. خلال فترة الصوم الكبير يُطبخ السمك في أشكال تجعله يبدو مثل اللحم، وقد قدّم لها ذلك فرصاً لا تنضب للإدلاء بتعليقات خشنة، مزدرية. وراحت تلعب على الكلمات والتعابير مثل "اللحم المفضّل" و"تفضيل اللحم"، قائلة إن على المرء أن ينعم بالمظهر في الأقل، حتّى لو كان الجوهر محرّماً. وسمعتها تُطلق نكات أخريات من

---

*) ي. ج شلوسر، محام معروف، ونسيب غوته.

الصنف ذاته، لكني لا أملك الجرأة الكافية لإيرادها. إن بعض الأقوال يبدو مقبولاً حين يتردّد في الكلام، وبخاصة على شفتي امرأة جميلة، لكن تدوين ذلك بالأبيض والأسود على الورق يبدّد رونقه، عندي. إن الإشارة الفاحشة غريبة حقاً، فهي مُسلّية لحظة وقوعها؛ لأنها تفاجئ المرء، لكنها تبدو بذيئة مسيئة عند تكرارها لاحقاً.

جيء بأطباق الحلوى، وخشيتُ أن تواصل مزاحها، غير أنها التفتتْ إليّ، على حين غرّة، وقالت في مزاج رائق: "سيكرع القسس الأعزاء نبيذهم السيراكيوزي في سلام. لم أفلح حتّى الآن في إزهاق روح أحدهم بالمنغّصات، أو حتّى إفساد شهيته. ولكنْ؛ دعنا الآن نخوض في أمور متعقّلة. ما الذي كنتَ تتحدّث فيه مع فيلانجيري بكل جدّ؟ هذا الرجل الطّيّب يثير قلقي. وأقول له دوماً: إن وضعتَ شرائع جديدة، فإننا سنتجشّم عناء ابتكار الوسائل والأساليب لخرقها، ونحن نعرف أصلاً كيف نتجاوز القديم منها. ألا ترى ما أروع مدينة نابولي؟! وكيف يعيش الناس فيها منذ القديم راضين، قانعين بدون هَمّ!. وبالطبع يحصل بين الحين والآخر أن يُشنَق واحد، لكن الحياة تسير سيرها المعتاد عند الباقين."

بعد ذلك، دعتْني أن أمضي للبقاء في ضيعتها الكبيرة في سورينتو؛ وإن وكيلها هناك سيقدّم لي أشهى الأسماك، وألذّ المونجانا mungana؛ أي لحم العجول الرضيعة. وإن هواء الجبل والمنظر الفردوسي سوف يشفياني سريعاً من كل فلسفة؛ بعد ذلك، ستأتي بنفسها، وبعدئذ ستزول عني كل التجاعيد. ليس عندي، في عمري هذا، أية تجاعيد بعد. ولن يبقى منها أثر، وعندئذ سنحيا معاً حياة سعيدة هانئة.

١٣ آذار (مارس)

سأكتب اليوم بضعة كلمات أُخر، وأبعث الرسالة في إثر الرسالة. أنا

بخير، ولكني لا أشاهد إلا القليل من الأشياء. إن هذا المكان يورث الوهن والتراخي، والعيش الرغد. رغم ذلك، تجدني أجمّع أجزاء صورة المدينة، قطعة قطعة.

عدنا ثانية إلى بومبي يوم الأحد. لقد شهد العالم ما لا يُحصى من الكوارث، لكن قلّة منها تركت للذرية والأخلاف هذا القدر الكبير من البهجة؛ كما أني لم أر شيئاً مثيراً مثل هذا. إن بوّابة المدينة وطريق الأضرحة خارقان للعادة. هناك ضريح لكاهنة معمول على هيئة أريكة نصف دائرية، وقد حُفرت على شاهدته الخلفية أحرف كبيرة لاسمها. ولمّا تجاوزتُه ببصري، رأيتُ الشمس الغاربة في البحر.

التقينا زمرة من النابوليين، الذي كانوا منطلقين على سجيتهم بقلب خلي، على أكثر ما يمكن للمرء أن يكون خلي القلب، وتناولنا جميعاً الطعام في توري ديل أنونزياتا. رُصفت موائدنا قرب ساحل البحر مطلّة على المشهد البهيج لكل من كاستلامار وسورينتو اللتين بدتا دانيتين. وهتف أحد النابوليين أن العيش لا يساوي شروى نقير من دون إطلالة على البحر. يكفيني، شخصياً، أنني أحمل هذه الصورة في ذاكرتي، ولسوف أعود سعيداً إلى الجبال حين يأزف الموعد.

ما أكبر حظّنا في أن تتوفّر، هنا، على رسّام مناظر طبيعية بالغ الدقّة، يلتقط أجواء هذه الأنحاء الثرّة الطلقة في رسوماته. لقد أنجز بعض الأعمال خصّيصاً لي.

درستُ عيّنات حمم بركان فيزوف بعناية بالغة؛ إن الأشياء تتجلّى في صورة مغايرة إن شُوهدت في ترابطها. لو قُيّض لي، كما ينبغي لي حقاً، أن أتفرّغ في ما بقي من حياتي لمراقبة الأشياء ودراستها، لاكتشفتُ أشياء، توسع المعرفة البشرية.

الرجاء أن تُبلغوا هيردر أن تأمّلاتي في علم النبات تستحوذ عليّ بقوّة أكبر، وتجرفني بعيداً. إن فرضيّتي الأساسية ما تزال على حالها، لكن صياغة التفاصيل قد تتطلّب حياة كاملة. ولعلّني سأقدر يوماً على بلورة خطوطها العامة.

أتطلّع الآن إلى رؤية متحف بورتيشي. ويُعدّ هذا المتحف أول مكان، تنبغي زيارته، بنظر الكثيرين، أما بالنسبة لنا؛ فسيكون الأخير. لا أعرف حتّى الآن إلى أين سأمضي في الخطوة اللاحقة؛ الكل يريد عودتي إلى روما في عيد الفصح. لننتظر، ونر.

تنهمك إنجيليكا في رسم مشهد من مسرحيتي إفيجيني. إن فكرة اللوحة مفرحة، ولسوف تنفّذها بإتقان. اختارت إنجيليكا منعطفاً هاماً في أحداث المسرحية، تلك اللحظة التي يصحو فيها أوريستيس من إغماءته؛ ليجد نفسه في حضور شقيقته وصديقها. لقد حوّلت الحوار الذي يدور على ألسن الشخصيات الثلاث، الواحد تلو الآخر، إلى إيماءات وحركات متزامنة. ويعبّر ذلك عن رهافة إحساسها، وقدرتها على ترجمة الحياة بوسائلها الفنية الخاصة.

وداعاً، وليبقَ حبّكم لي عامراً! الكل هنا يُحسن معاملتي في عطف، رغم أنهم لا يعرفون ما يدور في خلدي. إنهم يجدون تيشباين أنسب لمزاجهم. وقد رسم تيشباين هذا المساء، بعيد العشاء، رؤوساً بحجم طبيعي، استقبلوها بهياج استقبال النيوزيلانديين لأول محارب عندهم. يتمتّع تيشباين بموهبة كبيرة في التخطيط بالقلم والحبر، ليرسم أشكالاً، تشبه آلهة الإغريق وأبطالهم، بحجم طبيعي، أو أكبر من ذلك. وتراه يضعهم على الورق بضربات قليلة؛ ليضيف - بعد ذلك - الظلال بفرشاة عريضة حتّى تبرز الرؤوس مثل النحوت الناتئة. ذُهلت الجماعة الإيطالية على السهولة التي فعل بها ذلك، وعبّرت عن حماستها له، واغتباطها به. ثمّ

أخذت أصابعهم تتحرّق للتجريب ذلك بأنفسهم. فالتقطوا الفرش، وبدؤوا يرسمون اللحى على وجوه بعضهم البعض.

وقع ذلك في وسط مثقّف، وفي بيت رجل، هو نفسه رسّام أصيل وواضع تصاميم. ألا يدلّ هذا النوع من السلوك على وجود أثر بدائي معيّن في الجنس البشري؟!

كاسيرتا، ١٤ آذار (مارس)

زرتُ هاكرت في شقّته في القلعة القديمة؛ حيث يسكن في مكان، يخلو من الراحة، ولا يتوفّر إلا بالكاد على فسحة لاستقبال الضيوف. إن القلعة الجديدة كناية عن قصر، يليق بملك؛ فهي مبنى ضخم رباعي الأضلاع، يشبه الأسكوريال (*)(Escorial) مع عدد من الفناءات الداخلية. وإن موقع القلعة فائق الجمال؛ إذ تطلّ على واحد من أخصب السهول في العالم، ولها منتزه، ينتهي عند سفوح الجبال. وتنطلق من هذه الجبال قناة علوية، تحمل سيلاً من الماء لتزويد القلعة، وسقاية الريف المجاور. ويمكن إطلاق الماء؛ لكي يتدفّق عبر صخور، رُتّبت بشكل اصطناعي في هيئة شلالات صغيرة. وإن تنسيق الحدائق بديع، ومنسجم تماماً مع خصائص منطقة، هي ذاتها جنينة من الجنائن.

ورغم أن القلعة تبدو ذات فخامة مُلُوكية، إلا أنها خالية من الحياة، ولا يمكن للناس من أمثالي أن يشعروا بالارتياح في مثل هذه الغرف الكبيرة الخاوية. ولعلّ هذا الإحساس نفسه ينتاب الملك أيضاً؛ لأنه أنشأ دارة في الجبال ذات مقياس أصغر، يناسب أبعاد الإنسان، وذات موقع أنسب للقنص، واللذائذ الأخرى في الحياة.

---

*) مجمع معماري شمال غرب مدريد، هو عبارة عن قصر ودير شيّدا في القرن السادس عشر، ويضمّ مكتبة بالاسم نفسه.

١٥ آذار (مارس)

رغم انشغال هاكرت الدائم في التخطيط والرسم، فهو محبّ للرفقة مع الغير، وقد حُبي بموهبة اجتذاب الناس، وتحويلهم إلى تلامذة. ولقد كسبني أنا أيضاً على هذا الغرار، بفضل صبره على مواطن ضعفي، وتوكيده لي على الأهمّيّة الفائقة للدقة في الرسم، والمقاربة الواثقة، الصاحية للموضوع. وحين يرسم، يُهيّئ ثلاثة أنماط من الألوان المتدرّجة جاهزة في متناول اليد. وبعد أن يستخدمها الواحد إثر الآخر، يبدأ بالخلفية، وينتهي أخيراً بمقدّمة اللوحة، وهكذا لا يعلم المرء من أين تنبجس الصورة. آه، لو كان ذلك يسيراً على الفعل مثلما يلوح! وقال لي بصراحته المعهودة: "عندك الموهبة، لكنك لا تعرف كيف تستخدمها. ابقَ معي ثمانية عشر شهراً، ولسوف تنتج لوحات، تسّرك، وتسرّ الآخرين." ألا تؤلّف هذه الأقوال موعظة ثابتة، لا يكفّ عن قولها لكل هواة الفن؟! بقي أن ننتظر لنر أي ثمر تعدني به هذه الموعظة.

ولا يكتفي هاكرت بإعطاء الأميرة دروساً في الرسم فحسب، بل إنهم يطلبونه في المساء لإلقاء محاضرات في الفن، وغير ذلك من مواضيع ذات صلة، ممّا يدّل على الثقة الخاصة التي توليه إياها الملكة. ويستخدم هاكرت في أحاديثه قاموس سولزر بمثابة كتاب تعليم، فيختار منه مقاطع أثيرة عنده، أو مقنعة له.

ما كان يسعني إلا أن أبدي رضاي عنه، ولكنْ؛ ما كان يسعني أيضاً إلا أن أبتسم على حالي، في الوقت ذاته. فما أكبر الفرق بين إنسان يرغب في أن يبني حياته من الداخل، وآخر يرغب في التأثير على العالم وتعليم الآخرين لأغراض محلّيّة. لقد كرهتُ دوماً نظرية سولزر، لأن مبادئها الأساسية باطلة، لكني أدرك الآن أن كتابه هذا يحوي الكثير ممّا يحتاج الناس إلى معرفته.

فالكثير من قطع المعلومات التي يقدّمها، وطريقة التفكير التي ترضي سولزر القيّم، تجعل كتابه جيداً بما فيه الكفاية لأناس المجتمع الراقي.

قضينا ساعات ممتعة مع أندريس، مرمّم اللوحات القديمة، الذي جيء به من روما، وهو يعيش أيضاً في القلعة القديمة. ويبدي الملك اهتماماً كبيراً بعمل هذا الرجل. لن أحاول وصف براعته الفريدة في عمله؛ لأن عليّ أن أبدأ بتضخيم صعوبات مهمّته، وما تتطلّبه من عمل هائل للوصول إلى حلول ناجحة.

١٦ آذار (مارس)

وصلتْني رسالتكم الترحيبية المؤرّخة في ١٩ شباط (فبراير) هذا اليوم، ولسوف أجيب عنها فوراً. إنني أشعر بالسعادة دوماً لحظة أن أثوب إلى رشدي عند التفكير في أصدقائي.

إن نابولي هي الجنّة بعينها؛ وكل امرئ فيها يعيش في خدر نسيان الذات المنتشي، وهذا ينطبق عليّ أيضاً؛ إذ أبدو بنظري إنساناً آخر مختلفاً، لا أكاد أتعرّف عليه، بالأمس قلتُ لنفسي: إما أنك كنتُ ممسوساً من قبل، أو إنك على مسّ من الجنون الآن.

انطلقتُ من هنا لرؤية بقايا مدينة كابوا التاريخية، وجوارها. لا يسع المرء أن يفهم معنى الزرع والنباتات حقاً إلا في مناطق مثل هذه، دفعت الإنسان إلى اختراع فنّ الغرس والزرع. إن نبات الكتان مزهر منذ الآن، وسيقان القمح طويلة حقاً. إن الريف المحيط بكاسيرتا منبسط تماماً، والحقول تُحرث حرثاً حتّى تصير ناعمة مرتّبة، كما لو كانت جنينة مزوّقة. وتزدان الحقول بأشجار الحور، التي تستظلّ بها الكروم، ورغم ظلال الحور القاتمة، فإن التربة الواقعة أسفلها تُثمر خير المحاصيل. ترى كيف ستبدو

هذه الحقول حين يتجلّى الربيع في أبهى صوره؟! ورغم لطف الشمس المشرقة، فإن الريح ما تزال حتّى الآن باردة، وما يزال الثلج على الجبال.

يتعيّن عليّ أن أحزم أمري خلال الأسبوعين القادمين بصدد الذهاب إلى صقلية، سلباً أو إيجاباً. لم يسبق لي قط أن شعرتُ بأنني مبهض إلى هذا الحدّ بمشاعر متصارعة، كما هو حالي الآن، وأنا أقلّب القرار. فيوماً يحصل ما يدفعني لترجيح القرار لصالح الرحلة، ويوماً تطرأ ظروف، تدفعني إلى معارضته. ثمّة روحان تتصارعان للظفر بي.

والآن سأحكي لأصدقائي شيئاً عن الجنس اللطيف، على أن يكون ذلك سرّاً بيننا. فلا تنبسوا بكلمة لأيّ كائن! إنني مدرك تماماً أن مسرحيتي "إفجيني" لقيت استقبالاً غريباً. لقد اعتاد الجميع على الصيغة الأصلية، وقد حفظ البعض كثرة من المقاطع عن ظهر قلب، عن طريق الاستماع إلى النص أو مطالعته المتكرّرة. أما الآن؛ فإن النص يبدو مغايراً، وإنني لأدرك بما فيه الكفاية، أن لا أحد يحبّذ، في قرارة ذاته، تلك الآلام المتّصلة التي زرعتُها في المسرحية. إن عملاً كهذا لا يكتمل أبداً؛ وإن المرء يقول إنه اكتمل وأُنجز، لمجرّد أن هذا المرء قد بذل فيه كل ما يقدر عليه في زمان وظروف الكتابة.

لكن ذلك لن يثني عزمي عن محاولة القيام بجراحة مماثلة على مسرحية: تاسو. أشعر أحياناً أنني كمَن يرميها إلى النار، لكني سأبقى على قراري، وأعتزم، إن جرت الأمور مجراها المطلوب، أن أجعلها مسرحية خارقة غير مألوفة. وإذنْ؛ أشعر حقاً بالسعادة؛ لأن طباعة كتاباتي تجري على نول بطيء. من جهة أخرى، أجد أن من المفيد لي أن أستشعر الخطر البعيد القادم من منضّد الحروف. ما أغرب أن ترى أن الأشياء التي أعكف عليها بدافع الحبّ وحده، تنتفع من منابع ضغط خارجي.

في روما، كنتُ أحبّ أن أدرس، أما هنا؛ فأحبّ أن أحبّ، وأنسى نفسي، وأنسى العالم؛ وإنها لتجربة غريبة لي أن أعيش في مجتمع لا يعمل فيه كل فرد إلا على اغتراف اللذّة لنفسه. فالسفير الإنجليزي هنا، السير ويليام هاملتون، الذي كرّس سنوات عديدة لدراسة الفن والطبيعة، وجد ذروة هذه المباهج في إهاب فتاة إنجليزية في العشرين من عمرها، شابّة مليحة الوجه رشيقة القوام. وقد أمر لها برداء إغريقي الطراز، يناسب فتنتها. وحين ترتدي هذا الزي الإغريقي، تترك خصال شعرها مرسلة، وتتسربل بعدد من الشالات، ممّا يضفي التنوّع على وقفاتها وحركاتها وسَكَنَاتها، وتعابيرها، فلا يكاد الناظر أن يصدّق عينيه. ويرى الناظر أن ما يطمح آلاف الفنانين إلى التعبير عنه إنما يتجسّد أمام ناظريه في إيماءات وحركات مذهلة. وقوفاً، وركوعاً، وجلوساً، واسترخاء، وحزناً شفيفاً، ولهواً عابثاً، ونشوة غامرة، وايماءة إغواء، وعيد منذر، أو توق كبير، في وقفة تلو الأخرى، دون انقطاع. وهي تُتقن طيّ النقاب، أو سدله، وفقاً لكل إيماءة أو مزاج، ولها مائة طريقة وطريقة في تحويل النقاب إلى غطاء رأس. وإن الفارس المُسنّ يعبدها عبادة، متحمّساً لكل ما تفعل. لقد وجد فيها كل جمال العصور القديمة، وكل الرسومات الجانبية المضروبة على عملات صقلية، وكل الرسوم في أبوللو بيلفيدري. والخلاصة الجازمة: أن عرضها بلا نظير ممّا رأيتُموه في حياتكم. لقد تمتّعنا بذلك على مدى أمسيتين. ويعكف تيشباين، في هذا الصباح، على رسم بورتريه لهذه الشابّة.

إن كل ما قيل لي (أو تعلّمتُه بنفسي بإجراء الحساب اللازم) عن شخصيات وأوضاع البلاط ينبغي أن يُصنَّف الآن، ويُدقَّق. توجّه الملك اليوم في رحلة صيد للذئاب، وهم يتوقّعون الفتك بخمسة منها، في الأقلّ.

نابولي ١٧ آذار (مارس)

كلّما أوشكتُ أن أدوّن كلمات، أطلّتْ صور بصرية على ذهني، صور ريف مثمر، وبحر مفتوح، وجزر ملفّعة بضباب الأفق، وجبل ينفث الدخان، وما شاكل، وأجدني مفتقراً إلى الجهاز الذهني القادر على وصف هذه الصور.

تتولّى الأرض هنا إنتاج كل شيء؛ ويمكن للمرء أن يتوقّع لها أن تدرّ المحاصيل على ثلاثة أو خمسة مواسم. وقيل لي إن محصول الذرة يمكن أن يُزرع ثلاث مرّات في السنوات الحسنة.

رأيتُ الكثير، وفكّرتُ فيما هو أكثر. إن العالم ينفتح على مصراعيه أمامي، وكل ما سبق لي أن عرفتُه ذهنياً، يغدو الآن جزءاً من كياني. أيّ كائن هو الإنسان، في التبكير بالتعلّم، والتأخير في الممارسة!

الأمر المؤسف الوحيد، حتّى اللحظة، أني لا أجد من أشاطره أفكاري. صحيح أن تيشباين في صحبتي، لكن عقله، بوصفه إنساناً كما بوصفه فناناً، أشبه بكرة مضرب في انقذافها الدائم، وانشغالها بألف فكرة؛ زد على هذا أن كثرة من الناس تطرق بابه، وتأخذ نصيبها من وقت فراغه. وأجده يمثّل حالة فريدة: رجل لا يستطيع أن يهتم تلقائياً بوجود أي كائن آخر؛ لأنه يشعر أن جهوده الخاصة محبطة.

لا ريب أن العالم لا يزيد عن عجلة بسيطة، تبعد كل نقطة من النقاط الواقعة على محيطها على مسافة متساوية من المركز. وهي تبدو غريبة لنا، لمجرّد أننا - بالذات - ندور معها.

لقد تأكّد لي ما قلتُه مراراً. هناك ظواهر طبيعية معيّنة، وأفكار مشوّشة معيّنة، لا يمكن أن تُفهَم أو تُعاد إلى نصابها إلا في هذا البلد.

أما بالنسبة لرحلتي البَحْريّة إلى صقلية؛ فإن الآلهة ما تزال تمسك بالموازين بين يديها. والأبرة الصغيرة ما تزال تتقلّب يميناً وشمالاً.

من عساه يكون هذا الصديق الذي أخبرتُ عن مجيئه في تلغيز مبهم؟ آمل ألا يفوتني اللقاء به بسبب من جولاتي المحمومة، أو بسبب من الرحلة المقترحة إلى الجزيرة.

عادت الفرقاطة من باليرمو. ولسوف تُبحر ثانية بعد أسبوع من اليوم. لا أعرف حتّى اللحظة إن كنتُ سأبحر على متنها، أم أعود إلى روما، في فترة الأسبوع المقدّس. ما شعرتُ في حياتي قط بمثل هذا اللاقرار. لعلّ لحظة واحدة، أو هنيهة عابرة، تقلب الموازين.

أخذتُ أنسجم مع الآخرين بصورة أفضل. المهمّ هنا أن نتذكّر دوماً أن نزن هؤلاء بميزان البقّال، لا بميزان الحدّاد؛ لأن الأصدقاء في أحوالهم المتقلّبة، بين وساوس المرض، أو الأمزجة الحادّة، ميّالون إلى ذلك، ويا للأسف، ميلاً مفرطاً إزاء بعضهم البعض.

أما هنا؛ فإن الناس لا يعرفون أي شيء عن بعضهم البعض. فكل واحد فيهم يمضي في سبيله هنا أو هناك، ونادراً ما يراقب جيرانه. وتجدهم يُسرعون طوال النهار، جيئة وذهاباً، في فردوسهم هذا، من دون أن يجيلوا الطرف كثيراً فيما حولهم، وحين يفغر الجحيم القريب فاه؛ لينفث الحمم، فإنهم يلوذون بدم القدّيس جانواريوس. والحق أن الناس في بقية أرجاء العالم، في صراعهم مع الموت والشرّ، يلجؤون إلى هذا الدم، أو أنهم سيلجؤون إليهم، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

إنها لتجربة فريدة رائعة، أن يشقّ المرء طريقه وسط حشد هائل دائب الحركة. فالكل يتكثّف في تيار هائل، مع هذا، يتدبّر كل فرد أن يجد سبيله

إلى غايته. وإنني لأشعر، وسط هذه الكثرة من البشر ووسط هذه الحركة المدوّمة، بالسكينة والوحدة لأول مرّة. وكلّما علا هدير الشوارع، زادت السكينة في نفسي.

أفكّر أحياناً في دفق وساوس جان جاك روسو الشاكية من عذابه. أستطيع أن أتفهّم تماماً كيف يمكن لعقل مرهف التنظيم مثل عقله، أن يقع فريسة الخَبَل. ولولا اهتمامي بموجودات الطبيعة، أو رؤيتي لوجود سبل عدّة لتنسيق ومقارنة مئات الملاحظات المتضاربة ظاهرياً. مثلما يدقّق المسّاح قياسات متباينة، بواسطة خط مستقيم واحد. لاعتقدتُ أن بي مسّاً من الجنون أنا أيضاً.

١٨ آذار (مارس)

لم يعد بوسعنا إرجاء الذهاب لرؤية مدينة هرقل ومتحف بورتيتشي، وما يحويانه من محتفرات آثارية. تقع مدينة هرقل عند قاع جبل فيزوف، وقد دُفنت بأكملها بدثار من حمم البركان، ازدادت سمكاً بالمقذوفات الجديدة لسنوات؛ بحيث باتت المدينة القديمة الآن أدنى من سطح الأرض بنحو ستّين قَدَماً. اكتُشفت المدينة مصادفة في أثناء حفر بئر؛ إذ عثر أحد الحفّارين على أرضية مبلّطة بالرخام. ومن المؤسف ألف مرّة أن هذا الموقع لم يُحفر حفراً منهجياً على يد عمّال مناجم ألمان، بل جرى الحفر بشكل عابر، ونُهبت الموجودات نهباً، كما لو على يد قطّاع طُرُق، فضاعت أو تلفت كثرة من المنتجات النبيلة التي أبدعها القدماء.

نزلنا سلّماً مؤلّفاً من نحو ستّين درجة وصولاً إلى سرداب، فبلغنا موقع مسرح في الهواء الطلق، عاينّاه معجبين على ضوء مشعل. وأخبرنا حرّاس الموقع عن أشياء، عُثر عليها في الأطلال، وأُخرجت إلى ضوء النهار.

حملنا رسائل توصية حَسَنَة إلى القائمين على المتحف، فأحسنوا استقبالنا، إلا أنهم لم يأذنوا لنا برسم أي شيء. ولعل هذا ما دفعنا إلى تدقيق الانتباه بما نرى، والتحليق في الماضي، يوم كانت كل هذه الآثار جزءاً لا يُجتزأ من الحياة اليومية لأصحابها. لقد غيّرت هذه الأشياء صورة بومبي في ذهني.وأضحت بيوت بومبي، وأنا أراها بعين الخيال، تبدو أشدّ ازدحاماً وأرحب مساحة. أشدّ ازدحاماً؛ لأن هذه الأشياء لم تُصنع لمجرّد الاستعمال، بل استُخدمت للزينة، فهي مصنوعة بأسلوب فني رشيق، يوسّع العقل، وينعشه على نحو تعجز عن تحقيقه المساحة المادّية الصرف لأكبر الحجرات.

هناك، على سبيل المثال، جرّة بديعة ذات حافة مزخرفة زخرفة بديعة، ولدى تدقيق النظر عن كثب، اتضح أن ذلك هو بالأحرى مقبضان شبه دائريين، لرفع الجرّة، وحملها بيُسر. وأما المصابيح؛ فمزيّنة بالأقنعة، أو بنقوش على شكل أوراق وأزاهير، قدر ما هي مزوّدة بذبالة تنوس؛ لتضيء شتّى ضروب أعمال الفن. وهناك دكّات برونزية نحيفة، قُصد بها أن تكون قاعدة للمصابيح. أما المصابيح المتدلّية من السقف؛ فمعلّقة بشتّى أنواع المنحوتات المزخرفة بمهارة، والتي تُبهر الناظر، وتُمتّعه، حين تتدلّى، وتتأرجح.

تبعنا سادن الآثار من قاعة إلى أخرى، محاولين التمتّع والتعلّم قدر المستطاع في فسحة الوقت القليلة الباقية. نأمل أن نعود ثانية.

١٩ آذار (مارس)

عقدتُ في غضون الأيام القليلة الماضية علاقات جديدة وحميمة. لقد كان تيشباين وما يزال صديقاً وفياً نافعاً في كل جولاتي في ممالك الطبيعة والفن. وحين كنا في زيارة بورتيشي بالأمس، تحادثنا كثيراً، وتوصّلنا

معاً إلى الاستنتاج بأن مستقبله الفني، وواجباته في البلاط وفي المدينة، التي قد تفضي به إلى نيل وظيفة دائمة في نابولي، لا تتّفق مع خططي واهتماماتي الخاصة. وعلى عادته في تقديم العون دوماً، اقترح عليّ أن أتخذ رفيق جولات لي من شاب رأيتُه كثيراً منذ وصولنا، ولكنْ؛ ليس من غير اهتمام أوعطف.

يُدعى هذا الشاب كنيب. لقد عاش ردحاً من الزمن في روما، ثمّ قصد نابولي، المكان الأمثل لرسم المناظر الطبيعية. وسبق لي أن سمعتُ في روما أن براعته في الرسم مثيرة للإعجاب، رغم أن هذا الثناء لا يسري على استعداده للعمل. والآن، بعد أن تعرّفتُ إليه عن كثب، أظن أن هذه المثلبة التي يُلام عليها ترجع في الواقع إلى افتقاد الثقة بالنفس الذي يمكن، بلا ريب، التغلّب عليه، لو قضينا بعض الوقت معاً. وتأكيداً لهذا الاستخلاص، فقد بدأ بداية حسنة سَلَفَاً، وإذا ما سارت الأمور مثلما أتمنّى، فإننا سنكون رفاق سفر ممتازين لوقت طويل نوعاً ما.

١٩ آذار (مارس)

ما على المرء إلا أن يسير في الشوارع، ويفتح عينيه جيداً؛ لكي يرى أكثر الصور فذاذة.

صادفتُ بالأمس في حي مولو، وهو أشدّ أحياء المدينة صخباً، مسرحاً خشبياً، يتعارك فيه مهرج (بولسينيلا. بالإيطالية) مع قرد. وهناك شرفة في الأعلى، تطلّ منها فتاة جميلة، تعرض مفاتنها للجميع. وهناك جوار مسرح القرد مشعوذ، يعرض على جمهور ساذج ترياقاً شافياً من كل علّة. لو عنّ للرسّام جيرار داو أن يرسم هذا المشهد بريشته؛ لفُتن بها أبناء جيلنا والأخلاف.

اليوم هو عيد القدّيس سانت جوزيف، راعي ما يسمّيه الطليان فريتارولي؛ أي الفطائر (بالإيطالية)، وأنا أستخدم تعبير "الفطائر" بمعناها الفضفاض. ولمّا كان الزيت الأسود المغلي الذي يستخدمونه لقلي الفطائر، ينزّ، ويطلق ألسنة من اللهب، فإن كل العذابات الحارقة تُنسب إلى منابع غامضة. بالأمس راحوا يزيّنون واجهات منازلهم برسومات، تليق بالمناسبة: أرواح في المطهر أو يوم الحساب، تحترق من كل صوب. وتقبع عند عتبات البيوت أواني قلي ضخمة فوق مواقد، نُصبت في عجالة. ثمّة صبي متمرّن، يعجن العجين، وآخر يكوّره في شكل فطيرة، ويُلقي به إلى الزيت المغلي. وثمّة ثالث، يقف عند المقلاة؛ ليلتقط الفطائر الناضجة بملقط صغير، ويناولها إلى شغيل رابع بملقط كبير، يناول الفطيرة إلى عابري السبيل المتحلّقين هناك. إن المتمرّن الثالث والرابع من هؤلاء الشغّيلة هما صبيان يافعان، يرتديان باروكة شقراء مجدولة الشعر، والتي تُعدّ من سمات الملائكة. وتكتمل زمرة العاملين بأشخاص آخرين يوزّعون النبيذ على القائمين بالقلي، أو يكرعونه هم أنفسهم، ويصيحون ترويجاً لمنتجاتهم. وأخذ الكل، من الملائكة إلى القائمين على القلي، إلى سواهم، يزعقون ملء حناجرهم. وقد اجتذبوا جمهوراً غفيراً؛ لأن سائر الفطائر، في هذه الليلة، تُباع بأسعار جدّ مخفّضة، كما أن جزءاً من الربح يُعطى حَسَنَة للفقراء.

يمكن للمرء أن يمضي إلى الأبد في وصف مشاهد مماثلة، تفوق بعضها البعض إبهاراً، ناهيك عن وصف التنوّع اللامتناهي في الأزياء أو جموع البشر، ممّا يمكن لك أن تراه في التوليدو وحده.

يمكن لك أن تصيب الكثير من ضروب التسلية الأصيلة، إن عشتَ بين ظهرانيهم، فهؤلاء الناس يتصرّفون على سجيّتهم وفطرتهم، إلى درجة، قد

تدفع المرء إلى أن يحذو حذوهم في التصرّف على الفطرة. خذ مثالاً على ذلك المهرّج (بولسينيلا)، الرجل ذا القناع المتوطّن في هذا البلد، إنه صفة ملازمة للبلد، ملازمة هارليكوين لبلدة بيرجامو، أو ملازمة هانزفورست لبلدة تيروك. إن المهرج خادم رابط الجأش مهمل بعض الشيء، وكسول على وجه التقريب، إلا أنه فَكِهٌ. وتستطيع أن تجد نادلين أو خدّام منزل على شاكلته، أينما شئتَ. وأصبنا قدراً كبيراً من الضحك والتسلية من خادمنا اليوم، رغم أن الأمر لا يزيد عن إرساله لشراء ورق وأقلام لي. ذلك أن مزيجاً من الالتباس، والتسويف، وحسن النية، والتخابث، خلق لنا مشهداً مضحكاً بديعاً، من شأنه أن يصيب النجاح على أي مسرح.

٢٠ آذار (مارس)

وردت أنباء عن وقوع انفجار بركاني جديد للتوّ، بعيداً عن أنظار نابولي؛ لأن الحمم تسيل في اتجاه أوتايانو، وقد أغواني النبأ بزيارة جديدة ثالثة، إلى فيزوف. ما إن وصلتُ قاع الجبل، ونزلتُ من عربتي الصغيرة ذات العجلتين والحصان الواحد، حتّى وجدتُ أمامي الدليلين اللذين جاءا معنا في آخر زيارة، فاستأجرتُهما معاً.

ولمّا بلغنا كوز البركان، بقي الدليل المُسنّ مع معاطفنا وزوّاداتنا، أما الدليل الشاب؛ فقد تبعني. مضينا في طريقنا بأقدام إلى غيمة الأبخرة الهائلة التي تنبعث من نقطة، تقع في منتصف فوهة البركان. ولمّا بلغنا الفوهة، رحنا ندور حول حافتها باحتراس. كانت السماء صافية، فرأينا - حال انقشاع غيوم الأبخرة - سيلَ الحمم.

كان عرض السيل نحو عشرة أقدام، لكن نزوله عبر المنحدر الخفيف كان مثيراً للعجب. فالحمم المتدفّقة تبرد على جانب السيل المتدفق؛ لتؤلّف نوعاً من قناة. ولكن الحمم في قاع القناة تبرد، فيرتفع قاع القناة

هذا باطّراد. وإذ تطفح، تروح تلفظ السائل الذائب من الجانبين. وعندئذ يتشكّل أخدود بارتفاعين، تواصل جداول الحمم اللاهبة تدفّقها الهادئ بينها بهدوء مثل غدير طاحونة. مضينا نمشي بموازاة كتف أخدود الحمم التي تجمّدت، بينما كان خبث البركان السائل الحارق، يمضي في الأخدود متدفّقاً إلى الأسفل. ويتقطع السيل أحياناً، فتظهر فجوات، نرى منها قاع الأخدود المتوهّج. ورأيناه مرّة أخرى من عل، حين مضى السيل نازلاً.

أدّى سطوع الشمس الباهر إلى إضعاف وهج الحمم، التي اكتفت بنفث القليل من الدخان في الهواء الصافي. تملّكتْني رغبة عارمة في الاقتراب قدر الإمكان من موضع انطلاق الحمم من الجبل. أكّد لي دليلي أن هذا الاقتراب آمن؛ لأن ما إن تنطلق الحمم حتّى يشكّل الدفق سقفاً من الحمم الباردة فوقه، وأنه سبق وأن استطاع الوقوف فوق هذا السقف المبرّد. وابتغاء تجربة ذلك، عدنا للصعود إلى أعلى الجبل لبلوغ الفوهة من الخلف. وحالفنا الحظ بهبوب نسيم، أزاح قسماً من الأبخرة من الجوّ، على الأقلّ، وبقيت نفثات من الأبخرة الساخنة تنبعث من آلاف التشقّقات والصدوع. بتنا الآن نقف على القشرة المتصلّبة للحمم، التي تهجع مُلتوية في أشكال لولبية، كأنه عصيدة لينة، إلا أنها كانت ناتئة، إلى حدّ، يمنع علينا رؤية الحمم السائلة لدى انبعاثها.

حاولنا أن نقطع نحو دزّينة من الخطوات حول الفوهة، إلا أن الأرض تحت أقدامنا ازدادت سخونة، بل حميت، وباتت كثافة الأبخرة المتصاعدة تحجب الشمس، وتخنق علينا الأنفاس. كان دليلي يسبقني في الخطو، فتوقّف، وعاد أدراجه؛ ليجرّني، فابتعدنا عن جحيم هذا المرجل.

رطّبْنا الحلقَ بالنبيذ، وكحّلْنا العينَ بالنظر إلى المشهد، ورحنا نجوب أنحاء أخرى من جبل البركان لمراقبة الخصائص الأخرى في قمّة الجحيم

هذه، والتي تشمخ وسط الفردوس. تفقّدتُ المزيد من المداخن البركانية، والتشكيلات الناتئة، من مادة الرواسب الكلسية المسمّاة: حُليمات. وبفضل عدم انتظام شكل المداخن البركانية، فإن بعض هذه الأنابيب النافثة للدخان كان قريباً في متناول اليد، واستطعنا أن نقتطع عيّنات منها باليد مباشرة، أو ببعض الكلابات. الواقع، سبق لي أن رأيتُ لدى باعة الحمم البركانية المتجمّدة نماذج منها معروضة للبيع، بوصفها حمماً بركانية حقيقية، لذا؛ شعرت بالسعادة للوصول إلى هذا الاكتشاف. فما هذه سوى سخام بركاني، يترسّب من الأبخرة الساخنة؛ وإن محتوياته المتكثّفة واضحة للعيان.

أسبغ الغروب البديع والمساء اللطيف البهجة على رحلة العودة. مع هذا أشعر بهول الارتباك الناجم عن اجتماع هذه المتناقضات: المهول إلى جانب الجميل، والجميل جوار الفظيع، فهما يلغيان أثر بعضهما البعض، ويولّدان إحساساً باللامبالاة. وإن إنسان نابولي سيكون مخلوقاً مختلفاً حقاً، إن لم يشعر أن ذاته محشورة بين مطرقتي الإله والشيطان.

٢٢ آذار (مارس)

لولا أن طباعي الألمانية، وميولي إلى الدراسة والممارسة بدل اللهو والعبث، هي التي تسوقني؛ لأطلتُ المكوث في هذه المدرسة طلباً للعيش الرضي الهين الهانئ، والتماس الفائدة منها. يمكن العيش عيشاً مريحاً هنياً في هذه المدينة اعتماداً على دخل متواضع. وإن موقعها ومناخها أكبر من أي ثناء؛ لكن هذا الموقع وهذا المناخ هما كل المنابع التي ينالها الأجنبي. بالطبع، يمكن لمن يتوفّر على الكفاية من الفراغ والمال والموهبة أن يستقرّ هنا، ويهنأ بحياة من الرخاء. وهذا ما فعله السير ويليام هاملتون في أيام كهولته الغاربة. إن غرف الفيلا التي يسكن، والتي زيّنها

بأثاث على الذوق الإنجليزي، بديعة، وإن المشهد الذي يراه المرء من الغرفة الركنية لفريد حقاً. فهي تطلّ على البحر، وتقع كابري قبالتها، أما جبل بوسيليبو؛ فعن يمينها، قريباً من منتزه فيلا ريالي، وأما مباني الجزويت القديمة؛ فعن يسارها، بينما يمتدّ في البعيد خط الساحل من سورينتو إلى كيب منيرفا. ولعلّ المرء لن يعثر على شبيه بهذا الموقع في طول أوربا وعرضها، ولا مراء في أنه لن يجد مثل هذا الموقع وسط مدينة كبيرة.

أما الآن؛ فإن الحوريات الساحرات(*) ينشدنَ من وراء البحر لإغوائي بترك هذه وغيرها من مئات المباهج، فإن واتتْنا الريح، سأغادر في نفس موعد هذه الرسالة. ولسوف أتجه شمالاً مثلما أتجه جنوباً.

إن الإنسان مخلوق عنيد الروح، وفي هذه اللحظة، أجدني في توق إلى فضاءات مفتوحة بلا حدود. ليست المثابرة بل سرعة الإدراك هي ما ينقصني تعلّمه، فما إن يتسنّى لي أن أمسك مادّة ما من أناملها، حتّى يقودني الإصغاء والتفكير إلى إدراك كُنْه اليد كلها.

ومن غريب الصدف أن صديقاً حدّثني عن "فيلهلم مايستر"، ورجاني أن أواصل تأليفه. أشكّ في أن أستطيع ذلك، وأنا تحت قبّة هذه السماوات، ولعلّني أتمكّن في أواخر كُتُبي من أن أتلقّف شيئاً من هذا الهواء الربّاني. وابتهل إلى الله أن يعينني على إنماء وجودي، وإطالة الأغصان، وتفتّح الأزاهير وافرة جميلة. وإن عجزتُ عن أن أعود، وقد ولدتُ من جديد، فخير لي ألا أعود البتة.

رأيتُ اليوم لوحة بريشة كوريجيو معروضة للبيع. وما تزال اللوحة تحمل مفاتن السِّحْر، وإن تكن ليست في أحسن حال. وهي تُصوِّر العذراء والطفل

---

*) حرفيا السيرانة، هي كائنات أسطورية، لها رؤوس نسوة، وأجساد طير، تسحر الملاحين بغنائها، فتوردهم مورد الهلاك. وقد ورد ذِكْرها في أوديسة هوميروس.

في لحظة تردّد الوليد بين ثدي الأمّ وبعض الكمّثرى التي يقدّمها له ملاك صغير. أو بتعبير آخر إنها تُصوِّر "فطام المسيح". ذكّرني ذلك في الحال بلوحة "خطبة القدّيسة كاثرين"، وعندي قناعة بأنها بريشة كوريجيو أيضاً.

٢٣ آذار (مارس)

وضعتُ علاقتي مع كنيب على محكّ الاختبار العملي، وهي تعد بأن تمدّنا نحن الاثنين بأكبر الرضى. قمنا بجولة في بايستوم، فتكشّف لي عن رسّام تصاميم مثابر. وتمخّضت رحلتنا الصغيرة عن تخطيطات فذّة، وهو سعيد لرؤية أن هذا الانشغال الدائب بالحياة يحفّز موهبته التي كان يرتاب فيها. إن الرسم يقتضي الحزم، وإن مهارته الدقيقة المنظّمة، لا تتجلّى إلا في الرسم وحده. ولا ينسى كنيب أن يصنع مربّعاً حول الورقة التي يريد الرسم عليها، ثمّ يعكف على بري أقلامه الإنجليزية الرائعة، مرّة تلو أخرى، مستمدّاً من بري الأقلام متعة، لا تقلّ عن لذّة الرسم. والنتيجة أن تخطيطاته لا تترك شاردة مُشتهاة.

عقدنا الصفقة التالية: أن نعيش ونسافر معاً، منذ الآن، على أن تقتصر واجباته على الرسم، وأن تكون كل رسومه ملكاً لي؛ وأن يستخدم بعض هذه الرسوم لوضع لوحات جديدة لدى العودة، لمواضيع، أتولّى اختيارها بنفسي، على أن أشتري هذه اللوحات حتّى آخر قرش في حافظة نقودي، ويمكن له، بفضل موهبته وأهمّيّة المناظر التي يرسمها، أن يبيع ما تبقّى لغيري. أنا سعيد بهذا الاتفاق.

والآن دعوني أوجز وصف جولتنا. استأجرنا عربة خفيفة ذات عجلتين، أما السائس؛ فصبي ريفي أخرق، إلا أنه طيّب السريرة. وقف السائس خلفنا، أما نحن؛ فأمسكنا باللجام تباعاً، ومضينا في طريق ريفي ساحر، حيّاه كنيب بعيني فنان. وسرعان ما بلغنا شِعْباً من الشِّعَاب الجلية

الضيّقة، فاجتزناه، وغَذَذْنَا المسير على أكثر الطرق سلاسة ونعومة، عبر أيكات زاهية من الأشجار والصخور. توقّفنا بالقرب من لاكافا؛ لأن كنيب لم يستطع مقاومة إغراء رسم جبل بديع، يشمخ على صفحة السماء. سجّل في تخطيطه الدقيق المميّز الجبل بأسره من قمّته إلى قاعه. وبدا السرور الذي أشاعه فينا هذا الرسم فألاً حسناً لبداية صداقتنا.

أنجز كنيب في المساء ذاته رسماً آخر لمشهد من نافذة النزل الذي بتْنا فيه في ساليرنو، ممّا يجعل وصفي لهذه البقعة الجميلة نافلاً. ترى مَن ذا الذي كان سيمتنع عن الدراسة في هذا المكان، يوم كانت الجامعة في عزّ مجدها؟

في الصباح الباكر من اليوم التالي، قطعنا بالعربة طُرُقاً وعرة، مُوحلة في الغالب، وصولاً إلى أجمل الجبال شكلاً. عبرنا بركاً، ومواضع مغمورة بالمياه، لنرى - وجهاً لوجه - ثيراناً وحشية، تتوقّد عيونها بالشرر. بدت هذه الثيران أقرب إلى صورة الكركدن الضخم.

بعد هذا، انبسط الريف سهلاً مستوياً خالياً، إلا من منازل متفرّقة، أو حقول متفرّقة، تتناقص. ولاحت في البعيد كتلة ضخمة، مكعّبة الشكل، ولمّا بلغناها، لم نكن نعرف إن كنا نقطع الطريق وسط جلاميد أم خرائب. بعد هذا، أدركنا أنها بقايا معابد وأنصاب مدينة رفلت ذات يوم بحلل المجد. سارع كنيب إلى اختيار موقع ملائم لرسم هذ المشهد الزاهي، بينما رحتُ أبحث عن ريفي من الأنحاء؛ ليرشدني في الطواف بهذه المعابد. لم يثر فيّ مرأى هذه الأطلال، بادئ الأمر، سوى بلادة الإحساس. وجدتُ نفسي في عالم غريب عني تماماً. إن ارتقاء الإنسان في القرون الخوالي من التقشّف إلى الفتنة، قد صاغ، بل خلق فيّ، في الآن ذاته، إنساناً جديداً. إن عيوننا وحواسّنا كلها الفاعلة من خلال النظر،

قد تكيّفت، واعتادت على أسلوب من العمارة أرقّ بكثير من هذه الكتل المزدحمة من الأعمدة المخروطية القصيرة والثخينة، التي تبدو عدائية، بل مفزعة. تمالكتُ نفسي، وتذكّرتُ تاريخ الفن، واسترجعتُ في مخيّلتي صور الأسلوب المتقّشف في فن النحت، وبعد أقل من ساعة، وجدتني متصالحاً مع هذه الكتل، بل ممتنّاً لملاكي الحارس أن أتاح لي مشاهدة هذه الآثار، التي حفظتُ على خير وجه، بعيني هاتين. إن النسخ المصوّرة تُولّد انطباعاً زائفاً، فالتصاميم المعمارية تضفي على الأصل رونقاً مزوّراً، أما الرسوم؛ فإنها، بما فيها من منظور، تجعل الأصل يبدو أخرق خلافاً للحقيقة. وإن التجوال الحيّ وسط هذه الأنصاب، والالتفاف من حولها، يمكّنان المرء من مناغمة حياته مع تجربتها، وإدراك الأثر النفسي الذي أراد المعماري بلوغه. قضيتُ سحابة النهار، وأنا أحاول التناغم، أما كنيب؛ فقد انكبّ على وضع التخطيطات. وسعدتُ لإدراكي بأني لن أحمل بعد هَمّ الحصول على سجلات أمينة تُسعف ذاكرتي. ولسوء الحظ، لا يتوفّر في الجوار نزل للمبيت هذه الليلة، لهذا، عدنا إلى ساليرنو، ثمّ انطلقنا بالعربة إلى نابولي صباح اليوم التالي. وفي هذه المرّة، شاهدنا جبل البركان، فيزوف، من الجانب الآخر. كان الريف خصباً، والطريق الرئيس محفوفاً بأشجار الحور العملاقة، كأنها أهرامات. توقّفنا لفترة وجيزة؛ كيما نمتلك هذا المشهد المبهج. بعد هذا، بلغنا أعلى الجروف الصخرية، فانبجست إطلالة مشهد عظيم أمام ناظرينا: نابولي بكل بهائها، صفوف من المنازل تمتدّ أميالاً على طول ساحل منبسط حتّى الخليج، فنتوء الجبل المشرئبّ إلى البحر، فألسنة اليابسة الممتدّة إلى البحر، فالأكمات، فالجزر، فالبحر الرابض وراءها. مشهد يبهر الأنفاس!

انطلق بغتة صوت صاخب، زعيق، أو صراخ ابتهاج أكثر منه صداح أغنية، فجفلتُ خارجاً من استغراقي في التأمّل. جاء ذلك من الصبي

السائس الواقف خلفي. التفتّ إليه غاضباً؛ لأقرعه. كان هذا الصبي طيّب السريرة، ولعل هذه أول مرّة يسمع فيها منا مثل هذا التقريع.

لبث لحظة بلا حراك، أو نطق، ثمّ ربت على كتفي، ومدّ ذراعه اليمنى، بيني وبين كنيب؛ ليومئ بأصابعه إلى البعيد، ويقول ما ترجمته: "سيدي، اغفر لي! هذه أرض موطني!" وهكذا جفلتُ للمرّة الثانية. يالي من شمالي تعيس. وانبجس شيء يشبه الدموع من عيني.

٢٥ آذار (مارس)، عيد البشارة

رغم أن كنيب أبدى سروره لمرافقتي إلى صقلية، فإني لاحظتُ أن هناك شيئاً في نابولي يعزّ عليه أن يفارقه. وبفضل صدقه، لم يطل بي الوقت؛ لأكتشف أن هذا الشيء هو حلوة، تعلّق بها قلبه. وإن حكاية تعرفّه على الحلوة مؤثّرة حقاً. وإن سلوك هذه الفتاة يشهد على سموّ روحها: أما الآن؛ فإنه يريد مني أن أرى كم هي جميلة. رتّبنا مكاناً للقاء أقصده، مصادفة، لتملي جمال مناظر نابولي. قادني إلى سطح منزل، يطل مباشرة على الجزء الأدنى من المدينة، قبالة أرصفة الميناء، والخليج، وساحل سورينتو. إن منظور كل المواقع التي تندرج على اليمين تُحجَب، ولا يمكن رؤيتها بسهولة إلا من هذا السطح.

وبينما كنا نتملّى المنظر، انبجس رأس صغير حلو، كنا نتوقّعه، من أرضية السطح، فالمدخل الوحيد الموصل إلى سطح المنزل هو فتحة مربّعة، تُوصَد بغطاء. وحين خرج الملاك الصغير إلى السطح، خطر لي بغتة أن بعض أساتذة الفن القدماء قد رسموا "ملاك البشارة"، وبعثوه إلينا صاعداً من هذا الدرج.

ينعم ملاكنا هذا بقوام رشيق، ووجه صغير فاتن، وأخلاق حلوة، على

السجية. وسررتُ لرؤية صديقي الجديد يرفل في السعادة تحت هذه السماء البديعة، قبالة أجمل المناظر في العالم.

وبعد أن انصرفت الفتاة، اعترف لي أن السبب الذي دفعه حتّى الآن إلى احتمال أوزار الفقر عن طواعية، يرجع إلى أن هذا الفقر أتاح له التمتّع بحبّها، وعلّمه أن يقدّر طريقتها البسيطة المتواضعة، في العيش. أما الآن؛ فإنه مستعد للعمل على تحسين ظروفه، لا لشيء إلا لأن ذلك سيمكّنه من أن يوفّر لها ولنفسه حياة هانئة. توجّهتُ إلى التمشي عند شاطئ البحر. كنتُ أشعر بالسكينة والسعادة. بغتة عبرت في ذهني ومضة، تتعلق بأفكاري عن علم النبات. الرجاء أن تُبلغوا هيردر أنني أقارب اكتشاف سرّ النبات الأولي. كل ما أخشاه ألا يعترف أحد بأن هذا النبات الأصلي هو منبع سائر الموجودات في عالم النبات. وإن نظريتي الشهيرة عن الفلقات قد تبلورت إلى حدّ كبير، يصعب بعده أن أضيف إليها جديداً.

٢٦ آذار (مارس)

سأبعث هذه الرسالة في الغد. أخيراً، تقرّر موعد إبحاري إلى باليرمو يوم الخميس، التاسع والعشرين من هذا الشهر، على متن طرّاد، ولجهلي بأمور البَحْريّة، فقد ارتقيتُ بالطراد، في رسالة سابقة، إلى مصافّ فرقاطة.

أدّت بي حالة التردّد، خلال فترة مكوثي هنا. أي هل أبقى أم أرحل. إلى إثارة القلق والامتعاض في نفسي أحياناً؛ أما الآن: فقد حسمتُ قراري، وهدأت روحي. إن هذه الرحلة مريحة وضرورية، في ضوء مزاجي الخاص. فصقلية، في نظري، تعني ضمناً آسيا وإفريقيا؛ وإن الوقوف عند ذلك المركز الإعجازي الذي تتلاقى فيه إشعاعات كثيرة من تاريخ العالم، لن يكون شأناً قليل الأهمّيّة عندي.

لقد عشتُ في نابولي مثل أي واحد من أبنائها. قاربتُ كل شيء باستثناء الهمّة والدأب؛ وإنني لعازم حال عودتي على التعويض لملء بعض الفراغات، بل قلّة منها، كما أخشى، نظراً لأن عليّ العودة إلى روما بحلول التاسع والعشرين من حزيران (يونيو). فبعد أن فوّتّ فرصة الأسبوع المقدّس، أرغب في أن أشارك في عيد القدّيس بطرس. ولن أدع رحلتي الصقلية تحرفني عن مسار خطّتي الأصلية.

باغتتْنا أول الأمس زوبعة رعدية قاصمة، وأمطار مدرارة، أما الآن؛ فقد صفا الجوّ، وهبّتْ ريح أجنبية قادمة من الشمال. وإذا ما استمرّت ريح الشمال، فإن عبورنا سيكون سريعاً.

زرنا أنا وكنيب الطرّاد البَحْري بالأمس؛ كيما نلقي نظرة على قمرتنا. ما تزال الرحلة البَحْريّة تجربة، يتعيّن عليّ خوضها. إن هذا العبور الوجيز، ثمّ الإبحار على طول الساحل، سيحفّز خيالي، ويوسّع رؤيتي للعالم. قبطان الطراد شابّ محبوب؛ والسفينة التي صُنعت في أمريكا نظيفة أنيقة حسنة الإبحار.

بدأت الخضرة هنا تكسو كل شيء، أما صقلية؛ فستكون أشدّ خضرة. حين تصلكم هذه الرسالة، أكون قد خلّفتُ تريناكريا(*) ورائي، ماضياً في رحلة الإياب. هذا هو صاحبكم! رجل يتأرجح جيئة وذهاباً في أفكاره. لم أصل بعد مقصدي، مع هذا، فأنا معكم بأفكاري. ليس ذنبي أن تبدو هذه الرسالة مرتبكة. فهناك أمور تقاطعني طوال الوقت، لكني عازم في الأقلّ على إكمال كتابة هذه الصفحة.

حظيتُ توّاً بزيارة من الماركيز بيريو، وهو رجل في مقتبل العمر يبدو

---

*) حرفيا: ذات الحوافّ الثلاث، ويُقصد بها صقلية.

حَسَنَ الاطّلاع. لقد رغب في التعرّف على مؤلّف "آلام فيرتر". إن أبناء نابولي يمتازون على العموم برغبة عظيمة في الاغتراف من مناهل الثقافة، وبتعطّش كبير للمعرفة، لكنهم يعيشون عيشاً خليّ البال، فلا يعرفون سلوك السبيل المناسب لهذه الغاية. لو توفّر لي المزيد من الوقت؛ لسعدتُ بأن أقدّم لهم المزيد. أربعة أسابيع. ما أصغرها لحظة إزاء كثافة الحياة الهائلة؟

والآن، وداعاً! في هذه الرحلة، سأتعلّم - ولا ريب - كيف أبحر؛ ولا أدري إن كنتُ سأتعلّم كيف أعيش. إن البشر الذين التقيتُهم ممّن يمتلكون فنّ العيش يختلفون عني اختلافاً بيّناً في طباعهم وعاداتهم، إلى درجة تدفعني للارتياب في امتلاكي لهذه الموهبة. وداعاً، تذكّروني بالحبّ نفسه الذي أكنّه لكم في قلبي.

٢٨ آذار (مارس)

ما أكثر ما بدّدتُ من هذه الأيام الأخيرة بحزم الأمتعة والتوديع والتبضع ودفع الفواتير، واللحاق بهذا، وإعداد ذاك.

ونغّص عليّ الأمير فالديك راحة البال في الدقيقة الأخيرة. فحين قصدتُه؛ لألقي عليه تحية الوداع، لم يكفّ عن الحديث عن الاستعدادات التي يتوجّب أن أقوم بها لدى عودتي؛ كيما أصحبه إلى اليونان وألمانيا. ما إن يلج المرء العالم الكبير، ويرضى بطرائقه، حتّى يتوجّب عليه الحذر من مغبّة الوقوع في الفخّ، أو الذوبان فيه. إنني أشدّ تعباً من أن أخط كلمة أخرى.

٢٩ آذار (مارس)

بدا الجوّ متقلّباً لعدّة أيام، أما في يوم مغادرتنا هذا؛ فإنه على أجمل ما

يكون: ريح شمالية موائمة وسماء زاهية بالشمس؛ إنه اليوم المثالي للطواف في أصقاع العالم. من جديد، أودّع كل أصدقائي في فايمار وجوته. عسى أن يرافقني حبّكم؛ فأنا بحاجة مؤكّدة إليه دوماً. حلمتُ يوم أمس أنني عدتُ إلى الوطن، مزاولاً أعمالي المعتادة. لا أعرف إلا هذا: لن أستطيع قط أن أفرغ طيور الحجل من سفائني إلا عند شواطئكم. فلنأمل، حتّى ذلك الحين، أن تمتلئ السفائن بالنفيس.

صقلية

في البحر، ٢٩ آذار (مارس)

أبحر الطرّاد في رحلته الأخيرة بريح شمالية شرقية مواتية، تهبّ عليه من مؤخّرته. أما هذه الرحلة؛ فخلاف ذلك. عصفت الريح في اتجاه جنوبي. غربي، فأجبرتنا على أن ندرك عمق تبعية الملاح لتقلّبات مزاج الطقس. قضينا الصباح نافذي الصبر بين الساحل والمقهى. أخيراً صعدنا على متن السفينة. كان الطرّاد راسياً على مقربة من مولو. وإن سطوع الشمس، والغبش الضبابي الخفيف كسا أكمات سورينتو بلون أزرق، بل شديد الزرقة، أما نابولي؛ فكانت تضجّ بالحياة، وتزهو بحرائق الألوان. حلّ المغيب قبيل شروع الطرّاد في الحركة البطيئة تماماً. ساقتْنا الريح المعاكسة في اتجاه بوسيليبو، ولسانات يابستها الوالجة في البحر. ومضت السفينة في إبحارها الهادئ الوئيد طوال الليل. إن القمرات الواقعة تحت سطح السفينة مبهجة، ومزوّدة بمضاجع منفردة. أما رفاق سفرنا، وهم من مغنّي الأوبرا وراقصات الباليه الذاهبين إلى باليرمو في عقد عمل؛ فكانوا فرحين مهذّبين.

٣٠ آذار (مارس)

انبلج علينا الصبح، ونحن في فسحة بين أسكيا وكابري، على مبعدة ميل من هذه الأخيرة، وبزغت الشمس في بهائها من وراء الجروف الصخرية في كابري وكيب منيرفا. واظب كنيب على رسم الخطوط المتغيّرة للساحل

والجزر في أثناء سير الطرّاد؛ فكان بطء الإبحار في خدمته. بقيت الريح متوانية. وعند الساعة الرابعة عصراً توارى فيزوف عن الأنظار، أما كيب منيرفا وأسكيا؛ فبقيتا في المدى. مع اقتراب المساء، اختفتا هما أيضاً عن الأنظار. غاص قرص الشمس في البحر مصحوباً بغمام متناثر، وشريط أرجواني اللون على امتداد ميل. رسم كنيب هذه الظاهرة أيضاً. واختفت اليابسة الآن تماماً، ولم يعد الأفق سوى دائرة من الأمواه، أما سماء الليل؛ فيضيئها القمر.

ولم يُكتَب لي أن أنعم بحلاوة هذا المشهد كثيراً، إذ تملّكني دوار البحر. عدتُ إلى قمرتي، وتمدّدتُ في وضع أفقي، وامتنعتُ عن تناول أي شيء عدا الخبز والنبيذ الأحمر، حتّى شعرتُ بالاستكانة والدفء. وإذ بقيتُ معزولاً عن العالم الخارجي، أطلقتُ قياد أفكاري للتأمّل في عالمي الباطني؛ ولمّا كنتُ أتوقّع سَفَراً وئيداً، وضعتُ نصب عيني مهمّة كفيلة بأن تشغلني بالكامل. لم أصطحب معي في هذه الرحلة من مسودات سوى المشهدين الأولين من مسرحية تاسو. ورغم أن هذين الفصلين يشبهان عموماً من حيث الحبكة الفصول التي كتبتُها حتّى الآن، فقد وضعتُهما قبل عشرة أعوام في قالب شعر نثري. لقد وجدتُ أن هذين الفصلين ضعيفان، وهلاميان؛ غير أن هذه النقائص توارت بعد أن أضفتُ، وفقاً لأفكاري الراهنة، الوزن على النص؛ كيما يسود الشكل.

٣١ آذار (مارس)

بزغت الشمس من البحر؛ لتعلو في سماء صافية. وفي الساعة السابعة، لحقنا بمركب فرنسي، أبحر قبلنا بيومين. ورغم أننا كنا نبحر بسرعة أكبر منه، فإن خاتمة رحلتنا لم تَلُحْ في الأفق. وأمدّنا ظهور جزيرة أوستيكا ببعض التشجيع، إلا أن هذه الجزيرة، واأسفاه! تقع على مَيسرتنا،

وينبغي أن نتجاوزها مثل كابري، التي تقع على مَيمنتنا. باتت الرياح الآن معاكسة تماماً لمجرى السفين، ولم نستطع أن نتحرّك قيد أنملة. هاج الموج، وارتفع، وأصيب الكل - تقريباً - بالدوار.

بقيتُ مستلقياً في وضعي الأفقي، وأنا أقلّب وأدير المسرحية في ذهني. مرّت الساعات تلو الساعات، وأنا عاجز عن معرفة جلية الوقت في هذا النهار، لولا أن كنيب كان يأتيني بقصعة الخبز والنبيذ من حين إلى آخر. ويبدو أن البحر العاتي لم يمسّ شهيته للأكل بالمرّة، وكان يُبدي تشفّياً ملاطفاً في ذِكْر العشاء الرائع الذي تناوله الجميع، ومدى أسف القبطان لأني لا أستطيع أن أكون معهم لتناول قسطي منه. واستمدّ كنيب أيضاً مادّة ثرّة للوصف المتخابث من شتّى ضروب تصرّفات المسافرين؛ حيث أخلى المزاج الطروب المرح مكانه للانزعاج والغثيان.

في الساعة الرابعة عصراً، غيّر البقطان مسار الإبحار. رُفعت الأشرعة الكبرى ثانية، ومضت السفينة في خط مستقيم صوب أوستيكا، التي لاحت لنا، من ورائها، جبال صقلية، التي أشاعت فينا الفرح. باتت الرياح الآن مسايرة لنا، فزادت سرعة السفينة، وهي تتّجه صوب صقلية. مررنا بعدّة جزر. كانت الشمس الغاربة ملفّعة بغلالة شفيفة من غبش المساء. وبقيت الرياح مواتية على نحو لطيف. وبحلول منتصف الليل، اضطرب البحر، وهاج.

١ نيسان (أبريل)

عند الثالثة فجراً، هبّت ريح هوجاء. ورحتُ أفكّر، وأنا بين اليقظة والنوم، في الدراما التي أكتب. تعالى الضجيج والحركة الدائبة على سطح السفينة في أثناء إنزال الأشرعة من صواريها. كان البحر عاتياً، والأمواج تتقاذف السفينة، مؤرجحة إيّاها يميناً وشمالاً. ولمّا انبلج الفجر، صَفَتِ

السماء، وهدأتِ الريح. لاحت أوستيكا على مَيسرتنا الآن. وأومأ الملاحون إلى سلحفاة عملاقة، تسبح في البعيد، واستطعنا أن نتابع حركة السلحفاة البَحْريّة بالنواظير المكبّرة، ونرى هذه النقطة الحيّة بجلاء. وبحلول الظهيرة، لاحت لنا أكمات وخلجان ساحل صقلية، لكن السفينة جنحت بعيداً في اتجاه الريح، فأخذ الربّان يغيّر الدفّة في سير متعرّج. واقترنا في العصر من الشاطئ، فرأينا الساحل الغربي الممتدّ من كيب ليليبو إلى كيب جالو متوهّجاً بنور الشمس. ورافقت سفينتنا زمرة كبيرة من الدلافين على جانبي القيدوم، متقدّمة دوماً على خط سيرنا. ما أبهج أن يتملّى المرء الدلافين تسبح وسط أمواج شفّافة، وتثب من البحر وثوباً رشيقاً، فكانت زعانفها وحراشفها على الظهر، تتلألأ بألوان قزحية من الأخضر والذهبي.

ولمّا كانت السفينة قد جنحت بعيداً بفعل الريح، فإن القبطان توجّه في خط مستقيم إلى أحد الخلجان، البعيد عن كيب جالو. لم يدع كنيب هذه الفرصة السانحة تفلت، لكي يرسم تخطيطات تفصيلية لشتّى مناظر الأفق. وبحلول المساء، غيّر القبطان الدفّة، وتوجّه إلى عرض البحر؛ ليمضي من هناك إلى الشمال الشرقي ابتغاء وصول خط عرض باليرمو. غامرتُ بالصعود إلى سطح السفينة، بين حين وآخر، لكني أبقيتُ مشروعي الشعري ماثلاً في ذهني دوماً. وإنني أتحكّم الآن بخيوط المسرحية كلها.

تناثرت بعض الغيوم في السماء الآن، إلا أن القمر كان منيراً، وانعكاسه على موج البحر أخّاذاً. لقد عمد الكثير من الفنانين إلى حملنا على الاعتقاد، لأجل تقوية تأثير لوحاتهم، أن انعكاس الأنوار السماوية في الماء انعكاس واسع في بؤرة السطوع القوية؛ أي أن الانعكاس يكون عريضاً عند النقطة الأقرب إلى عين المراقب. أما الآن؛ فإنني أرى مباشرة أن الانعكاس

يكون عريضاً في الأفق، وأنه يتناقص حتّى نقطة التلاشي كلّما اقترب من السفينة، مثله مثل هرم متلألئ.

٢ نيسان (أبريل)

توقّفنا عند الثامنة صباحاً قبالة باليرمو مباشرة. غمرني الانتعاش والجذل. أمكن لي خلال هذه الأيام الماضيات، وأنا في جوف الحوت المبحر هذا، أن أحرز تقدّماً ملموساً في التخطيط لحبكة مسرحيّتي. وشعرتُ بأنني على أتمّ حال، إلى درجة أني وقفتُ عند القيدوم؛ لأرسل بصري المدقّق في ساحل صقلية. وكان كنيب يواظب على رسم التخطيطات طوال الوقت. وتحوّلت عدّة صفحات من ورق الرسم إلى سجلات قيّمة عن وصولنا المتأخّر، وذلك بفضل مهارته ودقّته.

باليرمو، ٢ نيسان (أبريل)

بعد كثير عناء ومشقّة، بلغنا الميناء أخيراً عند العصر. كنتُ قد استعدتُ عافيتي بالتمام، ورحتُ أتمتّع بكل شيء تمتّعاً وافياً. تربض المدينة قبالة الشمال، أما الجبال؛ فتشمخ من ورائها. كانت أشعّة شمس الظهيرة تسطع فوقها، فباتت المباني المواجهة لنا قابعة في الظل، ولا ينيرها سوى انعكاسات الضوء. وكانت خطوط جبل مونتي بيليجرينو المرهفة جلية في نور الشمس الساطع، أما الساحل؛ فيمتدّ أمام النظر، جهة اليسار، بما فيه من خلجان، وألسنة يابسة، وأكمات.

ثمّة أشجار باسقة ذات خضرة زاهية أمام المباني المعتمة، وقد أنارت الشمس ذؤوابات هذه الأشجار من الخلف، وهي تتمايل مثل حشرات الليل اللامعة. وأسبغ الغبش الضبابي غلالة زرقاء على الأشجار كلها.

لم نسرع إلى الشاطئ فارغي الصبر، بل مكثْنا على متن السفينة

حتّى أنزلونا. لعلّنا لن نحظى بمثل هذه الإطلالة الرحبة لإمتاع العين بما لذّ من مَشاهد.

دخلنا المدينة من بوّابة بديعة، تتألّف من عمودين عملاقين، من دون عوارض أو درفات، حتّى تستطيع عربة سانتا روزاليا العملاقة أن تدلف في يوم عيدها الشهير. أخذونا إلى نزل كبير. وجدنا صاحب النزل رجلاً كبير السّنّ ودوداً باسماً، ألف استقبال الغرباء من كل القوميات. قادنا إلى غرفة فسيحة ذات شرفة، تطلّ على الميناء وجبل سانتا روزاليا. فرحنا بإطلالة غرفتنا هذه كثيراً، إلى حدّ أننا لم نلاحظ الفجوة العالية التي تخفي ستائرها عن النظر سريراً واسعاً عريضاً، تعلوه غلالة من الحرير. وينسجم هذا السرير الفخم مع بقية قطع الأثاث الفاخر القديم الجدير بالملوك. شعرنا بالحرج بعض الشيء من هذه الفخامة المتباهية، وتهيأنا، كالعادة، للجدل في شروط التأجير، لكن الرجل المسنّ قال إنه يترك لنا البَتّ في السعر ولواحقه؛ وإن كل ما يأمله هو أن يُعجبنا المقام هنا. وأضاف أن في وسعنا استخدام الصالة المجاورة لغرفتنا، وهي صالة منيرة حلوة ذات تهوية حسنة، بفضل شرفتها الواسعة.

تتوفّر للفنان ثروة لا تنضب من المَشاهد؛ كي يرى، فدرسناها الواحد بعد الآخر بعين توّاقة لرسمها جميعاً.

أغوانا ضوء القمر في الليلة ذاتها على التنزّه مشياً إلى الميناء، وعودة منه. قبل الهجوع في الفراش، أطلْنا الوقوف في الشرفة. كان الضياء خارقاً، وكل شيء يرفل في غلالة من السكينة والفتنة.

٣ نيسان (أبريل)

بادرنا أوّل ما بادرنا إلى التجوال في المدينة لرؤيتها عن كثب، بعد

أن تيسّر لنا إدراك صورتها الكُلّيّة، دون أن نعرف تفاصيلها. ثمّة شارع يمتدّ ميلاً كاملاً من البوّابة السفلى للمدينة، إلى بوّابتها العليا؛ ويتقاطع هذا الطريق مع شارع آخر بصورة متعامدة، الأمر الذي يسهل العثور على أيّ موقع اعتماداً على هذين المحورين المتقاطعين. غير أن الدروب في قلب المدينة متاهة محيّرة من التشعّبات، لا يجد الغريب طريقه فيها إلا بمعونة دليل.

قبيل المساء، شاهدنا عرض عربات النبلاء باهتمام كبير، فالنبلاء في هذه الساعة من النهار يمضون في عرباتهم إلى الميناء؛ لتنسّم الهواء، وتجاذب أطراف الحديث، والغزل مع النساء طبعاً. بزغ البدر تاماً قبيل ساعتين من مغيب الشمس، مسربلاً المساء بهامات المجد. وبسبب الجبال المشرئبّة من وراء باليرمو، جهة الجنوب، فإن نور الشمس وضوء القمر لا ينعكسان على صفحة المياه في تلك السويعات. ويصطبغ البحر حتّى في أسطع النهارات نوراً، بلون أزرق داكن قوي متصلّب، إن جاز القول، في حين أن البحر في نابولي يميل، من الظهيرة فلاحقاً، إلى الهدوء، والتلألؤ، والامتداد، إن جاز القول.

طفق كنيب يضع رسماً لجبل مونتي بيليجرينو، تاركاً لي فسحة التجوال، وجمع الملاحظات لنفسي.

إليكم بعض اللقطات، التي حصدتُها، وجمعتُها على عجل:

تركنا نابولي يوم الثلاثاء الموافق ٢٩ آذار (مارس) عند المغيب، ولم نصل باليرمو إلا في الثالثة من عصر اليوم الرابع للرحلة. لم يسبق لي أن قطعتُ رحلة هادئة كهذه، ولا نعمتُ بمثل هذا الهدوء كل هذا الوقت، رغم أن الرحلة استطالت بالريح المعاكسة باطّراد، وبرغم دوار البحر الذي

ألمّ بي في اليومين الأولين؛ ليُلزمني قمرتي. إن كان ثمّة حَدَث حاسم في حياتي، فلا ريب أنه يتجسّد في هذه الرحلة عينها.

مَن يتعذر عليه أن يجد نفسه محاطاً بالبحر وحده من كل الجهات، لن يتوصّل قط إلى بلوغ تصوّر حقيقي عن العالم، وعن علاقته بهذا العالم. إن خط الأفق البَحْري البسيط النبيل هذا، أمدّني، بوصفي رسّام مناظر طبيعية، بأفكار جديدة تماماً.

رفيق سفري الفنان شابّ جذل وفيّ عطوف القلب قادر على وضع أدق الرسوم التي ستمتّعون أنظاركم بها يوم أجلبها لكم عند العودة. ولكيما يسرّي عن نفسه بقضاء الساعات الطوال في هذه الرحلة، فقد كتب وصفاً لتقنيات الرسم بالألوان المائية، موضحاً لي سُبُل استخدام ألوان معيّنة لتوليد الظلال المرغوبة. ولمّا يتعلّم المرء سرّ المزج هذا، فإنه سيظل يمزج ويمزج إلى الأبد، دونما طائل، بحثاً عن السّرّ. سبق لي أن سمعتُ عن مزج الألوان هذا في روما، ولكنْ؛ على نحو عابر وسريع. وما من بلد، باستثناء إيطاليا، أمكن له أن يوصل هذا الفن إلى هذا المستوى من الكمال.

أجدني عاجزاً عن الشروع في وصف استقبال ملكة الجزر هذه لنا . بأشجار التوت الأسود بأوراقها الخضراء اليانعة، وأشجار الدفلى زاهية الخضرة، وصفوف أشجار الليمون، وما شاكل. ورأيتُ في إحدى الحدائق العامة مربّعات كبيرة تزهو بشقائق النعمان، وورد الحوذان. إن الهواء معتدل دافئ شذيّ. علاوة على ذلك، يرسل البدر المكتمل ضوءه المتلألئ فوق الأكمات البَحْريّة؛ لينعكس على صفحة البحر؛ وهذا كله يأتيني بعد كل ذلك التقلّب في الأمواه على مدى أربعة أيام وليال! اغفروا لي خربشتي بهذا القلم الخشن المغموس بالحبر، الذي يستخدمه صديقي لتغميق خطوط رسوماته. فلسوف يصلكم الوصف مثل همسة، فأنا أعدّ العدّة

لإقامة نصب آخر لذكرى هذه السويعات السعيدة. لن أكشف لكم فحواها الآن، ولن أقول لكم حين تتلقّونها.

٣ نيسان (أبريل)

إن الورقة المرفقة، يا أصدقائي الأعزاء، تتوخّى أن تُتيح لكم المشاركة قليلاً في مباهجنا، وأن تعطيكم فكرة عن الاتّساع الهائل للمياه التي يضمّها هذا الخليج النادر. يبدأ هذا الخليج من جهة الشرق؛ حيث توجد أكمة واطئة، تمدّ لسانها موغلة في البحر، ويمضي الخليج، بعد هذا، جهة الغرب، فتسرح العين من الصخور المكْسُوّة بالأشجار إلى الأحياء التي يسكنها صيّادو السمك، وصولاً إلى المدينة نفسها؛ حيث تصطفّ المنازل الشبيهة بمنازلنا قبالة البحر، ثمّ وصولاً إلى البوّابة التي دخلنا منها، ثمّ إلى دكّة رسو الزوارق الصغيرة، فالميناء، والمولو، ومرساة السفن الكبيرة. بعد هذا، تجد جبل مونتي بيليجرينو الشاهق البديع الذي يحمي السفائن كلها من الريح العاتية، وأخيراً ينبسط، من الجانب الآخر للجبل، واد خصيب جميل؛ ليمضي إلى البحر. وضع كنيب رسماً لهذا المشهد، أما أنا؛ فاكتفيتُ بتخطيط له. وأصبنا سروراً عظيماً وبهجة كبيرة في الرسم، وعدنا إلى النزل جذلانين. ولم نجد القوّة ولا الشجاعة الكافية لإكمال تفاصيل الرسم على نحو واف؛ وعليه ستبقى هذه الرسوم مجرّد تخطيط بسيط في الوقت الحاضر. وإن الورقة المرفقة هي برهان على عجزنا عن معالجة مثل هذه المواضيع، أو دليل على وقاحتنا في التجرّؤ على التضلّع فيها خلال فترة قصيرة.

٤ نيسان (أبريل)

توجّهنا عصر هذا اليوم لرؤية الوادي المبهج في جبال جنوب باليرمو؛ حيث يتعرّج نهر اوريتو. إن رسم لوحة جيدة عن الوادي يتطلّب يداً بارعة،

وعيناً لاقطة لتفاصيل الألوان. أفلح كنيب في اختيار منظر رائع لرسم الوادي: في المقدّمة شلالات صغيرة، تعلو شبكة قضبان متآكلة (ممّا يُوضَع لصيد السمك)، وتقبع الشبكة تحت ظلال ثلّة من الأشجار الباسقة؛ أما في مؤخّرة اللوحة؛ فتمتدّ إطلالة الوادي بلا انقطاع؛ لتتخلّلها مباني مزرعة متفرّقة.

غمر الطقس الربيعي المعتدل، والنباتات الجميلة، هذا الوادي بغلالة من السكينة، والاتساق. لكن دليلنا الأحمق طفق يخرّب هذه السكينة وهذا الاتّساق بأخباره المسهبة؛ إذ شرع يحكي لنا في تفاصيل متشعّبة كيف أن هانيبال خاض إحدى معاركه في هذا الوادي، في زمان مضى، وأية مآثر كبرى اجترحت في هذا الموقع(*). قرعتُه غاضباً من هذا النبش البغيض للماضي، وإحياء أشباح الموتى. وقلتُ كفانا تهلكة أن تُداس الزروع، وتذرو تحت وطأة أقدام الفيلة، بين الحين والآخر، ناهيك عن سنابك الخيل وأقدام المحاربين؛ وقلتُ أيضاً كفانا إقلاق الخيال، ونزعه من سكينة الاحلام باستعادة مشاهد العنف الوحشي من الماضي.

وتعجّب لعزوفي عن الرغبة في سماع أي شيء عن العصور القديمة، وأنا في هذا الموضع، وبالطبع ما كان لي أن أحمله على إدراك كُنْه اعتراضاتي على هذا الخلط الفاضح للماضي بالحاضر.

ولابد أنه ظنني رجلاً غريب الأطوار حقاً، وهو يراني أنقّب عن الحصى في البرك والحفر التي تركها النهر؛ لتجفّ، وتعلو ضفّته، وبخاصة حين وضعتُ عدّة عيّنات منها في جيبي. من جديد، تعذّر عليّ أن أشرح له أن أسرع السُّبُل لفَهْم طوبوغرافية أية رقعة جبلية تكمن في فَحص أنماط شظايا

---

*) لم يكن هانيبال (أو هنيبعل) هو الذي خاض المعركة، بل هاسدروبال، الذي هُزم بالقرب من بانورموس على يد كايسيليوس عام ٢٥١ قبل الميلاد.

الصخر التي تجرفها الجداول والغدران، أو أن اشرح له أهمّيّة دراسة الحصى لأخذ فكرة عن تلك الذرى الكلاسيكية السرمدية من التراب السابق للتاريخ.

أسفرت حفرياتي في النهر عن حصاد ثرّ. جمعتُ قرابة أربعين عيّنة، رغم أن عليّ الإقرار بأنها تقع في أصناف قليلة من أنواع الصخر. ولعلّ أغلب هذه العيّنات يندرج في نوع من اليشب الأخضر المسود، أو الصوّان غير النقي، أو الصخر المتفلّق. كان بعضها مدوّراً وناعماً، وبعضها الآخر حصى، يفتقر إلى انتظام الشكل، وبعضها أيضاً معيني الشكل، متعدّد الألوان. ولا تفتقر المجموعة إلى قواقع الكلس.

إن الحصى الكلسي يؤلّف قاع السهل الذي تربض عليه باليرمو، والمنطقة المحيطة بالمدينة المسمّاة آي كوللي، وجزء من باجيريا. ولقد شيدت المدينة من هذه المادّة، من هنا وجود مواقع استخراج الحصى الكلسي في الجوار. وهناك موقع استخراج قرب جبل مونتي بيليجرينو، يغوص نحو خمسين قَدَمَاً في الأرض. وتتميّز الطبقات السفلى بأنها أشدّ بياضاً من الطبقات العليا، وهي تحوي الكثير من المرجان المتحجّر، وقواقع الأسماك، وقواقع المحار المروحي بخاصة. أما الطبقة العليا؛ فهي خليط من صلصال أحمر، يحوي القليل جداً من المتحجّرات، أو يخلو منها أحياناً. تعلو ذلك طبقة خفيفة من التراب الأحمر.

إن حجر الكلس في جبل مونتي بيليجرو نفسه يُعدّ من التشكيلات الأقدم عهداً، وهو حجر يحوي الكثير من الثقوب والتفلّقات، وهذه التفلّقات متناثرة على غير انتظام، ولدى فَحْص عيّنات منها فَحْصاً دقيقاً، يتّضح أنها تتساوق مع الخطوط الفاصلة بين شتّى طبقات الأرض. ويبدو الصخر صلداً رنّاناً، لدى ضربه بالمطرقة.

لا توجد هنا مراع، كما لا يوجد أيّ قشّ. وتُعلف الجياد في الربيع على الشوفان، أو سنابل الشعير الطرية، لـ "إنعاشها" كما يقولون؛ أما في المواسم الأخرى؛ فتقتصر الأعلاف على نخالة الشعير، وقشوره. وهناك مرعى صغير في الجبال، ومراع أخرى صغيرة وسط الحقول؛ لأن ثلث الحقل يُترك للراحة، دون حرث. هناك أيضاً بعض الأغنام من أرومة استقدموها من بارباري، إلا أنها قليلة العدد، أما البغال؛ فتفوق الجياد عدداً؛ لأن العلف اليابس أنسب إلى الأولى.

٥ نيسان (أبريل)

استكشفنا المدينة بكل ما في الكلمة من معنى. العمارة هنا شبيهة بعمارة نابولي، لكن النصب العامة. كالنافورات مثلاً. أبعد عن معايير الذوق السليم. تفتقر المدينة إلى ذلك الإحساس الفطري بالفن، الذي تمتاز به روما؛ ليكون معياراً للمقايسة. وتدين النصب بوجودها وشكلها إلى ظروف عَرَضية. فهناك نافورة، يتباهى بها كل أهالي الجزيرة، ما كان لها أن تظهر إلى الوجود، لولا أن صقلية تتوفّر على مكامن هائلة من الرخام الجميل، من كل الألوان، في لحظة من لحظات الحظ السعيد لنحّات ماهر ضليع بنحت أشكال الحيوان، صادف أن وقع على حظوة لدى الصفوة العليا. إن هذه النافورة عَصية على الوصف.

ثمّة مربّع متواضع المساحة، تنتصب داخله كتلة دائرية منحوتة من الصخر، بارتفاع طابق واحد، إلا أن أفاريزها العلوية، وأفاريزها السفلية، وسطوحها مَكْسُوّة برخام ملوّن، وقد حُفرت على طول محيطها روازين، تحوي كل أنواع رؤوس الحيوان منحوتة من رخام أبيض، وهي تشرئبّ بأعناقها. من رؤوس جياد، إلى رؤوس أسود، وجمال، وفيلة، في تتابع متّصل. ويعجب المرء لوجود نافورة داخل هذا المحيط الدائري.

وهناك أربعة مدارج من الرخام تُتيح صعود الناس إلى أعلى الكتلة؛ لأخذ الماء المتدفّق.

ولا يختلف حال الكنائس، فهي تفوق كنائس الجزويت فخامة، ولكن تفوُّقها عَرَضي، غير مقصود. ويبدو الحال، كما لو أن كل واحد من الحِرفيين، والنقّاشين، والملوِّنين، والملمِّعين، أو العاملين في الرخام، أراد أن يظهر براعته في بقعة معيّنة، ولكنْ؛ من دون ذوق أو إرشاد.

من جهة أخرى، يتلمّس المرء وجود مهارة غزيرة في المحاكاة الواقعية للطبيعة؛ فرؤوس الحيوان التي ذكرتُها آنفاً منحوتة نحتاً مُتقناً تماماً. وهذا بالطبع ما تحبّه العامة؛ لأن المتعة الفنية التي يعرفها العوامّ تكمن في أن تشبه الصورة الأصل شبهاً تاماً.

تعرّفتُ في المساء على شخص طريف إثر دخولي دكاناً متواضعاً في الشارع الرئيس لشراء شتّى الحاجيات واللوازم. وبينما كنتُ أقف خارج الدكان متطلّعاً إلى السلع المعروضة، هبّت موجة ريح في آخر الشارع مثيرة زوبعة غبار، لفحت الدكاكين، وغطت نوافذها. ولمّا دخلتُ الدكان، هتفتُ منزعجاً "بحقّ القدّيسين، ما علّة هذه القذارة في مدينتكم؟ ألن تفعلوا شيئاً لتنظيفها؟ الواقع أن هذا الشارع الجميل كان سيضاهي شارع كورسو في روما؛ ففيه أرصفة لطيفة، يكنسها أصحاب الدكاكين دوماً، إلا أنهم يدفعون الأقذار إلى وسط الشارع. وما إن تهبّ أدنى نسمة حتّى تتطاير الأزبال المتراكمة؛ لتدخل الدكاكين، فيغدو الشارع أقذر ممّا كان. إن النفايات تُنقل في نابولي، كل يوم، على ظهور الحمير؛ لتُرمى في الحقول والحدائق. أفلا يمكن لكم القيام بتدبير مماثل لمدينتكم هذه؟!" أجاب الرجل "هذا هو الحال دوماً. فما نرميه من أقذار خارج بيوتنا، يبدأ بالتعفّن على عتبات البيت. وكما ترى، فثمّة أكوام من القشّ والدغل، وأزبال

المطبخ، وقمامة وأقذار من كل شاكلة. وهي تجفّ جميعاً، وتدفعها الريح إلينا مجلّلة بالغبار. إننا ندرأها كل يوم، ولكنْ: ما الفائدة،؟ إن مكانسنا الصغيرة اللطيفة تتآكل، فتزيد القمامة وسخاً."

الطرفة هنا أن هذا القول صحيح تماماً. فلدى أصحاب الدكاكين مكانس صغيرة حلوة مضفورة من سعف النخل الصغير، ويمكن تحويلها إلى مراوح يدوية لطيفة، بتعديل بسيط، إلا أنها تتآكل بسرعة، ويتركونها مَرمية في الشوارع بالآلاف. وحين سألتُه إن كان بمقدور المدينة أن تلتمس طريقة أخرى للتنظيف، أجاب:

"يقول الناس إن الأشخاص المسؤولين عن نظافة المدينة يحظون بنفوذ سياسي أكبر من أن يُتيح إرغامهم على إنفاق الموارد العامة على هذه المهامّ، علاوة على ذلك، فهؤلاء يخشون من أن تؤدّي إزالة الأقذار كُلّيّة إلى كشف الحالة المزرية لتعبيد الطرق، وبالتالي هتك اختلاس الأموال العامة." وأضاف بنظرة هازلة، ألفت المزاح "لكن هذا هو ما يقوله الأشرار المسيئون. أما أنا شخصياً؛ فمقتنع برأي القائلين إن النبلاء يُبقون الشوارع على هذا الحال؛ لأنهم يحبون المرور على أسطح طرق سلسة لينة لمرور عرباتهم، حتّى يمضوا بها في جولاتهم المسائية مرتاحين."

وبعد أن ولج هذا الباب، راح يطلق النكات الهازئة عن أمثلة فساد الشرطة، فأعطاني برهاناً مطمئناً على قدرة الإنسان في أن يحتفظ بالقدر الكافي من حُسن الفكاهة للهزء بما يعجز عن إصلاحه.

٦ نيسان (أبريل)

اكتسبت القدّيسة روزاليا، راعية باليرمو، شهرة ضاربة، بفضل وصف برايدون لعيدها، وأظنّ أن أصدقائي سيسعدون لقراءة أسطر عن الموضع الذي تُبجّل فيه هذه القدّيسة.

إن جبل مونتي بيليجرينو كتلة هائلة من الصخر، يزيد عرضها على ارتفاعها؛ ويشمخ الجبل عند الطرف الشمالي الغربي من خليج باليرمو. وهناك صورة غير دقيقة عنه في كتاب "رحلة مصوّرة في صقلية". ويتألّف الجبل من صخر كلسي رمادي اللون، وقديم العهد. أما أكماته؛ فجرداء من أي شجر أو شجيرات، وإن بُقعه المنبسطة لا تحوي إلا النزر اليسير من الأشنات ونباتات الخثّ الصغيرة.

وفي بداية القرن الماضي، اكتشف الناس رميم عظام القدّيسة في أحد كهوف الجبل، فنقلوها إلى باليرمو. وأنقذ حضورها المدينة من براثن الطاعون، فأصبحت روزاليا، منذ تلك اللحظة، القدّيسة الراعية، فأُقيمت الكنائس إكراماً وتبجيلاً لها، علاوة على إقامة الأعياد في ذِكْراها. ويحجّ أتباعها المخلصون إلى الجبل مراراً، وقد بذلوا أموالاً طائلة لشقّ طريق موصل إلى مرقد عظامها الأصلي، وهو طريق حجري، يعتمد على ركائز وأقواس حجرية، تشبه قنوات روما المائية، ويمضي الطريق متعرّجاً بين جرفين صخريين.

إن الضريح نفسه يليق بتواضع هذه القدّيسة التي اختلت إلى الجبل، أكثر من الاحتفال المبهرج الذي يقام تبجيلاً لانتباذها العالم. ولن يجد المرء في سائر أرجاء العالم المسيحي، الذي دأب خلال ثمانية عشر قرناً، على إقامة صروح ثرائه وفخامته، وطقوسه وشعائره البهية، على فقر المؤسّسين الأوائل، وإيمان أتباعه المتّقدين، لن يجد بقعة مقدّسة مثل هذه، زُيّنت بهذا القدر من السذاجة، أو بُجّلت بهذا القدر المؤثّر من التبجيل.

حين يبلغ المرء قمّة الجبل، ينعطف من زاوية؛ ليواجه أكمة حادّة، يلتقي عندها دير وكنيسة. لا تحمل واجهة الكنيسة ما يثير الاهتمام، أو الانجذاب، فيفتح المرء الباب، وهو لا يتوقّع أن يرى الكثير، ولكنْ؛ ما إن

يلج حتّى يجد مفاجأة كبيرة في انتظاره. يجد المرء نفسه في ردهة عظيمة، تمتدّ على طول الكنيسة وعرضها، وتنتهي بصحن المصلّين. ثمّة كابينات لاعتراف الخطاة، والأجران المألوفة للماء المقدّس. وصحن المصلّين عبارة عن باحة مفتوحة، تحفّها الصخور الناتئة من جهة اليمين، وامتداد الردهة الكبيرة، من جهة اليسار. وهي معبّدة ببلاطات صخرية، مائلة قليلاً؛ لكي تدع مياه الأمطار تتسرّب إلى المجاري، ويزدان وسطها بنافورة صغيرة. لقد حوّلوا الكهف نفسه إلى مذبح كنيسة، من دون أن يزيلوا عنه مَلمسه الصخري، ونتوءاته.

ويمكن بلوغ المذبح بصعود بضع درجات؛ ليجد المرء نفسه قبالة المقرأ، وهو كناية عن منضدة لتلاوة الكتاب المقدّس، تحفّها منصّة جوقة المرتّلين من كل جانب. ولا يتسرّب ضوء النهار إلا من الباحة، ومن المصلى. أما المذبح العلوي؛ فيقع في آخر الكهف المعتم.

وكما قلتُ، فإن جوف الكهف لم يمُسّ. ولمّا كانت قطرات الماء تنضح باستمرار من الصخور، كان لابد من ابتكار وسيلة للحفاظ على المكان جافاً. ثمّة أنابيب معدنية رُبطت بطرق شتّى؛ لتجمع النضح من الصخر. والأنابيب عريضة من الأعلى، وضيقة من الأسفل، وهي مدهونة بلون أخضر فاقع، لتبدو كما لو أنها أنواع كبيرة من الصبّار الأخضر الذي يزيّن جوف الكهف. تَجمع الأنابيبُ الماءَ الناضح من جنبات الكهف ومؤخّرته، فيُسكَب الماء في حوض، يَغرف منه المؤمنون؛ لكي يقيهم من أنواع العلل كلها.

وبينما كنتُ أتملّى هذه التفاصيل كلها، اقترب مني قسّ، وسألني إن كنتُ من جنوه، وإن كنتُ أرغب في أن يتلو لي قدّاساً. فأبلغتُه أنني زائر غريب لباليرمو، بصحبة جنوي، سيأتي في الغد لحضور قدّاس عيد روزاليا. وأوضحتُ له أنني جئتُ وحدي؛ كي أرى المرقد، نظراً لأن على

واحد منا أن يبقى دائماً في البيت. وقال إن لديّ كامل الحُرّيّة في أن أرى وأتفرّج وأصلّي كما أشاء. ولفت انتباهي إلى جانب من المذبح، جهة اليسار، يمتاز بقداسة خاصة، ثمّ انصرف.

ورأيتُ من خلال تعريشة كبيرة من النحاس الأصفر المزخرف فوانيس منيرة تحت المذبح. بركتُ، ودقّقتُ النظر في تعريشة النحاس، فوجدتُ داخلها شاشة من أسلاك النحاس الأصفر، أسلاك دقيقة جداً، يلوح ما وراءها، وكأنه ملفع بنسيج رقيق.

وأبصرتُ - على ضوء الفوانيس الخافت - امرأة جميلة، بدت وكأنها غارقة في حالة من الوجد، فعيناها شبه مغمضتين، ورأسها يسترخي على يدها اليمنى المزدانة بعدد كبير من الخواتم. أما ثوبها المعمول من الورق المعدني المذهّب؛ فنسخة بارعة، تشبه القماش المنسوج من غزول ذهبية. إن الرأس واليدين معمولة من الرخام الأبيض، وإن يكن ليس على أحسن أسلوب، إلا أنها نُحتت جميعاً نحتاً طبيعياً متقناً، يدفع الناظر إلى أن يتوقّع أن تتنفّس، وتتحرّك في أية لحظة. ثمّة ملاك صغير يجلس جوارها، مُلطّفاً لها الهواء بزنبقة. لم أستطع إبعاد عيني عن هذه الصورة، التي بدت لي ذات سِحْر خارق.

في غضون ذلك، دخل القسس إلى الكهوف، واتخذوا مقاعدهم على المنصّات، وراحوا يتلون صلاة المساء. جلستُ على أريكة قبالة المذبح، مصغياً هنيهة، ثمّ عدتُ إلى المذبح، وبركتُ؛ لكي أتملّى الصورة الجميلة للقدّيسة، مستسلماً كُلّيّة لسِحْر القدّيسة، وفتنة المكان.

تلاشت التراتيل، ونقطت قطرات الماء الناضح في الإناء. وعادت

الكنيسة قفراً من جديد، عادت كهفاً موحشاً، يُخيّم عليه صمت ثقيل، ونقاء، لا حدّ له.

إن فخاخ بهرج الشعائر الكاثوليكية، وبخاصة الصقلية منها، تتجلّى هنا بكل براءتها الطبيعية. فالإيهام الذي تخلقه شخصية القدّيسة السارحة وجداً، يجتذب حتّى عين الشخص المعترض. ولم أستطع أن أجرّ نفسي بعيداً عن الصورة إلا بجهد جهيد، وعدتُ إلى باليرمو في الهزيع الأخير من الليل.

٧ نيسان (أبريل)

قضيتُ سويعات هانئة هادئة وحيداً في الجنائن العامة القريبة من الميناء. إنها أبدع موقع في المعمورة. ورغم أنها نُسّقت على نحو شكلي، ولم تكن قديمة العهد تماماً، فإنها بدت مسكونة بالسِّحْر القادر على أن يأخذ المرء في رحلة عودة إلى عالم الأقدمين. ثمّة خطوط خضراء، تحفّ بنباتات غريبة، وثمّة تعريشات من أشجار الليمون تؤلّف ممرّاً أنيقاً من الأقواس، وثمّة أكتاف من الدفلى المزدانة بآلاف الأزاهير الحمراء التي تشبه القرنفل، وتأسر العين. وثمّة أشجار أخرى غريبة، من مناخات حارّة على الأرجح، فهي غير مورقة بعد، تنشر فروعها الغريبة. وتحوي الحديقة في طرفها الأقصى كتفاً، تعلوه أريكة خشبية، يمكن للمرء أن يطلّ منها على كامل مشهد الحديقة ونباتاتها المتشابكة؛ كما تحوي في طرفها الأدنى أحواضاً كبيرة، تسبح فيها أسماك ذهبية برشاقة، مختفية طوراً بين أعواد القصب، أو محتشدة في سرب كبير واحد، لدى سقوط قطعة خبز.

إن خضرة المزروعات متميّزة هنا، فهي إما أَمْيَل إلى الصفرة، أو أَمْيَل إلى الزرقة من اللون الأخضر الذي اعتدناه. وإن ما يضفي على هذا المشهد أكبر فتنة، هو الغبش المضبّب الذي يغلّف كل شيء بغلالة متقنة، مُولّداً

أثراً خاصاً. وبمجرّد أن يكون أي شيء على مَبعدة خطوات من سواه، فإن فارق العمق يتميّز باختلاف مسحة الضوء الأزرق التي تغلّفه. وإن أطال المرء النظر إلى الأشياء، فإن لونها يتلاشى، لتتجلّى، أمام النظر في الأفق، مسربلة بزرقة خالصة.

وإن المظهر الساحر الذي تتّخذه الأشياء البعيدة، كالسفن والأكمات المطلّة على البحر، في غبش الضباب مفيدٌ لِعَيْن الفنان الذي يتوجّب عليه أن يدرس ويتعلّم تمييز المسافات، بل قياسها بدقّة، وهو ما اكتشفتُه من خلال الصعود إلى قمّة تل. لم أعد أرى الطبيعة، بل لوحات؛ لكأن فناناً حاذقاً أضاف الضباب المغبّش؛ ليرسم التدرّج المناسب لدرجات اللون.

الجنينة المسحورة، والأمواج الحبرية في الأفق الشمالي، وهي تتكسّر على الشواطئ المتعرّجة في الخلجان، واللون الخاص لهواء البحر، تتضافر معاً؛ لتستدعي صورة جزيرة الفايسان(*) المباركين.

غَذَذْتُ السير؛ لأشتري كتاب هوميروس حتّى أقرأ الأناشيد التي يذكر فيها الفايسان. وحين عدتُ وجدتُ كنيب ينعم براحة، يستحقّها عن جدارة بعد عناء عمل مثابر طوال النهار، فقرأتُ عليه ترجمة ألمانية مرتجلة على عجل من أناشيد هوميروس، ونحن نجلس لارتشاف أقداح النبيذ الأحمر الجيد.

٨ نيسان (أبريل)، آحاد الفصح

بدأ صخب الاحتفال بقيامة السيد المسيح منذ الفجر: ألعاب نارية، وصعّادات، ومفرقعات، وما شاكل، تُدوّي بأعداد كبيرة قبالة الكنائس، أما حشود المؤمنين؛ فتشقّ طريقها إلى هذه الكنائس داخلة من الأبواب

---

*) الفايسان: هم سكّان جزيرة خرافية، زارها أوديسيوس في رحلة عودته من حرب طروادة.

المشرّعة. الأجراس تُقرَع، والأرغنات تصدح، والمواكب تُنشد بصوت واحد، وجوقات القسس ترتّل ترنيمات متجاوبة. إن الأذن التي لم تعتد على مثل هذا التعبّد المدوّي للخالق، ستجد الصخب يصمّ السمع تماماً.

لم يكد القدّاس الأول ينتهي حتّى جاءنا رسولان راكضان، يرتديان بزّة خَدَم نائب الملك إلى الحانة حاملين رسالتين شفويتين: الأولى تقديم التهاني لسائر الأجانب في هذا العيد، وأخذ البقشيش على ذلك؛ والثانية دعوتي إلى العشاء، وهي رسالة، ألزمتني بزيادة الأعطية.

بعد أن قضيتُ الصباح في زيارة الكنائس ودراسة قسمات الناس وسلوكهم، توجّهتُ بالعربة إلى قصر نائب الملك، الذي يقع في الطرف العلوي من المدينة. أبكرتُ في الوصول، فوجدتُ الغرف خالية إلا من رجل واحد بهيج، ونحيف الجسم، فعرفتُه فوراً، باعتباره فارس مالطا.

ولمّا عرف أنني ألماني، سألني عن أخبار إيرفورت التي قضى فيها ذات مرّة عطلة مسرّة. ذكر لي عائلة داخرويدن، وكوديوتور فون دالبرج، فذكرتُ له ماتيسّر من أنباء، أشاعت فيه سروراً عظيماً. واستفسر بعدئذ عن بقية تورينجيا، كما استفسر باهتمام بَيّن عن فايمار. ثمّ قال: "ماذا حلّ بذلك الرجل. الذي كان على أيامنا تلك شاباً جذلاً حَيياً. والذي طغى أثره في فايمار؟ ما اسمه؟ أنت تعرف. أقصد مؤلف آلام فيرتر." توقّفتُ لحظة، كما لو أني أحاول أن أتذكّر، وقلتُ:

"الواقع، إن الشخص الذي تسأل عنه بكل هذا اللطف هو أنا." بدا عليه الذهول التامّ، وهتف: "آه، لكم تغيّر بنا الحال!"

أجبتُ "حقاً، تغيّر الحال كثيراً. فمن فايمار إلى باليرمو تغيّرتُ كثيراً من نواح عدّة."

في هذه اللحظة، دخل نائب الملك مع حاشيته. وتصرّف معنا بتبسّط مهيب، يوائم نبيلاً من مقامه، إلا أنه لم يستطع أن يكبت ابتسامة، ظهرت على محيّاه، عندما راح فارس مالطا يُسهب في وصف ذهوله وعجبه لرؤيتي هنا. جلستُ على مائدة العشاء جوار نائب الملك، الذي استفسر عن خبايا رحلتي، ووعدني بأن يُصدر التوجيهات بأن يُؤذَن لي بمشاهدة كل ما أبتغي في باليرمو، وأن أحظى بكل عون ممكن في أرجاء صقلية كلها.

٩ نيسان (أبريل)

انصرم نهارنا بأكمله على الانشغال بجنون أمير بالاجونيا. وتبيّن أن حماقاته تختلف تماماً عن كل ما تخيّلناه بعد سماعنا عنها، وقراءتنا تفاصيلها.

يجد المرء نفسه حائراً ضائعاً، حين ينتظر الآخرون منه أن يصف سخافة معيّنة؛ لأنه مهما بلغ به حبّه للحقيقة، فإن مجرّد وصفه لهذه السخافة يجعل منها شيئاً له معناه، في حين أنها في الواقع تفاهة، لا معنى لها، تفاهة تودّ أن تكون شيئاً ذا معنى. دعوني - إذنْ - أستهل ملاحظاتي بفكرة تأمّلية أخرى: ليس الابتذال التفه ولا الكمال البارع شيء من إبداع إنسان واحد، أو حقبة واحدة؛ فإنعام الفكر يقودنا إلى العكس، ويقتفي أصول تاريخ نشوء الاثنين.

إن النافورة التي ذكرتُها آنفاً يمكن أن تُعدّ واحدة من أسلاف جنون إمارة بالاجونيا، والفارق الوحيد أن لهذه الأخيرة رقعتها الخاصة من الأرض؛ حيث تنعم بالحُرّيّة التامة لإظهار جنونها على نطاق هائل. سأحاول الآن أن أتعقّب أصول تاريخها.

تُشاد منازل الريف في هذه المناطق في وسط الضياع، لذا؛ يتوجّب على المرء، حتّى يبلغ أي منزل، أن يمضي بالعربة وسط حقول مزروعة،

وبساتين فاكهة، وغير ذلك من المنشآت الزراعية النافعة. لكن الناس هنا أكثر اقتصاداً من أهالي بلدان الشمال، الذين يضحّون بأيكر من القيعان الثمينة؛ ليشيدوا منتزهاً، يسرّ الناظر بشجيراته وأزاهيره التي لا ربح منها. أما الجنوبيون؛ فإنهم يشيدون على العكس جدارين، يصل منهما المرء إلى المنزل الكبير، من دون أن يعرف جلية ما يحصل وراء كل جدار. وتبدأ رحلة العربة عادة ببوّابة ضخمة. تضمّ أحياناً ردهة مسقوفة أيضاً. وتنتهي بفناء المنزل.

ولإشغال العين بما يُرى، يزدان أعلى الجدار بحلية معمارية، تشبه الأساور والحلقات، التي توضع فوقها المزهريات أحياناً. أما سطح الجدار؛ فمُقسّم إلى ألواح بيضاء. وأما الفناء الأمامي الدائري الشكل، فمُحاط بمباني من طابق واحد لسكن الخَدَم وشغّيلة المزرعة، وتشمخ فوق ذلك كتلة مستطيلة من البناء هي المنزل ذاته.

هذا الطراز من الترتيب هو التقليد الشائع، ولعلّه كان قائماً قبل أن يشيد والد الأمير المنزل. وإن ذوق هذا الوالد، وإن يكن ليس الأحسن، مقبول مع ذلك، أما ابنه، أي المالك الحالي؛ فإنه أطلق العنان لهواه، من دون أن يبتعد عن التصميم العامّ؛ لكي يضيف أشكالاً شائهة منفّرة، وإن من فاحش الخطأ أن يَنسب إليه المرء أدنى وقدة من الخيال.

عند دخول القاعة الكبرى على حدود الضيعة، وجدنا أنفسنا في ردهة مُثمّنة الأضلاع، يزيد ارتفاعها على عرضها، في انعدام تامّ للتناسب. وهناك أربعة أعمدة عملاقة ذات غطاء حديث، ترفع الإفريز الذي يعلوه الثالوث المقدّس المواجه للبوّابة. أما الطريق الموصل إلى المنزل؛ فعريض على نحو غير مألوف، وقد حوّل كل جدار يحفّ هذا الطريق إلى نتوء متّصل، وُضعت عليه دكك غريبة لحمل "مجموعات غريبة". تتخلّلها آنية

زهور. وإن المظهر المنفّر لهذه الأشكال المشوّهة التي احتفرها قاطعو أحجار غير حاذقين، تزداد قبحاً بالمادة التي صُنعت منها، وهي حجر مسامي، يشبه القواقع؛ وما كان لاستخدام مادّة أفضل إلا أن يجعل خرافة الشكل أكثر مجافاة للذوق. قلتُ إن الدكك تحمل "مجموعات" غريبة، إلا أن كلمة "مجموعات" لا تفي بالمرام؛ لأن هذه الأشياء ليست نتاج حساب حصيف، ولا نتاج نزوة؛ بل مجرّد ركام عرضي.

تحمل كل دكّة مكعّبة ثلاثة مجموعات، صُنعت قواعدها بطريقة، تجعلها تملأ سطح الدكّة كله حين تُرصف معاً بأية صورة. وإن المجموعة الطاغية تتألّف عادة من تمثالين، وإن قاعدتها تلتهم الجزء الأكبر من الدكّة الأمامية. وإن هذه التماثيل هي - بمعظمها - تماثيل حيوانات، أو وحوش بشرية. هناك حاجة إلى تمثالين آخرين لملء الفراغ في مؤخّرة الدكّة. هناك تمثال متوسّط الحجم، يمثّل - في العادة - راعياً أو راعية، فارساً، أو سيدة، قرداً راقصاً، أو كلباً. أما الفسحة الأخيرة؛ فيملؤها - في الغالب - تمثال، يمثّل قزماً، نظراً لأن هذا الجنس التعس من المخلوقات هو موضع أقذع النكات.

إليكم قائمة تعطيكم فكرة عمّا ارتكبه أمير بالاجونيا في جنونه:

الكائنات البشرية: شحّاذون وشحّاذات، نساء ورجال من إسبانيا، مغاربة، أتراك، رجال ذوي حدبات، ومشوّهون من كل شاكلة، أقزام، موسيقيون، جنود في بزّات تاريخية، آلهات وآلهة، أناس يرتدون أزياء فرنسية قديمة، جنود يحملون جعب ذخيرة، ويرتدون سراويل ضيقة، شخصيات أسطورية مع ملحقات غريبة، مثل أخيل وشيرون مع مهرّج (بولسينيلا).

الحيوان: تقتصر التماثيل على أجزاء منها: حصان بيدين بشريتين،

رأس حصان على جسد إنسان، قردة مشوّهة، أكثر من تنّين واحد، أفاع، أصلاف من كل شاكلة مركّبة على أجساد من كل نوع، مخلوقات برأسين، أو مخلوقات تبادلت الرؤوس.

آنية الزهور: أوان ينبجس من بطونها أو قواعدها كل أنواع الوحوش، أو اللوالب المدرجة.

تخيّلوا الآن شخوصاً مماثلة تتضاعف بلا انتهاء، ومصمّمة من دون ذوق أو عقل، مجموعة في خليط، لا تمييز فيه، ولا منطق، دكك ووحوش في صفّ طويل، لا ينتهي، وتخيّلوا أيضاً المشاعر الممضّة التي تُثيرها، وعندئذ ستُشفقون على مَن يضطر إلى الخوض في محنة هذا الخبل.

حين بلغنا المنزل الكبير، استقبلنا بذراعيه فناء شبه دائري، قبالة بوّابة جدار مصمّمين على هيئة قلعة. وجدنا هنا تمثالاً مصرياً، بُني في الحائط، ونافورة بلا ماء، وتمثالاً، إضافة إلى حشد هائل من آنية الزهور والتماثيل المبطوحة عمداً، وأنفها في الرغام، منثورة في كل مكان تقريباً.

يتّخذ الفناء الداخلي شكلاً تقليدياً نصف دائري، ولكي لا يكون ثمّة افتقار إلى التنوّع، شيدت المباني الواطئة المحيطة به في شكل نصف دوائر صغيرة. واكتست الأرصفة بالعشب النامي، مضفية على الفناء مظهر مقبرة قديمة خربة. وثمّة جرار رخامية، غريبة الشكل، ورثها المالك عن أبيه، وتماثيل أقزام، ومخلوقات بشعة أحدث عهداً، مَرمية دون انتظام، على أمل أن تجد لها مكاناً مناسباً. أضف إلى ذلك وجود تعريشة تعجّ بآنية الزهور القديمة، واللوالب الحجرية المدرجة من مختلف الأصناف.

غير أن رداءة الذوق وفساد هذا العقل غريب الأطوار، إنما يصلان ذروتهما في أفاريز المبانِي الواطئة المائلة من هنا، أو المعوّجة من هناك،

لمجرّد أن تفسد وتعطب إحساسنا بتوازن السوائل، وإحساسنا بالامتداد الشاقولي، رغم أن هذا المبدأ الأساسي لتناسق كل بنية هو ما يجعل منا كائنات بشرية. وإن سقوف هذه المباني مزينة هي الأخرى بكل أنواع الأفعوانات متعدّدة الرؤوس، والتماثيل النصفية الصغيرة، وجوقة كاملة من القردة، والسخافات المشابهة، علاوة على تناوب تماثيل التنانين والآلهة، ووجود أطلس، يحمل برميل نبيذ بدل الكرة الأرضية.

وإن تمنّى المرء أن يهرب من كل هذه المنغّصات بدخول البيت، الذي يبدو من الخارج معقولاً، منذ أن شاده الأب، فإنه سيواجه، ما إن يدلف من الباب، برأس إمبراطور روماني مزدان بأكليل غار، إلا أنه موضوع فوق جسد قزم فوق دلفين. وترتفع حمى الأمير داخل البيت؛ لتصل مرتبة الهذيان. لقد بُترت أرجل الكراسي بالمنشار حتّى لا يستطيع أحد الجلوس عليها، وقد حذّرنا سادن القلعة من مغبّة استخدام الكراسي الاعتيادية، لوجود مسامير شائكة، أُخفيت تحت قماش وسادة الجلوس الحمراء. وهناك شمعدانات ذات شعب معمولة من الخزف الصيني مثبوتة في الزوايا؛ وعند النظر إليها عن قرب، يتضح أنها مؤلّفة من أوان، وأكواب، ومواعين صغيرة، لُصقت مع بعضها بمادّة الصمغ. وتطلّ على المرء من كل زاوية أشياء غريبة مزاجية.

وامتدّ الفساد: ليطال منظر البحر الواقع وراء سفوح التلال، وذلك بسبب ألواح الزجاج الملوّن في النوافذ، فهذه الألواح تبهت الألوان الصارخة، أو تجعل الألوان الباهتة نارية. ولا يجوز أن أنسى الخزانة. إن ألواحها معمولة من إطارات ذهبية أثرية، قُطعت بالمنشار إلى عدّة قطع، ثمّ لُصقت ببعضها. وهناك مئات من أساليب النقش، القديم منها والحديث، محشورة كلها في هذه الألواح، التي بات طلاؤها الذهبي

يتقشّر؛ حيث لم يفلح الغبار في كسائها، فبدت الخزانة لذلك مثل قطعة مزرية من الخردة.

إن وصف الكنيسة الصغيرة من شأنه أن يملأ مجلّداً. فها هنا يجثم الدليل على الجنون المطبق. وما كان لهذه الكنيسة أن تنمو إلى مثل هذه الأبعاد الجامحة إلا في خيال متعصّب ديني. ينبغي أن أترك لكم حُرّيّة أن تتخيّلوا كثرة كاريكاتيرات التقوى المنحرفة التي اجتمعت هنا، وسأكتفي بذِكْر أبرزها سخفاً.

ثمّة صليب كبير الحجم معمول من الخشب، ومصبوغ بألوان واقعية، وقد لُمِّع وذُهِّب في مواضع معيّنة، وثُبِّت بصورة مسطّحة على السقف. هناك خطّاف ثُبّت في وسط الصليب، تتدلّى منه سلسلة، رُبطت برأس رجل راكع، يتلو الصلاة، وقد دُهن ولُمِّع على غرار كل شيء آخر. والرجل معلّق في الهواء كرمز لتقوى المالك الحالي، وإيمانه الدائم.

لقد شُيد البيت جزئياً؛ فالصالة الكبيرة المصمّمة والمؤثّثة بعناية، رغم أن ذلك لم يتمّ بذوق مناف البتّة، لم تكتمل بعد. ويبدو أن ثمّة حدود لقدرة الأمير على الانغماس في هَوَسه المجنون.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها كنيب يفقد صبره. فهذا البيت المجنون داس على مشاعره المرهفة، بوصفه فناناً، وحين حاولتُ أن أدرس تفاصيل هذه البشاعات الفظيعة، جرّني بعيداً عنها. ولكنه تنازل أخيراً، ورسم إحدى المجموعات، مدفوعاً بطيب سريرته، وهي الوحيدة التي تؤلّف صورة من نوع ما: امرأة برأس حصان، تقتعد كرسياً، وتلعب ورق القمار مع شريك، هو فارس يرتدي ثياباً قديمة الطراز. ولهذا الفارس رأس نسر خرافي، ويعتمر شعراً مستعاراً، ثُبّت عليه تاج ملوكي. وهذا

يذكّرني بشيء: إن شعار رداء الحرب لأسرة بالاجونيا هو الساطير(*) الذي يحمل المرآة لامرأة لها رأس حصان. ويبدو لي هذا الشعار أغرب من كل ما رأيتُ من سخافات في هذا المكان.

١٠ نيسان (أبريل)

اليوم ارتقينا التل إلى مونريال بالعربة على طريق مبلّط تبليطاً رائعاً، شقّه رئيس دير الرهبانية أيام ثراء الأديرة الفاحش. كان الشارع عريضاً، سلس الانحدار، تحفّه من هنا وهناك بعض أشجار؛ والأروع من ذلك نافورات جارية، يتدفّق منها الماء عالياً، ومزيّنة بأفاريز وزخرفات غريبة غرابة زخرفة فالاجونيان، إلا أنها منعشة ومرطّبة، لمَن هبّ ودبّ من حيوان وبشر.

إن رهبانية سان مارتينو مؤسّسة موقّرة. إن عجوزاً أعزب مؤكد، يعيش وحده ما استطاع أن ينتج شيئاً معقولاً ـ خذ حالة أمير بالاجونيا ـ لكن مجموعة رهبان منقطعين يمكن أن يبتدعوا أعظم الأعمال، كما تشهد على ذلك كثرة من الكنائس والأديرة. ولعل السبب الحقيقي وراء قدرة الطوائف الدينية على اجتراح هذا القدر الكبير من الأعمال يرجع إلى أن هذه الجماعات، خلافاً لآباء الأسر العادية، تستطيع الاعتماد على عدد من الأخلاف، لا حدّ له.

أطلَعَنا الرهبان على متحفهم. إنهم يحوزون الكثير من الأشياء الجميلة من تحفيات قديمة، ومن منتجات طبيعية. وقد أثارت عجبنا - على نحو خاص - عملة معدنية، تحمل صورة إلهة شابّة. وأبدى آباء الدير الاستعداد، عن طيب خاطر؛ لأن يقدّموا لنا نسخة عنها، ولكنهم لا يتوفّرون على المواد اللازمة لصنع قالب.

---

*) إله الغابات، عند الإغريق، له رأس وذيل حصان.

وبعد أن أطلعونا على كل محتويات المتحف، ليس من دون عقد مقارنات متأسّية بين الماضي واليوم الحاضر، أخذونا إلى غرفة صغيرة حلوة، تطلّ شرفتها على منظر بهيج. جاؤوا بطاولة لنا نحن الاثنين، وعمروها بما لذّ وطاب من طعام. بعد أن اختتمنا الوليمة بالحلوى، دخل رئيس الدير مصحوباً بأكبر الرهبان سنّاً، فجلس معنا، وبقي زهاء نصف ساعة، حظينا فيها بأجوبة شافية عن أسئلة كثيرة. بعد هذا، ودّعونا وداعاً ودّياً؛ ورافقنا أصغر الرهبان في طريق العودة إلى المتحف، وصولاً إلى عربتنا.

عدنا إلى البيت بمزاج رائق، يختلف تماماً عن المزاج الذي عدنا فيه بالأمس. من المؤسي حقاً أن تواجه مثل هذه المؤسّسة العظيمة - مؤسّسة الدير - الانحدار، في وقت تزدهر فيه مشاريع مبتذلة كالتي رأيناها بالأمس.

إن الطريق إلى سان مارتينو يمضي عبر تلال من حجر الكلس المتشكّلة في عهد تاريخي قديم. الحجر هنا يُحتفر، ويُسحق سحقاً، ويُحرق؛ ليغدو كلساً أبيض. أما الوقود هنا؛ فيستمدّونه من نوع من الحشائش طويل الساق، يُحزم أكداساً، ويُجفّف. وبهذه الطريقة يحصلون على ما يسمّونه كالكارا (بالإيطالية)؛ أي الجير. إن أديم التربة في أعالي المنحدرات الشديدة كناية عن صلصال أحمر قديم. وكلّما أوغل المنحدر ارتفاعاً، اشتدّ الصلصال حمرة، نظراً لأن النباتات لا تحجب عنه النور. ورأيتُ في البعيد موقعاً للحفر ذا جدران بلون الكبريت الزئبقي الأحمر الزاهي.

التلال المحيطة بالدير حسنة الزراعة، وغنية بالينابيع.

١١ نيسان (أبريل)

بعد أن رأينا الموقعين الهامين الرئيسين خارج المدينة، رحنا الآن لزيارة قصر بالازو ريال؛ حيث طاف بنا ساعي نائب الملك في أرجائه طوافاً يثير

الامتنان. ولسوء حظّنا كانت صالة التحفيات القديمة في حالة قصوى من الفوضى، نظراً لأنهم يجدّدون ديكور الجدران.

لقد أُزيحت التماثيل عن مواضعها، وغُطّيت بالشراشف، وتوارت عن عين الناظر خلف الصقالات، ولم نتمكّن من رؤيتها كما ينبغي، على الرغم من سعي الحاجب، ومساعدة العمّال أحياناً. وأثار اهتمامي كبشان من البرونز ممتعان للنظر حتّى في تلك الظروف غير المؤاتية. والكبشان منحنيان، ورأساهما متّجهان في اتجاهين متعاكسين، وقد برز قرن أحدهما، كما لو أن الاثنين يكملان بعضهما. وإن شعر صوف الكبشين ليس قصيراً، بل يسترسل طويلاً متموّجاً. يا لهما من حيوانين جبّارين من أسرة الأساطير! كبشين عظيمين جديرين بحمل فريكسوس وهيله(*)، ويا لهما من عملين فنيين عظيمين من خيرة ما أبدعه زمان الإغريق! يقال إنهما كانا ينتصبان في ميناء سيراكيوز.

أخذنا الحاجب لمشاهدة سراديب الموتى خارج المدينة. لابد أن مصمّم هذه وهما من حجر التوفا كثير المسامّ. وقد حُفرت فيهما السراديب. رجل يمتاز بحس معماري، فهي لا تبدو بمثابة مواقع حفر الأحجار التي استُخدمت عرضاً كمدافن. إن جانبي السرداب شاقوليان، وفتحات عميقة، لوضع التوابيت الحجرية فيها، الواحد فوق الآخر. وإن التوابيت العلوية أصغر من السفلية، أما الفسح الموجودة فوق الأعمدة؛ فقد استقبلت توابيت الأطفال. والسرداب يخلو من أي بناء، أو تسقيفة لإسناده.

١٢ نيسان (أبريل)

شاهدنا اليوم مجموعة العملات التي يحوزها الأمير توريموزا. لقد

*) إله أسطوري عند الإغريق. وهو ابن الإله أثاماس وزوجته فيفالي، وقد فرّ من شرّ خليلة أبيه في صورة كبش مجنّح ذي جزّة ذهبية، حاملاً أخته هيله، التي وقعت عن ظهره، وسقطت في البحر.

ذهبت على مغص مني. فأنا لا أفقه شيئاً في هذا المضمار، فما السائح المستطلع إلا هلاك الخبير. مهما يكن، يتوجّب على المرء أن يبدأ من نقطة ما، لذا؛ رضخت، ومضيتُ في هذه الجولة التي أمدَّتْني بمتعة عظيمة، وبعض فائدة.

لقد حفل عالم القدماء بالكثير من المُدُن، وقد تَركت لنا جميعاً، حتّى أقلّها شأواً، عملات معدنية ثمينة، هي بمنزلة وثيقة، إن لم تكن السجلّ الكامل لتاريخ الفن في بعض أطواره، على أقل تقدير. وجدنا أنفسنا في أحضان ينبوع سرمدي من ثمار وأزاهير الفن الخالدة ينبوع، يبسم بوجوهنا، مطلاً علينا من تلك الأدراج، مُنبئاً بقصّة مهارة حِرَفية، حُذقت ومُورست طوال حياة أجيال، علاوة على قصص أخرى كثيرة.

واأسفاه، فنحن الآخرين لم نحز في شبابنا غير ميداليات الأسرة، التي لا تقول شيئاً، وعملات تحمل صور الأباطرة، وتتكرّر فيها تكراراً مملاً رسوم الحكّام المطلقين الذين لا يمكن اعتبارهم مثالاً للبشرية. ولشدّ ما يحزنني أن أتذكّر أن معرفتي التاريخية اقتصرت أيام شبابي على فلسطين وحدها، وقد خلت من أية صور، وعلى روما، التي كان لها من الصور ما يفيض. لقد أمدّتْني صقلية وماجنا جراسيا بالأمل لبدء حياة جديدة.

إن انغماسي في تأمّلات نظرية عن هذه المواضيع برهان على قلّة معرفتي بها؛ لكني آمل أن أحسّن حالي في هذا المجال، كما في كل ما عداه.

تحقّقتْ في هذا المساء واحدة أخرى من أمانيي الكثار، وعلى نحو مفاجئ أيضاً. بينما كنتُ واقفاً في الشارع الرئيس أمازح صاحبي القديم، مالك الحانوت، دنا مني ساعٍ حسن الهندام، ومدّ إليّ صينية من الفضّة،

تناثرت فيها بضع قطع من العملات المعدنية، وأقلّ منها قطع فضّية. ولمّا كنتُ أجهل مقصده، فقد هززتُ منكبي، وأشحتُ بوجهي بعيداً، في تلك الإيماءة التي تفيد أن المرء لم يفهم المقصد، أو لا يرغب في أن يفهمه. فمضى بالسرعة التي دنا بها؛ بعد هذا رأيتُ ساعياً آخر على الجانب الآخر من الطريق، يقوم بالعمل ذاته.

سألتُ صاحب الحانوت عن جلية الأمر، فأشار بإيماءة مُلغزة ماكرة، إلى نبيل، يرتدي أفخر الثياب، ويمشي وسط الشارع، عبر الأوحال والأقذار، بخيلاء ورباطة جأش. ها هو ذا يعتمر باروكة شعر مستعار مجعّد، ومعطر، حاملاً قبّعته تحت إبطه، لابساً معطفاً من الحرير، ومتمنطقاً بسيفه، ومرتدياً حذاء أنيقاً ذا إبزيم مرصّع بالأحجار الكريمة. كان هذا النبيل المسنّ يمشي في وقار، متجاهلاً كل العيون الشاخصة، التي ترصّده.

قال صاحب الدكان "هذا هو الأمير بالاجونيا: " إنه يطوف في المدينة من حين إلى آخر جامعاً التبرّعات لدفع فدية الأسرى الذين يستعبدهم قراصنة بارباري. إن التبرّعات ليست كثيرة، لكنها تذكرة للناس بمصاب المأسورين. إن من لا يتبرعون في حياتهم يتركون بعد مماتهم قسطاً من الإرث؛ لِيُنفق في هذا السبيل. وإن الأمير هو رئيس هذه الخيرية منذ سنوات، وقد بذل الكثير في هذا الصالح."

قلت "لو أنه كفّ عن إنفاق أموال طائلة على الغباوات التي تعمر قصره، واستخدمها في سبيل هذه القضية، لما فاقه أيّ أمير آخر في الإنجاز."

اعترض صاحب الدكان على قولي وأجاب "ألسنا جميعاً على هذا النحو؟! إننا ننفق بسخاء على حماقاتنا، وننتظر من الآخرين أن يدفعوا لقاء فضائلنا."

١٢ نيسان (أبريل)

إن كل مَن يتمتّع بأدنى اهتمام بعلم المعادن، ويذهب إلى صقلية، لابدّ وأن يشعر بأنه مَدين للكونت بورش، الذي كان أول مَن يدرس معادنها دراسة مستفيضة. إن تكريم ذكرى الأسلاف متعة وواجب، في آن. وماذا أكون أنا، في حليّ وترحالي، غير سلف لمَن سيأتون من بعدي؟!

يبدو لي أن دأب الكونت فاق علمه، ذلك أن مقاربته تشي برضى عن النفس، فهي تفتقر إلى التواضع والجدّ اللازمين لمعالجة القضايا الهامّة. لكن مجلّده الكبير المكرّس لدراسة معادن صقلية بالغ الأهمّيّة عظيم النفع، وقد هيّأتُ نفسي، اعتماداً عليه، لزيارة صاقلي الأحجار. ورغم أنهم لم يعودوا غارقين في الأعمال، كما كانوا من قبل، أيام تزيين الكنائس والمذابح بالرخام والعقيق، فإنهم ما يزالون يواصلون حرفتهم. طلبتُ عيّنات من أحجار رخوة، وأخرى صلبة. تلك هي الأسماء المهنية التي تُطلق على الرخام والعقيق، وإن الفارق الوحيد في نظر الصقّالين بين هذا وذاك هو فارق السعر. ويمتاز الصقّالون بحذق كبير في التعامل مع مادّة أخرى هي الناتج العرضي المتخلّف في التنّور الكلسي. ويجد الصقّالون في الجير المتكلّس قطعاً لضرب من المعجون الزجاجي، الذي يتباين لونه من الأزرق الفاتح، إلى الأزرق الداكن المسود. ويقطع الصقّالون هذه وغيرها من المعادن رقائق خفيفة، ويبيعونها بأسعار شتّى حسب درجة النقاوة ولمعان اللون. ويمكن استخدام هذه الرقائق بديلاً عن اللازورد في تزيين مذابح الكنائس والأضرحة، وزخرفات أفاريز الكنائس.

ابتعتُ مجموعة كاملة منها، إلا أنها لم تُنجز بعد، ويتعيّن إرسالها إلى نابولي. إن جمال العقيق نادر حقاً، خصوصاً نماذجه المزيّنة بقطع من اليشب الأصفر أو الأحمر المتناوبة مع الكوارتز الأبيض المتجمّد. ثمّة

نسخة مطابقة لهذه، صُنعت بإكساء الجانب الخلفي من ألواح الزجاج الرقيق بأصباغ تلميع، وقد كانت الشيء الوحيد المعقول الذي رأيتُه في بيت الجنون، للأمير بالاجونيا. ولهذه القطع قدرة بينية أعظم من النوافذ المعمولة من العقيق الأصلي، فهذه الأخيرة توجب لصق الكثير من أحجار العقيق الصغيرة، أما تلك؛ فإن بوسع المعماري أن يأمر بصنع ألواح كاملة منها بالحجم الذي يريد. وإن هذه الحيلة الفنية لجديرة بالشيوع في الاستعمال.

١٣ نيسان (أبريل)

إن زيارة إيطاليا من دون مشاهدة صقلية تعني أنك لم تزر إيطاليا قطّ، فصقلية هي الدليل الموصل إلى كل شيء.

نحن الآن في موسم الأمطار. هدرت اليوم زوابع رعدية. لكن الأمطار تنقطع باستمرار بنهارات صحو رائعة؛ لتغمر كل شيء بخضرة جبّارة! تفتّق بعض نبات الكتّان عن براعم، وبعضه الآخر عن أزهار، وإن الخضرة الداكنة المزرقّة، لحقول الكتّان تزيّن قيعان الوديان مثل بحيرات صغيرات. وإن مرافقي هو "معقد الأمل"(*) الذي سأواصل إزاءه القيام بدور "الصديق الحقّ". لقد فرغ من إنجاز العديد من التخطيطات، وسيواصل العمل على أخريات. وإن فكرة عودتي ذات يوم حاملاً كل هذه الكنوز تملؤني غبطة.

لم أقل حتّى الآن كلمة واحدة عن الطعام. هذا الموضوع الهامّ، بعد كل شيء. إن الفاكهة لذيذة، وبخاصة الخسّ، فهو رقيق وعذب مثل مذاق الحليب؛ ولا عجب أن سمّاه قدماء الإغريق لاكتوكا lactuca ؛ تعني عصير الحليب (بالإيطالية). كما أن الزيت والنبيذ حسنان، مع أنهما سيكونان

---

*) "معقد الأمل" Hoffegut، والصديق الحقّ (Truefriend)، هما من شخصيات مسرحية: الطير، لجوته نفسه.

أفضل، لو كانت ثمّة عناية أكبر في إعدادهما. أما السمك؛ فرائع وذو مذاق شهي خاص. كما أن لحم البقر طيّب أيضاً، رغم أن أغلب الناس هنا لا يوصون بتناوله.

دعونا نترك المائدة، ونتجه إلى النافذة لإلقاء نظرة إلى الشارع. وكما يحصل عادة في هذا الموسم، ثمّة مجرم أُرجئ تنفيذ حكم الإعدام فيه إكراماً للأسبوع المقدّس، وهناك جمع من أخوانية دينية تصطحبه إلى مشنقة مزيّفة. فيتلو صلاته، ويقبّل سلّم المشنقة، ويُعاد ثانية إلى محبسه. وهذا الرجل وسيم الطلعة موفور الصحّة، وهو من الطبقة الوسطى، ويرتدي ثياباً بيضاء بالكامل، كما يلبس سترة بيضاء طويلة الذيل، ويعتمر قبّعة بيضاء. وهو يحمل قبّعته بيده. وضع بعض الأشرطة الملوّنة على ملابسه هنا وهناك، وسيستطيع الذهاب إلى أية حفلة تنكّرية، بصفة راعي أغنام.

١٣ و١٤ نيسان (أبريل)

يتعيّن عليّ الآن أن أضع تفاصيل مغامرة مفردة، خضتُها قبل مغادرتي باليرمو.

غالباً ما تناهى إلى مسمعي في أثناء الولائم العامة، خلال مكوثي هنا، حديث الناس عن كاجليو سترو، من أين جاء، وما حلّ به. ويتّفق أهالي باليرمو حول نقطة واحدة: أن شخصاً يُدعى جيوسيب بالسامو وُلد في مدينتهم، وإن صيته السيئ ذاع لكثرة أخاديعه، فنُفي عن المدينة. لكن الآراء منقسمة حول ما إذا كان هذا الرجل والكونت كاجليو سترو هما الشخص الواحد عينه. ويصرّ بعض الذين عرفوا بالسامو أنهم يستطيعون تشخيص ملامحه في الصورة الشهيرة المحفورة التي وصلت إلى باليرمو. وذكر أحد الضيوف، خلال تلك المناقشات الحامية، الجهود التي بذلها محام من باليرمو لإجلاء حقيقة هذه المسألة بأكملها. لقد استأجرت السلطات

الفرنسية خدمات هذا المحامي؛ لكي يحقّق في التاريخ السابق لرجل تجرّأ، خلال سير مرافعات هامة وخطيرة في سوح القضاء(*)، أن يهين ذكاء الفرنسيين، بل وذكاء العالم كله، بأسخف أنواع القصص التي لا تُصدّق.

وضع هذا المحامي، كما قال لي البعض، شجرة عائلة جيو سيب بالسامو، وأرسلها مرفقة بمذكرة إيضاحية وملاحق وثائقية، إلى فرنسا؛ حيث لابد أن تجد طريقها إلى النشر.

لقد أثنى الجميع، بإكبار، على هذا المحامي، ولمّا أعربتُ عن رغبتي في التعرّف إليه، عرض عليّ محدّثي أن يصحبني إلى منزل المحامي، ويعرّفني إليه.

بعد عدّة أيام، ذهبنا معاً، ووجدناه في جلسة مشورة مع بعض الموكّلين. ولمّا فرغ من عمله، جاءنا بمسودة، تحوي شجرة عائلة كاجليو سترو مشفوعة بالوثائق الثبوتية، وبنسخة عن مذكرته.

أعطاني شجرة العائلة تلك؛ كي أنعم فيها، بينما راح يشرح فحواها لي. ولسوف أقتبس قدراً كافياً ممّا قال لإيضاح الشجرة.

إن جَدّ جَدّ جيوسيب بالسامو من جهة الأمّ هو ماتيو مارتيلو. وإن اسم جَدّة جَدّه قبل الزواج غير معروف. نشأ عن هذا الزواج ابنتان: الأولى ماريا التي تزوّجت جيوسيب براكونيري، وغدت جَدّة جيوسيب بالسامو؛ والثانية فينسينزا، التي تزوّجت جيوسيب كاجليو سترو، مواطن لانوارا، وهي قرية تبعد ثمانية أميال عن مسينا. (وبالمناسبة هناك اثنان من سبّاكي الأجراس باسم كاجليو سترو، مايزالان يعيشان في مسينا.) وأصبحت فينسينزا كاجليو سترو عرّابة ابن أختها، الذي عُمّد باسم زوجها: جيوسيب. وحين

*) الإشارة هنا إلى "قضية قلادة الماس" مع ملكة فرنسا، ماري أنطوانيت ١٧٨٢ ـ ١٧٨٤.

توجّه جيوسيب بالسامو للعيش في الخارج، انتحل لنفسه اسم عائلة خاله: كاجليو سترو. لقد أنجب جيوسيب وماريا براكونيري ثلاثة أطفال: فليستياس، وماتيو، وأنطونيو.

اقترنت فليستياس بابن أنطونيو بالسامو، وهو بائع خردوات في باليرمو، ويبدو أنه من أصل يهودي. إن بيترو بالسامو، والد جيو سيبا سيئ الصيت، أفلس، ومات في سنّ الخامسة والأربعين. أما أرملته، التي ما تزال على قيد الحياة؛ فقد حملت منه طفلاً آخر، أنثى، هي جيوفانا جيوسيب. ماريا. وتزوّجت هذه الابنة من جيوفاني باتيستا كابيتومينو، الذي مات، مخلّفاً وراءه ثلاثة أطفال.

إن المذكرة التي قرأها عليّ مؤلّفها بكل ممنونية بناء على طلبي، وأعارني إياها لعدّة أيام، تعتمد على شهادات التعميد، وعقود النكاح وغيرها من الوثائق القانونية التي جمعها في حرص كبير(*). تصف الوثائق كيف استغلّ جيوسيب موهبته في تقليد أيّ خط. فزوّر، أو بالأحرى، اصطنع وثيقة قديمة، اعتمدها في رفع دعوى قضائية للمطالبة ببعض الأملاك. وحامت الشبهات حوله، فجرى استجوابه، وحَبْسه، إلا أنه أفلح في الفرار، وأصدرت المحكمة مرسوماً باستدعائه للمثول. ورحل في أرجاء كالبريا وصولاً إلى روما؛ حيث تزوّج امرأة تُدعى لورينزا، وهي ابنة حِرَفي نحاسيات. وانطلق من روما إلى نابولي منتحلاً اسم المركيز باليجريني. وخاطر بالعودة إلى باليرمو، فعرفه الناس، وأودع الحبس، لكنه تمكّن من استعادة حُرّيّته. وإن هذه الحكاية جديرة بالقصّ.

---

*) بعد سنوات أضاف غوته ما يلي: وتحوي الوثائق، كما أرى من مقتبس نقلتُه عنها وقتذاك، نفس التفاصيل الواردة في محاضر محاكمة روما، وبالتحديد أن جيوسيب بالسامو وُلد في باليرمو بداية حزيران ١٧٤٣، وأنه انضمّ في شبابه إلى "أخوانية الرحمة"، وهي طريقة دينية، تُكرّس نفسها للعناية بالمرضى، وأنه أبدى وعداً مبكّراً بذكاء خارق، وموهبة بارزة في الطّب، إلا أنه طُرد من الأخوانية لسوء سلوكه، ثمّ ظهر بعد ذلك في باليرمو مُدّعياً أنه ساحر وكشّاف الكنوز الخبيئة.

هناك أمير صقلي بارز، ومالك أطيان واسعة، وهو يحتلّ مناصب عليا رفيعة في محكمة نابولي، له ابن يجمع المزاج العنيف بالجبروت الجسدي، بكل الغطرسة التي يتوهّم الأثرياء وأهل السلطان أن لهم حقّ التمتّع بها، ما لم يتلقّوا التهذيب الرادع.

أفلحت السيدة لورينزا كاجليو سترو المنتحلة لقب باليجريني، في أن تفوز بالحظوة. لم يُخفِ الأمير الشابّ سرّاً في أنه حامي هذين الزوجين القادمين حديثاً. لكن الفريق المتضرّر من هذا النصب والاحتيال رفع دعواه، فأودع سيب بالسامو السجن ثانية. وبالطبع غضب الأمير غضباً مسعوراً. وطرق شتّى السبل لإخلاء سبيله، وحين خابت مساعيه، أقام الدنيا، وأقعدها في الغرفة الداخلية للقاضي؛ حيث هدّد بجلد ممثّل المدّعي، إن لم يلغ دعوة القبض على بالسامو في الحال. رفض ممثّل الادّعاء، فجرّه الأمير، وطرحه أرضاً، وداس عليه، وكاد يكيل له المزيد من الضرب المبرح، لولا أن القاضي أسرع، حال سماعه الجلبة، لإيقاف الأمر عند حدّه. إلا أنه كان رجلاً ضعيفاً خنوعاً، فلم يجرؤ على معاقبة المعتدي. أصاب الخوف المدّعي ومحاميه، فأُخلي سبيل بالسامو. وتخلو السجلات الرسمية من أية إشارة إلى الطرف الذي أمر بذلك، أو ظروف الإخلاء.

بعد ذلك مباشرة، غادر بالسامو مدينة باليرمو، ولم تتوفّر لمؤلّف المذكرة تقارير وافية عن بقية رحلات هذا البلسامو. وتختتم المذكرة ببرهان منطقي دقيق، يفيد أن كاجليوسترو وبالسامو هما الشخص الواحد عينه[*].

---

*) بعد سنوات أضاف غوته ما يلي: في ذلك الوقت كان من الصعب إسناد هذه الأطروحة، قياساً إلى يومنا هذا بعد أن تكشّفت كل الحقائق، ويمكن أن نرى الآن كيف اجتمعت أركان الحكاية. ولولا اعتقادي أن هذه الوثيقة ستُنشر في فرنسا؛ بحيث إني كنتُ سأجدها قيد الرواج حال عودتي، لاستنسختُها حتّى يطّلع أصدقائي، ويطّلع الجمهور على الكثير من الوقائع المسلّية في وقت مبكّر. منذ ذلك الحين، اطّلعنا على معظم محتويات القضية من مصدر لم يكن سوى منبع الأغلاط. كنا نظن أن روما، من دون المُدُن كلها، سوف تسهم كثيراً في تنوير >

حين رأيتُ من تدقيق أرومة العائلة أن هناك عدّة أفراد من الأسرة، وبخاصة والدة كاجليو سترو وشقيقه، ما يزالون على قيد الحياة، أبلغتُ مؤلّف المذكرة أنني أودّ أن أراهم، وأن أتعرف على أقارب مثل هذه الشخصية العجيبة. أجاب أن ذلك صعب، فهم فقراء، وإن كانوا محترمين، يعيشون حياة معزولة، لا اعتياد فيها على لقاء الغرباء. زد على ذلك أن الصقليين ريّابون بالفطرة، وأن مقاصد زيارتي قد تُفسّر سوءاً من نواح عدّة. إلا أنه وعدني بأن يُرسل ليّ حاجبه، الذي يعرف هذه الأسرة، وسبق أن حصل على كل المعلومات والوثائق له.

جاءني الحاجب في اليوم التالي، فأبدى بعض التحفّظات حول القضية. وقال لي: "حتّى الآن، تجنّبتُ أن أدع هؤلاء الناس يرون وجهي ثانية، وإنني اضطررتُ إلى اللجوء للمرواغة ابتغاء وضع اليد على عقود نكاحهم، ووثائق تعميدهم، وما شاكل. قلتُ لهم ذات يوم، على نحو عابر، إن هناك شاغراً لمعاش عائلي في مكان ما، لعل كابيتومينو الصغير مؤهّل لتلقّيه، لكن التأكّد من حقّه في الحصول على ذلك يتطلّب أول ما يتطلّب وضع شجرة للعائلة. وبعد هذا، بالطبع، يتوقّف كل شيء على المفاوضات. وإنني سأتولى أمرها، إن وعدوني بدفع عوض مالي لقاء ذلك.

وافق الناس الطيبون على ذلك بحماسة. تلقّيتُ الوثائق الضرورية، وعملتُ النسخ اللازمة، ورسمتُ شجرة العائلة، ولكني أحرص منذ ذلك

> العالم، وإماطة اللثام عن الدجّال، بنشر تفاصيل محاضر المحكمة! ورغم أن هذه المحاضر كان يمكن، بل ينبغي، أن تكون أكثر إثارة ممّا هي عليه، فإن كل قارئ حصيف يشعر بالامتنان منها. لقد دأبنا، طوال سنوات، على رؤية المخدوعين وأشباه المخدوعين والخادعين، وهم يعبدون هذا الرجل وأحابيله، ويفخرون بعلاقتهم به، بل وينظرون من علياء غرورهم وزهوهم الفارغ بعين الرثاء إلى كل مَن منعه حسّه السليم عن الإعجاب بهذا الأفّاك. ترى مَن ذا الذي لم يفضّل التزام الصمت وقتذاك؟! أما الآن، وبعد أن تكشّفت كل الحكاية وفرغ النقاش؛ أستطيع أن أستكمل الوثائق وأحكي ما أعرف.

الحين على الابتعاد عن طريقهم. قبل أسابيع قلائل، التقيتُ والدة كابيتومينو مصادفة، فكان عذري الوحيد الذي التمستُه هو بطء سير المفاوضات في هذه الأنحاء."

هذا ما قاله الحاجب، ولمّا رأى تمسّكي بفكرتي، اتّفقنا بعد بعض المداولات على أن أقدّم نفسي باعتباري إنجليزياً، أرسله كاجليو سترو لتفقّد أخبار عائلته، بعد أن أُطلق سراحه من الباستيل، ووصل إلى لندن.

انطلقنا معاً في الساعة الموعودة. لابد أنها كانت حوالي الثالثة عصراً. كان المنزل يقبع في آخر زقاق، ليس بعيداً عن الشارع الرئيس إيل كاسارو. ارتقينا درجات متآكلة، قادتنا مباشرة إلى المطبخ. ثمّة امرأة متوسّطة القامة عريضة المنكبين قوية، لكنها ليست بدينة، تغسل الأطباق. كان فستانها نظيفاً، ولمّا رأتْنا ندخل، رفعت طرف مئزرها؛ لتخفي الجزء المتّسخ من ثوبها. بدت سعيدة برؤية الحاجب، وقالت: "سنيور جيوفاني، هل لديك أخبار سارّة لنا؟ هل أفلحتَ في تدبير الأمور؟"

فأجاب: "لم أُكمل المعاملات بعد، ولكنْ؛ ها هنا أجنبي، يحمل لك التحيات من أخيك، ويُخبرك بأحواله."

إن هذه التحايا التي يُفترض أن أحملها إلى العائلة لم تكن من ضمن الاتفاق، ولكن التعارف جرى على الأقلّ. فسألتْ: "هل تعرف أخي؟"

قلتُ: "كل أوربا تعرفه. أظن أنك ستفرحين لدى سماعك أنه بخير وأمان، لأنك لابد كنتُ قلقة على مصيره."

قالت: "ادخلوا. لن أتأخّر عليكم."

هكذا دخلنا، أنا والحاجب، إلى الغرفة المجاورة.

يمكن القول عن هذه الغرفة إنها ردهة، فهي فسيحة عالية السقف، إلا أنها بدت وكأنها رقعة العيش الكاملة للأسرة كلها. ثمّة نافذة واحدة. أما الجدران، التي كانت ذات يوم مدهونة؛ فمكسوة بصور مسودة لقدّيسين، حُشرت في أطر مذهّبة. هناك سريران كبيران بلا ستائر متّكئان إلى أحد الجدران، وهناك خزانة صغيرة، على شكل طاولة كتابة، تتّكئ على الجدار الآخر. ثمّة كراسي موزّعة في الجوار ذات مقاعد وظهور بالية، وذات أذرع وأطر كانت ذات يوم ملمّعة بالدهان؛ أما بلاط الأرضية؛ فمتآكل في بعض المواضع، إلا أن كل شيء كان نظيفاً للغاية. اقتربنا الآن من العائلة المجتمعة في الطرف الأقصى من الغرفة قرب النافذة. وبينما أخذ الحاجب يشرح سبب زيارتي لوالدة بالسامو العجوز - كانت العجوز ثقيلة السمع للغاية. اغتنمتُ الفرصة؛ لألقي نظرة فاحصة على الآخرين. تقف إلى جوار النافذة فتاة في السادسة عشر من العمر ذات قوام جميل، إلا أن وجهها مجدور؛ ويقف بجانبها شاب ذو وجه مجدور هو الآخر، إلا أنه كان لطيف المحيّا. وهناك يجلس، أو يتهالك، على الكرسي ذي اليدين جوار النافذة، شخص قبيح للغاية، بدا وكأنه مُصاب بداء السبات.

لمّا فرغ الحاجب من كلامه، دعتْنا العائلة إلى الجلوس. سألت العجوزُ أسئلة عديدة بلهجة صقلية، كان ينبغي ترجمتها لي؛ لأني لم أفقه منها كلمة واحدة. كانت لطيفة المحيّا؛ وإن خطوط وجهها النظامية تعبّر عن ذلك الهدوء والصفاء الذي يلاحظه المرء على قسمات الصمّ، أما صوتها؛ فكان عذباً رقيقاً.

أجبتُ عن كل أسئلتها، فكان يتوجّب ترجمتها هي أيضاً. أعطاني بطء الحوار الفرصة لوزن كلماتي بعناية. قلت لها إن فرنسا أخلت سبيل ابنها، وإنه الآن في إنجلترا؛ حيث يلقى الترحاب. اقترنت السعادة التي

طغت على صوتها لدى سماع هذا الخبر بأمارات ورع عميق. ولمّا أخذت الآن تتحدّث بنبرة أعلى، وتلفظ الكلمات بتؤدة، بتّ أفهم كلامها على نحو أفضل.

في غضون ذلك، دخلت ابنتها، وجلست جوار الحاجب، الذي كرّر على مسامعها كل ما قلتُه. كانت قد ارتدت مئزراً جديداً، ورتّبت شعرها بعناية، وغطته بشبكة. لابد أنها كانت في الأربعين من العمر. وكلّما أنعمت النظر فيها، وقارنتها بأمّها، زاد عجبي لعظم الفارق بينهما. وتعبّر شخصية وإهاب الابنة عن العزم والحيوية والعافية والشهوانية. وهي تجيل الطرف فيما حولها بعينين زرقاوين ذكيتين، وجذلتين، لم ألحظ فيهما أي ظلّ لريبة. جلست على المقعد منحنية إلى الأمام قليلاً، وكفّاها تسترخيان على ركبتيها، فبدت في مظهر أفضل ممّا كانت تبدو عليه، وهي واقفة. وذكّرتني ملامحها غير الجادّة بملامح أخيها كما نعرفها من صورته المحفورة على الخشب. وجّهت إليّ بضعة أسئلة عن رحلتي، وعن أسباب زيارتي إلى صقلية، واقتنعت بأني سأعود؛ لأحتفل معهم بعيد القدّيسة روزاليا.

كان لدى الجَدّة أسئلة أخرى، تستفسر عنها مني، وبينما كنتُ أجيب، كانت ابنتها تتحدّث إلى الحاجب في صوت خفيض. ولمّا سنحت الفرصة، سألتُهما عمّ يتحدّثان. قال الحاجب إن السنيورة كابيتومينو أخبرته أن أخاها مايزال مَديناً لها بأربعة عشر أونصة؛ إذ كان عليها، لحظة أراد مغادرة باليرمو على عجل، أن تدفع المال لاسترجاع حاجياته من محل الرهنيات. ولم تسمع منه شيئاً منذ ذلك الحين؛ ورغم أنها سمعت أنه أصاب الآن ثراء كبيراً وأنه يعيش مثل اللوردات، فإنه لم يسدّد لها الدين، ولم يقدّم لها أي عون مادّي. فهل لي، كما رجت أن أتولى، لدى عودتي إلى إنجلترا، تذكيره

على نحو لطيف بسداد هذا الدين، والحصول على عون لها؟ وهل لي أن أحمل رسالة موجّهة إليه، على أن أسلمها يداً بيد، إن أمكن؟

فقلتُ إني على استعداد لذلك، وعندها سألتني أين أقيم حتّى ترسل لي الرسالة. ولمّا كنتُ لا أرغب في الكشف عن عنواني، أبديتُ الاستعداد للعودة مساء اليوم التالي لأخذ الرسالة. راحت بعد ذلك تصف لي مصاعب وضعها. فهي أرملة، تعيل ثلاثة أطفال، بينهم فتاة تتلقّى التعليم في دير؛ أما الآخران، وهما بنت وولد؛ فيعيشان معها في الدار. وكان الصبي قد توجّه إلى المدرسة قبل قليل. علاوة على ذلك، ينبغي عليها أن تعيل أمّها، وأن ترعى، من باب الإحسان المسيحي الشخص الفقير العليل الذي رأيتُه. وهذا الوضع يزيد ثقل الأعباء التي تنوء بها. وإن كل ما تعمله لا يكاد يسدّ الرمق، رمقها ورمق أسرتها. وقالت إنها تؤمن أن الله لن يدع أعمال البرّ التي تقوم بها دون جزاء؛ مع ذلك، فإنها تنوء بالعبء الذي تحمل أثقاله منذ فترة طويلة.

بدأ الصغار يشاركون في المحادثة الآن، فبات الحديث أشدّ حيوية. وبينما كنتُ أتحدّث إليهم، سمعتُ العجوز تسأل ابنتها إن كانت تعتقد أنني من المؤمنين بدينها الحنيف. تفادت الابنة السؤال بفطنة، بأن قالت لها قدر ما استطعتُ أن أفهم الكلام، أن الأجانب يحملون الخير في القلب، وليس من اللائق الاستفسار من أي كان عن دينه منذ أول لقاء.

وحين فهموا أنني أعتزم مغادرة باليرمو قريباً، حثّوني من جديد على وجوب العودة، وأطروا أيام عيد القدّيسة روزاليا، باعتبارها أيام نعيم. فما من شيء، كما قالوا، يضاهيها متعة وبهجة في العالم كله. أما مرافقي، أي الحاجب، الذي رغب في الانصراف منذ أمد بعيد، وكرّر الإشارات لي بوجوب المغادرة؛ فقد أنهى الحديث، وكرّرتُ وعدي بالعودة في عصر

اليوم التالي لأخذ الرسالة. سُعد الحاجب لنجاح الزيارة، وافترقنا، ونحن نلقي تعابير الرضى المتبادل.

ولكم أن تتخيّلوا الانطباع الذي خلّفتُه في هذه العائلة المسكينة الورعة الودودة. لقد أشبعت الزيارة فضولي، لكن أدبهم الجمّ أثار فيّ اهتماماً، راح يتزايد كلّما فكّرتُ فيهم. في الوقت ذاته، كنتُ أشعر بالقلق من اليوم التالي. فمن الطبيعي أن زيارتي المفاجئة تدفعهم الآن، بعد أن غادرتُ، إلى التفكير. ولمّا كان هناك عدّة أفراد من أسرتهم الكبيرة ما يزالون أحياء، كما هو واضح من شجرة العائلة، فلابد أنهم سيتصلون بهم وبأصدقائهم، لإبلاغهم بالأخبار المذهلة التي تناهت إليهم مني. لقد حقّقتُ غايتي، وكل ما بقي عليّ هو أن أوصل هذه المغامرة إلى برّ الأمان بأكبر قدر من اللباقة. وبناء عليه، انطلقتُ في اليوم التالي، بُعيد الغداء، إلى المنزل وحدي. ودُهشوا لرؤيتي قادماً في هذا الوقت المبكّر. وقالوا إن الرسالة لم تجهز بعد. زد على هذا أن هناك عدداً من الأقارب قادمون في ذلك المساء، ويرغبون في التعرّف إليّ. قلت لهم إن عليّ المغادرة في وقت مبكّر من صباح اليوم التالي، وإن لديّ الكثير من الزيارات الأخرى، وحزم الأمتعة، لذا؛ قرّرتُ المجيء مبكّراً خيراً من تعذّر القدوم.

في غضون ذلك، جاء الحفيد، الذي لم يكن موجوداً بالأمس، حاملاً الرسالة المطلوبة. لقد كتب الرسالة، كما هي العادة الجارية هنا، واحد من العرضحال الذين يجلسون في الساحات. كان هذا الشابّ يشبه أخته في الطول والبنية، وهو هادئ الطبع حزين، ومتواضع. وسألني عن ثروة خاله، وأسلوب عيشه الموسر، وقال بنبرة حزينة: "لمَ نسي عائلته كُلّيّاً؟ ما أسعدنا لو أنه عاد إلى باليرمو." ثمّ واصل الكلام: "ولكنْ؛ كيف تسنّى له أن يخبرك أن لديه أقارب في باليرمو؟ يقال إنه ينتحل صفة رجل نبيل

المولد، ويُنكر أية صلة بنا." كان عليّ أن أجيب عن هذا السؤال الذي تقع مسؤوليته على قلّة حصافة الحاجب، وأجبتُ بقدر من الإقناع قائلاً إن لعل لدى خاله أسباب وجيهة لإخفاء بساطة مولده عن الجمهور العامّ، إلا أنه لم يكن يخفي حقيقة منشئه عن أصدقائه.

وشاركت أخته الآن في الحديث متشجّعة بحضور أخيها، أو لربّما أيضاً، بغياب صديقها الذي كان بالأمس، وأخذت تتكلّم بأسلوب بالغ التهذيب وحيوي. رجاني الاثنان أن أذكرهما عند خالهما، إن كتبتُ له. كما ألحّا عليّ بالعودة للاحتفال معهم بعيد القدّيسة روزاليا، بعد فراغي من الطواف بالمملكة. وأيّدتهما أمّهما في هذه الدعوة. وقالت: "سنيور، رغم أنه ليس من اللائق لي حقاً مع وجود ابنة بالغة الرشد في البيت، أن أدعو الغرباء للزيارة؛ لأن على المرء لا أن يحذر من المزالق فحسب، بل وأن يتحاشى القيل والقال أيضاً، أما أنت؛ فعلى الرحب والسعة، تأتي متى شئتَ، لدى عودتك إلى هذه المدينة!"

وقال أطفالها "نعم، نعم، سوف نرافقه، ونأخذه إلى أفضل موقع لمشاهدة احتفالات العيد. ولكم ستعجب بالعربة الكبيرة للقدّيسة، والأضوية البديعة!"

في هذه الأثناء، قرأت جَدّتهم الرسالة مراراً. وحين سمعتْ أني موشك على المغادرة، نهضتْ من كرسيها، وسلّمتني الورقة المطوية. "بلِّغْ ولدي عن مدى سعادتنا بما جئتَنا من أخبار! بلِّغْه أنني أضمّه إلى صدري. هكذا." وبهذه الكلمات، فتحت ذراعيها على سعتهما، وضمّتهما إلى صدرها. "بلِّغْه أنني أتشفّع له في صلاتي كل يوم عند الله والعذراء المبجّلة، وأنني أرسل له ولزوجته بركاتي، وأن أمنيتي الوحيدة أن أراه ثانية قبل أن أموت، بعيني هاتين اللتين سفحتا الدموع لأجله."

إن الموسيقى العذبة التي تميّز اللغة الإيطالية وحدها أضافت الكثير إلى الكلمات التي اختارتْها بعناية، ونسّقتْها تنسيقاً نبيلاً، مشفوعة بتلك الإيماءات الحية التي تسبغ على حديث الجنوبيين ذلك السِّحْر الفائق. ودَّعتُهم، وأنا شديد التأثّر. صافحني الجميع، أما الشباب؛ فرافقوني إلى باب الدار، وحين نزلتُ الدرج، ركضوا إلى شرفة المطبخ المطلّة على الشارع، وراحوا يلوّحون بأيديهم مودّعين، وهم يهتفون مراراً بأن لا أنسى العودة من كل بد. وحين انعطفتُ عند زاوية الشارع، كانوا ما يزالون واقفين في الشرفة.

لا حاجة بي للقول إن اهتمامي الشديد بهذه العائلة زاد رغبتي وتوقي لأن أفعل شيئاً عملياً لتخفيف ضائقتها. لقد خُدعوا مرّتين، مرّة من حاجب المحامي، ومرّة من باحث أوربي شمالي مدقّق، وبدا كما لو أن آمالهم بأن يأتيهم العون على حين غرّة سوف تتهاوى للمرّة الثانية.

تبادر إلى ذهني أن أرسل إليهم، قبل المغادرة، الأربع عشرة أونصة التي يدين بها المجرم الطريد إليهم، بذريعة أنني أثق في أن كاجليو سترو سيعيدها إليّ. ولكنْ؛ ما إن دفعتُ فاتورة النزل، وأجريتُ تقديراً أولياً لما بقي عندي من مال نقداً أو رسائل اعتماد، حتّى أدركتُ أنني سأواجه صعوبات جمّة إن مضيتُ بدافع طيبة القلب، في إزالة الحيف الذي ارتكبه أفّاك، خصوصاً وأن ضعف المواصلات في هذا البلد يجعل المسافات لا نهائية.

في مساء اليوم ذاته، قصدتُ صديقي صاحب الدكان، وسألتُه عن مسار مواكب العيد في الغد. فقال إن هناك موكباً عظيماً، يتصدّره نائب الملك، سوف يطوف في المدينة، مرافقاً خبز القربان، سيراً على الأقدام، ومن المحتّم أن تؤدّي الريح، حتّى الخفيف منها، إلى أن تجلّل المقدّس

والدنيوي بغمامة من الغبار. وقال هذا الرجل المرح الحيي، إن أهالي باليرمو قانعون بالاعتماد على وقوع معجزة. ففي مناسبات عديدة مماثلة، هطل مطر مدرار؛ ليشطف الشوارع المنحدرة، ويهيّئ للموكب طريقاً نظيفاً، وإن الناس يتوقّعون الشيء نفسه هذه المرّة، ليس من دون سبب، فالغيوم بدأت تدلهم في السماء واعدة بزخّات مطر في الليل.

١٥ نيسان (أبريل)

وهذا ما حصل! تساقطت الأمطار غزيرة مدرارة. وأسرعتُ في الصباح التالي إلى الشوارع؛ لأرى المعجزة. كان المشهد خارقاً حقاً. فَسَيْلُ مياه المطر المتدفّقة بين الأرصفة جرف الأوساخ الخفيفة إلى المجاري، أو على الأقلّ، إلى المجاري التي لم تكن مسدودة. أما الأقذار الثقيلة، فانجرفت من موضع إلى آخر؛ بحيث تشكّلت تلال غريبة على أحجار التبليط، وانخرط المئات والمئات من الناس بمساحيهم ومكانسهم أو مذاريهم، لإزالة جزر الأقذار هذه، وجمعها، ومراكمة ما بقي من الأزبال، على هذا الجانب من الشارع أو ذاك. ولماّ بدأ الموكب، أمكن له، آخر الأمر، أن يمضي في طريق نظيف، أُزيح الطين إلى جانبيه، وأمكن للقسس في أرديتهم الطويلة، مثلما أمكن لنائب الملك والنبلاء بأحذيتهم الأنيقة، أن يمرّوا من دون عناء أو اتّساخ بالطين. ورأيتُ بعين الخيال أطفال إسرائيل الذين أعدّ لهم الملاك طريقاً يابساً للعبور وسط الأخاديد والمستنقعات الموحلة، ساعياً بهذا التشبيه إلى تعظيم نبل هذا المشهد المؤلم لهذه الكثرة من البشر الأتقياء الصالحين، وهم يرتّلون الصلاة، ويسيرون في الموكب وسط شارع مجلّل بأكوام من الوحل البليل.

يمكن للمرء أن يسير من دون أن يتّسخ حيثما كانت هناك أرصفة في الشوارع، أما اليوم؛ حيث كنا نزور وسط المدينة، لمشاهدة شتّى الأماكن

التي أهملناها من قبل؛ فقد وجدنا أن المرور متعذّر رغم كل الجهود التي بُذلت في كنس الأقذار والأوحال، وإزاحتها جانباً في أكوام.

وفّرتْ مواكب اليوم الفرصة لزيارة الكاتدرائية ومشاهدة النُّصُب البديعة فيها، ولمّا كنا نبتغي أن نمطّ أرجلنا للتريّض في كل حال، فقد رأينا أن من المناسب زيارة مبان أخرى، بينها منزل مغربي، عُني به عناية خاصة، أثار حبورنا. لم يكن المنزل كبيراً، لكن حجراته فسيحة، متناسقة الأبعاد؛ الواقع لا يمكن السَّكَن في هذا المنزل، لو كان في بلد شمالي، أما في بلد جنوبي؛ فإن السَّكَن فيه مريح للغاية. ويتوجّب على خبراء العمارة أن يرسموا المخطّط الأرضي لهذا المنزل، ومنظوره العام.

ورأينا في أحد الأحياء المزرية بقايا عدّة تماثيل رخامية، إلا أننا افتقدنا إلى الصبر اللازم للسعي إلى التعرّف عليها.

١٦ نيسان (أبريل)

لمّا كان يتوجّب علينا أن نحسب حساب رحيلنا الوشيك عن هذا الفردوس، فقد أملتُ أن أجد اليوم سويعات من السكينة التامّة، أقضيها في الحدائق العامة، وفي التنزّه في وادي جبل سانتا روزاليا، حتّى أستطيع أن أنجز حصّتي اليومية من الأوديسة، وأفكّر في الحلول الدرامية لناوسيكا. جرى ذلك كله، ولو لم أكن ذا حظّ كبير، فإن لديّ الكثير ممّا يشيع الرضى. وضعتُ مسودة عن الكل، ولم أستطع مقاومة إغراء خربشة، أو حتّى تدبيج بضعة مقاطع.

١٧ نيسان (أبريل)

من التعاسة، حقاً وفعلاً، أن يكون المرء مسكوناً بهذه الكثرة من الأرواح التي تغوي. في الصباح الباكر، قصدتُ الحدائق العامة وحدي، وكُلّي عزم

راسخ على مواصلة التأمّل في أحلامي الشعرية، ولكنْ؛ سرعان ما استولت عليّ روح أخرى، على غفلة مني، وهي روح كانت تطاردني منذ أيام قلائل.

تُترك النباتات هنا؛ لتنمو حُرّة في الهواء الطلق المنعش، وتحقّق قدرها الطبيعي، وتغدو مفهومة أكثر ممّا عندنا؛ حيث ندع النبات ينمو في السنادين، أو تحت الزجاج. إن رؤية هذا التنوّع الكبير من الأشكال الجديدة والمتجدّدة أعاد إليّ، بغية، هوسي القديم: أو لن أجد وسط هذه الكثرة ذلك الواحد الأصل؟ لابد أن ثمّة نباتاً أصلياً. وبخلافه كيف لي أن أشخّص أن هذا الشكل أو ذاك هو نبات، إذا لم تكن سائر النباتات قد تركّبت وفق نموذج أساسي واحد؟!

حاولتُ أن أكتشف كيف تختلف الأشكال المتفارقة عن بعضها البعض، فوجدتُ دوماً أن عناصر الشبه أكبر من عناصر الاختلاف. ولكنْ؛ حين بدأتُ أطبّق أفكاري في علم النبات، سرتُ سيراً حسناً في البداية، ثمّ اصطدمتُ بعائق، أوقفني عن التقدّم، ممّا أزعجني من دون أن يحفزني على المزيد. أما قراراتي الشعرية؛ فقد ذهبتْ مع الريح. فجنائن الكينوس توارتْ؛ لتحل جنائن العالم الطبيعي محلّها. لم نعانِ نحن أبناء العالم الحديث من هذا التشتّت؛ ولم نُوقع أنفسنا في مطبّ قضايا، نعجز عن مواجهتها، أو حلّها!

الكامو، ١٨ نيسان (أبريل)

غادرنا باليرمو على صهوات الجياد في الصباح الباكر. برهن كنيب والسائس (بالإيطالية) عن كفاءة باهرة في حزم المتاع، وشحنه. مضينا ببطء على الطريق البديع الذي قطعناه من قبل عند زيارة سان مارتينو، فأعجبتُ من جديد بالنوافير البديعة التي تحفّه. بعد هذا، وقع حادث، علّمنا شيئاً من عادات الاعتدال في هذا البلد. كان سائسنا يحمل برميلاً صغيراً من النبيذ فوق كتفه، مثل أصحاب دكان (بالفرنسية) المعسكرات

عندنا. وبدا البرميل كبيرا بما يكفي لقدر من النبيذ، يسدّ حاجتنا بضعة أيام. وقد تعجّبنا لمّا رأيناه يتّجه بحصانه إلى أحد صنابير المياه، وينزع سدّادة البرميل؛ ليدع الماء ينصبّ فيه. ولمّا كنا ألماناً، فقد صُعقنا، واستفظعنا فِعْلَتَه متسائلين: ألم يكن البرميل مليئاً بالنبيذ؟ أجاب بلا مبالاة تامّة أنه ترك ثلث البرميل فارغاً؛ لأنه لا يوجد مَن يشربه صرفاً. وقال إن من الأفضل إضافة الماء في أثناء حفظ النبيذ في البرميل؛ لأنهما سيتمازجان على نحو أحسن. ثمّ إن العثور على الماء ليس مؤكّداً على الدوام. في هذه الأثناء، كان البرميل قد طفح، ولم يعد ثمّة بد من قبول هذه العادة التي كانت من تقاليد ولائم الأعراس الشرقية في الأيام الخوالي.

وبعد أن عبرنا مونريال، وبلغنا قمّة الجرف الصخري، رأينا منظراً بديعاً، يُنبئ عن التاريخ أكثر ممّا يُنبئ عن الزراعة. فعن مَيسرتنا، يمتدّ أفق البحر المستوي الذي لا تحجبه عنا سوى سفوح تلال زاهية، أو سواحل مَكْسُوّة بالغاب، أو عارية من الشجر، وأن هدوءه المطلق يقف في تضادّ تامّ مع أكمات الكلس الوعرة. أسرع كنيب إلى رسم تخطيطات أولية.

نحن الآن في الكامو، وهي بلدة صغيرة هادئة نظيفة، لها نزل حَسَن الموقع، لا يبعد كثيراً عن معبد سيجستا، الذي نراه الآن شامخاً في عزلته وبهائه، على مقربة منا.

١٩ نيسان (أبريل)

إن مقامنا في هذا المنزل بديع تماماً، فقرّرنا قضاء النهار كله هنا.

ابتداء، دعوني أقول شيئاً عن تجاربنا بالأمس. بعد مونريال، تركنا الطريق الحَسَن، ودخلنا رقعة من الجبال الوعرة. صادفتُ في أعلى الجروف الصخرية أحجاراً، حسبتُها خامات حديد، اعتماداً على وزنها، وما تطلقه

من شرر. إن الأراضي المنبسطة مزروعة بالكامل، وهي ذات خصوبة كبيرة. وإن المزروعات في الأرض الجيرية حمراء اللون مثل التربة المتفككة. وإن هذا الطين الأحمر يغطّي مساحة شاسعة، ويؤلّف تربة ثقيلة، لا رمل فيها، مع ذلك، فإنها تثمر قمحاً عظيماً. رأينا شجرات زيتون مائلة قديمة ومعوجة.

تناولنا طعام الغداء تحت ظلال عريشة لصق حانة بائسة. كانت الكلاب تلتهم بشراهة قشور السجق الذي كنا نرميه؛ وثمّة صبي شحّاذ طرد الكلاب، والتهم متضوّراً قشور تفّاحنا، حتّى جاء شحّاذ آخر أكبر سنّاً؛ ليطرد - بدوره - الصغير. إن المنافسة المهينة تضرب أطنابها أينما كان. راح الشحّاذ الكبير يمضي من هنا وهناك، في ثوبه الفضفاض، متصرّفاً باعتباره متسوّلاً ونادلاً في آن. سبق لي أن لاحظتُ سابقة أننا عندما نطلب من صاحب الحانة صنفاً لا يتوفّر عليه في النزل لحظتئذ، فإنه ينادي على أحد الشحّاذين؛ لكي يجلب هذا الصنف من البقّال.

وعلى العموم، لم نكن بحاجة إلى مثل هذه الخدمة المتخلّفة، وذلك بفضل سائسنا البديع الذي يقوم بوظيفة السائس (بالإيطالية) والدليل والحارس والشاري والطبّاخ، في آن واحد.

وجدنا في أعالي منحدرات الجبال أشجار زيتون، ونباتات الخرنوب، والغبيراء. إن الغرس هنا يسير في دورة من ثلاث سنوات. فاصوليا، ذرة، وراحة. أما السمّاد؛ فيجترح من المعجزات أكثر من القدّيسين، كما يقول الحرّاثة. وتُزرع الكروم هنا واطئة.

تربض الكامو على تلّة، تبعد كثيراً عن الخليج. وإن المنظر مهيب بجلاله .أكمات عالية، ووديان عميقة، وسعة، وتنوّع. بعد اجتياز مونريال، يلج المرء وادياً مزدوجاً، بشطره جرف جبلي، من منتصفه، إلى شطرين. الحقول

المزروعة هادئة مَكْسُوّة بالخضرة، والطريق العريض محفوف بأجمات نباتات بَرّيّة، وشجيرات كثيفة مزدانة بأزهار متلألئة، وإن اغصان شجرة اللاتنس مَكْسُوّة بكثرة من الأزهار الصفراء الشبيهة بالفراشات؛ بحيث لا يكاد المرء يرى أياً من أوراقها الخضراء؛ وهناك الأجمة تلو الأجمة من الزعرور البري، ونبات الألوة الطويل المتبرعم الموشك على الإزهار، إضافة إلى البساط تلو البساط من البرسيم الأرجواني، والأوركيد قانص الحشرات، وأزهار الألب الصغيرة، والياقوتية ذات الأجراس المغلقة، ولسان الثور، والفوم، وزنابق البرواق.

ويحمل الجدول المتدفّق من سيجيستا في تيّاره كسرات من الحجر الكلسي، وحبيبات من الحجر القرني، وهو متماسك كثير الألوان، من كل أطياف الأزرق الداكن، والأصفر، والبني. ويجد المرء، قبل أن يصل الكامو، تلالاً كاملة من هذه الأحجار. ورأيتُ في الأكمات الكلسية عروقاً من الحجر القرني والسليكون المعشّق بالجير.

سيجيستا، ٢٠ نيسان (أبريل)

لم يكتمل بناء معبد سيجيستا قط. فالأرض المحيطة به لم تُسَوّ، أو تُعبَّد، باستثناء الجهة التي كان يُراد إرساء الأعمدة فيها. وهذا واضح للعيان من حقيقة أن الدرجات، في بعض المواضع، غاطسة في الأرض، بعمق تسعة إلى عشرة أقدام، رغم أنه لا يوجد أي تلّ قريب، يتساقط التراب والصخر المجروف منه. زد على هذا أن الصخور ما تزال راقدة في مواضعها الطبيعية، ولم تتعرّض للتفتّت، أو التشظّي.

الأعمدة كلها شاخصة، والعمودان اللذان سقطا عن موضعهما أُعيدا إليه مؤخّراً. ويصعب عليّ الجزم فيما إذا كان يُراد إضافة نتوءات قاعدية إلى الأعمدة؛ كما يصعب عليّ شرح هذا الحال، من دون رسم توضيحي. ويبدو

في بعض المواضيع كما لو أن الأعمدة نُصبت فوق الدرجة الرابعة، ممّا يعني والحالة هذه أن على المرء أن ينزل درجة أخرى؛ كيما يدخل المعبد. وفي مواضع أخرى، قُطعت الدرجة العليا، وبدا كما لو أن للأعمدة قواعد للإرساء. ثمّ يصادف المرء مواضع أخرى لم تُقطع فيها الدرجات، فيعود إلى فرضيّته الأولى. لابد من معماري لحلّ جلية هذا الأمر، بشكل باتّ.

يحوي كل ضلع طويل من المعبد اثني عشر عموداً، من دون حساب أعمدة الزوايا؛ وأما الواجهة والمؤخّرة؛ فلكل منها ستة أعمدة، بما في ذلك الأعمدة في الزوايا. ومن أبرز العلائم الدالّة على عدم اكتمال بناء المعبد حالة درجاته. إن النتوءات الشبيهة بالأسافين، التي ربُطت بها الحبال لرفع كتل الصخر من المحتفر إلى موقع البناء، ما تزال على حالها دون أن تُقطع. غير أن الدليل الأقوى يتمثّل في الأرضية. فثمّة ألواح وبلاطات هنا وهناك تشير إلى موضع الحوافّ، لكن المركز لم يُكسَ بها، وما يزال الصخر الطبيعي ماثلاً، بمستوى أعلى من بلاط الأجناب، وعليه، فإن الأرضية لم تُسَوَّ، ولم تُرصَف. زد على هذا غياب أي أثر لوجود ردهة داخلية، كما أن المعبد لم يُكسَ بالجبس قط، رغم أن المرء يفترض وجود مثل هذه النية، نظراً لأن طبلة تيجان الأعمدة تحوي الكثير من النتوءات المعمولة لتسهيل ملج الجبس. لقد شيد المعبد بأكمله من حجر الكلس الجيري، الذي تهرّأ الآن على نحو كبير. أفلحت أعمال الترميم عام ١٧٨١ في الحفاظ على المعبد. وإن الحجارة الجديدة المرصوفة بسيطة، ولكنها جميلة. ولم أجد الكتل الضخمة التي ذكرها ريدزل: لعلّهم استعملوها لترميم الأعمدة.

إن موقع المعبد بديع حقاً. فهو يربض على تلّة معزولة، على رأس واد عريض وطويل، محاط بالأكمات، وهو يطلّ على منظر فسيح؛ ورغم سعة المشهد، فلا تبين منه سوى زاوية صغيرة من البحر. ويجثم الريف

في سكونه الخصيب؛ وهو حافل بالزرع، ولكنْ؛ من دون أثر لسُكنى البشر. وإن ذؤوابات الأشواك المزهرة تنبض بالفراشات؛ وإن نبات الشمّار، الذي يبس جني عامه الفائت، يشمخ عالياً على ارتفاع ثمانية أو تسعة أقدام، وبكثرة وافرة، وانتظام جلي، تدفع المرء إلى أن يحسبه مشتلاً زراعياً. صفرت الريح حول الأعمدة، كما لو كانت أشجار غابة؛ وزعقت الجوارح محلّقة فوق الهيكل الفارغ.

أصابنا عناء التجوال وسط خرائب كابية لمسرح قديم، فأثبط عزائمنا عن زيارة أطلال المدينة. ووجدتُ عند قاع المعبد قطعاً كبيرة من الحجر القرني، أما في طريق العودة إلى الكامو؛ فرأيتُ أن قاع الطريق مؤلّفة من هذا الحجر، إلى حدّ كبير، والحقّ أن التربة تدين له بما تحتويه من مادّة السيليكون، الذي يجعلها قابلة للتفتّت. وتفحّصتُ نبتة غضّة من الشمّار، فلاحظتُ اختلافاً بين أوراقها العليا وأوراقها السفلى؛ إن الكائن العضوي هو ذاته دوماً، إلا أنه يتطوّر مرتقياً من البساطة إلى التعقيد. الفلاحون منهمكون في إزالة الدغل، وهم يمضون جيئة وذهاباً في الحقول مثل رجال في battue يستثيرون الطرائد للقنص (بالإيطالية). ثمّة حشرات تئزّ. (في باليرمو لم أشاهد من الحشرات سوى الحباحب). إن العَلَق والسحالي والحلزونات، لا تقلّ في جمال الألوان عمّا يتوفّر منها عندنا؛ والحقّ أن كل هذه الزواحف التي رأيتُ كانت رمادية اللون.

كاستلفيترانو، ٢١ نيسان (أبريل)

ابتداء من الكامو وصولاً إلى كاستلفيترانو، يقطع المرء الطريق الموصل إلى الجبال في تلال مَكْسُوّة بالحصى. وتتشعّب بين الجبال الشاهقة الجدباء وديان فسيحة مزروعة جميعاً، إلا أنها خالية من الأشجار. وإن مكامن الغرين الكبيرة التي تؤلّف تلال الحصى هذه تشير، بخطوطها وطبقاتها، إلى

مجرى تيّارات المحيط البدائي. إن التربة ممزوجة امتزاجاً حسناً، وهي هشّة بفضل ما تحتويه من رمل. وتقع سالمي عن يميننا، على مَبعدة ساعة على صهوة جواد. عبرنا تلالاً تكسو أحجارها الكلسية قيعاناً من الجِبس، فتحسّن قوام التربة كثيراً. إن التلال تواجهنا في المقدّمة، أما في الغرب البعيد؛ فثمّة البحر مترام أمام النظر. صادفنا أشجار تين مبرعمة، كما صادفنا شتلات، لا عَدّ لها من الأزهار المثيرة للحبور، فكانت أشبه بمستعرة من الأزاهير التي تكسو الطريق العريض، وتتكرّر بقعة من الألوان الزاهية في إثر بقعة. وهي حافلة، على التوالي، باللبلاب، والخبّاز، والخبّيز المزهر، علاوة على أنواع متعدّدة من البرسيم، تتخلّله زنابق الفوم، وشجيرات السذاب. مضينا على ظهر الجياد، متعرّضين في خط سيرنا، عابرين الممرّ الضيّق تلو الآخر. ثمّة أبقار حمراء الجلد ترعى متفرّقة، وهي صغيرة الحجم نوعاً ما، لكنها قوية، وذات قرون لطيفة صغيرة.

أما إلى الشمال الغربي؛ فثمّة الجبال شامخة، في سلاسل متتالية، الواحدة خلف الأخرى، وصولاً إلى قمّة إيل كونجليوني، التي تشرئبّ وسط هذه السلاسل. خَلَتْ تلال الحصى من أي أثر لنبع أو جدول؛ ومن الواضح أن الأمطار هنا ذات نزر يسير؛ إذ لم نشاهد أية صخور مفتّتة، أو مفلوقة، ممّا تجرفه السيول عادة.

خلال الليل، حصلتْ لي تجربة غريبة. كنا في حالة من الإعياء الكبير، فهرعنا إلى النوم في نزل، له كل الأوصاف عدا الأناقة. استيقظتُ عند منتصف الليل، فرأيتُ فوقي نجمة جميلة أخّاذة، حملتْني على الاعتقاد بأني لم أرَ لها شبيهاً من قبل. وبدا ضوؤها الساحر مثل بشارة تُنبئ بخير مقبل، فتملّكني إحساس غامر بالراحة، لكن النجمة سرعان ما توارت تاركة إيّاي في عتمة الغرفة. ولم أدرك جلية هذه المعجزة إلا بعد انبلاج الصباح.

ثمّة شقّ في السقف، وقد استيقظتُ لحظة مرور أجمل النجوم في قبّة السماء الموازية لخط زوالي الشخصي في الغرفة. وبالطبع، فإن المسافرين لا يتردّدون عن تأويل هذه الظاهرة الطبيعية كفأل خير يصيبهم.

سياكا، ٢٢ نيسان (أبريل)

بقي الطريق من كاستلفيترانو يمرّ بتلال مَكْسُوّة بالحصى، مجرّداً من أية قيمة تعدينية مثيرة للاهتمام. وحين بلغ الطريق ساحل البحر، رأينا بضعة أكمات من صخور كلسية. إن السهل برمّته بالغ الخصب؛ وإن القمح والشوفان من أحسن ما يكون؛ وقد غرسوا أيضا سالسولا كالي salsola kali (بالإيطالية)، وإن سيقان ثمار نبات الصبر هنا أطول ممّا رأيناه خلال اليومين الفائتين، أما ضروب البرسيم؛ فلم تفارقنا قط. وصلنا غيضة لطيفة، جُلّها من الشجيرات الصغيرة المزدانة بشجرة هنا وأخرى هناك. وحظينا أخيراً بشجر فلّين.

جيرجينتي، ٢٣ نيسان (أبريل)

المسير من سياكا إلى هذه البقعة يستغرق نهاراً كاملاً. بُعيد مغادرتنا سياكا توقّفنا لمشاهدة حمّاماتها الطبيعية. ثمّة ينبوع ساخن، تتصاعد منه أبخرة الكبريت، ينبجس من صخرة. مذاق الماء مالح إلا أنه ليس مجّاً. أو يكون السبب أن أبخرة الكبريت لا تتشكّل إلا بعد أن تنطلق في الهواء؟! هناك في بقعة أعلى من هذه ينبوع ماء بارد صاف، لا أبخرة فيه؛ أما أعلى التل؛ فثمّة فناء، يحوي حمّامات البخار؛ حيث تتصاعد غمامة كثيفة من الأبخرة إلى الهواء.

يتألّف ساحل البحر هنا من بقايا أحجار كلسية لا غير؛ وقد اختفى حجر الكوارتز والحجر القرني بغتة. فتّشتُ قيعان الجداول الصغيرة: جدول كالتابيلوتا، وجدول ماكالوبا وجدول بلاتاني. تحوي قيان الجدولين الأولين

كسراً من حطام الصخور الكلسية المجروفة، أما في قاع الجدول الأخير؛ فقد وجدتُ رخاماً أصفر، وعروق حديد، وهذه الأخيرة هي الرفيق الأزلي لذلك الحجر النبيل المسمّى رخاماً. لفتتْ نظري قطع صغيرة من معادن حمم البركان؛ لأني لم أكن أتوقّع أن أجد موادّ بركانية في هذه الأصقاع. واعتقادي أن لابد أن أحداً جاء بها من أماكن قَصيّة تلبية لحاجات بشرية؛ ولعلّها بقايا أحجار رحى قديمة. ووجدتُ في ضواحي مونتي إليجرو قيعاناً من الجبس الصلب تكسو أو تتخلّل طبقات من حجر الكلس. وتبدو بلدة كالتابيوتا الصغيرة غريبة حقاً، وهي تربض على جرف من صخور الكلس هذه.

٢٤ نيسان (أبريل)

أقسم أني لم أنعم في حياتي كلها بمثل هذا المنظر للربيع، كما حصل لي مع بزوغ الشمس هذا الصباح. إن جيرجينتي الجديدة تربض في موقع قلعة قديمة، تغطّي مساحة كبيرة، بما فيه الكفاية لإيواء مدينة. وتطلّ نوافذها على منحدر فسيح متدرّج، تغطّيه الجنائن والكروم من أقصاه إلى أقصاه؛ بحيث لا تخطر على بال المرء فكرة أن هذا المكان كان ذات يوم أحد أحياء مدينة ضاجّة بالسكان. وكل ما يسع المرء أن يراه شاخصاً من وسط هذه البقعة الخضراء المزهرة ليس سوى معبد الكونكورد، قرب الطرف الجنوبي، وبقايا أطلال معبد جونو، جهة الشرق. أما بقية الأطلال المقدّسة المنثورة على طول الخط المستقيم الواصل بين هاتين النقطتين؛ فَعَصِيّة على الرؤية من هذا العلو. ويمتدّ منبسط الساحل عند قاع هذا المنحدر، على طول ميلين حتّى يتّصل بالأمواج. وكان علينا أن نصرف النظر عن النزول فوراً على هذا المنحدر، عبر أغصانه ونباتاته المتسلّقة، وأزهاره الوفيرة، وثماره اليانعة، نظراً لأن دليلنا، وهو قسّ دنيوي، ضئيل الجرم طيّب السريرة، رجانا أن نكرّس يومنا الأول لمشاهدة المدينة.

بادئ ذي بدء، أطْلَعَنا الدليل على الشوارع المتينة في البلدة، ثمّ توجّه بنا إلى مرتفع من الأرض؛ لننعم بمنظر أرحب للمدينة، وقادنا أخيراً، إرضاء لذائقتنا الفنية، إلى كاتدرائية. وتحوي هذه ضريحاً حجرياً قديماً، حافظ القيّمون على الكاتدرائية عليه خير حفاظ، منذ أن تحوّل الضريح إلى مذبح. ويُصوِّر الضريح هيبوليتوس(*) مع أصحابه القنّاصين وجياده. وتظهر وصيفة فيدرا، وهي تأمرهم بالتوقّف، وتوشك أن تسلّم هيبوليتوس رسالة صغيرة. ويبدو أن الهمّ الأول للفنان هو أن يُصوِّر شبّاناً وسيمين. ولكيما تركّز العين الانتباه على وسامة الشبّان، فقد جعل الوصيفة العجوز صغيرة للغاية، أو بالأحرى أقرب إلى القزم. ولم أشاهد من قبل مثل هذا الرسم الناتئ على البرونز بمثل هذا الحُسن، أو بهذا القدر من الصيانة. وأظنّ أن هذه القطعة هي نموذج من الفن الإغريقي في أبدع فتراته، إن لم أكن مخطئاً.

هناك آنية زهر ثمينة ذات حجم كبير، أعادتْني إلى حقبة أبعد؛ وهناك قطع من مبان آثارية أخرى، دُمجت - كما يبدو - في معمار الكاتدرائية نفسها.

ونظراً لخلوّ بلدة جيرجينتي من أي نزل، فقد استضافتنا عائلة كريمة في زاوية من دارها، وكرّست لنا ردهة علوية للمنام في غرفة فسيحة. وهناك ستارة خضراء تفصلنا ومتاعنا عن بقية أفراد الأسرة، التي تصنع المعكرونة بأفضل وأجود أنواعها الصغيرة، التي تدرّ أكبر الأرباح. إنهم يُبرمون العجين على شكل أقلام بطول الإصبع؛ بعد هذا، تبرم الفتيات إصبع العجين هذا برماً على شكل حلزون. نزلنا من الردهة العلوية، وجلسنا قرب الأطفال الحلوين، وطلبنا منهم أن يشرحوا لنا كُنه العمل. يُصنَع الدقيق من أفضل وأقسى أنواع القمح، ويُعرف باسم جرانو فورتي **grano forte** (بالإيطالية)؛ أي القمح القوي. ويتطلّب العمل مهارة يدوية أكبر من العمل

---

*) شخصية من شخصيات الأساطير الإغريقية، ابن ثيسيوس. وقد قُتل بعد أن اتّهمتْه زوجة أبيه فيدرا زوراً باغتصابها.

على المعكرونة المصنوعة آلياً، أو المصنوعة بواسطة القوالب. وكانت المعكرونة التي طبخوها لنا رائعة، إلا أنهم اعتذروا عن ذلك قائلين إن هناك أصنافاً أرقى من ذلك، إلا أنهم لا يتوفّرون على كفاية منها لطبخ طبق واحد. وقالوا إن هذا الصنف لا يُصنع إلا في بلدتهم، بل ولا يُصنع إلا في منزل هذه الأسرة. وقالوا أيضاً إنه لا يوجد صنف آخر يوازي هذه المعكرونة في بياضه ونعومته.

وفي المساء، أفلح دليلنا أن يهدّئ من سورة نفاد صبرنا لزيارة المرتفع، بأن قادنا إلى مواضع على المرتفعات الأخرى؛ حيث أمكن لنا أن نحدّق في المشهد النبيل، وقدّم لنا الدليل شرحاً مفصّلاً لموقع سائر الأشياء التي كنا نتطلّع لمشاهدتها في الغداة.

٢٥ نيسان (أبريل)

سُمح لنا أخيراً، عند بزوغ الشمس بأن نتنزّه أسفل التل، فوجدنا المنظر يزهو مع كل خطوة نخطوها في النزول. ولمّا كان دليلنا القميء على قناعة بأنه يخدم غاياتنا أحسن خدمة، فقد تعجّل بنا اجتياز مرابع الخضرة من دون توقّف، رغم مرورنا بآلاف المناظر المنفردة، التي يستحق كل واحد منها أن يكون موضوع لوحة رعوية. كانت الأرض تحت أقدامنا متموّجة شأن الأمواج فوق الأطلال المندثرة. إن الحجر المسامي والقواقع التي شيدت منها هذه الأطلال تمدّ التربة التي تغطّيها بالخصب. وبعد فترة، بلغنا الطرف الشرقي من المدينة؛ حيث تتهاوى بقايا معبد جونو عاماً بعد عام، نظراً لتآكل أحجارها المَسامية بفعل الريح وعوامل المناخ. كنا نقصد من جولتنا أن نمرّ بهذه الأطلال مروراً عابراً، إلا أن كنيب اختار المواضع التي سيجلس فيها لوضع الرسوم التخطيطية غداً.

يربض هذا المعبد على قاعدة من الصخر المتآكل. ويمضي سور

المدينة، من هذه النقطة، باتجاه الشرق على طول شفا تلّ كلسي، ينزل مثل جدار شاقولي إلى سهل الساحل. ويبدو أن البحر كان يتلاطم ذات يوم على هذه الأكمات، إلا أنه انسحب إلى ساحله الجديد في حقبة من الأزمان الغابرة. شيدت أسوار المدينة من حجارة صلدة، احتُفرت، أو اقتُطعت من جلاميد الصخور. ويشمخ المعبد وراء الأسوار. يسهل على المرء أن يتخيّل روعة منظر الأنحاء المرتفعة للمدينة، وهي تُرى من جهة البحر.

إن العمارة الرقيقة لمعبد الكونكورد، التي صَمدت على مدى قرون عدّة، تتّفق تماماً مع مقاييسنا في الجمال والاتّساق، خيراً من الأسلوب المعماري السابق لها. وحين نقارن معبد الكونكورد مع البيستيوم، فإن التباين يشبه الفارق بين صورة الآلهة، وصورة عملاق بشري.

وأحسب ألا يجوز للمرء أن يتذمّر مادامت النوايا حسنة، إلا أن التدابير التي اتُّخذت مؤخّراً لحفظ هذه النصب فاسدة الذوق تماماً. لقد رُمّمت الصدوع بملئها بالجبس الأبيض الفاقع، الذي يُفسد منظر المعبد بأسره. كان من السهل على المرمّمين أن يُضفوا على الجبس لون الحجر المتآكل. ومن جهة أخرى، لابد للمرء أن يقرّ ويعترف أن من الإعجاز بمكان أن يبقى المعبد في مكانه، وهو يرى إلى هيكله وأعمدته وجدرانه المشادة جميعاً من حجر الكلس المسامي الهشّ. ومن الواضح أن البنّائين أنفسهم حرصوا على ديمومته بأمل إرضاء الأخلاف الشاكرين؛ ويرى المرء آثار كساء خفيف من الجبس على الأعمدة، ملجوه إكراماً لعين الناظر، وطلباً للمتانة المعمرة.

بعد ذلك، توقّفنا عند أطلال معبد جوبيتر المنثورة تناثراً متباعداً مثل عظام هيكل عظمي لكائن عملاق، وسط أو أسفل الكثير من الحاكورات الزراعية، المقسمة بسياجات، والمكْسُوّة بدغل شتّى النباتات البرّيّة. أما الأشكال الوحيدة التي حافظت على مظهرها الأصلي وسط هذا الركام من

الأحجار المتساقطة؛ فهي كناية عن مربّعات أفاريز وأنصاف أعمدة ذات أحجام عملاقة. حاولتُ أن أقيس عرض مربّع الإفريز بذراعي المبسوطتين، فلم أستطع تغطية طوله. أما العمود؛ فإليكم ما يقدّم صورة عن ضخامته. حين أقف في جوف أحد زخارفه المحزّزة كما في رازونة، فإن كتفيّ لا يصلان إلى ملامسة حافتي الزخرف. ويتطلّب الأمر أن نرصف اثنين وعشرين رجلاً، كتفاً إلى كتف، حتّى نؤلّف دائرة تقارب في حجمها محيط مثل هذا العمود. تركنا الموقع خائبين، لتعذّر وجود ما يمكن لرسّام التخطيطات أن يفعله.

أما معبد هرقل، من الجانب الآخر؛ فما يزال يحمل آثار التناظر الكلاسيكي. هناك صفان من الأعمدة في جهته الأمامية، وجهته الخلفية تضطجع باتجاه الشمال والجنوب، الصفّ الأول أعلى التلّ، والصفّ الثاني، أسفل التلّ، كما لو أنها سقطت جميعاً في اللحظة ذاتها. ولعلّ التلّة ذاتها قد تشكّلت من خرائب أقبية (بالإيطالية) المعبد. ولعلّ الأعمدة التي ترابطت معاً بسطح البناء قد تهاوت بفعل عاصفة هوجاء. وإن قطع الصخر المنفصلة التي تتألّف منها الأعمدة ما تزال راقدة في نظامها المتسلسل. ولقد شحذ كنيب أقلام الرسم تحسّباً لتصوير هذا الحَدَث الفريد.

ويؤلّف معبد أسكولابيوس، الذي يقف في ظلّ شجرة خرنوب لطيفة، ويجاور حيطان بعض مباني المزارع الصغيرة التي تطوّقه منظراً رقيقاً.

أخيراً نزلنا المرتفع إلى ضريح ثيرون، وشعرنا بالسعادة للوقوف عند هذا الصرح الذي سبق وأن رأينا صورته المرسومة بكثرة. ويشكّل الضريح منفذاً لمشهد خارق. وتطوف العين بسرعة أكبر من الغرب إلى الشرق على طول الأكمة الصخرية، بجدرانها المتهاوية، التي تبدو أطلال المعابد منثورة فوقها، أو من خلالها. لقد رسم هاكرت هذا المشهد بريشته البارعة، ولا ريب في أن كنيب سيرسمه أيضاً.

٢٦ نيسان (أبريل)

حين استيقظتُ، وجدتُ كنيب يتهيّأ للانطلاق في جولته الفنية صحبة صبيّ، اكتراه لحمل عدّة الرسم. وقفتُ عند النافذة متأمّلاً مجد الصباح بصحبة رفيقي السّرّيّ الساكت الأبعد ما يكون عن الأبكم. ثمّة توقير حيّي منعني حتّى الآن عن ذِكْر اسم هذا المعلّم المرشد، الذي ألتجئ إليه، وأصغي إليه بين الحين والآخر. إنه فون ريدزل(*)، ذلك الإنسان الرائع الذي أحمل كتابه الصغير، قريباً من قلبي، كما لو كان كتاب تعاويذ أو طلمساً.

إنني أحب أن أرى نفسي في مرايا الطبيعة التي تملك ما ينقصني، وهو واحد من هذه المرايا. عزم هادئ، وثقة في الغرض، ودقة وحصافة في المنهج، وأساس متين، ودراسة علمية، وارتباط حميم بأستاذ معلّم، وهو هنا، في حالته، فينكلمان. وأنا أفتقر إلى ذلك كله، كما أفتقر إلى كل ما يتأتّى للمرء من امتلاك ذلك. لذا؛ لا أستطيع أن ألوم نفسي على أن أسعى لأن اكتسب، موارية أو اندفاعاً أو مراوغة، ما لم تسمح لي الحياة بنيله حتّى الآن بالطرق المعتادة. ترى أيمكن لهذا الإنسان الرائع، أن يدرك، وسط هذا العالم المضطرم، وفي هذه اللحظة بالذات، أن ثمّة تلميذاً وفياً، يُعلن ولاءه، ويُسبّح بحمده، وحيداً في مكان منعزل، يكتسي الكثير من الجاذبية له؛ بحيث يتمنّى لو يقضي فيه بقية عمره هنا، بعيداً عن الأهل والأصحاب، ناسياً كل ما عداه.

وهكذا رحتُ أمضي في رحاب طرقات الأمس صحبة دليلي الكَنَسي، مستشيراً صديقي المواظب بين الحين والآخر، ناظراً إلى الأشياء نفسها من زوايا عديدة متباينة.

---

*) ي. هـ. فون ريدزل (١٧٤٠ ـ ١٧٨٠)، سفير بروسيا في بلاط فيينا، ومؤلّف كتاب: "رحلة عبر صقلية وماجنا جراسيا".

لقد جذب انتباهي إلى عادة لطيفة من تقاليد هذه المدينة القديمة الجبارة. ثمّة قبور تهجع في الصخور وكتل المباني التي كانت ذات يوم متاريس تحمي مدينة جيرجينتي، ولعلّها قبور كُرّست للشجعان والأخيار. ما أروعه من مرقد، يُكرّس في ذكرى مجد هؤلاء، ومثالهم الأبدي للأحياء!

ها هنا، في هذا السهل المنبسط بين الأكمات والبحر، تهجع بقايا معبد قديم، جرى تحويله إلى كنيسة مسيحية. وإن الجمع المتناسق بين أنصاف الأعمدة والكتل المكعّبة الجدران بهجة للناظر. أحسستُ أنني أشهد اللحظة التي بلغت فيها طائفة الدوري ذروة الكمال. ألقينا نظرة وجيزة على بعض الأنصاب البسيطة من عصور القدماء، ونظرة أرحب على بعض السراديب التي يختزنون فيها القمح في يومنا هذا. قدّم لي دليلي المسنّ الطيّب الكثير من المعلومات عن الأحوال المَدَنية والكَهَنُوتية في هذه الأصقاع. لم يكن بين ما ذكره ما يشجّع المرء، واقتصرتْ أحاديثنا على ما يحيط بنا؛ حيث يتهاوى كل شيء باطّراد. وعرفتُ منه، مصادفة، أن ثمّة بُغضاً كبيراً للفرنسيين على عقدهم الصلح مع البرابرة. وهم يتّهمون الفرنسيين بخيانة المسيحية وخدمة الكفّار.

عند النظر إلى الأكمات، يلاحظ المرء أن كل الطبقات تميل إلى البحر. لقد تآكلت الطبقات السفلى كثيراً، وغدت الطبقات العليا ناتئة، كما لو أنها حوافّ معلّقة.

ثمّة بوّابة قديمة تنبجس من صخرة، تقع في منتصف الطريق من السهل الموصل إلى الشاطئ. أما الأسوار التي ما تزال قائمة؛ فمشادة على أساسات صخرية في طبقات.

إن صاحبنا شيشرون (cicerone خطيب أو دليل سياحي)، يُدعى

دون ميكائيل فيلا، دارس الأثريات الذي يقطن بالقرب من سانتا ماريا منزل الماسترو جيريو.

تُزرع الباقلاء هنا على النحو التالي: إنهم يحفرون حفراً في التراب على مسافات مناسبة، ويضعون فيها حفنة من السماد، وينتظرون سقوط المطر، وبعدها يضعون بذور الباقلاء. وهم يحرقون أعواد وقشور الباقلاء، ويستخدمون الرماد لغسل الملابس، فهم لا يستعملون الصابون قط. وعوضاً عن الصودا، يستخدمون قشور اللوز المحروقة. وهم يشطفون الملابس بالماء أولاً، بعد ذلك، يغسلونها بهذا النوع من القلويات.

أما تناوب المحاصيل؛ فيأخذ المجرى التالي: الباقلاء، والقمح، وفالتومنيا؛ أما في السنة الرابعة؛ فتُترك الحقول بوراً، وتُخدم بمثابة مرعى. أما التومينا. يقال إن الاسم مشتقّ إمّا من بمينا أو تريمينا.؛ فهو هدية ثمينة من سيريز Ceres) آلهة الزراعة)، والتومينا هي نوع من الذرة الصيفية، ويستغرق نضجها ثلاثة شهور. وهم يزرعونها من شهر كانون الثاني (يناير) حتّى حزيران (يونيو)، لذا؛ تجد أن بعضاً من هذه الذرة قد نضج، مهما كان الوقت. وتحبّ هذه الذرة القليل من المطر والكثير من حرارة الشمس. في البدء تظهر الذرة بورق رقيق، ثمّ تنمو سريعاً كالقمح، لكنها تتصلّب عند النضج. ويُبذَر القمح في شهري تشرين الأول (أكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر)، وينضج في حزيران (يونيو)، أما الشعير؛ فيُبذَر بذار في تشرين الثاني (نوفمبر). وينضج الشعير هنا، في أول حزيران (يونيو)، وقبل هذا الوقت في مناطق الساحل، وبعد هذا الوقت في الجبال.

أما الكتان؛ فناضج أصلاً. وتُفتح نبات الأقنثوس عن أوراق بديعة. وينمو نبات الصالصولا فروتيكوزا الثمّار (بالإيطالية) بوفرة، أسوة بالزنفون ذي الأزهار القرنفلية، على المنحدرات غير المزروعة. ويضمن البعض هذه

المحاصيل، فيحملها إلى المدينة في حزم. كذلك حال الشوفان الذي يقتلعونه من حقول القمح، ويبيعونه في حزم.

وحين يزرعون الملفوف، يحفرون أخاديد منتظمة بنتوء خفيض من التربة؛ لكي يلتقط ماء المطر. أما أشجار التين؛ فقد أورقت تماماً، وقد بدأت ثمارها تنمو، ولسوف تنضج بحلول عيد القدّيس يوحنّا. غير أن أشجار التين ذاتها ستُثمر ثانية في وقت لاحق من العام. وأما أشجار اللوز؛ فمُثقلة بالتمر. ورأيتُ شجرة خروب منحنية بثقل ما تحمل من قرنات، لا تُحصى. أما الكروم؛ فتدرّ أعناباً، لا تُؤكل، وهي منشورة على تعريشات مسندة بأعمدة عالية. رأيتُ الكروم تنمو زاهية وسط خرائب معبد جوبيتر، رغم انعدام البلل اللازم لها بالمرّة.

إن حوذينا (بالإيطالية) يأكل الأرضي شوكي، كما يأكل الكرنب نيئاً، وبالتذاذ كبير؛ ولابد من القول إن هذه الثمار هنا رقيقة وريّانة أكثر ممّا في مناخنا. ويصحّ القول ذاته على الفاكهة. فحين يجتاز المرء الحقول، يسمح الفلاحون له بأن يأكل قدر ما يشاء من الباقلاء، وقرنات الخروب، مثلاً.

وحين أبديتُ بعض الاهتمام في نوع من الأحجار السود التي تشبه حمم البراكين، أخبرني دليل الآثار أنها جاءت من جبل ماونت أتنا، وإن هناك عيّنات أخرى منها قرب الميناء، أو بالأحرى عند المرسى.

تخلو هذه المنطقة من الطيور، عدا القلّة، ومنها طيور السمّاني. أما الطيور المهاجرة الأخرى؛ فتشمل السنونو، والرنين، والردين (بالإيطالية). أما الرنين (الدوري)؛ فهو طائر أسود الريش، يفد من الشرق؛ ليتناسل، ويبني أعشاشه، ويضع بيضه في صقلية، ثمّ يعود إلى منشئه، أو يمضي إلى أصقاع أنأى. وأما الردين، أو البطّ البرّيّ؛ فيفد من إفريقيا في شهري

كانون الأول (ديسمبر) وكانون الثاني (يناير)، ويهبط في أكراجاس في أسراب غفيرة، ثمّ يحلّق متّجهاً صوب الجبال.

لابد من كلمة عن آنية الزهور في الكاتدرائية. إنها تحمل صورة بطل في كامل درعه الحربي، وهو غريب كما يلوح، وصل لتوّه، وهو يقف في حضرة رجل جالس على مقعد، ويبدو من سورة غضبه وصولجانه أنه ملك. وتقف وراء الملك امرأة مطأطأة الرأس، تسند حنكها بيدها اليسرى، في وقفة متوفّزة حزينة. ويقف خلف البطل المواجه لهما رجل عجوز آخر، يعتمر هو أيضاً إكليلاً من الزهور، ويتحدّث إلى رجل يحمل رمحاً، ولعلّه أحد أفراد حَرَس الملك. ويبدو أنه قد قدّم البطل لتوّه، وهو يبدو كمَن يقول للحارس: "دعه يتحدّث إلى الملك، فهو إنسان حَسَن." إن لون أرضية الآنية، كما يبدو، هو الأحمر، وأما الأشخاص؛ فقد رسموا فوقها بالأسود؛ وإن رداء المرأة هو الموضع الوحيد الذي أُضيف اللون الأحمر فيه فوق الأسود.

٢٧ نيسان (أبريل)

إذا كان كنيب عازماً على تنفيذ كل مشاريعه، فإن عليه أن يرسم بدون توقّف، فيما أجوب أنا الجوار صحبة دليلي القميء المسنّ. مشينا اليوم حتّى ساحل البحر؛ حيث تبدو جيرجينتي، كما يؤكّد لنا الأقدمون، في منظر بديع.

رحنا نحدّق في القفر المائي الواسع، فأشار دليلي إلى ضفّة طويلة من الغيم، تشبه سلسلة جبلية، وتقع في الأفق الجنوبي. قال إن هذا الغيم يشير إلى ساحل إفريقيا. وأدهشتْني ظاهرة أخرى غريبة: قوس خفيف من غيوم خفيفة، بقدم تسترخي فوق صقلية، وقدم أخرى في موضع ما من البحر إلى الجنوب، قوس مرفوع في السماء الزرقاء الخالية، بخلاف ذلك، من أي غيم. وكان مشهد هذا القوس أخّاذاً، وهو ساكن، ومتلألئاً بأشعّة

الشمس الغاربة. وقال لي دليلي إن القدم الأخرى لهذا القوس تطأ مالطا على الأرجح؛ حيث إنها تقع في اتجاه استدارة القوس؛ وأضاف أن هذه الظاهرة ليست نادرة. من الغريب حقاً أن يتجلّى الانجذاب المتبادل بين هاتين الجزيرتين على هذه الصورة الجوّيّة.

وأذكتْ أحاديثنا وقدة فكرة قديمة، كنتُ أحملها في ذهني، وأصرفها عني، باعتبارها عَصية، وخطيرة أكثر ممّا ينبغي: لمَ لا أتوجّه في رحلة إلى مالطا؟ لكن الاعتراضات القديمة ظلّت على حالها. فقرّرتُ أن احتفظ بسائسي حتّى نصل مسينا.

تأثّرتُ في قراري هذا بهوى عنود آخر من أهوائي. فخلال تجوالي في أرجاء صقلية، لم أشهد، حتّى الآن، سوى القليل من الحقول الغنية بالقمح؛ وكانت الجبال تحجب الأفق دوماً، لذا؛ تولّد الانطباع عندي بأني في جزيرة بلا سهول؛ ولم أستطع أن أفهم سبب ما يُقال من أن إلهة الزراعة سيريز تقدّم لها معروفاً خاصاً. ولمّا استفسرتُ عن ذلك، قيل لي إن عليّ أن أتجنّب سيراكيوز، وأن أتوجّه مباشرة في قلب صقلية، وعندئذ سأرى كثرة من حقول القمح. ورغم أن هذا يعني ترك مشروع زيارة سيراكيوز، فقد وافقنا، أنا وكنيب، على هذا الاقتراح المغري؛ لأننا سمعنا أنه لم يبقَ شيء من هذه المدينة التي كانت ترفل في المجد ذات يوم، سوى الاسم. زد على هذا أن من السهل علينا، عندئذ، أن نزورها انطلاقاً من كاتانيا.

كالتنانيسيتا، ٢٨ نيسان (أبريل)

أخيراً يمكن لنا القول إننا رأينا بأمّ العين السبب الذي جعل صقلية تحوز لقب "زهراء قمح إيطاليا". فما إن تجاوزنا جيرجينتي، حتّى أطلّ الخصب. لم تكن ثمّة قيعان سهلية كبرى، لكن الهضاب المتموّجة في رفق مَكْسُوّة بالقمح والحنطة في امتداد واحد كبير، لا انقطاع له. إن القيعان

الصالحة للزرع مغروسة بعناية أينما كانت تناسب لزراعة القمح، ولن تجد هنا أثراً لشجرة. حتّى القرى الصغيرة والمساكن مقصورة على الجروف الصخرية؛ حيث لا يتيح حجر الكلس نموّ أي غرس. وتعيش النساء في هذه القرى على مدار السنة كلها، وهنّ يزاولنَ الغزل والنسيج، أما خلال موسم العمل في الحقل؛ فإن الرجال يقضون معهنّ أيام السبوت والآحاد؛ بينما يقضون بقية الأيام في الوديان، وينامون ليلاً في أكواخ من القصب. لقد تحقّقت أمنيتنا بالكامل، وسرعان ما صرنا نتوق إلى عربة تريبتوليموس المجنّحة؛ لكي تحملنا بعيداً عن هذه الرتابة.

قطعنا هذه الخصوبة المهجورة ساعات على ظهور الجياد تحت الشمس الحارقة، وسُررنا بالوصول إلى بلدة كالتانيسيتا ذات الموقع الحَسَن، والبناء المتين. ورحنا نبحث عن نزل أنيس بلا طائل. تُوضَع البغال هنا في اصطبلات بديعة مسقوفة، وينام شغّيلة المزرعة على أكوام البرسيم التي تُستخدم علفاً؛ أما الغريب؛ فإن عليه أن يتولى تدبير معيشته من الصفر. فحتّى حين يجد المرء غرفة معقولة تفي بالمرام نوعاً ما، يتوجّب عليه أن يبدأ أولاً بتنظيفها. ولا وجود طبعاً لأية كراسي، أو أرائك، أو طاولات؛ كل ما هناك هو كتل من الخشب الصلب للقعود.

إذا رغب المرء في أن يستخدم كتل الخشب هذه بمثابة أرجل سرير، فإن عليه أن يقصد النجّار، وأن يستأجر ألواحاً كثيراً قدر ما يلزم. ملأنا الحقيبة الجلدية الكبيرة التي أعارنا إياها هاكرت بالقشّ، فكانت مثل بركةٍ من السماء. ولكنْ؛ كان علينا أن نتدبّر أولاً أمر طعامنا. كنا قد اشترينا في الطريق فرّوجاً، وانطلق سائسنا في الحال لشراء الرّزّ والملح والتوابل. ولمّا كان يجهل هذا المكان تماماً، فقد استغرق ردحاً طويلاً قبل أن يحلّ قضية المكان الذي نقوم فيه بطهو الطعام، نظراً لافتقار النزل إلى الموقد

واللوازم الأخرى. أخيراً عرض علينا مواطن مُسنّ أن يزوّدنا بالحطب لقاء مبلغ يسير، وأن يعيرنا موقداً، وآنية طبخ، ومستلزمات المائدة، بل وأن يُطلعنا على البلدة ريثما يفرغ السائس من إعداد الطعام.

وفعل ذلك حقاً، حتّى جاء بنا إلى ساحة السوق؛ حيث يجلس وجهاء البلدة حولها، وفقاً لتقليد قديم راسخ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث، وينتظرون منا أن نبادلهم هذا الحديث للتسرية عن النفس.

اضطُررنا إلى أن نقصّ عليهم حكايات عن فريدريك الثاني، فأبدوا اهتماماً كبيراً بهذا الملك العظيم، دفعنا إلى إخفاء نبأ موته عنهم خشية أن نتحوّل إلى مادّة للكراهية عند مضيفينا، باعتبارنا حاملي شؤم وسوء.

إليكم بعض الملاحظات الجيولوجية. حين ينحدر المرء من جيرجينتي في اتجاه كالتانيسيتان، يتحوّل لون التربة إلى البياض: فالنمط القديم من الكلس ينتهي كما يبدو؛ ليأتي في إثره الجبس. بعد هذا، يأتي نمط جديد من الكلس، أكثر هشاشة، ومُفتّت بعض الشيء، وهو ما يراه المرء بوضوح في الحقول المحروثة، التي يتباين لونها من الأصفر الفاتح إلى الأصفر الغامق، فما يقارب مَلمح البنفسجي. ويعود الجبس إلى الظهور في منتصف الطريق بين جيرجينتي وكالتانيسيتا. ويساعد هذا على نموّ أزاهير السيدوم البرتقالية، أو الحمراء القانية، في حين أن الكلس يؤوي الطحالب الصفراء البرّاقة.

وينبجس الكلس المتفكّك ثانية قرب كالتانيسيتا. وتحوي فلقاته المتكسّرة متحجّرات من القواقع، وهذا الكلس ضارب إلى الحمرة المشوبة باللون البنفسجي، بل هي أقرب إلى الرصاص الأحمر. سبق لي أن شاهدتُ عيّنات مماثلة بالقرب من سان مارتينو.

لم أشاهد حجر الصوّان (الكوارتز) إلا مرّة واحدة في منتصف واد صغير، مطوّق من ثلاث جهات، ومفتوح من جهة الشرق صوب البحر. ويرى المرء في البعيد جبلاً عالياً جهة اليسار، وهو يشمخ فوق كاميراتا، وهناك جبل آخر يشبه كوزا مخروطياً. بدت حقول القمح الهائلة منتظمة ونظيفة على نحو مذهل. فلا أثر لأي دغل البتة. في البدء، لم نر شيئاً سوى الحقول الخضراء، ثمّ بعدها حقول محروثة، وهنا وهناك بقعة مرعى، حيثما تتوفّر الرطوبة في التربة. الأشجار هنا نادرة؛ صادفنا بعض أشجار التفّاح والكمّثرى بعد مغادرتنا جيرجينتي، وبعض أشجار التين في قمم الجروف الصخرية، أو في جوار بعض القرى المتفرّقة.

الوديان جميلة المنظر. ورغم أن قيعانها ليست مستوية بالكامل، فلا أثر فيها لمطر غزير؛ لأن ماء المطر يجري مباشرة؛ ليصبّ في البحر؛ هناك برك صغيرة متناثرة، تصعب ملاحظتها.

إن النخلات القميئة وكل الأزهار والشجيرات التي تميّز المنطقة الجنوبية الغربية لا أثر لها هنا؛ كما أني لم أشاهد أثراً للبرسيم الأحمر. أما العاقول والأشواك؛ فلا مجال لها للنمو إلا على الطرقات؛ أما الباقي؛ فهو من رعايا مملكة سيريز(*). الواقع أن هذه المنطقة بأسرها تشبه شبهاً كبيراً بعض المناطق الهضبية الخصيبة في ألمانيا، التي تقع بين إيرفوت وجوتا، وبخاصة حين ينظر المرء في اتجاه جلايشن(**). هنا تتضافر عوامل عدّة؛ لتجعل من صقلية واحدة من أكثر البلدان خصباً في العالم. الحراثة هنا تجري بواسطة الثيران، ويحرم هنا نحر الأبقار أو العجول. صادفنا أيضاً الكثير من الماعز والحمير والبغال خلال رحلتنا، لكننا لم نر سوى القليل

*) آلهة الزراعة عند الإغريق.

**) جلايشن هي ثلاثة جبال قرب مدينة جوتا.

من الجياد. إن معظم الجياد رمادية، ذات قوائم سوداء وعُرف أسود. وتتوفّر لها اصطبلات رائعة ذات معالف حجرية، شيدت داخلها.

لا يُستخدم السماد الحيواني إلا في زراعة الباقلاء والعدس؛ ولا تُزرع المحاصيل الأخرى إلا بعد حصاد هذين. ويعرض الفلاحون البرسيم الأحمر وحزم الحنطة، التي ماتزال سنابلها غضّة خضراء، للبيع على الراكبين المارّين.

ورأينا في الجبل المشرف على كالتانيسيتا نوعاً صلباً من الكلس الحاوي للمتحجّرات: ثمّة قواقع كبيرة تحت الكلس، وقواقع صغيرة فوقه. ووجدنا متحجّرات كثيرة في بلاط أرصفة البلدة الصغيرة.

بعد كالتانيسيتا، تنحدر التلال انحداراً حادّاً إلى عدد من الوديان التي تصرف مياهها في نهر سالسو. إن التربة ضاربة للحمرة، وهي صلصالية. معظم الأراضي بور، أما المزروع منها: فيضم محاصيل أدنى مرتبة من محاصيل المناطق السابقة التي عبرناها، وإن تكن مقبولة.

كاستروجيوفاني، ٢٩ نيسان (أبريل)

رأينا اليوم منطقة أخرى أكثر خصباً وأشدّ فراغاً من الناس. نزل المطر دون انقطاع، ممّا نغّص علينا الرحلة، نظراً لاضطرارنا إلى عبور أنهر عديدة، فاضت بالمياه. وحين بلغنا ضفّة نهر سالسا، ورحنا نبحث عن جسر للعبور، بلا طائل، وجدنا مغامرة مفاجئة في انتظارنا. هناك ثلّة من الرجال الأشداء تمُسك البغال من أحزمة السرج، بواقع رجلين لكل بغل، وتقودها مع راكبيها ومتاعها عبر فرع من الجدول العميق باتجاه الضفّة الأخرى، مدقّقة حال البغال، وناخسة إيّاها؛ لكي تبقى في المسار الصحيح، ولئلا تتعثّر، وتسقط، فيجرفها التيار. وبعد أن تجمّع موكب البغال والسائسون على الضفّة، نقلونا عبر الفرع الثاني من النهر على الغرار نفسه.

تغطّي أجمات الشجيرات الضفاف تماماً، إلا أنها اختفت بمجرّد بلوغنا قيعاناً يابسة. يجرف نهر سالسو كسر الجرانيب، والصوّان المفتّت، وشظايا الرخام المحبّب والأملس.

وأطلّتْ قبالتنا القمّة المعزولة التي تربض عليها كاسترو جيوفاني. إنها تضفي على المنظر طابعاً كئيباً مثيراً للاستغراب.

هبطنا سفح التل عبر طريق طويل مُلتو، فرأينا أنه يتكوّن من أحجار كلس ومتحجّرات قواقع. التقطنا بعض العيّنات التي تحوي الكثير من القواقع المتكلّسة. ولا يسع المرء أن يرى كاسترو جيوفاني إلا بعد أن يبلغ أعلى التلّ، نظراً لأنها تربض في أعلى سفحه الشمالي. وتتقابل في هذا المشهد العناصر المختلفة في بهاء: البلدة الصغيرة، والبرج، وقرية كالاسيبيتا التي تقع عن يسار البلدة على مسافة قريبة. محصول الباقلاء يُزهر في الحقول السفلية، ولكنْ: مَن عساه يستطيع التمتّع بالمنظر! فالطرقات فظيعة، وبلاط الطريق الذي كان هنا ذات يوم، توارى تماماً، بينما راح المطر يهطل علينا دون انقطاع. استقبلتْنا بلدة إينا الغابرة أبشع استقبال. غرفة ذات أرضية حجرية مَكْسُوّة بالجبس، من دون نوافذ، فكان علينا إمّا أن نجلس هكذا في الظلام، أو أن نتحمّل سيل المطر المدرار، الذي هربنا منه لتوّنا. أتينا على بعض ما بقي من زاد الطريق، وقضينا ليلة بائسة، وأقسمنا بأغلظ الأيمان ألا نوقع أنفسنا ثانية في أية رحلة قادمة، في غواية اسم أسطوري.

٣٠ نيسان (أبريل)

غادرنا كاسترو جيوفاني عن طريق ممرّ شديد الانحدار والوعورة، ممّا اضطرّنا إلى أن ننزل لإرشاد البغال. خلال نزول هذا المنحدر، بدا لنا كل ما يقع في مستوى عين الناظر ملفّعاً بالغيوم، أما في الأعالي؛ فقد دُهشنا لرؤية شيء ذي لون رمادي مقلّم بالأبيض، وبدا لنا مثل جسم صلب. كيف

يمكن أن يكون هناك جسم صلب عائم في السماء؟! شرح لنا دليلنا أن هذا أحد جوانب جبل "أتنا" التي تلوح من خلال فرجات الغيوم؛ وأما الخطوط البيضاء؛ فما هي إلا كتل الجليد والصخر العاري لجرف الجبل؛ مع ذلك، فإن الجرف الماثل أمام أنظارنا يحجب القمّة.

فرغنا من الصخور شديدة الانحدار، وخلّفنا "إينا" وراءنا، وأكملنا بقية الطريق ممتطين الدوابّ ماضين بلا انقطاع عبر وديان خالية من البشر والزرع، متروكة لرعي المواشي الرشيقة الوثّابة رشاقة ووثوب الغزلان. تنعم هذه المخلوقات الوديعة بمراع كافية، إلا أنها مطوّقة بحواجز على هيئة كتل ضخمة من أشواك العلّيق الزاحفة باستمرار على حساب رقعة الرعي. وتجد هذه النباتات ظروفاً مثالية للنموّ والتكاثر. وإن رقعة الأرض التي اغتصبتْها هذه النباتات الشوكية تؤلّف مرعى واسعاً، يكفي مواشي عدّة ضياع. ولمّا كانت هذه الأشواك غير معمّرة، فإن بالإمكان القضاء عليها في هذا الموسم، باجتثاث جذورها قبل أن تُزهر.

وبينما كنا غارقين في كل جدّ بوضع خطط استراتيجية لخوض الحرب على أشواك العلّيق، أصابنا الذلّ باكتشاف أن هذه الأشواك ليست عديمة الفائدة، كما توهّمنا. توقّفنا عند نزل وحيد لعلف بغالنا، فوجدنا اثنين من النبلاء الصقليين قد وصلوا قبلنا. كانا في طريقهما لعبور الريف إلى باليرمو لغرض تسوية دعوى قضائية. ولشدّة دهشتنا رأينا هذين السيدين الموقّرين يقفان عند أجمة علّيق، ويقطعان بالمطواة الحادّة ذؤابات العلّيق، ويمسكان بحذر واحتراس هذا الحصاد الشوكي؛ ليكشطا سويقاته، ويمضغانها بتلذّذ عظيم، وهي عملية استغرقت بعض الوقت. في غضون ذلك، رطّبْنا حلوقنا بمذاق النبيذ غير المخفّف بالماء هذه المرّة، ومذاق الخبز الحَسَن. وأعدّ لنا سائسنا بعض سيقان العلّيق

المقشورة مصراً على أنها مفيدة للصحّة، ومنعشة، ومقوّية، إلا أننا وجدنا طعمها مجّاً مثل الخرنوب البرّيّ في سيجيستا.

على الطريق، ٣٠ نيسان (أبريل)

مضينا في الوادي اللطيف الذي يجري فيه نهر سان باولو متعرّجاً، ووجدنا التربة هناك مؤلّفة من الكلس المفتّت الضارب إلى الحمرة القانية؛ حيث تبلغ بعض الوهاد نحو عشرين قَدَمَاً في العمق. نما نبات الصبر، وطال، وبدا الحصاد المقبل وفيراً، رغم أن الدغل والأعشاب الضارّة تُفسده هنا أو هناك، وإن المحاصيل أدنى نوعاً ممّا في جنوب الجزيرة. ثمّة الكثير من الأراضي البور، وبعض الحقول الفسيحة، ومنزل هنا أو هناك، أما الأشجار؛ فلا أثر لها، باستثناء الغور المحاذي لبلدة كاسترو جيوفاني. وتحفّ ضفّتي النهر مراع واسعة، تعجّ بأجمات كثيفة من العلّيق. ويحوي نثار الأحجار في قاع النهر على المزيد من قطع الصوّان، بعضها أملس، وبعضها يشبه صخر البريشة المسنّن.

إن موليمنتي قرية عصرية ذات موقع حَسَن على ضفّة نهر سان باولو، تحفّه حقول جميلة من كل الجهات. ينضج القمح في هذه الأنحاء في العشرين من شهر أيار (مايو). ولا تحوي المنطقة أي أثر بركاني، ولا يجرف النهر أي قطع بركانية، كما لا يحويها في قاعه. وأما التربة؛ فخليط حسن ثقيل نوعاً ما، وذات لون داكن قريب من لون البنّ، وضارب إلى الحمرة القانية، في حين أن الجبال الممتدّة على الضفّة اليسرى من النهر مؤلّفة من صخور الكلس والحجر الرملي. ولم أستطع فحص انتظام الطبقات الجيولوجية، لكنّ تفتّت وحَتّ هذه الصخور قد أسهم في زيادة خصوبة الوادي، وإدامتها. بُعيد مغادرتنا موليمنتي شاهدنا فلاحين يحصدون الكتّان.

١ أيار (مايو)

مضينا عبر هذا الوادي الحافل بالزرع على اختلاف أنواعه، فقد قيّضتْ له الطبيعة أن ينعم بخصب شامل، إلا أننا كنا في مزاج مُغتمّ بعض الشيء؛ لأننا، رغم كل ما لاقيناه من صعاب، لم نجد ما يستحقّ الرسم. وضع كنيب تخطيطاً لطيفاً لمشهد بعيد، إلا أن وسط المشهد ومقدّمته كانا قبيحين، ممّا دفعه إلى أن يُضيف إليهما مجموعة أنيقة بأسلوب بوسان، فكان ذلك عناء مضافاً، إلا أنه حوّل الرسم إلى صورة صغيرة مثيرة للبهجة. ولا أدري كم يحوي كتاب "رحلات رسّام" من أمثال أنصاف الحقائق هذه.

سعى سائس بغالنا إلى أن يطرّي مزاجنا، فوعدنا بمبيت حَسَن هذه الليلة، وجاء بنا حقاً إلى نزل حقيقي، شيد قبل بضع سنوات. ولمّا كان هذا النزل يقع على مَبعدة رحلة يوم كامل من كاتانيا، فلابد أنه مَسرّة لكل مسافر. كان المقام مقبولاً، واستطعنا بعد رحلة استغرقت اثني عشر يوماً أن ننعم أخيراً بقسط من الراحة المتواضعة. ووجدنا، لدهشتنا، عبارة خُطّت بقلم الرصاص على الجدار، بخط إنجليزي رشيق، هذا نصّها:

"أيها المسافر القاصد كاتانيا، أيّاً كنتُ، احذر من البقاء في نزل "الأسد الذهبي"، فهذا أسوأ من الوقوع في أسر السايكلوب(*)، والجنّيات القاتلات، وصخرة سيلا."

رغم أننا تصوّرنا أن هذا التحذير العطوف مجرّد مغالاة أسطورية، إلا أننا عقدنا العزم على أن نجتنب طريق هذا الوحش الضاري المسمّى "الأسد الذهبي"، لذا؛ حين سألَنا سائس البغال أين نريد النزول في كاتانيا، أجبنا:

---

*) السايكلوب هو العملاق وحيد العين الذي فتك بأصحاب يوليسيس، والجنّيات هنّ جنّيات البحر اللواتي واجهنّ يوليسيس، أما صخرة سيلا؛ فهي صخرة خطرة قرب مضيق مسينا، فتكت بالبحّارة.

"في أي مكان عدا نزل الأسد". اقترح علينا، عندئذ، أن ننزل في المكان الذي وضع فيه البغال، لكنه حذّرنا من أن علينا أن نعدّ طعامنا بأنفسنا، كما فعلنا من قبل. قبلنا العرض في الحال، فقد كانت رغبتنا في الفكاك من شدقي الأسد أعظم من أية رغبة أخرى.

بدأت شظايا البراكين تظهر من جديد بالقرب من هيبلامايور، بعد أن جرفتْها الجداول الجارية من الشمال، أما قطع الكلس المخلوطة بالحجر القرني والحمم ورماد البراكين المتصلّب وفلق الجير؛ فتظهر على الجهة البعيدة من خطّ السفر. وتستمرّ التلال البدائية على طول الطريق إلى كاتانيا؛ وتوجد إلى جوارها أو حتّى فوقها سيول حمم متّصلة من جبل ماونت أتنا. مررنا بما يمكن أن يكون حفرة عن يسارنا. ها هنا تُبدي الطبيعة مَيْلَها إلى الألوان الساطعة، فتلهو بنثر الحمم البركانية المزدانة بالأسود والأزرق والرمادي، وتتسلّى بنشر الطحالب الصفراء والأزاهير البرتقالية. ويشهد الصبّار كما تشهد الكروم على وجود زراعة حصيفة، دائبة. ثمّة الكثير من الحمم في كل مكان، السيل بعد الآخر. إن موتا هي جرف صخري شاهق وجميل. وتنمو الباقلاء على شكل أجمات طويلة السيقان. أما نوعية الحقول؛ فمختلفة؛ فالتربة في بعضها ذات تركيب حسن، وفي بعضها الآخر قاسية.

ويبدو أن سائسنا لم يزر غياض الربيع في الساحل الجنوبي الشرقي منذ أمد بعيد، فانفجر في نوبة حبور وجذل معبّراً عن جمال الحقول، سائلاً إيّانا في لهجة فخار وطني، إن كنا قد شاهدنا مثل هذا الجمال في بلادنا. وأخذت فتاة حلوة المحيّا رشيقة القوام. من معارفه القدامى. تركض إلى جانب بغله، وهي تجاذبه الحديث، وتغزل خيطاً في آن واحد. أخذت الأزاهير الصفراء تطغى على المشهد الآن. ولمّا اقترنا من ميستر بيانكو،

عادت الصبيرات إلى الظهور عند الحواجز، إلا أن ثمّة أسيجة كاملة مؤلّفة من هذه النباتات ذات الأشكال العجيبة، وكل واحدة أجمل من سابقتها، وهي الآن تتكرّر بوتيرة كبيرة، كلّما اقتربنا من ضواحي كاتانيا.

كاتانيا، ٢ أيار (مايو)

لا فائدة في إنكار أننا وجدنا أنفسنا في حال مُزر تماماً من ناحية السَّكَن. فالموضع الذي دبّره لنا سائس بغالنا لم يكن بين أحسن المواضع. إن الفرّوج المسلوق مع الرزّ ليس بالوجبة المُحتقَرَة، لكن الإفراط في مزجه بالزعفران صبغه بلون أصفر، وجعل مذاقه عسيراً على الأكل. أما مهاجعنا؛ فلم تكن مريحة بالمرّة، إلى درجة أننا فكّرنا بكل جدّ في أن نلجأ إلى حقيبة هاكرت الجلدية؛ لنتخذها فراشاً. وعليه، عاجلنا في الصباح الباكر إلى إثارة الموضوع مع مضيفنا الودود، الذي أعرب عن أسفه لعجزه عن توفير مقام أفضل. ولكنه قال، مشيراً إلى منزل كبير، يقع على الزاوية عبر الشارع "ولكنْ؛ هناك ستجدون خير رعاية، وستتوفّرون على كل أسباب الراحة والرضى." بدا منظر المكان واعداً بالخير، فأسرعنا إليه في الحال. لم يكن المالك في المنزل، لكن رجلاً متوفّز الملامح، قدّم لنا نفسه على أنه النادل، اختار لنا حجرة مريحة جوار غرفة الجلوس، مؤكّداً لنا أن إيجارها مناسب. وسألناه، كما هو دأبنا دوماً، عن التفاصيل الدقيقة لسعر المبيت، وكلفة الطعام والنبيذ والفطور، وما إلى ذلك. بدت الأسعار زهيدة تماماً، فنقلنا متاعنا عبر الشارع، ووضعنا الملابس في جوارير الخزانات الواسعة المذهّبة. واستطاع كنيب، لأول مرّة، أن يغنم فرصة ترتيب أوراق الرسم، وأن يرتّب الرسومات، كما غنمتُ فرصة مماثلة لترتيب دفاتر ملاحظاتي.

غمرتنا الفرحة للحصول على هذه الغرف، فخرجنا إلى الشرفة؛ لنتملّى المنظر. ولمّا أسرفنا في الإعجاب مدّة طويلة، واستدرنا على أعقابنا؛ لنعود

إلى عملنا رأينا - ويا للعجب العجاب! - ذلك المسلّط فوق رؤوسنا مثل خطر داهم: أسد ذهبي كبير. التقت عيوننا، وانخرطنا في قهقهة صاخبة. يتعيّن علينا، ابتداء من هذه اللحظة، أن نكون على حذر دائم؛ لئلا تداهمنا إحدى فزّاعات الأوديسة الهوميرية بغتة، مُنقضّة علينا من إحدى الزوايا. ولكنْ؛ لم يحصل لنا أي شيء من هذا القبيل؛ وكل ما وجدناه في قاعة الجلوس شابّة حلوة المحيّا، تلاعب طفلاً، له من العمر عامان. وتحرّك نائب المالك، مُوجّهاً إليها كلمات تقريع خشنة؛ كي تنصرف في الحال، فلا مكان لها في النزل. فقالت "لا تكن شديداً عليّ؛ لا تطردني. فأنا لا أستطيع تدبير أمر الطفل في البيت في غيابك. لاشك أن هؤلاء السادة لا يمانعون أن أهدّئ الطفل، وألاطفه بوجودك." لم يقنع الزوج بهذا الحال، فأخذ يحاول إخراجها عنوة. كان الطفل يقف عند مدخل الباب، وهو يبكي، ممّا اضطرّنا آخر المطاف إلى أن نلتمسه أن يأذن للمرأة بأن تبقى حيث هي.

بعد تحذير الرجل الإنجليزي، لم يكن يتطلّب المرء عبقرية خاصة؛ لكي يرى إلى حقيقة هذه الكوميديا: لقد لعبنا دور الأغرار السّذّج، ولعب هو دور الأب المحبّ، إلى درجة الكمال. ومن غرائب الصدف أن الصبي بدا ميّالاً إليه أكثر من الأمّ المزعومة؛ لعلّها قرصته خلسة. غادر الرجل؛ ليأخذ رسالة توصية بنا إلى قسّ منزل الأمير بيسكاري، وبقيت المرأة، وراحت تلاعب الطفل بأكثر مظاهر البراءة إتقاناً في العالم، إلى أن عاد الرجل؛ ليبلغنا أن الأب سيأتي شخصياً لمرافقتنا.

٣ أيار (مايو)

وصل الأب هذا الصباح، بعد أن زارنا بالأمس لإلقاء التحية، وأخذنا إلى القصر، وهو مبنى من طابق واحد قائم على أساسات عالية. زرنا المتحف، أولاً، بما فيه من مجاميع تماثيل رخام وبرونز، وآنية زهور، وكثرة كاثرة من الأثريات المشابهة.

وأثار جذع تمثال جوبيتر إعجابنا الشديد، وسبق لي أن رأيتُ نسخة عنه من قالب في ستوديو تيشباين، إلا أن لهذا التمثال مزايا أعظم من أن يحرزها المرء من مجرّد رؤية القالب. وقدّم لنا أحد أفراد الأسرة معلومات تاريخية أساسية، انتقلنا بعدها إلى حجرة فسيحة عالية السقف. وأدركنا من كثرة الكراسي المرصوفة على طول الجدران أن هذه القاعة تُستخدم للمناسبات الاجتماعية الكبرى. جلسنا متوقّعين استقبالاً لائقاً. دخلت سيدتان إلى الصالة، وراحتا تذرعانها جيئة وذهاباً، وهما تتجاذبان حديثاً هاماً. ولمّا انتبهتا إلى وجودنا، نهض الأب، فحذونا حذوه، وانحنينا جميعاً لهما. استفسرتُ عن هويّتهما، فقيل إن الصغرى هي الأميرة، وإن الكبرى نبيلة من كاتانيا. عدنا إلى الجلوس، وواصلت السيدتان الرواح والمجيء كحال الناس في ساحة عامة.

بعدها قادونا إلى الأمير الذي أطْلَعَنَا على مجموعته من العملات. وتلك بادرة تكريم وثقة خاصة، نظراً لأن عدّة قطع فُقدت، على أيامه، كما على أيام أبيه، بعد عرضها على الزائرين؛ فبات ضنيناً محترساً في عرضها. تعلّمتُ الكثير من مشاهدة مجموعة الأمير توريموزا، ووسّعتُ معرفتي بقراءة كتاب فينكلمان الذي يقدّم خيطاً هادياً، يرشدنا عبر مختلف حقب الفن؛ ولهذا أمكن لي أن أتابع الأمور هذه المرّة على نحو أفضل. ولمّا لاحظ الأمير شدّة انتباهنا، رغم كوننا هواة، لا خبراء، راح يشرح لنا، وهو الضليع المتمرّس في هذه الأمور، شرحاً وافياً عن طيب خاطر، يمسّ كل ما أردنا معرفته. وبعد أن قضينا بعض الوقت، على قلّته، في معاينة القطع، تهيّأنا للاستئذان في الانصراف، إلا أن الأمير قادنا إلى جناح أمّه لمشاهدة بقية مجموعته الصغيرة من أعمال الفن.

قدّمنا الأمير إلى سيدة متميّزة المظهر، تلوح عليها مسحة نشأة غريزية، فاستقبلَتْنا بهذه الكلمات:

"تفرّجوا، أيها السادة؛ وستجدون كل شيء كما تركه زوجي العزيز. وأنا مَدينة بهذا إلى التفاني الذي يبديه ابني العزيز لأمّه، فهو لا يقتصر على أن يدعني أعيش في أحسن أجنحته، بل إنه لا يسمح بزحزحة أو أخذ أي قطعة منفردة من مجموعة أبيه. ونتيجة لذلك، فأنا أنعم بمزية مضاعفة، مزية العيش في الطراز الذي اعتدتُ عليه طويلاً، ومزية التعرّف إلى أكابر الغرباء الذين يفدون الآن، كما وفدوا في الماضي، من أنأى البقاع لمشاهدة كنوزنا."

وباختتام هذه الكلمات، فتحت خزانة زجاجية، تحفظ فيها مجموعة الكهرمان. إن ما يميّز الكهرمان الصقلي عن نظيره الشمالي أن لونه يتحوّل من الشفّاف، أو الشمعي، أو العسلي، مروراً بشتّى تلاوين الأصفر، وصولاً إلى الأحمر المتراوح بين البنفسجي الخفيف والأرجواني. وتفرّجنا على جرار وكؤوس وأشياء أخرى صُنعت من الكهرمان. ومن الواضح أن هذه المصنوعات تحتاج إلى قطع كبيرة منه. وكانت هذه القطع، أسوة ببعض قطع العاج البديعة والقواقع المنقوشة، موضع فخر واعتزاز السيدة، التي تحفظ قصصاً طريفة عن كل قطعة منها. وأشار الأمير - بدوره - إلى أهم القطع، فقضينا بذلك سويعات لطيفة، ومفيدة.

وحين علمت الأميرة الأرملة اننا ألمان، سألتنا عن أخبار فون ريدزل، وبارتلز ومونتر، الذين تعرفهم معرفة حسنة؛ وأخذت تتحدّث عن شخصياتهم وأعمالهم بإعجاب وحنو عظيمين. أبدينا أسفنا للمغادرة، مثلما أبدت أسفها لفراقنا. ثمّة مسحة من الوحدة في حياة أبناء هذه الجزيرة، ممّا يتطلب إنعاشها وترطيبها بلقاءات عابرة مع أناس عطوفين.

توجّهنا - بعد ذلك - إلى رهبانية بنديستاين بمعية الأب. دخلنا زنزانة، وتعرّفنا إلى راهب في منتصف العمر ذي سحنة، تشي بالحزن والانطواء،

ولا تَعِدُ بأي حديث ممتع. إلا أنه كان موسيقياً موهوباً، بل الراهب الوحيد القادر على العزف البارع على الأرغن الكبير في الكنيسة. وعندما حدس. ولا أقول سمع. فحوى رغباتنا، قادنا، من دون أن ينبس بكلمة، إلى المصلى الفسيح، وأخذ يعزف على الأرغن البديع، مالئاً أنأى الزوايا بصداح الأنغام، من أرقّ الهمسات إلى أقوى النغمات المدوّية.

ولولا أني رأيتُ هذا الرجل ذاته بعيني، لظننتُ أن هذه القوّة الجبارة لن تتأتّى إلا لعملاق. والآن بعد أن عرفنا كُنه شخصه، صرنا نتعجّب من بقائه حياً في مثل هذا الصراع، طوال هذه المدّة.

٤ أيار (مايو)

بُعيد العشاء جاء الأب بعربة؛ ليأخذنا في نزهة لمشاهدة الأحياء البعيدة في المدينة. ولمّا هممتُ بالصعود إلى العربة، حصل اعتراض غريب (بالفرنسية). صعدتُ أولاً ابتغاء الجلوس عن يسار الأب، ولمّا صعد، أمرني - بشكل قاطع - أن أنزاح قليلاً؛ كيما يجلس عن يساري. فرجوتُه ألا يتكلّف بالشكليات. فقال "عذراً على إصراري على الجلوس بهذه الطريقة. فإن قعدتُ على يمينك، فهم الناس أنني أرافقكَ أنت، أما إذا جلستُ عن يسارك، ظنوا أنكَ ترافقني أنا؛ أقصد بذلك أنني أطوف بك في زيارة المدينة باسم الأمير."

لم أحر جواباً، وتركتُ الأمور تأخذ مجاريها.

طفنا في الشوارع؛ حيث ما تزال بقايا حمم البركان، الذي دمّر المدينة عام ١٦٦٩، ماثلة حتّى يومنا هذا. وقد استُخدم سيل الحمم المتصلّب شأنه شأن أي حجر؛ فرُسمت خطوط الشوارع، أو شيدت عليه. تذكّرتُ حدّة العواطف الجامحة التي أثارها الخلاف في ألمانيا حول الطبيعة البركانية

لحجر البازلت، فاقتطعتُ شظية من هذه الحمم، إنها ثفالة بركانية بلا أدنى ريب. وفعلتُ الشيء نفسه في مواضع أخرى عديدة، للحصول على عيّنات شتّى.

ولولا حبّ السكان الأصليين لموطنهم، وتجشّمهم عناء جمع كل ما يلفت الانتباه في أراضيهم، سواء بدافع الاهتمام العلمي أم بأمل الربح، لكان الأجنبي سيعصر دماغه دون طائل. لقد قدّم لي تاجر المواد البركانية في نابولي عوناً عظيماً، أما الآن؛ فأجد مرشداً أفضل بكثير في شخص الفارس كافاليري جيوني. وجدتُ في مجموعة صخوره المتنوّعة المرتّبة ترتيباً أنيقاً، معادن بركانية من جبل أتنا، وحجر بازلت من سفحه، إضافة إلى صخور أخرى، انقلب تركيبها، وقد استطعتُ تشخيص البعض منها. استقبلني الرجل بالترحاب، وأذن لي أن أرى كل العيّنات، وأحببتُ حجر الزيوليت المأخوذ من المداخن الصخرية المنبجسة من البحر قرب ساحل جانشي.

ولمّا سألنا الفارس كافاليري جيوني عن أفضل السبل لصعود جبل أتنا، رفض الخوض فيه أصلاً لخطورته البالغة، وبخاصة في هذا الوقت من السنة. واعتذر عن ذلك بقوله: "معظم الزوّار الأجانب يعدّون تسلّق الجبل مسألة هيّنة بسيطة. أما نحن، الجيران الأقربين للجبل؛ فقانعون وراضون بحالنا، لو بلغنا قمّة الجبل مرّتين أو ثلاث مرّات في كامل حياتنا، فنحن لا نقرب الجبل إلا في الأحوال الملائمة بصورة مثالية. وإن برايدون، الذي ألهم الناس بالتوق لبلوغ القمّة نافثة الحمم بما كتبه من وصف، لم يستطع هو نفسه صعود الجبل. أما الكونت بورش؛ فيترك القارئ في ريبة من أمره، إلا أنه هو الآخر لم يتسلّق سوى شطر معيّن من الجبل، ويمكن قول الشيء ذاته عن كثرة من الآخرين. إن الجليد يغطّي أرجاء واسعة من سفوح الجبل،

وهذا عائق مكين، لا سبيل إلى اجتيازه. وإن أردتُم مشورتي، فامضوا في الصباح الباكر إلى قاع جبل مونتي روسو، ولسوف تنعمون بأجمل المناظر، وأبدعها، كما ستجدون أنفسكم في الموضع الذي سالت منه الحمم عام ١٦٦٩ على مدينتنا التعيسة. وإن أصغيتُم لصوت الحكمة، دعوا الآخرين يحكوا لكم بقية ما حصل."

٥ أيار (مايو)

أخذنا بمشورة الفارس الحصيفة، وانطلقنا في الصباح الباكر على ظهور البغال، ملتفتين برؤوسنا دوماً؛ لنرى إلى المشهد الماثل وراءنا. وبعد فترة من الوقت، بلغنا منطقة الحمم البركانية. واجهتْنا كتل وألواح حادّة النتوءات، لم يفتّ الزمن في قساوتها، وأخذت البغال تتعثّر في سيرها العشوائي. توقّفنا عند أول جرف صخري عال، فطفق كنيب يخطّط رسماً للمنظر الماثل أمامنا. كتل من المواد البركانية في المقدّمة، قمّتا جبل روسو إلى اليسار، وغابات نيكولوسي فوقنا مباشرة، والتي تنبجس منها قمّة الجبل، مَكْسُوّة بالجليد، ومُرسلة دخاناً خفيفاً. تراجعنا إلى الوراء قليلاً؛ كيما نقترب من جبل روسو، الذي تسلّقتُه. لا يزيد هذا الجبل عن ركام خبث ورماد وحجارة بركانية حمراء. كان من السهل تماماً الالتفاف حول شفا فوهة البركان، لولا أن ريح الصباح العاصفة كانت تحيق كل خطوة بالخطر. خلعتُ معطفي؛ كيما أمتلك حُرّيّة أكبر في المضي قدماً، لكن قبّعتي كادت توشك على أن تطير؛ لتقع في جوف حفرة البركان، ولأتبعها أنا أيضاً بعد ذلك. جلستُ؛ لكي أستعيد توازني ورباطة جأشي، وأعاين المشهد بأسره، إلا أن ذلك لم يفدني بشيء، نظراً لأن الريح العاتية كانت تهبّ من جهة الشرق. ثمّة بانوراما بديعة تغطّي المدى كله تحتي: ها هنا ينفتح كامل الساحل الممتدّ من مسينا إلى سيراكيوز، بكل تعرّجاته وخلجانه، باستثناء بعض المواضع منه، ممّا حجبتْه تلال الساحل عن

النظر. نزلتُ شبه دائخ؛ لأجد كنيب جالساً في موضع أمين، مستثمراً وقته على أحسن ما يكون. لقد وضع بضربات مرهفة على الورق تفاصيل المشهد الذي حرمتني الرياح الهوجاء من أن أتملاه بعيني، ناهيك عن أن أنقشه في ذاكرتي.

عدنا إلى الولوج بين شدقي الأسد الذهبي، فوجدنا النادل. لقد واجهنا صعوبة بالغة في ثنيه عن مرافقتنا إلى الجبل. أما الآن؛ فراح يثني على قرارنا بنبذ فكرة الصعود إلى القمّة، إلا أنه بقي يلحّ علينا أن نستأجر قارباً في اليوم التالي لزيارة مداخل جاتشي البَحْريّة. وقال إننا لن نجد نزهة أبهج من هذه في جوار كاتانيا، وإننا سنأخذ معنا الطعام والشراب وآنية الطبخ، وإن زوجته ستكون سعيدة في أن تتولّى كل شيء. وأشار إلى مناسبة لطيفة، استأجر فيها بعض الإنجليزقارباً ثانياً لمرافقتهم وعزف الموسيقى، فأمضوا وقتاً عظيماً.

إن مداخن جاتشي البَحْريّة مُغرية تماماً بالنسبة لي، فقد كنتُ توّاقاً لاقتطاع بعض أحجار الزيوليت الجميلة منها؛ لأحتفظ بها لنفسي، بعد أن رأيتُ بعضاً منها في مجموعة الفارس جيوني. ويمكن لنا - بالطبع - أن نعتذر عن قبول عرض زوجته، وأن نقوم بزيارة وجيزة. لكن تحذير الشبح الإنجليزي خرج ظافراً؛ تخلّيتُ عن فكرة جمع حجر الزيوليت، وشعرتُ بالفخار اعتزازاً بقدرتي على ضبط النفس.

٦ أيار (مايو)

لم يخذلنا دليلنا الكَهَنُوتي قط، بل أخذنا لمشاهدة بعض الأطلال المعمارية وصهاريج الماء، وموقع معركة بحُرّيّة naumachia (باللاتينية) وغيرها من الآثار المشابهة.

الحقّ أقول إن هذه الأطلال تقتضي من الناظر قدراً كبيراً من الموهبة؛ كيما يعيد بناءها في خياله. إن التدمير المتكرّر للمدينة بحمم البراكين، والزلازل، والحروب، غاصت بها في منخسف من الأرض، أو طمرتها بالكامل؛ بحيث لا يمكن إلا للخبير المتضلّع أن يستمدّ المتعة من معاينتها، أو يستمدّ منها المعرفة.

أقنعنا الأب بالامتناع عن زيارة الأمير زيارة ثانية، فافترقنا معبّرين عن المودّة والامتنان والتمنيات بالخير.

تاورمينا، ٧ أيار (مايو)

حمداً لله أن كل ما رأيناه اليوم سبق أن وُصف وصفاً كافياً. زد على هذا أن كنيب قرّر أن يقضي سحابة النهار، هنا، في وضع الرسوم.

بعد أن يتسلّق المرء الأكمات الحادّة قرب البحر، يبلغ قمّتين مترابطتين بنصف دائرة. ومهما يكن شكل هاتين القمّتين في الأصل، فإن الفن أعان الطبيعة في إرساء نصف الدائرة هذه التي تسع جمهور هذا المدرج. وقد أضيفت الجدران والبناءات الأخرى لتوفير الدهاليز والقاعات الضرورية. شيدت خشبة المسرح على شكل قطر مائل عند قاع نصف الدائرة المدرجة الممتدة من أكمة إلى أخرى، لمزاوجة إبداع الفن والطبيعة. ولو جلس المرء في أعلى موقع للمتفرّجين، فإن عليه الإقرار تماماً أنه ما من جمهور في أي مسرح آخر سيحظى بما يضاهي هذا المشهد. فالقلاع تشرئبّ فوق الأكمات الأعلى، إلى جهة اليمين، والمدينة تربض في الأسفل. ورغم أن هذه المباني تعود إلى عهد أقدم، فإن بناءات أخرى شبيهة بهذه كانت تشمخ هنا، مكان هذه، في الأيام الخوالي. ويرى المرء قبالته تماماً جبل أتنا، أما على يساره؛ فخط الساحل الواصل حتّى كاتانيا، بل سيراكيوز أيضاً، ويظلّل هذه البانوراما بأسرها الجبل الناري نافث الأبخرة، الذي يبدو، من هذه المسافة وفي هذا الجو، مسالماً، لا منذراً.

ولو استدار المرء على عقبيه، وسرح بناظريه ما وراء الدهاليز الممتدّة خلف ظهور المتفرّجين، لرأى الأكمتين، ورأى بينهما الطريق المتعرّج الموصل إلى مدينة مسينا، والبحر المطرّز بالصخور والمرجان، ولرأى في البعيد ساحل كالابريا. كان عليّ أن أجهد عيني؛ لكي أميّز هذا الساحل عن ضفاف السحب التي تتصاعد في أناة.

نزلنا إلى قاع المسرح، ومكثنا ردحاً من الوقت بين الأطلال، التي يتوجّب أن يتولّى معماري موهوب إعادتها إلى الحياة، ولو على الورق.

ولمّا حاولنا أن نطرق وحدنا سبيل النزول من التل عبر البساتين وصولاً إلى المدينة، اكتشفنا أية عقبة كأداء، تكوّنها الصبيرات المتشابكة. فأنت ترى فجوات من خلل الأوراق المتشابكة، فتظن أن بمقدورك المرور منها، لكن الأشواك اللاسعة المشرئبّة من حوافها عقبة كأداء؛ وتدوس على ساق ضخم ظناً منك أنه سيسندك، فيتهاوى الساق، وتسقط أنت بين ذراعي الصبيرة التالية. غير أننا فككنا أنفسنا من هذه المتاهة الواخزة أخيراً، وتناولنا وجبة سريعة في المدينة. ولم نستطع أن ننتزع أنفسنا منها إلا بعد المغيب. إن مراقبة هذا المشهد، البديع من كل ناحية، وهو يغرق تدريجياً في العتمة، يثير متعة كبرى بجماله.

على ساحل البحر، أدنى تاورمينا، ٨ أيار (مايو)

يعجز لساني عن الثناء على كنيب، كما يعجز عن الحمد لذلك الحظ الحسن الذي ساقه إليّ. لقد نضا عني عبئاً، لا قِبَل لي به، وحرّرني من القيود؛ لكي أتبع كل أهوائي الطبيعية. لقد غادر لتوّه؛ كيما يضع رسوماً لكل ما رأيناه بالأمس. وسيتوجّب عليه أن يبري أقلامه، المرّة تلو المرّة؛ ولا يسعني أن أتصوّر كيف سيقدر على إنجاز مهمّته. كان بوسعي أن أشاهد تلك المناظر ثانية؛ وقد كنتُ ميالاً في البداية إلى الذهاب معه، لكنني

قرّرتُ آخر الأمر أن أبقى حيث كنتُ. ورحتُ أبحث، مثل طائر يريد بناء عشّه، عن شقّ ظليل، فحططتُ على أغصان شجرة برتقال في بستان فلاح مهجور عادي. قد يلوح غريباً الحديث عن القعود فوق غصن شجرة برتقال، لكنه أمر طبيعي، إن كنتم تعلمون؛ فحين تُترك شجرة البرتقال لشأنها، فإنها تبدأ بإطلاق أغصان فوق جذورها، سرعان ما تتحوّل إلى أقواس متينة.

وسرعان ما استغرقتُ في خيالاتي هناك، متأمّلاً حبكة لمسرحيتي "ناوسيكا"(*)، وهي تكثيف درامي للأوديسة. أظن أن بالوسع إنجاز ذلك، شريطة ألا يغيب عن بال الكاتب الفارق بين الدراما والملحمة الشعرية.

عاد كنيب مبتهج الأسارير حاملاً رسمين كبيرين، سيتولى إضافة الرتوش التكميلية إليهما؛ ليقدمهما إليّ تخليداً لذكرى هذا النهار الرائع.

ينبغي ألا يفوتني ذِكْر أننا كنا نجلس في فناء صغير مسرحين أبصارنا إلى الأسفل؛ حيث شاطئ البحر الجميل، ناظرين إلى الأزهار، مُنصتين إلى تغريد البلابل الذي لا ينقطع، كما قيل لنا، على مدى أشهر ستة.

عودة إلى ما كان

أدركتُ أنني بعد الفراغ من هذه السفرة سأمتلك سجلاً دائماً عنها في هيئة تخطيطات ورسوم غير ناجزة لكل المناظر الطبيعية المثيرة، وذلك بفضل رفقة ونشاط فنان موهوب، وبفضل شيء ممّا بذلتُ من جهود بسيطة متفرقة. وبناء عليه، زاد استعدادي للنزول عند واحدة من رغائبي التي ما انفكّتْ تشتدّ، وتقوى: أعني تحديداً أن أتناول هذه المناظرالأخّاذة التي تحيط بي، من بحر وجزر وموانئ، وأن أبعث فيها الحياة على هيئة صور

---

*) نشر فصل واحد وبعض الشذرات من مسرحية "ناوسيكا" عام ١٨٢٧.

شعرية سامية، وأن أدبّج في حضرتها، ومن قوامها عملاً شعرياً متجانساً متناغماً، يفوق تجانس وتناغم كل ما خطّه يراعي من قبل.

إن نقاوة السماء، وشذى نسيم البحر، وغبش الأفق الذي يذيب الجبال والسماء والبحر في عنصر واحد، إن جاز القول: إن هذه جميعاً هي زاد أفكاري. وإذ رحتُ أتجوّل على غير هدى في الحدائق العامة الجميلة في باليرمو، بين الأسيجة، وأزاهير الدفلي، أو وسط أشجار البرتقال والليمون المترعة بالثمر، أو غير ذلك من أجمات وشجيرات، لا أعرف أسماءها، فإنني حفظتُ هذه الغربة المباركة في سويداء قلبي. وشعرتُ أنه ما من ثناء على الأوديسة خيراً من هذا المكان. اشتريتُ نسخة منها ورحتُ أقرؤها باهتمام مشبوب. فأذكتْ فيّ الرغبة في أن أنتج عملاً، يخصّني وحدي؛ وسرعان ما وجدتني أسير هذه الرغبة المنفردة: بتعبير آخر، بتّ مهووساً بفكرة معالجة قصّة ناوسيكا على أنها تراجيديا.

لا يسعني الآن أن أقول ما أنا صانع بها، لكن الحبكة تبلورت جلية في ذهني. جوهر الحبكة هو هذا: تصوير ناوسيكا في إهاب امرأة شابّة محبّبة، يطاردها عشّاق كثار؛ لكنها لا تميل إلى أيّ أحد منهم، وعليه فإنها ترفضهم جميعاً. لكن غريباً غامضاً تلتقيه، يبدّد لا مبالاتها بالرجال، فتحيق نفسها بخطر الإعلان المبكّر عن حبّها له، وهذا وضع مأساوي بأرفع معانيه.

ثمّة ثروة من البواعث التكميلية ستُضاف؛ لتضفي التشويق على هذه الحكاية البسيطة، كما كنتُ أريد أن أضفي على الصور والجوّ طابع الجزيرة والبحر، حتّى تصطبغ به المسرحية كلها.

أما الحركة في المسرحية، كما خطّطتُ لها؛ فكانت ستجري على النحو التالي:

الفصل الأول: ناوسيكا تلعب الكرة مع وصيفاتها. فيحصل اللقاء غير المتوقّع. إن تردّدها في اصطحاب الغريب، شخصياً، إلى المدينة، هو أول بادرة على إحساسها بالانجذاب إليه.

الفصل الثاني: قصر الثينوس. الكشف عن شخصيات عشّاق ناوسيكا. ينتهي الفصل بدخول أوليسيس.

الفصل الثالث: إبراز أهمّيّة المغامر الغريب. كنتُ أخطّط لتوليد تأثير فني مؤثّر بواسطة سرد لمغامراته عن طريق الحوار. ويبدي كل سامع ردّة فعل متباينة في العاطفة. ويمضي السرد، تبلغ العواطف أوجها من الاتّقاد، فيتكشف عندئذ الانجذاب الشديد الذي تحسّه ناوسيكا إزاء الغريب، عن طريق الفعل والفعل المضاد.

الفصل الرابع: خارج المسرح، يقدم أوليسيس البرهان على جبروته، أما على المسرح؛ فإن النساء يُعربنَ بحُرّيّة عن عطفهنّ، وآمالهنّ، ومشاعرهنّ الرقيقة. ناوسيكا تعجز عن كبت مشاعرها، فتعرّض نفسها لخطر، لا رادّ له، بأن تشهر حبّها أمام أناسها. أما أوليسيس، شبه المذنب وشبه البريء في تسبيب هذا المآل؛ فيرغم أخيراً على إعلان عزمه على المغادرة.

الفصل الخامس: لا يبقى أمام الفتاة الطّيّبة سوى أن تقتل نفسها.

لا يوجد في هذا التوليف شيء ما كان لي أن أستمدّه من الحياة. فلقد كنتُ جواباً غريباً أنا نفسي؛ وكنتُ أيضاً في خطر إثارة عواطف مؤلمة ومدمّرة، وإن تكن من النوع الذي لا ينتهي بمأساة؛ وأنا أيضاً كنتُ بعيداً عن أرض وطني، في ظروف، تضطر المرء إلى التسرية عن جمهور مستمعين بوصف وهّاج لأشياء ومغامرات بعيدة في أثناء ترحاله؛ أحداث من حياة

المرء؛ حيث يعدّه الشباب في مصاف الآلهة، وحيث يراه الرصينون متبجّحاً؛ وحيث يحظى المرء بالكثير من المعروف دون استحقاق، أو يتعرّض للكثير من العقبات غير المتوقّعة. إن وقائع من هذا الصنف هي التي أسبغت على حبكة المسرحية فتنتها المميّزة التي سحرتني. لقد قضيتُ كل أيامي في باليرمو، ومعظم أوقات ارتحالي في أرجاء صقلية، وأنا أحلم بهذه الحبكة. لقد شعرتُ على هذه الأرض الكلاسيكية أنني في مزاج شعري، ينأى بي عن المعاناة من سائر المنغّصات، ويمكنني من أن أختزن في فؤادي كل ما رأيتُ، وجرّبتُ.

وكما هو جري العادة السيئة أو الحسنة عندي، فإني لم أكتب شيئاً، أو لم أكتب سوى النزر اليسير من هذه المسرحية، مكتفياً ببلورة تفاصيلها في مخيلتي. وطرأت فيما بعد مئات المشاغل المشتّتة؛ لتمنعني عن المضي فيها، حتّى يومنا هذا؛ حيث لا يسعني أن أستعيدها إلا كذكرى عابرة.

٨ أيار (مايو)، في الطريق إلى مسينا

ثمّة أكمات عالية من الكلس عن مَيسرتنا، وهي تصطبغ بألوان عدّة، وتُنشئ ممرّات ضيّقة حلوة، كلّما مضينا في المسير. ويبرز نوع من الصخر، يمكن وصفه بأنه شست متفلّق أو خليط. وبدأنا نجد شظايا من الجرانيت في الجداول. ويجرف نهر نيسي والجداول الأخرى حجر الميكة. وإن تفّاحات المغد الصفراء وأزاهير الدفلى الحمراء تسبغ على المنظر ألواناً بهيّة.

٩ أيار (مايو)

مضينا نقاوم ريحاً شرقية عاتية، بين البحر، متلاطم الموج عن يميننا، والأكمات التي صعدناها بالأمس، عن يسارنا. وخضنا صراعنا مع الماء طوال اليوم كله. فقد عبرنا ما لا يُحصى من الغدران والجداول، أكبرها

نيسي، الذي يحمل لقب "نهر" فخري؛ لكن التعامل مع هذه الجداول هيّن بالقياس إلى البحر الهائج، الذي اكتسح الطريق في بعض المواضع؛ ليرتطم بالأكمات، ويرتدّ؛ ليشطفنا في طريق انكفائه. لكن عناء المنغّصات يهون أمام عَظَمَة المنظر.

لم يكن ثمّة افتقار إلى الاهتمام الجيولوجي. فعوامل التعرية تسبّب سقوط الكثير من صخور الأكمات الكلسية. وإن المواطن الضعيفة من هذه الأكمات تتآكل وتتساقط بفعل الأمواج، ولا يتخلّف منها على الشاطئ إلا الخلائط الصلبة المغطّاة بحبيبات ملوّنة من دقائق الحديد. التقطنا عدّة عيّنات.

مسينا، ١٠ أيار (مايو)

وصلنا أسينا، وقبلنا أن نقضي الليل في مستقرّ سائسنا؛ لأننا لم نكن نعرف مكاناً آخر، نلجأ إليه، بعد أن تفاهمنا على وجوب البحث عن مَسكن أفضل في الصباح. والأثر المباشر لهذا القرار أننا أخذنا صورة مفزعة عن مدينة مدمّرة[*]. فعلى مدى ربع ساعة، بقينا خلالها على الركاب، مررنا بالخرائب تلو الخرائب حتّى وصلنا نُزلنا. وهذا النزل هو المبنى الوحيد الذي أُعيد تشييده، ورأينا من سطحه العلوي أرضاً قفراً، لا شيء فيها سوى الخرائب المفكّكة. ولم نجد خارج هذا المبنى الخاص بمزرعة أثراً لإنسان، أو حيوان. كان الصمت المخيّم على الليل غريباً. كانت الأبواب تفتقر إلى المغاليق، وعَصية على السدّ، كما لم يكن ثمّة مؤونة لإطعام ضيوف آدميين، كما هو الحال في أية زريبة أخرى.

رغم ذلك، نمنا نوماً عميقاً على فراش صاحب النزل، بعد أن أفلح سائسنا الكفء كعهده دوماً، في إقناع صاحب النزل بالتخلّي عنه.

---

*) ضرب زلزال مدينة مسينا عام ١٧٨٣، فدمّرها تدميراً.

١١ أيار (مايو)

اليوم ودّعنا سائسنا (بالإيطالية) الشجاع، وكافأناه على خدمته الجليلة بأعطية سخية. افترقنا على مودّة، بعد أن وجد لنا مستخدماً محليّاً، تعهّد بأن يأخذنا في الحال إلى أحسن نزل، وأن يرشدنا إلى المواقع الهامّة في مسينا. وكان مضيفنا بالأمس توّاقاً للتخلّص منا بأسرع ما يمكن، فمَدّ لنا يد العون لنقل متاعنا إلى نزل لطيف أقرب إلى الجزء الحيّ النابض في المدينة، أقصد خارجها. بعد الكارثة الكبرى التي أودت بحياة اثني عشر ألف نسمة، لم يبق للثلاثين ألفا من سكانها الناجين أيّ منزل يصلح للمقام. لقد تهاوت معظم المباني، أمّا تصدع جدران المباني الباقية؛ فجعلها غير آمنة للسُّكنى. وهكذا أُنشئت مدينة ثكنات مؤقّتة، على عجل، في مرج واسع، شمال المدينة الأصلية. ولكي أرسم لكم صورة عن ذلك، عليكم أن تتخيّلوا أنفسكم سائرين عبر رومبرج في فرانكفورت، أو في ساحة السوق في لايبزج خلال موسم المعرض. إن كل الأكشاك والمشاغل تفتح أبوابها على الشارع. هناك عدد قليل من المباني الكبيرة ذات مداخل، يمكن إغلاقها، إلا أن أبوابها مشرّعة، ونادراً ما تُوصَد، نظراً لأن ساكنيها يقضون معظم أوقاتهم خارجها. ويعيش السكان على هذا الحال منذ ثلاث سنوات؛ وقد ترك هذا الطراز من العيش في الأكشاك والأكواخ، بل وحتّى الخيم، أثره البالغ على نفوس الناس، وطباعهم. إن رهبة ذلك الحَدَث المفزع، بل والخوف من تكرّره، يسوقهم إلى اغتنام ملذّات اللحظة العابرة. وقد تجدّد الفزع من وقوع كارثة جديدة قبل نحو ثلاثة أسابيع، يوم الحادي والعشرين من نيسان (أبريل)، حين اهتزّت الأرض برعشة محسوسة. قادنا الدليل إلى كنيسة صغيرة، ضجّت بالناس وقتذاك. ويقال إن عدداً منهم لم يتعافَ بعد من أثر الصدمة.

وتطوّع قنصل عطوف لأن يتعهّدنا بالرعاية، وأن يقوم مقام دليل لنا؛

وهذا أمر يستدعي الامتنان وسط عالم من الخرائب. ولمّا عرف أننا نرغب في الإبحار قريباً، عرّفنا إلى قبطان باخرة تجارية فرنسية، كان يزمع الإبحار إلى نابولي. وهذه فرصة طيبة على نحو مضاعف، نظراً لأن العلم الأبيض الذي ترفعه السفينة هو خير حماية من القراصنة.

كنا نُبلغ دليلنا قبل لحظات أننا نرغب في أن نشاهد إحدى الثكنات الكبيرة ذات الطابق الواحد من الداخل؛ لنأخذ صورة عن أثاثها وعن طراز العيش المرتجل، حين انضمّ إلينا رجل ودود، قدّم نفسه بوصفه معلّم لغة فرنسية. وبعد أن فرغنا من التجوال، أخبر القنصل معلّم الفرنسية برغبتنا، وسأله أن يُرينا منزله، ويعرّفنا إلى أسرته.

دخلنا الكوخ المشاد والمسقوف من ألواح خشبية ثقيلة. إنه يشبه بالضبط واحداً من تلك الأكشاك التي نراها في المعارض، والتي تؤوي ضروب الحيوانات والغرائب، ممّا يُعرض للفرجة لقاء نقود. كان خشب الكوخ عارياً، وهناك ستارة خضراء، تفصل القسم الأمامي عن بقية الكوخ الخالي من أية أرضية، سوى أن الأرض سُوّيت بالأقدام؛ لتُدرَس دَرْسَاً. ثمّة مقاعد وطاولات قليلة، وهي الأثاث الوحيد، أما مسرب النور الوحيد؛ فيتمثّل في الشقوق الفاصلة بين الألواح. تحدّثنا بعض الوقت، ثمّ لاح فجأة من وراء الستارة الخضراء التي كنتُ أنظر إليها وإلى العارضة الخشبية التي تعلوها، رأسان لفتاتين حلوتين مزدانان بخصلات شعر أسود جعد، وعينين سوداوين فضوليتين. ولمّا لاحظتا أننا انتبهنا إليهما، توارتا في غمضة عين، ولكنهما عادتا بناء على دعوة من القنصل بعد أن فرغتا من العناية بهندامهما. وبدت الفتاتان بقواميهما الممشوقين، وفستانيهما الملوّنين، بالغتي الأناقة على خلفية الستارة الخضراء. وكان من السهل أن نحدس من أسئلتهما أنهما تتخيّلان أننا كائنات أسطورية، جاءت من عالم

آخر، أما أجوبتنا؛ فلم تفلح في شيء سوى أن ترسخ عندهما ذلك الوَهْم المحبّب. ورسم القنصل صورة مثيرة عن ظهورنا الأسطوري في مسينا. كان الحديث مُسرّياً عن النفس، ووجدنا صعوبة في أن نغادرهم. ولم ندرك أننا لم نشاهد قط الغرف الداخلية إلا بعد أن أغلقنا الباب، ذلك أن سِحْر ساكني هذا الكوخ طرد اهتمامنا ببنائه.

١٢ أيار (مايو)

أفادني القنصل، من بين أمور عديدة، أن من الحصافة، إن لم يكن من باب الضرورة القصوى، أن أقدّم احتراماتي لحاكم مسينا؛ لأنه رجل عجوز غريب الأطوار قادر على اجتراح خير الأعمال، وإيتاء أكبر الأذى، تبعاً لمزاجه أو تحامله. وإن القنصل سيكتسب حظوة لدى الحاكم بتقديم زائر أجنبي بارز، كما أن الزائر نفسه لا يعلم متى سيقع في الحاجة إلى تعضيد مثل هذه الشخصية، في هذا الظرف أو ذاك. وهكذا ذهبتُ إلى الحاكم من باب الامتنان لصديقي. وحين بلغنا الردهة المجاورة، وسمعنا لغطاً شديداً في مقرّ الحاكم، همس حاجب الحاكم، مثل مهرّج الدمى pulcinella (بالإيطالية)، في أذن القنصل: "يوم منحوس! لحظة خطيرة!". مع ذلك، دخلنا ووجدنا الحاكم العجوز جالساً عند منضدة قرب النافذة، وظهره إلينا، وأمامه كدس من رسائل ووثائق قديمة، كان يقتطع منها صفحات خالية بحرص كبير، معرباً بذلك عن حبّه الكبير للاقتصاد والتوفير. وكان خلال انهماكه في هذا العمل المسالم يقذف أشنع اللعنات والشتائم على رجل وقور المظهر، لعلّه، إن حكمنا على ذلك من برّته، على ارتباط معيّن بفرسان مالطة. دافع الرجل عن نفسه بهدوء، ولكنْ: بحزم، رغم أن فرصة الحديث أمامه كانت ضيّقة.

من الجلي أن الحاكم يعدّه شخصاً مشبوهاً؛ لأنه دخل البلاد وخرج

منها عدّة مرّات من دون استحصال الإذن الضروري. دحضاً لهذه التهمة، أخرج الرجل جوازات سفره، وتحدّث عن موقعه المعروف في نابولي، لكن المرافعة لم تُسعفه. واصل الحاكم تقطيع أجناب رسائله القديمة، ووضع الصفحات الفارغة بعناية في جهة واحدة، وهو يهدر بالشتائم المقذعة من دون أن يتوقّف لالتقاط أنفاسه. وكان هناك، عدانا نحن الاثنين، نحو اثني عشر شخصاً، يقفون في دائرة كبيرة، وهم يشهدون صراع الضواري هذا. ولعلّهم حسدونا على وقوفنا قرب الباب، إذ بدا أن العجوز الغضوب كفيل بأن يرفع عصاه المعوجة؛ ليضرب في أية لحظة. تجهّم القنصل، أما أنا؛ فوجدت السلوى في وجه الحاجب الهزلي الواقف جواري، الذي كان يتلفت هنا وهناك، ويصطنع على وجهه شتّى السحنات والأمارات؛ لكي يطمئنني بأن الأمور ليست على هذا الجانب من الخطورة.

وبالفعل، هدأت سورة المشادة العنيفة، وأعلن الحاكم في صوت معتدل، أنه لا يوجد سبب يمنعه من القبض على المتهم، وتركه يُبرد كعب قدميه في السجن، إلا أنه قرّر مع ذلك أن يدعه في حال سبيله، وأن بوسعه البقاء في مسينا لعدد محدود من الأيام، ولا حقّ له بالعودة إليها أبداً. استأذن المتّهم الحاكم بالانصراف من دون أن يطرف له جفن، وانحنى لكل الحاضرين، وبخاصة لنا نحن؛ حيث كان علينا أن ننزاح جانباً؛ لندعه يخرج من الباب. التفت الحاكم، وأوشك أن يقذف سيلاً جديداً من اللعنات حين أدرك حضورنا. ضبط لسانه في الحال، وأومأ إلى القنصل، فاقتربنا معاً.

رأينا رجلاً في آخر أعوامه، رأسه مَحنيّ، وعيناه الداكنتان تنفذان من تحت حاجبين رماديين كثّين. بدا الآن إنساناً آخر، يختلف عمّا رأيناه قبل لحظات. دعاني إلى الجلوس بجانبه، موجّهاً لي عدّة أسئلة، من دون أن

يتوقّف عن قصّ الأوراق، وبذلتُ خير ما بوسعي للإجابة. أخيراً قال لي إنني ضيف دائم على مائدته طوال مدّة مكوثي في مسينا. وبدا القنصل مسروراً أكثر مني بكثير، فقد كان يعرف جسامة الأخطار التي أفلتنا منها. ولمّا خرجنا، نزل السلّم كمَن يطير، أما أنا؛ ففقدتُ الرغبة في أن أغامر ثانية بالدخول إلى عرين الأسد هذا.

١٣ أيار (مايو)

استيقظنا في صباح رائق مشمس، ونحن في نزل ألطف، إلا أننا ما نزال في مدينة النحس هذه.

لعلّه ما من منظر موحش في هذا العالم أكثر من منظر ما يسمّى: القصور، وهو في الواقع هلال من المباني التي تطوّق نحو ميل من رصيف الميناء. الواقع أن هذه القصور، كانت في الأصل مباني حجرية مؤلّفة من أربعة طوابق. وما تزال الواجهات الأصلية للعديد منها سليمة حتّى الأفاريز، إلا أن طابقاً أو طابقين أو حتّى ثلاثة طوابق تهاوت تماماً في مباني أخرى، لذا؛ فإن سلسلة القصور التي كانت عمارة بديعة ذات يوم، تبدو الآن مثل إنسان اثرم فقد اسنانه، وبانت الفراغات في المباني التي باتت السماء الزرقاء تُرى من كل نوافذها. أما الغرف الداخلية فمدمّرة كُلّيّاً.

هناك سبب لهذا. لقد باشر الموسرون في هذا المشروع الفخم. ورغب الأقل ثراء في أن يحذو حذوهم في أن تكون لبيوتهم واجهات فخمة، تطلّ على الشارع، لذا؛ أخفوا منازلهم القديمة المشادة من الحصى الملبوخ بالإسمنت الكلسي، وراء واجهات جديدة من كتل الحجارة الأنيقة المأخوذة من المقالع. وكان مثل هذا البناء يفتقد إلى السلامة في أي حال، فكان لابد له من الانهيار لحظة وقوع الزلزال. ثمّة قصص عديدة عن معجزات الفرار والنجاة التي توضح ذلك. فأحد ساكني هذه المباني، مثلاً، كان

يقف لتوّه قرب تجويف النافذة حين ضربت الهزّة الأرضية المدينة، فانهار المبنى كله من ورائه، وبقي هو سليماً معلّقاً مع النافذة، بانتظار من يحرّره من محبسه المعلّق في الهواء.

أما إن سبب الدمار الكامل للمدينة يرجع إلى هزال مبانيها من جراء الافتقار إلى حجارة متينة في الجوار؛ فذلك ما تؤكده حقيقة نجاة المباني القليلة المشادة من حجر صلب، من مغبّة الدمار. إن كُلّيّة الجزويت والكنيسة المشادتين من حجارة مأخوذة من المقالع، ما تزالان سليمتين. وأيّاً كان الحال، فإن منظر مسينا يبعث على القرف، ويذكّرني بالعصر البدائي حين غادر الصقليون الأوائل هذه الأرض الهادرة؛ ليستقرّوا على الساحل الغربي للجزيرة.

قضينا جلّ الصباح نتفقّد المدينة، بعد ذلك، عدنا إلى النزل؛ لنتناول وجبة متواضعة. كنا جالسين هنا معاً، ونحن نشعر بالرضى، حين هرع خادم القنصل، وهو متقطع الأنفاس؛ ليبلغني أن حاكم المدينة أرسل الرُّسُل بحثاً عني في أرجاء المدينة كلها؛ لأنه سبق وأن دعاني على العشاء، لكني لم أحضر. وقال إن القنصل يتوسّل إليّ أن أتوجه في الحال بصرف النظر عمّا إذا كنتُ قد تناولتُ عشائي، أم نسيتُ الموعد، أم تجاهلتُه عن عمد. وأدركت الآن فداحة تهوّري؛ إذ نسيتُ دعوة المارد المفترس في غمرة فرحي بالفرار منه في اللقاء الأول.

لم يكن الخادم يطيق أي تأخير، وكانت صحبته ملحّة ومقنعة: إن الطاغية سيصبّ جام غضبه على القنصل، وعلى أبناء جلدته الباقين في مسينا. عدّلتُ هندامي، واستجمعتُ شجاعتي، واتّبعتُ الخادم، مستدعياً في دخيلتي، أوديسيوس، هذا الحامي الراعي، ملتمساً منه التوسّط لي عند الحاكم بالاس أثينا. ولمّا بلغتُ عرين الاسد، وجدتُ

الحاجب الهزلي الذي رأيتُه في المرّة الأولى، وقادني إلى صالة ولائم كبرى؛ حيث يجلس نحو أربعين ضيفاً إلى مائدة بيضاوية الشكل، وهم في صمت مطبق. أوصلني الحاجب إلى كرسي شاغر عن يمين الحاكم. انحنيتُ في أدب جمّ للحاكم وللضيوف، والتمستُ عذري في التأخّر بسبب سعة المدينة، وبسبب الطريقة المحلّيّة في حساب الوقت، التي لم آلفها، والتي أوقعتني في المطب. خزرني الحاكم بنظرة ثاقبة، وقال إن على المرء أن يتعلّم التقاليد المحلّيّة في البلاد الأجنبية، وأن يلتزم بقواعدها. أيّدتُ قوله هذا بالقول إنني سعيتُ دوماً إلى تعلّم هذه التقاليد، وإن تجربتي تفيد أن مجيء المرء إلى مكان جديد أو ملاقاته ظروفاً غير مألوفة كفيلة بأن تُوقعه في ارتكاب أخطاء، حتّى لو كانت لديه أنبل النوايا في العالم، وإن العذر الوحيد للمرء هنا هو عناء السفر، وما يصيبه من تشتّت ذهن لدى رؤية الكثير من الأشياء الجديدة، علاوة على هَمّ العثور على سَكَن لائق، أو القيام بالاستعدادات اللازمة للمرحلة التالية من الرحلة. وسألني كم سيطول بي المقام في مسينا، فأجبتُ "أودّ لو أبقى فيها طويلاً؛ لكي أعبّر عن امتناني لعطفكم بالالتزام الدقيق بكل أوامركم وتوجيهاتكم." وبعد لحظة، توقّف، وسألني عمّا رأيتُ في مسينا. قدّمتُ له وصفاً موجزاً لما شاهدتُه هذا الصباح، وأضفتُ أن ما أشدّ ما أثار إعجابي هو نظافة وترتيب الشوارع. وكان هذا حقّ. فقد أُزيحت الأنقاض، ورُكمت في مواقع محاطة بالجدران المتهدّمة، ورُصفت صفوف من الأحجار عند البيوت، لإخلاء الشوارع أمام المرور. وما كنتُ كاذباً حين أطريتُ الرجل القدير بقولي إن سكان مسينا عبّروا عن امتنانهم مقرّين بأنهم مَدينون بهذه المنافع إليه. فهدر قائلاً "أو يعترفون بذلك؟ لقد زعقوا بما فيه الكفاية عن صرامة التدابير التي اضطررنا لاتخاذها خدمة لهم." بعد هذا، تحدّثت عن حصافة تدبير الحكومة، وعن المقاصد السامية التي لا يُدركها الناس، أو يقدّرونها حقّ قدرها إلا بعد

فترة، وما شاكل ذلك. وسألني إن كنتُ قد زرتُ كنيسة الجزويت، وحين أجبتُ بالنفي، عرض عليّ أن يدعني أراها بكل ما تحويه.

لاحظت خلال أحاديثنا، التي لم تنقطع إلا بالكاد، أن بقية المدعوين جالسين في صمت مطبق، ولا يأتون نأمة إلا لوضع الطعام في أفواههم. وعلى هذا الحال بقوا. ولمّا فرغنا من تناول العشاء، ورشفنا القهوة، وقف المدعوون جميعاً على طول الجدران مثل تماثيل من الشمع. توجّهتُ إلى قسّ القصر المكلّف باصطحابي إلى كنيسة الجيزويت، سعياً إلى أن أقدّم له شكري سَلَفَاً على لطف معروفه، فبدا كمَن يتهرّب، وقال إنه لم يكن يفعل شيئاً سوى تنفيذ أوامر صاحب السعادة. بعد هذا، خاطبتُ أجنبياً شابّاً، يقف جوار القسّ. ورغم أن هذا كان فرنسياً، فقد بدا متضايقاً هو الآخر، ويقف جامداً أبكم مثل الباقين الذين رأيتُ بينهم عدداً من الأشخاص الذي كانوا بالأمس خائفين، وهم يشهدون محنة الفارس المالطي.

انصرف الحاكم، فبادرني القسّ، عندئذ، قائلاً إن الوقت قد حان للذهاب. سرتُ في أعقابه، بينما انسلّ الباقون في صمت. توجّه بي إلى الباب الغربي لكنيسة الجيزويت، التي تعلو في الفضاء بخيلاء وهيبة الطراز المعماري المألوف عند آباء هذه الكنيسة. استقبلنا القندلفت، ودعانا إلى الدخول، لكن قسّ القصر استوقفني قائلاً إن علينا انتظار الحاكم. وفي الحال وصل هذا الأخير بعربته، التي توقّفت في ساحة مجاورة. أومأ إلينا، فتوجّهنا إليه عند باب العربة. أمر الحاكم القندلفت أن يُطلعني على كل أجزاء الكنيسة، وأن يقدّم لي، علاوة على ذلك التاريخ المفصّل لمذابحها وأعطياتها الأخرى؛ كما أمر القندلفت أيضاً أن يفتح مغاليق غرفة المقدّسات؛ ليريني كل مفيد تحتويه. وقال عني إنني رجل جدير بالتكريم، وإن هذا التكريم سيكون سبباً وجيهاً يدفعني، عند العودة إلى بلاد، في

أن أذكر مسينا بأحسن ما يليق بها. بعد ذلك، التفت إليّ راسماً ابتسامة . بقدر ما تسمح تلك الملامح من ابتسام. وقال: "احرص على حضور مأدبة العشاء في الموعد المحدّد، وستكون على الرحب والسعة، طالما بقيتَ هنا." لم يتوفّر لي الوقت الكافي، إلا بالكاد؛ لكي أُبدي له الشكر والامتنان، فقد انطلقت عربته.

بات القسّ الآن أكثر ابتهاجاً، فدخلنا الكنيسة. كان سادن الكنيسة، إن جازت لي تسميته بهذا الاسم في هذا القصر الفاتن الذي نُزعت عنه قدسيّته، قد بدأ لتوّه في تنفيذ الأوامر الصارمة التي أُعطيت له، حين جاء كنيب والقنصل مسرعين إلى الحَرَم الفارغ؛ ليعانقاني عناقاً حارّاً معبّرين بفرح طاغ عن سعادتهما لرؤيتي ثانية؛ لأنهما كانا يعتقدان أنني أرزح في السجن. الواقع أنهما كانا ينتظران في قلق مُهلك حين جاءهما الرسول الفطين؛ ليبلغهما، بعد أن كافأه القنصل بسخاء دون ريب، بالنهاية السعيدة لمغامرتي. وإن الإيماءات والحركات الغريبة التي رافقت شرحه للعقبة، أثارت فيهما السعادة والحبور الطاغيين. ولمّا وصل الرسول إلى حكاية دعوة الحاكم لي لزيارة الكنيسة، انطلقا في الحال سعياً لملاقاتي.

في هذه الأثناء، كنا قد بلغنا المذبح العالي، بينما كان السادن يحكي لنا قصّة الكنوز القديمة: أعمدة من اللازورد المكْسُوّة بقضبان برونزية مذهّبة، وأعمدة، وألواح معمولة بأسلوب فلورنسي، وفصوص عقيق صقلي وفيرة، وكل شيء يلتقي في خليط متجدّد مع البرونز واللون الذهبي.

وبدأ الآن طباق موسيقي غريب. ذلك أن كنيب والقنصل كانا يلهجان بالشكوى من التعقيدات التي سبّبتها مغامرتي، على أذني اليمنى، وكان القندلفت يسرد تاريخ الكنوز، على أذني اليسرى، وكل فريق مستغرق في موضوعه، متجاهلاً غريمه. أما أنا؛ فكنتُ سعيداً سعادة مضاعفة

في أن أعرف عظم حظي بالنجاة ، من جانب، وأن أرى، من جانب آخر، معادن صقلية التي سبق أن فحصتُها في منابعها الجبلية، مشغولة هنا لأغراض معمارية.

وإن معرفتي بمختلف أنواع المواد التي شيد منها هذا البناء البديع، ساعدتْني في أن اكتشف ما يسمّى لازورد الأعمدة هو في الواقع "كالكارا" (بالإيطالية)؛ (أي كلس) إلا أن لونه بديع لم أشهد له مثيلاً، كما أنه رُصف بمهارة وإتقان رفيعين. لابد أن كمّيّات كبيرة من هذا المعدن لزمت لاختيار قطع ذات لون موحّد، ناهيك عن ذِكْر الجهد الكبير في التقطيع والصقل والتلميع. ولكنْ؛ هل هناك من مستحيل أمام هؤلاء الجيزويت؟!

دأب القنصل على تنويري إزاء الخطر الذي كان يحيق بي: فالحاكم كان مشمئزاً من نفسه؛ لأنني شهدتُ، عند زيارتي الأولى، سلوكه العنيف إزاء المدّعي المالطي. لذا؛ عقد العزم على أن يكرّمني تكريماً خاصاً، لكن عدم مجيئي في الموعد المحدّد لوليمة العشاء أفسد خططه منذ البداية. وبعد انتظار مديد، جلس المستبدّ إلى المائدة من دون أن يخفي نفاد صبره وتبرّمه، لذا؛ فإن الضيوف كانوا خائفين من وقوع مصيبة مجلجلة، إمّا لحظة قدومي، أو بعد العشاء.

في غضون ذلك، كان القندلفت يحاول أن يقنص فرصة لقول حكمة. فتح لنا المستودعات السّرّيّة التي كانت متناسقة الأبعاد حسنة الديكور والزينة؛ حيث حُفظت أوان مقدّسة، وهي مرتّبة وملمّعة مثل كل شيء آخر. ولم أجد ثمّة معادن كريمة، أو أياً من أعمال الفنّ الأصيلة من أزمنة الأقدمين أو المحدثين.

غير أن جناس الإيطالية والألمانية. التي يرتّل القس والقندلفت اللسان

الأول منها، ويلهج كنيب والقنصل اللسان الثاني منها. اقترب من نهايته، حين انضمّ إلينا فرد من حاشية الحاكم، سبق أن رأيتُه على مائدة العشاء. بدا مَقدمه نذير متاعب جديدة، خصوصاً حين عرض عليّ أن يصطحبني إلى الميناء؛ ليريني بعض الأشياء المثيرة للاهتمام، ممّا لا يُؤذَن للأجانب في رؤيته عادة.

تبادل أصدقائي نظرات متوجّسة، لكني عزمتُ أن أتجاوز كل ما يصدّني عن مرافقته بمفردي. وبعد تبادل حديث عادي، بدأتُ أتكلّم في ثقة أكبر. وقلتُ له إنني عندما كنتُ جالساً إلى مائدة الحاكم، لم يفتني أن ألاحظ أن عدداً من الضيوف الصامتين كانوا يحاولون تطميني، بإيماءات مودّة جلية، إنني لم أكن غريباً بين غرباء، بل صديقاً بين أصدقاء، بل أخاً بين أخوة(*)،

وأنْ لا تثريب عليّ. وقلتُ "أرى من واجبي أن أقدّم لك جزيل الشكر، وأن التمسّك أن تعبّر للآخرين عن امتناني." فأجاب "حاولنا أن نشيع فيك الاطمئنان؛ لأننا كنا على يقين، نحن العارفين بسوء مزاج مولانا، أن لا خشية عليك. فسورة الغضب مع المالطي حدث نادر جداً. وحين تقع مثل هذه الواقعة، فإن العجوز يلوم نفسه في العادة، ويضبط أعصابه، وينزع إلى أداء واجباته ومهمّاته الرسمية بهدوء وبرود، حتّى يقع حادث مباغت، يأخذه على حين غرّة، فينفجر في سورة غضب."

وأضاف مرافقي الصريح أن أعزّ ما يمكن أن يناله هو وأصدقاؤه هو أن يوثّقوا صلتهم بي. وقال إنهم سيكونون جدّ ممتنين لو أنني أسفرتُ عن هويتي، وإن هذا المساء هو الفرصة المناسبة. تحاشيتُ طلبه بكل أدب، بأن يغفر لي ما قد يلوح بمثابة نزوة متغطرسة، إلا أنني أحبّ أن أُعامَل خلال أسفاري بوصفي كائناً بشرياً بكل بساطة؛ وقلتُ إنني لو استطعتُ

*) الأخوة هنا هم الماسونيون الأحرار، الذين كان غوته واحداً منهم.

بصفتي البشرية هذه أن أكسب الثقة، وأنال العطف، فإن ذلك سيكون مَبعث سعادة كبيرة لي، في علائق أخرى.

لم أبذل جهداً كبيراً لإقناعه؛ لأنني لم أجرؤ على أن أبيّن له السبب الحقيقي. كنتُ مهتماً بأن أعرف كيف يستطيع الأشراف والطيّبون، في ظلّ حكومة مستبدّة، أن يتكاتفوا؛ ليحموا الأجانب، ويحموا أنفسهم. ولم أُخفِ عنه حقيقة الكثير ممّا أعرف عن علاقاتهم مع الرحّالة الألمان الآخرين؛ وأسهبتُ في الحديث عن الأهداف السامية التي كانوا يتوخّونها. فازدادت حيرته، ونمت إزاء هذا المزيج من الثقة والتحفّظ. فحاول، بكل ما تيسّر من سُبُل، أن يدفعني لأن أنضو عن نفسي ستار الكتمان، وأكشف عن هويتي. ولم يفلح في مسعاه. مَردّ ذلك، في جانب، أنني بعد أن أفلتُّ من هذا الخطر، لا أعتزم أن أعرض نفسي إلى خطر آخر دونما داعٍ. ومَردّ ذلك في جانب آخر، معرفتي الأكيدة أن أفكار أبناء الجزيرة هؤلاء تختلف تماماً عن أفكاري، وأن التعرّف الوثيق عليها لن يشيع فيهم الرضى ولا السلوان.

قضينا في هذا المساء عدّة ساعاتٍ مع القنصل العطوف الذي أسدى لي كل هذا العون. شرح لي كيف وقعت الواقعة مع المالطي. فهذا الرجل، وإن يكن ليس من المغامرين، فإنه أشبه بصخرة متدحرجة. كان الحاكم يتحدّر من أسرة عريقة، وإن إنجازاته موضع احترام وتقدير عظيمين. إلا أنه اشتهر، من جانب آخر، بتقلّب نزواته، وحدّة طباعه، وعناده المطبق. ولمّا كان مستبداً بطبيعته، ومترعاً بالوساوس والشكوك، شأن كل المسنّين في العادة، فقد كان يمقت كل شخص سريع التنقّل والترحال من مكان إلى آخر، فهو يعتقد أن أمثال هؤلاء ليسوا إلا جواسيس بكل بساطة. وقد صادف مجيء هذا "الضابط ببزّته الحمراء" في لحظة كان الحاكم يشعر في أثنائها بالحاجة إلى أن يُنفّس عن مكنون غضبه؛ لكي يريح كبده، بعد أن قضى فترة طويلة من الهدوء.

في مسينا، وعند البحر، ١٣ أيار (مايو)

استيقظنا نحن الاثنين بإحساس واحد: كنا ممتعضين من أنفسنا؛ لأننا تركنا الانطباعات الأولى السيئة عن مسينا تستبدّ بنا، وتدفعنا إلى التماس المغادرة والالتزام بالاتفاق مع قبطان السفينة التجارية الفرنسية. بعد المآل الحسن لمغامرتي مع الحاكم، والتقائي بالرجل المستقيم الخُلُق الذي أستطيع، له وحده، أن أكشف عن هويتي، وزيارتي للمصرفي الذي أتعامل معه، والذي يسكن في الريف في بيئة بهيجة، وجدتُ أن لديّ كل الأسباب الموجبة للاعتقاد بأنني كنتُ سأصيب متعة أعظم، لو أنني أطلتُ مكوثي في مسينا. أما كنيب؛ فقد تعرف إلى بعض الفتيات الجميلات، وكان يبتهل ويتضرّع إلى الباري أن يمدّ في عمر الريح العاتية غير المؤاتية إلى أطول أمد ممكن.

في غضون ذلك، جلسنا في ضيق وبرم؛ إذ لم يكن في وسعنا فَكّ أمتعتنا؛ لأن علينا أن نكون مستعدّين للمغادرة في أية لحظة. جاءتنا إشارة السفر قبيل الظهر، فأسرعنا إلى ركوب السفينة. وجدنا بين الحشد الملتئم عند الشاطئ صديقنا القنصل الطّيّب، فاستودعناه بقلوب عامرة بالامتنان. وتدافع رسول الحاكم مع الحشد؛ ليصل إلينا، وينال أعطيته douceur (بالفرنسية). أعطيتُ له المعلوم، وأمرتُه أن يُبلغ مولاه برحيلنا، وأن يعتذر له، بالنيابة عني، لغيابي عن وليمته. فهتف قائلاً: "مَن يبحر لا لوم عليه." واستدار في حركة شقلبة بهلوانية متوارياً عن الأنظار.

ابتعدت السفينة ببطء عن الساحل، فأطلّ علينا المشهد البديع الذي يخلب الألباب. هلال القصور، والقلعة، والجبل المشرئبّ من وراء المدينة. وأمكن لنا أن نرى، على الجانب الآخر من المضيق، سواحل كالابريا. ولمّا كنا مستغرقين في التلذّذ بالمشاهد المتعدّدة، لاحظنا حصول حركة غريبة

في الماء على مقربة من مَيسرتنا؛ كما لاحظنا، على مقربة من مَيمنتنا، صخرة عظيمة نائتة من البحر؛ لا ريب أن الأولى كاريبديس(*) والثانية سيلا. إن المسافة الفاصلة بين هذين، في الطبيعة، كبيرة حقاً، لكن وصف الشاعر جعلهما قريبين قرباً وثيقاً من بعضهما، وهذا مَبعث اتّهام الشعراء بالتلفيق. وما يُخفق الناس في إدراكه أن الخيال البشري يُصوِّر، دوماً، الأشياء التي يراها جديرة بالاعتبار أطول وأضيق ممّا هي عليه في الواقع؛ لأن ذلك يُسبغ عليها شخصية مميّزة، ويضفي عليها التفرّد والسموّ. لقد سمعتُ الناس يتشكّون، ألف مرّة، أن بعض الأشياء التي عرفوها عن طريق الوصف، تبدو مخيّبة للآمال حين تُرى على أرض الواقع، والسبب في كل الأحوال واحد. إن مقام الخيال من الواقع كمقام الشعر من النثر: الأول يرى في الأشياء ضخامة وامتداداً شاقولياً، والثاني يحاول مَدّها أفقياً. وإن رسّامي المناظر الطبيعية في القرن السادس عشر يقدّمون لنا، عند مقارنتهم برسّامي المناظر الطبيعية في زماننا، مثالاً ساطعاً عن هذا التباين. وإن وضع رسم من جودوكس مومبير إلى جانب رسم من كنيب سوف يبيّن الفارق على أكمل ما يكون. قضينا بعض الوقت، ونحن نتحدّث عن مثل هذه الأمور، نظراً لأن خط الساحل، عند كنيب، ليس جذّاباً بما فيه الكفاية؛ لكي يصلح للرسم، رغم أنه تدرّب على الاستعداد لرسمه.

تختلف سفينتنا هذه عن الطراد النابولي. بدأتُ أشعر بدوار البحر، ولم يتحسّن حالي قط حتّى بعد أن خلوتُ إلى نفسي، خلاف ما حصل في الرحلة السابقة. غير أن القمرة العامة كانت، في الأقلّ، كبيرة بما فيه الكفاية؛ لتسع عدّة أشخاص، وتحوي وفرة من الفرش للاضطجاع. وكما من

---

*) في الأساطير الإغريقية: كاريبديس وحش يبتلع السفن، أما سيلا؛ فحورية انقلبت وحشاً، يُغرق البحّارة. الأول مقيم عند شواطئ صقلية، والثانية عند ساحل مسينا. وحضور الاثنين يعني أن الخطر ماحق، فمَن يفلت من هذا يقع فريسة تلك.

قبل، استلقيتُ في وضع أفقي، وراح كنيب يعنى بي، ويطعمني الخبز، ويسقيني النبيذ الأحمر. ولم تتبدّ لي، وأنا في ذلك الحال من الدوار، رحلة صقلية بأكملها في ضوء وردي. فما رأينا، بعد كل هذا وذاك، غير الصراع اليائس الذي يخوضه البشر مع عنف الطبيعة، أو رداً للأحقاد والمكر والأذى، أو رداً للأحقاد والمكر والأذى، أو رداً لضغائن الخصوم المنافسين. إن أهالي قرطاجة والإغريق والرومان، وما لا حصر له من الأقوام من بعدهم، عمّروا، وخرّبوا. لقد أُحيلت سلينانت إلى كومة خراب. لكن ألفي عام لم تُفلح في القضاء على معابد جيرجينتي؛ أما كاتانيا ومسينا؛ فقد تحوّلتا إلى أنقاض في ساعات، إن لم تكن دقائق، قلائل.

لكني لجمتُ النفس عن الوقوع فريسة وساوس دوار البحر هذه، المنبجسة في تأمّلات إنسان، تتقاذفه أمواج الحياة.

في البحر، ١٣ أيار (مايو)

لم تتحقّق آمالي في أن تكون هذه الرحلة أقصر من سابقتها، وأن أتعافى سريعاً من دوار البحر. بناء على نصح كنيب، حاولتُ مراراً أن أصعد إلى سطح السفينة، لكني لم أقو على التمتّع بالمشاهد الجميلة، باستثناء لحظات عابرة، نسيت فيها دواري. السماء مدلهمّة بضباب غيوم بيض. ورغم أن الشمس بقيت محجوبة عن أنظارنا، فإن نورها كان يتسرّب من خلل ندف السحاب؛ ليضيء البحر المزدان بزرقة داكنة، تبزّ الخيال. رافقت السفينة، دوماً، ثلّة من الدلافين، وهي تعوم وتثب. ولا ريب أن منزلنا العائم هذا يتبدّى لها، من البعيد أو من الأسفل، بمثابة نقطة سوداء، تحسبها الدلافين طريدة للقنص، أو مصدر اغتذاء محبّباً. أما طاقم البحّارة؛ فكانوا يعاملون الدلافين بمثابة أعداء، لا رفاق بحر؛ وقد أصابوا دلفيناً بحَرْبة صيد، إلا أنهم لم يرفعوه إلى الدكّة.

بقيت الريح معاكسة، وبقيت السفينة تغيّر الدفّة، باستمرار. أثار ذلك حنق المسافرين ونفاد صبرهم؛ وأعلن بعض العارفين بخبايا الأمور أن لا القبطان ولا نوتي الدفّة يعرفان الملاحة كما ينبغي، وأن الأول قد لا يزيد عن تاجر، والثاني عن بحّار ساذج، إلا أنهما غير مؤهّلين لضمان سلامة هذا العدد من الأنفس القيّمة، والسلع الثمينة.

رجوتُ هؤلاء الناس، من ذوي النوايا الحسنة بلا ريب، أن يكتموا شكوكهم. كان عدد المسافرين كبيراً، بينهم نساء وأطفال من مختلف الأعمار. وقد احتشد الكل على متن السفينة الفرنسية بأمل واحد لا غير. أن يحميهم علمها الأبيض من القراصنة. حذّرتُ المتشكّكين من أن شيوع ارتيابهم وتوجّسهم، سيثير الغمّ الكبير في نفوس أولئك الذين علّقوا كل آمالهم على قطعة قماش بلا لون ولا شعار.

إن هذا البيرق المثلّث المرفرف بين السماء والبحر لطِلْسَم خاص غريب جداً. فالمغادرون، والباقون على الساحل، يلوّحون لبعضهم البعض، لحظات انطلاق السفائن، بمناديل بيضاء، مستثيرين بهذه العلامة مشاعر المودّة والمحبّة التي لا تطفح بهذه القوّة إلا في لحظات الفراق. أما في هذا العلم البسيط؛ فإن الفكرة الأساسية الكامنة وراء الرمز جوفاء. والحال كما لو أن على شخص ما إن يرفع منديله الأبيض فوق السارية؛ ليعلن إلى العالم كله أن صديقاً يخوض البحر.

رطّبتُ فمي، بين الحين والآخر، بالخبز والنبيذ. بما استثار ضيق القبطان، الذي طالبني بأن أتناول ما دفعتُ ثمنه. استطعتُ أخيراً أن أجلس فوق سطح الباخرة، وأن أشارك أحياناً في الحديث. أفلح كنيب في التسرية عني، لا عن طريق التبجّح بوجباته الرائعة، كما فعل على متن الفرقاطة، بل إبلاغي أنني محظوظ في فقدان شهيتي.

٤ أيار (مايو)

انصرمت الظهيرة من دون أن ندلف خليج نابولي.على العكس، كانت السفينة تجنح باطّراد صوب الغرب؛ مبتعدة أكثر فأكثر عن كيب منيرفا، ومقتربة أكثر فأكثر من كابري.

خيّم الضيق والتبرّم على الجميع، باستثناء كنيب وباستثنائي أيضاً. كنا ننظر إلى العالم بعيني رسّامين قانعين تماماً بالتمتّع بغروب الشمس، الذي كان من أروع المشاهد قاطبة في رحلة البحر هذه. يربض كيب منيرفا والسلاسل الجبلية الملاصقة له أمام أنظارنا متلألئة بألوان برّاقة. واكتست الأكمات الممتدّة جنوباً بصبغة، تميل إلى الزرقة. وكان الساحل من الكيب إلى سورنتو مضاء بالأنوار. ثمّة سحابة دخان تعلو جبل فيزوف، وتطلق شريطاً يمضي جهة الشرق، ويشير إلى قرب انفجار حمم عاتية. انبجست كابري، على حين غرّة، جهة اليسار، من خلل ضباب الأفق، ورأينا الخطوط الخارجية لمحيطها.

سكنت الرياح تماماً، وتلألأ البحر من دون أن تتكسّر الأمواج على صفحته إلا نادراً، مترامياً أمام النظر مثل بركة ساكنة تحت سماء تخلو من السحاب. وأبدى كنيب أسفه لعجز أية موهبة في التلوين، مهما عظمت، على أن تبدع مثل هذا التناغم، وعجز أحسن أقلام الرسم الإنجليزية، مهما بلغت براعة اليد الممسكة بها، عن تسجيل هذه الخطوط. أما أنا؛ فكنتُ مقتنعاً، بخلاف ذلك، على أن أي رسم بسيط، ممّا يستطيع هذا الرسّام القدير أن يُنجزه، سيكون ذا قيمة كبيرة في المستقبل، وحَثَثْتُهُ على أن يحاول رسم المشهد. نزل عند نصحيتي، ووضع أدقّ رسم للمنظر الذي قام بتلوينه لاحقاً، وهو يبرهن أن بمقدور التصوير أن يجترح المستحيل في التقاط الأشياء.

وبالاهتمام العميق ذاته، راقبنا التحوّل من المساء إلى الليل. تلفّعت كابري القابعة قبالتنا بالظلمة التامّة. وأخذت غيمة بركان فيزوف وذيولها، تتوهّج. وكانت تزداد توهّجاً وبريقاً حتّى أضاءت جانباً من السماء، كما لو كانت بروق صيف.

بلغ بنا الاستغراق في لذائذ النظر إلى هذه المشاهد حدّاً، جعلنا نغفل عن خطر كارثة مدوّية كانت تحيق بنا، لولا أن هرج المسافرين ومرجهم لم يتركنا في ريبة من أمرنا. ألقى العارفون بخفايا البحر، ممّن يفوقوننا دراية، اللوم على القبطان ونوتي الدفّة، قائلين إنهما، بفضل انعدام أهلية هذين، لم يكتفيا بالابتعاد عن مدخل المضائق، بل باتا يهدّدان حيوات المسافرين والبضائع، وكل ما وُضع أمانة في أعناقهما. وتساءلنا عن سرّ هذا القلق قائلين إننا نرى أن البحر هادئ، ساكن، ولا يوجب ما يستثير الخوف. اتّضح أن هذا السكون عينه هو ما يثير خشيتهم: فهم يرون أننا دخلنا التيار العاتي الذي يطوق كابري، ويجرّ، بقوّة موجاته الخفية، كل ما يصادفه جرّاً وئيداً، لا فكاك منه نحو واجهة صخرية صمّاء؛ حيث لا جرف ليطأ المرء أديمه، ولا خليج يكفل السلامة.

روّعنا لهذا الخبر. ورغم أن العتمة حرمتْنا من رؤية الخطر الداهم، فقد كنا نلاحظ أن السفينة، تتأرجح، وتتمايل مقتربة من الصخور التي بانت لنا أشدّ سواداً من الليل، خصوصاً وأن بصيص وهج كان ما يزال ينشر ضياءه فوق البحر. وهمدت الريح هموداً تامّاً. اخرج الكل مناديلهم وأشرطتهم البيضاء، لكن بوادر الريح المأمولة لم تأت. ازداد الهرج والمرج قوّة بين الركاب. ركعت النساء كما الأطفال على ظهر السفينة، أو راحوا يتجمّعون متكدّسين معاً، لا لكي يصلّوا، بل لأن سطح الباخرة ازدحم بالبشر ازدحاماً، لا يفسح لهم مجالاً للحركة. وانطلق الرجال، الذين يركّزون جل

أفكارهم على إسداء العون وانقاذ الضعيف؛ ليصبّوا جام غضبهم على القبطان. وباتوا الآن يهاجمونه بكل ما كانوا يردّدون من انتقادات مكتومة خلال الرحلة كلها. سوء قمرات النوم، وارتفاع أجور النقل المشين، ورداءة الطعام، وسلوكه الأهوج. الحقّ أنه لم يكن يخلو من العطف، إلا أنه كان شديد التحفّظ؛ إذ لم يشرح أفعاله لأحد، بل إنه التزم الليلة الماضية الصمت المطبق، بصدد مناوراته الملاحية. وباتوا الآن يصمونه ونوتي الدفّة بأنهم مرتزقة مغامرون، يجهلون فن الملاحة، وأنهم أخذوا السفينة بدافع الجشع ليس إلا، وأن أغلاطهم وانعدام كفاءتهم ستحيق حياة كل هؤلاء الناس بالحزن، وهي أمانة في أعناقهم. التزم القبطان الصمت، وبدا غارقاً في أمور إنقاذ السفينة. أما أنا، الكاره للفوضى كرهي للموت؛ فلم أعد أطيق السكوت بعد. تقدّمتُ قليلاً، وخاطبتُ الحشد بنفس الاتّزان الذي أبديتُه إزاء "طيور" ما لسيساين. أشرتُ إليهم أن زعيقهم لن يفلح، في مثل هذه اللحظات، إلا في إرباك آذان وعقول أولئك الذين تتوقّف سلامتنا عليهم، ممّا يعيق عليهم التفكير أو التخاطب. وهتفتُ قائلاً "أما أنتم؛ فعليكم أن تتفحّصوا ما في قلوبكم، وأن تتلوا صلاتكم للسيدة العذراء؛ لأنها وحدها يمكن أن تقرّر، إن كانت ستتشفع لكم عند ابنها المسيح؛ لكي يفعل لكم ما فعله ذات مرّة لرُسُله خلال العاصفة التي اكتسحت بحر طبريّا. كان السيد المسيح نائماً، والأمواج تتلاطم على السفينة، وحين أيقظه الرجال البائسون العاجزون، دعا الريح؛ لكي تهمد في الحال، أما الآن؛ فإن بوسعه، إن كانت هذه إرادته، أن يأمر الريح بأن تتحرّك."

تركت هذه الكلمات أثراً عظيماً. وجاءت امرأة، كنتُ قد تبادلتُ معها الحديث في أمور أخلاقية وروحانية، وهتفت:

"آه، القدّيس بارلام، القدّيس بارلارم المبارك."(*) ولمّا كان الجمع راكعاً على أي حال، فقد بدأ أفراده التراتيل بحمية أكبر من المعتاد. تلوا ابتهالاتهم بنفوس، غمرتها السكينة؛ لأن البحّارة كانوا يجربون الآن وسيلة أخرى، كان الكل يراها، ويفهمها، في الأقل. أنزلوا قارب اتصال بالساحل، يسع ستة إلى ثمانية رجال، حاولوا أن يجرّوا السفينة بواسطته. لكن جهودهم، كما يبدو، زادت في الانجراف المعاكس بقوّة التيار. ولسبب أو لآخر، انجرّ قارب الاتصال إلى السفينة بدل أن يجرّها، وفرقع حبل الجرّ على شكل قوس متموّج، مثلما يحصل للكرباج حين يفرقعه الحوذي. تلاشى هذا الأمل.

باتت الصلوات تختلط بنواح وندب، بينما ازداد الوضع سوءاً، خصوصاً وأن رعاة الماعز الرابضين فوق الصخور العالية، ممّن سبق أن رأينا نيرانهم، باتوا يزعقون بأصوات جهيرة أن هناك سفينة في الأسفل تُوشك على الغرق.

لم نفهم جلية معظم ما تهاتفوا به من كلمات، لكن بعض المسافرين العارفين باللهجة المحلّيّة، فسّروا صيحات رعاة الماعز على أنها تعبّر عن السعادة بالغنيمة المقبلة التي سيقنصها هؤلاء من حطام السفينة في الصباح التالي. وسرعان ما تبدّد أي سلوان، وطغى الشك في اقتراب السفينة اقتراباً خطيراً من الصخور، حين رأينا البحّارة يحملون أعمدة خشبية طويلة يأملون بها، إن وقع المكروه، أن يدفعوا السفينة عن الصخور. وبالطبع إذا انكسرت أعمدة الخشب، كانت تلك نهايتنا جميعاً. ازداد هيجان ارتفاع الموج، وتأرجحت السفينة، وتمايلت بعنف أشدّ؛ فعاد ليّ دوار البحر، فعدتُ إلى القمرة في الأسفل، وأنا شبه دائخ، مع شعور معيّن بالاطمئنان يرجع، على الأرجح، إلى ذِكْر بحيرة طبريّا؛ لأنني رأيتُ بعين

*) بالأصل: بارلامي، ولعله القدّيس بارلام، وهو شخصية من أسطورة بيزنطية. وردت العبارة بالإيطالية في الأصل.

الخيال، رسوم إنجيل ميريان(*) واضحة، جلية. وأمدّني ذلك بالبرهان على أن كل الانطباعات ذات الجوهر الحسّيّ الأخلاقي تكون على أشدّها حين يلاقي الإنسان موارد التهلكة وحيداً، لا اعتماد له إلا قواه الخاصة.

لا أدري كم طال بي الرقاد في شبه الإغفاءة هذه، لكني خرجتُ منه بدويّ هائل فوق رأسي. وأنبأتني مسامعي أن هذا الدوي ناشئ عن جرّ حبال ثقيلة على سطح السفينة، فأذكى ذلك فيّ الأمل بأن البحّارة قد رفعوا الأشرعة. بعد ذلك، بقليل جاءني كنيب مسرعاً؛ ليبشّرني بأننا في مأمن. لقد هبّت ريح لطيفة، وراح البحّارة يجهدون لرفع الأشرعة، وأنه لم يتردّد عن تقديم يد العون. وقال إننا ابتعدنا بشكل جلي للعيان عن أكمة الصخور، وإن هناك أملاً قوياً بالإفلات من الأكمة، رغم أننا لم نتخلّص من براثن التيار الجارف كُلّيّاً. عمّ الهدوء سطح السفينة. وجاءني عدد من الركّاب؛ ليؤكدوا لي حصول تحوّل حسن في مجرى الأحداث، ويرقدوا هم أيضاً.

حين استيقظتُ في اليوم الرابع من الرحلة البَحْريّة، شعرتُ بالانتعاش والراحة، تماماً كما حصل لي في اليوم الرابع بعد مغادرة نابولي، وهكذا كان عليّ، حتّى لو طالت الرحلة، أن أدفع الاتاوة بهيئة وعكة، تدوم ثلاثة أيام.

صعدتُ إلى سطح السفينة، ورأيتُ أن الجزيرة المهلكة بعدت عنا، وإن مسار السفينة يعد بدخول الخليج، وسرعان ما دخلناه. أمكن لنا، بعد تلك الليلة الليلاء، أن نتملّى الأشياء المبهجة في نور الصباح، ممّا كنا نتملاه بإمتاع عند غروب الأمس. خلّفنا كابري وراءنا، وامتدّ الساحل الصحيح من الخليج دانياً قبالتنا. رأينا القلاع والمدينة؛ حيث كانت بوسيليبو على يسارنا، وألسنة البرّ الممتدّة في بورسيدا واسكيا تبرز أمامنا. صعد الركاب

---

*) إنجيل مُصوَّر، صدر بعد لوثر، وهو مزيّن برسوم، حفرها الرسّام السويسري ماتيوس ميريان(١٦٢٧).

جميعاً إلى السطح. ثمّة قسّ يوناني يقف في المقدّمة سارح الفكر. ولعلّه ينحاز في شوقه إلى موطنه في الشرق. فحين سأله المسافرون من نابولي، الذين ابتهجوا ابتهاجاً عظيماً برؤية موطنهم المجيد، عن رأيه في نابولي بالمقارنة مع القسطنطينية، أجاب بلهجة حزينة، مفعمة بالحنين للوطن: "إن القسطنطينية مدينة هي الأخرى."

بعد فترة وجيزة، بلغنا الميناء الذي كان يعجّ بالناس، فهذا الوقت هو ذروة الحركة في النهار. أنزلوا حقائبنا وبقية أمتعتنا على الشاطئ، ووقفنا هناك، فوجدنا اثنين من الحمّالين يسرعان إلى تلقّف هذا المتاع. ولم نكد نقول لهما إننا سننزل في ماريكوني، حتّى هرعا بالحقائب والأمتعة، كما لو كانت هذه مسروقات، نُهبت لتوها، ووجدنا صعوبة في اللحاق بهما عبر الشوارع والساحة المزدحمة. حمل كنيب حقيبته تحت إبطه، حتّى يحافظ في الأقلّ على اللوحات إذا ما عَنّ للحمالين أن ينهبوا كل المتاع الذي نجا من الأمواج العاتية.

نابولي إلى هيردر

١٧ أيار (مايو)

ها أنذا، ثانية، سليماً معافى، أيها الأصدقاء. كانت رحلتي في أرجاء صقلية سريعة هنية، وحين أعود إلى موطني، سترون بأنفسكم حسن استخدامي لعينيّ. إن عادتي القديمة في التركيز على ما هو موضوعي وملموس، منحتْني القدرة على قراءة الأشياء، إن جاز القول، بمجرّد النظر إليها؛ وإنني لسعيد في الاعتقاد بأنني أحمل الآن في روحي صورة صقلية، تلك الجزيرة الفريدة الجميلة، وهي صورة واضحة أصيلة كاملة. لم يعد هنا في الجنوب ما أرغب في رؤيته، خصوصاً منذ الأمس، حين عدتُ إلى زيارة البويستوم، وهو آخر مشهد سأحمله معي في طريق العودة إلى الشمال، ولعلّه أعظم المشاهد قاطبة. إن المعبد المركزي، في اعتقادي، هو خير ما تركتْه صقلية لعين الناظر.

لقد أمدّني البحر كما الجزر بمزيج من الفرح والألم. إنني راض بنتائج رحلتي، لكنْ؛ عليّ أن أوفّر التفاصيل لحين العودة. وأجد صعوبة بالغة، حتّى وأنا في نابولي، في أن أستجمع أفكاري، رغم أني آمل الآن أن أستطيع أن أقدّم لكم في هذه الرسالة وصفاً للمدينة أفضل ممّا في الرسائل السابقات. سأتوجّه إلى روما يوم الأول من حزيران (يونيو)، وفي الأول من حزيران، أعتزم الرحيل ثانية، إلا إذا شاءت المقادير العلية خلاف ذلك. لابد لي من أن أراكم في أقرب وقت ممكن، وإنني أعدّ الأيام عداً حتّى نلتقي.

لقد جمعتُ قدراً كبيراً من المواد، وأحتاج إلى فسحة من الوقت؛ لكي أرتّبها، وأصنّفها، وأعكف على دراستها.

إنني ممتنّ لكم جميعاً امتناناً لا حدّ له على ما أبديتُمُوه من عطف ومحبّة، وكل ما قمتُم به لأجل مؤلّفاتي. لعلّنا لا نتّفق في كل شاردة وواردة اتّفاق العين مع العين، إلا أن طرائقنا في التفكير متشابهة، في كل الأمور الهامّة، أكبر تشابه يمكن أن يجمع بين اثنين من البشر. وإن كنتُم قد توصّلتُم إلى الكثير والعظيم من الكشف الذاتي خلال الأشهر المنصرمة، فإنني - بدوري - اكتسبت الكثير، وأتطلّع إلى سعادة تبادل الأفكار.

كلّما اتّسعت رؤيتي إلى العالم، تضاءل أملي في قدرة البشرية جمعاء على أن تنال الحكمة والسعادة. ومن بين ملايين العوالم القائمة في الوجود، لا يوجد، على الأرجح، سوى عالم واحد، يمكن له أن يتباهى بامتلاك هذه الحكمة وتلك السعادة؛ ولكنْ؛ في ضوء تركيب عالمنا، لا أرى أن لنا نحن أو للصقليين أي أمل في ذلك.

دعوني أقول شيئاً عن هوميروس. لقد زالت الغشاوة عن عيني. إن وصفه، وتشبيهاته، وما شاكل، التي تبدو لنا شاعرية، إنما هي في الواقع طبيعية بالكامل، رغم أنه يرسمها، طبعاً، بإدراك باطني، يبهر الألباب. وحتّى عندما تكون الأحداث التي يصفها خرافية وخيالية، فإنها تتميّز بمسحة من التلقائية الطبيعية، لم أشعرها بتلك القوّة، كما شعرتُ بها في حضور المكان الذي يصفه. دعوني أعبّر بإيجاز عن رأيي في الشعراء الأقدمين والمحدثين من أمثالنا. إنهم يُصوّرون الأشياء والأشخاص كما هي في ذاتها، أما نحن؛ فلا نُصوِّر في العادة سوى أثرها الذاتي؛ إنهم يُصوِّرون الفزع، أما نحن؛ فنصف بطريقة مفزعة؛ إنهم يُصوِّرون الشيء المفرح، أما نحن؛ فنُصوِّر بطريقة مفرحة، وهكذا دواليك. من هنا منبع المغالاة والتكلّف والتنميق

والتبجّح الزائف في عصرنا. ولمّا كان المرء يتوخّى توليد الأثر والأثر وحده، فإنه يعتقد أنه عاجز عن إيصال الأثر إلى درجة الاحتدام الكافية. وإن كان ما أقول ليس بالجديد، فقد توفّرت لديّ الفرصة الساطعة لتلمّس حقيقته.

والآن بعد أن اختزن عقلي صور كل هذه السواحل، والجبال، والخلجان، والمضايق، والجزر، وألسنة اليابسة، والأكمات الصخرية، والشواطئ الرملية، والتلال الغابية، والمراعي الرقيقة، والحقول الخصبة، وجنائن الزهور، والأشجار المقلّمة، والكروم، والجبال المكلّلة بالسحاب، والسهول الرائقة الأزلية، والبحر الممتدّ من كل الجهات بلألاء ألوانه المتغيّرة وأمزجته المتقلّبة، بعد هذا كله، أستطيع القول، لأول مرّة، إن الأوديسة باتت حقيقة حيّة عندي.

وينبغي أن أسرّكم أنني قاربتُ الوصول إلى سرّ تكاثر النبات وتركيب بنيته، وأن هذا على أبسط ما يمكن تصوُّره. إن هذا المناخ يوفّر أفضل الشروط الممكنة للملاحظة العلمية. وكُلّي يقين من أني وجدتُ الجواب عن سؤال أين يكمن أصل الأشياء؛ واني لأرى الحل العام لهذه القضية، ولا ينقص ذلك سوى صوغ بعض النقاط بدقّة أكبر. إن النبات الأولي الذي نشأت عنه كل النباتات سيكون أغرب مخلوق في العالم، ستحسدني الطبيعة نفسها عليه. وبتوفّر هذا النموذج والمفتاح الموصل إليه، سيكون بالإمكان المضي، إلى الأبد، في اختراع نباتات جديدة، وإدراك الجوهر المنطقي لوجودها؛ أقصد القول إنها لو لم تكن موجودة فعلاً، فبإمكانها أن توجد؛ لأنها ليست ظلال أشباح خيال عابث، بل أشياء، تمتلك ضرورة باطنية وحقيقة باطنية. ولسوف ينطبق هذا القانون على كل الكائنات العضوية الحية.

١٨ أيار (مايو)

عاد تيشباين إلى روما، ووجدتُ أنه بذل كل ما بوسعه حتّى يكفل لي

ألا أحسّ غيابه. واضح أنه أقنع أصدقائه بانني شخص جدير بالثقة، ذلك أنهم احاطوني جميعاً بالمودّة والعطف والعون. وهذا ما يثير السرور في وضعي الحالي، إذ ما مرّ يوم دون أن أضطر إلى أن ألتجئ إلى هذا أو ذاك طلباً لخدمة أو عون. أتهيأ لوضع قائمة مختصرة بكل الأشياء التي أودّ أن أراها؛ أما الوقت القليل المتبقّي لي؛ فهو الفيصل الحاسم الذي سيقرّر ويُملي عليّ مقدار ما يمكن أن يُستعاد.

٢٢ أيار (مايو)

وقعت لي اليوم مغامرة لطيفة، دفعتْني إلى التفكير، وهي جديرة بالذِّكْر.

هناك سيدة أسدت لي خدمات جليلة خلال فترة مكوثي الأولى هنا، دعتْني الآن إلى منزلها عند الساعة الخامسة: هناك سيد إنجليزي يرغب في لقياي؛ لأنه يريد أن يقول لي شيئاً عن كتابي: آلام فيرتر.

لو جاءت هذه الدعوة قبل ستة أشهر؛ لاعتذرتُ عنها، حتّى لو كان اهتمامي بهذه السيدة ضعف اهتمامي الحالي بها: وإن قبولي بالدعوة، نبّهني إلى الأثر الحسن الذي تركتْه رحلة صقلية في وجداني. باختصار وعدتُها بالمثول في الوقت المحدّد.

لسوء الحظ إن سعة المدينة وكثرة ما أريد مشاهدته من أشياء، جعلتْني أتأخّر ربع ساعة عن موعد ارتقاء درجات منزلها. كنتُ أوشك على أن أدقّ الجرس، حين انفتح الباب عن رجل لطيف المحيّا، في منتصف العمر، فعرفتُ فيه السيد الإنجليزي المذكور، في الحال. وبادرني إلى القول حتّى قبل أن يتفرّس في قسماتي: "أنت مؤلّف آلام فيرتر." أكّدتُ له ذلك، واعتذرتُ عن التأخّر. قال "لا قبل لي بالانتظار دقيقة أخرى. ما أريد قوله لك وجيز، ويمكن قوله هنا، على سجّادة المدخل. لا أريد تكرار

ما قد تكون سمعتَه آلاف المرّات. الحقّ إن عملكَ لم يترك عليّ ما تركه على الآخرين من انطباع عنيف. ولكني أعجب حقاً، كلّما فكّرت في العناء الذي لابد قاسيتَه لأجل تأليفه."

كنتُ أوشك على أن أنبس ببضع كلمات شكر، حين سبقني إلى القول: "لا أستطيع أن أنتظر لحظة أخرى. أردت أن أقول لك شخصياً. إنني، طيّب، وداعاً، وحظاً سعيداً!" بعد هذه الكلمات، أسرع في نزول الدرج. بقيتُ لحظات واقفاً هناك، متفكّراً في شرف هذه المحاضرة التي أُلقيت عليّ، بعد هذا ضغطتُ على الجرس. سُرّت السيدة بحكاية لقائنا أنا والإنجليزي، وذكرت لي أشياء كثيرة حميدة عن هذا الرجل المتميّز.

٢٥ أيار (مايو)

لن يتسنّى لي على الأرجح أن أرى أميرتي الطائشة ثانية. لقد غادرت فعلاً إلى سورينتو، وقد أغدقتْ عليّ قبل سفرها، كما أخبرني أصدقاؤها، بعض الشتائم؛ لأني فضّلتُ صحبة صحراء صقلية الوعرة على صحبتها. وذكر هؤلاء الأصدقاء لي المزيد عن هذه المرأة، الصغيرة غريبة الأطوار. لقد وُلدت في عائلة نبيلة، ولكنْ؛ مُعدَمة، وأُنشئت، وترعرعت في دير، فشبّت، وهي عاقدة العزم على الاقتران بنبيل عجوز وثري. وما كان بالوسع ثَنيها عن هذا العزم، ورغم ما تتّسم به من طيبة قلب، فإنها كانت عاجزة، بطبعها، عن الحبّ. ولمّا وجدت نفسها، رغم الثراء، حبيسة حياة محكومة بقيود الأسرة النبيلة، غدا ذكاؤها المعينّ الوحيد؛ ولمّا كانت مقيّدة في حركاتها وسَكَنَاتها، فقد أطلقت العنان، في الأقل، للسانها الذرب.

وأكد لي العارفون أن سلوكها الفعلي لا غبار عليه، لكنها عقدت العزم، كما يبدو، على أن تقارع كل قيد من قيود التقاليد بإطلاق العنان للسانها. وقيل لي، على سبيل الدعابة، إنه ما من رقابة بقادرة على ضبط

كلامها حتّى لو كان النصّ مدوّناً سَلَفَاً؛ لأن كل ما تنطق به هو إساءة للدين والأخلاق والدولة. وهناك حكايا كثيرة تدور عنها، سأسرد عليكم، هنا، واحدة منها، رغم ما يعتورها من خشونة.

يقال إنها قصدت قبل أن يدمّر الزلزال كالابريا، ضيعة من ضياع زوجها؛ لتنال قسطاً من الراحة. وكانت هناك، قرب المنزل الكبير، ثكنة، نعني مَبنى خشبياً من طابق واحد، أُرسي بلا أساس، وبخلاف ذلك، كان مفروشاً ومؤثّثاً على أحسن ما يكون.

ولمّا بدأت أولى نذر الزلزال لجأت إلى المنزل الخشبي. كانت جالسة على الأريكة، وأمامها طاولة خياطة صغيرة، وهي تعمل المخرمات، وقد جلس قبالتها قسّ المنزل العجوز. فجأة، اهتزّت الأرض هزّاً، وانخسف المبنى، ومال من جهتها؛ بحيث إن طاولة الخياطة والقسّ طارا في الهواء. فصرخت، ورأسها منقلب إلى الحائط الغائر "يا للعار! أيليق هذا برجل عجوز متديّن مثلكَ؟! ما هذا الترف، لكأنك تريد الانبطاح فوقي. هذا سلوك مخلّ بكل الأخلاق والأعراف!."

في هذه الأثناء، عاد المنزل إلى وضعه الطبيعي، لكنها لم تكفّ عن الضحك على الوضع السخيف المغتلم، الذي ادّعت أن القسّ العجوز الطّيّب أوقع نفسه فيه. ولم تُبد أي اكتراث بما نزل من مصائب وموت وضياع أملاك بساحة أسرتها وآلاف آخرين غيرهم، كما لو أن هذه النكتة أنستْها كل ما أصاب الناس. وما كان لها أن تتمتّع بهذه الطرفة، لولا وجود ميل خارق لاغتنام السعادة في تلك اللحظة التي بدت الأرض فيها، وكأنها توشك على ابتلاعها.

٢٦ أيار (مايو)

هناك الكثير ممّا يمكن قوله عن كثرة القدّيسين، فبمقدور كل مؤمن

أن يختار قدّيسه المفضّل؛ ليودع الثقة فيمَن يشدّه أكثر من سواه. واليوم هو عيد قدّيسي المفضّل، وقد احتفلتُ بهذا العيد، على هدى مثال وتعاليم هذا القدّيس، بالتفاني والغبطة.

ينعم فيليبو نيري بمقام رفيع، ويحيط الفرح ذِكْراه. وإن المرء ليخشع ويغتبط حين يسمع ما يُقال عن شدّة تقواه، وخوفه من الباري، مثلما يُسرّ لسماع الحكايا الكثيرة عن مزاجه الممراح. لقد أبدى منذ وقت جدّ مبكّر في شبابه مَيلاً قوياً للوازع الديني المتّقد، كما أنمى في مجرى حياته مواهب سامية في الوجد الصوفي. فموهبة الصلاة التلقائية، والحبّ الصامت، والدموع، والغبطة، وفوق هذا وذاك بركة الإسراء بروحه في الأعالي، هي من صلب معدنه.

وقد جمع إلى هذه البركات الروحية الباطنية حسّاً سليماً رائقاً وتقديراً مطلقاً، أو ازدراء مطلقاً للأشياء الدنيوية، وميلاً فاعلاً للإحسان المكرّس للحاجات الجسدية، أو الروحية لأقرانه من بني البشر. وكان يلتزم التزاماً دقيقاً بكل الفرائض المطلوبة من فرد مؤمن من أفراد الكنيسة، من شعائر العبادة والصلاة والصيام؛ مثلما كان يلتزم التزاماً روحياً عميقاً بتربية الشباب، وتعليمهم دروس الموسيقى وفنّ الخطابة، وتنظيم النقاشات والسجالات لتطوير عقولهم أسوة بأرواحهم.

زد على هذا أنه كان يتولّى ذلك من تلقاء ذاته دونما توجيه من سلطة أعلى، وقد عاش جلّ سنوات عمره من غير أن ينتمي إلى طائفة دينية محدّدة، أو يُعيّن رسمياً، بوصفه كاهناً.

غير أن أشدّ ما يثير الاهتمام أن يبرز في قلب روما، وفي وقت ظهور لوثر بالذات، رجل موهوب تقي ورع، وفعّال، يتّجه، مثل المصلح اللوثري،

إلى جمع الروحي، بل المقدّس بالدنيوي، وربط ما فوق الطبيعي بالطبيعي؛ لأن ذلك هو المفتاح الوحيد الذي يمكن أن يفكّ مغاليق سجن البابوية، وأن يعيد الخالق إلى العالم الحُرّ.

صاغ نيري تعاليمه الأساسية في شعار مكثّف، يقول:

"يحتقر العالم

يحتقر لا أحد من الناس

يحتقر نفسه

يحتقر أنه هو نفسه مُحتقر" (باللاتينية)

ويعبّر ذلك عن كل شيء. ولعلّ الموسوس يتوهّم أحياناً أن بمقدوره تحقيق المطلبين الأولين من هذه المطالب الثلاث، أما الخضوع للمطلب الثالث؛ فيقتضي من الإنسان أن يوغل في درب القداسة.

٢٧ أيار (مايو)

بفضل عطف الكونت فراي جاءتني من روما كل رسائلكم العزيزة المرسلة في أواخر الشهر الماضي. لقد أعطتْني قراءتها متعة عظيمة، دفعتْني إلى مطالعتها مرّة ثانية. كما وصل أيضاً الصندوق الصغير الذي كنتُ أنتظره على أحرّ من الجمر، وإني لأشكركم ألف مرّة على كل شيء.

لقد آن أوان فراري من هذا المكان. لقد تسرّبت الأيام مثل الماء من بين أصابعي في العودة إلى زيارة شتّى الأماكن في نابولي وجوارها، ابتغاء إنعاش ذاكرتي، وتسوية بعض شؤوني. زد على هذا أني التقيتُ عدداً من الناس اللطفاء، من المعارف القدامى والجدد، ممّن كان عليّ أن ألتقيهم من كل بد. من بين هؤلاء سيدة ودودة، كنتُ قد قضيتُ معها بعض الأيام

الحلوة في كارليزباد الصيف الماضي. أمضينا ساعات طوال، نتحدّث فيها عن الصديق العزيز تلو الصديق، وبخاصة عن دُوقنا المحبوب المِمراح. لقد احتفظتُ بالقصيدة التي فاجأتُ بها فتيات أنجلهاوز الدوق في أثناء مغادرته. أعادت إليّ الكلمات ذكرى تلك المناسبة، ذكرى ذلك المشهد المفرح، وتلك الفتيات بما أبدينَه من ضروب المداعبة الفطينة والملغزة، وضروب السعي النابه إلى ممارسة الحقّ في الثأر المتبادل. وشعرنا في الحال كما لو أننا عدنا على أرض ألمانيا، وسط الصفوة من المجتمع الراقي، محاطين بالأكمات من كل الجهات، موحّدين بغربة المكان، وموحّدين بقوّة أشدّ بعرى الاحترام والصداقة. ولكنْ؛ ما إن توجّهنا إلى النافذة حتّى وجدنا حشود أهالي نابولي، وهم يتدفّقون كالسيل الهادر، فبدّدوا - بذلك - الذكريات المسالمة.

وكان محالاً عليّ، بالمثل، أن أبتعد عن دائرة التعرّف إلى دوق ودوقة أورسل. زوجان رائعان، حبيا بشعور مرهف إزاء الطبيعة والناس، وحبّ حقيقي للفن، وطبع مجبول على إسداء الخير لكل مَن يلتقيان. خضنا الكثير من الأحاديث الطويلة الساحرة.

ما يزال السير ويليام هاميلتون ونصفه الجميل على مودّتهما لي. تناولتُ العشاء في منزلهما، وقدّمت الآنسة هارت، في ذلك المساء، عرضاً لمواهبها الموسيقية والغنائية.

وبناء على اقتراح هاكرت، الذي يزداد عطفه عليّ، بما لا يُقاس، ولا يريدني أن أفوّت فرصة مشاهدة أي شيء قيّم، أَطْلَعَنا السير ويليام على قبو كنزه السّرّيّ المحشو بأعمال الفن والخردوات، في حالة نادرة من الفوضى. مخلّفات من العصور كلها، تماثيل نصفية، وآنية زهور، وأفاريز، وتماثيل برونز، وأدوات ديكور من كل شاكلة، مصنوعة من العقيق الصقلي، وحفر

على الخشب، ولوحات زيتية، وأشياء أخرى من كل ضرب ولون، مكوّمة شذر مذر؛ بل كان هناك مصلى صغير. رفعتُ، بدافع الفضول، الغطاء عن صندوق طويل جاثم على الأرض، فوجدتُ فيه شمعدانين بديعين. لكزتُ هالكرت، وسألتُه إن لم يكن هذان الشمعدانان يشبهان شمعدانات متحف بورتيتشي. فأسكتَني بنظرة شزرة. لا ريب أن هذه الشمعدانات وجدت طريقها على نحو ما إلى هذا المكان متسرّبة من أقبية بومبي. ولعلّ هذه وغيرها من المقتنيات الأثيرة هي السبب وراء إحجام السير ويليام عن إطلاع الآخرين عليها، باستثناء أشدّ الأصدقاء المقرّبين.

أثارت حيرتي خزانة منتصبة. لقد خُلعت مقدّمتها، أما باطنها؛ فدُهن باللون الأسود، وأحيط بإطار مذهّب بديع. كانت الخزانة كبيرة بما يكفي لاحتواء إنسان واقف بطوله، وقيل لنا إن هذا هو - بالضبط - المرام المطلوب من هذه الخزانة. فهذا الرجل المُحبّ للفن والفتيات اليافعات، لم يكتف برؤية مثاله للجمال على شكل تمثال حيّ، يتحرّك أمامه، بل كان يحبّ أن يتمتّع بهذه المرأة، بوصفها لوحة متفرّدة، لا نسخة مقلّدة لها، وهكذا كانت الآنسة تقف على خلفية باطن الخزانة الأسود، وهي ترتدي مختلف الفساتين الملوّنة، محاكية بعض الرسوم الرومانية القديمة عن بومبي، أو بعض اللوحات الأحدث، من الأعمال العظيمة. ويبدو أن فترة محاكاة الرسوم قد انتهت، نظراً لصعوبة نقل هذه الخزانة، وإنارتها بالقدر المناسب؛ لذا؛ لم نجد منفذاً للتمتّع بمثل هذا العرض.

يذكّرني ذلك بما نسيتُ أن أحكيه لكم عن سمة أخرى من سمات أهالي نابولي، وهي شغفهم بمشهد ميلاد المسيح، أو ما يسمّى "البريسيبه" presepe (بالإيطالية)؛ حيث يرى المرء، أيام عيد الميلاد، هذا المشهد مجسّداً في كنائسهم كلها. وتتألّف هذه المشاهد من دمى ضخمة، تمثّل

تبجيل الرعاة والملائكة وحكماء المجوس للسيد المسيح. وتُوضع هذه المشاهد المجسّمة فوق سطوح مباني نابولي المبتهجة. وهناك ترتيب من الأضوية يشبه الكوخ ومزدان بالأشجار والأغصان الخضراء. ويحوي كوخ الأضوية هذا على تمثال مريم العذراء، والدة السيد المسيح، والمسيح الرضيع نفسه، وكل الشخصيات الأخرى، وهي تقف أو تعوم، وترتدي الشخوص أزهى الملابس التي تُنفق عليها العوائل مبالغ طائلة. وتُضفي خلفية المشهد. أي جبل فيزوف وكل الريف المحيط. على لوحات تجسيم الميلاد هذه جلالاً، لا يدانيه جلال.

ويبدو أن تصوير هذا المشهد المقدّس كان يجري اعتماداً على شخوص أحياء، استبدلوا، بمرور الزمن، دُمى، وإن هذا التقليد تحوّل، على مرّ الزمن، إلى ضرب من ضروب التسلية لدى الأُسر النبيلة والعوائل الموسرة، التي تقضي الكثير من الأماسي في قصورها؛ لتمثيل المشاهد الدنيوية المستمدّة من التاريخ أو الشعر.

وإذا كان لي أن أعلّق على ذلك، وهو ما ينبغي لأي ضيف أُحسنت معاملته مثلي أن يُحجم عنه، فيتوجّب أن أعترف أن السيدة اللطيفة التي تولّت التسرية عنا مخلوقة باهتة، إن توخّيتُ الصراحة. لعلّ جمال قوامها يعوّض عن ذلك، لكن صوتها يفتقر إلى طلاوة التعبير، وكلامها يخلو من الفتنة. حتّى غناءها خال من عمق الأداء، وخال من الحسن. ولعلّ هذا، آخر المطاف، حال كل جمال بلا روح. هناك بلا شكّ كثرة من البشر ذوي القوام الجميل في كل مكان، لكن البشر المرهفين ذوي الطاقات الصوتية الحسنة أندر، أما اجتماع الاثنين؛ فهو الأندر بما لا منازع.

إنني توّاق لقراءة الجزء الثالث من مؤلّف هيردر. الرجاء أن تحتفظوا لي بالكتاب حتّى أخبركم إلى أي مكان ترسلونه. إنني واثق من أنه أطلق

الرغبة الحالمة الجميلة للبشرية في أن الأمور ذات يوم ستصير على أحسن حال. وإن كان لي أن أجهر برأيي، فاعتقادي أنا الآخر أن البشرية لابد أن تنتصر في المدى البعيد، ولكني أخشى أيضاً، في الوقت ذاته، أن العالم سيتحوّل إلى مستشفى واحد كبير، يعمل فيه كل فرد، بوصفه الممرّض الإنساني للجميع.

٢٨ أيار (مايو)

يُجبرني فولكمان الطّيّب النافع أبداً، على أن أخالفه الرأي بين الحين والآخر. فهو يؤكد، مثلاً، أن ثمّة ثلاثين إلى أربعين ألف كسول، متبطّر، في نابولي، ومَن عساه لا يردّد كلام فولكمان هذا؟! أما الآن بعد أن أحسنتُ الاطّلاع على أحوال الجنوب؛ فأظن أن رأيه هذا لا يزيد عن تحامل رجل قادم من الشمال؛ حيث يعتبر كل مَن لا يزاول عملاً دائباً طوال النهار إنساناً متبطّلاً. حين وصلتُ إلى نابولي، رحتُ أراقب العوامّ في حركاتهم وسَكَنَاتهم، فرأيتُ كثرة كاثرة ممّن لا يتوفّرون على ملابس لائقة، لكني لم أر متبطّلاً واحداً. وسألتُ الأصدقاء أن يدلّوني على الكثرة من المتبطّرين الذين ذكرهم فولكمان، فما وجدوا واحداً؛ ليرشدوني إليه.

ولمّا رأيتُ أن هذا النوع من البحث سوف يتطابق مع جولاتي لمشاهدة المدينة، انطلقتُ بحثاً عن المتبطّرين بنفسي. وكنتُ أبدأ أعمال المراقبة من الصباح الباكر، فكنتُ أصادف، بين الحين والآخر، أشخاصاً جالسين مرتاحين، أو يقفون في الجوار دون القيام بشيء، لكني وجدتُ أن مهن هؤلاء تسمح لهم بمثل هذه الراحة، أو هذا الوقوف في تلك اللحظة.

وابتغاء الحصول على فكرة منصفة وسط هذا الحشد الهائل من الناس، بدأتُ بتصنيف الناس وفقاً للمظهر، والزيّ والسلوك والمهنة. وإن القيام بهذا التصنيف في نابولي لأسهل بكثير ممّا في أية مدينة أخرى؛ لأن

الفرد هناك متروك لشأنه على نحو أكبر؛ بحيث يغدو مظهره الخارجي مؤشّراً اوضح على منزلته الاجتماعية. دعوني أقدّم بعض الأمثلة الإيضاحية إسناداً لقولي هذا.

الحمّالون: يتمتّع كل حمّال بمكانه الخاصّ للوقوف في هذه الساحة أو تلك؛ حيث ينتظر حتّى يظهر مَن يحتاج إلى خدماته.

حوذيّو العربات: يقف كل واحد من هؤلاء مع سائس وصبي جوار عرباتهم ذات الحصان الواحد، في الساحات الكبيرة، معتنياً بالحصان، متهيّأ لتلقّي أي طلب من كل مَن يرغب في الركوب.

البحّارة وصيّادو السمك: تجد هؤلاء قاعدين في المولو، أو راقدين في الشمس؛ لأن الريح المعاكسة لا تسمح لهم بمغادرة الميناء. ورأيتُ في هذه الرقعة عدّة أشخاص غادين رائحين على غير هدى، لكن جلّ هؤلاء يحملون شيئاً ما يدلّ على انشغالهم بعمل ما.

الشحّاذون: إن الشحّاذين الوحيدين الذين رأيتُهم هم شيوخ طاعنون في السنّ، ما عادوا قادرين على العمل، أو معوقون. وكلّما أطلتُ النظر عن كثب، تناقص عدد المتبطّرين الذي كنتُ أبحث عنهم، سواء من بين الطبقات الدنيا، أو الوسطى، شبّاناً وشيباً، ورجالاً ونساء، في الصباح أو في أثناء بقية ساعات النهار.

الأولاد الصغار: ينهمك هؤلاء في أعمال شتّى. هناك عدد كبير منهم ينقل الأسماك من سانتا لوتشيا لبيعها في المدينة. ويشاهد المرء الكثير من الصبيان، الذين تتراوح أعمارهم بين الخامسة والسادسة، أو الأطفال الرضّع الذين ما يزالون يَحبُون على أربعة، قرب مستودع الأسلحة والذخائر، أو جوار ورش النجّارين، يجمعون نشارة الخشب، أو قرب الساحل، يجمعون

العيدان وقطع الخشب الصغيرة التي جرفتْها الأمواج في سلال صغيرة. وحين تمتلئ السلال يتوجّهون بها إلى وسط المدينة، فيقعدون على الأرض خالقين، إن جاز القول، سوقاً لترويج خزينهم البسيط من العيدان والأخشاب. وإن الشغّيلة وذوي العسر يشترون هذه العيدان لاستخدامها في إيقاد الشموع، أو إشعال مواقد المطبخ البسيطة، أو بمثابة فحم للمناقل التي يتدفّؤون عليها.

هناك صبيان آخرون يطوفون في المدينة لبيع الماء المجلوب من ينابيع الكبريت الذي يشربه الناس بكمّيّات كبيرة، خصوصاً في موسم الربيع. ويحاول آخرون الحصول على بضعة قروش من شراء الفاكهة والعسل والحلويات والمعجّنات، التي يبيعونها إلى صبيان آخرين. حتّى يحصلوا على نصيبهم من هذه المتع مجاناً، على الأرجح. ومن المثير حقاً مراقبة مثل هؤلاء اليافعين الذين لا تزيد عدّتهم عن مطواة ولوح خشبي، يحملون عليه بطيخة حمراء أو نصف يقطينة. ويتحلّق الصبيان حول هذا اليافع؛ فيضع لوحه أرضاً، ويأخذ بقطع الثمرة أشيافاً. أما الشارون الصغار؛ فهم متلهّفون متوتّرون متسائلون إن كانوا سيصيبون حصّة كافية لقاء نقودهم النحاسية الصغيرة، أما التاجر الصغير؛ فإنه يأخذ هذه الصفقة بقدر من الجدّ والاحتراس، يوازي ما يبديه زبائنه الجشعون، الذين يحرصون على تجنّب الخديعة حتّى في أصغر قطعة. وإني لواثق أنني لو واصلتُ البقاء هنا؛ لحصدتُ أمثلة وفيرة على عمل الأطفال هذا.

الزبّالون: ينهمك عدد كبير جداً من الناس، بعضهم رجال في منتصف العمر، وبعضهم الآخر أولاد صغار، وكلهم في لباس مُزر، في نقل القمامة على ظهور الحمير إلى خارج المدينة. وإن الضواحي المحيطة بنابولي لا تزيد في الواقع عن مزبلة مطبخ واحدة كبيرة، وإنه لمن المسرّ حقاً أن نرى،

أولاً، المقدار الهائل من الفواكه التي تدخل المدينة في كل يوم من أيام السوق، وأن نرى، ثانية، كيف أن النشاط البشري يلفظ الأجزاء غير النافعة على الفور، ممّا يلقيه الطبّاخون في الحقول للتعجيل بدورة المحاصيل. الحقّ أن أهالي نابولي يستهلكون مقادير هائلة من الفاكهة؛ بحيث إن أوراق وبقايا القنبيط الأخضر، والقنبيط الأبيض، والأرضي شوكي، والملفوف، والخسّ، والفوم، تؤلّف الجزء الأعظم من نفايات المدينة. وهناك عدلان كبيران مرنان، يوضعان على ظهر الحمار، لا يكتفي الزبّالون بملئهما إلى الحافة، بل يكوّمون فوقهما كمّيّة كبيرة من الأزبال، تكويماً فيه قدر من الدهاء المميّز. لا يوجد بستان، يمكن له أن يستمرّ من دون حمار. وهناك - دوماً - صبي، أو شغّيل زراعي، أو حتّى المزارع نفسه، يهرع إلى المدينة قدر ما يستطيع من المرّات في اليوم لجمع النفايات، فهي بالنسبة لهؤلاء منجم ذهب حقيقي. ولكم أن تتخيّلوا مدى حرص جامعي الأزبال هؤلاء على جمع المتساقط من روث البغال والخيول. ويعزف هؤلاء عن مغادرة الشوارع عند حلول الليل، وإن الأثرياء الذين يغادرون دار الأوبرا بعد منتصف الليل لا يعرفون، على الأرجح، بوجود رجال مجدّين يعملون، قبل انبلاج الفجر، على اقتفاء أثر خيولهم بعناية بالغة.

وأخبرني البعض أن قسماً من هؤلاء الناس يتوصّلون، في أحيان غير قليلة، إلى عقد شراكات، واستئجار قطعة أرض صغيرة، وتحقيق نجاح كبير في زيادة أرباحهم بعمل، لا يكلّ في هذا الطقس البديع، الذي لا تنقطع فيه النباتات عن النمو.

الباعة الجوّالون وسواهم: يطوف البعض ببراميل صغيرة من الماء المثلّج والليمون والأقداح، حتّى يقدّموا عصير الليمون عند الطلب، وهو شراب، لا يسع حتّى أفقر الناس أن يستغني عنه. ويحمل آخرون صواني حافلة بشتّى

أنواع الشراب، والأقداح المستدقّة المثبتة في حلقات خشبية لحمايتها من الكسر. وهناك آخرون يحملون سلالاً، تحوي مختلف أنواع المعجّنات، أو الليمون، أو غير ذلك من الثمار. ويبدو أن لا هَمّ لهؤلاء جميعاً سوى أن يُسهموا في قسطهم لإشاعة روح البهجة والاحتفاء اليومي.

هناك باعة صغار آخرون يتجوّلون عارضين سلعهم على لوح خشبي، أو على غطاء صندوق، أو مرتّبة في مربّع على الأرض العارية. إنهم لا يتعاطون، خلافاً للدكاكين، بيع صنف واحد من السلع، بل يعرضون خليطاً متنوّعاً من الخردوات، بالمعنى الدقيق للكلمة. فما من قطعة حديد خردة، أو قطعة جلد أو قماش، أو فلّين، أو ملابس، إلا وتظهر في سوق الموادّ المستعملة، وهي ممّا لا يمكن شراؤه من بائع محدّد.

أخيراً، هناك أشخاص من طبقة أدنى يعملون عند هذا التاجر أو ذاك الحرفي كصبيان للخدمة المؤقّتة أو الكدح المتّصل.

صحيح أن المرء لا يخطو أكثر من خطوات معدودات؛ ليصادف امرءاً مسكيناً، أو فرداً معدماً، لكن ذلك لا يعني أن هذا المرء أو الفرد متعطّل، أو شخص لا يصلح لشيء. على العكس، يمكن لي القول، رغم ما يشوب هذا القول من مفارقة، إن الطبقات الفقيرة هي الطبقات الأكثر كَدّاً في نابولي.

إن معنى كلمة "العمل" هنا يختلف عن معنى الكلمة نفسها في الشمال؛ لأن الطبيعة في الشمال ترغم الناس على تهيئة المؤن اللازمة، ليس للغد أو الساعة القادمة فحسب، بل للمستقبل البعيد، والاستعداد لكل طارئ في الطقس الحَسَن أو الرديء، في الصيف أو الشتاء. ويتوجّب على ربّات البيوت، عندنا، إعداد اللحم المدخّن حتّى يتوفّر المطبخ على مؤونة عام كامل؛ ويتوجّب على الزوج أن يهيّئ مخزوناً كافياً من الحطب والحبوب وعلف الماشية، وما شاكل. ونتيجة لذلك، لا يمكن تبديد أفضل

النهارات وأحلى الساعات في اللهو والتسرية، بل تُكرِّس هذه للعمل. وعلى امتداد أشهر عديدة، لا يمكن لنا الخروج من منازلنا إلا اضطراراً، ونمكث في المنازل اتّقاء للمطر والجليد والبرد. وتتعاقب الفصول في دورة متّصلة، ويتوجّب على الجميع إمّا الانهماك في تدبير شؤون الأسرة، أو الوقوع في العوز. ومن غير المعقول أن نسأل: هل يحبّ ذلك؟ إذ إنه مرغم على أن يحبّ ذلك. فلا خيار عنده؛ لأن الطبيعة ترغمه على العمل الشاقّ وبُعد النظر. لا ريب في أن البيئة القومية التي بقيت على حالها دون تغيّر خلال الألفيات، قد بلورت شخصية أمم الشمال الجديرة بالإعجاب من نواح عدّة. ولكنْ؛ لا يجوز لنا أن نحكم على أمم الجنوب، التي حَبَتْهَا السماء بالخير، وفقاً لمعاييرنا. وإن ما قاله كورنيليوس فون باوف، بشيء من التهوّر، عند حديثه عن الفلاسفة الكلبيين في مؤلّفه "أبحاث في فلسفة الإغريق" (بالفرنسية)، ينطبق تماماً على مقولتي.

يقول فون باوف، إن من الخطأ النظر إلى الكلبيين، بوصفهم أناساً بائسين، لأن قرارهم في نبذ المسرّات(*) يتّفق مع مناخ، أمدّهم بكل ضرورات العيش. إن الفقير هنا، الذي نعدّه إنساناً تعيساً في بلادنا، يستطيع أن يُشبع حاجاته الأساسية، وأن يتمتّع في الوقت نفسه بالدنيا على أكمل ما يكون، وأن ما يسمّى بالشحّاذ النابولي قد يرفض حقاً أن يصبح ولي عهد النرويج، أو يرفض شرف تعيينه حاكماً لسايبيريا، بمرسوم من إمبراطورة كل الروس.

وكُلّي يقين من أن أي فيلسوف كلبي سيجد أن العيش في بلادنا لا يُطاق؛ كما أن الطبيعة، من جهة أخرى، دعتْه إلى العيش في الجنوب، إن جاز القول. إن المعوز هنا ليس عارياً، ولا الفقير دون لقمة للغد.

---

*) الكلبيون فلاسفة يونانيون رأوا أن الخير هو الفضيلة الأسمى، وإن ضبط الأهواء هو خير سلوك في الحياة.

وقد لا يحظى هذا بمنزل أو مأوى، وقد يمضي ليالي الصيف تحت مظلّة سقف منزل من المنازل، أو في مدخل قصر، أو كنيسة، أو بناية عمومية، أما حين يسوء الطقس؛ فتجده يلتمس مأوى، ينام فيه لقاء مبلغ تافه، لكن ذلك لا يجعل منه شريداً تعيساً. وحين يفكّر المرء في وفرة الأسماك والكائنات البَحْريّة ممّا توفّره المحيطات (وهو الطعام الموصوف أيام الصيام كل أسبوع)، ووفرة وتنوّع الثمار والخضار في كل المواسم والفصول، وحين يتذكّر المرء أن المنطقة المحيطة بنابولي تسمّى بحقّ "تيرا دي لافورو" وهذا لا يعني: أرض العمل، بل أرض الفلاحة)(*) وإن كامل مقاطعة نابولي قد كُرِّمت على مدى قرون بلقب "كامبانيا فيليتشي"؛ أي "الأرض السعيدة".

فإن المرء يتوصّل إلى فكرة واضحة عند مدى يُسر الحياة في هذه الأرجاء.

ينبغي لشخص ما أن يحاول كتابة وصف مفصّل حقاً لنابولي، على ما يتطلّبه ذلك من أعوام من المراقبة، وقدر غير قليل من الموهبة. ولو توفّر ذلك؛ لأدركنا أمرين: أولاً أن مَن يسمّون بالمتعطّلين (Lazzarone) ليسوا أقلّ انشغالاً من أية أنفسهم: بل إنهم يرغبون في أن يكون عملهم نوعاً من الاستجمام. وهذا يفسّر طبقة أخرى، وثانياً، أن هؤلاء جميعاً يعملون ليس لمجرّد العيش، بل لكي يمتّعوا أموراً عدّة: فهو يفسّر، مثلاً، سبب تخلّف الحرفيين عندهم عن حرفيي الشمال، في معظم أنواع الحرف التي تتطلّب العمل الماهر، وسبب إخفاق المصانع، وسبب قلّة التعلّم والثقافة، باستثناء المحامين والأطباء، قياساً إلى حجم السكان، وسبب عجز مدرسة نابولي عن تقديم رسّام واحد عميق أو عظيم، وسبب تعاظم سعادة الكَهَنُوت هنا بتناقص عملهم، وسبب مَيل معظم الكبار لإنفاق

---

*) حرفياً: تيرا دي لافورو تعني أرض العمل أو الكَدّ، لكن العمل في نابولي يعني الفلاحة.

المال على الأبّهة والبذخ، والشراب والملذّات الحسّيّة. أعرف، بالطبع، أن هذه التعميمات مرتجلة، وأن الخصائص المميّزة لكل طبقة لن تُشخَّص بدقة إلا بعد فَحْص متأنّ وثيق، واحتكاك مديد، لكني أعتقد أن هذه التعميمات تبقى صحيحة على وجه الإجمال.

لنعد إلى العوامّ ثانية. إنهم أشبه بالأطفال، فحين يسند المرء إليهم عملاً يؤدّونه، فإنهم يعاملونه بوصفه عملاً، ولكنهم يرون فيه، في الآن ذاته، فرصة للهو. إنهم أناس حيويون منفتحون دقيقو الملاحظة. وقيل لي إن كلامهم حافل بالصور، وإن فطنتهم ثاقبة. ولا عجب أن المسرحيات الهزلية القديمة (Atellanae Fabulae) كانت تُعرض في جوار منطقة نابولي، وإن حكايتهم المحبوبة: المهرّج البدين، هي الخلف الذي انحدر من أرومة هذه المسرحيات الهازلة.

ويقول بليني في الفصل الخامس من المجلّد الثالث لكتابه: التاريخ الطبيعي، إن كامبانيا جديرة بالوصف المسهب.

"ترى بأية كلمات نصف ساحل كامبانيا مأخوذاً بذاته، بما يمتاز به من لطف سماوي مبارك؛ لكي نبرهن أن هناك رقعة واحدة، عملت فيها الطبيعة بمزاج بهيج! فهناك كل تلك العافية المنشطة على مدار السنة كلها، وهناك الطقس المعتدل، والسهول الخصيبة، والتلال المشمسة، وفضاءات الغابات الآمنة، والأجمات الظليلة! يا لهذا الثراء بالغابات على أنواعها! ويا لأنواع النسيم من هذه الكثرة من الجبال! ويا لذلك الخصب العظيم لحقول الذرة والكروم والزيتون! ويا لصوف خرافها! ويا لقوّة رقاب ثيرانها! ويا لكثرة بحيراتها، وغزارة أنهارها وينابيعها المتدفّقة الجارية، على سطوح الأرض! ويا لكثرة بحارها وموانيها! ويا لرحابة صدر برّها الذي يستقبل التجارة من كل الجهات! ويا لتوق البلاد نفسها المشبوبة لملاقاة

البحار، ابتغاء إسداء العون إلى البشرية، إن جاز القول. إنني لا أتحدّث هنا عن طباع وعادات أهلها، ورجالها، أو الأمم التي قهرتْها بلغتها وجبروتها.

وإن الإغريق أنفسهم، وهم شعب مَيّال للافاضة في امتداح النفس، أصدروا حكمهم على هذه البلاد بأن أغدقوا على جزء صغير منها لقب: "الإغريق العظمى."(*)

٢٩ أيار (مايو)

ولعل أبدع مسرّات نابولي هي المباهج الشاملة. فالأزهار والثمار ذات الألوان العديدة التي تتزيّن بها الطبيعة تحضّ الناس على تجميل أنفسهم، وما يحيط بهم بأكبر قدر من الألوان المتلألئة. وتجد الناس يزيّنون قبّعاتهم بالوشاح أو الشريط أو الأزهار الملوّنة، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. وتجد أفقر البيوت تدهن الكراسي والخزانات بألوان أزهار برّاقة على أرضية مذهّبة؛ بل إن العربات ذات الحصان الواحد مدهونة باللون الأحمر القاني، أما أقواس هيكلها الخشبي؛ فمطلية بلون ذهبي؛ كما أن أعراف الجياد مزيّنة بأزهار اصطناعية، وأشرطة وشراشيب لمّاعة. بل إن رؤوس الجياد مزدانة بريش ملوّن، أو ببيرق مثلّث الشكل، يتطاير عند الخبب.

نحن نميل في العادة إلى النظر لحبّ الألوان المبهرجة على أنه نوع من نزوع بدائي، أو ذوق فاسد، ونفعل ذلك - في الغالب - لسبب وجيه؛ أما تحت سماء نابولي الزرقاء؛ فلا شيء يبدو مبهرجاً أكثر من اللازم، إذ ما من شيء يفوق الشمس أو انعكاسها على صفحة البحر سطوعاً وتلألؤاً. فأقوى الألوان لمعاناً يخبو تماماً بإزاء نور الشمس الباهر، وخضرة الأشجار والنباتات؛ وإن التربة الصفراء والبنّية والحمراء تطغى بقدر يكفي لامتصاص

---

*) Historia Naturalis نقلاً عن ترجمة: مكتبة لوب الكلاسيكية، المجلّد الثالث، الفصل الخامس، ص ٤٠ ـ ٤٢.

ألوان الأزهار شديدة اللمعان؛ ليذيبها ذلك، تبدو وكأنها تتنافس على الانتباه البصري وسط مشهد السماء والبحر المذهل في تناغم شامل. وإن التنانير والصداريات القرمزية ذات الحوافّ المذهّبة أو المفضضة، ممّا ترتديه النسوة في نيتونو، والقوارب المدهونة بألوان شتّى، وغير بروعته.

وعلى غرار ما يعيشون، يدفنون الأموات، فما من جنازة متّشحة بالسواد بطيئة المسير، تُفسد تناسق هذا العالم البهيج. رأيتُ أناساً يحملون نعش طفل إلى مثواه الأخير. كان التابوت مَخفياً عن الأنظار بقماشة حمراء قانية مطرّزة بخيوط ذهبية، أما التابوت الصغير نفسه؛ فكان مزيّناً بالنقوش الذهبية، ومغطّى بأشرعة وردية اللون، وعند كل زاوية من زواياه الأربع ثمّة تمثال ملاك بارتفاع قدمين، يحمل إكليل زهر فوق الطفل المسجّى، الذي يرقد في حلّة بيضاء. ولمّا كانت تماثيل الملائكة الصغار مثبتة في موضعها بأسلاك، فقد كانت تهتزّ باهتزاز النعش، ناشرة فوح الزهور في كل صوب. ولعلّ السبب وراء خبب هذا الموكب الجنائزي على طول الشارع بمثل هذه السرعة، أن القسّ وحاملي الشموع على رأس الجنازة كانوا يهرولون عوض أن يسيروا سيراً وئيداً.

وليس ثمّة موسم لا يجد المرء فيه نفسه محاطاً بكل أصناف الطعام من كل حدب وصوب. فالنابولي يتمتّع بطعامه، ويصرّ على وجوب عرضه للبيع عرضاً جذّاباً. وتجد السمك في سانتا لوتشيا مرصوفاً على طبقة من الأغصان الخضراء، وإن كل صنف من أصناف البَحْريات. من القواقع الصغيرة، إلى القواقع الكبيرة، إلى القريدس والبطلينوس، وما شاكل. يرقد في سلّة صغيرة نظيفة خلوة خاصة. ولكنْ؛ لا أروع من ترتيب عرض اللحم والعناية به، خصوصاً وإن العوامّ يشتهونه اشتهاء خاصاً، نظراً لأن الصيام الدوري يحفّز الشهية.

وتجد في حوانيت القصّابين أرباعاً من لحم البقر والعجل أو الضان، لا تُعلَّق من دون تزيين المواضع الدهنية من الأجناب والأفخاذ مزيّنة بألوان ذهبية.

وهناك عدّة أيام في السنة، وبخاصة أعياد الميلاد، تشتهر بالعربدة والنهم. وتُعقد في هذه المناسبات حفلات عامة، تسمّى الكوكانيا: أي البركة Cocagna (بالإيطالية)، ويشترك فيها نحو خمسماية ألف إنسان؛ حيث يقسم كل فرد فيهم على أن يبزّ الآخر. ويزدان التوليدو والشوارع والساحات الأخرى بكل ما يثير الشهية: الفاكهة، والزبيب، والبطيخ الأحمر، والتين، تُوضع تلالاً أمام الحوانيت؛ وهناك أشكال ضخمة من النقانق المذهّبة المربوطة بأشرطة حمراء، والديكة المسمّنة التي غُرزت أعلام حمراء في أفخاذها، وهي جميعاً مُعلّقة في حبال من الزهور فوق رؤوس المارّة في الشوارع. وأكد البعض لي أن نحو ثلاثين ألفاً من هذه المأكولات قد بيعت، عدا عن النقانق والديكة التي أُعدّت في البيوت. وهناك حشود من قطعان الحمير المحمّلة بالفاكهة والديكة والحملان تتّجه إلى السوق، كما أن هناك تلالاً، لم أشهد لها مثيلاً من البيض في مواضع شتّى.

ولا يكتفي النابوليون بالتهام ذلك كله، بل إن شرطياً يجوب بصحبة المنادي شوارع المدينة كل عام؛ ليعلن للملأ، في كل ساحة وعند كل مفترق طرق، كم ألفاً من الثيران والعجول والحملان والخنازير، وسواها، استهلك أهل نابولي. ويهتف الجمهور مبتهجاً أيمّا ابتهاج بالأرقام الكبيرة، فيذكر كل واحد منهم في غبطة كبيرة نصيبه من هذا الاستهلاك.

وبقدر ما يتعلّق الأمر بأطباق الدقيق والحليب، فإن طبّاخنا الماهر يُبدع في إعدادها في العديد من الطرق المتباينة، رغم أن الناس هنا يفتقرون إلى مطابخنا حسنة التجهيز، ويحبّذون اختصار وقت الطهي،

وأن هذه الأطباق تنقسم إلى صنفين. هناك المعكرونة، التي تُصنع عجينتها من الدقيق الناعم، الذي يُعجن ويُداف في أشكال شتّى، ثمّ يُسلق، ويمكن شراؤه أينما كان، بل في سائر المحلات والدكاكين بمبلغ زهيد. وهم يطبخون المعكرونة، عادة، بالسلق، ويتبّلونها بمبروش الجبن. وهناك، إلى جانب ذلك، في كل زاوية من زوايا الشوارع الرئيسية، طبّاخ الحلويات، الذي يقف إزاء المقلاة التي تئزّ بالزيت المغلي، ويعمل دون انقطاع، وبخاصة أيام الصوم؛ ليقلي أنواع الحلويات، أو أنواع السمك لكل زبون على الواقف. وإن مبيعات هؤلاء عجيبة؛ لأن الآلاف المؤلّفة من الناس تحمل وجبة غدائها أو عشائها منهم إلى بيوتها، وهي وجبة ملفوفة بقطعة ورق صغيرة.

٣٠ أيار (مايو)

إطلالة على الليل من المولو. القمر يضيء حواشي الغيم، وينعكس ضياؤه على صفحة البحر المتموّج برقّة؛ كما يشتدّ بريق انعكاسه النابض على انحناءات أقرب الموجات. ثمّة أضوية نجوم ومصابيح الفنارات، ولهيب جبل البركان: فيزوف المنعكس على صفحة الماء، إضافة إلى أضوية متفرّقة، تنبجس بين القوارب. يتعذّر رسم مشهد متعدّد الأبعاد كهذا. كم أتمنّى أن أرى الفنان فان ديرنير يعالج هذا الموضوع.

٣١ أيار (مايو)

كُلّي عزم على رؤية عيد القربان في روما، والسجف المحاكة وفق تصاميم رافاييل؛ بحيث لن يغويني أي جمال طبيعي عن الاستعداد إلى المغادرة.

طلبتُ جواز سفري. إن العادة هنا هي نقيض الجاري عندنا؛ فالسائس (بالإيطالية) أعطاني مبلغ الوديعة ضماناً لسلامة الوصول.

انشغل كنيب في الانتقال إلى مسكن جديد أفضل من سَكَنه القديم. وألمح إليّ، في أثناء هذا الانتقال، أكثر من مرّة، أن من الشاذّ هنا، بل من المعيب، أن ينتقل المرء إلى مسكن جديد من دون أن يجلب معه بعض قطع الأثاث. وأن جلب هيكل سرير لا غير من شأنه أن يُكسب احترام المؤجّر. لاحظتُ اليوم، في أثناء عبوري لارجو ديل كاسيكو، العديد من قطع الأثاث المنزلي المستعمل؛ هناك زوجان من هياكل سرير حديدي مدهونان بلون برونزي. فاصلتُ في سعر هذين، واشتريتُهما لصديقي كأساس قادم لمستقرّ هادئ ثابت. حمل أحد العتّالين الكثار في هذه الأنحاء، هيكل السريرين، إضافة إلى ألواح الخشب الأنيقة، إلى مسكن كنيب الجديد. فرح كنيب بذلك فرحاً كبيراً، دفعه إلى أن يتركني، ويسرع إلى مستقرّه الجديد بعد شراء عدد من ألواح الرسم الكبيرة والورق واللوازم الأخرى. وأعطيتُه، حسب اتفاقنا، عدداً معيّناً من التخطيطات التي رسمها في الصقليتين.

١ حزيران (يونيو)

وصل الماركيز لوكيسيني(*)، فأرجأتُ سفري أياماً عدّة بناء على طلبه. كان التعرّف إليه مَبعث سعادة حقيقية. لقد أثار إعجابي بوصفه واحداً من أولئك الناس الذين يمتلكون مقدرة معنوية كبيرة على الاستيعاب والهضم بما يتيح لهم أن يُمتّعوا أنفسهم بأطايب وليمة الدنيا الكبيرة، أما أمثالي؛ فإنهم يفرطون في الطعام مثل حيوان مجترّ، يضطر، بعدئذ إلى أن يلوك ويلوك المرّة تلو الأخرى، قبل أن يتسنّى له تناول لقمة أخرى. كما أُعجبتُ بزوجته كثيراً؛ إنها روح ألمانية طيّبة.

سوف أُسعد بمغادرة نابولي؛ ولابدّ لي من المغادرة حقاً. لم أفعل شيئاً خلال هذه الأيام الماضية سوى القيام بزيارات مجاملة. إن معظم

*) الماركيز لوكيسيني وزير دولة في بروسيا، قدم إلى إيطاليا في مهمّة دبلوماسية.

الذين التقيتُهم أناس لطفاء مثيرون للاهتمام، ولستُ نادماً على الساعات التي قضيتُها في صحبتهم، لكن البقاء هنا أسبوعين آخرين سيقضي على كل مشاريعي. زد على هذا، كلّما طال المقام بالمرء هنا، قوي مَيله إلى الكسل. وباستثناء كنوز بورتيتشي، لم أشاهد سوى القليل منذ عودتي من باستوم. هناك الكثير ممّا يتوجّب أن أراه، لكني لا أشعر بأن لديّ المزاج الكافي للتحرّك قيد أنملة. إن متحف بورتيتشي هو ألف وياء كل أثريات العصور القديمة. وهو يدفع المرء إلى أن يدرك مدى عظمة وتفوّق العالم القديم علينا نحن المحدثين من حيث الفطرة الفنية، رغم أن العالم القديم كان متخلّفاً عنا بكثير من ناحية المهارة الحرفية.

أعرب الخادم الذي استأجرتُه لجلب جواز سفري عن أسفه لمغادرتي، وأخبرني أن سيل الحمم التي تدفّقت لتوّها من بركان فيزوف تتدفّق في اتجاه البحر، وقد بلغ السيل المنحدرات العميقة، وقد يصل إلى الساحل في بضعة أيام. وضعني هذا النبأ في حيرة مستغلقة. كنتُ قد قضيتُ سحابة النهار في زيارات توديع ملزمة لمَن أدين له بالجميل؛ فهناك الكثير ممّن أحسن إليّ، وأعانني، وبوسعي أن أخمّن ما سيكون عليه حالي في الغد. يصعب تحاشي الواجبات والحياة الاجتماعية في أثناء السفر، لكن الحقيقة تفيد أنني عاجز عن أن أفعل شيئاً لكل هؤلاء الناس، وهم يقفون حجر عثرة في طريق الأمور التي تهمّني حقاً. ها أنذا أغرق في القنوط.

١ حزيران (يونيو)، المساء

لم تكن زيارات الشكر التي قمتُ بها خالية من المسرّة أو الفائدة؛ فلقد كانت فرصة لأرى أشياء عديدة كنتُ قد أغفلتُها. بل إن الفارس كافليري فينوتي أطلعني على بعض كنوزه الخبيئة. ألقيتُ نظرة إجلال على قطعته: أوليسيس، وهي قطعة لا تُقدّر بثمن، وإن كانت مقطّعة الأوصال. وتوجّهنا

معاً لتوديع أعمال الخزف؛ حيث أطلتُ الوقوف عند هرقل، وعند آنية الزهور الإيطالية الجنوبية.

لكم أبدى من المحبّة في أثناء الفراق، وقال أن لا رغبة لديه سوى ألا أضطر للمغادرة قريباً. أما المصرفي الذي أتعاطى معه، والذي قصدتُ منزله وقت العشاء، فأصرّ على استبقائي. وما كان في البقاء أي ضير، لولا أن أفكاري تسرح مع سيل الحمم البركانية طوال الوقت. ما إن فرغتُ من تسوية حسابات الفواتير، وحزم الأمتعة، وإنجاز هذا وذاك، حتّى أرخى الليل سدوله، فأسرعتُ إلى المولو لمراقبة الأضوية بانعكاساتها المتذبذبة في صفحة البحر المستثار، بينما كان القمر بدراً في كامل مجده. أما الشرر المتطاير من فوهة البركان، وسيل الحمم التي لم تكن موجودة قبل ليلتين لا غير؛ فكانت تمضي في طريقها الناريّ بلا هوادة.

فكّرتُ في امتطاء عربة للاقتراب من السيل بغية مشاهدته عن كثب، لكن ترتيب ذلك صعب بعض الشيء؛ إذ لن أبلغ الموضع المطلوب إلا في الصباح. زد على هذا أني ما أردتُ لفراغ صبري أن يُفسد عليّ متعة المراقبة الحالية، فقرّرتُ البقاء، وبقيتُ فعلاً في المولو، غافلاً عن حشود المارّة، وحكاياهم، وآرائهم، ومقارناتهم، ومجادلاتهم العقيمة عن الاتجاه الذي سيأخذه سيل حمم البركان، حتّى لم أعد أقوى على أن أفتح جفني.

٢ حزيران (يونيو)

يوم رائق آخر أقضيه في النافع والمفرح من الأمور، بصحبة أناس رائعين من دون أدنى ريب، ولكنْ؛ خلافاً لإرادتي وبقلب مثقل بالهمّ. كنتُ أطيل النظر، طوال الوقت، في سحابة الدخان، وهي تتحرّك في بطء نحو البحر، مشيرة، ساعة بساعة، إلى حركة الحمم البركانية. ولم أفرغ حتّى خلال

المساء. كنتُ قد وعدتُ بزيارة دوقة جيوفينا التي تمكث في القصر الملكي. ارتقيتُ سلّم القصر، ومضيت عبر أروقة عدّة، تعترض أعلاها خزانات ودواليب، وكل لوازم حفظ ملابس بلاط ملكي، حتّى أوصلني الحاجب إلى غرفة فسيحة عالية السقف، لكنها لا تتميّز بديكور أخّاذ. هناك وجدتُ السيدة الشابّة الجذّابة، التي يتكشّف حديثها عن شخصية مرهفة مهذّبة. وُلدت الدوقة في ألمانيا، وهي على معرفة بتطوّر الأدب الألماني في اتجاه نزعة إنسانية أكثر تحرّراً، وأجلى رؤية. وهي معجبة إعجاباً خاصاً بما يدبّجه "هيردر"، مثلما هي معجبة بذكاء "كارف" الثاقب. لقد سعت إلى متابعة النساء الكاتبات في ألمانيا، ويتّضح ممّا قالته إنها تودّ أن تصبح هي نفسها كاتبة شهيرة، تؤثّر على السيدات الشابّات ذوات الأرومة النبيلة. إن مثل هذا الحديث يدور بلا بداية ولا نهاية. ولم يجلب الخَدَم أية شموع رغم أن النوافذ كانت مغلقة، والشمس في شفق المغيب. كنا نتحدّث ونحن نذرع الغرفة جيئة وذهاباً، حين اندفعت الدوقة فجأة؛ لتفتح إحدى درفات النوافذ. إن كانت تقصد بذلك مباغتتي بمفاجأة، فقد أفلحت بكل تأكيد، فالمشهد الماثل هناك هو ممّا لا يراه المرء إلا مرّة واحدة في العمر. كانت النافذة التي نقف عندها تقع في الطابق العلوي، بإزاء بركان فيزوف. كانت الشمس قد مالت إلى الغروب قبل وقت قليل، أما وهج الحمم الذي يضيء سحب الدخان المرافقة؛ فواضح لعين الرائي. هدر جبل البركان، وقذف عموداً هائلاً من الدخان، تفجّر في أعلاه مثل برق الغيوم، فبدت غيوم الأبخرة المتبدّدة مثل منحوتات ناتئة. وتدفّقت من قمّة الجبل إلى البحر سيول من الحمم الذائبة، والأبخرة المتوهّجة، أما سائر الأشياء من البحر والبرّ إلى الصخر والنبات؛ فكانت ترقد ساكنة في هدوء فاتن في ذلك المساء الرائق، بينما ارتفع البدر المكتمل من وراء سلسلة الجبل. يا له من مشهد يخلب الألباب!.

ورغم صعوبة التقاط كل التفاصيل هذه اللوحة، فقد كان بوسعنا أن نرى الكل في لمحة صغيرة، من حيث كنا واقفين. بقينا نراقب المشهد في صمت، لبعض الوقت، وحين استأنفنا الحديث، اتّخذ مساره وجهة حميمية أكثر. فها هنا يسطع أمام أنظارنا نصّ، يوجب التعليق، نصّ تعجز عن إيفائه حقّه من الوصف حتّى في ألف عام. وباشتداد ظلمة الليل، ازدادت كل تفاصيل المشهد وضوحاً؛ وبزغ القمر مرسلاً ضياءه، كما لو كان شمساً ثانية؛ واستعنت بعدسات مكبّرة نوعاً ما، فخُيّل إليّ أني أرى شظايا الصخر المتوهّج، وهي تنقدف من أولئكأعماق فوهة البركان. أمرت مضيفتي، وهذا ما سأطلقه عليها بعد أن تناولنا عشاءً فاخراً نادراً بحقٍّ، بجلب الشموع، ووضعها في جانب من الغرفة بعيداً عن النافذة. كانت تقف هنا في مقدّمة هذه اللوحة المذهلة، والقمر ينير وجهها بضيائه، فبدت أجمل وأجمل، وزاد من بهائها اللغة الألمانية البديعة التي كانت تلهج بها. نسيتُ تماماً أن الوقت قد تأخّر بنا تماماً، فطلبتْ مني أخيراً أن أغادر قبل أن تُغلق أبواب القصر، كما في أي دير. وهكذا ودّعتُ الجمال الداني والنائي، على مضض مني، وباركتُ المقادير التي كافأتني، في الختام، هذه المكافأة البديعة بقضاء يوم، أمضيتُه في أدب جمّ خلافاً لإرادتي.

وحين غادرتُ القصر، قلتُ في دخيلتي، إن إلقاء نظرة قريبة على مسيل الحمم الكبير لن يكون سوى تكرار لما رأيتُه من حمم صغيرة، وإن المساء الذي قضيتُه هو الخاتمة الوحيدة المناسبة لمكوثي في نابولي. عوض التوجّه إلى المنزل، بدأتُ السير في اتجاه المولو ابتغاء رؤية المشهد الكبير على خلفية مغايرة. لا أدري كيف حصل ذلك، لكني غيّرتُ رأيي، وعدتُ إلى فندق ماركوني، لعلّ ذلك بدافع الإعياء بعد هذا النهار الممتلئ، أو لعلّه إحساس بأن عليّ ألا أُفسد الصورة الجميلة التي تمتّعتُ بها قبل قليل

بإطالة المشاهدة. وجدتُ كنيب هناك، والذي عاد من مسكنه الجديد؛ ليزورني في المساء. بحثنا مسقبل علاقاتنا على قنّينة من النبيذ. وعدتُه أن أعرض بعض أعماله في ألمانيا، وأن أوصي به دوق جوتا، الذي يرجّح أن يكلّفه ببعض الأعمال، ثمّ تبادلنا كلمات الوداع كأصدقاء حميمين، يتوقون إلى التعاون المثمر في المستقبل.

٣ حزيران (يونيو)، آحاد الثالوث الأقدس

مضيتُ في العربة من خلال الحشود المؤلّفة في هذه المدينة التي لا نظير لها، والتي قد لا أراها ثانية، وأنا شبه دائخ، ولكني سعيد؛ لأني لم أخلفّ ورائي ألماً، أو ندماً. فكّرتُ في صديقي الطّيّب كنيب، وأقسمتُ أن أسعى له بكل ما أُوتيتُ من عزم حين أكون بعيداً.

عند آخر محطّة للشرطة في ضواحي الأحياء النائية، أفزعني للحظة مرأى نادل، ابتسم بوجهي، وفرّ راكضاً. لم يكن مفتّشو الجمارك قد فرغوا من أمر حوذي مركبتي، حين انفتح باب المقهى؛ ليخرج منها كنيب حاملاً صينية، في وسطها كوب خزفي كبير من القهوة السوداء. تقدّم في بطء إلى باب مركبتي، وقد ارتسم على قسماته تعبير جاد، يعكس شخصيته الحقّ، بعمق مشاعره القلبية. دُهشتُ، وتأثّرتُ: نادراً ما يصادف المرء بادرة امتنان ملموسة كهذه. قال لي: "لقد كنتَ بالغ العطف وبالغ الحنو معي، إلى درجة أنني سأظل أتذكّرك طوال حياتي، وأودّ أن أقدّم لكَ هذه القهوة رمزاً لامتناني."

لا أعرف ما أقول، عادة، في مثل هذه المناسبات، فاكتفيتُ بأن أقول في اقتضاب أن العمل الذي قام به جعلني أنا المَدين له، وإن افادتي من كنزنا المشترك سيزيد شعوري بالواجب إزاءه، على نحو أعظم.

وافترقنا في ألم عظيم نادراً ما يصيب رجلين، ألقت بهما المصادفات معاً في حومة فترة وجيزة. ولعلّنا سوف نستمدّ المزيد من الغبطة والامتنان في حياتنا، إن دأبنا، على الدوام، على أن نُفصح باخلاص عمّا ننتظره من بعضنا البعض. فإن فعلنا ذلك، أصاب الطرفان الرضا، وينبغي أن نتعاطف معاً في هذا الاتّفاق، فالتعاطف هو بادئة ومنتهى كل شيء.

على الطريق، ٤ و٥ و٦ حزيران (يونيو)

لمّا كنتُ أسافر وحدي هذه المرّة، فقد توفّر لي متّسع من الوقت للتأمّل في كل ما رأيتُ وفعلتُ خلال الأشهر الماضيات، وإنني لأغرق في هذا التأمّل بمتعة عظيمة. ويقودني هذا، في الوقت ذاته، إلى أن أعي الفجوات في ملاحظاتي. حين تنتهي رحلة من الرحلات، فإن الرحّالة ذاته يتذكّرها كمسلسل متّصل من الأحداث، التي لا ينفصل الواحد منها على الآخر. أما حين يسعى إلى وصف هذه الرحلة لشخص آخر؛ فإنه يجد إيصال هذا الترابط مستحيلاً؛ لأنه لا يستطيع أن يقدّم الأحداث إلا بوصفها وقائع منفصلة، الواحدة بعد الأخرى.

لهذا السبب، أفرحني قولكم في رسائلكم الأخيرة إنكم انشغلتُم في مطالعة أدب الرحلات عن إيطاليا وصقلية، وفي مشاهدة الرسوم المحفورة على الخشب؛ ولعلّ أكبر ما يشيع السرور في النفس أن أعلم أن قراءاتكم هذه أنارت رسائلي، فباتت أوضح، مثلما كنتُ أتوقّع.

ولو كنتُم قد فعلتُم ذلك قبلئذ، أو أبلغتُموني بعزمكم سَلَفَاً، لزاد عنفوان جهودي عمّا كانت عليه. إن إدراكي المسبق بأن رجلاً من طراز بارتيلز، ومونتر، أو معماريين من شتّى الأوطان سبقوني إلى هذه الرحلة. وهم رجال واظبوا على أبحاثهم بدقّة وموضوعية أكبر مني بلا أدنى ريب،

رجال كانوا يركّزون البصيرة على المغزى الباطني للأشياء المدروسة. قد هدّأ روعي، وأراح بالي، كلّما وجدتني مرغماً على الاعتراف، بما يعتور جهودي من نقص.

وإذا كنا نرى في كل فرد من البشر بوصفه جزءاً مُكمّلاً لكل الآخرين، وإذا كان هذا الفرد لا يُعدّ نافعاً ومحبوباً إلا بمقدار ما يرضى بلعب هذا الدور المكمّل، فإن ذلك ينطبق انطباقاً عملياً على الرحّالة وكتّاب أدب الرحلات بوجه خاص. وإن الشخصية والغرض، والزمان، وفرص الحظ، أو النحس، تختلف من رحّالة إلى آخر. ولو كنتُ أعرف أسلاف رحّالة ما، فإنني - مع ذلك - سأنتفع من قراءته هو أيضاً، كما أني سأرحب بأخلافه بكل سرور، حتّى لو شاء لي الحظ، أن أزور بنفسي البلد الذي يحكي عنه.

فيليبو نيري: القدّيس المرح

وُلد فيليبو نيري في فلورنسا في العام ١٥١٥، فبرهن منذ يفاعته أنه ولد مطيع مهذّب، يتمتّع بمواهب فطرية عظيمة. ولحسن الحظ، ثمّة بورتريه مرسوم له في تلك الفترة، وهو محفوظ حتّى الآن، ويمكن أن نجده في المجلّد الخامس من كتاب فيدانزا "صفوة العقول" Teste Scelte (بالإيطالية)، اللوحة رَقْم ٣١. من الصعب على المرء أن يتخيّل صبياً يفوقه في عافية المظهر، وقوّة الشكيمة، والاستقامة. ينحدر نيري من أسرة نبيلة المحتدّ، ربّته، وعلّمته كل ما هو حسن وجدير بالمعرفة، حسب معايير ذاك الزمان، وأرسلته أخيراً إلى روما. لم يذكر أحد كم كان عمره وقتذاك. ليكمل دراسته. نما اليافع شاباً مكتملاً، يتميّز بالوسامة وغزارة الشعر المجعّد. كان يجمع بين الجاذبية والتحفّظ في الآن ذاته، فبات الآن يضيف إليهما الكياسة والنُّبل في أفعاله كلها. وكلّما نزلت المحن بساحة روما. حيثُ

نهبت نهباً شنيعاً قبل بضعة أعوام لا غير(*). حذا حذو الكثير من النبلاء؛ ليكرس نفسه لأعمال البرّ، أما قوّة شبابه النامية؛ فكانت تُذكي حماسته هذه. ونسمع الكلام عن كثرة تردّده على الكنيسة، وبخاصة على الكنائس السبع الكبرى، وعن صلاته الخاشعة، وكَدّه لنيل رحمة الرب، وإكثاره من الاعترافات، وتناول العشاء الربّاني.

ورمى نفسه، في لحظة حماسة متّقدة كهذه، على عتبات مذبح الكنيسة، فانكسرت بعض أضلاعه، ولم يُشفَ من الكسور، وبقي يعاني طوال حياته من اشتداد خفقان القلب، ممّا شحذ عواطفه، وأذكاها.

التفّتْ حوله ثلّة من الشباب؛ لتشارك في أعمال الخير والصلاح، ولم تفتر همّة هؤلاء في رعاية الفقراء ومواساة المرضى، حتّى باتوا يرون في دراساتهم شأناً غير ذي بال؛ وباختصار، كرّسوا كل مالهم ووقتهم لإعانة الغير، من دون أن يُبقوا شيئاً لأنفسهم. ورفض نيري، فيما بعد، رفضاً باتاً أن يأخذ أية معونة من أصدقائه، وأمرهم في أن يُعطوا إلى المعوزين كل ما يصل إليهم من زكاة، وأن يعيشوا حياة فقر مطلق.

وشعر هؤلاء الشباب القائمون على أعمال البرّ بمثل هذا الإخلاص، وبمثل هذه الغبطة الحسنة، بالحاجة إلى أن يلتقوا بين الحين والآخر؛ لكي يبحثوا بأسلوب موقّر آراءهم في القضايا الهامّة. في البدء، لم تتوفّر الثلّة الصغيرة على مكان خاصّ للالتقاء، فكانوا يجتمعون في أيّ مبنى ديني، تتوفّر فيه غرفة شاغرة في تلك الآونة. وكانوا يستهلّون اللقاء بصلاة صامتة، تليها تلاوة من الكتاب المقدّس، بعد هذا، يتقدّم هذا أو ذاك لإلقاء خطبة وجيزة عن معنى النص المُرتّل، وانطباقه على أحوال الزمان. وكانت تعقب ذلك، أحياناً، نقاشات، إلا أنها تقتصر على ما ينبغي القيام به هنا الآن؛

*) نهب المرتزقة الألمان والإسبان روما عام ١٥٢٧.

وكان الجَدَل الثنائي والسفسطة محرّمين تحريماً تامّاً. أما باقي النهار؛ فكان مكرّساً لرعاية المعلولين، وتفقّد المستشفيات، وإغاثة الفقراء والمعوزين.

ما عدا هذا، خلا اللقاء من أي محظور، وكانت لكل فرد حُرّيّة الانتماء أو الخروج من الجماعة، حسبما يشاء. تضاعف عدد الجماعة بسرعة نتيجة لهذا التدبير، وبدأت تعنى في اللقاءات بتناول طائفة أكبر من القضايا، وأخذت تقرأ عن حياة القدّيسين، وآباء الكنيسة، ومؤرّخيها، بعدها يتوجّب على أربعة من الحاضرين أن يتحدّثوا بواقع نصف ساعة لكل واحد فيهم.

وسرعان ما أثارت هذه المناقشة اليومية العملية، بل العفوية، لأسمى شؤون الروح، اهتماماً، ما ينى يزداد، لا بين الأفراد وحدهم حسب، بل وسط طوائف بأسرها. وانتقلت لقاءات الجماعة إلى الأروقة المفتوحة في هذه الكنيسة أو تلك، جاذبة جمهوراً أكبر. وانجذب الدومنيكان بخاصة إلى هذا الضرب من التفاني والورع، فانضمّ جمع غفير منهم إلى هذه الجماعة التي مضت قُدُماً، موحّدة الروح والغرض، بإرشاد فعّال من مؤسّسها، متجاوزة شتّى الصعاب.

ونزولاً عند حكمة رئيس الجماعة، حُرّم التأمّل، وتركّزت النشاطات كلها نحو الحياة. لكنْ؛ أنى للحياة أن تُطاق من غير بهجة. وكان نيري يعرف كيف يُشبع الرغائب البريئة عند أصحابه. فكان يأخذهم أول الربيع إلى سانت أونفوريو، وهي موضع مُبهج في هذا الفصل؛ لأنها تقع في الأعالي، وتطلّ على مشهد فسيح. فكانوا هناك؛ حيث يُزهر في الربيع كل ما هو غضّ فَتي، يُرتلّون صلاتهم في صمت؛ ليأتي من بعدها فتى بهيّ الطلعة؛ ليلقي قصيدة، حفظها عن ظهر قلب؛ بعد هذا، يأتي المزيد من الصلاة، وينتهي بموسيقى عذبة، يترنّم بها خورس من منشدين، اختيروا لهذه المناسبة بخاصة. ولعلّ هذه الاجتماعات هي أولى المناسبات الدينية التي تُنشد فيها الأنغام في الهواء الطلق.

وهكذا نمت الجماعة عدداً ونفوذاً. الواقع أن الفلورنسيين أرغموا ابناء جلدتهم على الانتقال إلى دير سان جيرولامو، الواقع تحت سيطرتهم، واستمرّت المؤسّسة في النمو حتّى منحها البابا، أخيراً، ديراً قرب ساحة بياتزا نافونا، التي فرغ البنّاؤن من ترميمها بالكامل، فكان بمقدورها أن تسع جميعاً غفيراً من الأخوة الأتقياء. وبقي غرض الجماعة على ما كان من قبل، وهو أن يجمعوا كلمة الرب بأفكار وأفعال الحياة اليومية.

طفقوا يجتمعون كما من قبل؛ ليصلّوا، ويُنصتوا إلى تلاوة من الكتاب المقدّس، ويبحثوا في تأويل هذه التلاوات، ويُصلّوا ثانية؛ لينعموا أخيراً بشيء من الموسيقى. وما غدا وقتذاك حدثاً متكرّراً، بل يومياً، بات اليوم تقليداً أسبوعياً كل يوم أحد، وإن أي رحّالة يصيب قدراً من المعرفة عن القدّيس المؤسّس، سيزداد نوراً بحضور هذه الشعائر النقية.

ينبغي أن نتذكّر أن معظم المنخرطين في هذه الحركة كانوا أناساً دنيويين، لا كَهَنُوتاً. وضمّت الحركة عدداً قليلاً من رجال الكَهَنُوت، بما يكفي لسماع الاعترافات وإقامة القدّاس. وكان فيليبو نيري نفسه قد بلغ السادسة والثلاثين من العمر من دون أن يُبدي رغبة في أن يعيّن قسّاً، ولعلّ ذلك يرجع إلى شعوره بأنه، بوصفه دنيوياً، كان أكثر حُرّيّة واستقلالاً، ممّا لو دخل سلك الكَهَنُوت؛ ليعتلي مرتبة سامية في سلّم الهَرَم الكَنَسي مقابل خضوعه لضوابط صارمة.

أما المراجع الكَنَسية؛ فكان لها رأي آخر. فالقسّ الأب الذي كان يتلقّى اعترافاته أصرّ على وجوب أن يُعمَّد نيري، بوصفه قسّاً، وذلك كمسألة ضميرية، فرضخ نيري في النهاية. وتدبّرت الكنيسة بذكاء في أن تجذب إلى فلكها رجلاً سعى، حتّى ذلك الحين، إلى أن يختطّ مساراً مستقلاً في الحياة، يجمع المقدّس والدنيوي، والسامي واليومي، في رباط واحد.

ويبدو أن إدراجه في السلك الكَنَسي لم يؤثّر قيد شعرة على سلوكه الظاهري. لقد ظلّ يمارس كل أنواع ضبط النفس بهمّة وحمية أكبر من ذي قبل، وواصل العيش في دير بائس صغير. وبقي على ميله في التخلّي عن أرغفة الخبز المخصّصة له إلى كل معوز، أيام شحّ الطعام، والاستمرار في رعاية التعساء.

أما حياته الباطنية؛ فقد تأثّرت تأثّراً عظيماً بانخراطه في الكنيسة. فواجب إقامة القدّاس يغمره بغبطة قُدْسية، يتلاشى فيها شخصه الطبيعي تماماً. وتراه غير عارف أين يمضي، مترنّحاً في طريقه إلى المذبح. كما تراه في القربان المقدّس منجذباً بقوّة غامضة إلى الأعلى، فلا يقدر على خفض ذراعية ثانية. وترتعش أنامله حين يصبّ النبيذ. وحين يشارك في تناول عناصر القربان، يتصرّف بطريقة نهمة غريبة عَصية على الوصف. ويعضّ شفا كأس القربان في حالة من الوَلَه، وهو يرتشف دم المسيح وجسده الذي التهمه بِشَرَه. وما إن تنقضي حالة الوجد هذه، حتّى يعود إلى رشده ثانية إنساناً رحيماً عطوفاً، وغريباً بالتأكيد، إلا أنه دوماً إنسان عملي ممتلىء بالتعقّل السليم.

ولا ريب أن إنساناً مثله على هذا القدر العظيم من الحيوية والعنفوان لابد أن يبدو للآخرين غريب الأطوار، ولابد أن فضائله بالذات أثارت استغراب الآخرين، بل نفورهم. ولعلّه واجه قدراً من العداء في الجانب المبكّر من حياته، ولكنه إذ واصل العيش الرزيل في دير بائس حتّى بعد تعيينه في الكنيسة، خرج أعداؤه إلى العَلَن؛ ليلاحقوه بالهزء والازدراء. أغلب الظنّ أنه كان من ذلك النوع من الرجال الواعين لتفوّق مَنبتهم، ولقوّة رغبتهم في السيطرة، فيحاولون مكافحة وإخفاء ذلك بأن يعيشوا حياة تضحية وفقر، ويستثيروا الازدراء لأنفسهم.

وكان يسعى دوماً إلى أن يظهر بمثابة أحمق في نظر العالم حتّى يكرّس نفسه بتفان أكبر إلى أمور الرب، وقد درّب تلامذته على أن يحذوا حذوه.

ويبدو أن مقولة القدّيس برنارد التالية:

يحتقر العالم

يحتقر لا أحد من الناس

يحتقر نفسه

يحتقر أنه هو نفسه محتقر (باللاتينية)

قد ملأت كيانه تماماً، أو أعادت خَلْقه من جديد، ذلك أن البشر يرسون حيواتهم على مقولات متشابهة، إذا كانت نواياهم وأوضاعهم متماثلة.

ولا يقوى إلا البشر المتفوّقون الممتلئون اعتزازاً عميقاً بالنفس، على اختيار تذوّق عداوة العالم عن مبدأ، هذا العالم الذي يناوئ كل ما هو خيّر وعظيم، وأن يشربوا كأس التجربة المرّة حتّى الثمالة قبل أن يقسرهم أحد على شُربها. وإن الحكايات الصغيرة التي تواترت إلينا عن الامتحانات التي كان نيري يُخضع تلامذته إليها، تدفع كل إنسان محبّ للحياة، ممّن يسمعها، إلى أن يفقد صبره. وعليه يمكن لنا أن نتخيّل كم كانت أوامر نيري مؤلمة، بل لا تُطاق، عند الشخص المُلزَم بإطاعتها، ولا عجب والحالة هذه أن بعضاً من تلامذته عجز عن تحمّل هذه المحن.

وقبل أن نخوض في تفاصيل هذه الحكايا الغريبة، التي قد لا تلائم ذوق كل قارئ، دعونا نلتفت مرّة أخرى إلى تلك الخصال العظيمة التي يعزوها مجايلو نيري إليه، ويطرونها أيّما إطراء.

يقول أولاء إن علمه وثقافته ينبعان من مواهب فطرية أكثر ممّا يتأتّيان عن التعليم؛ فما يكسبه الآخرون بشقّ الأنفس عبر الدراسة، يجري في دمه أصلاً، إن جاز القول. ويقال إنه كان يمتلك قدرات خارقة على استبطان

البشر والدنيا في آن؛ بحيث إنه كان يدرك في الحال خصال وقدرات أي شخص بنظرة واحدة، مثلما كان يدرك كُنه أمور الدنيا؛ بحيث يستطيع أن يتنبّأ بما سيأتي من أحداث. وقد حُبي، علاوة على ذلك، بمغناطيسية شخصية عظيمة. أو ما يسمّيه الإيطاليون بكلمتهم العذبة: جذّاب attrattiva (بالإيطالية). حيث لم يكن البشر وحدهم، بل الحيوانات أيضاً، تنجذب إليه. فمثلاً إن كلب صديق من أصدقائه، تعلّق به، وراح يتبعه أينما راح. حاول صاحب الكلب أن يستعيد حيوانه بكل أنواع المغريات، لكن الكلب كان يعود راكضاً إلى الرجل الجذّاب، لا يفارق جانبه لحظة، حتّى أنهى حياته في غرفة نوم السيد المختار. ويحيلني ذِكْر هذا الكلب إلى الامتحانات القاسية التي أشرتُ إليها من قبل، والتي لعب هذا الحيوان دوراً في البعض منها.

نعرف أن قيادة أو حمل الكلاب كان ممّا يُعدّ عملاً وضيعاً، بل مُنكراً في الكثير من مُدُن القرون الوسطى، ولم تكن روما استثناء بأي حال. وعليه، دأب نيري على أن يقود الكلب في أرجاء المدينة بسلسلة، ويُرغم تلامذته على حمل الكلب بأياديهم في الشوارع، مُعرّضين أنفسهم إلى سخرية الجمهور.

ولم يكن هذا الظهور المشين أمام الجمهور هو العمل الوحيد الذي طالب نيري تلامذته به. فإذا رام أمير شابّ من روما نيل شرف الانضمام إلى الجماعة، أمره نيري بأن يطوف في الشوارع عاقداً ذيل ثعلب إلى ظهره، فإن رفض، حُرم من الانتماء. وأرسل نيري أحد الأمراء؛ ليطوف بلا سترة، وآخر ليسير بعد أن مُزّقت اكمام قميصه إرباً. أثار منظر هذا الأخير إشفاق أحد النبلاء، فعرض عليه زوجاً من الأكمام الجديدة، فرفض قبولها، فجاءه الأمر بأن يعود، ويأخذ الأكمام، ويُبدي امتنانه. وخلال بناء الكنيسة الجديدة للجماعة، أرغم نيري أتباعه على حمل مواد البناء إلى الموقع، كما لو كانوا شغّيلة مياومين.

وإذا ما عنّ لفرد من الجماعة أن يُبدي أمارة من أمارات الخيلاء الروحي، اجتثّها نيري بالطريقة ذاتها؛ وإذا ما ألقى شابّ موعظة، أصابت نجاحاً، أصاب الواعظ بالرضى عن النفس، قاطعه نيري في وسط الكلام، وأخذ مكانه في الوعظ، أو أمر أحد التلاميذ الأقلّ شأناً بإكمال الموعظة في الحال. وكان هذا التحفيز المباغت غالباً ما يؤتي أكله، فيغدو الجزء البديل من الموعظة أسمى من الجزء المُعدّ السالف.

وابتغاء أن يَفهم المرء قدرة نيري على أن يكون على هذا القدر من الجبروت والفاعلية، فإن عليه أن يتذكّر حال الفوضى الضاربة أطنابها في اوربا خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، واختمار القلق الذي تسربلت به روما في ظلّ العديد من البابوات. لقد لعب نيري على رغائب الإرادة ومخاوفها، ودرّبها على الإذعان والرضوخ حتّى تنبذ، دون قيد أو شرط، حتّى المعقول والمقنع، بل حتّى المألوف واللائق؛ ليوصل الإرادة البشرية بذلك إلى ذرى القوّة القادرة على تخطّي كل العقبات. وإن القصّة التالية أدناه عن أحد اختبارات نيري معروفة تماماً، إلا أنها خارقة للعادة، وطريفة، إلى درجة لن تدع القارئ يمانع في سماعها ثانية.

تناهى إلى البابا أن ثمّة راهبة في دير ريفي، تأتي المعجزات. وهذا أمر عظيم الدهشة في نظر الكنيسة، فكلّفت نيري في التحرّي عن أمر الراهبة. امتطى نيري بغلته، لكنه سرعان ما عاد بسرعة غير متوقّعة، إلى الحبر الأعظم المذهول؛ ليقول له: "أيها الأب المبارك، إنها لا تأتي أية معجزة؛ لأنها تفتقر إلى أولى الفضائل المسيحية: الاتّضاع. ها أنذا أصل إلى الدير، ملطّخاً بالأوحال، ومبللاً بالمطر. أرفع جزمتي إليها، وأشير لها بأن تخلع لي الجزمة. فترتدّ إلى الوراء في غضب واستياء، رافضة طلبي. وتصيح بي: مَن تظنني! وتقول إنها وصيفة الرب، لا خادمة كائن من كان،

ممّن يأتي؛ ليطلب منها خدمة وضيعة. أنهضْ بهدوء، وأمتطي بغلي، وها أنذا أمامكم، مقتنعاً أنكم أن تجدوا ضرورة لاختبار آخر."

ابتسم البابا، وترك الأمر عند هذا الحدّ. ولعلّ الراهبة مُنعت من إتيان عروض المعجزات.

وإذا كان نيري يمارس الحق في اخضاع الآخرين للاختبار، فإنه كان يخضع لهذا الاختبار بنفسه حين يطلب منه أناس آخرون من اقرانه الروحيين الذين اختاروا الالتزام بانكار الذات نفسه.

ذات يوم، يلتقي نيري في أحد الشوارع المكتظّة راهباً مستجدياً، يشارف، مثله، على تخوم القداسة. يقدّم الراهب لنيري جرعة نبيذ من قارورة، يحملها. يضع نيري فوهة القارورة ذات الرقبة الضيّقة والمَكْسُوّة بالقشّ المجدول، على فمه، ويرجع رأسه إلى الوراء؛ ليكرع منها وسط ضحك المارّة الساخرين من مشهد راهبين ورعين، يشربان في صحّة أحدهما الآخر. يستبدّ الحنق بنيري، رغم كل ورعه وتواضعه، فيقول للراهب: "ها أنت ذا قد وضعتَني على محكّ الاختبار، وقد جاء دورك الآن" وبهذه الكلمات، وضع نيري بيريّته مربّعة الزوايا على رأس الراهب الحليق، جاعلاً منه أضحوكة الجمهور. لكن الراهب يمضي في سبيله، بكل هدوء، وهو يقول: "كل مَن يخلع هذه البيريه عن رأسي، فهي له." ويسارع نيري إلى خلع البيريه، ويفترق الرجلان.

إن رجلاً من طراز فيليبو نيري، الذي تُعدّ أعماله من خوارق المعجزات، هو وحده القادر على التصرّف بهذه الطريقة من دون أن يفقد تأثيره المعنوي.

أشاع نيري، بوصفه قسّاً يتلقّى الاعترافات، الرهبة والثقة في آن؛ فبوسعه أن يُنبئ النادمين عن خطايا، لم يعترفوا بها، وسقطات فاتت على انتباههم. وكانت صلاته المبتهلة المتّقدة بالوجد، تُذهل أتباعه،

بوصفها شيئاً خارقاً للطبيعة، وتقذفهم في حالة روحية، يؤمن فيها البشر أنهم يبصرون بحواسّهم ما يوحيه خيالهم المستثار بالعاطفة المتّقدة، إلى عقولهم. زد على هذا أن قصص المعجزات والمحال، إن تكرّرت كثيراً، غالباً ما تأخذ مكان ما هو فعلي وعادي.

وهذا يفسّر سبب ادّعاء الناس بأنهم رأوه عدّة مرّات يسبح في الهواء أمام المذبح في أثناء القدّاس، أو سبب حلْف آخرين بأغلظ الأيمان أنهم رأوه، في أثناء أدائه الصلاة راكعاً طلباً لنجاة إنسان مريض مرضاً مُهلكاً، وهو يرتفع سابحاً في الفضاء حتّى قارب رأسه أن يلامس السقف.

وسيكون من الغرابة تماماً، في مثل هذا المناخ الذهني المكرّس للحسّ والخيال، ألا يقع تطفّل من شياطين رجيمة. ذات يوم، يقع هذا الرجل الورع على مخلوق جامح مثل حمار مشوّه، يرفس وسط جدران حمّامات أنطونيوس المتهاوية، وبأمر من نيري، يختفي هذا في شقّ.

هناك قصّة أخرى ذات مغزى تتّصل بموقفه من أتباعه حين يشرعون في إبلاغه عن رؤاهم العذبة للسيدة العذراء، والقدّيسين. ولمّا كان يعرف تمام المعرفة أن مثل الهلوسات قمينة بأن تورث الخيلاء الروحية، بل وإن تُوقع أسوأ الخطايا والمنكرات، فإنه يُنبئ اتباعه بأن ظلاماً شيطانياً يختبئ، ولا ريب، خلف هذا الجمال السماوي. ولإثبات قوله هذا يأمرهم أن يبصقوا في وجه العذراء المباركة حين يروا رؤاهم؛ فيمتثلون لأمره، وما إن يفعلوا ما طلب حتّى تتكشّف الرؤيا، في الحال، عن وجه شيطان.

ولعلّ نيري كان يعي، وهو يُصدر هذا الأمر الجازم، ما هو فاعل، إلا أن الأرجح أنه كان مدفوعاً في ذلك بغريزة أعمق. وأيّاً كان الحال، فقد كان يعرف أن صورة الرؤيا التي يحفزها حبّ عارم ستنمسخ إلى كاريكاتير عن الأصل، بمجرّد أن تتعرّض لقوّة الكراهية أو الاحتقار المضادّة.

كان مدفوعاً إلى استخدام مثل هذه الأساليب التربوية الغريبة بقوّة موهبته الخارقة في الحدس، الذي يتراوح من الحدس الروحي الجامح، إلى الحدس المادّي الجامح. فمثلاً كان يستشعر مَقدم الناس قبل أن يأتوا، وكان يُدرك وقوع أحداث بعيدة، ويقرأ أفكار الشخص الذي يتفرّس في ملامحه.

ليس من النادر أن يمتلك الكائن البشري واحداً من هذه القدرات، وهناك كثرة من الناس تمتلك مثل هذه القدرات في لحظات معيّنة. أما أن يستطيع فرد محدّد أن يحوز على سائر هذه القدرات، وأن يتمكّن من استخدامها لحظة يشاء بأثر مذهل، فهو أمر نادر حقاً، ولا يمكن حصوله، غالباً، إلا في قرن، تجلّت خلاله القوى الروحية والمادية في عنفوان مذهل.

لقد أثار عمل القدّيس فرانسيس خافيير بين الوثنيين عَبَدَة الأصنام ضجّة كبيرة في روما عصر ذاك، وقد شعر نيري وبعض أصحابه بالانجذاب إلى مَن يُسمّون بالهنود. وقد طلبوا الإذن من البابا للذهاب إلى هناك، لكن الأب المسؤول عن تلقّي اعترافاتهم. الذي كان يتصرّف، بلا ريب، بتوجيه من المقامات الكَنَسية العليا . نبّههم إلى أن الرجال الورعين المكرّسين عملهم للباري، والمتفانين في سبيل تحسين أحوال أقرانهم ونشر الإيمان، سيجدون قدراً كافياً من أمثال الهنود، ومسرحاً جديراً بنشاطهم في روما نفسها. كما قال لهم أيضاً إن روما مهدّدة بكارثة، نظراً لأن ماء الينابيع الثلاثة، قرب سان سيبا ستيانو، عكر وممزوج بالدماء منذ بعض الوقت، وهذا نذير شؤم، لا يُخطئ. لذا: راح نيري وأصحابه، بقناعة أو بغيرها، يواصلون عملهم الإعجازي في روما، وحاز نيري، عاماً بعد عام، على المزيد من الثقة والتوقير، من علية القوم وأسافلهم، ومن كبارهم وصغارهم.

إن الإنسان كائن بالغ التعقيد، تتعايش في طبيعته عناصر متناقضة

بإطلاق، الماديّ منها والروحي، والممكن والمحال، والجاذب والمنفر، والمحدود واللامحدود. وبوسع المرء أن يمضي في ذِكْر قائمة الأضداد. وقد تجلّت هذه الأضداد كلها، عند نيري، تجلّياً صريحاً، بإرباك الذكاء في مواجهة الإبهام، وإطلاق عنان الخيال، ونشر الايمان، وتبرير الخرافات، وإقران، بل دمج، أشدّ الأحوال العادية بأكثرها شذوذاً. ولا عجب والحالة هذه أن يكتسب هذا الرجل، الذي عمل بلا كلل على مدى ما يناهز القرن، كل هذا النفوذ الذي تمتّع به.

وبلغ التقدير السامي لهذا الرجل حدّاً، جعل الناس يستمدّون الفائدة والبركة والغبطة الروحية، لا من حياته وعمله الحيوي السليم، فحسب، بل من مرضه أيضاً، الذي كان في نظرهم دليلاً على قرب مقامه من الخالق. لقد أسبغ عليه الكثيرون، حتّى خلال حياته، لقب القدّيس، وإن موته رسّخ مشاعر مجايليه بإزائه.

وبُعيد موته، الذي اقترن بمعجزات، تفوق ما رافق حياته، طُلب من البابا كليمنت الثامن أن يأذن ببدء "الصيرورة"، والصيرورة هي الممهّد الضروري لإعلان أن نيري هو من المؤمنين الأبرار الذين سينعمون بالخلود والسعادة المقيمة. وقال البابا في خطاب الموافقة: "لقد عَدَدتُه دوماً قدّيساً، ولا اعتراض عندي أن أعلنت الكنيسة كلها أنه قدّيس، وقدّمتْه إلى جمع المؤمنين بهذه الصفة."

عاش نيري خلال عهود خمسة عشراً من البابوات. فقد وُلد في أيام البابا ليو العاشر، ومات في زمان البابا كليمنت الثامن. ولعلّ هذا يفسّر، جزئياً، موقفه المستقلّ بإزاء البابوية؛ ورغم أنه أطاع قوانينها العامة، بوصفه عضواً مخلصاً للكنيسة، إلا أنه رفض أن يتقيّد في قضايا التفاصيل، بل كان يجاهر برأيه النافذ في حضرة الحبر الأعظم. وعلى سبيل المثال،

رفض اعتمار قبّعة كاردينال، وقد مكث في "كنيسته الجديدة" Chiesa Nuova (بالإيطالية) مكوث الفارس المتمرّد في قلعته القديمة، متجرّئاً على التصرّف من غير اعتبار لحقّ الولاء لسيده الإقطاعي الأعلى.

ولعل خير مثال أيضاً حي على ذلك المذكرة التي وجّهها نيري قبيل وفاته إلى البابا الجديد كليمنت الثامن، والقرار الذي ذيّله هذا الأخير بالمذكرة، وهو قرار لا يقلّ غرابة عن المذكرة نفسها. ورغم أن نصّ المذكرة والقرار يعودان إلى نهاية القرن السادس عشر، فقد صيغا بلغة العصور السابقة الأكثر فظاظة. ويكشف نصّ هذه خيراً من أي شيء آخر عن هذه العلاقة بين رجل يقارب الثمانين، ويوشك أن يصير قدّيساً، مع صاحب النيافة، رئيس كنيسة الروم الكاثوليك، وهو رجل قدير، حظي باحترام كبير طوال عهده المديد.

مذكرة فيليبو نيري إلى كليمنت الثامن

أبانا المقدّس! أيّ ضرب من الناس أنا حتّى يزورني الكرادلة، كما فعل كردينال فلورنسا وكردينال كوزانو ليلة أمس؟! ولأنني كنتُ محتاجاً إلى رقاقة أو اثنتين من تراب المنّ، أرسل كاردينال فلورنسا المذكور في طلب أونصتين من مستشفى سان سبيريتو، بعد أن كان قد أرسل إلى هذه المستشفى كمّيّة كبيرة منه. وبقي معي حتّى الساعة الثانية من الليل، وذكر عن مقامكم المقدّس الكثير من الأمور الحسنة، التي زادت؛ في رأيي عن الحدّ المبرّر. وبما أنكم الآن في موقع البابا، فيتوجّب على شخصكم التواضع. وفي الساعة السابعة من الليل، جاء المسيح؛ ليحلّ في جسدي، وإن بمقدور قداستكم أن تزوروا كنيستنا مرّة في كل حين. إن المسيح إله وإنسان، وهو يزورني مراراً. أما قداستكم؛ فمجرد إنسان، وُلد من صلب إنسان مستقيم، أما المسيح؛ فمن صلب الأب الرب. وإن والدة قداستكم هي السنيورة أجنسينا، وهي سيدة تقية، تخاف

الله، أما والدة المسيح؛ فهي العذراء سيدة العذارى. ترى كم أستطيع الاستزادة، لو نفثتُ مكنون غضبي؟!. إنني آمر قداستكم في أن تنفّذوا ارادتي بخصوص فتاة، أودّ أن أبعثها إلى توري دي سبيتشي. إنها ابنة كلوديو نيري، الذي وعده قداستكم بحماية أطفاله، وأودّ أن أذكّركم أن من اللطف أن يحافظ بابا على وعده. وعليه، أسندوا المهمّة لي على نحو، يمكن لي، إن دعت الحاجة، إلى أن أستخدم اسمكم. إنني أعرف عقل هذه الفتاة، وأنا واثق من أنها تسير على هدي الإلهام المقدّس. أقبّل قدمَيْكم المقدّستين بكل ما أدينه لكم من تواضع.

قرار البابا، المكتوب بخط يده في ذيل المذكرة

يقول البابا إن القسم الأول من هذه الصحيفة يشي ببوادر روح الخيلاء؛ لأنه يُراد لنا أن نعرف من هذا القسم أن الكاردينالات يُكثرون من زيارتك؛ أو يُراد به إبلاغنا أن هؤلاء السادة واعون روحياً، وهي واقعة معروفة لدينا. أما بصدد عدم زيارتنا لك؛ فنقول إن نيافتك لا تستحقّ ذلك؛ لأنك رفضتَ قبّعة الكاردينالية التي عُرضت عليك مراراً. أما بصدد أمرك؛ فلا مانع لدينا، لو أنك أسديتَ لهؤلاء الأمّهات المحترمات النصح، بعملك المعتاد، متى ينبغي ألا يفعلوا الأمور على طريقتك. والآن نأمرك بأن تكون خيراً، وألا تسمع الاعترافات بدون إذن منا. وإذا ما زارك سيّدنا المسيح، فَصَلِّ لأجلنا، ولأجل الحاجات الماسة في عالم المسيحية.

الجزء الثالث

الزيارة الثانية لروما حزيران ١٧٨٧ ـ نيسان ١٧٨٨

"عسى أن تنعم روما بحياة مديدة
وأن تسود الدنيا فاتحاً
وأن يكون الشرق والغرب
من رعاياها"(*)

*) أوفيد: فاستي، المجلّد الرابع، الجزء الخامس، البيتان ٨٣١ . ٨٣٢. صلاة رومولوس إلى روما.



شهر حزيران ١٧٨٧
مراسلات

روما، ٨ حزيران (يونيو)

وصلتُ سالماً قبل يومين، فتعمّدتُ في عيد القربان، بوصفي مواطناً من مواطني روما. كرهتُ أن أترك نابولي بسبب سيول الحمم الهائلة التي كانت تندلق من قمّة الجبل إلى البحر؛ إذ كنتُ أودّ أن أزيد خبرتي بمراقبة البركان عن كثب.

غير أني أشعر اليوم أنني تلقّيتُ تعويضاً عمّا فاتني، لا بفضل صخب العيد ذاته، المثير للإعجاب بعامة رغم ما يتخلّله أحياناً من تفاصيل جارحة للمشاعر، بسبب مجافاتها للذوق السليم، بل بفضل مشاهدة المنسوجات المعمولة وفق تصاميم رافائيل، التي تُعرض في هذا العيد.

لا ريب أن تصاميمه هي الأفضل، أما التصاميم الأخرى المعروضة إلى جوارها؛ فلا تخلو من قيمة الفضاءات الفسيحة التي تغطّيها، ولعلّها تصاميم تلامذته، أو مجايليه.

١٦ حزيران (يونيو)

دعوني أذكر، أيها الأصدقاء، بضع كلمات: لأقول لكم إني في أتمّ عافية، وإنني أوغل في اكتشاف ذاتي، ومن أن أكون متعلّماً التمييز بين ما أنا عليه حقاً، وما لستُ عليه. إنني أثابر في العمل مستوعباً كل ما أستطيع استيعابه، ممّا يتدفق عليّ من كل صوب من خارج النفس، وذلك حتّى

أستطيع أن أطوّر نحو الأحسن كل ما هو باطن هذه النفس. زرتُ تيفولي خلال الأيام القليلة الماضية. إن مجمل مكوّنات مشهد تيفولي المركّب، بكل ما فيها من تفاصيل ومناظر وشلالات، تؤلّف واحدة من تلك التجارب التي تُثري حياة المرء ثراء دائماً.

نسيتُ أن أكتب لك في موعد البريد السابق. لقد تجوّلتُ في تيفولي، ووضعتُ تخطيطات وسط الحَرّ اللاهب، فتملّكني التعب. لقد ذهبتُ إلى الموقع مع هاكرت، الأستاذ الضليع في استنساخ الطبيعة، الذي تتحرّك يده الواثقة على الورق بطلاقة، فلا يضطر لتصحيح الرسم قط. لقد أثنى عليّ، وانتقدني، وشجّعني، وقد تعلّمتُ منه الكثير خلال تلك الأيام. وأرى الآن بوضوح كيف وماذا ينبغي أن أدرس؛ لكي أنضو عني الأعباء التي كان مقدّراً لها، بخلاف ذلك، أن تبهضني طوال حياتي.

ملاحظة أخرى. أستطيع القول لأول مرّة إنني بدأتُ أحب الأشجار والصخور، ونعم، وروما نفسها؛ قبل هذا كنتُ أجدها منفرة بعض الشيء. أما الأشياء الصغيرة؛ فكانت تثير بهجتي على الدوام؛ لأنها تذكّرني بما رأيتُ في طفولتي. غير أني بدأتُ أشعر بالألفة معها، كما لو كنتُ في منزلي، رغم أني لن أشعر إزاء هذه الأشياء الصغيرة بتلك الحميمية التي كنتُ أحسّها إزاء أولى الأشياء التي تلمّستُها في يفاعتي. قادتْني هذه الفكرة إلى التأمّل في موضوع الفن والمحاكاة.

اكتشف تيشباين، خلال غيابي، لوحة بريشة دانييل دافولتيرا في أحد الأديرة قرب بورتا ديل بوبولو. أبدى الرهبان الاستعداد لبيع اللوحة لقاء ألف إيسكودو، وهو مبلغ، يتعذّر على تيشابين، بوصفه فناناً، أن يتوفّر عليه. ولجأ إلى وساطة ماير؛ لكي يقترح على السنيورة إنجيليكا أمر شراء اللوحة، فوافقت. دفعت المعلوم، وأخذت اللوحة إلى بيتها، ثمّ اشترتْها

من تيشباين لقاء مبلغ أكبر، يزيد بنسبة الخمسين في المائة، وهي العمولة المقرّرة لتيشباين. إن اللوحة رائعة، وهي تُصوِّر الشهادة. استنسخ ماير رسماً تخطيطاً عنها ما يزال موجوداً.

٢٠ حزيران (يونيو)

منذ عودتي، وأنا أشاهد أعمال الفن البديعة، فبات تقويمي لهذه الأعمال أوضح وأرسخ ثقة بالنفس. إن الإفادة التامّة من روما تقتضيني أن أمضي فيها عاماً آخر في الأقل؛ لأدرس بطريقتي الخاصة؛ إذ - كما تعلمون - لا يسعني أن أدرس بطريقة مغايرة، أيّاً كانت. أما إذا غادرتُ الآن؛ فلن أعرف سوى مقدار ما لم أستوعبه بوضوح. ولكنْ؛ دعونا نترك هذا الموضوع في الوقت الحاضر.

لقد اختفى تمثال هرقل فارنيزي، لكني رأيتُه واقفاً على قدميه الأصليتين. ولا يسعني أن أفهم لماذا اعتبر الناس، على مدى سنوات وسنوات، أن القدمين البديلتين اللتين نحتهما بورتو غاية في الإتقان. إن التمثال الآن يؤلّف واحداً من أبدع منحوتات الأقدمين كمالاً. يعتزم الملك بناء متحف في نابولي لإيواء وعرض كل مجموعاته الفنية التي تضمّ مجموعة هرقل، ومنحوتات بومبي، واللوحات من كابوديمونتي، وآثار فارنيزي.

ويبدو أن ابن جلدتنا، هاكرت، هو القوّة المحرّكة وراء هذا المشروع الجليل. كما يبدو أن تمثال فارنيزي تورو سيأخذ طريقه إلى نابولي؛ لكي يقف في منتزه المدينة. ولو أمكن لهم اقتطاع المعرض بما فيه من أعمال من قصر بالازو فيرنيزي، لفعلوا ذلك.

٢٧ حزيران (يونيو)

زرنا، أنا وهاكرت، معرض كولونا جاليري؛ حيث تقف لوحات بوسان وكلودلورين وسالفاتو روزا جنب بعضها البعض. يمتلك هاكرت نسخاً

عديدة عن هذه الأعمال، مثلما درس أعمالاً أخرى دراسة متأنّية، وكانت تعليقاته على اللوحات تنويرية بحقّ. وسّرني أن أكتشف أن أحكامي على هذه اللوحات ما تزال على ما كانت عليه تقريباً خلال زيارتي الأولى. ولم أجد في أيّ تعليق من هاكرت ما يحملني على تغيير آرائي؛ كل ما فعلته هذه التعليقات أنها أكدت هذه الآراء، ووسّعتها. كل ما يحتاجه المرء هو أن يُعاين اللوحات، ويعاين الطبيعة في الحال؛ ليدرك ما رأتْه هذه الأعمال في الطبيعة، وحاكتْه محاكاة تامّة بهذه الطريقة أو تلك؛ عندئذ تجلو التصوّرات المغلوطة عن العقل، ويصل المرء آخر المطاف إلى الرؤية الحقّ للعلاقة بين الطبيعة والفن. ولن يهدأ لي بال حتّى أتيقّن من أن كل أفكاري قد استُمدّت، لا من الهرطقة والتقاليد، بل من التماس الحي الفعلي، مع الأشياء نفسها. ولقد كان هذا مطمحي وعذابي منذ شبابي الأول: أما الآن؛ فإنني إنسان راشد عازم على نيل ما يمكن نيله، والقيام بما يمكن القيام به، بعد أن عانيتُ طويلاً من مصير سيزيف وتانتالوس(*) . سواء كنتُ أستحق ذلك أم لا.

عسى أن تستمرّوا في حبّكم لي، وألا تفقدوا الثقة فيّ. إنني الآن قادر على الانسجام مع الآخرين، كما تعلّمتُ فن التعامل معهم بصراحة. أنا بخير، وأتمتّع بوقتي كله.

تيشباين إنسان بالغ الطيبة، وأخشى أنه لن يصل النقطة التي تتيح له العمل بيُسر وحُرّيّة. سأحكي لكم المزيد عن هذا الإنسان المتميّز، عندما ألقاكم. سيكون البورتريه الذي يرسمه لي جيداً جداً. إن الشبه مذهل، والكل مسرور بالفكرة العامة التي تعبّر عنها اللوحة. كما أن إنجيليكا ترسمني أيضاً، لكن عملها لن يكتمل. إنها تشعر بخيبة أمل كبيرة؛ لأن اللوحة لا

---

*) سيزيف، حامل الصخرة الأبدية، وتانتالوس ملك حكم عليه بالغرق إلى فمه بالماء وعجزه عن شرب الماء أو أكل الفاكهة الدانية، وهما من شخصيات الأساطير الإغريقية.

تتقدّم، ولا تُشبهني. وتظل هذه اللوحة بورتريهاً لشابّ وسيم، لا يُشبهني أي شبه.

٣٠ حزيران (يونيو)

جاء أخيراً عيد القدّيس بطرس، وعيد القدّيس بولص العظيمين. شاهدنا بالأمس القبّة المضاءة والألعاب النارية في قلعة كاستل سانت إنجيلو. إن الأضوية مذهلة، لكأنها مشهد من أرض الجنّيات؛ فلا يسع المرء أن يصدّق عينيه. والآن، بعد أن تعلّمتُ أن أرى الأشياء بما هي عليه، لا أن أراها، كما في السابق، كمعين، يزوّدني بخيال ما ليس له وجود، يتوجّب على أي مشهد أن يكون عظيماً حقاً حتّى أستطيع أن أتمتّع به حقاً. وإن مشاهدة الأعمدة والكنيسة، والقبّة مضاءة بالنار في خطوطها العامة، لتتحوّل، بعدئذ، إلى كتلة من نور متوهّج، لتجربة فريدة مجيدة.

وحين يرى المرء، في هذه اللحظة، أن المبنى الهائل بأكمله قد استحال صقالة من أضواء مبهرة، يدرك أنه لن يرى إلى ذلك مثيلاً في أي موقع في العالم. كانت السماء صافية، وضوء القمر الصاعد يُبهت وهج المصابيح، لكن اندلاع الموجة الثانية من الألعاب النارية خسفت ضياء القمر. وخبت أضوية الألعاب النارية، فعاد القمر؛ ليبزّ بضيائه أنوار الأضوية، ويسبغ على الموجودات طابعاً سِحْرياً من بلاد الجنّيات.

كانت الألعاب النارية جميلة بفضل الموقع المحيط بها، إلا أنها لا تضاهي أضوية الكنيسة بهاء. سنرى الاثنين معاً مرّة ثانية.

نهاية حزيران (يونيو)

إن المدرسة التي دخلتُها تلميذاً أعظم من أن تُتيح لي إكمال دروسها في القريب. ينبغي أن أعمّق معرفتي بالفنون، وأن أعمّق مواهبي

المتواضعة؛ لأبلغ درجة ما من النضج. وبخلافه لن أعود إليكم إلا بنصف صديق، وعندها يتوجّب عليّ أن أبدأ من جديد كل ما بذلتُه من كَدّ وتعب وزحف وحبو. ولو عنّ لي أن أسرد عليكم كل ضروب الحظ الحسن التي لاقيتُ، لما انتهت هذه الرسالة قط. ترى ما الذي جعل كل ما أتمنّاه يأتي إليّ على طبق من فضّة؟!. فأنا أسكن في حجرات حلوة، وأنعم بالرعاية من أناس لطفاء. سأنتقل للسكن في مرسم تيشباين حال ذهابه إلى نابولي، وهو مَرسم فسيح وبارد. وعليه حين تفكّرون بي، فكّروا بي كرجل ذي حظ حسن. سأواظب على كتابة الرسائل، فنكون بذلك معاً على الدوام.

رأسي يمتلئ بأفكار جديدة. حين أنفرد بنفسي، وأجد متّسعاً من الوقت للتأمّل، أستعيد أصغر تفاصيل شبابي الأول، أما حين أعود إلى العالم الخارجي ثانية؛ فإن بهاء الأشياء التي تحيط بي، تُنسيني نفسي، وتحملني إلى أنأى وأعلى الذرى، ممّا يسمح به وجودي الباطني. لقد أصابت عيناي دربة أفضل ممّا كنتُ أظنّ أني بالغه، وينبغي ليدي ألا تتّلكآ عن عيني. هناك روما واحدة في العالم. إنني أشعر هنا مثل سمكة في الماء، أو بالأحرى مثل كرة صغيرة تعوم على سطح زئبق، لكنها كفيلة بأن تغرق في أي سائل آخر. لا شيء يضبّب أفكاري سوى هاجس انعدام قدرتي على أن أشارك أصدقائي هذه السعادة. السماء صافية رائقة على أروع ما يكون. إن روما تتلفّع بشيء من الضباب في الصباح والمساء، لكن الهواء في تلال البانو وكاستيللو وفراسكاتي؛ حيث أمضيتُ ثلاثة أيام الأسبوع الماضي نقي وشفّاف دوماً. ها هنا قطعة من الطبيعة، تشخص أمامكم جديدة بالدرس!

ملحوظة

في أثناء مراجعتي لما كتبتُ في حينه عن انطباعاتي، وأحاسيسي، وشروعي في أخذ مقتطفات ذات أهمّيّة عامة من رسائلي السابقة، وهي مقتطفات، تُصوِّر نوعية اللحظة خيراً من أي شيء كتبتُه لاحقاً، وقعتُ على بعض رسائل الأصدقاء التي تخدم، كما يبدو، هذا الغرض خدمة أفضل. لذا؛ قرّرتُ أن أضمّن وثائق المراسلات هذه هنا وهناك، ولسوف أبدأ بوصف نابض من تيشباين عن مغادرته روما، ووصوله إلى نابولي. وإن كلماته لن تقتصر على فضيلة التحليق بالقارئ في رمشة عين إلى تلك الأصقاع، وإعطائه صورة واضحة قريبة عن سكانها فحسب، بل إنها ستُلقي الضوء على شخصية الفنان نفسه الذي قام بمثل هذا العمل المتميّز. هذه الشخصية الجديرة بالتذكّر الطّيّب لما سعتْ إلى بلوغه، ولما بلغتْه بالفعل، برغم أن شخصية تيشباين قد تُثير الناس، بوصفها غريبة بعض الشيء.

من تيشباين إلى غوته

نابولي، ١٠ تموز (يوليو) ١٧٨٧

جرت رحلتنا من روما إلى كابوا مجرى لطيفاً، دون توقّف. انضمّ هاكرت إلينا في البانو. وفي فيلليتري، تناولنا العشاء مع كاردينال بورجيا، وزرتُ، لما فيه سعادتي الخاصة، متحفه؛ حيث لاحظتُ أشياء عديدة، كنتُ قد أغفلتُها في المرّة الأولى. عند الساعة الثالثة، مضينا بالعربة عبر مستنقعات بونتاين. أحببتُ مرأى المستنقعات هذه المرّة أكثر ممّا في الشتاء الماضي، على ما فيها من أشجار خضراء وأجمات وسياجات، تضفي سِحر التنوّع على هذه السهوب المترامية. قبيل الغسق، بلغنا مركزَ المستنقعات؛ حيث يتوجّب تبديل عربات البريد. وخلال فترة الانتظار، راح الحوذيون

الذي يمتطون جياد العربات، يستخدمون لسانهم الذرب بكل ما فيه من فصاحة لابتزاز النقود منا، غير أن مهراً أشقر انتهز الفرصة؛ ليطلق لنفسه العنان، ويعدو بعيداً. يا له من جواد جميل أبيض كالثلج متين البنيان!. لقد قطع سير اللجام الذي يربطه، وراح يثب، ويرفس بقوائمه الأربع كل مَن تسوّل له نفسه لجم شكيمته، ويلكز بقائمتيه الخلفيتين، ويشخر ويصهل بقوّة عاتية، أثارت الفزع عند الجميع، فحاذروا الاقتراب منه، بل ابتعدوا عن طريقه. وثب عبر حفرة، وراح يخبّ في الحقل، في شخير وصهيل شديدين طوال الوقت. وتطاير شعر عُرفه وذيله عالياً في الهواء، وكان جسمه بديعاً في حُرّيّة انطلاق وحركاته، فهتف الكل: "آه، ما أبدعه! ما أروعه!" (بالإيطالية)، ثمّ راح يعدو عند حافة وهدة أخرى رائحاً غادياً، بحثاً عن موضع ضيّق، يثب فوقه؛ لينضم إلى مئات الأمهر والأفراس التي كانت ترعى على الجانب الآخر. نجح في اجتياز الوهدة أخيراً، ومضى خبباً إلى الأفراس اللواتي فزعنَ من هياجه ونخيره، فعدون مبتعدات عبر المرج في صفّ طويل، أما المهر الفالت؛ فكان يطاردهنّ، ساعياً إلى اعتلائهنّ.

وأفلح بعد ذلك في الانفراد بفرس، تعدو هاربة نحو ثلّة من الأفراس في حقل آخر. أُصيبت هاته الأفراس بعدوى الفزع، وراحت تعدو للانضمام إلى القطيع الأول. حفل الحقل الآن بالخيول الداكنة، مشهد ينبض بالفزع والجموح، وراح المهر الأشقر يثب، ويقفز وسط القطيع. رحنا نراقب في سرور بالغ تلك المئات من الأفراس والأمهر تعدو في الحقل، في صفوف متوازية حيناً، أو في زمرة كبيرة على شكل عنقود حيناً، أو متفرّقة حيناً، أو تخبّ منفردة، بينما الهواء يئزّ، والأرض تهتزّ تحت وقع الحوافر المكينة.

حَرَمَنا هبوطُ الليل من هذا المشهد الفريد. ولمّا بزغ القمر من وراء الجبال، خبا ضوء فانوس عربتنا. وبقيتُ أتملّى ضياء القمر الرقيق مدّة

طويلة حتّى لم يعد بمقدوري أن أفتح جفنيّ، فنمتُ ساعة أو أكثر، رغم خوفي من فساد الهواء، ولم أصح إلا عند وصولنا إلى تيراتشينا؛ حيث جرى تغيير الجياد.

كان الحوذيّون هذه المرّة أكثر تهذيباً؛ لأن الماركيز لوكيسيني زرع فيهم الخوف من الله. زوّدونا بأفضل الجياد والأدلاء، نظراً لخطورة الطريق الواصل بين الأكمات الشاهقة والبحر. لقد شهد هذا الطريق وقوع الكثير من الحوادث، وبخاصة آناء الليل، حين تُصاب الجياد بالذُّعر لأدنى سبب. ولمّا انشغل الحوذيّون بربط الجياد، والحَرَس بتدقيق جوازات سفرنا، في آخر نقطة من نقاط حراسة روما، رحتُ أمشي بين الأكمة والبحر مراقباً أثراً عجيباً: الصخور الداكنة تشرئبّ بحدّة في ضوء القمر، الذي يُلقي شعاعاً قوياً متذبذباً على البحر الأزرق الممتدّ من الأفق الرحب إلى المويجات المتلألئة على الشاطئ.

وتربض على قمّة الجبل الشاهق فوقي، في السماء الزرقاء المعتمدة، أطلال قلعة جينسيريك، التي جعلتْني أتذكّر سالف الأيام؛ أحسستُ بتوق كونرادين للفرار، وآلام شيشرون وماريوس اللذين عانيا ما عانيا في هذه البقعة.

مضينا بعد ذلك في العربة تحت ضوء القمر على طول سفح الجبل بين ساحل البحر وجلاميد الصخر العملاقة التي تدحرجت من عل. وبرزت قرب فوندي غياض أشجار الزيتون والنخيل والصنوبر واضحة في ضوء القمر؛ باستثناء غياض الليمون التي لا تفيد من القمر؛ حيث لا يتجلّى بهاؤها التامّ إلا حين تشرق الشمس؛ لتنير ثمارها الذهبية اللامعة. عبرْنا الجبل بما فيه من أشجار زيتون ونبتات الخرنوب، وانبلج نور الصباح حين بلغنا مدينة قديمة، تحوي أطلال شواهد كثيرة من المقابر. ويقال إن أكبر

هذه الشواهد شيد تكريماً لذكرى شيشرون، في الموضع الذي قُتل فيه غيلة. وانصرم ردح كبير من النهار حين بلغنا خليج مولا دي جايتا الجميل. كان صيّادو السمك قد عادوا لتوّهم بصيدهم الوفير، فبدا البحر في صورة نابضة بالحياة. كان بعض الصيّادين يحمل الأسماك وحيوانات البحر في سلال، وكان آخرون منهمكين في تهيئة الشباك لجولة صيد ثانية. واصلنا المسير من هناك إلى جارجليانو؛ حيث تجري الحفريات الآثارية بأمر من الفارس كافاليري فينوتي. عند هذا الموضع، تركَنَا هاكرت؛ إذ كان يتعجّل الوصول إلى كاسيرتا، فنزلنا مشياً على الأقدام من الطريق إلى ساحل البحر؛ حيث أعدّوا لنا إفطاراً، يقوم تقريباً مقام عشاء. إن الآثار القديمة المحتفرة معروضة هنا، إلا أنها مهشّمة تهشيماً مؤسياً. ومن بين الأشياء الجميلة ثمّة ساق لتمثال، لا يكاد يقلّ عن تمثال أبوللو بيلفيدري روعة. أيّ حظ رائع لو أن المنقّبين عثروا على بقية التمثال!

ولمّا كان التعب قد أخذ منا مأخذه، رقدْنا؛ لنأخذ قسطاً من النوم، وحين أفقنا، وجدنا أنفسنا في صحبة عائلة رائعة، تسكن في الجوار، وقد جاءت لتدعونا إلى العشاء، وهو لطف حظينا به، على الأرجح، بفضل هاكرت. انتصبت مائدة جديدة لأجلنا، ولكني ما استطعتُ تناول الأكل، ولا الجلوس في راحة، رغم الصحبة اللطيفة، فرحتُ أتمشّى بين الصخور على طول الساحل. كان بعض هذه الصخور غريب الشكل حقاً، وبخاصة تلك التي ثقبتْها الحشرات البَحْريّة حتّى صارت أشبه بالإسفنج.

ورأيتُ أيضاً مشهداً صغيراً ممتعاً. ثمّة راعٍ للماعز ينزل من الجبل مع قطيعه الذي راح يخوض في الماء طلباً للابتراد. وعندئذ جاء راعٍ آخر بقطيع خنازير، نزل الماء للابتراد أيضاً. وجلس الراعيان في الظلّ، وأخذا يعزفان؛ عزف راعي الخنازير على الفلوت، أما راعي الماعز؛ فعزف على

ناي القرية. أخيراً ظهر فتى عار تماماً على ظهر حصان، خاض به البحر حتّى اضطر الحصان إلى السباحة. ولمّا عاد الفتى المكتمل قوي البنية، من البحر، اقترب من الساحل اقتراباً، مكّنني من رؤية جسمه كاملاً، ثمّ عاد إلى البحر، فما عدتُ أتبيّن سوى رأس الحصان السابح، وكتفي فارسه.

انطلقنا في الرحلة من جديد عند الساعة الثالثة. وبعد أن قطعنا ثلاثة أميال عن كابوا. اتّفق ذلك مع أول ساعة من الليل. انكسرت العجلة الخلفية لعربتنا. سبّب ذلك لنا تأخيراً دام عدّة ساعات. بعد استبدال العجلة، قطعنا نحو ميلين آخرين، فانكسر المحور الحامل للعجلات. أثار ذلك حنقنا، وعكّر صفو مزاجنا؛ كنا جدّ قريبين من نابولي، مع ذلك، لم نكن قادرين على الاتصال بأصدقائنا. ووصلنا أخيراً بعد ساعات قلائل من منتصف الليل. مع ذلك، وجدنا عدداً غفيراً من الناس في الشوارع، بما يزيد عن عدد الناس عند الظهيرة في أية مدينة أخرى.

ألفيتُ كل الأصدقاء في أتمّ عافية، وهم سعداء بأن يعرفوا أنك بكل خير. إنني أسكن في منزل هاكرت. يوم أمس الأول زرتُ السير ويليام هاميلتون في فيلته في بوسيليبو. ليس ثمّة ما يضاهي هذه الفيلا روعة في طول العالم وعرضه. بعد الغداء، توجّهت دزّينة من الأولاد للسباحة في البحر. وكان من الممتع حقاً مراقبة الزمر التي شكّلها الأولاد، والأوضاع التي اتّخذوها خلال لعبهم. بعد ذلك، رحنا في نزهة تجذيف بقارب. إنني أحبّ هذا الرجل كثيراً. تحدّثنا في مواضيع كثيرة شتّى؛ وتعلّمتُ منه الكثير، مثلما أتطلّع إلى أن أغرف من مَعينه المزيد في المستقبل. الرجاء أن تُرسل لي أسماء أصدقائك الآخرين هنا حتّى أتعرّف إليهم، وأنقل إليهم تحياتك. سوف تصلكَ مني رسائل أخرى قريباً. اذكرني بالخير عند كل أصدقائنا، وبخاصة إنجيليكا ورايفنشتاين.

ملحوظة: الجوّ هنا أكثر حرارة من روما، لكن الهواء مُنعش بفضل هبوب نسيم طري طوال الوقت. مع ذلك، فالشمس أشدّ. كانت الأيام الأولى لا تُطاق، وأمتنع عن كل شيء سوى الثلج والماء المثلّج.

رسالة لاحقة، بلا تاريخ

تمنّيتُ بالأمس لو أنك معنا هنا. لم أشهد في حياتي، قط، مثل هذا الصخب، وكل هذه الحشود الغفيرة، رغم أن كل ما كان يفعله الناس لا يزيد عن شراء الطعام؛ كما لم أشهد، قط، مثل هذه التلال من الطعام معروضة للبيع. بالأمس واليوم، جلستُ إلى المائدة، وذُهلتُ لمرأى الطريقة التي يزدرد بها الناس الطعام في شره؛ كان ترك أي فضلة من الأكل بمثابة خطيئة. جاء كنيب أيضاً، وملأ جوفه بالأطايب حتّى خشيتُ على بطنه من أن تنفجر. لكن ذلك لم يثنه عن عزمه، ولم يكفّ عن الحديث عن شهيّته الكبيرة للأكل في السفينة، وفي صقلية، حين كنتَ أنتَ، رغم كل ما دفعتَه من مال صائماً، بل تكاد تموت من سغب، بسبب اعتلال المزاج، من جانب، والتزاماً بالمبدأ، من جانب آخر. إن نابولي مدينة حباها الباري ببركة ملذّات، تُشبع كل الحواسّ.

رسالة أخرى لاحقة، بلا تاريخ

أرفق بالرسالة رسماً للأتراك المأسورين. لم تكن السفينة هرقل[*] هي التي أسرتْهم، كما ورد في أولى التقارير، بل سفينة حربية أخرى كانت تحمي صيّادي المرجان. رصد الترك هذه السفينة الحربية المسيحية، وحاولوا الاستيلاء عليها. وكانت تلك غلطة فادحة ارتكبوها؛ لأن المسيحيين أثبتوا أنهم الأقوى، فأوقعوا بهم، واقتادوهم أسرى إلى نابولي. كانت السفينة المسيحية تضمّ ثلاثين مسلّحاً، أما التركية؛ فأربعة وعشرون، وقد لقي ستة

---

*) هرقل هواسم السفينة التي جلبت هرقل فارنيزي إلى نابولي.

أتراك حتفهم، وجُرح تركي آخر. ولم تقع أية إصابة بين المسيحيين، فقد حمتْهم العذراء. وفاز القبطان بجائزة كبرى لنفسه: وفرة من النقود، والحرير، والبن، والمجوهرات الثمينة التي تخصّ شابة مغربية. ومن الغريب حقاً أن نرى آلاف الناس يجذّفون في القارب تلو القارب لرؤية الأسرى، وبخاصة الفتاة الأسيرة. ورغب عدّة معجبين في شرائها، وعرضوا مبالغ طائلة في سبيل ذلك، لكن القبطان لا ينوي بَيْعها.

كما إني خرجتُ بالقارب كل يوم، والتقيتُ ذات مرّة السير ويليام هاميلتون، والآنسة هارت هناك. وكانت الآنسة شديدة التأثّر، وانخرطت في البكاء، فأجهشت الأسيرة في البكاء هي الأخرى. وأرادت الآنسة هارت شراء الأسيرة، لكن القبطان أصرّ على موقفه، ورفض بيعها. لقد اقتيد الأسرى الآن بعيداً. أما الرسم الذي وضعته؛ فسيحكي لك بقية الحكاية.

ملحق
المنسوجات البابوية

لا أعرف شيئاً عن التطوّر التاريخي لفنّ حياكة المنسوجات الفنية. ولعلّه بدأ في القرن الثاني عشر بعمل رسوم منفصلة لعدّة شخصيات بالتطريز، أو بوسيلة أخرى، ثمّ ربطها معاً بقطع أخرى من النسيج المشغول. ويجد المرء مثل هذا السجّاد أو القطع المنسوجة معلّقة في أعلى جدران منصّة الخورس في كل الكاتدرائيات القديمة. ويحمل هذا العمل بعض أوجه الشبه بالزجاج المنقوش في نوافذ الكنائس في بداية تلك الحقبة، وهو زجاج معمول من قطع مزجّجة صغيرة جداً؛ وقد أخذت الإبرة والخيط في حال المنسوجات محلّ الرصاص وشرائط القصدير في حال الزجاج الملوّن. وإن سائر التقنيات الفنية البدائية هي من هذا الصنف؛ وقد رأيتُ سجّاداً صينياً معمولاً بالطريقة ذاتها.

وفي بداية القرن السادس عشر، بلغ فن نسج السداة العالية المعروف باسم السجّاد المصوّر (بالفرنسية) ذروة الكمال، وربّما كان ذلك بتأثير الشرق، في هولندا التي كانت ترفل في ازدهار عظيم. وإن المنسوجات المصنوعة هناك قد أخذت طريقها إلى الشرق، ولا ريب أنها كانت معروفة في روما أيضاً، وإن يكن ذلك على الأرجح اعتماداً على نماذج بيزنطية ناقصة. وأراد ليو العاشر، وهو رجل ذو روح عظيمة، ومتحرّرة من نواح عدّة، وبخاصة في الأمور الجمالية، أن يحيط نفسه بالمنسوجات الفنية التي تُصوِّر ببساطة متكافئة نفس الموضوعات السامية المُصوَّرة في أفاريز الجدران؛ ورسم رافائيل نزولاً عند طلبه التخطيطات المطلوبة على الورق،

منتقياً الموضوعات من حياة السيد المسيح وحوارييه وأعمال الرُّسُل بعد موت السيد المخلّص.

ولم أدرك الوظيفة المناسبة لهذه المنسوجات الفنية إلا في عيد القربان، حين ازدانت بها الأعمدة والمساحات الخالية؛ لتتحوّل إلى قاعات وممرّات بديعة، تُكحّل عين الناظر بعبقرية رجل موهوب، وتقدّم له مثالاً بديعاً عن كمال الفن وكمال الحرفة، وقدرة هذين، بتضافرها، على ابتداع عمل حيّ من الطراز الأول.

إن رسومات رافائيل الورقية المحفوظة حتّى الآن في إنجلترا، ستظلّ موضع إعجاب أزلي في نظر العالم بأسره. ولا ريب أن المعلّم نفسه نفّذ معظمها بيده مباشرة، وهناك أخريات وُضعت اعتماداً على رسوماته وتخطيطاته، وأخريات خُطّت بعد موته، لكنها تتميّز جميعاً بنفس المثل الأعلى الفني، ذلك أن فناني سائر الأمم كانوا يتوافدون على روما؛ ليجدوا إلهاماً أعظم، ولينمّوا مواهبهم.

ويقدّم لي هذا الموضوع المناسبة للتأمّل في نزوع الفنانين الألمان من تلك الفترة إلى الانجذاب العميق الجارف نحو أعمال رافائيل المبكّرة الذي نتلمّس أثره في نتاجاتهم.

إننا نشعر، في أي حقل من حقول الفن، بالقرابة مع الشابّ الموهوب المرهف، الذي يتأمّل فيما هو رقيق وجميل وطبيعي، ورغم أننا قد لا نتجرّأ صراحة على المجاهرة بمقارنة ذواتنا معه، إلا أننا نأمل سرّاً أن نحاكيه، ونضاهيه، فيما أنجز.

أما مع الفنان الناضج؛ فلا نشعر بمثل هذا القدر من الارتياح. فنحن نحسّ غريزياً أن الظروف التي تبلغ فيها أشدّ المواهب الطبيعية البارزة ذروة الإنجاز إنما هي ظروف استثنائية خارقة، وهذا يُفزعنا. وإذا لم نكن

نريد الوقوع في براثن اليأس، فإننا نلتفت إلى الفنان في سنوات تكوينه الأولى؛ لنقارن أنفسنا به، ونستلهم منه.

لهذا السبب، انجذب الفنانون الألمان إلى أعمال رافائيل المبكّرة الأقلّ براعة. فبإزاء هذه الأعمال الأولية يمكن لهم الحفاظ على الثقة بالنفس، بل إطراء النفس، وتعليلها بأمل إنجاز شيء، اقتضى قروناً متلاحقة حتّى يدخل حيّز الإمكان.

ولكنْ؛ دعوني أعود إلى رسوم رافائيل لهذه المنسوجات الفنية، وأقول: إنها مرسومة وفق تصوّر مكتمل، وخاضعة لسطوة روح نبالة غريزية، وحرص أخلاقي جادّ، ورغم أنها مبهمة في بعض المواضع، فإنها يسيرة على فَهْم كل مَن يقرأ ما نصّ عليه الكتاب المقدّس من قدرة المخلّص على إتيان المعجزات، ونقل هذه البركة إلى حوارييه بعد قيامته.

دعوني أتناول مثالاً واحداً فقط . موضوع فَضْح وعقاب حنانيا . وأقارن الحفر الصغير على الرصاص اعتماداً على أحد رسوم رافائيل، والذي يُنسب ليس بدون وجه حقّ إلى مارك أنطونيو، بالنسخة التي رسمها دوريجني لتخطيط رافائيل.

هناك قلّة من التشكيلات التي يمكن أن تُقارَن بهذا من ناحية القدرة على تصوير فعل خارق ومعقّد بأبسط لغة تصويرية ممكنة.

إن الرُّسُل يقفون بانتظار أن يتقدّم الآخرون بنذورهم من المتاع الشخصي لأجل الصالح المشترك. وإن المؤمنين يفدون من هذا الجانب حاملين أعطياتهم، والفقراء يقفون من الجانب الآخر؛ ليتلقّوها، أما المحتال؛ ففي الوسط ينال عقابه الفظيع. إن اتساق مزاج الشخوص مُعطىً في الوضع كله، وإن أهمّيّتهم لا تخبو، بل تشتدّ بفعل متطلّبات الموضوع، مثلما أن

الأبعاد المتناسقة الضرورية لجسد الإنسان تستمدّ أهمّيّتها الطاغية من الحركات المتنوّعة للحياة.

بوسع المرء أن يعلّق بلا نهاية على الحسنات الكثيرة لهذا العمل، لكني سأقتصر على واحدة منها. من الواضح أن الرجلين اللذين يقتربان حاملين صرّة من الملابس، لابد أن يكونا من أقرباء حنانيا؛ ولكنْ: كيف يسعنا أن نفهم من مظهرهما أن قسماً من هذا النذر قد أُخفي، وأن هناك خديعة نَهْب من الصالح العام؟ وهنا نلاحظ، على أية حال، امرأة شابّة، جميلة، تعدّ النقود، في ابتهاج، من يدها اليمنى إلى يدها اليسرى، فنتذكّر في الحال الكلمات المقدّسة: "لا تدع يدك اليمنى تعرف ما فعلتْه اليسرى." ندرك - إذنْ - من تعبير الفرح الماكر على وجهها، دون أدنى ريب، أن هذه المرأة هي صفنيا زوجة حنانيا، وهي تحصي النقود التي كان ينبغي تسليمها للرُّسُل ابتغاء أن تحتفظ بقسم منها لنفسها. وكلّما أنعم المرء الفكر في ذلك، زادت روعة المشهد وفظاعته. فها هنا زوجها يُعاقَب، ويتمرّغ على الأرض أمام أنظارنا: وعلى مَبعدة خطوات منه، زوجته، الغافلة عمّا يجري، والجاهلة بالمصير الذي ينتظرها، تتخابث لأجل أن تخدع أولياء الرب. وكلّما أنعم المرء فكره في المشكلة الأبدية للتعبير الصوري عن الفعل البشري، ممّا تثيره هذه الصورة، زاد إعجابه بالطريقة المعتمدة لحلّها.

إن حفر مارك انطونيو يناهز حجم الأصل الذي رسمه رافائيل؛ أما نسخة دوريجيني؛ فأكبر مقاساً. وإن المقارنة بين الاثنين تدفع المرء إلى التأمّل في الحكمة التي دفعت موهبة رافائيل إلى تناول الموضوع نفسه؛ ليعالجه معالجة ثانية، تنطوي على تحويرات وتحسينات. إن مثل هذه الدراسات، وهو ما أعترف به بكل سرور، هي من بين أعظم المتع في حياتي كلها.

شهر تموز ١٧٨٧
مراسلات

روما، ٥ تموز (يوليو)

إن حياتي الراهنة تشبه تماماً حلم الشباب؛ بقي أن أرى إن كان القدر سيأذن لي في التمتّع بها، أم إنها، شأن كثرة من الأحلام، ستُسفر عن وَهْم فارغ.

غادر تيشباين. لقد نظّف مَرسمه، ورتّبه على أحسن ما يكون؛ بحيث إنني أتمتّع بالسَّكَن فيه. إن الملاذ المبهج ضرورة مطلقة في هذا الفصل. فالحَرّ فظيع. أستيقظ عند الفجر، وأتنزّه مشياً إلى أكوا أكيتوسا، وهو ينبوع مياه معدنية، يبعد مسافة نصف ساعة سيراً على الأقدام من بورتا ديل بوبولو؛ حيث أسكن. وهناك أشرب الماء، الذي يشبه في مذاقه طعم الماء الفوّار المخفّف، إلا أنه شديد المفعول. وأعود إلى البيت في الثامنة، وأشرع في العمل وفق ما يُمليه المزاج. إنني في أتمّ عافية. إن حرارة الجوّ تطرد كل الأخلاط(*) السائلة، وتدفع الحموضة في الجسم نحو الجلد، وهذا أفضل من التعرّض إلى وخزات الألم المبرح. أما في الرسم؛ فإني أواصل تهذيب ذائقتي وصقل يدي. بدأتُ أهتمّ اهتماماً جاداً بفنّ العمارة، وأكتسب المعرفة هنا بيُسر مذهل. في الجانب النظري، لا العملي الذي يتطلّب تكريس جهود حياة كاملة. وإن مزيتي الرئيسة أنني وصلتُ إلى هنا من دون تصوّر مُغترّ، أو متباه بالنفس، ومن دون آمال مسبقة عمّا ينبغي أن أجده. رغبتي الوحيدة ألا يبقى أي شيء مجرّد كلمة إزائي؛

*) الأخلاط هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء التي اعتقد القدماء أنها وراء الصحّة والمزاج.

فأنا أريد أن أرى وأحكم بنفسي على كل ما يُقال إنه جميل وعظيم وسام. ولا يمكن تحقيق ذلك من دون استنساخ، ويتوجّب عليّ الجلوس إلى الطاولة، واستخدام رؤوس من الجبس بمثابة موديل. ويعلّمني الفنانون الطريقة الصحيحة. وإنني مستمرّ على الانفراد بنفسي قدر الإمكان، رغم أنني لم أستطع رفض بعض دعوات العشاء، هنا أو هناك، في بداية هذا الأسبوع. إنهم يريدون اصطحابي معهم أينما ذهبوا، فأدعهم يرغبون، وأبقى ملتزماً عزلتي. وإن موريتز، وعدد من أبناء جلدتنا ممّن يسكنون المنزل، ورجل سويسري فاضل، هم كل مَن أراه كثيراً. أحياناً، أزور إنجيليكا وهوفرات رايفنشتاين، لكني أحتفظ بمسافة فاصلة، ولا أفتح قلبي لأحد. عاد لوكيزيني، وهو رجل يرى الجميع، مثلما يراه المرء في كل مكان، كما أنه رجل ضليع في حقل اختصاصه، إن لم أكن مخطئاً في هذا. سأكتب إليكم قريباً عن شتّى الناس الذين آمل أن ألتقيهم في القريب العاجل.

أعكف على كتابة "إيجمونت"، وآمل أن أفرغ منه بنجاح. هناك على الأقل أعراض لم تخدعني قط، أتلمّسها كلّما انكببتُ على الكتابة في هذا العمل. ومن الغريب حقاً أن ينقطع عملي على هذه المسرحية عدّة مرّات؛ لأتفرغ لإنجازها أخيراً في روما بالذات. إن الفصل الأول جاهز تقريباً في نسخة مبيضة، وهناك مشاهد كاملة لا تحتاج إلى تشذيب.

لقد أصبتُ فرصاً كثيرة جداً للتأمّل في شتّى ضروب الفن؛ بحيث إن كتابي "فيلهلم مايستر" سيغدو ضخماً للغاية. لكني أعتزم حذف كل النصوص القديمة منه؛ لقد بلغتُ من العمر مبلغاً، يوجب عليّ ألا أبدّد أي وقت، إن أردتُ إنتاج شيء مثمر. ولكم أن تتخيّلوا أن لديّ المئات من الأفكار الجديدة، تطوف في رأسي، غير أن المهمّ هو الإنجاز لا التفكير؛ وإن من بالغ الصعوبة حقاً وضع الأشياء في السياق الصحيح؛ لكي تكون

في موضعها اللازم تماماً، لا في موضع آخر. أودّ الحديث مطوّلاً معكم حول الفن، ولكنْ: ما عساي أن أقول في غياب الأعمال الفنية ذاتها؟! ثمّة صعوبات طفيفة تواجهني، غير أني آمل أن أذلّلها. وعليه لا تحسدوني على الوقت الذي أقضيه هنا، فهو بالنسبة لي غريب ومثير، بل امحضوني رضاكم المحبّ على بقائي في روما.

يتوجّب عليّ الآن أن أتوقّف عن الكتابة، وأن أترك، رغماً عن إرادتي، صفحة كاملة فارغة. فالحَرّ اليوم مُهلك، وقد غرقتُ في النوم قبل مغيب الشمس.

٩ تموز (يوليو)

سألتزم في المستقبل كتابة بضعة أسطر كل أسبوع، حتّى لا تأخذني مواعيد البريد والأحداث المفاجئة على حين غرّة؛ لتمنعني عن إرسال بضعة كلمات مفيدة إليكم.

بالأمس شاهدتُ، وأعدت مشاهدة الكثير، زرتُ نحو اثنتي عشرة كنيسة، تتميّز بأجمل مذبح كَنَسي. بعد هذا، ذهبتُ في صحبة إنجيليكا لمشاهدة أعمال مور، وهو رسّام مناظر طبيعية إنجليزي، تتميّز جلّ أعماله برصانة الإعداد والتفكير. وتضمّ أعماله لوحة بعنوان "الطوفان"، وهي فريدة في بابها. لقد رسم الفنانون الآخرون هذا الموضوع بهيئة بَحْر مفتوح، يوحي بفكرة الامتداد المائي الهائل، من دون إظهار الأمواه الصاعدة، أما مور: فقد صوّر واديا معزولاً، تتدفّق إليه الأمواه؛ لتُغرقه بالكامل. وإن أشكال الصخور توحي بأن منسوب المياه قد بلغ القمّة، ولمّا كان الوادي مغلقاً في آخره، وكانت الأكمات المطلّة عليه حادّة، فإن الأثر الإجمالي للّوحة يثير الرعب. وإن سائر التدرّجات اللونية في اللوحة رمادية؛ من المياه الهادرة الممزوجة بالوحل، إلى المطر المدرار، وتتدفّق شلالات الماء من

الصخور، كما لو أن كتلها الضخمة توشك على الانحلال إلى العنصر الأولي الشامل، أما الشمس؛ فخابية تماماً، وتبدو مثل قمر شاحب من خلال ضباب الماء، رغم أن الليل لم يجن بعد. هناك في وسط مقدّمة اللوحة بعض المخلوقات البشرية التي اتّخذت ملاذاً لها في سهل معزول، لحظة وثوب مياه الطوفان؛ لتغمرهم جميعاً. إنها لوحة عملاقة، يبلغ عرضها نحو سبعة إلى ثمانية أقدام، وارتفاعها نحو خمسة إلى ستة أقدام. رأيتُ لوحتين أخريين لمور، الأولى هي "الصباح"، والثانية هي "المساء"، لكنْ؛ لا مجال هنا لوصفهما.

أُقيم احتفال على مدى ثلاثة أيام كاملة في آرا كولي على شرف تطويب اثنين من أعضاء الأخوانية الفرانسيسكانية. واجتذبت ديكورات الكنيسة، وصداح الموسيقى، والأضوية والألعاب النارية جماهير غفيرة. وأُضيء مبنى الكابيتول القريب بالأضواء هو الآخر، أما ساحته؛ فكانت مسرح ألعاب نارية. وعلى العموم، كان الأثر جميلاً، إلا أن الاحتفال لا يزيد عن محاكاة باهتة لعيد القدّيس بطرس. وجاءت سيدات روما، صحبة الأزواج أو الأصدقاء، وهنّ يرتدينَ ملابس بيضاء، ووشاحات سوداء، ممّا أضفى عليهنّ رونقاً جميلاً وأناقة أخّاذة في الظلام. وتزداد الآن وتيرة النزهات المسائية على الأقدام، أو في العربات على طول الكورسو، نظراً لمكوث الناس في بيوتهم خلال النهار. إن حرارة الجوّ مقبولة، وقد هبّ نسيم عليل خلال الأيام القليلة الماضية. إنني أبقى هادئاً في المرسم البارد، وأنا في مزاج سعيد. ثابرتُ العمل على مسرحية "إيجمونت"، وأحرزتُ تقدّماً ملحوظاً فيها. غريب أن تشهد شوارع بروكسل(*) في هذه اللحظة تنفيذ مشاهد، سبق أن كتبتُها قبل اثني عشر عاما: سيُفسّر الناس بعض الحوارات، على الأرجح، وكأنها هجاء للحاضر.

*) اندلع تمرّد في بروكسل احتجاجاً على إصلاحات جوزيف الثاني، وولية العهد ماريا كرستين.

١٦ تموز (يوليو)

ذهبتُ بالأمس مع إنجيليكا لزيارة الفارنازينا؛ حيث توجد لوحات "النفس" الأسطورية هناك. لقد سبق أن رأيناها، أنا وأنتُم، في هيئة نسخ ملوّنة في غرف منزلي، وإنني لأحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب. وإن هذه القاعة، أو بالأحرى هذا المعرض الفني، يتميّز بأجمل الديكورات قاطبة، ممّا رأيتُ، رغم أن الترميم قد خرّبها حقاً.

جرى اليوم قنص الحيوان في ضريح أوغسطوس. ولأجل هذه الغاية تحوّل هذا المبنى، الفارغ في العادة من الداخل، والمفتوح من الأعلى، والدائري في الشكل، إلى حلبة، تشبه المسرح الروماني، قادرة على استيعاب أربعة إلى خمسة آلاف شخص. وجدتُ المشهد أبعد ما يكون عن البهجة.

١٧ تموز (يوليو)

زرتُ هذا المساء الباتشيني، مرمّم التماثيل القديمة؛ لأرى تمثالاً نصفياً للإله أبوللو، وهو جالس على مقعد، وقد عثروا عليه ضمن مجموعة فارنيزي، وسيُؤخذ إلى نابولي. لا مثيل لجمال هذا النحت، وهو واحد من خير القطع التي ورثناها عن زمان الأقدمين.

تناولتُ العشاء مع الكونت فرايس. ووجدتُ معه الأب كاستي، الذي يرافق الكونت في حلّه وترحاله، وقد قرأ لنا واحدة من حكاياته القصيرة، وعنوانها "كبير أساقفة براغ"، وهي مكتوبة مقاطع شعرية مثمّنة (attava rima). إنني أعرف كاستي أصلاً بوصفه مؤلّف كتاب "الملك تيودور في البندقية" Re Teudor in Venezia، وهو من الكُتُب المفضّلة عندي. أما الآن؛ فقد ألّف "الملك تيودور في كورسيكا"، وقد طالعتُ المشهد الأول منها، فوجدتُه أخّاذاً بالمثل.

يثابر الكونت فرايس على توسيع مجموعاته الفنية، وقد اقتنى أعمالاً كثيرة، بينها لوحة "العذراء" بريشة أندريا ديل سارتو لقاء ستمائة سيكوين(*) وهي لوحة لطيفة، لا يسع المرء أن يأخذ فكرة عنها، ما لم يعاينها بنفسه. وكانت إنجيليكا قد عَرضت على الفنان في آذار (مارس) الماضي أربعمائة وخمسين سيكوين ثمناً للوحة، وكانت مستعدّة لدفع الثمن المطلوب كله، لولا اعتراض زوجها المحترس. أما الآن؛ فكلاهما يعضّ إصبع الندامة.

لا يمرّ يوم من دون أن يظهر إلى النور شيء جديد، يغمرني بالسرور، علاوة على الأشياء القديمة الدائمة. لقد تدرّبت عيناي على التقاط الفن، ولعلّني أصبح، بمرور الوقت، خبيراً.

يشتكي تيشباين في إحدى رسائله من القيظ المُهلِك في نابولي. الحَرّ هنا لا يقلّ سوءاً. قبل أسبوع كان الحَرّ هنا أشدّ، كما قال بعض الرحّالة، ممّا في إسبانيا أو البرتغال.

وصلتُ في مسرحية "إيجمونت" إلى الفصل الرابع؛ آمل حقاً أن تنال رضاكم. أتوقّع إكمالها خلال ثلاثة أسابيع، ولسوف أرسلها إلى هيردر فور الفراغ منها.

٢٠ تموز (يوليو)

توفّر لي متّسع كبير من الوقت، هنا؛ لكي أكتشف اثنتين من غلطاتي الكبار، اللتين ظلّتا تلاحقاني، وتعذّباني طوال حياتي. الغلطة الأولى أني لم أكترث بتعلّم الجانب الميكانيكي لأي شيء أريد العمل عليه، أو ينبغي لي العمل عليه. لهذا السبب، لم أنجز سوى القليل، رغم أن لديّ المقدرة الطبيعية الوافرة. فإما أني حاولتُ التضلّع فيه بقوّة الذكاء الخالص وحده،

*) السيكوين عملة ذهبية قديمة إيطالية وتركية.

وفي هذه الحالة، كان النجاح أو الإخفاق يتوقف على المصادفة والحظ، أو، أنني، إذا ما أردتُ القيام بشيء مثمر وفعلي على نحو هادف، تملّكني الريب، وعجزتُ عن إكماله. أما غلطتي الثانية المرتبطة وثيق الارتباط بالأولى؛ فهي أني لم أكن قط مستعداً لأن أكرّس الوقت اللازم لأي قطعة معينة من العمل، ممّا تتطلّبه هذه القطعة. لقد حُبيتُ بخصلة حسنة، خصلة القدرة على التفكير في عدّة أمور، وتأمّل روابطها، في فترة قصيرة، لكن النتيجة المتمخّضة عن ذلك أن التنفيذ التفصيلي للعمل، خطوة خطوة، بات يثير انزعاجي، ويصيبني بالملل. وقد آن الأوان؛ لكي أصحّح طرائقي. إنني في موئل الفنون؛ فلأدرسها دراسة مستفيضة؛ كيما أبلغ راحة البال ومَسرّة الروح إلى بقية عمري، وأتفرّغ لعمل شيء آخر.

إن روما مكان بديع. ولا يقتصر الأمر فيها على أن يجد المرء أشياء من كل شاكلة، بل بشراً من كل نوع، يأخذون عملهم مأخذ الجدّ، ويعرفون على وجه الدقّة ما هم فاعلون؛ وإن لمرء ليحرز في صحبتهم تقدّماً سريعاً هيّناً. بدأتُ، حمداً لله، أتمكّن من التعلّم من الآخرين، والإفادة من خبرتهم.

وعليه، أحسّ أنني أحسن حالاً، جسداً وروحاً. آمل أن تلاحظوا ذلك في نتاجاتي، وتقرّوني على غيابي. إنني ملتحم بكم في كل ما أكتب، وأفكّر؛ وما عدا ذلك، فإنني وحيد تماماً، أحتفظ بأفكاري لنفسي عندما أكون في صحبة الغير؛ غير أن هذا أسهل على البلوغ هنا ممّا في أي مكان آخر، إن لم يكن لشيء؛ فلأن ثمّة كثرة كاثرة من المواضيع الشيّقة للحديث.

يقول مينجز، في موضع ما، بخصوص تمثال أبوللو بيلفيديري، إن النحت الذي يجمع فخامة الأسلوب بالأداء الواقعي للجسد سيكون أعظم الأعمال بالمنظور الإنساني. إن تمثال أبوللو النصفي (لعلّه تمثال باخوس) الذي ذكرتُه آنفاً يفي، كما يبدو لي، باشتراطات مينجز، ويحقّق نبوءته. ورغم

أن عيني لم تتمرّن وتُصقَل بالقدر الكافي الذي يسمح لي بإصدار حكم في هذه المسألة الدقيقة، فإنني أميل إلى الاعتقاد أن هذه الكسرة من النحت هي أجمل عمل رأيتُه في حياتي قاطبة. ولسوء الحظ، فإن التمثال نصفي، ليس إلا، كما أن الأدمة اهترأت في مواضع عدّة، لربّما من طول الوقوف تحت إفريز سقف.

٢٢ تموز (يوليو)

تناولتُ الغداء مع إنجيليكا. صار التقليد الثابت أن أكون ضيفها كل يوم أحد. مضينا بالعربة صباحاً إلى قصر باربريني لرؤية ليوناردو دافينشي، ولوحة رافائيل لخليلته. إن مشاهدة اللوحات بصحبة إنجيليكا غاية في الإمتاع، فعينها مدرّبة على معاينة اللوحات، كما أنها تعرف الكثير عن الجانب التقني من فن الرسم. زد على ذلك أنها ذات حساسية مرهفة لكل ما هو صادق وجميل، وذات تواضع جمّ.

في العصر، زرتُ الفارس شيفالير دو إجينكورت، وهو فرنسي ثري، ينفق الوقت والمال في كتابة تاريخ الفن منذ انحطاطه حتّى انبعاثه. وسيكون هذا المؤلّف رائعاً، إن قُدّر له أن يُنجزه. ويمتلك إجينكورت مجموعة مثيرة تماماً، فهي تُثبت أن روح الإنسان بقيت وثّابة حتّى في أحلك الأزمان، وأكثرها اضطراباً.

أعكف حالياً على عمل يعلّمني الشيء الكثير. لقد تخيّلتُ ورسمتُ منظراً طبيعياً، يتولىّ الآن فنان قدير، اسمه ديز على تلوينه لي في أثناء مراقبتي له حتّى يمكن أن أتعلّم المزيد عن اللون والتناسق. وعلى وجه الإجمال، فإنني أحرز تقدّماً حسناً؛ المشكلة الوحيدة أنني أتولىّ، كما هو الحال دوماً، أعباء أكثر ممّا يجب. ولعلّ أشدّ ما يثير غبطتي، أنني أكتسب بسرعة، من خلال تدريب نفسي على دراسة الأشكال بدقة، حسّاً متوازناً

بالجسم وأبعاده، بينما عاد إليّ الحسّ القديم في تكوين الموضوع ووحدته. أما الآن؛ فكل شيء يتوقف على المران.

٢٣ تموز (يوليو)

في المساء، ارتقيتُ عمود تراجان، وحين يطلّ المرء من هذا العلو، وفي لحظة المغيب، على مبنى الكوليسيوم والكابيتول القريب منه، والبالاتين من خلفه، والمدينة التي تحيط به، فسيرى منظراً فائق الروعة. لدى عودتي الهوينا إلى البيت عبر الشوارع، كان الوقت قد تأخّر. إن ساحة بياتزادي مونتي كافالو مكان رائع بمسلّته الجميلة.

٢٤ تموز (يوليو)

ذهبتُ إلى فيلا باتريزي لمشاهدة الغروب، وتنشّق هواء طري، كما رأيتُ هذا المساء عمود أنطونيوس وقصر كيجي في ضوء القمر. كان العمود شاخصاً على منصّته البيضاء المتلألئة، وقد اسودّ بفعل الزمن، على خلفية سماء الليل الأخفّ قتامة. إن استيعاب حتّى جزء صغير من كل ما يوجد هنا؛ لكي يُرى، إنما يتطلب حياة كاملة، أو بالأحرى عودة الكثير من البشر، الذين يتعلّم الواحد منهم من الآخر على التعاقب.

٢٧ تموز (يوليو)

إن سائر الفنانين، شبّاناً وشيباً، يمدّون لي يد العون؛ لكي أصقل وأنمّي موهبتي الصغيرة. أحرزتُ بعض التقدّم في تكوين المنظور، والمعمار، والمناظر الطبيعية. لكن المخلوقات الحيّة تستعصي عليّ؛ ثمّة هوّة، مع ذلك يمكن لي أن أتعلّم كيف أعبرها، إن كرّستُ نفسي بكل جدّ.

إن غرفتي مكان بهيج للعيش في الطقس الحارّ. حظينا بيوم واحد غائم، ويوم آخر فيه مطر ورعد وبرق، بعدها جاءت بضعة أيام من الصحو باردة نسبياً.

٢٩ تموز (يوليو)

ذهبت مع إنجيليكا إلى قصر روندانيني. تتذكّرون بلا شك أنني تحدّثتُ في واحدة من رسائلي الأولى من روما، عن ميدوزا التي تركت انطباعاً عميقاً في ذهني. إن مجرّد معرفة أن بالإمكان إبداع مثل هذا العمل، وأنه ما يزال موجوداً في العالم، يدفعني إلى الشعور بأنني ضعف الشخص الذي كُنتُه. كان بودّي قول شيء عن ذلك، لولا أن كل ما يمكن للمرء أن يتفوّه به عن مثل هذا العمل هو مضيعة للكلام. فأعمال الفن وُجدت؛ لكي تُرى، لا لكي تتكلّم عنها، اللهم؛ باستثناء الكلام في حضورها. وإنني لأشعر بالخجل من كل الهذر حول الفن الذي كنتُ أشارك فيه. لو أمكن لي أن أحصل على قالب جيد من هذه الميدوزا، فسوف أجلبها معي، ولكنْ؛ لابد من صنع قالب جديد. هناك قوالب معيّنة للبيع، لكنها ضعيفة، أبعد ما تكون عن إعطاء أية فكرة عن العمل، بل مخرّبة له. إن الفن، بخاصة، نبيل نبلاً، لا يوصف.

٣٠ تموز (يوليو)

بقيتُ في البيت طوال اليوم، وأنا أعمل من دون توقّف. إن مسرحية "إيجمونت" توشك على الاكتمال. فالمشهد الرابع يقارب الانتهاء. سأرسل النص بيد ساع راكب، فور الفراغ من الاستنساخ. كم سأكون سعيداً لو تناهى إليّ أن هذا النتاج يحظى برضاكم. شعرتُ في أثناء تأليفه أنني شابّ من جديد، وآمل أن يشيع في القارئ إحساساً بالتجدّد.

دُعيتُ في المساء إلى حفلة رقص صغيرة، أُقيمت في الحديقة الواقعة خلف منزلنا. ورغم أن هذا الفصل ليس أحسن الفصول الموائمة للرقص، فقد قضيتُ وقتاً ممتعاً. فلهاته الإيطاليات الصغيرات الجريئات سِحْرهنّ الخاص. لو جرى هذا قبل عشر سنوات خلت، لوقع ما وقع، لكن تلك

النار قد خبت الآن، وتركت المكان قبل أن ينتهي الرقص. إن الليالي المقمرة جميلة جمالاً آخّاذاً؛ وحين يأخذ القمر بالبزوغ أول مرّة قبل أن يعلو الغبش، فإنه يبدو شاحباً أصفر مثل شمس إنجلترا (بالإيطالية)، أما بقية الليل؛ فيسطع منيراً ودوداً. ثمّة نسيم بارد اللحظة، يوقظ الحياة؛ لتبدأ من جديد. هناك دوماً جماعات من الناس في الشوارع، حتّى الهزيع الأخير من الليل، تعزف، وتغنّي. ويتناهى إلى السمع أحياناً ثنائياً يغنّي أجمل ممّا يراه المرء في الأوبرا أو الحفل الموسيقي.

٣١ تموز (يوليو)

حاولتُ نقل بعض تأثيرات ضوء القمر هذه على الورق، ثمّ أشغلتُ نفسي بشتّى القضايا الفنية الأخرى. مضيتُ إلى النزهة في المساء مع قرين من أبناء بلادي، وتجادلنا في تفاضل حسنات مايكل إنجيلو ورافائيل، انحزتُ إلى الأول، وانحاز هو إلى الثاني، فانتهينا بالثناء المشترك على ليوناردو دافينشي.

قصدتُ الأوبرا الهزلية في المساء. الفاصل المسرحي الجديد "المخرج في قلق"(*) بديع، وسوف يستمرّ عرضه عدّة ليال رغم حرارة الجوّ الخانقة.

هناك مقطوعة خماسية موفّقة، يقرأ فيها الشاعر مسرحيته، فيصفّق له مدير المسرح والممثّلة الأولى من هذا الجانب من المسرح، ويُصحّح له المؤلّف الموسيقي والممثّلة الثانوية الأخطاء، من الجانب الآخر من المسرح، حتّى ينتهي المشهد في شجار عام. وإن الخصيان (castrati)(**) الذين يرتدون ثياباً نسائية، يُتقنون أداء أدوارهم على نحو مطّرد، تتّسع معه شعبيتهم. وهم ممتازون حقاً بالنسبة لفرقة صيفية صغيرة كهذه. وبالطبع فإن هؤلاء الملاعين المساكين يعانون ما يعانون من القيظ.

---

*) "المخرج في قلق" (أو مدير الإنتاج في قلق)، هي أوبرا من تأليف كيماروزا.

**) مغنّو الأوبرا من الذُّكور المخصيين عمداً للحفاظ على نعومة أصواتهم.

بعض المسائل عن الطبيعة التي تُحيّرني، وتربكني

في أثناء التنزّه في الحدائق العامة في باليرمو، ومض في ذهني خاطر أن

عضو النبات الذي اعتدنا على تسميته بـ"الورقة"، يحوي بروتيوس Proteus[*]؛ أي المادة الأولية القادرة على أن تُخفي أو تكشف ذاتها في

كل الأشكال النباتية. فالنبات، من أوله ألى آخره، لا يزيد عن ورقة خضراء، لا تنفصل أبداً عن جبلة المستقبل؛ بحيث لا يمكن التفكير في هذه بمعزل عن تلك.

إن كل مَن مرّ بتجربة مواجهة فكرة حبلى بالإمكانات، سواء توصّل إليها بعقله وحده مع نفسه أم التقطها من آخرين، يعرف تماماً أنها تثير اضطراباً وحماساً في العقل، ممّا يدفع المرء إلى أن يستبق حدسياً تطوّراتها اللاحقة، والنتائج التي توصّل إليها.

انطلاقاً من هذا الإدراك، سيفهم هذا الإنسان أن رؤيتي هذه تحوّلت إلى هَوَس جامح، انشغلتُ به أيّما انشغال، وإن يكن ليس حصرياً، طوال بقية حياتي.

ورغم أن هذا الاهتمام أمسك بتلابيبي، جسداً وروحاً، فلم يكن وارداً في الحسبان أبداً أن أتابع الموضوع متابعة منهجية بعد عودتي من روما.

---

*) في الأساطير الإغريقية هو ربّ البحار القادر على تغيير صورته، كما يشاء. والمقصود هنا المادة الحيّة الأولية.

فالشعر والفن والأقدمون، أخذوا جميعاً، حصّتهم من انتباهي التامّ، فما قضيتُ في حياتي أياماً من الكَدّ والإنهاك مثل هذه. لا ريب أن علماء النبات المتخصّصين سيرون أن من السذاجة بالنسبة لي أن أقول إنني أخذتُ من كل الحدائق وفي كل النزهات والسير والتجول، يوماً بعد يوم، عيّنات كثيرة من النبات. وكنتُ - بالأخص - توّاقاً إلى أن أراقب كيف تظهر البذور عند طلوع النهار لحظة تبرعمها. فمثلاً، راقبتُ تبرعم الصبّار الذي يكتسب شكلاً مهولاً حين يكتمل نموّه، وسُررتُ لمّا رأيتُ أنه يتفتّح أولاً عن ورقتين رقيقتين، مثل ذوي الفلقتين، تتفتقان، بعد المزيد من النمو، عن الصبّار الكامل مشوّه الشكل. ووقعتُ أيضاً على قرنات جافّة من نبات الاقنثا اللين(*)، أخذتُه معي إلى البيت، وحفظتُه في صندوق صغير بلا غطاء. ذات ليلة سمعتُ شيئاً ينفلق، وتناهى بعدها ضجيج، كما لو أن جسيمات صغيرة ترتطم بالجدران والسقف. لم أعرف كيف أفسّر ذلك بادئ الأمر، لكني اكتشفتُ لاحقاً أن القرنية قد انفلقت، وتناثر بذارها في أرجاء الغرفة. إن جفاف الغرفة ساعد على إكمال صيرورة النضج في أيام معدودات. وإن بذور الصنوبر تنبجس بطريقة غريبة. في البدء، تندفع إلى الأعلى، كما لو أنها في بيضة مغلقة، لكنها سرعان ما تنضو عنها القشر كاشفة عن براعم شكلها المحتوم، محاطة بتُويج من الأبر الخضراء.

إن التكاثر عن طريق البراعم لا يقلّ إثارة عن التكاثر بواسطة البذور. وقد أكد هوفرات رايفنشتاين، الذي يقطع ما يصادفه في نزهته من غُصينات، وبشيء من الحذلقة، أن كل غُصين هذا كفيل بأن يواصل النمو في الحال، بمجرّد غرسه في الأرض.

ولإثبات ذلك، أخذني إلى حديقته؛ ليُطلعني على بعض الغصون

(*) Acanthus mollis نبات من فصيلة الشوكيات.

الغضّة التي بدأت تنمو جذوراً. لكم أتمنّى لو طال به العمر؛ ليرى أن طريقته في التكاثر هذه تُطبَّق بشكل شامل، وأنها اكتسبت أهمّيّة فائقة في مجال البستنة. ولعلّ أكثر ما يراه المرء إثارة للعجب نبتة قرنفل نمت؛ لتصل في ارتفاعها إلى ارتفاع شجيرة. إن حيوية هذه النبتة وطاقاتها على التكاثر معروفة تماماً. فالفروع تنبت مع البراعم، الواحدة فوق الأخرى، والعقد على الساق متراكبة مثل أنبوب. وقد استمرّت صيرورة النمو في هذه العيّنة، وأجبرت البراعم على الانبجاس من سجنها الغامض؛ لتنمو، وتعلو، وتكبر؛ بحيث إن الزهرة المكتملة نفسها أخرجت من كأسها أربعة أزهار أخرى. ولمّا كان يتعذّر الحفاظ على هذا الخَلْق العجيب، قرّرتُ أن أرسمه، على أمل أن أدرسه لاحقاً؛ لأنال معرفة أفضل عن المبدأ الأساس في تحوّل الكائنات.

شهر تموز ١٧٨٧
عودة إلى ما جرى

بعد أن قضيتُ بعض الوقت في المنزل، منفرداً لنفسي بنفسي، ومتحاشياً إلهاءات المجتمع الراقي، ارتكبتُ غلطة لا تقتصر على لفت أنظار كامل حيّنا، بل والمجتمع أيضاً. التوّاق أبداً إلى معرفة الأحداث الجديدة، وغير الاعتيادية. إليكم كيف حصل ذلك. لم تكن إنجيليكا تأمّ المسرح أبداً، ولم أستفسر منها عن السبب؛ ولكنْ؛ لما كنتُ عاشقاً مولهاً بخشبة المسرح، فقد كنتُ أطري في حضورها رشاقة وبراعة المطربين، وقوّة أثر موسيقى موسيقاري الأثير : كيماروزا. وقلتُ لإنجيليكا إن كل مبتغاي من ذلك هو أن أجعلها تشاركني الغبطة. لكن الشيء يقود إلى شيء آخر، فتحرّك بعض شباب حلقتنا، وبخاصة بوري، وهو صديق مقرّب للمطربين والموسيقيين، فأخذ منهم وعداً بأن يأتوا في أول سانحة إلى صالوننا (بالإيطالية)؛ ليعزفوا ويغنّوا أمام معجبيهم المتحمّسين. ويبدو أن هذا المشروع نُوقش مراراً؛ ليُرجأ دوماً. لكن الموازين انقلبت بالوصول المفاجئ لكرانتز، وهو عازف كمان بارع، يعمل في خدمة دوق فايمار، الذي أذن له بالذهاب إلى إيطاليا؛ ليواصل الدراسة.

وجدتُ الآن نفسي في وضع لطيف، يتيح لي أن أتمكّن من دعوة إنجيليكا، وزوجها رايفنشتاين، وجينكنز، وفولباتو، وكل مَن أدين له بمكرمة أو ضيافة، إلى حفل ترفيهي موقّر.

قام بعض المزيّنين اليهود بتجميل ديكور الصالون؛ وتولّى مالك أقرب

مقهى مسؤولية جَلْب المرطبات، فأقمنا حفلاً موسيقياً رائعاً، في ليلة حلوة من ليالي الصيف. تحلّق جمهور غفير في الشارع لصق المكان، وراح يصفّق في جذل وحماس للأغاني، كما لو كنا في مسرح. غير أن المفاجأة الكبرى هي مَقدم عربة كبيرة، تحمل عازفي الأوركسترا، ممّن كانوا يتنزّهون في أرجاء المدينة. توقّفت عربتهم تحت نافذتنا، وصفّقوا كثيراً للأداء الجاري في الطابق العلوي. وعندها صدحت حنجرة جهيرة مصحوبة بعزف كل الآلات، بالغناء من أكثر المقاطع الرائجة من نفس الأوبرا التي كنا نؤدّي مقاطع منتقاة منها. استقبلنا ذلك بالهتاف والتصفيق، وانضمّت إلينا أكفّ الجمهور، وأعلن الكل أنه لم يشهد ليلة موسيقى وغناء كهذه الليلة التي جاءت عن طريق المصادفة.

وهكذا بات سُكناي الهادئ الوقور قبالة قصر روندانيني، في لمح البصر، موئلاً للفضول في الشارع الرئيس (الكورسو). واستشرت شائعات تقول إن ثرياً إنجليزياً، كريم المحتدّ، يقطن هنا، من دون أن يتمكّن أحد من معرفة اسمه، أو تشخيصه من بين سائر الشخصيات البارزة في المدينة. لا مَراء في أن الحفلة كانت ستكلّف ثروة طائلة، لو أن الفرقة عزفت بأجر، ولكنْ؛ لمّا كان كل الأداء والعزف هو نشاط فنانين على شرف إمتاع فنانين آخرين، فإن التكاليف كانت جدّ متواضعة. عدتُ إلى سبيلي السالف في الحياة الهادئة، لكني لم أستطع تبديد الشائعات القائلة بأني مُوسر، نبيل الأرومة.

غير أن مجيء الكونت فرايس، أعطاني حافزاً جديداً للانغمار في الحياة الاجتماعية أكثر من ذلك، إذ جاء بصحبته الأب كاستين الذي أمتعني عظيم الإمتاع بقراءة مؤلّفه غير المنشور "حكايات غزلية" (نوفيلا جالانتي). إن أسلوبه الواضح، الطبيعي في القراءة، يجعل قصصه الذكية، وإن تكن غير محتشمة، تنبض بالحياة.

وشعرتُ بالأسى لأن محباً للفن، على هذا القدر من الذكاء والثراء، مثل الكونت، يضطر إلى التعامل أحياناً مع أناس غير جديرين بالثقة تماماً. لقد اقتنى جوهرة مصقولة مزيّفة، ممّا أثار الكثير من الجَدَل، وأصابه بالغمّ. إلا أنه سعد على أية حال باقتناء تمثال بارس الجميل، أوتمثال ميتراس، كما يُقال، ويوجد نظير لهذا التمثال في متحف بيو كلمنتينو: إذ عُثر على الاثنين في نفس الحفرة من الرمل. ولم يقع الكونت في حبائل تجّار الفن فحسب؛ بل تعرّض إلى منغّصات عديدة أخرى. زد على هذا أنه وقع فريسة شتّى الأمراض نظراً لأنه لم يعرف كيف يعنى بنفسه في فصل القيظ. اجتمعت كل هذه الأمور؛ لتنغّص عليه الأيام الأخيرة التي قضاها في روما. وقد أثار ذلك ألمي الشديد عليه، خصوصاً وأني أدين له بالكثير من الأفضال والجمائل، من قبيل إعطائي الفرصة لرؤية مجموعة جواهر الأمير دي بيومبينو.

وفي منزل الكونت فرايس لم تقتصر لقاءاتي على تجّار الفن، بل تعدّتْها إلى لقاء صفوة من رجال الأدب (ليتراتي) في ثياب كَهَنَة. غير أن الحديث معهم ثقيل مبهض. فما إن يشرع المرء بالحديث عن شعرهم الوطني، بأمل كسب المعرفة عن هذه النقطة أو تلك، حتّى يتيقّن أنه سيسأل عمّن يراه أعظم شعراً. أريوستو أم تاسو. وإذا ما خطر للمرء أن يقدّم جواباً حصيفاً بالقول إن علينا أن نشكر الله والطبيعة، لأنهما خصّا أمة واحدة برجلين عظيمين أعطيانا، كل بطريقة خاصة، لحظات رائعة من الغبطة والحبور، وجد أنه لن يكسب رضا أحد. فهم يسمون بالشاعر المفضّل عندهم إلى أعالي السماء، وينبذون الآخر على أنه لا يستحقّ حتّى الازدراء. كنتُ أحاول، في البدء، الدفاع عن الشاعر المنتبذ بالإلماح إلى مزاياه، ولكنْ؛ من دون أثر يُذكَر. لقد انقسموا، وانحازوا، وبقوا جامدين على رأيهم. تكرّر ذلك كثيراً، ولمّا كنتُ أنظر إلى المسألة نظرة جادة، فقد رغبتُ عن خوض

السجال المخالف، وتحاشيت طرق مثل هذه الأحاديث، خصوصاً بعد أن أدركتُ أنهم لا يكترثون حقاً بالشعر، وإن أقوالهم مجرّد عبارات جوفاء.

وزاد الطين بلة حين دار النقاش حول دانتي. ثمّة شابٌ ذو مكانة وذكاء معجب إعجاباً أصيلاً بالشاعر الكبير، لم يستقبل ثنائي على دانتي بروح المراعاة واللطف، فأعلن أنه لا يحق لأي أجنبي أن يزعم أنه استوعب عقلاً فريداً مثل دانتي، في حين أن الإيطاليين أنفسهم يعجزون أحياناً عن استيعاب مقاصده. وبعد شيء من الأخذ والردّ، استبدّ بي الحنق، فقلتُ له إن عليّ أن أعترف بأنني أوافقه الرأي، نظراً لأني لم أفهم حتّى الآن كيف يتجشّم الناس عناء قراءة تلك القصائد. وقلتُ له اني أعدّ قصائد "الجحيم" فظيعة،

وقصائد "المطهر" مبهمة، وقصائد "الفردوس"(*) مملّة. وفرح الشابٌ لأن كلماتي بدت له بمثابة برهان على صحّة أقواله. وافترقنا على أحسن ما تكون المودّة. بل إنه وعدني بأن يكتب لي بعض المقاطع العسيرة، مرفقة بشروحاته لها؛ لأن مغاليق معانيها، كما قال، لم تنفتح له إلا مؤخّراً بعد طول تفكير وتأمّل.

ولم تكن الأحاديث مع الفنانين ومحبّي الفن أكثر لطفاً من هذه للأسف. ولكنْ؛ يتعيّن على المرء، آخر المطاف، أن يغفر للآخرين النقيصة التي يجدها في ذاته. ففي البدء، مثلاً، كان رافائيل هو رسّامي الأثير، بعدها احتلّ مايكل إنجيلو هذا الموقع. ولا يسع المرء إلا أن يخلص إلى أن الإنسان مخلوق محدود جداً، فرغم أن روحه منفتحة على العَظَمَة، فإنه لا يحوز القدرة أبداً على الاعتراف بشتّى أنواع العَظَمَة، وتقديرها على قدم المساواة.

---

*) الجحيم والمطهر والفردوس هي ثلاثية الكوميديا الإلهية لدانتي.

افتقدتُ تيشباين، لكن رسائله النابضة بالحياة أسهمت في التعويض عن غيابه. فهو يواصل الكتابة عن أفكاره البديعة، ويقدّم سرده الفطن لشتّى الحوادث الغريبة، ويرفق ذلك بتخطيطات ورسومات عن لوحة، ذاع صيته من ورائها في نابولي. تُصوِّر اللوحة أوريستيس إلى منتصفه، في لحظة تعرّف إفيجينا عليه في مذبح الأضاحي في المعبد، بينما توشك آلهات الثأر المطاردات، على أن يتوارين عن الأنظار. إن شخصية إفيجينا في اللوحة تكاد أن تكون بورتريهاً مطابقاً للآنسة هارت، التي صارت فيما بعد الليدي

هاميلتون. وكانت الآنسة هارت، وقتذاك، في أوج جمالها وشهرتها، وقد عدّتُ خير موديل لرسم كل بطلات وأشباه الآلهة في الأساطير. بل إن إحدى آلهات الانتقام في اللوحة تميل إلى الشبه بالآنسة هارت.

وبالطبع فإن أي فنان قادر على إتيان مثل هذا الأثر الفني سيحظى بأجَلّ ترحيب في دائرة السير ويليام هاميلتون المميّزة.

شهر آب ١٧٨٧
مراسلات

١ آب (اغسطس)

لبثتُ في المنزل؛ لأعمل طوال الوقت، بسبب شدّة الحَرّ. عزائي الأكبر خلال موجة الحَرّ الشديدة هذه هي قناعتي الراسخة من أنكم أنتُم أيضاً، تنعمون بصيف لطيف في ألمانيا. ما ألطف أن يرى المرء القشّ حين يُجلب. في هذه الأيام من السنة ينقطع المطر تماماً؛ بحيث يمكن العمل في الحقول أي وقت يشاء الفلاحون. والمؤسف في هذا الأمر أن طرائقهم في الزراعة جدّ بدائية.

في المساء، سبحتُ في نهر التيبر انطلاقاً من جهاز استحمام آمن، حسن الموقع. بعد ذلك تنزّهتُ في ترينيتا داي موني متمتّعاً بطراوة النسيم والقمر. الليالي المقمرة هنا تشبه الليالي في الأحلام، أو في قصص الجنّيّات.

فرغتُ من إنجاز الفصل الرابع من مسرحية "إيجمونت"؛ وآمل أن أسجّل في رسالتي القادمة نبأ إكمالي لها.

١١ آب (اغسطس)

سأبقى في إيطاليا حتّى عيد الفصح القادم. لا يسعني ترك المدرسة الآن. فإن واصلتُ دراساتي، فكلي يقين من التقدّم المحرز سوف يشيع رضا أصدقائي كما رضاي. سأواظب على المراسلة في انتظام، حتّى تفكّروا

فيّ، مع كل رسالة تصلكم، أنني غائب، ولكنْ؛ على قيد الحياة، أنا الذي اعتدتُم على النحيب عليه، بوصفه الحاضر، ولكنْ؛ الميت.

قاربت "إيجمونت" على الاكتمال، ولسوف أرسلها إليكم نهاية هذا الشهر. بعد ذلك سأنتظر حكمكم عليها بفارغ الصبر.

لا يمضي يوم من دون أن أضيف المزيد إلى معرفتي بالفن، وإلى مهارتي فيه. يمكن للمرء هنا، إن كان راغباً ومتقبّلاً، أن يملأ روحه حتّى الثمالة بيُسر بالغ، شأن قنّينة تغطس في الماء.

السماء صافية على الدوام، والحَرّ اللاهب يبلغ أشدّه في الظهيرة، لكني أتفادى أسوأ لحظاته بالبقاء في مَرسمي البارد. أعتزم قضاء شهرَي أيلول وتشرين الأول (سبتمبر وأكتوبر) في الريف، وأرسم من الطبيعة. ولعلّني أعود إلى نابولي؛ لأغرف من تعليم هاكرت. فخلال الأسبوعين اللذين قضيتُهما معه في الريف، أحرزتُ من التقدّم ما لا يُحرَز في أعوام من العمل بمفردي. لن أبعث لكم أيّ رسم الآن، وسأنتظر حتّى أستطيع إرسال دزّينة أو أكثر من تخطيطات صغيرة، أظنّها حسنة بما فيه الكفاية.

قضيتُ الأسبوع المنصرم في عمل مثابر، وتعلّمتُ الكثير، وبخاصة رسم المنظور. وإن السيد فيرشافلت، وهو ابن عميد أكاديمية مانهايم، قد درس هذا الموضوع دراسة عميقة، وهو يعلّمني كل حيله. ثمّة رسوم هنا على حامل الرسم عن سطح القمر، ومواضيع أخرى، أغرب من أن أحكي لكم عنها.

كتبتُ رسالة طويلة إلى دوقة دواجر، ناصحاً إيّاها بإرجاء زيارتها إلى إيطاليا عاماً آخر. فإن غادرت في شهر تشرين الثاني (أكتوبر) قُدِّر لها الوصول إلى هذا البلد الفاتن لحظة تغيّر الطقس، ولن تجد ذلك مسلّياً

أبداً. أما إذا أخذت بنصيحتي في هذا وغيره من أمور، فإنها ستنعم، إن حالفها الحظ، بوقت طيّب. أشعر بالفرح، نيابة عنها، على مشروع سفرتها هذه.

إن الأمور مرتّبة خير ترتيب في فايمار، إلى درجة لا توجب القلق من المستقبل، في نظري أو نظر غيري. لا يمكن لكائن من كان أن يغيّر ذاته، ولا أن يفلت من قدره، وها أنذا آمل أن أنال رضاكم عن خططي بعد أن أبلغتُكم بها.

سوف أواظب على الكتابة، كما سأظلّ معكم دوماً بروحي، خلال الشتاء كله.

سيصلكم نصّ مسرحية "تاسو" بعيد رأس السنة. أما نصّ "فاوست"، القابع في جعبة حامله؛ فسيعلن لكم عن وصولي. بحلول ذلك الوقت، أكون قد عشتُ أهم فترة في حياتي، ورتّبتُ أمورها أحسن ترتيب، حتّى أستطيع أن أتولّى مهامّي من جديد. إنني أشعر بالاطمئنان العميق، ولا أكاد أتعرّف على الشخص الذي كُنتُه قبل عام.

إنني أعيش على الثروات الروحية من كل ما هو قيّم وثمين عندي. الواقع أني لم أشعر بالرضى الممتع عن نفسي إلا خلال هذه الأشهر الأخيرة. إن كل شيء الآن يشخص واضحاً أمامي؛ ومثلما وُلدت منيرفا من رأس جوبيتر، بات الفن طبيعتي الثانية، وهي تُولد من رؤوس العظماء. لسوف تجدون أنفسكم لاحقاً مُلزَمين بالإصغاء إليّ، وأنا أتحدّث عن ذلك كله أياماً، بل بالأحرى، سنوات كاملة.

أتمنّى لكم أيلولاً حسناً. ولسوف أفكّر بكم باستمرار في نهاية شهر آب (أغسطس) الذي تقع فيه أعياد ميلادنا المتقاربة. سأتوجّه إلى الريف

للرسم، بمجرّد أن يخفّ الحَرّ؛ في غضون ذلك، أقوم في المرسم بكل ما يتيسّر لي، لكنني كثيراً ما أضطرّ إلى التوقّف. يتوجّب على المرء في المساء أن يحذر من الإصابة بنزلة برد.

١٨ آب (أغسطس)

توجّب عليّ هذا الأسبوع أن أخفّف من غائلة جموحي الشمالي إلى النشاط؛ بالأيام القليلة الأولى كانت لاهبة حقاً. لذا؛ لم أستطع أن أحقّق قدر ما كنتُ أتمنّى. لكن اليومين الآخرين أنعما علينا بنسيم جبلي عليل، فبات الهواء منعشاً بحقّ. ويفترض أن يكون شهرا أيلول وتشرين الأول (سبتمبر ونوفمبر) غاية في الروعة.

توجّهت أمس بالعربة إلى ينبوع أكوا أكيتوزا قبيل المغيب؛ وقد أصابني مرأى التنوّع والألوان والشفافية المضبّبة في هذا المنظر بفرح طاغ.

يعكف موريتز الآن على دراسة أعمال الأقدمين بنية وضع كتاب خال من الحشو، ينضو غبار المدارس، ويقدّم للشباب وللقارئ العادي الحصيف مادة غنية. ويمتاز صاحبنا بمقاربة متعقّلة، جذلة، لهذه المواضيع؛ كل ما آمله أن يكرّس الوقت الكافي للقيام بمهمّة رصينة.

نتنزّه معاً كل مساء، ويخبرني عمّا فكّر به بنفسه خلال النهار، وما قرأه عن مؤلّفين آخرين. وقد ردمتُ، اعتماداً عليه، ثغرة في معرفتي، نظراً لأن مشاغل أخرى فرضت عليّ إهمال هذه الأمور؛ وإن بقيتُ معتمداً على جهدي الذاتي، فإن الوقت اللازم لعلاج هذا الإهمال سيطول بي كثيراً. حين نتبادل الحديث، أشخص بنظري إلى المباني والشوارع والمناظر الطبيعية والنُّصب، وما شاكل؛ أما حين نعود في المساء إلى المنزل؛ لنجلس، ونتحدّث، ونمزح، فإنني أرسم المنظر الذي أثارني بشكل خاص.

أرفق لكم واحداً منها، رسمتُه مساء الأمس. سيعطيكم ذلك فكرة تقريبية عن منظور مبنى الكابيتول حين يُرى من أعلى التلة الواقعة خلفه.

ذهبتُ يوم الأحد الفائت مع إنجيليكا لرؤية لوحات الأمير الدوبرانديني، وبخاصة لوحة مذهلة بريشة ليوناردو دافينشي. ولا تنعم إنجيليكا بالقدر الذي تستحقّه من السعادة، في ضوء موهبتها الكبيرة وثروتها. لقد أعيتْها العمولات، لكن زوجها يعتقد أن من البديع أن تتدفّق مثل هذه الأموال الطائلة لقاء عمل هيّن ويسير في الغالب. إنها تحبّ أن ترسم إرضاء لنفسها، وهي تتوفّر على متّسع من وقت الفراغ للدراسة والمثابرة، ويمكن لها أن تفعل ذلك بكل بسهولة. لم يُرزق الزوجان بأيّ طفل، ولا يجدان سبيلاً لإنفاق الفائدة المتأتّية عن رأسمالها: الحقّ يمكن لهما العيش على المال الذي تكسبه من العمل الذي تؤدّيه كل يوم، بقدر معتدل من الجهد. لكنها تُحجم عن ذلك، ولا ترغب فيه. وهي تتحدّث إليّ بكل صراحة. أدليتُ لها برأيي، وقدّمتُ لها النصح، وأحاول الآن أن أشيع فيها السرور كلّما التقينا. فما فائدة الحديث عن التعاسة والبؤس حين لا يعرف الناس الذين يملكون القدر الكافي من كل شيء، كيف يستخدمون ما يملكون، أو كيف ينعمون به؟! إنها تتوفّر على موهبة خارقة بالنسبة إلى امرأة. وينبغي أن يعاين المرء ما تقوم به، لا ما تمتنع عن القيام به. ترى كم من الفنانين سيصمد للاختبار، إن حكم على كل واحد بما أخفق فيه؟

ابتغاء نيل معرفة حميمية بروما، وجوهها، وفنها، والشعور بالألفة الطبيعية فيها، يتوجّب على المرء أن يفعل على غرار ما أفعل، أن يعيش فيها، ويتجوّل في رحابها يوماً إثر آخر. فانطباعات السائح العابر محكومة بالزيف.

مشكلتي الأساسية هي مجتمع روما الذي يحاول إخراجي من قوقعة

عزلتي، والتدخّل في عاداتي في العمل، لكني أذود عن نفسي على أحسن ما أستطيع. فتجدني أعد، وأرجئ، وأعد ثانية، وأمثّل دور الإيطالي بين الإيطاليين. أخذ وزير الدولة، الكاردينال بونكومباني، يلحّ عليّ إلحاحاً شديداً بدعواته، لكني سأتحاشاها حتّى يحلّ وقت ذهابي إلى الريف في منتصف أيلول (سبتمبر). وإنني أتجنّب السيدات الراقيات والسادة الراقين مثلما يتجنّب المرء الطاعون: بل إن مرورهم بعرباتهم من أمام منزلي يثير قلقي.

٢٣ آب (أغسطس)

تلقّيتُ رسالتكم العزيزة الرابعة والعشرين، يوم أمس الأول، قبيل انطلاقي لزيارة مصلى كنيسة سيستين مرّة أخرى. وإنني لأقرؤها المرّة تلو المرّة، كلّما كففتُ عن المشاهدة أو تدوين الملاحظات. أعجز عن وصف شدّة ما تمنّيتُ أن تكونوا هنا. فلن يكون في مقدوركم، ما لم تروا كنيسة سيستين بأنفسكم، أن تتصوّروا عَظَمَة ما يمكن للإنسان أن يُنجزه.

إننا نسمع ونقرأ عن الكثير من الرجال العظماء والبارزين، لكننا نجد هنا فوق الرأس وأمام العين، الدليل الحيّ على ما يمكن لرجل واحد أن يجترح من مآثر. إنني أبادلكم الحديث في دخيلتي على الدوام؛ وأتمنّى لو أستطيع أن أدوّن كل تفاصيله على قطعة الورق هذه. تقولون إن بودّكم سماع الأخبار عني. لو سعيتُ إلى أن أصف لكم كيف وُلدتُ من جديد، وكم أشعر أنني تجدّدتُ، وأنجزتُ صبواتي، وكيف ترسّخت قدراتي كلها، لملأتُ صفحات وصفحات. دعوني أكتفي بالقول إنني آمل أن أُنجز شيئاً. لقد انشغلتُ، منذ بعض الوقت، انشغالاً جاداً في رسم المناظر الطبيعية وفن العمارة، وأرى الآن بجلاء ما ستُسفر عنه جهودي في هذا الباب، وإلى أي حدّ يمكن لي أن أتوغّل.

أخيراً بات ألف وياء ما هو معروف عن الجسم البشري يمسك بتلابيبي،

مثلما أمسك أنا بتلابيبه؛ بحيث رحتُ أبتهل إليه: مولاي، لن أدعكَ تمضي قبل أن تمنّ عليّ بنعمتكَ، وأنا أصارع في هذا السبيل حتّى يقعدني الضعف. حين أبدأ بالجسم البشري أضيع في متاهة بلا طائل، لذا؛ بدأتُ بنمذجته، ويبدو أنني أحرز بعض التقدّم. وتوصّلتُ أخيراً إلى فكرة، تُيسِّر لي الكثير من الأمور. إن وصف سائر التفاصيل أمر معقّد وشائك أكثر ممّا ينبغي؛ ومهما يكن من أمر، فإن الفعل خير من القول. خلاصة ذلك ما يلي: إن دراستي الدائبة للطبيعة والانتباه الدقيق الذي كرّستُه للتشريح المقارن قد أوصلاني إلى الحدّ الذي بَلْوَرْتُ معه رؤية للكثير من الأشياء في الطبيعة والنحت ككل ممّا لا يتوصل إليه الفنانون إلا بعد مشقّة الدراسة المثابرة للتفاصيل؛ وحتّى حين ينجحون في بلوغ هذا الحدّ آخر الأمر، فإن معرفتهم له تظلّ لأنفسهم وحدهم، ولا يستطيعون توصيلها إلى الآخرين. بدأتُ في العبث ثانية في علم الفراسة. وهي لعبة انتزعتُها من ثياب المتنبّئ (*). وأجده مفيداً تماماً.

أشعر أنني بعيد تماماً عن العالم؛ بحيث إن مطالعة الجريدة تثير فيّ شعوراً غريباً. "ما العالم إلا موضة زائلة"، ورغبتي الوحيدة هي أن أسير على هدي تعاليم سبينوزا بأن أعنى بما هو سرمدي؛ لأفوز بخلود روحي.

قصدتُ بالأمس منزل السير ريتشارد وورسلي، الذي جاب رحاب الدنيا في اليونان ومصر، وغيرها، وشاهدتُ عنده الكثير من الرسوم، لعلّ أكثرها إثارة للاهتمام نقوش ناتئة على النحاس لمبنى الاكروبول في أثينا، وهو من عمل إزميل فيدياس. لا شيء يضاهي هذه الأجسام البسيطة القليلة في جمالها وبهائها. وبخلاف ذلك، لم يكن ثمّة إلا القليل ممّا يثير الانتباه؛ أن رسومه المعمارية أفضل من مناظره الطبيعية التي تفتقر إلى الفتنة.

---

*) المقصود: ج. ك لافاتر (١٧٤١ ـ ١٨٠١) وهو شاعر سويسري. ألماني، ومتضلّع في علم الفراسة.

أستودعكم الله لهذا اليوم. هناك مَن ينحت عني تمثالاً نصفياً، وقد كلّفني ذلك ثلاثة صباحات في هذا الأسبوع.

إلى هيردر

٢٨ آب اغسطس

ما أروع أن نَبذُرَ؛ كي نحصدَ! كتمتُ سرّ أن هذا اليوم هو عيد مولدي، وحين نهضتُ من الفراش هذا الصباح، فكّرتُ في نفسي قائلاً "ترى هل سيصلني شيء من الوطن احتفالاً بعيد ميلادي." ثمّ، ويا للعجب العجاب! ها هي ذي رزمة تصلني منك؛ لتثير فيّ غبطة، لا تُوصَف. جلستُ في الحال؛ لأقرأها. لقد فرغتُ منها على التوّ، وأودّ أن أعبر لك في الحال عن الشكر من أولئك أعماق قلبي. إن قراءة كلماتك النقية الجميلة، تشيع فيّ الراحة والهناء، كلمات مفعمة بالثّر من الأفكار النبيلة عن الخالق، في بابل هذه، أم الكثير من الزيف والغلط. إن هذه الساعة هي - بلا مراء - الأوان المناسب لوجوب وإمكان نشر مثل هذه المشاعر والأفكار. ولسوف أقرأ الكتاب، وأتأمّل فيه مراراً، وأنا في عزلتي، وأدوّن الملاحظات التي قد توفّر لي زاداً للنقاش معك في المستقبل.

أتمنّى أن نلتقي وجهاً لوجه، وأن نمضي في حديث طويل؛ لكي تجلي لي بعض التفاصيل والتضمينات. حسبي هذا. سيتحقّق لنا ذلك. في غضون هذا، دعني أشكركَ ثانية من كل قلبي على إقامة مَعْلم، نعدّ به ما نقطعه من أميال، من الآن فصاعداً.

تقيم الأكاديمية الفرنسية معرضاً، يضمّ أشياء جديرة بالانتباه، بينها، مثلاً، صورة لبيندار، الذي ابتهل إلى الآلهة أن تكتب له نهاية سعيدة، بأن يموت بين ذراعي صبي، يحبّه حبّاً جمّاً. وتفتّق ذهن أحد المعمارين عن فكرة عميقة، بوضع صورتين: الأولى تُصوِّر روما المعاصرة، منظوراً

إليها من زاوية، تضفي الانسجام الممتع على شتّى أجزائها، والثانية تُصوِّر روما القديمة من زاوية النظر ذاتها. إن المواقع التي تشخص فيها المباني القديمة أو أشكالها الفعلية، كما هو الواقع في العديد من الحالات، معروفة جيداً للناظر؛ لأن هناك عدداً من الأطلال ما تزال قائمة. حذف المعماري كل المباني الجديدة، ووضع مكانها كل المباني القديمة، لكي يُصوِّر روما مثلما كانت تبدو عليه، على الأرجح، في زمان ديوليتيان. أما الرسم الثاني؛ فينمّ عن ذوق وتعلُّم قدر ما يحوي تلويناً أخّاذاً.

هل أخبرتك أن أمير فالديك كلّف تريبل بأن يَنحتَ لي تمثالاً نصفياً؟ قارب النحت على الاكتمال، وهو جيد على وجه العموم، ومشغول بأسلوب عميق جداً. بعد الفراغ من إكمال نموذج الصلصال، سيصبّ نموذجاً من الجبس، ويستنسخ هذا القالب في نحت من المرمر. وسيتوجّب عليّ أن أجلس أمامه مرّة ثانية حين يضع اللمسات الأخيرة على المرمر، والتي لا يمكن أن تُوضَع على أية مادة أخرى.

تعكف إنجيليكا على رسم لوحة، تُصوِّر والدة جراتشي مع أعزّ كنوزها؛ أي أطفالها، وذلك لصديق يتولىّ عرض مجوهراتها. ويعد العمل بأن يتمخّض عن لوحة حسنة.

بعد أن تلقّيتُ رسالتك اليوم، أعدتُ التفكير في كل شيء مرّة ثانية، وما أزال مقتنعاً بأن من الجوهري لدراساتي الفنية وكتاباتي أن أطيل المكوث هنا. ويتعينّ عليّ في مجال الفن أن أبلغ النقطة التي يتحوّل فيها كل شيء إلى معرفة مباشرة، ولا يبقى شيء منه مجرّد اسم. ولا يمكن بلوغ ذلك إلا في روما بالذات، وأظن أني قادر على وصول هذا الحدّ في ظرف ستة أشهر أخرى. أما بالنسبة إلى كتاباتي؛ فيتوجّب عليّ في الأقلّ أن أكمل قطعي الصغيرة. إنني أنظر إليها في صيغة التصغير. بوعي مكثّف، وقلب جذل.

وحين يتحقّق هذا، فإن كل شيء سوف يجرّني للعودة إلى أرض موطني. ولعلّني، حين أعود، أعيش حياة عزلة وانفراد خاص، غير أن لديّ الكثير ممّا يقتضي المراجعة والربط؛ بحيث إنني لا أستطيع أن أتصوّر نفسي متمتّعاً بأيّ فاصل للراحة خلال السنوات العشر القادمة.

وفي ميدان التاريخ الطبيعي، أتوفّر على أشياء كثيرة، ينبغي أن أُطلعك عليها، وأُحدّثك عنها، ممّا سيفاجئك تماماً. أظنّ أني اقتربتُ كثيراً من اكتشاف حقيقة الكيف في الكائنات العضوية. آمل أن تغتبط حين تسمع عن هذه التجلّيات. لا الومضات(*). الصادرة عن بارئنا، وينبغي لك أن تقول لي مَن الذي حقّق مثل الاكتشافات أو فكّر فيها في الإطار ذاته، سواء من الأقدمين أم المحدثين.

*) الومضات Fulguratiuns تعبير استخدمه الفيلسوف الألماني لايبنتز.

شهر آب ١٧٨٧
عودة إلى ما كان

في بداية هذا الشهر بالذات، حسمتُ قراري في أن أقضي هنا شتاء آخر. إن شعوراً حدسياً، في هذا الوقت، بأني لستُ مستعدّاً تماماً للمغادرة، وإنني لن أجد، في أي مكان آخر، الجوّ الهادئ الموائم لإكمال أعمالي، هو الذي حزم أمري أخيراً؛ وما إن أبلغتُ أصدقائي في الوطن بقراري هذا حتّى بدأ عهد جديد.

إن الحَرّ اللاهب، الذي ما ينِي يشتدّ، يقيّد أيّ جموح في النشاط، ويدفع المرء إلى طلب الأماكن الباردة؛ لكي يعمل فيها، وإن كنيسة سيستين هي واحدة من ألطف الأماكن للابتراد. كان الفنانون، وقتذاك، قد أعادوا اكتشاف مايكل إنجيلو. وعدا عن المميّزات الكثيرة التي تُثير الإعجاب عندهم، فإنهم يقولون إنه يتفوّق على كل مَن عداه في إحساسه المرهف باللون، وراجت موضة الخلاف حول أيهما أكثر عبقرية، ما يكل إنجيلو؟ أم رافائيل؟ فلوحة هذا الأخير الموسومة "التجلي" هي - في الغالب - موضع انتقاد شديد، أما لوحة "سجال"؛ فتُعدّ خيرة أعماله، ويُنبئ هذا الخلاف بالمَيل المقبل لمدرسة سابقة في فن الرسم، وهي ذات ذائقة قد تبدو للمراقب المتحامل علامة من علامات المواهب المتدنّية المفتقرة إلى الأصالة.

إن من الصعب تماماً فَهْم موهبة عظيمة واحدة، فكيف لنا بفَهْم اثنتين من المواهب العظيمة في آن واحد. ولتيسير الأمر علينا، فإننا ننحاز، لهذا

السبب تجد أن صيت الفنانين والمؤلّفين في تقلّب دائم. فتجد أن هذا يسود يوماً، وذاك يطغى يوما آخر. وأنا شخصياً أتجاهل هذه الخلافات، وأكرّس وقتي في اتّجاه مراقبة أي شيء، يبدو لي جديراً بالمعاينة. وسرعان ما انتشرت موضة تفضيل الفلورنسي العظيم على نطاق واسع من الفنانين إلى الجمهور المحبّ للفن، ولهذا السبب بالذات، كلفّ الكونت فرايس كلاً من بوري وليبس بوَضْع نسخ بالألوان المائية عن أفاريز كنيسة سيستين. تلقّى سادن الكنيسة أعطية باذخة، فأذن لنا بالدخول من الباب الخلفي القريب من المذبح، والعمل هناك كلّما طاب لنا. بل إننا صرنا نتناول طعامنا هناك، وأتذكّر أن القيظ غلبني ذات يوم، فنعمتُ بقيلولة الظهيرة على العرش البابوي.

استخدم بوري وليبس أقلام الباستيل البيضاء على إطارات من الشاش الأسود؛ ليبصما بعناية الرؤوس والشخوص السفلية في لوحة الإفريز(*) التي كان بالوسع بلوغها بواسطة السّلّم؛ بعد ذلك، استنسخا ما بصماه بالباستيل الأحمر على قطع كبيرة من الورق.

وبرز في هذه الآونة اسم أستاذ آخر من الأساتذة الأقدم عهداً؛ لينال قسطه من الاستحسان الكبير، وهو ليوناردو دافينشي، الذي رأيتُ لوحته الشهيرة "المسيح بين الفريسيين" بصحبة إنجيليكا في معرض الأمير الدوبرانديني.

ترسّخت العادة الثابتة الآن عند إنجيليكا، وزوجها وهوفرات رايفنشتاين، على زيارتي في منزلي قبيل الظهر من كل يوم أحد؛ فكنا نمضي بالعربة بأكبر قدر من الراحة الممكنة في ذلك الحَرّ اللاهب، ونتوجّه إلى زيارة هذا المعرض أو ذاك، والبقاء هناك عدّة ساعات، والعودة إلى منزلها لتناول عشاء رائع. تعلّمتُ الشيء الكثير من مشاهدة أعمال الفن البارزة في صحبة مثل هؤلاء الأصدقاء الرائعين، فكل واحد فيهم مختصّ ضليع

---

*) وهي لوحة يوم الدينونة لمايكل إنجيلو.

في حقله، النظري والتقني أو الجمالي. وأسدى لي هوفرات رايفنشتاين العون الكثير من ناحية أخرى. فكلّما سعى أحد إلى التعرّف إليّ، لجأتُ إلى نفوذه وهيبته كذريعة للتمسّك بخلوة الحياة الشخصية التي اخترتُها لنفسي، قائلاً إن التعارف لن يجري إلا عن طريقه.

شكّل معرض الأكاديمية الفرنسية، الذي افتُتح في نهاية الشهر، حَدَثاً فنياً هامّاً. أما لوحة "هوراشيوس" للفنان ديفيد؛ فقد دفعت الجميع إلى اعتناق المدرسة الفرنسية، وبدأ تيشباين، الذي حفزته هذه المدرسة، في وضع رسم لهيكتور بالحجم الطبيعي، وهو يتحدّى بارس أمام هيلين(*) وأثارت أعمال الفنانين الفرنسيين، من أمثال دوريه، وجانيروه، وديزماريه وجوفيه، وسانت أور ضجة، أما الفنان بوكيه؛ فقد أصاب شهرة عظيمة، بوصفه رسّام مناظر طبيعية بأسلوب بوسان.

عكف مورتيز على العمل المثابر في الأساطير الكلاسيكية. لقد جاء إلى روما، كما فعل من قبل، ملتمساً الحصول على أسباب العيش لتغطية نفقات ارتحاله بمشروع وَضْع كتاب في أدب الرحلات. وقد دفع له أحد الناشرين سلفة على الحساب، غير أنه سرعان ما أدرك، بُعيد المكوث في روما، أن يوميات الرحلة المدوّنة في عجالة، لن تنجو من سهام النقد الثاقب. وتبلورت لديه بعد المناقشات اليومية بيننا وبعد مشاهدة الكثير من أعمال الفن، فكرة جديدة هي أن يضع مؤلّفاً في تاريخ الأساطير الكلاسيكية من وجهة نظر إنسانية بسيطة، مشفوعة برسوم محفورة على الحجر.

عقدتُ أحاديث مثيرة مع تريبل في أثناء انهماكه في صنع نموذج تمثالي النصفي، فوجدتُ آراءه متّفقة وآرائي. وسنح لي الحديث أن أدرك

---

*) هيكتور وبارس وهيلين هم من شخصيات ملحمة طروادة.

سعة إمكانات دراسة الجسم البشري وفقاً لقواعد التناسب الثابت، ومدى الدقّة الواجب أخذها في الحسبان لالتقاط الانحرافات عن هذا التناسب، بفعل الخصائص الفردية. وكانت متعة الالتقاء به مضاعفة تماماً، بالنسبة لي؛ إذ تناهى إليه خبر عن وجود رأس أبوللو ضمن مجموعة قصر بالازو جيوستينياتي، الذي كان مهملاً حتّى اللحظة. وقال تريبل إن هذا النحت هو من أسمى الأعمال الفنية، وإنه يأمل في أن يتمكّن من شرائه، ولكنْ؛ ما كان له أن يحقّق الآمل. فقد وقعتْ هذه القطعة الأثرية، لاحقاً، ضمن مقتنيات مسيو دو بورتال في نيوشاتل، وذاع صيتها.

ألقى فيرشافيلت سلسلة محاضرات في المنظور، دأبنا على حضورها في المساء، ساعين إلى استخدام ما تعلّمناه؛ لكي نطبّقه تطبيقاً سليماً. خير ما في المحاضرات أن فيرشافيلت لم يسع إلى الإفراط في تعليم التفاصيل، بل اكتفى بالأسس.

شهر أيلول ١٧٨٧
مراسلات

١ أيلول (سبتمبر)

ستكتمل مسرحية "إيجمونت" في يوم أو يومين. بقيتُ أجد الأمكنة اللازمة، هنا أو هناك، للانصراف إلى العمل. سأرسل النص عن طريق زيوريخ؛ لأني أريد من كايزر أن يؤلّف الموسيقى التصويرية. وحين يتمّ ذلك، أتمنّى أن تتمتّعوا بالعمل.

استخلص موريتز فائدة جلّى من أفكار هيردر عن الباري. وإن طبيعته وأحاديثه معي قد شحذت فيه الوقوع تحت تأثير مقاربة هيردر، فأصابته عدوى الاتّقاد مثل اتّقاد قطعة حطب جافّة: لا ريب أنه سيعدّ كتاب هيردر مَعلَماً بارزاً في حياته.

روما، ٣ أيلول (سبتمبر)

في مثل هذا اليوم وقبل عام كامل، انطلقتُ من كارلزباد. فيا له من عام! ويا لها من حقبة بديعة، بدأت لي في ذلك اليوم الذي صادف عيد ميلاد دوقنا، وعيد ميلاد حياتي الجديدة! لا يسعني في هذه اللحظة أن أقدّم أي عرض، سواء لنفسي أم لغيري، عمّا قمتُ به؛ لأفيد من هذا العام؛ كل ما آمله أن تحلّ الساعة المباركة التي أستطيع أن أوجز فيها خلاصة ذلك كله لكم ولنفسي.

انشغلتُ من جديد بالإبداعات المصرية، وتوجّهتُ في الفترة الأخيرة

لمشاهدة مسلّة سيسوتريس العظيمة مراراً(*)، التي ما تزال مَرمية في باحة وسط الأوساخ وركام الحجارة. لقد نُصبت في روما تكريماً لأوغسطوس، فقامت مقام عقرب مزولة شمسية ضخمة، ترسم المواقيت على أرض كامبوس مارتيوس. غير أن هذا النصب العجيب من أنصاب الأقدمين بات الآن كسراً من حطام، وقد تضرّرت جنبات هذه المسلّة، على الأرجح، بفعل حريق. أما الأقسام التي لم تُدمَّر، فما تزال تحتفظ برونقها الأول، كما لو أنها نُحتت بالأمس، مُبرزة جمال صنعتها الخاصة. طلبتُ عمل بصمة بالشمع لأبي الهول المرسوم قريباً من قمّة المسلّة، ولصور أخرى لأبي الهول، والرجال والطيور. يمكن لاحقاً صَبّ نماذج ثمينة من الجبس؛ إذ يقال إن البابا يعتزم إرجاع المسلّة إلى سابق عهدها، الأمر الذي سيضع النقوش الهيروغليفية خارج متناول اليد. أعكف حالياً على عمل نماذج من الصلصال لهذه الشخوص المحفورة على المسلّة؛ كيما تصير حقّاً، ملكاً لي وحدي، كما أعتزم أن أكرّر ذلك مع النقوش الأتروسكية.

٥ أيلول (سبتمبر)

لابد لي من الكتابة إليكم هذا الصباح؛ لأنه صباح احتفاء بالنسبة لي: لقد اكتملت مسرحية "إيجمونت" حقاً وفعلاً. فرغتُ من تدبيج صفحة العنوان الأولى، وأسماء الشخصيات، وملأت بعض الفراغات المتروكة. أتطلّع الآن بشرف كبير إلى ساعة وصول المسرحية إليكم؛ لتقرؤوها. ولسوف أرفق معها بعض الرسومات أيضاً.

٥ أيلول (سبتمبر)

كنتُ أعتزم كتابة رسالة مطوّلة إليكم جواباً عن رسالتكم الأخيرة، لولا أن بعض المشاغل قاطعتْني، كما أني متوجّه غداً إلى فراسكاتي. فلابد من إرسال هذه بالبريد يوم السبت، وعليه لا يسعني سوى أن أكتب كلمات

*) الواقع إنها مسلّة بساميتيكوس الثاني (٥٩٤ - ٥٨٩ قبل الميلاد).

قلائل قبيل المغادرة. قلقتُ لسماع أن صحّة هيردر ليست على ما يرام، آمل أن تزفّوا إليّ في القريب أخباراً حسنة.

إنني في أتمّ عافية، جسداً وروحاً، وأتجرأ على الأمل بأن أُشفى شفاء جذرياً. إن عملي يمضي هيناً يسيراً، بل إني أشعر أحياناً بجذوة الشباب المتّقدة فيّ. نعم، يمكن لي القول الآن إنني أرى مَبعث النور، وأرى النقطة التي تسوقني إليها كل ملكاتي. ينبغي للمرء أن يبلغ مرحلة معيّنة من العمر قبل أن يتسنّى له أن يكتشف جوهر ذاته، ومَن هو حقّاً، بهذا القدر أو ذاك. وإن بلوغ الحكمة في سنّ الأربعين، حسب مَضرب الأمثال، لا ينطبق على السوابيين(*) وحدهم.

ستنطلق مسرحية "إيجمونت" اليوم أيضاً، لكنها ستصلكم بعد هذه الرسالة؛ لأنني أبعثها ببريد العربات. لعلّ من المفيد التعجيل في طباعتها. أحبّذ أن يتوفّر الجمهور على النص، وهو - بعد - طازج، فالرجاء أن تبذلوا مسعاكم للإسراع في النشر. ولن أتأخّر في إكمال بقية المجلّد.

إن كتاب "الباري" هو خير رفيق دائم لي. لقد انسحر موريتز به أيضاً. لقد كان بحاجة إلى حجر أساس يركن إليه؛ كي لا تتهاوى أفكاره مزقاً، فجاءه هذا الكتاب بالمرتكز اللازم، وأظن أنه سيضع كتابه الخاص على أحسن ما يكون. لقد شجّعني كثيراً على الغوص عميقاً في شؤون التاريخ الطبيعي، ولقد توصّلتُ إلى ما أسماه الإغريق "الواحد في الكل"(**)، وبخاصة في حقل علم النبات، وهو أمر يُذهلني حقاً، ولا يسعني أن أتكهّن سَلَفاً بالتبعات الكاملة لهذا الاكتشاف.

---

*) السوابيون هم سكان سوابيا وهي منطقة في جنوب شرق ألمانيا، والمقصود هنا ألمان الجنوب الشرقي.

**) باليونانية القديمة في الأصل. وتعني وجود قانون واحد ينطبق على كل شيء. وهو تعبير يعود إلى زينوفون

إن المبدأ الذي اعتمده أساساً لتفسير أعمال الفن وفكّ مغاليق السِّرّ الذي حاول الفنانون والخبراء، منذ عصر النهضة، استجلاءه بدأب، يبدو لي أرسخ وأعمق كلّما طبقتُه. يقيناً أن ذلك هو بيضة كولومبوس. لستُ في وارد الادّعاء أنني عارف أسرار استخدام المفتاح الصالح لفكّ كل المغاليق، لكنني أجد نفسي على قدر معقول من الأهلية لمناقشة الفنانين في تفاصيل عملهم، مُشخّصاً النقطة التي بلغوها، والصعاب التي صادفتْهم. وإن بابي الخاص مفتوح، وأنا أقف على عتبته، ولكنْ؛ واأسفاه، لا وقت عندي لأكثر من استراق النظر إلى المعبد قبل أن أغادر مضطراً.

ثمّة شيء مؤكد: إن سائر فناني حقبة الأقدمين يتوفّرون على معرفة عظيمة بالطبيعة، وإحساساً مرهفاً، بما يصلح للتمثيل الفني، وبكيفية هذا التمثيل، شأن هوميروس نفسه. ولسوء الحظ، فإن العدد المتبقّي من الأعمال الفنية الرفيعة ذات الطراز الأول، أقلّ ممّا ينبغي. ولكنْ؛ ما إن يراها المرء، حتّى تتملّكه الرغبة في أن يعرفها، وأن يستزيد من معرفتها حتّى يغادر في سلام. إن هذه الإبداعات العبقرية ليد الإنسان قد أُخضعت لنفس القوانين التي تخضع لها إبداعات الطبيعة. فأمام هذه الإعجازات يتهاوى كل ما هو اعتباطي ووَهْمي: فثمّة الضرورة، وثمّة الله.

سأتوجّه بعد أيام قلائل لرؤية رسومات لمعماري قديم، زار تدمر. وبلغني أنها وُضعت في ذكاء مرهف وذائقة مرهفة. سأكتب لكم عنها حال اطّلاعي عليها؛ لأني توّاق لسماع رأيكم في هذه الأطلال الرائعة.

شاركوني غبطتي في ما أرفل فيه من هناء. الحقّ، يسعني أن أقول بصراحة إني لم أهنأ بسعادة غامرة في حياتي كما الآن. آه، لو أن بمقدوري أن أوصل إلى أصدقائي الأثيرين جزءاً يسيراً من فرحي.

آمل أن تنقشع الغيوم السوداء عن الأفق السياسي قريباً. إن حروبنا المعاصرة تثير تعاستي حين أراها تستعر، وتدوم، ولا أستعيد سعادتي حتّى بعد أن تضع أوزارها.

١٢ أيلول (سبتمبر)

يبدو لي أني ما أزال ذلك الإنسان الذي يعيش؛ لكي يعمل. دأبتُ خلال الأيام القليلة الماضية على أن أشغل نفسي بالعمل أكثر ممّا أنغمس في الترويح عن النفس. ويشارف الأسبوع على الانتهاء، وعندها ستتلقّون رسالة مني.

لكم ساءني أن نبات الصبّر في بلفيديري اختار أن يُزهر في سنة غيابي. ففي صقلية لم يكن قد بلغ أوان إيناعه، وهنا لم تُزهر سوى نبتة واحدة هذا العام، زد على ذلك أنها ليست كبيرة جداً، إلا أنها تشمخ أعلى ممّا يُتيح للمرء الدنوّ منها. أضف إلى هذا، أنها نبتة من الهند، تشعر بالغربة تماماً في هذه الديار.

إن توصيفات الإنجليزي لا تناسب ذائقتي. يُفترض برجال الكَهَنُوت الإنجليز أن يكونوا أكثر وعياً واحتراساً، لكنهم يرفعون الكرباج على بقية الجمهور، ويضطر الإنجليزي إلى تلمّس طريقه في حذرواحتراس كبيرين حين يكتب عن الأخلاق.

إن وجود بشر بذيل لا يثير دهشتي؛ إذ يبدو من الوصف أن ذلك طبيعي تماماً. ثمّة الكثير من الأشياء الإعجازية ممّا نراه من حولنا كل يوم، إلا أننا لا نلاحظها؛ لأنها ليست وثيقة الصلة بمشاغلنا.

لا مانع عندي أن يصير "ب" ورعاً تقياً، في شيخوخته، بعد أن قضى

شبابه، مثل آخرين، من دون أن يُبدي مشاعر دينية أصيلة، شريطة ألا ينتظر مني أن أشاركه ابتهالاته الدينية.

إن فراسكاتي فردوس حقيقي. قضيتُ فيها بعضة أيام مع هوفرات رايفنشتاين، وجاءت إنجيليكا يوم الأحد؛ لتعيدنا إلى المدينة.

أتممتُ إعادة كتابة نصف "أيروين وايلماير" في مسعى؛ لأن أضفي على هذه القطعة الصغيرة بعضاً من التشويق والحياة. حذفتُ كل الحوارات العادية تماماً. لقد كانت أشبه بنصّ تلميذ مدرسة، أو أنها كانت مكتوبة بأسلوب مائع. وبالطبع فقد أبقيتُ على سائر الأغاني الحلوة التي تتمحور عليها كل الأشياء.

أسفر تمثالي النصفي عن منحوتة بالغة الجودة، أثارت استحسان الكل. لقد نُفّذت بأسلوب راق، ولا مانع عندي، إن تصوّر الأسلاف القادمون أنني أبدو بهذا الشكل. كنتُ أودّ أن أرسل لكم قالباً منه في الحال، لولا أن مشكلة النقل بالغة التعقيد. لعلّني أستطيع، في فترة أخرى، أن أشحن قالباً منه عن طريق البحر؛ لأن عليّ، من كل بُدّ، أن أشحن بعض أمتعتي عن هذا الطريق.

لم أسمع منكم ما يشير إلى وصول كرانتز. لقد حمّلتُه صندوقاً للأطفال.

يعرض مسرح فاله أوبريتاً أخّاذاً، بعد أن أصاب آخر عرضين له إخفاقاً ذريعاً.

سأتوجّه قريباً إلى الريف. هطل المطر عدّة مرّات، فبات الجوّ لطيف البرودة، والمشهد زاهي الخضرة.

لعلّكم طالعتُم في الصحف، أو ستطالعون فيها قريباً، عن البركان العظيم في إيتنا.

١٥ أيلول (سبتمبر)

قرأتُ توّاً حياة ترينك(*). الكتاب مثير للانتباه. ويمدّني بزاد للتأمّل.

إن رسوم كاساس جميلة جمالاً خارقاً. سرقتُ منه الكثير من الأفكار التي سأحملها معي إليكم.

إنني أكدّ في العمل كدأبي دوماً. رسمتُ لتوّي صبّاً لنحت رأس صغير، على سبيل الاختبار؛ لأرى إن كان المبدأ الأساس راسخاً. وأجد أن هذا المبدأ ينطبق انطباقاً تامّاً، ويسهّل عملية التنفيذ بصورة مذهلة. لن يصدّق أحد أني فعلتُ ذلك، رغم أن ذاك ليس بالعمل الملفت. لكني أرى الآن بجلاء مدى الشوط الكبير الذي يمكن أن أقطعه بالمثابرة على التطبيق.

سأعود يوم الاثنين إلى فراسكاتي؛ لأتوجّه بعدها، على الأرجح، إلى البانو؛ لأواصل الرسم من الطبيعة. ولا يشغلني شيء في الوقت الحاضر سوى الانكباب على إنتاج شيء ملموس، وتدريب حواسّي. فهذه علّة أعانيها منذ يفاعتي. أتضرّع إلى الله أن أتمكّن من تذليلها.

٢٢ أيلول (سبتمبر)

اقتنيتُ مجموعة من مائتي ختم بالشمع لأحجار منقوشة من زمن الأقدمين. إنها من أجمل النماذج البديعة الدالّة على مهارة الصنعة عند القدماء، وقد اختيرتْ لأجل ما في موتيفاتها من سِحْر. إن هذه الأختام الشمعية متميّزة برونقها وفرادتها، ولن أعود من روما، بما يضاهي هذه النفائس من قيمة.

---

*) فراهير فريدريش فون ديرترينك (١٧٢٦ - ١٧٩٤) من الكتّاب الأثيرين عند فريدريك الكبير، وقد شهر به فيما بعد، وسُجن عدّة سنوات. كتب في العام ١٧٨٦ كتاباً بعنوان: القصّة العجيبة لحياتي.

حين أعود في قاربي الصغير سأحمل معي الكثير من الأشياء الحسنة، وأحسنها قلب عامر بالسعادة، وقدرة أكبر على التمتّع بالحبّ والصداقة اللتين تنتظراني، شريطة ألا أتولّى ثانية أي أمر، يقع خارج نطاق مواهبي، أو أية مهمّة، تستنفذ قدراتي من دون أن تُؤتي أية ثمرة.

ينبغي أن أبعث على وجه السرعة ورقة أخرى بيد ساعي البريد. لقد كان هذا يوماً مشهوداً بالنسبة لي. وفرة من رسائل الأصدقاء، ورسالة من دوقة دواجر، وأخبار عن الاحتفال بعيد ميلادي، وأخيراً، وليس آخراً، وصول مؤلّفاتي.

يتملّكني إحساس غريب حين أفكّر أن تأتي هذه المجلّدات النحيفة الأربعة، ثمرة نصف حياتي، لتلاقيني في روما، من دون سائر الأمكنة. أقول بصراحة إنها لا تحوي كلمة واحدة، لم أعشها، أو أحس، أو أفكّر، أو أتمتّع بها، أو أعاينها، وهذا ما يجعلها تنطق؛ لتتحدّث إليّ بحيوية أكبر. آمل وأتوق حقاً ألا تكون المجلّدات الأربعة الأخرى أدنى شأناً. شكري الجزيل لكل ما قمتُم به لأجل هذه الصحائف، فرجائي أن تمنحكم شيئاً من الإمتاع والرضى. رجائي أن تتعهّدوا المجلّدات الآتية بالرعاية ذاتها، بما عهدتُه فيكم من وفاء الصديق.

ها أنتم تعذّبونني على كلمة "المقاطعات"(*). أقرّ أن اختيار هذا التعبير غير موفّق. ولكنْ: ها أنتم ترون من زلّة اللسان هذه كيف يعتاد المرء في روما على التفكير بصيغ مفخّمة، حقاً، لابد أني صائر رومياً؛ لأن أهل روما متّهمون بأنهم لا يفكّرون ولا يتكلّمون إلا عن الأشياء الضخمة (بالإيطالية).

خطرت لي ذلك فكرة، مفادها أن أفقر الناس وأدناهم منزلة، يمكن

---

*) استخدم غوته في رسالته الموجّهة إلى دوق فايمار تعبير "المقاطعات" بدل "المناطق".

أن يشعر أنه شخص، له شأن في محيط مدينة عظيمة، أما في البلدة الصغيرة؛ فإن خير الناس وأكثرهم ثراء يشعر أنه ليس شيئاً ذا بال، بل لا يستطيع التنفّس.

فراسكاتي، ٢٨ أيلول (سبتمبر)

أنا جدّ سعيد هنا. فنحن نرسم أو نخطّط بالبحر، أو نمارس الفنون والحرف بمهارة. وقد بقي مضيفنا هوفرات رايفنشتاين ملازماً لنا، وكنا جميعاً في حبور عظيم. وفي المساءات، كنا نزور شتّى الفيلات تحت ضوء القمر، وكنا نرسم شتّى المواضيع المثيرة حتّى تحت جنح الظلام. واقتنصنا مشاهد، أودّ أن أكبّرها في وقت لاحق.

مضينا بالعربة، أمس، إلى البانو، وعدنا منها، وفي الطريق، صرعنا عدّة طيور بحجارة واحدة. متى يأتي اليوم الذي أستطيع أن أرسل لكم فيه شيئاً ملموساً عوض الاكتفاء بالكلام. هناك بضعة أشياء صغيرة حمّلتُها أحد أبناء جلدتنا؛ لكي يوصلها إليكم.

من المرجّح أن أنعم بسرور اللقاء مع كايزر في روما. وبذا؛ ستنضمّ الموسيقى إلى بقية الفنون؛ لتُغلق الدائرة المحيطة بي، لكأنها تريد أن تقيم سدّاً، يفصلني عن أصدقائي. لكن هذا فصل، يصعب عليّ أن أتجرّأ حتّى على التفكير فيه، وبخاصة مدى إحساسي بالوحدة في غالب الأحيان، ومدى حنيني المرضي إلى صحبتكم. أيامي تمضي في دوران متّصل، ولا أستطيع ولن أفكّر أبعد من اللحظة الراهنة.

قضيتُ ساعات حلوة مع مورتيز شارحاً له فلسفتي في علم النبات. وإذ نتبادل الحديث، أسجّل كل ما نقول، حتّى أستطيع أن أرى ما ينبغي أن أراه. فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن لي أن أضع بها أفكاري على

الورق. وبوجود تلميذي الجديد توفَّرتُ على خبرة، تفيد أن أشدّ الأفكار تجريداً إنما يغدو مفهوماً لعقل أيّ مستقبل للمعلومات إن أُحسن تقديمها. إن نظريتي عويصة على الوصف بأي حال، مهما بلغ وضوح أو دِقّة أسلوب كتابتها؛ إذ يتعذّر استيعابها من القراءة وحدها.

وإذنْ؛ فحياتي هانئة؛ لأنني أضطلع بأعمال أبي. اذكروني عند كل مَن لا يحرق الأرم حسداً لي على سعادتي، ولكل مَن يعينني، ويشجّعني، ويعضدني على نحو مباشر، أو غير مباشر.

أيلول ١٧٨٧
عودة إلى ما كان

توفّرت عندي أسباب عديدة للاحتفال بالثالث من أيلول (سبتمبر) في ذلك العام. فقد صادف هذا اليوم عيد ميلاد دوقي، الذي ردّ على ولائي ومحبّتي بإغداق ألطافه عليّ، كما أنه ذكرى هجرتي من كارلزباد. ما أزال حتّى الآن أفتقد الجرأة على الالتفات إلى تلك السنة، التي اكتسبت كل هذه الأهمّيّة في حياتي: لأرى ما فعلتْه بي، ولأرى كيف تطوّرتُ. زد على هذا، أنْ لا كثير وقت عندي للتأمّل الجادّ.

عاد المعماري الفرنسي كاساس من رحلته إلى الشرق محمّلاً برسومات للأماكن التي زارها. تصوّر بعض الرسوم هذه الأماكن كما هي حاضراً، مدمّرة أو خرائب أطلال، وتحاول رسوم أخرى، معمولة بالحبر أو الألوان المائية، أن تعيد بناءها، مثلما كان ينبغي أن تبدو في الأصل. إليكم بعض الوصف الذي دوّنتُه في حينه.

١ ـ سراي القسطنطينة منظوراً إليه من جهة البحر، مع جامع آيا صوفيا، وجانب من المدينة. لا يسع المرء أن يتخيّل مقاماً أبهج من سراي السلاطين هذا الرابض على أكثر أطراف أوربا فتنة وسِحْراً.

ويرى الناظر بين صفوف الأشجار الباسقة المشذّبة المتناظرة، لا جدراناً وقصوراً شاهقات، بل منازل صغيرة، ونوافذ شعرية مشبكة، وأقواساً، وأكشاكاً، وسجاجيد معلّقة، في رسم على المقياس المصغّر، يجمع عناصر أليفة، هي بهجة للناظر. ثمّة امتداد جميل للبحر الذي يغسل الساحل

المرتفع. وتقبع آسيا قبالة هذا الموقع، ويمكن للمرء أن يرى ذلك الجزء من المضيق المؤدّي إلى مضائق الدردنيل. يبلغ هذا الرسم الملوّن الممتع نحو سبعة أقدام عرضاً، وثلاثة أقدام ارتفاعاً.

٢ . منظر عام لأطلال تدمر، مرسوماً بنفس المقياس المصغّر. (أطلعَنَا كاساس سابقاً على مخطّط بناء المدينة الأصلية، مثلما أعاد تصوُّره هو.)

هناك طريق مزدان في الأصل بالأعمدة، يمتدّ مسافة ميل إيطالي من المدينة إلى معبد الشمس، لا في خطّ مستقيم، بل في انعطافة خفيفة، تشبه انحناءة الركبة في الوسط. ويتألّف هذا من أربعة صفوف من الأعمدة، يبلغ ارتفاع العمود منها عشرة أمثال محيطه. ولا يسع المرء أن يقول إن كانت الأعمدة مسقوفة أم لا؛ ويعتقد كاساس أنها كانت تُغطّى بالسجاد. ثمّة جزء من الأعمدة يظهر شاخصاً في مقدّمة الرسم. وقد عمد كاساس إلى فكرة لطيفة، بتصوير مرور قافلة في الطريق ذات العماد. ويبرز معبد الشمس في خلفية الصورة؛ وعلى يمينه سهل فسيح، ينطلق فيه فرسان الانكشارية على جيادهم، في عدو سريع. وأغرب مَلمح في هذه الصورة خطّ أزرق، يُغلق عليها مثل أفق البحر. وشرح لنا كاساس أن الأفق في الصحراء يبدو أزرق في البعيد، ويُغلق مدى الرؤية مثلما يفعل البحر تماماً؛ وقال إن العين تنخدع في الطبيعة انخداع عيوننا بالصورة أول مرّة، رغم أننا نعرف أن تدمر بعيدة تماماً عن البحر.

٣ . أضرحة تدمر.

٤ . معبد الشمس في بعلبك في تصوُّر مستعاد، إضافة إلى منظر عامّ، يُصوِّر الأطلال، كما هي عليه.

٥. المسجد الأقصى في القدس المشاد فوق أساسات معبد سليمان.

٦. أطلال معبد صغير في فينيقيا.

٧. منظر طبيعي عند سفح جبل لبنان.

هذا المنظر ساحر حقّاً. ثمّة أجمة صنوبر، وجدول تحفّه أشجار صفصاف، تظلّل قبوراً. أما الجبل؛ فيظهر في البعيد.

٨. أضرحة تركية. وتُكلّل كل ضريح عمامة المدفون. إن العمامة، أو غطاء الرأس عموماً هو رمز على تميّز المكانة عند الترك، لذا؛ يمكن للناظر أن يتبيّن مكانة المتوفىّ من عمامته. أما قبور الفتيات الصغيرات؛ فمزروعة بالأزهار التي يعنون بها عناية كبيرة.

٩. هرم مصري مع رأس أبي الهول العملاق. وأخبرنا كاساس أن الرأس قد احتُفر من أكمة جيرية، وطُلي بالجبس، ودُهن لإخفاء خشونة صخره، وما فيه من شقوق، ما تزال آثارها ظاهرة في طيّات غطاء رأس أبي الهول. يبلغ ارتفاع كل جانب من الوجه نحو عشرة أقدام. وقال كاساس إنه استطاع أن يمشي على الشفة السفلة للتمثال من دون عُسر.

١٠. هرم آخر مُستعاد اعتماداً على بعض الوثائق. وتحيط بالهرم من جهاته الأربع أقواس ومسلات لصيقة بها. ويمكن الوصول إلى الأقواس بممرّات محفوفة بتماثيل أبي الهول، شبيهة بما يمكن أن يراه الناظر قائماً في جنوب مصر. يُصوِّر هذا الرسم أعظم بنيان معماري، شهدتُه في حياتي، ولا أظن أن ثمّة ما يُضاهيه قط.

رحنا في ذلك المساء نفسه في نزهة في الحدائق المجاورة للبالاتين،

والتي احتلّت المساحات الخالية بين أطلال قصور الأباطرة، فزادتْها جاذبية. رحنا إلى فناء منبسط تحت الأشجار البديعة، وسط بقايا تيجان الأعمدة المزخرفة، والأعمدة الملساء ذات الأخاديد ، ومنحوتات النحاس الناتئة، وسواها، المبثوثة من حولنا في دائرة كبرى على غرار الموائد والكراسي والأرائك التي رُتِّبت لنزهة مرحة في الهواء الطلق. وغَرَفْنَا متعة ساعة حلوة، تُبهج القلب. ولمّا أخذنا نتملّى المشهد البانورامي، عند الغروب، بعيون طرية منتعشة، وجب علينا الإقرار بأن هذه الصورة، رغم كل ما رأيناه منها في النهار، ما تزال جديرة بالنظر. ولو تيسّر لهذا المنظر مَن يرسمه، ويُلوّنه، على ذوق كاساس؛ لأثار حماسة عارمة.

دفعتْنا مشاهدة هذه الأنصاب المصرية العظيمة إلى أن نقصد، في اليوم التالي، زاوية وضيعة مزرية من المدينة؛ حيث تجثم كسر من مسلّة سيسوتري على الأرض مطوّقة بسياج خشبي مؤقّت في انتظار قدوم معماري رائد، يعيدها إلى الحياة. (أُعيد نصب المسلّة الآن في ساحة بياتزامونتي تشيتوريو، وهي تقوم مقام عقرب مزولة شمسية، كما في زمان قدامى الرومان).

نُحتت المسلّة من أحسن أنواع حجر الجرانيت المصري، وهي مزدانة السطوح، بنقوش بدائية حلوة بالأسلوب المميّز لذلك العهد. إن الوقوف جوار هذه المسلّة التي كانت تشمخ عالية ذات يوم، لغريب حقاً، خصوصاً عند النظر إلى وجوه أبي الهول الكثيرة المنقوشة على سطحها في مهارة بديعة، والإدراك بأن هذه الصور لم تكن ماثلة أمام العين البشرية، بل شاخصة إلى الشمس التي تراها بشعاعها. ها هنا نحن بإزاء منحوتة مقدّسة، لم يكن الغرض منها إحداث تأثير بصري في الناظر.

إن هذا التضادّ الصارخ بين الأنصاب السامية ورقعة الأرض المزرية التي

ترقد فيها جعلنا ندرك أيّ مكان للهرج هي روما. مع ذلك، فإن المدينة، وهي بهذا الهرج، مُوئل فريد بما تحويه من مزايا. فما من شيء هنا يُخلَق بالمصادفة المحض؛ فلا عمل للمصادفة سوى التدمير. إن كل ما يشخص رائع. والأطلال هنا شبه مقدّسة؛ لأنها حتّى وإن كانت خرائب، فإن المرء يرى فيها التناسق القديم ماثلاً ما يزال؛ أما الأشكال العظيمة لكنائسها وقصورها الحديثة؛ فتعيد تجسيد هذا التناسق، ليس إلا.

احتفل أهل روما بعيد القدّيس فرانسيس يوم الحادي والعشرين من أيلول (سبتمبر)، وطافوا بدمه في أرجاء المدينة، متبوعاً بموكب طويل. راقبتُ الرهبان عن كثب في أثناء مرورهم. إن تقليدهم البسيط يدفع المرء إلى تركيز انتباهه على الرأس، فخطر لي، في الواقع، خاطر، مفاده أن شعر الرأس واللحية هما المسؤولان عن إيصال فكرة الرجولة إلينا. وإذ مرّ بنا الموكب، رحتُ ألاحظ، بفضول وعجب بادئ الأمر، ثمّ في حبور ومَسرّة، فيما بعد، أن وجوه الرهبان المؤطّرة بالشعور واللحى، تترك انطباعاً مغايراً عن الوجوه غير الملتحية في الحشد. جعلني هذا الفارق أدرك مدى الجاذبية الخارقة التي تمارسها مثل هذه الوجوه علينا حين نراها في اللوحات الفنية.

لقد أدرك هوفرات رايفنشتاين منذ أمد بعيد، بحكم اضطلاعه الجادّ بمهمّة رعاية وتسلية الزوّار الأجانب، أن الوافدين إلى روما بهدف مشاهدة الأشياء والتسرية عن النفس لا أكثر، سرعان ما يقعون فريسة المَلَل الفظيع؛ لأنهم يفتقرون إلى السُّبُل المعتادة لقضاء أوقات الفراغ. وكان خبير النفس البشرية هذا يعرف أيضاً مدى الإنهاك الناشئ عن مجرّد التفرّج في أرجاء المدينة، ومدى ضرورة تزويد المرء لأصحابه بنوع ما من الانشغال الذاتي الذي يرتاحون إليه وفيه. لذا؛ اختار نوعين من النشاط الذي سعى إلى أن يشغلهم به:

الرسم بألوان شمعية، وتقليد المجوهرات الأثرية بالطين الاصطناعي.

إن فن استخدام الصابون الشمعي كمادّة لتثبيت اللون قد جرى إحياؤه مؤخّراً، واكتسب شعبية واسعة؛ لأن كل طريقة جديدة في عمل شيء ما، تحفّز الاهتمام والرغبة في التجريب في نفوس مَن لم يعودوا يشعرون بالميل إلى استخدام الطريقة القديمة.

وإن هذا التكنيك قد سهّل المشروع الجريء لعمل نسخة من "مساكن" رافائيل للإمبراطورة كاترين، واستنساخ كامل المحيط المعماري، بكل ما فيه من زينة لصالح سانت بطرسبرغ، ولعلّ هذا الاستنساخ كان سيغدو مستحيلاً، بدون هذا التكنيك. إن النسخ الدقيقة عن ألواح الخشب، والجدران، والأعمدة، والتيجان، والأفاريز، تُصنع من ألواح خشبية ثخينة، أو كتل خشب صلدة ثقيلة، بعد هذا، كانت قطع الخشب هذه تُغطّى بقماشة الرسم، وتُلوّن؛ لتشكّل أساساً راسخاً للرسم بالألوان الشمعية. وبناء على توصية رايفنشتاين انشغل عدد من الرسّامين، وبخاصة أونتريبرجر، بالعمل في هذا المجال عدّة سنوات. ولمّا وصلتُ، وجدتُ أن معظم قطع العمل قد تُركت لمصيرها، لذا؛ لم أستطع أن أشاهد سوى الأجزاء الصغيرة الباقية من هذا المشروع الكبير.

إن هذا العمل روّج شهرة الرسم بالألوان الشمعية. وأمكن للزوّار الأجانب اكتساب معرفة عملية بهذه الطريقة، إن كانوا على أي قدر بسيط من أية موهبة؛ فالألوان جاهزة سَلَفاً، وهي ليست غالية الثمن، كما يمكن للمرء أن يغلي الصابون الشمعي بنفسه؛ وباختصار ثمّة دوماً نشاط ما، يمكن للمرء أن ينغمر فيه في لحظات فراغه. ويستطيع حتّى الفنانين الضعاف أن يجدوا عملاً لهم كمعلّمين أو مساعدين، وغالباً ما رأيتُ الزوّار يحزمون أعمالهم المرسومة بالألوان الشمعية ممّا نفّذوه في روما، بين أمتعتهم، ليأخذوه معهم إلى أوطانهم مفعمين بأقصى آيات الرضى عن النفس.

أما الحرفة الأخرى؛ أي تقليد الأحجار الكريمة القديمة في الطين الاصطناعي؛ فأكثر توافقاً مع الرجال، وتُمكن ممارستها بسهولة في القبو الفسيح في المطبخ القديم في فيلا رايفنشتاين؛ حيث المجال يكفي، ويزيد. إن الكتلة الصلبة المقاومة للحرارة، تُطحن؛ لتستحيل مسحوقاً ناعماً، يُنخَل، ويُعجَن على شكل معجون. بعد هذا، تُجفّف الأحجار تجفيفاً تامّاً، وتضغط على المعجون، الذي يُحاط بطوق معدني، ويوضع في الفرن. بعد هذا، يضاف معجون زجاج ذائب؛ ليتمخّض ذلك في النهاية عن عمل فني، يسرّ كل مَن يرى أن أنامله قد حقّقت ذلك.

كان القيظ الشديد قد ولّى لتوّه حين أخذني رايفنشتاين أنا وبضعة فنانين آخرين إلى فراسكاتي؛ حيث وجدنا مستقرّاً في فيلا خاصة مريحة حسنة الأثاث. ورحنا نقضي سحابة النهار متنزّهين في الهواء الطلق، أما في المساء؛ فكنا نتحلّق حول مائدة كبيرة من خشب القيقب؛ لنتبادل الأحاديث. وكانت هذه الأحاديث، التي لا تخلو من فائدة، تأخذ في بعض الأحيان منحىً خبيثاً.

ليس سراً أن بعض الفنانين الشباب لاحظوا وجود حساسيات معيّنة عند صاحبنا الطيّب رايفنشتاين، والتي تسمّى عادة: بواطن ضعف، فكانوا يُكثرون من الحديث عنها، والسخرية منها وراء ظهره.

في ذلك المساء، تطرّقت الأحاديث الفنية عن نحت أبوللو بيلفيديري، وهو موضوع لا ينتهي النقاش حوله. أشار أحدهم إلى أن أذني التمثال لم تُنحتا نحتاً موفّقاً، فقادنا ذلك تلقائياً إلى الحديث عن بهاء وجمال الأذن، وصعوبة العثور على أذن جميلة في الطبيعة، أو استنساخها استنساخاً حميداً في الفن.

كان بين الشلّة مواطن من فرانكفورت، يُدعى جيورج شوتز، وقد اشتُهر بجمال أذنيه، وبخاصة الأذن اليمنى. طلبتُ منه أن يجلس قريباً من النوّاسة حتّى أستطيع أن أرسم أذنه. ولمّا اتّخذ الجلسة الجامدة بوصفه موديلاً لي، وجد نفسه، مصادفة، يجلس قبالة هوفرات رايفنشتاين وجهاً له، ولم يستطع. كما لم أسمح له. بأن يشيح ببصره عن رايفنشتاين. شرع هذا الأخير في إلقاء المحاضرة التي لا يكلّ عن تردادها، وهي تحديداً أن على المرء ألا يبدأ بالنظر إلى الأحسن، بل يتوجّب عليه أن يبدأ مع كاراكي في متحف فارنيزي؛ لينتقل بعد ذلك إلى رافائيل، وبعد ذلك وحسب ينبغي أن يرسم تمثال أبوللو، وأن يواصل رسمه حتّى يحفظه عن ظهر قلب، بوصفه المثال الأسمى للجمال، الذي لا أمل ولا رغبة في ما يفوقه فتنة.

أُصيب صاحبنا شوتز بنوبة قهقهة جامحة، وكلّما حاولتُ أن أبقيه ثابتاً في وضعه، زاد عذابه.

ويبيّن هذا كيف أن الأستاذ والمحسن يمكن أن يقابَلا بالسخرية واللاامتنان، إن تركا بابهما من الحساسية، ينكشف للعيان.

إن الأرواح الفالة الطموح، لا تكتفي باللذّة، بل تنشد المعرفة. ويسوقها هذا المبتغى إلى النشاط الأصيل، وأيّاً كان نتاج هذا النشاط، فإن مثل هذا الشخص يبدأ بالإحساس، آخر الأمر، بأنه لا يستطيع أن يحكم على أي شيء حكماً منصفاً إلا اعتماداً على ما أنتجه هو بنفسه. ولكنْ؛ من الصعب على الكائن البشري أن يرى ذلك بوضوح، ويمكن له أن يقع في الضلال بكل سهولة، فيبذل جهوداً مضلّلة، تثير القلق المتزايد، كلّما كانت نواياه أكثر إخلاصاً. ورغم أن ظروف حياتي، وقتذاك، كانت مريحة، فقد بدأت الريب والشكوك تُداهمني، فبتُّ أجد صعوبة جمّة في تنفيذ رغباتي الفعلية، والغرض الحقيقي لوجودي في روما.

عدنا من فراسكاتي إلى روما، فوجدنا أوبرا جديدة ساحرة، تُعرَض في منزل مكتظّ ساطع الإنارة، فكانت خير تعويض عن فقداننا حُرّيّة التنزّه خارج المنازل، في العراء.

كانت مقاعد الفنانين الألمان في أحد الصفوف الأولى من القاعة، ملأى بالكل كما هو معتاد. واستطعنا إسكات اللاغطين من الجمهور، بأن هتفنا "صمتاً!" (بالإيطالية). قلنا بنبرة لطيفة بادئ الأمر، ثمّ بصوت جهوري زاجر أخيراً، كلّما بدأت لازمة (بالإيطالية) نغم مفضّل، أو قطعة مفضّلة. وقد كافأنا أصدقاؤنا على المسرح بأن صاروا يوجّهون معظم المقاطع المثيرة من أدائهم إلينا مباشرة.

شهر تشرين الأول ١٧٨٧
مراسلات

فراسكاتي، ٢ تشرين الأول (أكتوبر)

ينبغي أن أشرع في كتابة هذه الرسالة الآن حتّى تصلكم في وقت سريع. لديّ معاً الكثير والقليل ممّا أقول. استبدّ بي الحنين خلال هذه الأيام إلى الوطن من جديد، لعلّ مَرد ذلك أنني كنتُ أنعم بوقت حَسَن مدركاً في الوقت نفسه أنني أفتقد أعزّ ما عندي.

إنني في حالة غريبة حقاً، لكنني سأتمالك نفسي، وأنتفع من كل يوم خير انتفاع، وأقوم بما يقتضي به الواجب، وأواصل العمل على هذا النحو طوال الشتاء، كما آمل.

لا يسعكم أن تتخيّلوا مدى الفائدة التي جنيتُها من بقائي هنا، ومدى الصعوبة أيضاً في أن أعيش عاماً كاملاً بين أناس غرباء بالمرّة، خصوصاً لأن تيشباين. وهذا الكلام يبقى بيننا ـ قد أسفر عن وجه آخر غير الذي كنتُ أتصوَّره. إنه إنسان طيّب في أولئكأعماقه، لكنه ليس صادقاً، ولا صريحاً، بالصدق والصراحة التي يتلبّسهما في رسائله. بوسعي أن أقدّم لكم وصفاً شفهياً لشخصيته، لن يكون جائراً بحقّه، ولكنْ: ما قيمة التوصيف؟ إن شخصية المرء هي حياته الكاملة. أتطلّع الآن بشوق كبير إلى مجيء كايزر. أتضرّع إلى الله ألا يقع ما يعيق قدومه.

يَنصَبّ همّي، راهناً ومستقبلاً، على أن أبلغ في الرسم حدّاً، أُنجز فيه شيئاً بيُسر، لا أن أضطر إلى حساب الوقت، والبدء من جديد، كما حصل

مراراً، ويا للأسف، خلال أفضل سنوات عمري. مع هذا، ثمّة ما أُدلي به دفاعاً عن نفسي. إن الرسم لأجل الرسم يشبه الكلام لمجرّد الكلام. فطالما لم يكن لدي ما أعبّر عنه، وطالما لا يوجد ما يحفّزني، وطالما يتعيّن عليّ أن أبذل جهداً كبيراً بحثاً عن موضوع لائق، من دون أن أجده رغم كل مساعي البحث المضنية، فمن أين لي أن أعثر على حافز أصيل لرسم الصور؟ غير أن هذا البلد يمتاز بكثرة الأمور التي تحيط المرء، وتصادفه، فيستوعب قدراً من المواضيع أكبر من أن يحول بينه وبين أن يصير فناناً، وينتج عملاً. إنني أعرف مَيلي المستطاب، وأعرف أي طريق أسلك، وكُلّي قناعة أني إذا أمضيتُ بضعة أعوام هنا، فإني سأحرز تقدّماً ملحوظاً.

سألتُموني، أيها الأعزّة، أن أكتب عن نفسي. طيّب، ها أنتُم ترون أني فعلتُ. لقد سنحت لي الفرصة؛ كي أتأمّل نفسي، والآخرين، والعالم، والتاريخ، ولسوف أحمل لكم، على طريقتي الخاصة، الكثير ممّا سأتقاسمه معكم، الكثير ممّا هو حسن، حتّى لو لم يكن جديداً. ولسوف أكثّف ذلك كله، وأوجزه في كتابي "فيلهلم مايستر".

إن موريتز هو رفيقي المفضّل، أبداً، وخشيتي الدائمة، في السابق، كما في الحاضر، أن تزيده صحبتي ذكاء، دون أن تزيده حكمة، أو سعادة، أو حالاً أفضل؛ وهذا يصدّني دوماً عن أن أنفتح له بالكامل.

وعلى العموم، إن الاختلاط بالمزيد من الناس يُريحني. فأنا أراقب أمزجتهم المتعدّدة، وطريقة تصرّف كل واحد فيهم. فهذا يمثّل دوراً، وذاك لا يمثّل؛ وهذا سيشقّ طريقه في سهولة، وذاك في صعوبة بالغة؛ هذا يدّخر، وذاك يبدّد؛ وهذا قانع بكل شيء، وذاك ساخط على كل شيء؛ وهذا يتوفّر على موهبة، ولا ينتفع بها؛ وذاك بلا موهبة، لكنه مجدّ مثابر. أرى ذلك كله، وأرى نفسي في وسطه. إن ذلك يسلّيني، ولا يُخرجني عن

طوري؛ لأن حيوات هؤلاء الناس لا تعنيني، ولستُ مسؤولاً عنهم. ولا أستجيب إلا حين يصرّ كل واحد منهم على أن الدرب الذي يسلكه في الحياة هو الطريق السليم الوحيد، ويلحّ عليّ؛ كي أوافقه الرأي، وهنا أشعر إمّا أن عليّ أن أهرب، أو أنفجر حنقاً.

البانو، ٥ تشرين الأول (أكتوبر)

يتعيّن إيصال هذه الرسالة إلى روما في الوقت المناسب؛ لكي تأخذ طريقها في البريد غداً. لذا؛ لن أكتب غير ذرّة من ألف ممّا أريد وأودّ قوله لكم.

قبيل المغادرة إلى فراسكاتي، استلمتُ في رزمة واحدة "أوراق مبعثرة" .أو بالأحرى الملمومة. و"أفكار"(*)، علاوة على مجلّداتي الأربعة، والمَكْسُوّة بالجلد المراكشي، وهكذا. فإن لديّ كنزاً من مادة القراءة تكفيني لكل عطلتي الصيفية (بالإيطالية). مساء الأمس، قرأتُ كتاب بيرسيبوليس، وتمتّعتُ به متعة هائلة. ليس عندي ما أضيفه؛ لأن هذا النمط من الكتابة والتفكير ما يزال هنا مجهولاً بالكامل. سأبحث في بعض المكتبات عن المؤلّفات التي توصوني بها. أكرّر شكري الجزيل ثانية. رجائي أن تواصلوا مراراً وتكراراً تسليط النور على كل شيء. واصلوا ذلك، فهذا واجب مُلزم.

لم أفتح صفحات "أفكار"(**) أو "قصائد"(***) بعد. ينبغي لأعمالي أن تخرج إلى النور. سأواصل التفاني في عملي. أما اللوحات المحفورة على النحاس لمجلّداتي الأربعة التالية؛ فستعُمل هنا.

---

*) عناوين مؤلّفات بقلم هيردر.

**) عناوين مؤلّفات بقلم هيردر.

***) عناوين مؤلّفات بقلم هيردر.

إن علاقتي بالأشخاص الذين تذكرونهم(*) لا تزيد عن هدنة مهذّبة من الجانبين. كنتُ أعرف دوماً أن لا قبل إلا للإنسان الناضج بذلك. إن الشقّة بيننا سوف تتباعد باطّراد؛ لتنتهي، إن سارت الأمور في مجراها اللازم، بقطيعة صامتة. إن أحدهما أحمق دَعيّ. وهو يقول إن من الأسهل والأبسط انشاء نشيد "أمّي عندها أوز" من إنشاد "لله المجد في العلى". فهو، بعد كل هذا، وزة حمقاء هو نفسه:

"إنهم لا يعافون القشّ والتبن، القشّ والتبن"، إلخ، إلخ. يتوجّب على المرء أن يبعد عن عشرة أمثال هؤلاء الناس. وإن جحودهم الأول لا يقلّ سوءاً عن جحودهم الأخير. أما الثاني؛ فيتخيّل نفسه قادماً من بلاد أجنبية؛ ليجد حواريين يتبعونه، لكنه يصادف أناساً، لا يُعجبون إلا بأنفسهم، من دون أن يعترفوا بذلك. ولسوف ينتهي به الحال إلى أن يجد نفسه غريباً منبوذاً، ولعلّه لن يعرف السبب قط.

أما أنت، يا أخي العزيز؛ فينبغي أن تواصل التأمّل، والاكتشاف، والبيان، والقريض، من دون أن تعبأ بما يقوله الآخرون. ينبغي للمرء أن يكتب، وهو يعيش، مرّة لأجل ذاته، ومرّة لأجل قلّة من النفوس المتجانسة.

ما كان أفلاطون ليقبل أي جاهل بالهندسة (باليونانية) في أكاديميّته. وإذا قُيّض لي أن أشيد أكاديمية، فلن أقبل فيها أي إنسان لم يدرس حقلاً من حقول العلوم الطبيعية دراسة جادة فاعلة. ذات يوم وقعتُ على هذه الكلمات البائخة التي أطلقها "نبي زيوريخ" بأسلوب شبه رسولي، شبه كَهَنُوتي: "كل ما هو حيّ مَدين بحياته لشيء يقع خارجه." أو هذا هو معنى كلماته في الأقلّ. إن هذا الصنف من الكلام لا يدوّنه إلا قسّ إرسالية

---

*) يشير غوته هنا إلى ماتياس كلوديوس (١٧٤٠. ١٨١٥)، وهو شاعر تقي، ومتديّن، وف. هـ. جاكوبي (١٧٤٣. ١٨١٧)، وهو فيلسوف. وقد انضمّ هذا إلى لافاتر في مهاجمة كتابات هيردر.

مع الوَثَنيين، وحين راجع قوله هذا، فإن عبقريته لم تلكزه توبيخاً. إن أمثال هؤلاء لا يفقهون حتّى أبسط الحقائق الأولية في الطبيعة، رغم أنهم يودّون، بلا شكّ، أن تُحفظ لهم مواقع خاصة عند العرش، ممّا يخصّ آخرين، أو لا يخصّ أحداً. لا داعي لأن تفكّروا بهؤلاء أكثر ممّا أفكّر بهم أنا، رغم أن هذا أهون عليّ، كما أقرّ، وأعترف.

وداعاً، كونوا سعداء، وحين تشعرون بالحزن، تذكّروا أنكم معاً، جميعاً، قادرون على أن تكونوا ما أنتم عليه لبعضكم البعض، أما أنا؛ فلا أزْيَدَ عن مَنفي، بطوعه، جواب بفعل المقادير، رجل هادف، بلا حكمة، غريب في كل مكان، وفي كل مكان في بيته، رجل يترك حياته تأخذ مجراها؛ حيث تشاء، بدل أن يَسوسها، كما يشاء، طالما أني لا أعرف، على أي حال، أين ستفضي بي.

انقلوا تحياتي العميقة إلى الدوقة. في أثناء مكوثي في فراسكاتي، عكفنا أنا وهوفرات رايفنشتاين على وضع برنامج كامل لزيارتها، وسيكون هذا البرنامج، أن تحقّق، قطعة رائعة من التخطيط. ونجري حالياً مفاوضات للحصول على فيلا ريفية محجوزة، لسبب من الأسباب، ويمكن بالتالي تأجيرها. أما الفيلات الأخرى؛ فهي إمّا مؤجّرة اصلاً، أو لا سبيل إلى الحصول عليها إلا من الأسر الكبيرة على سبيل اللياقة، ممّا يزجّ المرء في التزامات متقابلة، وعلاقات حميمية غير مرغوبة. سأكتب ثانية حالما يستجدّ ما أفيدكم عنه.

هناك منزل جميل في روما، له حديقة وموقف خاص، جاهز لها. أريد لها أن تشعر أنها في بيتها؛ حيثما تحلّ؛ وبخلاف ذلك لن تتمتّع بأي شيء .فالوقت يطير، والنقود تُنفَق، والسعادة تتسرّب، قبل أن يفطن المرء، من بين الأصابع. أريد أن أرتّب لها كل شيء حتّى لا ترتطم قَدَمُها بحجارة.

ما يزال ثمّة مُتّسع قليل، لكني لا أستطيع الكتابة أكثر من ذلك. وداعاً، واغفروا لي عجالة هذه السطور.

كاستل جوندلفو، ٨ تشرين الأول (أكتوبر) (الواقع أن التاريخ هو ١٢ تشرين الأول)

انصرم هذا الأسبوع من دون أن أتمكّن من الكتابة، فإن قُيّض لكم أن تسمعوا مني شيئاً، فلابد أن أخربش هذه الملاحظة الصغيرة، وأبعثها إلى روما فوراً.

أعيش هنا مثلما يعيش المرء في منتجع، باستثناء أنني أنسلّ في الصباح؛ لأرسم. أما بقية النهار؛ فالمطلوب من المرء أن يصاحب الآخرين، ويخالط الجماعة. لا مانع عندي من الاشتطاط إلى هذا الحدّ، الواقع أنني أرى الكثير من الناس مرّة واحدة، من دون أن أبدّد الكثير من الوقت. إنجيليكا تسكن قريباً جداً، وهناك شابّات مرحات وحيويات، وبعض النساء، والسيد فون مارون، نسيب مينجز، وعائلته، التي يسكن أفرادها في المنزل أو في الجوار. الشلّة مرحة، وهناك دوماً ما يثير الضحك. أما في المساء؛ فنذهب لمشاهدة مسرحية كوميدية، يحتل فيها المهرج (بولسينيلا) دور البطل. وفي اليوم التالي، نسلّي أنفسنا بتذكّر الإلماحات الحلوة (بالفرنسية) في الليلة السابقة. إننا نشعر كما لو كنا في بيتنا tout nous (commechez) عدا عن السماء الرائعة الصافية. هبّت اليوم ريح قوية، أبقتني في المنزل. إن كان ثمّة ما سيُخرجني من ذاتي، فإن هذه الأيام كفيلة بذلك، لكني أنسحب دوماً إلى باطن ذاتي، ويتركّز اهتمامي كله على الفن.

شارفتُ على إكمال "إيروين وإيلمير"؛ إن الموضوع بأكمله جاهز في رأسي، ولا أحتاج سوى بضع صباحات من مزاج مناسب للكتابة.

سألني هيردر أن أزوّد فورستر(*) بقائمة أسئلة واقتراحات لرحلته حول العالم. أودّ حقاً أن أساعد في ذلك، غير أني لا أعرف من أين آتي بالوقت اللازم. دعونا نرى.

النهارات في زاويتكم من العالم قد تكون باردة، ومدلهمّة الآن؛ أما هنا: فنتطلّع إلى شهر كامل آخر، ننعم فيه بمسرّة النزهة على الأقدام. لا أستطيع أن أصف لكم مدى فرحي بكتاب هيردر "أفكار". ولمّا كانت في غير وارد انتظار مسيح مخلّص، فإن هذا الكتاب هو إنجيلي المفضّل. اذكروني عند الجميع. أنا معكم أبداً بأفكاري.

إلى هيردر

كاستل جوندلفو، ١٢ تشرين الأول (أكتوبر)

هذه أسطر قلائل؛ لأعبّر لك عن امتناني الحارّ على كتابك "أفكار". وتأتي هذه الأفكار، بالنسبة لي، مثل إنجيل حبيب، يجمع ويتأمّل بين دفّتيه كل الدراسات التي أثارت أعظم اهتمامي في كل حياتي. فأنت تقدّم كل ما شقيت أنا لأجله طويلاً بأسلوب صاف، مكتمل، وقد أذكى كتابك فيّ رغبة لكل ما

هو خير. قرأتُ نصف الكتاب حتّى الآن. الرجاء أن تكلّفوا أحداً يستنسخ لي، بأسرع ما يمكن، كامل المقطع الذي كتبه كامبر(**)، والذي تستشهد به على الصفحة ١٥٩، حتّى أرى ما الذي اكتشفه بصدد القواعد التي تحكم المثُل العليا للفن الإغريقي. كل ما أتذكّره هو المراحل التي يبيّن فيها

---

*) رحل جيورج فورستر مع جيمس كوك، وكان يعتزم القيام برحلة ثانية حول العالم، بتعضيد مالي من كاثرين العظمى.

**) بتروس كامبر (١٧٢٢ ـ ١٧٨٩)، عالم تشريح هولندي وضع نظرية تقول إن الإنسان يخلو من عَظْم الفكّ الرابط، وهي نظرية أثبت غوته خطأها.

نشوء الرسم الجانبي (البروفيل) عن الرسم بالحفر. أفضْ في هذا الموضوع في رسالتك، وعزّزه ببعض المقتبسات من أية مصادر تظنّها نافعة لي، حتّى يتسنّى لي أن أعرف الذروة النهائية التي بلغتْها هذه التأمّلات، ذلك أني ما أزال طفلاً وليداً في هذه الأمور. هل هناك شيء معقول عن هذا الموضوع في كتاب لافاتر عن علم الفراسة؟

يسعدني أن أستجيب لنداء الاستغاثة الذي أرسلته نيابة عن فورستر؛ رغم أني لا أرى إلى الآن كيف السبيل إلى ذلك. فلا توجد أسئلة ناجزة مستقلّة في ذهني؛ لكي أثيرها، بل يتعيّن عليّ أن أوضح فرضياتي بالكامل، وأنت تعلم أي امتحان عسير هذا الذي سأضطر إلى خوضه حين أضع هذه الفرضيات كتابة على الورق.

قل لي ما هو الموعد الأخير لتهيئة الأسئلة؟ وأين أبعثها؟ أجلس حالياً بين أعواد القصب مقتطعاً النايات، لكني عاجز حتّى الآن على العزف عليها. إذا عنّ لي الاضطلاع بهذه المهمّة، فسوف ألجأ إلى مَن أملي عليه. اعتبر طلبك إشارة إلى أن الوقت قد حان لأرتّب أموري، وأن أطوي كُتُبي. الصعوبة الكبرى هنا أنني سأضطر إلى أن أقوم بكل شيء، على الإطلاق، اعتماداً على الذاكرة. فليس معي الآن أي شيء تماماً، حتّى ولا صفحة من منتخباتي المختارة (collectanea)، ولا رسم من رسوماتي، ولا نسخة من آخر كُتُبي، هنا في هذا المكان.

أرجّح البقاء في كاستل جوندلفو أسبوعين آخرين. في الصباح أرسم، وبعد ذلك أنشغل مع الناس طوال الوقت، ولا أمانع في ذلك؛ لأنني أراهم جميعاً دفعة واحدة، لا واحداً واحداً. فإن رأيتُ كلاً على انفراد، كان ذلك مبعث إزعاج كبير. وتساعدني إنجيليكا أيضاً على تحمّل ذلك كله.

يقال إن البابا تلقّى معلومات تفيد أن البروسيين استولوا على أمستردام. سنعرف الخبر اليقين عند وصول الأعداد الجديدة من الصحف. إنني أسمّي ذلك صلابة(zodezza). سيكون ذلك أول اشتباك، تتجلّى فيها بلادنا بكامل عَظَمَتها. فالقضية كلها حُسمت من دون أن يستلّ أحد سيفاً، بل بمجرّد إطلاق قذائف مدفع واحد، أو مدفعين، ولا أحد يريد إطالة الأمر.

وداعاً. إنني طفل السلام، وأعتزم العيش من الآن فصاعداً في سلام مع العالم بأسره، خصوصاً، وأنني بتّ، مرّة وإلى الأبد، في صلح وسلام مع نفسي.

روما ٢٣ تشرين الأول (أكتوبر)

في البريد الأخير، أيها الأعزّة، لم تصلكم رسالة مني. إن هرج ومرج الحياة في كاستل جوندلفو زاد عن الحدّ، بالنسبة لي؛ زد على هذا أني أريد أن أرسم. التقيتُ من الإيطاليين خلال هذه الفترة ما يزيد عن الذين التقيتُهم منهم في عام كامل، ووجدتُ هذه التجربة لطيفة.

شُغفتُ بسيّدة شابّة من ميلانو(*)، بقيتُ هنا أسبوعاً، فتميّزت عن سواها من سيدات روما بتلقائية السلوك، والحصافة، والتهذيب الجمّ. وقدمت إنجيليكا، على عهدها دوماً، خير عون ورعاية. لن يعرف المرء هذه الإنسانة ما لم يعقد معها عُرى الصداقة؛ ليتعلم منها الشيء الكثير، وبخاصة كيف ينبغي أن يعمل؛ ما أعجب مقدار ما تنجز.

بات الطقس يُنذر بالبرد خلال الأيام القليلة الماضية، وإنني لسعيد تماماً بعودتي إلى روما. حين رقدتُ في الفراش الليلة الماضية، شعرتُ تماماً بحُسن البقاء في روما. بدا لي، وكأني أرقد في أرض آمنة.

---

*) تُدعى هذه السيدة الشابّة مادلينا ريكي.

أتوق كثيراً إلى التحدّث مع هيردر حول كتابه "الباري". إليكم ألمع ما أراه في هذا الكتاب. إن الناس يحسبونه، على غرار ما يحسبون الكُتُب الأخرى، مجرّد زاد، في حين إنه في واقع الأمر طبق. فمَن لا يملك شيئاً يضعه فيه، حسبه خاوياً. دعوني أشرح فكرتي بتوسّع عن طريق استعارة، يجيد هيردر تأويلها خيراً من سواه.

يمكن لنا أن ننقل بعض الأثقال باستخدام العتلات والبكرات؛ أما نقل كتل من مسلّة عملاقة؛ فيقتضينا استخدام رافعات وساحبات ضخمة. وكلّما ازداد الحمل دقّة الآلة المطلوبة. خذ الساعة مثالاً. وازداد تعقيد أو براعة الآليات المستخدمة، وزاد معها كمال وحدة بنيتها الداخلية. وما يصحّ على الآلات يصحّ على كل الفرضيات الفكرية، أو بالأحرى، على كل القوانين العامة. وإن مَن لا يملك ثقلاً كبيراً يحمله، سيلتمس العتلة، ويزدري رافعتي الضخمة؛ ما عسى البناء العامل بالحجارة أن يفيد من لولب بلا نهاية؟ وحين يعتصر لافاتر كل قوى تفكيره؛ ليكسب حكايا خرافية مظهر الحقيقة، أو حين يبذل جاكوبي جهوداً مضنية؛ لكي يجعل من الخيال الفارغ في عقل طفل إلهاً، أو حين يحلو لكلوديوس أن يقلب نفسه مبشّراً مشائياً(*) إلى رسول مقدّس؛ فمن البديهي أن يُبغضوا كل ما يميط اللثام عن أولئكأعماق الطبيعة. ولو لم يكن حالهم على نحو ما وصفتُ، فهل كان الأول منهم يتجرّأ على أن يقول: "كل شيء حيّ مَدين بحياته إلى شيء خارج نفسه"؟ أما كان الثاني منهم سيخجل من خلطه المعرفة بالايمان، والتراث بالتجربة؟! أوما كان الثالث سوف ينزل درجة أو درجتين؟! ولكنْ؛ لا،فهم مشغولون في سعيهم، بكل ما أوتوا من قوّة وعزم، لرصف كراسيهم حول عرش الحمل، إلى درجة، تدفعهم إلى الحرص على تجنّب خوض أرض الطبيعة الراسخة؛ حيث لا يزيد المرء عمّا هو عليه فعلاً، وحيث نقف جميعاً سواسية في الحقوق.

---

*) المبشّر المشائي: اعتاد كلوديوس أن يمضي رسائله بعبارة: الرسول من واندزبك.

من جهة أخرى، حين يفتح المرء الجزء الثالث من كتاب "أفكار"، ويرى ما يحويه، ثمّ يتساءل: "هل كان بوسع المؤلّف أن يكتب هذا من دون أية فكرة حقيقية عن الباري؟"، يأتيه الجواب: "أبداً". ذلك لأن أصالة الكتاب وعَظَمَته ومضمونه الروحي إنما تكمن في فكرة حقيقية عن الله في العالم، وتبنع من هذه الفكرة، وتتجلّى من خلالها.

فإن كان هناك ما ينقص، فالعيب ليس في السلعة، بل في الشاري، ليس في الآلة، بل في مَن يجهل استعمالها.

غالباً ما لاحظت، بسرور صامت، خلال مناقشاتنا الميتافيزيقية، "إنهم" لا

يأخذوني مأخذ الجدّ. ولما كنتُ فناناً، فلا أكترث. لعلّ من الأنسب لي أن يبقى المبدأ، الذي أعكف على بَلْورته، طيّ الكتمان. لا مانع عندي من أن ندعهم يتمسّكون بعتلتهم الصغيرة؛ لقد دأبتُ على استعمال أداتي اللانهائية وقتاً طويلاً، ولسوف أواصل استخدامها بيُسر وحبور أكبر.

٢٧ تشرين الأول (أكتوبر)

دخلتُ ثانية إلى هذه الدائرة السِّحْرية، فافتُتِنت في الحال. أمضي في عملي بصمت، ساهياً عن كل شؤون العالم الخارجي، لا يشاركني أفكاري سوى زيارات أطياف أصدقائي.

قضيتُ الأيام الأولى في كتابة الرسائل ومُعاينة الرسومات التي وضعتُها في الريف؛ في الأسبوع القادم، سأبدأ شيئاً جديداً. إن الآمال التي أمدّتني بها إنجيليكا حول ما يمكن أن أحقّقه في فن رسم المناظر الطبيعية، لو توفّرت لي ظروف مؤاتية، تحمل من الإطراء المفرط ما يتعذّر ذِكْره. لعلّني لن أنال مبتغاي، لكنْ: في مقدوري على الأقل أن أحاول الاقتراب منه.

هل أخبرتُكم أن كايزر قادم؟ أنتظر وصوله خلال أيام قلائل مع القطعة الموسيقية الكاملة لمجموعتنا من "السكابينيين"(*). ولكم أن تتخيّلوا أي يوم حافل بالفرح سيكون. سأبدأ في كتابة أوبريت جديد في الحال، مغتنماً فرصة قدومه ونصحه لمراجعة نصّ "كلودين وايروين".

أكملتُ الآن قراءة "أفكار"، وتمتّعتُ به غاية المتعة. إن الخاتمة رائعة. إن هيردر، شأن هذا الكتاب، سيترك، بشكل متدرّج، أثره الحميد على البشرية، ثمّ بعدها بالتعاون مع شخص آخر. وكلّما ترسّخ موقفه، عظُمت سعادة كل الرجال المفكّرين.

لاحظت خلال عيشي هذه السنة بين غرباء، أن كل ما يقرّ به الأناس الأذكياء حقاً سواء بشكل مرهف عند البعض، أو بشكل فظّ عند البعض الآخر، اعتبار اللحظة الراهنة هي كل شيء، وإن المزية الوحيدة للوجود المعقول هي التصرّف على هذا النحو؛ بحيث إن حياة المرء، بقدر ما يبقى الخيار ماثلاً بين يديه، هي أن يغنم أكبر قدر ممكن من اللحظات المعقولة والسعيدة.

يتوجّب عليّ أن أؤلّف كتاباً كاملاً، إن أردتُ التعبير عن أفكاري بصدد مجلّد واحد من مجلّدات هيردر. أعدتُ قراءة عدّة مقاطع، كيفما اتّفق، وسُررتُ في كل صفحة.

وإن القسم المخصّص للحقبة الإغريقية جميل بشكل خاص. أما بالنسبة للحقبة الرومانية؛ فعندي شعور، إن جاز القول، بأن ثمّة شيئاً جوهرياً ناقصاً، وبوسعكم أن تخمّنوا السبب بأنفسكم. فمن الطبيعي أن أحمل مثل هذا الشعور. وإنني منهمك في اللحظة الراهنة بالسؤال التالي: ماذا كانت الدولة الرومانية، بكل تعقيدها، بما هي عليه في ذاتها: إن الدولة،

---

*) المقصود هنا الشخصيات الكوميدية سكابين وسكابينا في مسرحية غوته الغنائية: لهو ومكر وثأر، ١٧٨٤.

في نظري، مفهوم مسور شأن الوطن. ويتوجّب على المرء أن يحدّد قيمة هذا الكيان المفرد في علاقته مع الكل؛ أي العالم في كُلّيّته؛ وبالطبع، ففي مجرى ذلك تفقد هذه القيمة الكثير من كيانها، وتتبدّد دخاناً.

سوف أظلّ أرى في مبنى الكوليسيوم صرحاً شامخاً حتّى حين أتذكّر أن الناس الذين ملؤوا دائرته الضخمة، بعد اكتمال بنائه، ما عادوا قدامى الرومان. حصلنا توّاً على كتاب يدرس رسومات ومنحوتات روما. والكتاب نتاج ألماني، والأنكى من ذلك أن مؤلّفه أرستقراطي ألماني. يبدو أنه رجل شابّ، ممتلئ حيوية، إلا أنه مثقل بالادّعاءات. لقد تجشّم الكثير من العناء، في التجوال هنا وهناك، جامعاً المعلومات، ومصغياً إلى الخبراء، ومطالعاً المراجع، وقد أبدى مهارة في أن يضفي على كتابه مظهر الاكتمال، ولكنْ؛ حين نقارن هذا الكتاب بالكثير ممّا هو حقيقي وحسن، نجده حافلاً بالأغلاط، والهراء، والاجترار، والحشو والاستطرادات (بالفرنسية). وما على المرء إلا أن يتصفّح الأوراق؛ كي يرى كيف نما هذا المجلّد الضخم إلى شيء، يقع بين التفكير الأصيل والتجميع الصرف.

غمرني السرور والارتياح لسماع نبأ وصول "إيجمونت". أتوق إلى سماع كلمة منكم حول هذه المسرحية، ولكنْ؛ لعلّ هذه الكلمة في الطريق إليّ الآن. وصلتْني النسخة المغلّفة بالتجليد المغربي، وسوف أعطيها إلى إنجيليكا على سبيل الهدية. قرّرنا أنا وكايزر أن نغفل كل النصح الذي أُسدي إلينا بصدد الأوبريت، وأن نفعل شيئاً أكثر ذكاء. اقتراحكم جيد تماماً، ولسوف تسمعون مني المزيد عنه حال مجيء كايزر.

إن عرض الكتاب نموذج لأسلوب الرجل العجوز(*). إطالة وفقر. إن همّي

---

*) المقصود ك. م. ويلاند (١٧٣٣-١٨١٣)، شاعر ومحرّر صحيفة "جيرمان ميركوري" التي نشر فيها عرضاً عن مؤلّفات غوته.

الوحيد ينصب على أن أنتج؛ إذ قدر ما يتعلّق الأمر بما أُنتج من قبل، أرى، رغم أنه بعيد عن الكمال، إنه سيظلّ يقرض لألف عام، طالما بقي شيء ما، لم يُذكَر، ليُقال بصدد وجوده.

ثمّة حقبة جديدة تبدأ لي. لقد اتّسعت آفاقي الروحية اتّساعاً كبيراً بفضل ما رأيتُ، وتعلّمتُ، وحان الوقت الآن؛ لكي أصبّ جهودي على قطعة تأليف معيّنة. إن فردية البشر لشيء غريب حقاً: فأنا لم أتوصّل إلى إدراك فرديّتي الخاصة إلا بعد أن بتّ أعتمد على نفسي وحدها، وأحتكّ، في الوقت ذاته، مع أناس غرباء بالكامل، خلال السنة الماضية.

شهر تشرين الأول ١٧٨٧
عودة إلى ما كان

كان الجوّ في مطلع هذا الشهر معتدلاً وحسناً. قصدتُ كاستل جوندلفو لأول مرّة؛ كي أتمتّع بإجازة (بالإيطالية) حقيقية، وسرعان ما شعرتُ أني صرتُ من أبناء تلك المنطقة البديعة. ثمّة تاجر أعمال فنية إنجليزي ثريّ، يُدعى المستر جينكنز، يعيش هنا في منزل فخم، كان ذات يوم مقرّ كبير الجيزويت. يحوي المنزل الكثير من الغُرف للضيوف، والصالونات للحفلات الصاخبة، والممرّات المسقوفة للتنزّه في صحبةٍ حلوةٍ.

إن هذا الموئل الخريفي أقرب إلى المنتجع منه إلى أي شيء آخر؛ حيث تحمل المصادفات أناساً، لم يروا بعضهم من قبل؛ لكي يلتقوا، ويتعارفوا عن كثب. وإن الوجبات، والنزهات سيراً على الأقدام، والأحاديث الجادّة والخفيفة، تُذكي التعارف الحميمي السريع؛ وإن عدم حصول التقارب الانتقائي المميّز لمعجزة حقاً في مثل هذا المكان؛ حيث لا يوجد شيء؛ لنقوم به. فهناك غياب حتّى للحالات الاستثنائية حين يأتي المرء للعلاج، ويتحدّث عن أمراضه.

بعد انقضاء بضعة أيام على وجودي هنا، وصلت سيدة شابّة وسيمة للغاية مع أمّها، قادمتين من روما؛ حيث كانتا من جيراني في الشارع الرئيس (الكورسو). ورغم أني مررتُ بهما في المساءات، وهما جالستان أمام باب منزلهما، فإنني لم أتحدّث إليهما من باب الالتزام الثابت بعزمي على الابتعاد عن مثل هذه العلاقات التي تلهيني عن مقاصدي. وقد لاحظتُ

بعد ترقيتي إلى "سيد نبيل" أنهما صارتا تردّان على ايماءة تحيتي بحرارة أكثر من ذي قبل. وها نحن نلتقي هنا، في هذا المنتجع، مثل معارف قدامى، فكان من السهل المبادرة بتجاذب الحديث، عبر الكلام عن الحفلة الموسيقية التي أقمتُها في منزلي. عبرت السيدة الشابّة عن اهتمام حيّ في أمور هامّة حقاً. وإن مفاتنها ازدادت بحسن موسيقى لهجة أهل روما، التي كانت تنطقها بسرعة، ولكنْ: بتميّز واضح لمخارج الأصوات، بتلك النبرة النبيلة التي ترتقي بأبناء وبنات الطبقات الوسطى فوق مصافهم الاجتماعي، وتضفي على أبسط أقوالهم وأكثرها اعتياداً رونقاً و وقاراً.

عرّفتني هاتان السيدتان على سيدة شابّة من ميلانو كانت معهما. وهي شقيقة أحد موظّفي مستر جينكنز، وهو شابٌ يحظى بمكانة خاصة لدى مخدومه، لما عُرف به من كفاءة ونزاهة. وبدا أن السيدات الثلاث على صداقة حميمة.

وإن آيتي الجمال الشابّتين. وهما تستحقّان هذا اللقب عن جدارة. كانتا تؤلّفان تضاداً صارخاً، وإن يكن لطيفاً. كانت ابنة روما ذات شعر داكن، بني أسود، وبشرة خمرية، وعينين عسليتين، وكانت، علاوة على ذلك، تتّسم بالجدّ والتحفّظ؛ أما ابنة ميلانو؛ فذات شعر كستنائي فاتح، وبشرة رقيقة صافية، وعينين زرقاوين، وتتّسم بالانبساط، لا بدافع الاشتطاط، بل توقاً إلى معرفة الأشياء.

ذات يوم، كنتُ جالساً بين الحلوتين، ونحن نلعب نوعاً من اليانصيب، وقد وضعتُ رهاني مع رهان ابنة روما، وباستمرار اللعبة حصل أن جرّبتُ حظي بالمراهنة مع ابن ميلانو. وباختصار، بدأتُ أعقد شراكة جديدة، ساهياً، في سذاجتي، عن الاستياء المتولّد عن توزّع الولاء هذا. حين انتهت اللعبة، أخذتني الأمّ جانباً، وأسرّت، بوقار عقيلة رومانية، وبأدب جمّ إلى

"الأجنبي الموقّر"، إنه كان قد أبدى، من قبل، اهتماماً بابنتها، وإن من غير اللائق (بالفرنسية) صرف الاهتمام إلى أخرى؛ لأن هناك عُرفاً مفهوماً خلال فترات العطلة، أن الأشخاص الذين يعقدون أواصر معتدلة من الإعجاب ينبغي أن يلتزموا بهذه الآصرة أمام الناس، وأن يواصلوا تبادل المجاملات البريئة المهذّبة. اعتذرتُ أكبر الاعتذار، لكني ذدتُ عن نفسي بالقول إنني أجنبي، ولا أستطيع إدراك مثل هذه الالتزامات؛ لأن مألوف العادة، في بلادي، إبداء الكياسة والانتباه، على نحو متكافئ، إزاء كل السيدات في المجتمع، وإن مثل هذا السلوك لائق، ولا ريب إزاء السيدتين اللتين تربط بينهما صداقة حميمة.

ولكنْ؛ أسفاً؛ إذ بينما كنتُ أقدّم اعتذاراتي، شعرتُ شعوراً غريباً بأني على يقين من أن قلبي قطع أمره، في لحظة طيش، لصالح ابنة ميلانو، وهو ما يحصل بسهولة حين يتحلّل ولع المرء من الالتزام. إن المرء ليشعر بالثقة والرضى عن النفس، فهو لا يخشى شيئاً، ولا يرغب، حتّى يجد نفسه، بغتة، إزاء وجه يجسّد كل ما يصبو إليه، غافلاً، في هذه اللحظة، عن الخطر الداهم، الماثل وراء قسماته الفاتنة.

في صباح اليوم التالي، التأم شملنا نحن الثلاثة وحدنا، فمالت الموازين أكثر نحو ابنة ميلانو. كانت تتفوّق على صاحبتها في أن توقها إلى المعرفة يتجلّى في كل ما تقول. لم تُكثر القول في إهمال أهلها لتعليمها، لكنها اشتكت من قلّة هذا التعليم.

قالت "لا يعلّموننا الكتابة، خشية أن نستخدم أقلامنا لكتابة رسائل غرام. وما كانوا ليعلّموننا القراءة، لولا أن علينا قراءة كتاب الصلوات؛ ولا يخطر على بال أحد أن يعلّمنا لغات أجنبية. إنني مستعدّة للتضحية بأي شيء لمعرفة الإنجليزية. فغالباً ما أسمع مستر جينكنز وأخي، والسنيورة

إنجيليكا، والسنيور زوكي، والسنيور فولباتو، والسنيور كاموتشيني، يتحادثون بالإنجليزية، أما أنا؛ فأصغي إليهم بحسد. ثمّ أرى تلك الجرائد التي يبلغ طول الواحدة منها ذراعاً، مَرمية على الطاولة، حافلة بالأخبار من زوايا المعمورة، أما أنا؛ فلا أعرف ما تقول هذه الأخبار."

قلتُ "هذا وضع شائن، خصوصاً وإن من السهل تعلّم الإنجليزية، وإن بمقدوركم الإلمام بها سريعاً. لمَ لا نجرّب الآن؟"

أخذتُ واحدة من الصحف الإنجليزية كبيرة الحجم، وفتّشتُ ببصري عن موضوع مناسب، فوجدتُ خبراً عن امرأة، رمت بنفسها في النهر، إلا أنها انتُشلت، وعادت إلى أسرتها سالمة. هناك تعقيدات مثيرة في هذا الحدَث: فليس واضحاً إن كانت قد حاولت الانتحار غرقاً، أو أياً من المعجبين بها، ذاك الذي تهوى أم ذاك الذي لا تريد، هو الذي غامر بنفسه؛ لينقذ حياتها. أطلعتُها على الخبر وطلبتُ منها أن تتفرّس مَلياً في الكلمات والجمل خلال مطالعتي للنص.

بدأتُ أولاً بأن ترجمتُ لها كل الأسماء، واختبرتُها لأتيقّن من أنها قد حفظت معانيها. على هذا النحو، أخذت فكرة عامة عن الكلمات الأساسية في كل جملة، وموقع الكلمة المقصودة في السياق. بعد ذلك، انتقلتُ إلى شرح الكلمات السببية، والوصفية، والشعورية، مشيراً لها، بأكبر قدر من التشويق، كيف تتواشج هذه الكلمات؛ لتبعث الحياة في معنى الكل. رحتُ ألقّنها، وأختبر حافظتها مرّة أخرى حتّى استطاعت، من دون أي توجيه مني، أن تقرأ كامل المقطع بصوت عالٍ، وبسهولة كبيرة، كما لو كان مكتوباً بالإيطالية، وهي ترفق قراءتها بإيماءات رشيقة أخّاذة. لم أرَ قط مثل هذا التعبير العارم عن الفرح على وجه امرأة، كما رأيتُه على قسماتها، فشكرتْني بحرارة بالغة على قيامي بفَتْح أبواب هذا العالم الجديد أمام ناظريها.

زاد عدد الزوّار. جاءت إنجيليكا أيضاً، ولمّا حلّ وقت العشاء، خصّصوا لي مقعداً على المائدة الطويلة بجوارها. كانت تلميذتي تقف على الجانب الآخر من المائدة، ولمّا كان الآخرون منشغلين في تهذيب بفسح المجال أمام بعضهم البعض، استدارت من دون لحظة تردّد، حول المائدة، وجاءت؛ لتجلس إلى جانبي. ارتسمت الدهشة على وجه إنجيليكا، فامرأة بمثل ذكائها تستطيع أن ترى، بلمحة واحدة، أن هناك شيئاً قد حصل، فها هنا يجلس صديقها، الذي ظلّ يتحاشى السيدات إلى الآن، حتّى لو تطلّب ذلك الجفاف والخشونة، لكنه الآن مُتولّه مأسور، كما يبدو، بما يثير دهشته هو.

كان بوسعي أن أضبط نفسي في التصرّف الظاهري، غير أن عواطفي الباطنية، على الأرجح، هتكت سترها بشيء من الارتباك الناجم عن توزيع انتباهي بين السيدتين اللتين تجاورانني. حاولتُ أن أطيل حيوية الحديث مع صديقتي الكبيرة، التي كانت ميالة إلى الصمت ذلك اليوم، وأن أطيّب خاطر الثانية باهتمام هادئ شبه موراب؛ لأنها كانت ما تزال مبهورة باللغة الأجنبية، مثلها مثل مَن أعشي بصره بمشهد هائل، طال انتظاره، ولا يعرف كيف يستعيد توازنه مع البيئة الاعتيادية.

غير أن حالة الانتشاء التي كنتُ أعيشها سرعان ما تعرّضت لمفاجأة قاسية. قبيل المساء، رحتُ أبحث عن صديقتي الشابتين، فوجدتُ السيدات المسنّات جالسات في مقصورة الحديقة التي تطلّ على مشهد بديع. ولمّا أخذتُ أسرح بصري في المنظر الزاهي، شعرتُ بافتتان، لا يمكن أن يُعزى إلى غروب الشمس ونسيم الليل وحدهما. وبدت لي الأضواء المتلألئة فوق التلال والظلال الزرقاء الباردة في الوادي أروع من أي رسم لها بالزيت، أو الألوان المائية. لم أستطع أن أشيح بصري عن إطلالة هذا

المنظر، لكني شعرتُ في الآن ذاته بتوق إلى مغادرة هذا المكان، وتوديع أشعّة الشمس الذابلة بحثاً عن صحبة أكثر انفراداً وتواؤماً مع الروح.

ولسوء الحظ ما كان بوسعي أن أرفض دعوة الأمّ الرومانية وصديقاتها إليّ للجلوس معهنّ، خصوصاً وأنهنّ أفسحنَ لي مكاناً عند النافذة، التي تطلّ على أفضل جانب من المشهد. كنّ يتحدّثنَ عن موضوع لا ينتهي: جهاز العروس. مرّ الوقت الثمين، وانصرم، وأنا أصغي نافد الصبر إلى مناقشات عمّا يلزم، وعن عدد ونوعية هدايا العرس، والأشياء الضرورية التي ينبغي للأسرة أن تقدّمها، والإسهامات المالية للأصدقاء، ذُكُوراً وإناثاً؛ إذ ما يزال بعضها سرّاً، وما يعلمه الله من أمور أخرى.

بعد هذا انعطف الحديث إلى مزايا العريس، فلهج الكل في ثنائه، رغم أن نقائصه لم تبق طي الكتمان؛ غير أن السيدات اتّفقنَ بالإجماع على أن جمال وذكاء ومودّة العروس سوف تصحّح تلك النقائص، ما إن تنعقد الزيجة.

نفد صبري تماماً، فعزمتُ أخيراً، لحظة أن غاصت الشمس في البحر النائي، على أن أسأل من غير تحفّظ عمّن تكون العروس. بدت الدهشة عليهنّ جميعاً من جهلي بأمر معروف للجميع، غير أنني تذكّرتُ في تلك اللحظة أني لم أكن صديقاً للعائلة، بل غريباً.

لا أرى حاجة إلى وصف هول المفاجأة التي وقعت عليّ حين سمعتُ أن العروس ليست سوى تلميذتي التي أصبحت عزيزة تماماً على قلبي منذ فترة وجيزة تماماً. غابت الشمس، وأفلحتُ في إيجاد عذر للتحرّر من صحبة هاته السيدات اللواتي لقّنني، دون دراية، درساً بهذه القسوة. عدتُ إلى المنزل في وقت جدّ متأخّر؛ لأنطلق مبكّراً جداً في صباح اليوم

التالي؛ لكي أهيم على وجهي، بعد أن أبلغتُ مَن في الدار أني لن أعود وقت العشاء.

لقد بلغتُ من العمر والخبرة حدّاً يكفي؛ لكي أقدر على تمالك نفسي، إلا أن الحال كان موجعاً. وقلتُ لنفسي: "سيكون من الغريب تماماً لو أن مصير فيرتر طاردك إلى روما، وخرّب عليك طريقة الحياة التي رسمتَها لنفسك بعناية حتّى الآن."

عدتُ من غير إبطاء إلى الطبيعة ودراسة المنظر الطبيعي، الذي كنتُ قد أهملتُه، محاولاً استنساخه بأكبر قدر من الإخلاص؛ غير أني كنتُ أكثر نجاحاً في النظر ممّا في التنفيذ. فاليسير من المهارة التقنية التي أتوفّر عليها لا يكفي لإنجاز تخطيط بسيط إلا بالكاد. لكني وجدتُ أن تصوّري للأشياء المبثوثة في المنظر الطبيعي، من صخور وأشجار وتلال وبحيرات وجداول، بات ثاقباً. وشعرتُ بأني أتصالح مع الألم الذي شحذ إحساسي على هذا النحو.

ابتداء من هذه اللحظة يتوجّب أن أوجز في السرد. كان منزلنا والمنازل الأخرى في الجوار تعجّ بالزوّار؛ بحيث أمكن لنا أن نتفادى الالتقاء من دون تكلّف. إن مثل هذا الوله كفيل بأن يجعل المرء ودوداً ومهذّباً مع الآخرين، وهذا موضع ترحاب المجتمع. وكان سلوكي يريح الجميع، ولم يقع لي منغّص، يزعج أحداً باستثناء مضيفنا، مستر جينكنز. عدتُ ذات يوم، بعد جولة طويلة في الجبال والغابات، حاملاً سلّة ملأى بالفطر، ناولتُها إلى الطبّاخ، الذي فرح بها؛ لأن هذا النوع الفطر نادر وغالي الثمن في تلك الأرجاء. وأعدّ منه طبقاً شهياً، قدم على مائدة العشاء، وتناوله الجميع في تلذّذ. ولمّا أفشى أحدهم سرّ الفطر، مدفوعاً بالرغبة في أن ينسب فضله إليّ، غضب مضيفنا الإنجليزي تماماً؛ لأن غريباً أسهم بطبق إلى المائدة

العامرة من دون أن يكون له علم. لم يقل لي مباشرة كلمة واحدة، لكنه اشتكى، من وراء ظهري، قائلاً إن من الفظاظة بمكان مفاجأة مضيف على مائدته بالذات. بادر هوفرات رايفنشتاين إلى إبلاغي بالأمر، بأسلوب كيّس، بعيد العشاء. رغم ما كنتُ أكابده من وجع داخلي من نوع مختلف عن ذلك الوجع الذي أثاره الفطر، فقد حافظتُ على هدوء مزاجي، وأجبتُ بأني كنتُ أظنّ أن الطبّاخ سيُبلغ سيّده، كتحصيل حاصل، عن الهدية؛ ووعدتُ أنني إذا ما وقعتُ في المستقبل على موادّ غذائية كهذه، خلال نزهاتي، فإنني سأعرضها أولاً على مضيفنا الرائع؛ كي يتفحّصها، ويجيز إعدادها.

إن الإنصاف يقتضي أن أذكر أن السبب الأساسي لسخطه يرجع ولابدّ إلى أن الفطر غذاء ملتبس، قد يحوي أنواعاً ساماً، وإن الفطر الذي جلبتُ، قُدّم إلى المدعوين من دون فَحْصه الفَحْص المناسب أولاً. وخطر لي وأنا أتأمّل هذه المغامرة الغذائية، أن من المفارقة حقاً أن أتعرض، وأنا الذي تجرّعتُ ساهياً سماً من نوع خاص، إلى الوقوع، بفعل عمل آخر قليل الاحتراز، أسير شبهة السعي إلى تسميم ساكني منزل عامر، بأكملهم.

لم يكن عسيراً عليّ أن أتصرّف حسب ما عقدتُ العزم عليه. حاولتُ تجنّب دروس الإنجليزية بمغادرة المنزل في الصباح الباكر، والامتناع عن الاقتراب من تلميذتي الحبيبة في السّرّ، إلا بوجود كثرة من الآخرين. إن معرفتي بأنها عروس مرشّحة؛ لأن تغدو زوجة رجل آخر في القريب، رفعت من شأنها في عيني؛ لتسمو بها فوق حال البنات البسيطات؛ ورغم أن مشاعر الوَلَه تجاهها بقيت على حالها، كما من قبل، فقد روّضتُ نفسي على الالتقاء بها في إطار الصداقة السلسة، بوصفي إنساناً أبعد ما يكون عن خفّة الشباب، في أي حال. وفي احتكاكنا الشخصي، أبديتُ لها الوفاء . إن كان بوسعي إطلاق هذه الصفة على تولهي الطبيعي بها . من دون أي

ضجيج، بل بإبداء نوع من التبجيل، ولم تجد هي بالمقابل أي موجب للتذمّر من سلوكي هذا بعد أن عرفت بالتأكيد أن خطوبتها لم تعد خافية عليّ. أما الآخرون الذين اعتادوا على رؤيتي، وأنا أتحدّث بحُرّيّة وانبساط مع الجميع؛ فلم يلاحظوا أو يرتابوا في شيء، وهكذا توالت الساعات والأيام في مجراها الهادئ.

في هذه الأثناء تواترت الرسائل من الوطن؛ لتكشف لي أن رحلتي إلى إيطاليا، التي خطّطتُ لها طويلاً، وأرجأتُها مرّات، وقمتُ بها أخيراً بقرار آني مفاجئ، أثارت الكثير من التململ ونفاد الصبر عند مَن خلّفتُهم ورائي، بل أثارت الرغبة في اقتفاء أثري والتنعّم بالسعادة نفسها التي رسمت عنها رسائلي الجذلة صورة زاهية. إن التقليد الساري في الوسط الفكري والفني المحيط بدوقتنا أماليا، يَعدّ إيطاليا، بالطبع، بمثابة القدس الجديدة، مزارنا نحن المثقّفين؛ وقد عمّرت أفئدة رجال هذا الوسط وعقولهم رغبة عارمة لزيارتها، ما كان لأحد أن يعبّر عنها سوى ميجنون. وبالطبع، فقد انهار السّدّ أخيراً، وغدا واضحاً أن الخطط والاستعدادات الجادّة لعبور الألب لم تقتصر على الدوقة وحاشيتها، بل تعدّتْها إلى هيردر والشابّ دالبيرج. أسديتُ النصح للجميع بإرجاء الرحيل ريثما ينقضي الشتاء، وأن ينعموا بعد ذلك، على مراحل هيّنة، بجمال المشاهد التي تأسر الألباب في عاصمة العالم، وجنوب إيطاليا، وما بينهما.

كانت نصيحتي صادقة وموضوعية بالقدر الكافي، غير أن هناك أيضاً وراءها مصلحة شخصية تخصّني. لقد عشتُ هذه الفترة الهائلة من حياتي، حتّى الآن، وسط أناس غرباء بالكامل، فتمكّنتُ من أن أرسي لنفسي، آخر المطاف، عن طريق علائق تصادفية، ولكنْ؛ تلقائية، طريقة إنسانية في العيش، بدأتُ أنعم بها لتوّي. غير أن روتين الحياة الثابت في دائرة منزلية

مغلقة، ومع أناس هم أقرباء أو أصدقاء يعرف المرء ما يُظهرون، وما يُبطنون، فيحتملهم حيناً، ويقبلهم حيناً، ويشاركهم حيناً، ويبتعد عنهم حيناً. إن مثل هذا الروتين يخلق في النهاية حالة فاترة من الاستسلام، تُلغي فيها الآلام والأفراح، والمباهج والأتراح، بعضها بعضاً؛ لتسود حالة وسطى اعتيادية، تقضي على فرادة الفرد.

انطلاقاً من قناعتي بهذه المشاعر والهواجس عقدت عزمي على مغادرة إيطاليا قبل وصول أصدقائي. وكان واضحاً لديّ أن طريقتي في النظر إلى الأشياء تختلف عن طريقتهم، رغم أن ذلك لم يحصل منذ البداية طبعاً؛ إذ اقتضاني عاماً كاملاً من الجهد؛ كي أنضو عني طرائق التفكير السيمرية(*) المستوطنة في عالم الشمال، وأوطّن نفسي على المراقبة والتنفّس بحُرّيّة أكبر تحت القبّة الزرقاء. إنني أجد المسافرين الألمان، دون استثناء، مزعجين إلى أقصى حدّ. فهم إمّا يأتون للبحث عن شيء كان ينبغي أن ينسوه، أو يعجزون عن تشخيص ما يتوقون إلى رؤيته منذ أمد بعيد، حتّى وإن كان ماثلاً أمام أبصارهم. إن الزائر القادم من الشمال يتوهّم أن روما تُكمّل له وجوده، وتعطيه ما يفتقده؛ ولا يخطر على باله، إلا بعد فترة، ما يثير امتعاضه تماماً، وهي أن عليه أن يغيّر ردود أفعاله كُلّيّاً، وأن يشرع من الصفر تماماً. كان بوسعي دوماً أن أتحاشى الأجانب القادمين من ألمانيا، لكن حصول أغلاط، وترّهات، واستجابات بطيئة من أناس أحبّهم وأحترمهم، بل وسعيهم إلى التدخّل في طريقة تفكيري، سوف يبهضني، ويحبطني.

ورغم وضوح ذلك كله لي، فقد تصرّفتُ بحصافة كاتماً سرّ يوم رحيلي، مواصلاً الإفادة من استخدام وقتي، متأمّلاً لذاتي، مصغياً إلى آراء الغير،

---

*) شعب الظلام؛ أي سكان بلدان الشمال المدلهمّة أبداً.

ملاحظاً جهودهم، ومتّخذاً خطوات عملية، أنا نفسي. ولقيتُ في ذلك كله قسطاً كبيراً من التشجيع والفائدة في حديثي إلى هاينريش ماير، ابن زيوريخ. وهو فنان مثابر منضبط ذاتياً، يعرف كيف يستخدم وقته خيراً من دائرة الفنانين الشباب، ممّن يطيب لهم الاعتقاد أن التقدّم الراسخ في النظرية والتقنية، يمكن أن ينعقد لهم بالعيش الخاطف.

شهر تشرين الثاني ١٧٨٧
مراسلات

٣ تشرين الثاني (نوفمبر)

لم أكتب أية رسالة هذا الأسبوع بفعل وصول كايزر. مايزال عاكفاً على دوزنة البيانو. وحين يفرغ من ذلك، سنراجع نصّ الأوبريت معاً، صفحة بصفحة.

الاستحسان الذي حظيت به مسرحية "إيجمونت" يثير غبطتي. آمل ألا يفقد النص بريقه عند القراءة الثانية. فأنا أعرف ما وضعتُه فيه، وأعلم أن القارئ لن يستطيع أن يأخذ كل المحتوى في الحال.

ما وجدتمُوه جديراً بالثناء هو عين ما قصدتُ، وإن قلتُم إنني نجحتُ، فقد بلغت مَرامي. لقد كان النصّ مشروعاً غاية في الصعوبة، وما كان لي أن أحقّقه لولا أن كانت روحي حُرّة، وحياتي طليقة. تخيّلوا معنى تناول عمل كُتب قبل اثنتي عشرة سنة، وإكماله من دون إعادة كتابة النصّ بأسره. هناك صخرتان تعترضان طريقي. إنهما: فاوست وتاسو. ولمّا كانت الآلهة الرحيمة قد جنّبتني العقاب الذي أنزلته بسيزيف، فآمل أن آخذ هاتين العقبتين الكأداوين، وأوصلهما إلى قمّة الجبل. وما إن أبلغ ذلك، حتّى أبدأ بداية طرية، وأبذل قصارى جهدي؛ لأكون جديراً بمحبّتكم ورضاكم عني، فأنا لا أستحقّهما في الوقت الحاضر.

لا أفهم على وجه اليقين ما تقولونه عن كليرشن: ثمّة فارق دقيق بين

الفتاة البسيطة والآلهة، فات عن أعينكم. لعلّكم سترون هذا الفارق عند القراءة الثانية، ولربمّا تُدلون بتعليقات أوسع في رسالتكم التالية.

صممت إنجيليكا غلاف "إيجمونت"، وقام ليبس بحَفْره. وما كان بالوسع إنجاز هاتين المهمّتين في ألمانيا.

يشقّ عليّ أن أضطرّ حالياً إلى إغفال الفنون البصرية، وإلا لن يتسنّى لي إكمال أعمالي الدرامية، التي تقتضي تركيزاً مضاعفاً، وسكينة وهدوءاً، إن كان يُراد لها أن تكون شيئاً ذا قيمة. أعكف الآن على كتابة "كلودين". ولابد لي من أن أُعيد صياغتها كاملة؛ لأزيل عنها كل قشور وجودي السابق.

روما، ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر)

منذ قدوم كايزر، ونحن نعيش في ثلاثي، أنا وهو، وثالثتنا الموسيقى. إن كايزر إنسان رائع حقّاً: ونحن ننسجم انسجاماً رائعاً، ونعيش أقرب حياة ممكنة إلى الطبيعة على هذه الأرض. نتوقّع عودة تيشباين من نابولي، وعليه لابد من إيجاد مَسكن جديد، وترتيبات جديدة، ولمّا كنا نحن الاثنين قادرين على تحمّل مثل هذه المنغّصات عندما تنشأ، فلابد أن أمورنا ستعود إلى مجاريها المعتادة خلال أسبوع.

اقترحتُ على دوقة دواجر أن تأذن لي أن أُنفق على حسابها مبلغ مائتي سيكوين لاقتناء مختلف أعمال الفن الصغيرة. رجائي أن تساندوا اقتراحي هذا، ولسوف تجدون تفاصيل ذلك في رسالتي الموجّهة إليها. لا أحتاج المال على الفور، كما لا أريده كله دفعة واحدة. أنتم أقدر على تخمين أهمّيّة المسألة، من دون شروح مطوّلة من جانبي، ولو كنتُم تعرفون الأحوال هنا كما أعرفها أنا، لأدركتُم على نحو أفضل ضرورة نصيحتي، وأهمّيّتها العملية. لسوف أطلب إعداد هذه الأعمال الفنية الصغيرة الواحد بعد

الآخر، حتّى تجدها في انتظارها لحظة تصل. وإن المتعة التي ستجدها في هذه الأعمال سوف تشفي غليل التوق إلى اقتناء أعمال الفن، هذا التوق الذي يحتدم في النفوس كلها فور الوصول إلى هنا، أيّاً كانت هذه النفوس. وبخلاف ذلك، ستجد نفسها أمام واحد من أمرين، فإمّا أن تكبح جماح هذه الرغبة، وهذا مؤلم تماماً، أو تروي غليلها، فتنفق، وتخسر كثيراً. يمكنني أن أكتب صفحات عن هذا الموضوع.

سُررتُ لمعرفة ما لقيتُه مسرحية "إيجمونت" من استحسان. لم يسبق لي في حياتي أن شعرتُ بهذا القدر من حُرّيّة الروح في أثناء تأليف مسرحية، ولا أنجزتُ واحدة بهذا القدر من الدقّة والعناية؛ لكن إرضاء القارئ عسير. فهو يحبّ ما اعتاد عليه، ويريد من الكاتب أن يواصل إنتاج الشيء نفسه.

٢٤ تشرين الثاني نوفمبر)

استفسرتُم مني في رسالتكم الأخيرة عن لون المنظر الطبيعي في الجوار.

يمكنني القول إن المنظر حافل بالألوان في الأيام الصافية، وبخاصة في فصل الخريف؛ بحيث إن أي مسعى لنقله على اللوحة سينتهي إلى أن يبدو خليطاً مرتبكاً من ألوان متنافرة. آمل أن أبعث إليكم، في القريب العاجل، بعض رسومات فنان ألماني، يقيم حالياً في نابولي. إن الألوان المائية أقلّ تألّقاً من ألوان الطبيعة، مع ذلك، ستظنّون أن هذه الألوان مستحيلة. إن روعة جمال هذه المناظر الطبيعية تكمن في أن الأشياء ذات الألوان الحادّة، حتّى وإن كانت على مَبعدة من الناظر، تخفُّ، وتبهتُ قليلاً بفعل الجوّ، ممّا يجعل التضادّ بين الألوان الباردة والألوان الحارّة، كما يسمّونها هنا، صارخاً تماماً. وإن الظلال الزرقاء الواضحة تبرز في حبور على خلفية أي شيء أخضر، أو أصفر، أو أحمر، أو بني، وهي تندغم بالضباب الشفيف الضارب إلى الزرقة في الأفق. هناك لمعان شديد، مثلما أن هناك تناغماً

مرهف التدرّج، لا يجده المرء بتاتاً في الشمال؛ حيث الأشياء إمّا صارخة، أو بلا تميّز، وإما لامعة أكثر ممّا ينبغي، أو كابية أكثر ممّا ينبغي. ويندر أن أتذكّر، في الأقل، أني رأيتُ أي تأثير يُومئ ولو من بعيد إلى ما أراه هنا كل يوم، ولعلّني أقدر أن أشخّص مكامن جمال جديدة في الشمال بعد أن تدرّبت عيناي على النظر بصورة أفضل.

أما بالنسبة إلى الفنون البصرية، فإنني أكبر عمراً من أن أنجز فيها شيئاً خلاف عمل الهواة. أستطيع أن أرى جيداً ما يفعله الآخرون، وأن أرى البعض سائر في الطريق الصحيح، ولكنْ؛ لا أحد فيهم خطا خطوة كبيرة. ويمكن قول الشيء نفسه عن السعادة والحكمة: فنموذجها الأصلي يطفو أمام نواظرنا، لكن قصارى ما نبلغ هو أن نلمس حواف ردائها.

توقّف عملي بعد وصول كايزر. لقد حَلَلْنَا المشكلات المنزلية إلى حدّ كبير، وأخذت الأمور كلها تسير في طريقها، أما أوبريتاتي؛ فتقارب على الانتهاء. إن كايزر جليس رائع، فهو مرتّب رصين واثق الخطو راسخ في العمل، على خير ما يكون الإنسان. وهو علاوة على ذلك عطوف القلب حصيف الحكم على الأشخاص، وهو من ذلك الضرب من الناس الذي يزيدك حضوره حكمة.

شهر تشرين الثاني ١٧٨٧
عودة إلى ما كان

بينما كنتُ غارقاً بصمت في أفكاري، نائياً بنفسي عن الآخرين، منفصلاً عنهم بالتدريج، وصل صديق قديم من فرانكفورت، هو كريستوفر كايزر، فانعقدت صلتي مجدّداً بالعالم. كان قد تولّى قبل سنوات تأليف موسيقى مسرحيتي الغنائية: لهو ومكر وثأر، أما الآن؛ فبدأ يضع الموسيقى التصويرية لمسرحية: إيجمونت. وعوضاً عن السعي إلى التعاون عن طريق المراسلات المطوّلة، قرّرنا أن من الأفضل أن يأتي إلى روما، فجاء في الحال، وحظي بترحاب بالغ في دائرتنا.

بادرتْنا منذ البداية صعاب كثيرة. اقتضى الأمر منا أياماً؛ كي نحصل على بيانو؛ لنجرّبه، وندوزنه، ونوفّر له مكاناً حسب متطلّبات كايزر، الذي كان شديد التدقيق، ويجد دوماً أن هناك مثالب أخرى. غير أن هذه الجهود، وما تبدّد من أوقات، وجدتُ التعويض عنها في عزف وأداء هذا الموسيقار الموهوب تماماً، الذي شنّف أسماعنا بعزف أعقد القطع الموسيقية المعاصرة، بيُسر بالغ. وابتغاء أن يدرك علماء الموسيقى ما أتحدّث عنه، أقول إن الفكرة السائدة، في تلك الأيام، هي أن شوبارت(*) كان يُعدّ بلا منازع، وإن أكبر اختبار لعازف البيانو الضليع هو أن يرتجل مجموعة من التنويعات انطلاقاً من جملة موسيقية بسيطة.

لقد أحيا مجيء كايزر، الذي جلب معه القطعة الاستهلالية لمسرحية

*) ف. خ. شوبارت Schubart هو شاعر ومؤلّف موسيقي من سفابيا، ولا ينبغي خلطه بالموسيقار النمساوي فرانز شوبيرت Schubert.

إيجمونت، مَيلاً قديماً إلى الموسيقى، حوّلني الآن، بدافع النزوع، كما بحكم الضرورة، إلى المسرح الموسيقي، شيئاً فشيئاً.

هناك مَن ينتظر، في ألمانيا، وصول مسرحيتي "إروين وإيلماير"، وكذلك "كلودين في الفيلا الجميلة"، لكن عملي في مسرحية "إيجمونت" جعلني أكثر صرامة في معايير الكتابة؛ بحيث لم يعد بوسعي أن أحمل نفسي على إرسال النصوص، وهي في شكلها الأولي الأصلي. كنتُ شغوفاً بالكثير ممّا تحويه من أغان، تشهد على الكثير من سويعات الحمق السعيدة مع ذلك، مثلما تحمل الكثير من الآلام والأحزان التي يتعرّض لها الشباب المتسرّع الطائش، دوماً. لكن الحوار النثري يشبه كثيراً الأوبريتات الفرنسية. ورغم أني سأتذكّر الأوبريت الفرنسي بخير، باعتباره أول مَن يدخل الألحان المبهجة إلى مسرحنا، إلا أنه لم يعد يرضيني. لقد أصبحتُ مواطناً إيطالياً، فبتُّ أرغب في ربط الأنغام بسرد حماسي ملحون. راجعتُ كلا الأوبريتين وفق هذا الاساس، فحظينا بعدئذ بشيء من الرواج.

هناك موضة شائعة تجد في تكرار نصوص الأوبرا الإيطالية لبعض العبارات مثلبة كبرى، من دون الإنعام في معنى هذه المكرّرات. إن هذه العبارات خفيفة وسهلة، وهو ما ينبغي أن نعترف به، وهي لا تفرض على المؤلّف أو المغنّي متطلّبات أكبر ممّا يميل أي واحد منهما؛ لأن يعطيه. وابتغاء تجنّب التوسّع في الموضوعات، أكتفي بذِكْر نصّ أوبرا "الزواج السّرّيّ" إن مؤلّف هذا النص مجهول، ولكنْ؛ أيّاً كان هو، فقد فاقت براعته كل مَن عمل في هذا الحقل حتّى ذلك الوقت.

عقدتُ العزم على أن أصوغ شيئاً مماثلاً طليقاً، ولكنْ؛ يتركّز في موضوع محدّد، ولا يسعني أن أقول إلى أي مدى نجحتُ في هذا المسعى.

عكفنا أنا وكايزر بعض الوقت على بَلْوَرَة مشروع اتّضح، في أثناء توغّلنا فيه، أنه لا يصلح للعمل، لسوء الحظ. ينبغي أن يتذكّر المرء أن مسرح الأوبرا الألماني كان ساذجاً تماماً في تلك الأيام، وإن عملاً مثل أوبرا بيرجوليزي الموسومة La Serve Padrama "سيدة الوصيفات" أصاب نجاحاً هائلاً. دخل المشهد علينا مغني أدوار كوميدية ألماني يُدعى بيرجر، مع زوجته الوسيمة المهيبة، وقد اعتاد الاثنان أن يجوبا البلدات والقرى في ألمانيا، لأداء مختلف الوصلات الغنائية الخفيفة المسلّية، في الغرف العادية، بملابس متواضعة، وفرقة موسيقية بالية؛ ولا حاجة للقول إن كل وصلة موسيقية كانت تنتهي بخداع وإذلال عجوز أحمق مغرور متولّه.

خطرت لي فكرة إضافة فصل ثالث لحنجرة ذات مدى متوسّط، لا يصعب العثور عليها، لذا؛ كتبتُ المسرحية الغنائية: لهو ومكر وثأر، وأرسلتُها إلى كايزر، المقيم في زيوريخ. غير أن هذا الموسيقار الجادّ حيّ الضمير، عامل النص معالجة أعمق وأطول ممّا ينبغي. الواقع أن نصّ الأوبريت لم يتجاوز أبعاد الوصلة الغنائية إلا قليلاً. ورغم بساطة الموضوع، فقد كتبتُ مقاطع غنائية كثيرة، لا يمكن لثلاثة مغنّين، حتّى لو فُصلت المقاطع الموسيقية بين الوصلات. أن يتوفّروا على الطاقة الكافية لأداء العرض بأكمله. وممّا زاد الطين بلّة، أن كايزر عالج هذه المقاطع الغنائية بالأسلوب القديم المدقّق الحريص. وحوى النص مقاطع سارّة عديدة، ولم يكن عموماً، يخلو من فتنة، ولكنْ؛ كيف وأين يتأتّى لنا أن نعرضه؟ زد على هذا أن التزامنا بالعُرف القديم في أن نتواضع في مطالبنا الموسيقية، أصاب النصّ بضعف الأداء الصوتي: لم نجرؤ على تجاوز كتابة مقطوعة ثلاثية الأصوات، رغم أننا كنا نودّ حقاً أن نبعث الحياة في صرخات ترياق الطبيب(*) وأن نحوّلها إلى جوقة للخاتمة. لكن كل مساعينا لكي نقصر

*) الطبيب صاحب صرخات الترياق، هو الشخصية الثالثة في المسرحية الغنائية: لهو ومكر وثأر.

أنفسنا على الاقتصاد والبساطة ضاعت سدى لحظة ظهور موتزارت في المشهد. ذلك أن أوبريت "اختطاف من سراي السلطان" قضى قضاء مبرماً على كل آمالنا، ولم يسمع أحد بعد، على المسرح، تلك القطعة التي بذلنا عليها كل تلك الجهود المضنية.

حفز صديقي كايزر حبّي للموسيقى، ووسّع رحابه، بعد أن كان مقصوراً، حتّى ذلك الحين، على الأوبرا. وتابع في اهتمام كبير كل أعياد الكنيسة، وحثّني على أن أشاركه الاستماع إلى تراتيل القدّاسات الورعة، التي كانت تُنشد في تلك الأيام. وقد بدت لأذني الصاغية أقرب إلى الأناشيد الدنيوية، بما يصاحبها من عزف الأوركسترا كاملة. وأتذكّر أنني استمعتُ، يوم عيد القدّيسة سيسيليا، إلى لحن موسيقي بارع مصحوب بإنشاد جوقة، ترك في نفسي أثراً خارقا، يشبه الأثر الذي يتركه في نفوس الجمهور حين يُعرض على مسرح الأوبرا.

وكان كايزر يمتاز بفضيلة أخرى: لمّا كان مهتماً بالموسيقى القديمة وتاريخ الموسيقى، فقد زار الكثير من المكتبات، وبخاصة مكتبة منيرفا. وأدّت أبحاثه في أمّهات الكُتُب، إلى لفت انتباهي إلى أعمال الحفر على النحاس، التي يعود تاريخها إلى مطلع القرن السادس عشر، والتي يجدها المرء في مجلّدات مثل: مرآة الروماني العجيب، وكتاب لومازو: فن العمارة، وكتابه اللاحق: "الإعجاب بروما"Admirarla "Rome". حلّقت بي هذه المحتفرات النحاسية إلى الأزمنة الخوالي، يوم كان عهد الأقدمين يُعايَن برهبة وتوقير، وكانت أطلالهم الباقية تُقلَّد بمهارة؛ لإعادتها إلى الحياة.

وأتذكّر أن أعمال الحفر على النحاس التي رأيتُها ضمّت حفراً، يُصوِّر الأعمدة التي كانت ما تزال شاخصة في موضعها القديم في حدائق كولونا، وآخر يُصوِّر "مُسبَّع" سفيروس: شبه الخرب (زال هذا المسبَّع من الوجود

الآن، غير أن الأطلال المتبقّية منه في ذلك العهد كانت تكفي لتصوّر شكل البناء)، وثالث يُصوِّر كنيسة القدّيس بطرس قبل إضافة القبّة الوسطى والواجهة إليها؛ إضافة إلى الفاتيكان الذي يحوي باحة كبيرة، تكفي لإقامة مباراة المبارزة بين الفرسان.

يتسنّى للمرء من معاينة هذه الرسومات المحفورة على النحاس أن يأخذ فكرة معقولة عن التغيّرات التي طرأت خلال القرنين الماضيين، والجهود المبذولة خلال هذه الفترة، رغم العقبات المهولة، لتعمير ما أصابه الخراب أو الإهمال.

وما كان هاينريش ماير، الذي سبق وأن ذكرتُه في مناسبات عدّة، ليغيب عن المشهد كلّما طرأ ما هو جدير بالمشاهدة أو التعلّم، رغم أنه كان يعيش حياة متفرّغ، ويعمل بلا انقطاع؛ وقد كانت صحبته موضع ترحاب دائم في دائرتنا؛ لأنه كان متواضعاً ومثقّفاً في آن. لقد دأب على اقتفاء خطّي فينكلمان ومينجز بكل اخلاص، وكان خبيراً برسوم الحبر التي تستنسخ التماثيل النصفية من العهود القديمة بأسلوب سيدلمان، ولم يتوفّر أحد مثله على فرصة التعرّف على الفروقات الدقيقة في أساليب الفن بين الحقب المتتابعة.

وكان ماير معنا خلال تلك الأمسية التي قمنا فيها بجولة في متحف الفاتيكان والكابيتول على ضوء المشاعل، وهي نزهة شائعة بين الزوّار والفنانين، وخبراء الفن والمتحذلقين على حدّ سواء، ووجدتُ بين أوراقي مقالة له، تشير إلى تلك المناسبة المشهودة التي ما تزال حتّى الساعة تطفو في عين ذاكرتي مثل حلم جميل، يخبو بالتدريج.

إليكم نصّ المقالة:

"إن عادة زيارة المتاحف الرومانية العظيمة على ضوء المشاعل بدت،

وكأنها ما تزال حديثة العهد في ثمانينيات القرن الماضي، ولكنْ: لا أعرف متى بدأت.

هناك عدّة أشياء حميدة تُقال في هذا النوع من الإنارة: أولاً إنه يتيح مشاهدة كل عمل فني وحده، بمعزل عن الأعمال الأخرى، ممّا يحصرانتباه المشاهد في هذا العمل، ويركّزه عليه؛ ثانياً أن ضوء المشعل الساطع يُنير التفاصيل المرهفة للعمل، ويُبرزها بقوّة أكبر، فتزول الانعكاسات المربكة (والمزعجة بخاصة في التماثيل الصقيلة جداً)، وتتعمّق الظلال، فتشرئبّ الأجزاء المضاءة بجلاء أكبر. لكن الفائدة الأعظم أن هذا النوع من الإنارة هو وحده الذي يعطي التماثيل المركونة في أماكن غير موائمة حقّها. فمثلاً إن تمثال لاكون، لن يُرى رؤية حسنة إلا على ضوء المشعل، فهو قابع في زاوية معتمة، ولا يصله أي نور باستثناء الضوء المنعكس من كوّة كورتيل ديل بيلفيد يري المدوّرة، علماً أن هذا البناء محاط بالأعمدة.

ويصحّ القول ذاته على تمثال أبوللو، وتمثال أنتينوس (ميركوري)، والنيل، وميليجير، وفوق ذلك كله على ما يسمّى تمثال فوسيو، نظراً لأن ضوء المشعل يُنير تفاصيل هذا الجسد المنحوت نحتاً بديعاً من خلال لباس الجوخ البسيط الشفّاف، وهو ما يستعصي على المشاهدة في النهار.

ورغم أن تماثيل ونصب متحف كابيتولين أقلّ شأناً من تماثيل ونصب متحف بيوكليمونتينو، بعامة، فإن تقديرها حقّ قدرها يستوجب مشاهدتها على ضوء المشاعل. وإن التمثال المسمّى بيرهوس، وهو قطعة من الإبداع الحرفي، ينتصب فوق السّلّم، ولا يحظى بشعاع من ضوء النهار. وهناك في صالة العرض، قبالة الأعمدة، تمثال بديع بنصف طول، يعتقد أنه لفينوس الملفّعة بالثياب، لا يحظى ببصيص ضياء من ثلاث جهات، وهناك تمثال

فينوس العارية، وهو أجمل تمثال من نوعه في روما، لا يتكشّف عن مفاتنه في ضوء النهار؛ لأنه مركون في زاوية؛ أما ما يسمّى بتمثال جونو "المهندم"، فيتّكئ إلى جدار بين النوافذ، فلا يتلقّى إلا القليل من النور المنعكس، كما أن رأس اريادان الشهير في قاعة المنوّعات لا يُرى بكل بهائه إلا على ضوء المشاعل.

ويمكن لهذه الطريقة في الإنارة أن تُستخدم استخداماً سيئاً، كما هو حال الكثير من التقاليد التي تشيع موضتها. فالأعمال الفنية المعمولة بالأسلوب القديم، أو الأعمال الفنية المنفّذة بالأسلوب اللاحق، لن تفيد من ضوء المشاعل، إذا كانت تقف في بقعة منيرة. فنحّاتو تلك الفترة ما كانوا يعرفون الكثير عن الضوء والظل، فكيف لهم أن يعتمدوا على تأثيرات هذين؟ ويصحّ القول ذاته على الأعمال الموروثة من عهد الانحطاط، حين بات النحّاتون مهملين، وفسد الذوق؛ بحيث لم يعد أحد يُعنى بالضوء والظلّ، أو بنظرية الكتلة التي نُسيت تماماً. فما فائدة النظر إلى مثل هذه المنحوتات على ضوء المشاعل؟"

إن التأمّل في تلك المناسبة المشهودة يدفعني إلى تذكّر المستر هيرت، الذي أسدى العون إلى دائرتنا بأكثر من سبيل. وُلد هيرت في فورستن بيرج عام ١٧٥٩، ودرس الأدب الكلاسيكي فيها، فدفعه ذلك إلى الإحساس بحافز لا يُقاوم للمجيء إلى روما. كان قد حلّ في روما قبل ثلاثة أعوام من قدومي إليها، واكتسب فيها معرفة عميقة بفن العمارة والنحت، الحديث والقديم، فاضطلع بدور الدليل المرشد للزوّار الأجانب التوّاقين إلى التعلّم. وقد ضحّى بالكثير من وقته لهؤلاء الذين كنتُ واحداً منهم.

ينصبّ اهتمامه الأرأس على فن العمارة، وقد أثارت نظرياته في الفن مناقشات وسجالات حامية الوطيس، كما هو متوقّع في مدينة، تعشق

الخلافات والتحيّزات الأدبية. تفيد أطروحة هيرت أن سائر فن العمارة الإغريقي والروماني مستمدّ من العمارة الخشبية، التي كانت قائمة في عهود أقدم، وقد أرسى أحكامه الإيجابية أو السلبية، على هذا الأساس، داعماً استخلاصاته البارعة بأمثلة تاريخية. أما الذين خالفوه؛ فقالوا إن كل عناصر التكلّف المصطنع، في فن العمارة كما في غيره من الفنون، قد تكون مناسبة للذوق، وإن المعماري ما كان ليقدر على نَبْذها، في ضوء تباين الظروف التي كان يواجهها، وقد كان هذا المعماري مضطراً على الدوام إلى أن يمارس الاستثناء، فيخرج عن القاعدة، بهذه الصورة أو تلك.

ورغم أن الفن يقوم في الفعل، لا في القول، فإن الناس يفضّلون دوماً القول على الفعل؛ وعليه ليس مستغرباً أن الأحاديث من هذا النوع تطول، وتطول، ولا تنتهي، سواء في أيامنا هذه أم في تلك الأيام.

أدّى افتراق الآراء بين الفنانين إلى نشوب مشاحنات مزعجة، وفكّ عُرى بعض الصداقات، إلا أنه تسبّب - أحياناً - في وقوع حوادث طريفة، كالآتي:

أمضى عدد من الفنانين عصر أحد الأيام في الفاتيكان، ولم يتركوه إلا في ساعة متأخّرة، خارجين من بوّابة قرب الأعمدة، وعادوا إلى المنزل سيراً على الأقدام عبر الكروم المجاورة لنهر التيبر؛ كيما يتحاشوا إطالة الطريق عبر المدينة. وبدؤوا يتشاحنون في الطريق، واستمرّوا على نقاشهم حامي الوطيس، وهم على العبّارة. ولو خطر لهم أن ينزلوا من العبّارة في ريبيتا، لوجب عليهم أن يتفرّقوا كل إلى سبيله، ولقضي على المساجلات التي لم يُسعفهم الوقت في عرضها، وهي في المهد. لذا؛ قرّر الجميع البقاء في العبّارة، وعبور النهر ثانية، وإطلاق العنان لحواراتهم الساخنة في القارب المتأرجح. ولمّا وجدوا أنهم لم يفرغوا من النقاش، أمروا صاحب العبارة، أن يكرّر رحلاته عدّة مرّات. لم يعترض هذا الأخير على الطلب، فهو يكسب

من كل عبور بايوكو واحداً عن كل راكب، وهو مربح معتبر ما كان يحلم بتحقيقه في مثل هذه الساعة المتأخّرة. امتثل لرغائبهم في صمت تامّ، حتّى سأله ابنه الصغير متعجّباً: "ماذا يريدون بهذا العبور المتكرّر؟" فأجاب الرجل باقتضاب: "لا أعرف. إنهم مجانين."

في هذه الأثناء، تلقّيتُ من الوطن رزمة مشفوعة بالرسالة التالية:

"سيدي، لا يدهشني أن يكون عندك قرّاء سيّئون، فكثرة من الناس تُفضّل الكلام على الشعور، وينبغي أن نأسى لهؤلاء، وأن نكون سعداء؛ لأننا لا نشبههم.

أجل، يا سيدي، أنا مَدين لك بأفضل أعمال حياتي، ومَدين لك نتيجة لذلك بمصدر أشياء أخرى كثيرة. وبالنسبة لي، فإن كتابك القيّم، ولو كان لي حظ الإقامة في نفس البلد الذي تقيم فيه، لعانقتكَ، وأبحتُ لك بمكنون أسراري. لكنني، ويا للأسف، أُقيم في بلد، لا يشاطرني فيه أحد الاعتقاد بالحافز الذي يحدوني إلى هذا الفعل. فاهنأ، يا سيدي؛ لأنك قادر، وأنت على بُعد ٣٠٠ ميل في محلّ إقامتك، على أن تسوق قلب رجل شابّ نحو الشرف والفضيلة. كل العائلة ستكون مرتاحة، وقلبي سيكون ممتنّاً من هذا العمل الطّيّب. وإذا كنتُ موهوباً ولامعاً، أو إذا كانت لي منزلة تؤهّلني للتأثير في مصير الإنسان، فلعلّني سأخبرك باسمي. لكنني إنسان مجهول يعرف ما لا يريد أن يكونه.

أتمنّى - يا سيدي - أن تكون شابّاً، ولك مَيل للكتابة، وأن تكون زوج شارلوت، الذي لم يقابل فيرتر، وأن تكون الأكثر سعادة بين البشر، لأنك، كما أعتقد، عاشق للفضيلة." (بالفرنسية في الأصل)

شهر كانون الأول ١٧٨٧
مراسلات

٧ كانون الأول (ديسمبر)

توقّف الشعر عندي عن التدفّق، فأمضيتُ الأسبوع في الرسم. ينبغي أن يتعلّم المرء كيف يتساوق مع كل فترة لحظة قدومها؛ ليفيد منها ما المفيد. أكاديميّتنا المنزلية في ازدهار، ونحاول أن نبعث إنجانثير(*) الغابر من رقاده. في المساءات، ندرس المنظور.

تظلّ إنجيليكا، على عهدها، منبع عطف وعون، وإني مَدين لها بأكثر من صنيع. نقضي الآحاد معاً، كما أزورها دوماً مرّة في المساء خلال الأسبوع. إنني لا أفهم ببساطة كيف تقدر هذه المرأة أن تعمل بهذا الاجتهاد والمثابرة، كما تفعل، مع ذلك، فهي تظنّ أنها لا تبذل ما يكفي من الجهد.

٨ كانون الأول (ديسمبر)

لا يسعني أن أصف لكم، بل لن تصدّقوا، مبلغ سعادتي لما أبديتُمُوه من استحسان لأغنيتي الصغيرة، ولنجاحي في أن أضرب على الوتر المناسب في مزاجكم.

لكم أتمنّى لو أن مسرحية "إيجمونت"، التي لا تذكرونها كثيراً، أصابت مثل هذا النجاح. يخيل إليّ أن إيجمونت خلّفت فيكم من الألم، ما يفوق السرور. آه، أعلم تمام العلم كم من الصعب أن يبلغ عمل بهذه السعة

---

*) إنجانثير: بطل جرماني من الشمال، يرد ذِكْره في كتاب هيردر "مجموعة أغاني الشعوب من مختلف البلدان".

إيقاع الكمال في كل فصوله. وبعد كل هذا وذاك، فالفنان وحده يعرف حقاً مدى صعوبة الفن. فالفن يحوي من العناصر الإيجابية؛ أي تلك التي يمكن تعليمها ونَقْلها من جيل إلى جيل، أكثر بكثير ممّا يُعتقد عادة. هناك عدد كبير من الابتكارات الميكانيكية القادرة على إحداث أعظم الآثار المحرّكة للنفس. شريطة، بالطبع، أن يكون للمرء روح؛ كي نحرّكها. وحين يتعلّم المرء هذه الحيل الصغيرة، فإن الكثير ممّا يبدو خارقاً للعادة في هذا العالم يتحوّل إلى لعب أطفال. وأعتقد أن روما، في السرّاء والضراء، هي المكان المناسب لتعلُّم هذه.

روما، ١٥ كانون الأول (ديسمبر)

الوقت متأخّر في هذا الليل، لكنْ؛ يتوجّب عليّ أن أكتب في الأقلّ بضعة أسطر إليكم. قضيتُ هذا الأسبوع في بهجة عظيمة؛ أما خلال الأسبوع المنصرم؛ فلم أستطع أن أنجز أي شيء، لا كتابة ولا رسماً.

اعتدل الطقس يوم الأحد، وقرأتُ في السماء أمارات تَعدُ بالمزيد من الأيام الرائقة، لذا؛ انطلقتُ في صحبة كايزر وفريتز الثاني(*) إلى الريف. وصلنا فراسكاتي مساء الثلاثاء. وفي يوم الأربعاء، زرنا بعض الفيلات الجميلة؛ أفضلها فيلا أنتينوس الباذخة في موندراجون. وفي يوم الخميس، سرنا على الأقدام من فراسكاتي إلى مونتي كافو مروراً بروكادي بابا، التي سأرسل لكم عنها بعض الرسوم؛ لأن الوصف اللفظي يعجز عن المعنى. بعد ذلك، نزلنا التل وصولاً إلى البانو. يوم الجمعة أُصيب كايزر بوعكة، فتركناه، وعدتُ مشياً على الأقدام مع فريتز الثاني إلى إريكيا وجينزانو، على امتداد بحيرة نيمي، وصولاً إلى البانو. ذهبنا اليوم إلى كاستل جوندلفو ومارينو، ومن هناك، عدنا إلى روما. كان الطقس رؤوماً لطيفاً، بل أروعّ ما جادت به روما في هذا العام. وعدا عن أشجار البلوط دائمة الخضرة،

---

*) فريتز الأول هو ابن شارلوت فون شتاين، أما الثاني؛ فهو الرسّام فريتز بوري.

هناك أشجار ما تزال مزدانة بأوراقها، بما في ذلك بعض الكستناء، رغم أن أوراقها مصفرّة. هناك تلاوين في المشهد الطبيعي ذات جمال آسر، وهناك أيضاً الظلال الكبيرة البديعة في عتمة الليل كل يوم! كنتُ سعيداً تماماً، وشاعراً بالعافية.

٢١ كانون الأول (ديسمبر)

أجد أن مزاولة الرسم ودراسة الفن مصدر عون، لا إعاقة، لمقدرتي الشعرية: يتوجّب على المرء أن يقتصد في الكتابة، ويكثر من الرسم. لكم أتمنّى أن أوصل لكم فَهْمي لفن التصوير. إن بصيرة واتّساق الأساتذة الكبار شيء لا يُصدّق. حين وصلتُ إيطاليا شعرتُ أني وُلدتُ من جديد؛ أما الآن؛ فأشعر أنني تثقّفتُ من جديد.

ما أرسلتُه لكم حتّى الآن لا يزيد عن محاولات عجولة. سأحمل ثورن آيزن لفافة رسومات ستنال رضاكم. خير هذه الرسومات بريشة أناس آخرين.

٢٥ كانون الأول (ديسمبر)

وُلد السيّد المسيح في مثل هذا اليوم، في يوم حافل بالرعود والبروق: وفي منتصف الليل تقريباً، هبّت علينا زوبعة مُدوّية.

لم يعد بهاء أمّهات الأعمال الفنّية يدوّخني، ويُذهلني. وأنا مَدين باكتساب القدرة على الفَهْم المدرك إلى هاينريش ماير، بدرجة تفوق قدرتي على التعبير. فقد كان هو أول مَن يفتح عيني على التفاصيل، وعلى السمات الخاصة لكل شخص من شخوص اللوحات، وهو الذي قادني إلى أسرار الخَلْق الفني. إنه رجل متواضع قنوع بالقليل. وهو يتمتّع بأعمال الفن أكثر من مالكيها النبلاء، الذين لا يفقهون أسرارها. بل أكثر من معظم الفنانين الآخرين التوّاقين في عجالة مفرطة إلى محاكاة ما لا يُحاكى. ويتميّز الرجل بعقل واضح وضوحاً سامياً، وقلب عطوف عطفاً ملائكياً. وكلّما تحدّث معي

في موضوع ما، وددتُ لو أدوّن كل كلماته الدقيقة الصادقة، التي تشير إلى الطريق الصحيح. وهو معلّم يصعب عليّ أن أجد مَن يسدّ مكانه. إن كل ما تعلّمتُه في ألمانيا، بالقياس إلى ما تعلّمتُه على يديه، أشبه بلحاء الشجر مقارنة بلُبّ الثمر.

وصل بعض الأجانب الجدد الذين أزور في صحبتهم بعض المعارض أحياناً: إنهم يذكّرونني بدبابير غرفتي التي ترتطم بزجاج النوافذ متوهّمة أنه هواء طلق، فترتدّ بعد الارتطام، وتئزّ محوّمة على الجدران.

لا أتمنّى لأسوأ أعدائي أن يعيش حياة سكون وقعود، وإن النظر إليّ باعتباري مريضاً، ضيّق الأفق، لم يعد يتّفق مع حالي. اذكرني دوماً، أيها الصديق العزيز، وواصل بذل قصارى جهدك لإبقاء جذوة الحياة فيّ، فبخلاف ذلك لن أعود ذا نفع لأحد. ينبغي أن أعترف أنني قد فسدتُ كثيراً هذه السنة، من ناحية كوني إنساناً أخلاقياً. لقد عُزلتُ عن العالم تماماً، وعشتُ وحيداً، لفترة معيّنة. أما الآن؛ فثمّة حلقة من الأصدقاء قد التأمت حولي، وكلهم أناس أخيار يسيرون على الدرب القويم، والدليل على ذلك أنهم كلّما أوغلوا في التفكير والعمل في الاتجاه الصحيح، زاد حبورهم بصحبتي؛ لأنني عديم الرأفة، وعديم التسامح مع كل أولئك الذين يخوضون في الوحل على هواهم، أو ينحرفون عن الطريق القويم، بينما هم يطالبوننا بأن نعدّهم أدلاء محنّكين. إنني أجابه أمثال هؤلاء بالسخرية والهزء حتّى يُصلحوا طرائقهم، أو يبتعدوا. وبالطبع، فإن حديثي يقتصر على اللطفاء. أما الحمقى ورديئو الأطباع؛ فانبذهم بلا كياسة. هناك اثنان أو ثلاثة ممّن غيّروا طرائق حياتهم وآراءهم بتأثير مني، ولسوف يبقون ممتنّين لي طالما بقوا على قيد الحياة. لعلّ مَردّ ذلك أن سُبُلي في التفكير قد زادت رحابة وحكمة. ولكن حالي حال سواي، فإن ضاق حذائي آلمَني قَدَمي، وإن واجهني جدار حجري، ما قدرتُ أن أرى ما وراءه.

شهر كانون الأول ١٧٨٧
عودة إلى ما كان

دشّن هذا الشهر فترة من مناخ حسن دون انقطاع، فدفعنا إلى ذلك إلى خطّة، أتاحت لنا رفقة حلوة في كثرة من الأيام الرائعة. اقترح أحدهم أن نتظاهر بأننا نأتي إلى روما أول مرّة، وأننا متلهّفون للتعرّف على أحسن مواقعها، وأبرزها، والتجوال في أرجائها؛ إذ يمكن لنا، عن هذا الطريق، أن نحظى بانطباع جديد عن الأحوال التي بتنا نعدّها تحصيل حاصل.

باشرنا في تنفيذ هذه الخطّة في الحال، والتزمنا بها التزاماً أميناً. ولسوء الحظ لا أتوفّر على سجلّ عن الكثير من الأشياء الحسنة ممّا رأينا وقلنا في هذه الفترة. فهناك افتقار تامّ إلى الرسائل والملاحظات والتخطيطات.

ثمّة كنيسة كبيرة نوعاً ما تقبع في أحد الأحياء الواطئة في روما، غير بعيد عن نهر التيبر، في موضع، يُدعى "آله تري فونتانا"؛ أي النافورات الثلاث. وتقول الأساطير إن هذه النافورات الثلاث انبجست من دم القدّيس بولص لحظة قَطْع رأسه، وإن مياهها تتدفّق منذ ذلك الحين.

ولمّا كانت الكنيسة قائمة في منخفض من الأرض، فإن أنابيب المياه داخلها تزيد جوّها رطوبة. ولا يزدان داخل الكنيسة بأية زينة، بل إنها تبدو مهجورة، ولا ينظّفونها أو يفتحون نوافذها للتهوية إلا لماماً، عند إقامة قدّاس في المناسبات. غير أن أبرز مَعلم من معالمها هو رسوم بالحجم الطبيعي، تُصوِّر المسيح والحواريين، وقد رُسمت على أعمدة صحن الكنيسة، اعتماداً على تخطيطات، وضعها رافائيل. وقد عالج رافائيل المسيح والحواريين

في مواضع أخرى كمجموعة كاملة مؤلّفة من اثني عشر شخصاً، متماثلين في أرديتهم، إلا أن عبقريته الخارقة أسبغت على كل واحد منهم سماته المميّزة، وفرادته، لا باعتباره حوارياً يتبع نبيّه، بل امرءاً يتوجّب عليه، بعد قيامة السيد المسيح وصعوده إلى السماء، أن يقف اعتماداً على نفسه، وأن يكدّ، ويتحمّل العناء بمفرده، تبعاً لخصاله ومعدنه.

إليكم مقتطفاً من مقالة لي، نُشرت في صحيفة جيرمان ميركوري عام ١٧٨٩:

"استخدم رافائيل، في تصوير الرُّسُل [الحواريين]، أدقّ استخدام لكل ما نعرفه، من الأناجيل والتراث، عن طباع الحواريين، ومكانتهم الاجتماعية، والمهن التي زاولوها، والحياة التي عاشوها، والموت الذي حاق بهم.، فنجح في ابتداع سلسلة من الأشخاص الذي يختلفون عن بعضهم اختلافاً بيّناً في المظهر، ويُشبهون بعضهم في الوشيجة الروحية المشتركة.

بطرس: جسد مَتين ثابت قصير، بوجه ممتلئ. وكما هو الحال في الشخوص الأخرى، جرت المبالغة قليلاً في رسم الأطراف لإظهار قصر الجسم. فرقبتُه قصيرة، وشعره القصير هو الأكثر تجعيداً. وإن الطيّات الأساسية في ردائه، تلتقي عند محزمه. وهو يقف أمامنا مرصوص البنيان مثل عمود صلد قادر على احتمال أثقل الأعباء.

بولص: يقف بولص، مثل بطرس، في استقامة، وهو يوشك أن يستدير إلى جهة معيّنة، مثل امرئ يوشك أن يبتعد، لكنه يلقي نظرة أخيرة. وإن عباءته المرفوعة تتدلّى على ذراعه، وهو يحمل كتاباً. وقدماه متباعدتان؛ ليبين أن لا شيء يمكن أن يمنعه من الانطلاق. وإن شعر رأسه ولحيته مثل ألسنة لهب خافقة، وقسماته تشعّ بالحماس.

يوحنّا: شابّ نبيل ذو شعر جميل مسترسل الخصلات، مجعّد من

الذؤابات وحدها. وتبدو عليه القناعة والرضى بامتلاك وعرض مواثيق المسيحية. الإنجيل وكأس القربان. وبضربة إلهام مجيد، ينشر نسر يوحنّا جناحيه، ويرفع في الوقت ذاته الرداء، حتّى تقع طيّاته الجميلة في مواضعها الصحيحة.

ماتيو: رجل مَيسور لطيف المعشر راض بنصيبه. وإن مسحة الانبساط والهدوء تتعادل مع النظرة الجادّة الحَيية نوعاً ما، في عينيه. وإن طيّات ثوبه، تغطّي كل جسده، أما حافظة نقوده؛ فتولّد انطباعاً قوياً بطيبة السريرة والانسجام.

توما: هذا واحد من أبدع الشخوص المثير للإعجاب، بسبب بساطته البالغة. إنه يقف إزاءنا ملتفعاً بعباءة، تتدلّى من جانبيه في طيّات متناظرة تقريباً، إلا أن ثمّة تحويرات طفيفة، تُبرز تباينها. يصعب على المرء أن يتصوّر شكلاً آخر قادراً مثل هذا على أن يولّد انطباعاً قوياً بالسكون، والسكينة، والتواضع. فالتفاتة الرأس، والنظرة الجادّة الحزينة، والفم الدقيق، تنسجم انسجاماً كاملاً مع بقية مكوّنات الجسم. غير أن شعره مشعث للتعبير عن الروح المتّقدة وراء المظهر الرقيق.

جيمس الكبير: ها هنا صورة حاجّ رقيق، يمرّ في طريقه، وهو ملتفع بعباءته.

فيليب: إذا قارن المرء رداء هذه الشخصية بأردية الرسولين السابقين، فإنه يرى أن طيّات الرداء أكثر دقّة، وغنى، وعناية. إن رباطة الجأش والثقة التي تتبدّى عليه، وهو يقف ثابت الجنان حاملاً الصليب شاخصاً ببصره الثابت إليه، يتّسق مع غنى تفاصيل الرداء الذي يلبس. إن مجمل هذا التركيب يوحي بعَظَمَة الروح، والهدوء، والشجاعة.

أندرو: يظهر هذا الرسول، وهو يحتضن ويربت على صليبه بدل أن يحمله. وإن طيّات عباءته البسيطة مرتّبة بمهارة فائقة.

تاديوس: شابٌ يرفع ذيل مئزره؛ لئلا يعيق خطاه الواسعة، على غرار ما يفعل الرهبان في الحجّ. إن هذا الفعل البسيط يولّد طيّات حلوة في المئزر. وهو يحمل في يده رمحاً طويلاً، رمز الاستشهاد، كعصا الحجيج.

متّى: رجل عجوز باسم، يرتدي رداء عادياً، يُبرز جماله بوجود طيّات بارعة، وهو يقف متكئاً إلى رمح. وتتدلّى عباءته على ظهره.

سيمون: يظهر وقد استدار بثلاثة أرباع جسمه مبتعداً عنا. وإن طيّات عباءته، وقوام وترتيبات شعر الرأس، تجعله أجمل الشخوص قاطبة.

بارتلوميو: يشخص هذا، وقد التفّت عباءته في غير انتظام، بل في هياج، حول جسده، وهو أثر، تطلّب إنتاجه مهارة عظيمة. ويمكن للمرء أن يتخيّل من مرأى شعره، ووقفته، وطريقة حمله السكين، إنه على وشك أن يسلخ جلد إنسان آخر، بدل أن يتعرّض هو إلى السلخ.

السيد المسيح: لا ريب فيه أن كل مَن يتوقّع رؤية صورة إنسان مؤلّه، أو معجزة ما، سيُصاب بخيبة أمل. فالمسيح يظهر في هذه الصورة، وهو يتقدّم في بساطة وهدوء، رافعاً يده اليمنى لمباركة الناس. قد يعترض المرء بحقٍّ قائلاً إن ثوبه، الذي يعلو الأرض، ويتدلّى في طيّات حلوة، كاشفاً عن ركبة السيد المسيح، لا يمكن أن يبقى في هذا الوضع لحظة واحدة، ولابد أن يسقط؛ ليلامس الأرض في الحال. ولعلّ رافائيل أراد بذلك تصوير فعلين متعاقبين. فوضع طيّات الثوب يشير إلى اللحظة المنصرمة، لحظة تقدّم المسيح؛ ليبارك. ولكي يفعل ذلك رفع وأمسك ذيل ردائه بيده اليمنى. أما اليد اليمنى المرفوعة؛ فتشير إلى اللحظة التالية، لحظة المباركة."

إن ملعب كاراكالا لا يزيد بمعظمه عن أطلال، لكنه ما يزال يوحي

بالسعة الهائلة. وإن رسم هذه الأطلال يوجب أن يقف المرء عند جناحها الأيسر؛ حيث كان المتسابقون بالعربات ينطلقون من خط البداية. ولسوف يرى الناظر، عن يمينه، فوق أماكن جلوس النظّارة، المهدمة حالياً، ضريح سيسيليا ميتيلا، وما يحيط بها من جديد، ثمّ صفّ المقاعد التي كانت ذات يوم تمتدّ بلا نهاية، وأخيراً، في البعيد، الفيلات الضخمة والمنازل الريفية. أما إذا استدار المرء على عقبيه؛ رأى أثر خرائب الأعمدة (بالإيطالية) قبالته تماماً، أما إذا توفّر على خيال معماري؛ فسوف يستمد فكرة بسيطة عن خيلاء (باللاتينية) تلك الأزمنة الخوالي. وإن بمقدور الفنان الماهر أن يرسم صورة حلوة، لكن عرض اللوحة ينبغي أن يكون ضعف ارتفاعها.

أبدينا ضروب الاحترام والتقدير للتيار العاتي لأكواباولو، في الساحة المواجهة لسان بيترو في مونتاريو. ويتدفّق أكوا باولو في خمسة جداول من خلال فتحات وبوّابات قوس النصر؛ لكي يملأ الحوض الهائل. ويجلب هذا الصهريج المائي الهائل من وراء بحيرة براكيانو، عن طريق قناة، يبلغ طولها خمسة وعشرين ميلاً، بعد أن رمّمها البابا بولص الخامس. وتمضي القناة في مسار متعرّج عبر التلال؛ لتسدّ حاجات مختلف المطاحن والمعامل المائية، وهي في طريقها، حتّى تفرغ حمولتها المائية في قناة تراستفيري الواسعة.

واحتفى محبّو العمارة منا بهذه الفكرة السديدة لجلب الماء إلى مدخل قوس النصر المتاح للجميع بالمجّان. وأخذت الأعمدة، والأقواس، والأفاريز، والقوصرات المثلّثة، تذكّرنا بتلك الأقواس الفخمة التي مرّ من تحتها الفاتحون العائدون، بعد الظفر، في تلك الأزمنة السحيقة. أما الآن؛ فإن الماء المسالم النافع، هو الذي يدخل، بجبروت مماثل؛ ليَلقى الامتنان والإعجاب على مسيرته الطويلة الشاقّة. وهناك كتابات منقوشة، تُبلغ الزائر

أن العناية الإلهية والبابا الرؤوف من عائلة بورجيزي، هما اللذان يمرّان من تحت قوس النصر، هذا الدخول البهي السرمدي.

اعترض قادم محدث من الشمال على وجود قوس النصر، وقال إن من الأفضل لو أن المياه تنبجس في ضوء النهار على نحو طبيعي؛ لتتكسّر على كومة من الصخور الوعرة، إلا أننا أوضحنا له أن مسار المياه اصطناعي، وليس طبيعياً، وأن من الأنسب الترحيب بمَقدمه بترتيب اصطناعي مماثل.

لكن الاتفاق على هذه النقطة كان معدوماً، على غرار الرأي بصدد لوحة رافائيل. تجلّي المسيح، التي سنحت لنا الفرصة، بُعيد ذلك؛ لأن نتملّى تفاصيلها معجبين، في دير مجاور. وكثر الحديث عن الموضوع، إلا أن المقلّين في الكلام منا انزعجوا من إثارة الاعتراض القديم على "الفعل المزدوج". ولكنْ؛ هذا هو حال الدنيا. فالعملة الرديئة تروّج في السوق شأن العملة الصحيحة. مع ذلك، أُصبتُ بالدهشة من وجود مَنْ يتجرّأ على إيجاد مَثلبة في وحدة تصوّر عظيم متّسق كهذا.

هي ذي اللوحة تُصوِّر أبوين يتفطّران كمداً على ابنهما الذي أصابه مسّ من الشيطان، وقد جلباه، في غياب السيد المسيح، إلى الحواريين بعد أن جرّبا، على الأرجح، طَرْد الروح الشرّيرة. بل إن أحد الوالدين قد فتح كتاباً، علّه يجد تعاويذ ورقى قديمة، تشفي الممسوس من علّته. ولكنْ؛ دون طائل. وفي هذه اللحظة، يتجلّى الذي بيده القدرة على الإشفاء، في مجده العظيم، مسبوقاً باثنين من المبشّرين العظام، بينما يتطلّع الجميع إلى الأعلى مشيرين إلى رؤيا التجلّي، بوصفها المنبع الوحيد للخلاص.

وإذنْ؛ ما جدوى فصل الفعل العلوي عن السفلي؟ كلاهما واحد. ففي الأدنى، ثمّة من يعاني، وينتظر العون؛ وفي الأعلى ثمّة القوّة الفاعلة،

التي تُسعف: وكلاهما مرتبط وثيق الارتباط بالتفاعل الجاري. كيف يمكن التعبير عن ذلك بأية طريقة أخرى؟

وكان أولئك الذين يشاطرونني الرأي راسخين تماماً في قناعتنا بأن رافائيل، مثل الطبيعة، مُحقّ دوماً، وأنه يوغل إلى أشدّ الأولئكأعماق حين يتبدّى لنا أننا لا نفهمه إلا قليلاً.

قصدنا في الأصل أن نقوم بالتجوال في روما وحدنا، وثبت أن هذا محال. فهذا يتخلّف عن المجيء، وذاك تصدّه انشغالات كأداء، ثمّ تلتصق بنا مجموعة من الغرباء الذين عنّ لهم زيارة الأماكن ذاتها. لكن هناك ثلّة أساسية منا بقيت متماسكة، وتوطّنت على استيعاب القادمين الجدد، أو التخلّص منهم، عبر التلكّؤ والتباطؤ حيناً، والإسراع قدماً حيناً آخر. وبالطبع كنا نسمع، بين الحين والآخر، تصرحيات غريبة. هناك ضرب من الحكم التجريبي المقتضب بات شائعاً بين الإنجليز والفرنسيين؛ فهم يغفلون بالكامل الطريقة التي يتكيّف بها الفنان بأحكام موهبته، وأسلافه، وأساتذته، وزمانه، ومكانه، ورعاته، وزبائنه؛ بحيث يستحيل بَلْوَرَة تقدير مُنصف، من دون أخذ ذلك في الاعتبار. ويبدو أن صديقي الطّيّب فولكمان الملاحظ والنافع من نواح عدّة، وقع فريسة آراء الأجانب هذه دون تروٍّ؛ بحيث إن أحكامه تبدو - في الغالب - غريبة حقاً. فمثلاً، هل يمكن للمرء أن يعبّر عن رأيه تعبيراً غير موفّق، كما يفعل هو حين يتحدّث عن كنيسة ماريا جيلا باتشه؟ وهو يقول:

"رسم رافائيل في المصلى الأول عدّة عرّافات، وقد تضرّر الرسم كثيراً. إن الرسم صحيح، لكن التكوين فقير، ولعلّه يرجع إلى ازدحام الفضاء المكرّس للوحة."

هذا هراء. فالفضاء الذي خصّصه المعماري لم يكن يُقلق رافائيل

البتة. بل إن من أعظم البراهين على عبقريته هو قدرته على أن يملأ أي فضاء بأبدع الطرق وأكثرها دقّة، وهو ما نراه في فارنيسينا.

إن لوحة "قدّاس بولسينا" و"تحرير القدّيس بطرس من السجن" و"بارناسوس" ما كانت لتغدو من أعاظم الأعمال الفنية، لولا محدودية الفضاء المخصّص للوحة. وكذا الحال مع العرّافات: إن التناسق الخفي المعتمد في تركيبها يحمل الكل بين دفّتيه بالأسلوب المتضلّع ذاته. وفي الفن، كما في الطبيعة العضوية، تتجلّى الحياة بذاتها، في أضيق الحدود تحديداً، أكمل التجلّي.

كان الأثر النهائي لهذه الجولة، في نفسي، أن عزّز إحساسي بالوقوف فعلاً على أرض كلاسيكية، وأقنع حواسّي وروحي بأن العَظَمَة كانت وما تزال وستظلّ كامنة ها هنا. إنها تكمن في طبيعة الزمان، والتفاعل المتبادل بين القوى المادّية والقوى الروحية، التي تقضي بزوال تلك العَظَمَة، وذلك البهاء، لكن إحساسي النهائي لم يكن يميل كثيراً إلى الحزن على دمار كل ذلك، بل إلى الغبطة على حفظ الكثير من كل هذه العَظَمَة، بل وإعادة بنائها على نحو أبدع وأروع ممّا كانت عليه قبلذاك.

فكنيسة القدّيس بطرس، على سبيل المثال، ذات تصوّر أكثر جرأة وعَظَمَة من أي معبد غابر. حتّى التقلّبات في الذوق، الذي ينزع إلى الفخامة البسيطة حيناً، أو يعود إلى عشق المتعدّد والصغير حيناً آخر، هي علائم على نبض الحيوية، وإن تاريخ الفن وتاريخ البشرية يندمجان معاً في روما؛ ليقفا في مواجهتنا، في آن واحد.

إن الإشارة إلى أن كل عَظَمَة إنما هي عارض، يؤول إلى زوال، ينبغي ألا تحيقنا باليأس؛ على العكس، فإدراكنا أن الماضي كان عظيماً، ينبغي أن

يحفزنا على أن نبتدع نحن أنفسنا شيئاً ذا قيمة، فهو وإن كان سيتهاوى، ذات يوم، أطلالاً وخرائب، فسيواصل إلهام الأحفاد على اجتراح أعمال نبيلة، على غرار ما كان أجدادنا يجترحون.

غير أن مسرّتي في مشاهدة هذه الأشياء الموحية المنعشة كانت تختلط، وتقترن، ولا أقول تفسد، بأفكار محزنة. فقد تناهى إليّ أن خطيب الفتاة الشابّة الحلوة من ميلانو قد فسخ خطبته عليها . ولا أدري بأية ذريعة . ونبذها، وإن الصدمة واليأس اللذين ألمّا بهذه البنت المسكينة أوقعاها فريسة حمّى شديدة، تهدّد حياتها بالخطر. ولم يكن ثمّة سبب يوجب عليّ أن ألوم نفسي بالطبع. فقد لجمتُ محبّتي، وبقيتُ بعيداً عنها، كما أن العارفين أكّدوا لي بوضوح قاطع أن ذريعة فسخ الخطوبة، أيّاً كانت حقيقتها، لا تتّصل قط بعطلة الاستجمام. مع ذلك، شعرتُ بتأثّر بالغ لمجرّد التفكير في أن ذلك الوجه الصبوح البشوش الفرح، قد اكفهرّ الآن، وانقلب. رحتُ أذهب كل يوم؛ لأستفسر عن حالها، مرّتين في اليوم بادي الأمر، وبذلتُ جهوداً مضنية؛ لأن أدفع مخيّلتي إلى استحضار المستحيل، واستعادة صورة تلك الملامح البهيجة، التي لا تستحقّ غير نور الشمس والفرح، إلا أنها الآن غارقة في الدموع، شاحبة بالمرض، وإن شبابها المزهر يذوي قبل الأوان بتأثير الألم الذهني والجسدي.

إن مجرّد حضور سلسلة من أعمال الفن العظيمة بعَظَمَتها الأزلية كان ترياقاً مفيداً في حالتي الذهنية تلك؛ غير أني كنتُ أتأمّل هذه الأعمال، وهذا أمر مفهوم، في حزن عميق.

نظرتُ إلى الأنصاب الغابرة، ولم أجد فيها سوى كتل ضخمة، أفقدها تواتر القرون رونقها، وشكلها؛ ونظرتُ إلى مباني الحقبة اللاحقة، فوجدتُها

سليمة رائعة، إلا أنها أنبأتني بتاريخ انهيار الكثير من الأسر العظيمة؛ ونظرتُ إلى الأشياء اليانعة المزهرة، ففكّرتُ، حتّى هنا، في تلك الدودة الخفية التي تنخرها؛ لتدمّرها بمرور الزمن؛ وفكّرتُ في مدى عبث أن نضع كامل ثقتنا في الركون إلى السند الديني أو المعنوي وحده، فما من شيء على هذه الأرض بقادر على أن يديم ذاته، إذا كان يفتقر إلى القوّة المادية؛ فسرحتُ في حنو رؤوم حزين. ومثلما أن الذهن السعيد ينفتح على حياة جديدة حتّى في الجدران المتهاوية والخرائب المتساقطة، فيجعلها مثل نبات طري يانع؛ كذلك فإن الذهن الحزين يسلب المخلوقات الحياة من أجمل زينتها، ويحيلها، في نظرنا، إلى هيكل عظمي أجرد.

لم يكن بوسعي أن أحزم أمري بصدد نزهة في الجبال، كنتُ قد خطّطتُ لها قبل حلول الشتاء، حتّى علمتُ، بشكل مؤكّد، أن حالها قد تحسّنت، فقمتُ بالترتيبات اللازمة حتّى أكون في نفس ذلك المكان الذي التقيتُه فيها، يوم كانت بشوشة نابضة بالحياة خلال تلك الأيام الخريفية السعيدة؛ لأتلقّى نبأ تماثلها التامّ إلى الشفاء.

جاءت أولى الرسائل من فايمار، بصدد إيجمونت؛ لتُنبئني أن الناس ينتقدون هذا الجانب أو ذاك من مسرحية "إيجمونت"، فذكّرني ذلك بما سبق أن لاحظتُه. إن مشجّع الفن عديم الخيال، المعتد بخيلائه البرجوازي، يشعر بالضيق والإساءة إذا ما حاول شاعر أن يتحاشى أو يخفي أو يحلّ قضية ما. إن مثل هذا القارئ المزدهي بنفسه يتوقّع أن يجري كل شيء في المجرى التقليدي المعروف. لكن اللاتقليدي يمكن أن يكون صادقاً مع الطبيعة، حتّى وإن لم يبدُ كذلك لمَن يتمسّكون بآرائهم المسبقة. وصلتني رسالة تذكر أمثلة عن ذلك، وأخذتُها معي في نزهتي إلى فيلا بورجيزي، فقرأتُ فيها ما يفيد أن بعض مشاهد المسرحية تُعدّ أطول من

اللازم. فكّرتُ مَلياً في هذا الأمر، ولم أجد أن ثمّة سبيل إلى اختزالها، نظراً لوجود الكثير من الثيمات التي تنبغي بَلْوَرَتها. غير أن أشدّ ما اعترضت عليه السيدات هو الرغبة المقتضبة الأخيرة التي يفصح عنها إيجمونت، وهو يحتضر، بأن يضع

حبيبته كليرشن أمانة بين يدي فرديناند(*).

إليكم مقطعاً من رسالة لي، أجبتُ فيها عن هذه النقاط، من شأنه أن يوضح موقفي:

"تعرفون كم يطيب لي أن أستجيب إلى رغائبكم، فأتمكّن من تغيير وصية إيجمونت المحتضر بطريقة أو بأخرى، أو أتمكّن من اختزال بعض المشاهد. فكّرتُ مَلياً في الحركة والشخصيات والمواقف، حتّى امتلأ رأسي بالأفكار المساندة والمعترضة، ولو كتبتُ لكم هذه التأمّلات، لملأتُ كتاباً، ولتحوّلت هذه الرسالة إلى أطروحة في اختزال مسرحيتي. ذهبتُ يوم الأحد لرؤية إنجيليكا التي درست المسرحية، وتتوفّر على نسخة منها، وطرحتُ عليها المسألة. أتمنّى لو أنكم كنتُم معنا، لسمعتم بأية رهافة أنثوية دقّقت في كل شيء، شارحة إيّاه نقطة بنقطة.

والخلاصة التي وصلت إليها تفيد الآتي: إن كل ما تريدون من البطل أن يقوله بالكثير من الكلمات موجود ضمناً في الرؤية. ولمّا كان ذلك تجلّياً لما يدور في عقل البطل النائم، فما كان له أن يُعبّر بالكلمات عن مدى حبّه وتقديره لها بما يفوق ما فعله الحلم ذاته؛ ففي هذا الحلم تسمو الحبيبة، ليس فقط إلى مستواه، بل إلى أسمى من ذلك بكثير. وترى إنجيليكا أن

---

*) في الفصل الخامس من مسرحية إيجمونت: "هناك شيء آخر. أعرف فتاة، لن تزدريها نظراً لأنها كانت لي. والآن بعد أن أعهد بها إليك، فسأموت بسلام. أنت إنسان نبيل الفكر؛ والمرأة التي تجد رجلاً مثلاً ستكون في مأمن من الأذى."

من الصائب صواباً مطلقاً أن يتوجّب على إيجمونت، الذي مرّ بحلم يقظة الحياة، لأنه في حياته وحبّه كان لا يرى سوى متعته الخاصة، أن يستيقظ في اللحظة الأخيرة من الحلم، كما يقال؛ ليُبلغنا من دون كلمات مدى عمق حبّه، وسموّ المكانة التي تحتلّها الحبيبة في قلبه!

وأبدت أيضاً ملاحظات أخرى: ففي المشهد الذي يجمع إيجمونت وفرديناند، على سبيل المثال، ينبغي لأية إشارة إلى كليرشن أن تكون مقتضبة حتّى لا تُشتّت الانتباه عن كلماته الوداعية لصديقه الشابّ الذي لن يستطيع، في أي حال، أن يسمع أو يفهم الكثير في تلك اللحظة."

موريتز بوصفه لغوياً مختصاً بأصل وتاريخ الكلمات

قال رجل حكيم منذ قديم الزمان قولاً صادقاً، مفاده أن الرجل الذي تقصر مَلَكَاته عن الحدّ الضروري والنافع يجبّ أن يشغل نفسه بما هو نافل وغير ضروري. يعتقد البعض أن هذه الحكمة تنطبق على التالي.

لم يكن صديقي موريتز يكفّ، حتّى وهو محاط بأعظم أعمال الفن وعجائب الطبيعة، عن التأمّل في الحياة الداخلية للإنسان، وغرائزه، وتطوّره الارتقائي، كما كان مهووساً بقضية اللغة بعامة. وكان الرأي السائد وقتذاك، بعد عرض نظرية هيردر في مَبحثه الذي فاز بالجائزة "حول أصل اللغة"، وهو رأي يتّفق مع منهج التفكير السائد في العلوم الأخرى، أن الجنس البشري لم ينشأ عن تكاثره من زوجين في الشرق؛ ليعمّ الأرض كلها، بل نشأت أجناس بشرية في آن واحدة في حقبة خارقة من النموّ، وفي ظروف مؤاتية خاصة تماماً، وإن هذه الأجناس تطوّرت إلى مصاف الكمال في شتّى المواضع من أرجاء المعمورة، بعد وقت طويل من قيام الطبيعة بإنتاج الحيوانات، على نحو تدريجي، وعلى اختلاف أنواعها. ويعتقد أن الإنسان وُلد بلغة فطرية محدّدة جوهرياً بأعضاء جسمه وقدراته

الذهنية، فما كانت هناك ضرورة لتدخّل هداية فوق طبيعية، أو إرشاد تقليدي. وبهذا المعنى ثمّة لغة كونية، حاولت كل قبيلة أصيلة أن تنطق بها. وإن القرابة بين كل اللغات تنبع من خضوعها إلى المبدأ الذي صاغت به قوى الخَلْق عقل الأجناس البشرية وجسدها. ولهذا السبب فإن حروف العلة والحروف الصوتية محدودة العدد. وكان من الطبيعي، بل الضروري أن اللغات المَحكية من جانب شتّى الأقوام الأصلية تتقارب حيناً، وتتباعد حيناً، وأن تؤول لغة ما إلى التدهور، وأخرى إلى الارتقاء. ويصحّ هذا على الكلمات المشتقّة، كما يصح على جذر الكلمات أيضاً. وقد قُبل هذا التصوّر باعتباره لا يزيد، في أحسن الأحوال، عن لُغز، لن يُفسّر قطّ تفسيراً كاملاً.

ولكنْ؛ دعونا نعود إلى موريتز. وجدتُ بين أوراقي الملحوظة التالية: "أنا سعيد لأن أرى موريتز يخرج من مزاجه القاتم في الاسترسال في التراخي والكسل، وينضو شكوكه عن نفسه، وينغمر في نشاط مفيد له تماماً؛ لأنه يمنحه قاعدة راسخة لنزواته وتقلّباته الغريبة، ويضفي على خيالاته معنىً وغاية هادفة. وهو مشغول في الوقت الحاضر بفكرة، تشغلني أنا أيضاً، وتمدّنا معاً بمتعة كبيرة. من الصعب إيصال الفكرة؛ لأنها تلوح مجنونة للوهلة الأولى، مع ذلك، سأحاول.

اخترع موريتز أبجدية فكرية. شعورية، يُثبت فيها أن الحروف ليست اعتباطية، بل ترتكز على الطبيعة البشرية، وأن كل حرف ننطقه يعبّر عن عالم داخلي معيّن، ينتمي إليه هذا الحرف. ويزعم أنه يستطيع بهذه الأبجدية الحكم على كل اللغات؛ لأنه على الرغم من سعي كل الشعوب إلى التعبير عن هذا العالم الباطني بدقّة، فإنها انحرفت جميعاً عن الصراط المستقيم، عمداً أو مصادفة. ورحنا نقضي ساعات متفحّصين شتّى اللغات، باحثين

عن تلك الكلمات، وبخاصة أشدّها اقتضاباً. فنجد واحداً منها في تلك اللغة، ونجد ثانياً في لغة أخرى. بعد هذا، نغيّر هذه الكلمات حتّى تبدو صحيحة تماماً، ونخترع أسماء للناس، ساعين إلى العثور على الاسم المناسب لكل شخص.

إن هذه اللعبة الإيتمولوجية في أصول الكلمات، تبدّد أصلاً وقتَ الكثير من الناس الذين يجدون فيها ضرباً من التسلية. وكلّما التقينا، رحنا نلهو بذلك مثل لعبة الشطرنج، ونجرّب مئات التراكيب. ولاشك أن الغريب الذي يرانا، كان يعتقد أننا جميعاً مجانين، وعليه فإن هذه الأمور ليست ممّا يمكن الحديث فيه مع كائن مَن كان، بل مع الأصدقاء المقرّبين وحدهم. مع ذلك، فإنها من أبدع الألعاب في العالم، وهي تُمرّن إحساس المرء باللغة، على نحو لا يُصدّق."

شهر كانون الثاني ١٧٨٨
مراسلات

١٠ كانون الثاني ١٧٨٨

تجدون مع هذه الرسالة أوبريت "إيروين وإيلماير". آمل أن تجدوا هذه القطعة الصغيرة ممتعة، رغم أن قراءة الأوبريت لا تكفي بالمرّة، مهما بلغت جودته: فإدراك كل ما أراده الشاعر، يقتضي من سماع النصّ مع اللحن. سيلي ذلك أوبريت "كلودين". لقد بذلتُ على هاتين المسرحيتين الموسيقيتين جهداً أكبر ممّا تتصوّرون؛ لأنه كان عليّ أن أدع كايزر يعلّمني شيئاً عن بنية المسرحية الغنائية.

إنني أعدّ العدّة لساعة المغادرة حتّى أتقبّل بصدر رحب ما ترسمه لي القوى السماوية لعيد الفصح. فكل ما يأتي خير.

إذا سار مشروع طباعة مؤلّفاتي سيره الحَسَن تحت نفس النجم السعيد، فإنني سأقع هذه السنة في حبِّ أميرة حتّى أستطيع كتابة "تاسو"، وأبيع نفسي إلى الشيطان حتّى أكتب "فاوست"، رغم أنني لا أشعر بالمَيل إلى أيٍّ من هذين. لم يهجرني الحظ حتّى الساعة. فحين كنتُ أحتاج إلى ما يجدّد اهتمامي بمسرحية "إيجمونت"، هبَّ قيصر روما؛ ليخوض العراك مع أهالي باربانت؛ وحين كانت أوبريتاتي تحتاج إلى تشذيب، جاء كايزر (= قيصر) السويسري إلى روما. أو لستُ نبيلاً رومانياً؟! كما يحلو لهيردر أن يقول! من المفرح تماماً أن أراني أصبحت مُلتقى (باللاتينية) أفعال وأحداث لا تعنيني. هذا ما أسمّيه الفأل الحَسَن. وإذنْ؛ سانتظر لأرى ما سيحصل مع الأميرة والشيطان.

حين تطالعون "إيروين وإيلماير"، سترون في الحال أن كل شيء محسوب لأجل المسرح الغنائي، الذي لم تسنح لي أية فرصة لدراسته قبل المجيء إلى روما. وينبغي أن ينتبه المرء إلى مئات الأمور، وأن يحرص على استخدام كل الشخصيات في تعاقب معيّن، وأن يعطي لكل شخصية الوزن المناسب، وأن يُفسح الوقت؛ كي يلتقط المغنّون أنفاسهم، وهلمّجرّا. احتراماً لهذه الاعتبارات يضحّي الإيطاليون بأيّ معنى في النص، لكني آمل أن أكون قد أفلحتُ في إيفاء كل المتطلّبات الموسيقية. المسرحية حقّها من دون أن أجعل مسرحيتي الصغيرة هراء مطبقاً. كان عليّ أن أضع نصب عيني أن كلا الأوبريتين يمكن أن يُقرءا كنصّ، وألا يُلحقا الخزي بجارهما "إيجمونت". ما من أحد في إيطاليا يقرأ نصّ الأوبرا إلا ليلة العرض، وإن نَشْرَ نصّ أوبريت في مجلّد واحد مع نصّ مسرحية تراجيدية غير وارد البتّة في إيطاليا، شأن فكرة الغناء بالألمانية.

فيما يتعلّق بأوبريت إيروين، ستجدون مقاطع شعرية كثيرة، وبخاصة في الفصل الثاني، مكتوبة على الوزن الثلاثي (تروكايك)، وهو غير مألوف في ألمانيا؛ وهذا الوزن ليس تصادفياً، بل قائم على العَرُوض الإيطالي. وإن هذا الوزن ينسجم بخاصة مع الموسيقى، ويتكيّف مع تغيّرات القافية والإيقاع، وبوسع الموسيقار أن ينوّع عليه حتّى لا يعود السامع يتبيّنه. وعلى العموم، لا يحبّ الإيطاليون سوى الأوزان النظامية المبسّطة.

عسى أن يحالفكم الحظ مع الجزء الرابع من "أفكار". لقد أصبح الجزء الثالث واحداً من كُتُبي المقدّسة، التي أحفظها في حرز أمين. أعرتُ الكتاب مؤخّراً إلى موريتز؛ كي يقرأه، وهو الآن يقول إنه يشعر بأنه محظوظ لأن يعيش في هذه الحقبة، التي تبذل خارق الجهود لتربية البشرية.

آه، لو كان لي أستضيفك يوماً في الكابيتول؛ لأقدّم لك ضروب التسرية

سداداً لصنيعك وعطفك. لا شيء عندي أقوى من هذه الرغبة الجارفة.

إن أفكاري الكبرى القديمة ما كانت سوى أوهام وخرافات، أشباح سابقة لأوان فترتي الأنضج. إنني منغمر الآن بكل كياني في دراسة الجسم البشري، الذي هو الذروة القصوى (بالإيطالية) لكل معرفتنا وفعلنا. أما انشغالاتي المثابرة في الجوهر العام للطبيعة، وبخاصة تشريح العظام؛ فتعينني على قطع خطوات سريعة.

وإذ أتذكّر قدوم عيد الفصح؛ حيث ستصل حقبة محدّدة من حياتي إلى خاتمتها، تراني أختطف كل ما أقدر عليه في حرص، وذلك حتّى لا أغادر روما، حين يأزف وقت المغادرة، على مضض مني، بل بأمل أن أواصل دراساتي في ألمانيا بشكل عميق، وفي راحة تامة، وإن يكن بوتيرة أبطأ. أما هنا؛ فإن التيار يُسرع بي حالما أضع قدمي في قاربي الصغير.

شهر كانون الثاني ١٧٨٨
عودة إلى ما كان

كيوبيد، أيها الولد اللعوب، الحرون، رجوتَني
أن أوفّر لك ساعة مأوى، أو ساعتين، لا أكثر
فما أكثر النهارات والليالي التي مكثتَ، مكثراً
من مطالبكَ، بل غدوتَ ربّ المنزل

***

يا مضجعي الواسع الذي نُفيتُ عنه، طول الليل
أربض راقداً على ألواح الخشب في الأرض، معذّباً النفس
أكابد النار تلو النار التي يُذكيها عبثكَ
وهي تأتي على خزين الشتاء، وتسفع صاحبها المسكين

***

ضاعت آلاتي، أو لعلّكَ رميتَها، وأضعتَها
وأنا، في ارتباكي، عُميتُ من البحث:
فأنت تثير ضجيجاً مزعجاً، وأخشى
أن تهرب الروح من جسمي؛ لتفلتَ منك(*)

---

*) أضاف غوته هذه القصيدة إلى الفصل الثاني من النسخة المنقّحة لأوبريت: كلودين في الفيلا الجميلة.

لا يجوز أن يأخذ القارئ هذه القصيدة الوجيزة حرفياً، أو أن يفكّر في ذلك العفريت الذي يُدعى في العادة إله الحبّ: آمور Amor. بل ينبغي أن يتخيّل، عوضاً عن ذلك، حشداً من الأرواح المنهمكة في التنافس على اهتمامات العالم الجوّاني للإنسان، فتجرّه من هنا، أو من هناك، مُنزلة به الحيرة بغواياتها الموزّعة، وبهذا الرمز يمكن للقارئ أن يفهم حالتي الذهنية في ذلك الوقت (وهو ما وصفتُه في رسائلي وملاحظاتي)، ويدرك جسامة الجهد الذي كنتُ أنوء به؛ كيما أحافظ على توازني وسط شدّ وجَذْب الكثير من القوى المتنافرة، وأبقى متلقّياً لكل شيء، وألا أغالي في الكَدّ حدّ الإعياء.

انتمائي إلى جمعية الأركاديين(*)

في العام ١٧٨٦ حُوصرتُ من كل الجهات من أناس سعوا إلى إقناعي بوجوب أن أقبل الانتماء إلى أركاديا راعياً متميّزاً. عارضتُ هذا الاقتراح أمداً طويلاً، غير أني نزلتُ أخيراً عند طلب أصدقائي، الذين كانوا يعقدون على ذلك آمالاً كبيرة. إن المقاصد العامة للجمعية الأركادية معروفة تماماً، غير أن قرّائي قد يهتمّون بسماع المزيد عنها.

يبدو أن الشعر الإيطالي تدهور من نواح عدّة في مجرى القرن السابع عشر، ففي أواخر هذا القرن، بدأ رجال الثقافة والحسّ السليم يُشنّعون على شعر زمانهم من وجهين.

فأولاً اتّهموا هذا الشعر بإهمال كامل المحتوى، الذي كانوا يسمّونه الجمال الباطني؛ وثانيا، اتّهموه بالتضحية بتناسق الشكل وطلاوته؛ أي الجمال البرّاني، على مذبح البيان الفظ، والقريض الخشن، والصور

---

*) أركادية منطقة جبلية في اليونان، تمتاز برُعاتها البسطاء القانعين بالمقسوم.

والمجازات المغلوطة، والأنكى من ذلك، اللجوء إلى استعارات وكنايات، لاجناس فيها.

وكالعادة، بذل الشعراء المقصودون بالهجوم خير ما بوسعهم لكبت الشعر الأصيل، الرائع، حتّى يبقى سوء استخدامهم للغة مستوراً. أخيراً، التأم جمع من الرجال الأشدّاء، بعيدي النظر عام ١٦٩٠؛ ليبحثوا في سبل الإصلاح، بعد أن تعذّر عليهم احتمال الأوضاع القائمة. وابتغاء تجنّب لفت الانتباه إلى اجتماعاتهم، أو إثارة ردّ فعل معاكس، دأبوا على الالتقاء في الهواء الطلق في الحدائق المعزولة المسوّرة، التي يجد المرء كثرة كاثرة منها بين أسوار روما نفسها. وراحوا يحدسون هناك، قريباً من الطبيعة، وهم يتنسّمون هواء طرياً، الروح البدائية للشعر. وكانوا يجلسون في أماكن اللقاء التصادفية هذه على العشب، أو يقتعدون أحجاراً ساقطة من المباني الخربة. أما إذا كان ثمّة كاردينال بين الجمع؛ فإن أكبر امتياز يناله هو وسادة ليّنة. ليبحثوا مبادئهم وخططهم، ويلقوا القصائد، التي يحاولون بها إحياء الروح الكلاسيكية في العصر القديم، وروح مدرسة توسكاني النبيلة.

ولعلّ أحداً هتف ذات يوم في نشوة الانخطاف: "ها نحن في أركادية الخاصة بنا"، فأعطى بذلك اسماً مناسباً لجمعية لها هذا الطابع الرعوي. لم تعتمد هذه الجماعة على حماية أو رعاية من شخصية كبيرة نافذة، بل رفضت اختيار رئيس، يدير شؤونها. هناك قيّم اختير لفَتح وغَلْق بوابات الحقول الأركادية، يعيّنه، في أوقات الطوارئ، مجلس مُنتخب من كبار السّنّ.

ويستحق كريسيمبيني إفراد مكانة بارزة من بين الأعضاء الأوائل في هذه الجمعية، ويمكن اعتباره، عن جدارة، من الآباء، المؤسّسين، وأول قيّم لها، وقد ثابر وكَدّ بإخلاص ونجاح على مدى سنوات، مقدّماً الرعاية للحَسَن

والصافي من الذوق، ومُجتثّاً كل ما هو بربري. وبَلْوَر أطروحاته في سلسلة حوارات، بعنوان Poesia volgare "الشعر الدارج". ولا تمُكن ترجمة هذا المصطلح بـ "الشعر الشعبي"؛ لأنه يعني الشعر الوفي لروح الأمة، الذي يضعه رجال ذوو موهبة حقيقية، بعيداً عن التشويهات الناجمة عن حساسيات بعض العقول المشوّشة. ومن الجلي أن هذه الحوارات هي ثمرة أحاديث أركادية ذات أهمّيّة فائقة، بسبب قربها وشبهها بالتيارات الجمالية في زماننا. وإن القصائد الأركادية التي نشرها جديرة بأكبر اهتمام، للسبب عينه.

ثمّة ملحوظة أخرى. حين يستلقي البشر على أوراق العشب، في الهواء الطلق، ساعين إلى الالتئام مع الطبيعة، فإن الحبّ والهواء يعمّران أفئدتهم. لكن هؤلاء الرعاة المبجّلين كانوا - في الغالب - رجالاً، يرتدون أردية الكَهَنُوت، أو رجالاً ذوي مقام رفيع، فلا يُؤذَن لهم في عقد أواصر حميمية مع إله حبّ الثالوث الروماني. وعليه، فقد أُزيح إله الحبّ، آمور، عن عرشه صراحة. بيد أن الشعر لا غنى له عن الحبّ، من هنا لم يجد هؤلاء الشعراء بُدّاً من التماس الأشواق الأفلاطونية، ما وراء الأرضية، كما اقتفوا آثار أسلافهم العظماء، دانتي وبيترارك، فانغمسوا في ضروب المسرّات المجازية، وهذا بالذات ما يسبغ على قريضهم طابع الاحتشام المتميّز.

لمّا وصلتُ روما، كان عمر الجمعية في الوجود قد بلغ قرناً بالتمام. لقد دأبتُ، غالباً، على تغيير أماكن اللقاء والمُثُل العليا الفنية، لكنها ما تزال تحتفظ بمظهرها البرّاني بتوقير كبير، بل بهيبة مماثلة. ولم يبقَ من المقيمين الأجانب البارزين في روما سوى قلّة ممّن لم تسع الجمعية إلى

التزلف لهم؛ لكي ينتموا إليها؛ مَردّ ذلك أن تبرّعات هؤلاء هي المصدر الوحيد لتوفير دخل متواضع للقيّم على حقول الشعر هذه.

إن الصفة التي قُبلت بها عضواً جرت على النحو التالي: جرى تقديمي إلى رجل كَهَنُوت بارز في ردهة صغيرة، تقع في بناية راقية، وكان على هذا أن يقوم مقام الراعي لي، فيزكّيني للجمعية. دخلنا إلى قاعة كبيرة، كانت مزدحمة نوعاً ما، واتّخذنا مقاعدنا في وسط الصفّ الأمامي، قبالة منضدة عالية. توافد المشاهدون تباعاً. جلس رجل مُسنّ مهيب، في المقعد الشاغر عن يميني، ولابد أنه كان كاردينالاً، إذا حكمنا على مكانته من أرديته والتوقير الذي لقيه.

بدأ القيّم على الجمعية الحديث من المنضدة الأمامية بقول بضعة ملاحظات تمهيدية، عامة، ثمّ نادى على عدّة أشخاص بالاسم، فألقوا ما عندهم شعراً أو نثراً. بعد انتهاء هذه القراءات التي استغرقت وقتاً طويلاً، ألقى القيّم خطبة، سأحذفها من هذا السياق نظراً لأنها تتطابق حرفياً على وجه التقريب مع نص شهادة الدبلوم التي مُنحت لي، والتي أوردها أدناه. ولمّا فرغ القيّم من الخطبة، أعلن رسمياً قبولي عضواً في الجمعية، فصفّق الجميع بحرارة، وقد نهضنا أنا والراعي الذي زكّاني؛ لنردّ على التصفيق بانحناءات التقدير للجمهور. بعد ذلك ألقى الراعي المزكيّ خطبة حسنة هو الآخر، وأخذتُ الكلام؛ لأشكر شتّى أعضاء الجمعية فرادى، وأقول بضع كلمات مهذّبة. كما أني بذلتُ قصارى جهدي؛ لكي أجعل القيّم يشعر بأكبر الرضى عن الراعي الجديد الذي دخل في صفوف رعيته.

إن شهادة الدبلوم التي تلقّيتُها في اليوم التالي مُدرجة هنا في النصّ الإيطالي الأصلي. ولم أترجمها مخافة أن تفقد رونقها المتميّز في أية لغة أخرى.

شهادة الدبلوم

نيفيلدو آما رينزو، الأمين العام للأكاديمية الأركادية

"من بين الموجودين للمغامرة والاستمتاع على شاطئ نهر التيبر ثمّة واحد من عباقرة الطراز الأول الذين يزهرون في ألمانيا هذه الأيام، هو السيد غوته، صاحب المعرفة الواسعة والمستشار الحالي لفخامة دوق فايمار السكسونية. السيد غوته الذي أخفى عنا بتواضع فلسفي أصله النبيل ومسؤولياته الرفيعة وفضائله، لكنْ؛ من دون أن يستطيع حجب الضوء المنبعث من نتاجه الراقي نثراً أو شعراً، والذي منحه شهرة، طغت على العالم الأدبي أجمع، وافق بسرور على المشاركة في اجتماعنا. وما إن أطلّ علينا مثلما يبزغ نجم جديد في سماء غريبة عن غابتنا، حتّى قُوبل بحفاوة وترحيب من جانب الأعضاء في الأكاديمية الأركادية، المَدعوّين بأغلبهم إلى الاجتماع، وذلك تقديراً له ككاتب للكثير من الأعمال ذائعة الصيت. العباقرة الأعضاء في الأكاديمية الأركادية عبّروا بطريقة غير شكلية عن رغبتهم في ضمّ السيد غوته كعضو شرف في الأكاديمية، ومنحه لقب ميجاليو (أي: الأكبر Megalio) وكذلك منحه ملكية كامبانيا ميلبو مينيه.

وفي الوقت نفسه، أمر أعضاء الأكاديمية الأمين العام بتسجيل القرار السامي بحقّ هذا الراعي الجديد اللامع، لتقديم شهادة له بأعلى تقدير، وهو القرار الذي سيبقى في الذاكرة الخالدة لهذه الأكاديمية.

مُنحت هذه الشهادة في منتجع/ كوخ سرباتويو، في غابة براسيون عام ١٧٨٨، المصادف للعام الثاني لإعادة تأسيس الأكاديمية الأولمبية، ٢٤، العام الرابع. وقُدّمت في يوم الاحتفال."(*)

الأمين العام	مساعدا الأمين العام
نيفيلدو آمارينزو	كوريمبو ميليكرونيو، وفلوريمنته أجيريو(*)

*) بالإيطالية في الأصل.

وذُيِّلت الشهادة بختم على شكل إكليل، نصف غار، ونصفه بلوط، ويتوسّط الإكليل مصفار، وهو مُذيّل بعبارة: باسم الفنون الأركادية (Gli Arcadi).

الكرنفال في روما

أعرف أن عزمي على كتابة وصف للكرنفال في روما، سيثير بوجهي الاعتراض القائل بتعذّر وصف احتفال من هذا النوع، وإن هذا الحشد الهائج من الناس والأشياء والحركات يدخل في وجدان كل مشاهد كل حسب طريقته الخاصة. لا يخلو هذا الاعتراض من وجاهة؛ لأن عليّ أن أعترف أن الانطباع الذي يخلّفه كرنفال روما على الأجنبي، الذي يراه أول مرّة، ليس بالانطباع الحسن تماماً: فلن يبهج هذا الكرنفال عينه، ولن يستجيب لعواطفه. ولا يتوفّر الطريق الطويل الضيّق، الذي يجري فيه الكرنفال، على نقطة، يطلّ منها المرء على كامل المشهد؛ ويصعب على المرء أن يميّز التفاصيل في المطحنة الدوّارة التي تقع في مدى رؤيته، فالصخب يصمّ الآذان، وخاتمة كل يوم مزعجة.

والحقّ أن كرنفال روما ليس حفلاً يُقام لأجل الناس، بل نشاط يقوم به الناس لأجل أنفسهم. فالدولة لا تقوم بكثير استعدادات، كما لا تُسهم بشيء يُذكَر من المال. وإن دوّامة البشر تدور حول نفسها تلقائياً، ولا تتدخّل الشرطة لضبطها إلا في رفق ولين.

خلافاً للأعياد الدينية في روما، لا يمتّع الكرنفال العين بالألوان: فهو يخلو من الألعاب النارية، ويخلو من الإضاءة، ولا يحوي أية مواكب متلألئة. كل ما يحصل هو إطلاق إشارة معيّنة، يمكن بعدها، لأي كان، أن ينطلق في جنون وحمق قدر ما يشاء، ويفعل ما يحلو له تماماً، باستثناء التلاكم والطعان.

وتزول الفوارق بين مختلف الطبقات الاجتماعية خلال الكرنفال؛

ويتخاطب الجميع من غير كلفة، ويتقبّل أصحاب السريرة الطّيّبة كل ما يحصل لهم عن طيب خاطر، وإن روح الفكاهة التي تعمّ الكل تعوّض عمّا يشوب الاحتفال من غطرسة أو فجور.

ويحتفي ابن روما احتفاء كبيراً بهذا الكرنفال حتّى يومنا هذا، نظراً لأن عيد ميلاد المسيح لم يُفلح في الغاء كرنفال زحل (ساتورناليا. عيد القصف والعربدة) رغم أنه دفع عيد المباحات هذا عدّة أسابيع.

سأبذل قصارى جهدي لأن أضع صخب وهياج أيام الكرنفال أمام مخيّلة قرّائي الذين يعيشون في مواطن أخرى، أو أن أذكي وقدة ذكريات مَن سبق أن رأوا الكرنفال، أو أن أقدّم لمَن يعتزمون زيارة روما مدخلاً عاماً لتعريفهم بما يجري من لهو وقصف وسط الحشود الهائجة المائجة.

الكورسو

يحتشد كرنفال روما في الشارع الرئيس (الكورسو). ولابد لي من أن أبدأ بوصف الشارع، نظراً لأن طابع المهرجان سيتغيّر تماماً لو نُظّم في موضع آخر.

يستمدّ هذا الشارع اسمه، شأن غالبية الشوارع الطويلة في مُدُن إيطاليا، من سباقات الخيل التي يتكلّل بها كل مساء من أيام الكرنفال. وإن السباقات المماثلة تتكلّل، في المُدُن الأخرى في عيد القدّيس الراعي، أو أيام الابتهالات في الكنيسة.

يمتدّ الكورسو في خط مستقيم من ساحة بياتزا ديل بوبولو، إلى ساحة بياتزا فينيتزيا. ويبلغ طول الشارع نحو ٣٥٠٠ خطوة تقريباً، تحفّه مبانٍ عالية، وفخمة، بمعظمها. وإن عرض الشارع لا يتناسب مع طوله، ولا مع ارتفاع الأبنية. ويمتدّ كل رصيف بعرض ستة إلى ثمانية أقدام من كل جانب، ممّا

يترك فسحة للشارع لا تزيد، في معظم المواضع، عن اثنتي عشرة إلى أربع عشرة خطوة، وهذا لا يسع إلا بالكاد أكثر من ثلاث عربات، تسير بشكل متواز.

تحدّ مسلّة ساحة بياتزا ديل بوبولو، الشارع من طرفه الأدنى، ويحدّه من طرفه الأعلى قصر فينيتزيا.

قيادة العربة في الكورسو

الواقع ليس ثمّة ما هو جديد أو فريد في الكرنفال. فهو يرتبط ارتباطاً طبيعياً بطريقة الحياة في روما، ولا يزيد في الحقيقة عن استمرار، أو بالأحرى ذروة ختامية، لنزهات المتعة بالعربات، التي تجري كل يوم أحد، أو في أي عيد ديني.

إن شارع الكورسو يضجّ بالحياة في مثل هذه الأيام، على مدار السنة. ويرى المرء قبل ساعة أو ساعة ونصف من مغيب الشمس، عربات الأعيان والموسرين تنطلق في هذا الشارع في خط واحد متّصل، على مدى ساعة أو أكثر. تنطلق العربات من قصر فينيتزيا، وتلتزم الجهة اليسرى من الشارع، وتعبر المسلّة، وتخرج من البوّابة، أيام الطقس الحسن؛ لتمر بشارع فيا فلامينا، بل تصل - أحياناً - إلى بونتي مولّه.

وتلتزم العربات الراجعة جهة اليسار، حتّى لا ينقطع المرور في الشارع في الاتجاهين. ويحقّ للسفراء المرور بعرباتهم في وسط الشارع بين صفّي العربات، في أي اتجاه يحلو لهم. ومُنح هذا الامتياز للمدّعي الشابّ بالعرش، الذي يقيم في روما باسم: دوق الباني.

ولكنْ؛ ما إن تُقرع أجراس المساء حتّى يختفي أي أثر للنظام في المرور. فكل سائق عربة يتطلّع إلى التماس أسرع طريق للعودة إلى البيت، فيستدير حيث يشاء، ساداً الطريق على العربات الأخرى التي تظلّ معطّلة.

إن الجولة المسائية للعربات مشهد بديع في سائر المُدُن الإيطالية الكبرى، وإن كل مدينة صغيرة تتوفّر على عربات تحاول أن تحاكي هذا المثال. وتجتذب جولة العربات في المساء الكثير من المارّة الماشين إلى شارع الكورسو؛ ويحتشد الكل إمّا لكي يرى، أو لكي يتيح للغير أن يراه.

المناخ والرداء الكَهَنُوتي

ليس ثمّة غرابة أبداً في أن يرى المرء أشخاصاً يتبخترون في الشوارع تحت السماء الصافية، وهم يرتدون ملابس مبهرجة، أو أقنعة. وما من جثّة يُؤتى بها إلى القبر من دون مصاحبة رجال من أخويات دينية، يعتمرون القلنسوات. أما الرهبان الذي يرتدون شتّى طرز اللباس؛ فيعوّدون العين على منظر شخوص غريبة. ويبدو الأمر كما لو أن ثمّة كرنفال على مدار السنة، وإن الرداء الأسود للقسس، يبدو هو الموضة الملازمة لنوع أرقى من الملابس التنكّرية، هو العباءة (تاباروس).

مفتتح الكرنفال

ثمّة استعدادات شتّى تُنبئ الجمهور أن الساعات الهانئة وشيكة.

ابتداء يجري كَنْس وتنظيف شارع الكورسو بعناية فائقة، رغم أنه من شوارع روما القليلة النظيفة على مدار السنة. إن هذا الشارع مبلّط تبليطاً جميلاً، بقطع صغيرة على شكل مربّعات متناظرة من حجر البازلت؛ وحين تهترئ البلاطات من وقع المرور تُزاح، وتُستبدل بها بلاطات جديدة.

هنا تبدأ البشائر الحيّة للحَدَث المقبل بالظهور. ومثلما قلتُ سابقاً، تنتهي كل أمسية من الكرنفال بسباق خيل. إن الجياد المدرّبة خصيصاً لهذا الغرض صغيرة الحجم بمعظمها، وتُدعى بربرية؛ لأن أفضلها من أرومة أجنبية.

ويُكسى كل جواد بغطاء أبيض، تزدان حوافّه بأشرطة برّاقة الألوان في

مواضع الدرز، وهو لصيق تماماً برأس الجواد ورقبته وجذعه. وتُقاد الجياد إلى المسلّة؛ حيث نقطة الانطلاق. وتستدير الجياد؛ لتقف قبالة الكورسو، وقد دُرِّبت؛ لتقف هناك فترة طويلة، من دون أن تتحرّك. بعد ذلك، تُقاد الجياد ببطء شديد على طول الشارع إلى ساحة بياتزا فينيتزيا؛ لتَعلف شيئاً من الشوفان، حتّى تجد في ذلك حافزاً للعدو بسرعة إلى الهدف لحظة بدء السباق.

وغالباً ما يجري هذا المران على نحو خمسة عشر أو عشرين جواداً دفعة واحدة، ويصحب هذه النزهة، عادة، حشد من الأولاد الصاخبين المرحين.

وكانت الأسر الكريمة في روما تحتفظ، في الأيام الخوالي، باصطبلات سباق خيل، وترى في فوز أحد جيادها بالجائزة الأولى شرفاً عظيماً. وهناك بالطبع مراهنات على الجياد، ومأدبة عظيمة على شرف الفائز. غير أن سباق الخيل فَقَدَ مكانته عند النبلاء مؤخّراً، وانتقلت عدواه إلى الطبقات الوسطى، بل حتّى الدنيا من السكان.

وما تزال العادة جارية إلى الآن، ولعلّها ترجع إلى عهد قديم، أن يظهر جحفل من الفرسان، مصحوباً بنافخي الأبواق؛ ليجوب شوارع روما، عارضاً الجوائز، داخلاً قصور النبلاء؛ ليضجّ بنفخ الأبواق حتّى يتلقّى الإكرامية نقداً.

والجائزة ذاتها هي قطعة قماش ذهبي أو فضي، بطول ثلاث ياردات ونصف الياردة، وعرض ياردة واحدة، تحمل صورة جواد يعدو، وقد حيكت أسفل القطر المائل للقماشة، ورُفعت على سارية ملوّنة مثل راية، ويسمّونها باليو palio؛ أي بيرق النصر.

في غضون ذلك، يكتسي شارع الكورسو مظهراً جديداً، بوضع منصّة ذات طبقات عدّة عند المسلّة؛ لتطلّ مباشرة على الشارع. وتُوضَع أمام

هذه المنصّة عوارض انطلاق الجياد. ويمدّد المحتفون الشارع؛ ليوصلوه بالساحة، برصف منصّات لصق منازله الأولى. وتوجد على جانبي عوارض انطلاق الجياد صناديق صغيرة مغطّاة، يتّخذها المتنافسون مرتكزاً للركوب. وتتكاثر المنصّات على طول شارع الكورسو، وتفصل ساحة سان كارلو وساحة كولونا بعوارض حديدية. أخيراً تراهم ينثرون تراب الصخور (بوزولانا) على أرض الشارع لمنع انزلاق الجياد على البلاط الأملس.

إشارة البدء بالتصرّف غير المقيّد

يُقرع جرس الكابيتول بعيد الظهر، وعندئذ تجد أن أي رجل عاقل من روما، أي رجل حرص حرصاً بالغاً على اللياقة، ينضو عنه كل احتشام وتهذيب، ويرميهما في مهبّ الريح.

أما العمّال الذين دأبوا، حتّى الدقيقة الأخيرة، على رصف بلاطات الشارع بالمدك؛ فتجدهم يكفّون، لحظتئذ، عن العمل، ويجمعون عدّة الشغل، ويبدؤون بإطلاق النكات. وتنفتح النوافذ؛ لتظهرالسجاجيد، وتتدلّى الواحدة تلو الأخرى؛ وتزدان المنصّات بشراشف قديمة مطرّزة. وتُرصف الكراسي على طول الأرصفة، ويتدفّق العوامّ والأطفال؛ ليملؤوا الشارع، الذي يكفّ عن كونه شارعاً، ويتجلبب بمظهر أقرب إلى معرض هائل حافل بالزينة. ويضفي ظهور الكراسي على المشهد طابع حجرة، أما السماء الرائقة؛ فتدفع المرء إلى نسيان أن هذه الحجرة لا سقف لها. وحين يغادر المرء بيته، وينزل إلى الكرنفال، يشعر وكأنه يدخل صالوناً مليئاً بالأصحاب.

الحَرَس

يزداد شارع الكورسو حيوية ومرحاً لحظة بعد أخرى، ويظهر، بين الفينة والفينة مهرج (بولسينيلا) وسط حشد الناس اللابسين ملابس اعتيادية.

وتتجمّع ثلّة من الجنود قبالة بورتا ديل بوبولو، وهم يرتدون بزّات جديدة زاهية. وتمضي الثلّة في خطو عسكري بإيعاز من آمرهم الممتطي صهوة جياد، على طول شارع الكورسو، وتتوزّع على مفارق الطريق والساحات الرئيسة. ومهمّة هذه الثلّة من الجنود هي الحفاظ على الأمن والنظام خلال الاحتفالات كلها. أما مؤجّرو الكراسي والمقاعد على المنصّات؛ فيبدؤون المناداة على بضاعتهم، مزعجين المارّة بالصراخ: "أماكن! أماكن، يا سادة! أماكن!" (بالإيطالية).

أقنعة وملابس تنكّرية

يبدأ عدد اللابسين ملابس تنكّرية في الازدياد. شباب متنكّرون في ثياب نساء من الطبقة الدنيا، وغالباً ما يبدأ ذلك بفساتين تكشف عن الكتفين وجزء من الصدر. وتراهم يعانقون النساء، ويتصرّفون بحميمية طليقة مع النساء، باعتبار أنهم من جنس واحد، ويمارسون أي سلوك يخطر على بالهم، ممّا يوحي به الخيال أو الفطنة أو الوقاحة.

ثمّة شاب من هؤلاء رسخت صورته في ذهني. فقد لعب دور المرأة العاشقة المشاكسة، ببراعة تامّة. طافت هذه "المرأة" في طول شارع الكورسو وعرضه، متشاجرة مع الجميع، وموجّهة إليهم الشتائم المقذعة، في حين أن صاحباتها تظاهرنَ ببذل قصارى الجهد لتهدئة سورتها.

وهنا يأتي مهرّج مهرولاً، وهو يحمل قرناً كبيراً، يتدلّى من سلاسل معدنية ملوّنة حول وسطه. وبينما هو يتحدّث مع النساء، يتدبّر، ببعض الحركات الوقحة، تقليد صورة إله الجنائن القديم. وهذا في روما المقدّسة! .لكن هذا اللعب الطائش يثير السرور، لا الغيظ. وهنا يأتي مهرّج آخر من النوع ذاته، إلا أنه أكثر تواضعاً، مصحوباً بنصفه الجميل.

ولمّا كانت النساء تجد في ارتداء ثياب الرجال متعة، لا تقل عن متعة الرجال في ارتداء فساتين النساء، فإن كثرة منهنّ يظهرنَ الآن وهنّ يرتدينَ الزي الشائع للمهرّج، ولابد لي من الإقرار أنهن يتدبّرنَ في الظهور بمظهر فاتن في هذا الزيّ التنكّري الملتبس.

ويظهر الآن محام يشقّ طريقه وسط الحشود بسرعة، دافعاً الناس بمرفقيه؛ ليلقي خطبة مدوّية، كما لو كان يلقي مرافعة في سوح القضاء. إنه يزعق بملء الفم على النوافذ العليا، ويمسك بتلابيب المارّة، سواء كانوا في ملابس تنكّرية أم اعتيادية، مهدّداً بمقاضاة كل واحد فيهم. وتراه يتلو على أحدهم قائمة طويلة سخيفة، بالجرائم التي يُفترض أنه ارتكبها، ويتلو على آخر سجلاً دقيقاً بديونه. ويتّهم النساء بأن لديهنّ فرساناً مرافقين (cocisb) والفتيات بأن لهنّ عشاقاً. وتراه يراجع كتاباً يحمله، ويُخرج وثائق شتّى. كل ذلك في زعيق متواصل. ويحاول إغاظة الكل وإحراجهم. وحين تظنّ أنه سيتوقّف، فإنه يواصل الزعيق في غلوّ؛ وحين تظنّ أنه ذاهب، تراه عائداً؛ وهو يمشي في استقامة مباشرة إلى شخص ما، فتظنّ أنه سيتلقّف هذا الشخص، لكنه يتجاوزه؛ ليُمسك بتلابيب آخر، جاء لتوّه؛ أما إذا صادف زميلاً مماثلاً في المهنة، فإن جنونه يستعر إلى أقصى درجة.

أما مرتدو لباس الكواتشيري (الكويكرز أو الصاحبي)، فمنبع إثارة كبيرة أخرى، رغم أنهم لا يقلّون صياحاً عن المتنكّرين في زي المحامين. ويبدو أن لباس الكويكرز شاع وانتشر، بسبب سهولة العثور على الأردية القديمة في محلات الملابس المستعملة. وإن الشرط الوحيد للصاحبيّ المتنكّر هنا هو الرداء، فهو وإن كان قديم الطراز، إلا أنه معمول من قماش متين، وما يزال في حال حَسَن. ويرتدي معظم هؤلاء صدّاريات فضية، أو بنفسجية مقصّبة، أو مطرّزة بخيوط ذهبية؛ علاوة على ذلك، يتوجّب على الصاحبيّ المتنكّر

أن يكون بديناً. والأقنعة كاملة، ذوات خدود منتفخة وعيون صغيرة؛ أما الشعر المستعار؛ فينتهي بذيل خنزير صغير غريب الشكل، أما القبّعات؛ فصغيرة، تزدان حوافّها بشريط مجدول.

ويلاحظ المرء أن هذا الشخص التنكّري قريب الشبه بشخصية الكوميدي المغالي (بالإيطالية) الذي يظهر في الأوبرات الهزلية الإيطالية، وإن الصاجّي المتنكّر يقوم - عادة - بدور الرجل الأحمق السخيف المتولّه المخون؛ لكن بعضهم يلعب أيضاً دور الغندور المتبختر. فتراهم يمشون على أطراف أصابعهم في خفّة ورشاقة، حاملين نواظير مسرح مزيّفة، على شكل حلقات سوداء كبيرة من دون عدسات، يتلصّصون من خلالها على العربات، أو يحدّقون بواسطتها إلى النوافذ. وتراهم ينحنون انحناءات قصيرة متصلبّة، معبّرين عن حبورهم، خصوصاً عندما يتلاقون فيما بينهم، بالقفز عمودياً في الهواء عدّة مرّات، مع إطلاق صيحات ثاقبة، لا معنى لها، مشفوعة بنوع من البربرة، كما في تكرار الحرفين برررر.

وغالباً ما تكون هذه البربرة نوعاً من إشارة، يتلقّفها الأقرب إليهم، وينقلها الذي يليه، فالذي يليه، حتّى يمضي هذا الزعيق المبربر من أول شارع الكورسو حتّى آخره خلال دقائق معدودات.

في غضون ذلك، ينفخ الصبيان الأشقياء في قوقعات حلزونية كبيرة، تبعث أصواتاً مدوّية، تصمّ الآذان، وتخرقها.

ويبلغ الزحام مَبلغاً من الشدّة، مثلما تبلغ الأزياء التنكّرية مَبلغاً من التشابه (هناك في الأقلّ بضع مئات من المتنكّرين في هيئة مهرّج بدين، ونحو مائة متنكّرين في إهاب الصاحبيين ممّن يقطعون الكورسو جيئة وذهاباً)؛ بحيث إن المتقنّعين بالأقنعة يستطيعون المجيء، بهدف خَلْق نوع من الإثارة، أو جَذْب الانتباه إلى أنفسهم، اللهم إلا إذا بكّروا في المجيء.

والكل يخرج، ببساطة؛ ليُسلّي نفسه، وينغمس في الملذّات العابرة، ويغرف من الحُرّيّة التي تمنحها هذه الأيام قدر ما يستطيع.

وإن الفتيات والمتزوّجات، بخاصة، يحاولنَ ويتدبّرنَ إصابة شيء من المتعة على طريقتهنّ. فهنّ يرغبنَ جميعاً في مغادرة بيوتهنّ، والتنكّر بأية طريقة، يقدرنَ عليها. ولمّا كانت الموسرات منهنّ القادرات على إنفاق الكثير من النقود قليلات جداً، فإن النساء بعامة يُبدينَ براعة كبيرة في ابتكار كل أصناف التنكّر، رغم أن ذلك يخفي مفاتنهنّ بدل أن يكشفها.

إن أقنعة الشحّاذين والشحّاذات سهلة الصنع. فكل ما يلزم هنا هو شعر جميل، وقناع أبيض، يغطّي كامل الوجه، وإناء فخّاري محمول بشريط ملوّن، وعصا، وقبّعة تُحمل باليد. وتقف الشحّاذة في انكسار تحت نافذة، أو إزاء شخص ما، لأجل أنْ تتلقّى الحلويات، أو الفستق، أو أية نواعم لذيذة المذاق بدل النقود.

وهناك أخريات لا يتجشّمنَ كثير عناء، فيتلفّعنَ بالفراء، أو يرتدينَ فستاناً منزلياً حلواً، على أن يضاف إلى ذلك قناع، يستر الوجه. وإن معظمهنّ يخرجنَ من دون رفقة ذكَر، لكنهنّ يحملنَ مكنسة صغيرة معمولة من أعواد القصب، لأغراض الدفاع والاعتداء، فبها يطردنَ كل مَن يدفعه الصَّلَف إلى تجاوز الحدود، أو بها يداعبنَ وجوه الغرباء والمعارف، ممّن لا يضعون قناعاً. وإن مَن تختاره أربع أو خمس فتيات هدفاً لهنّ، لا أمل له في النجاة. فشدّة الزحام تمنع المرء من الفرار، وأينما تولّى المرء، شعر بالمكنسة الصغيرة تحت أنفه. وإن الدفاع الفعّال عن النفس من غائلة هذا النوع من المنغّصات أمر خطير للغاية؛ لأن كل شخص مقنّع يُعدّ مصوناً، لا يجوز المساس به، وهناك أوامر قاطعة للحَرَس بأن يحموا المقنّعات والمقنّعين.

وإن ملابس العمل الخاصة بكل الطبقات تصلح - هي الأخرى - رداء

تنكّرياً. فهناك أشخاص يظهرون في رداء صبي اصطبل حاملين فرشاً كبيرة، يحكّون بها ظهر كل مَن يشاؤون. وهناك مَن يظهرون في رداء حوذيّ؛ ليعرضوا خدماتهم بالصَّلَف المعتاد. وهناك مَن يرتدينَ فساتين حلوة؛ ليظهرن في صورة فتيات فلاحات، أو نساء من فراسكاتي، أو صيّادي سمك، أو نوتيين، أو درك (sbirri)، أو في إهاب إغريق. غير أن العباءة التابارو تُعدّ أكثر الأزياء التنكّرية فخامة؛ لأنها الأقلّ مجافاة للذوق السليم. وهناك - أحياناً - نسخ تحاكي أزياء مسرحية. ولا يفعل آخرون أكثر من لفّ نفسه بشراشف بيضاء، تُعقد فوق رأسه؛ لينط بغتة في طريقكَ، بأمل أن تتوهّمه شبحاً.

غير أن الأقنعة الهجائية الساخرة المرحة نادرة جداً، بسبب من معناها الخاص، علماً أن الذين يضعونها يرغبون في جَذْب الأنظار إليهم. لكن مهرّجاً يقوم بدور الديّوث: القرنان على رأسه متحرّكان، يستطيع أن يجعلهما ينتصبان أم ينكمشان ويختفيان مثل الحلزون. وتراه يقف تحت نافذة عروسين جديدين، فيبرز ذؤابة قرن واحد، ويقف تحت نافذة أخرى، فيطلق القرنين؛ كي ينتصبا بكاملهما. ويحمل كل قرن في ذؤابته أجراساً صغيرة، تُقرع في نغم جميل، كلّما فعل ذلك. وكان الحشد يلاحظ حركاته بين الفينة والفينة، هنيهة واحدة، فتنطلق موجة من الضحك المجلجل.

وهناك ساحر يختلط بالحشود، ويعرض كتاباً في الأرقام؛ ليذكّر الناس بحبّها لليانصيب.

هناك شخص يرتدي قناعاً بوجهين، علق في الزحام، فلا أحد يعرف أين قفاه، وأين وجهه! أو هل هو رائح أم غاد!

وبالطبع يُفترَض بالأجانب أن يوطّنوا أنفسهم على تقبّل السخرية منهم.

إن أهالي روما يظنّون أهل الشمال متنكّرين بسبب قبّعاتهم الغريبة المدوّرة، وبسبب معاطفهم الطويلة ذات الذيل المزدوج والأزرار الكبيرة. وإن الرسّامين الأجانب الذين يجلسون أمام الناس لرسم المناظر الطبيعية والعمارات، ويعدّون من المناظر المألوفة في روما، غالباً ما يواجهون كاريكاتيرات تنكّرية تشبههم، تطوف في الكرنفال على هيئة أشخاص، يرتدون معاطف طويلة ذات ذيل مزدوج، ويحملون حقائب أوراق رسم ضخمة، وأقلام رسم عملاقة.

ومن المعروف عن شغّيلة الخبازة الألمان في روما مَيلهم الشديد إلى السُّكْر، لذا؛ تجد في الكرنفال أشخاصاً يرتدون ملابس هؤلاء الخبّازين، كما هي أو بإضافة شيء من الزينة البسيطة، مترنّحين وسط الحشد، وهم يحملون قوارير الخمر. وأتذكّر أني رأيتُ قناعاً واحداً خليعاً.

تبلور قبل فترة اقتراح بنصب مسلّة قبالة كنيسة ترينيتا دي مونتي، عارضه الجمهور نظراً لأن الساحة صغيرة جداً، في حين أن نصب المسلّة الصغيرة على ارتفاع مناسب، يتطلّب إرساء قاعدة عالية جداً. ويبدو أن هذا الموضوع أوقد في ذهن أحدهم فكرة ارتداء قلنسوة على شكل قاعدة بيضاء ضخمة، تعلوها مسلّة صغيرة حمراء اللون. وتحمل المنصّة عبارة، كُتبت بأحرف كبيرة، إلا أن قلّة من الناس، على الأرجح، خمّنت معنى هذه العبارة.

العربات

كانت الأرصفة بكاملها مشغولة بالمنصّات أو الكراسي المشغولة أصلاً بالمتفرّجين. أما العربات؛ فكانت تمضي أعلى الطريق على هذا الجانب، أو تنزل أسفله على الجانب الآخر؛ بحيث لم يبقَ مجال للمَشاة غير الفسحة الباقية بين مساري العربات، وهي لا تزيد عن ثمانية أقدام. ويتدافع الحشد تدافعاً على أكبر ما يستطيع، في حين أن حشداً آخر، لا يقلّ زحاماً، ينظر من النوافذ والشرفات، على الحشود المتراصّة في الأسفل.

إن العربات التي يراها المرء في الأيام الأولى هي عربات عادية؛ لأن مالكي العربات الأنيقة الفخمة يحفظون عرباتهم لعرضها في الأيام التالية. أما الآن؛ فإن العربات المكشوفة أخذت تظهر، وهناك عربة آوت ستة أشخاص: سيدتان تقفان قبالة بعضهما على مقعدين عاليين؛ بحيث يمكن للمرء أن يرى قوام المرأتين كاملاً، أما السادة الأربع؛ فيجلسون على مقاعد في الزاوية. وإن سائسي العربات وخَدَمها يرتدون الأقنعة، كما أن الجياد مزيّنة بالورود والأنسجة. وغالباً ما يرى المرء كلباً جميلاً أبيض من النوع الصغير ذي الشعر الجعد مزيّناً بأشرطة وردية اللون، وهو قابع بين قَدَمي الحوذي، بينما تصدح الأجراس المربوطة إلى أحزمة شكائم الجياد مجتذبة انتباهاً عابراً من الجمهور.

وكما هو متوقّع، فالنساء الجميلات وحدهنّ يملكنَ الشجاعة لكشف أنفسهنّ بجلاء أمام أنظار السكان كلهم، وإن الفاتنة منهنّ هي وحدها التي تملك الجرأة على الظهور من غير قناع. وإن عربتها تسير في بطء شديد، وتشخص كل الأبصار إليها، فتنعم الفاتنة بحلاوة سماع عبارات الاستحسان من كل صوب: "ألا ما أجملها!" (بالإيطالية).

ويبدو أن عربات المهرجان هذه كانت فيما مضى أكثر عدداً، وأكبر تكلفة، وأشدّ إثارة؛ لأنها كانت تمثّل مواضيع مستقاة من الأساطير ورموز القصص. ولكنْ؛ يبدو أن الأعيان المبرزين باتوا يفضّلون، منذ فترة قريبة، لهذا السبب أو ذاك، تذويب أنفسهم في الحشد خلال هذا الاحتفال، على أن يتميّزوا عن الآخرين.

وكلّما مضت أيام الكرنفال، زادت حلاوة العربات. فترى أن أكثر الناس رزانة، ممّن يجلسون في عرباتهم من دون قناع، يأذنون لحوذييهم، أو خَدَمهم، أن يرتدوا ملابس تنكّرية. ويختار جلّ الحوذيين التنكّر في رداء امرأة، حتّى

تؤول مهمّة سوس الجياد، في الأيام الأخيرة، إلى النساء وحدهنّ. غير أن أزياءهم، في الغالب، مناسبة تماماً، بل مغرية أيضاً. ويأتي، بين الحين والآخر، شخص قصير ثخين، وقبيح، يرتدي آخر تقليعة من الأزياء، ويصفّف شعره المنفوش عالياً، ويزيّنه بالريش، فيبدو مثل كاريكاتير أخرق. ومثلما تشنّف المرأة الفاتنة سمعها بالثناء، يتوجّب على القبيح المتأنّق أن يحتمل الوجوه الساخرة التي تدنو منه، وتزعق:

"آه، يا أخي، يا صورة قبيحة لوجه قحبة!" (بالإيطالية).

وحين يشاهد أحد الحوذيين نساء يعرفهنّ في الحشد، فمن جري العادة أن يرفعهنّ، ويجلسهنّ إلى جانبه على دكّة القيادة. وترتدي هاته النساء في العادة ملابس الرجال، فيجلسنَ إلى جانبه، ويؤرجحنَ أقدامهن الصغيرة بكعوبها العالية فوق رؤوس المارّة. وهنا يحذو خَدَم العربات حذو السائس، فيرفعون أصدقاءهم نساء ورجالاً إلى ظهر العربة. وما إن يزداد العدد حتّى يصعد بعضهم إلى سقف العربة، مثلما يفعل الناس في مراكب الجياد العمومية الإنجليزية. مع ذلك، فإن السادة يفرحون لرؤية عرباتهم محمّلة بهذا القدر من الناس؛ فكل شيء مباح ومقبول في هذه الأيام.

الجمهور الحاشد

أشرتُ سابقاً إلى أن خطّين من العربات يمضيان من الشارع رواحاً ومجيئاً، وإن الفسحة بين الخطّين معبّأة إلى أقصاها بالمشاة الذين لا يسيرون، بل يشقّون طريقهم عنوة. وتحافظ العربات، قدر المستطاع، على مسافة معقولة بين الواحدة والأخرى لتفادي الاصطدام، كلّما توقف الخط الزاحف وئيداً. وينزع المارّة أحياناً إلى الخروج من الزحام وتنشّق نَفَس من الهواء الطلق، فيُغامرون بالسير بين عجلات عربة وجياد أخرى، خائضين المجازفة بجرأة، تشتدّ باشتداد الخطر المحدق.

ولمّا كانت الغالبية التي تلتزم وسطَ الطريق تحاول، من باب الحرص على حماية الأطراف والملابس من الوقوع فريسة عجلة، أن تترك فسحة بين الجمع وبين العربات أكثر ممّا هو ضروري، فإن أي عابر سبيل يتجرّأ على اغتنام هذه الفسحة سيغطّي مسافة معتبرة قبل أن تصدّه عقبة جديدة.

موكب الحاكم والسناتور

يبرز بين الفينة والفنية حَرَس بابوي على صهوات الجياد شاقّاً الحشد، لمعالجة اختناق في المرور، فيتوجّب على المرء، عندئذ، أن ينزاح عن طريق جواد عربة من العربات؛ ليشعر بأنفاس جواد فارس، تلامس رقبته. لكن الكرنفال يُخفي في طيّاته منغّصات أسوأ من هذه.

فالحاكم يأتي في عربة رسمية كبيرة، متبوعاً بحاشيته من العربات؛ ليمضي وسط شارع الكورسو مسبوقاً بثلّة جنود وحَرَس بابوي، يجلون المارّة عن الطريق في أثناء تقدّم الموكب.

وينشقّ الحشد مثل الأمواه في أثناء مرور السفينة للحظة واحدة، ومثلما تلتئم الأمواه عند الدفّة في المؤخّرة، يتجمّع الحشد ثانية في كتلة متراصّة خلف الموكب الرسمي.

وسرعان ما ينشقّ الحشد من جديد بفعل حركة هادرة أخرى: موكب السناتور هذه المرّة، فهو يتقدّم متبوعاً بحاشية مماثلة. تبدو العربات وكأنها تعوم فوق رؤوس الخَلْق الذين نَحّتْهم جانباً، ورغم أن السناتور الحالي، الأمير ريزونيكو، أسر أفئدة أهالي روما، وأغرابها، على حدّ سواء، فإن الكرنفال هو المناسبة الوحيدة التي يسعد فيها الجميع بأن يُوليهم ظهره، وينصرف.

وهناك اثنان، هما رئيس القضاء، ورئيس الدرك، يزوران الكورسو بالعربات في اليوم الأول من تدشين الكرنفال، بكل التوقير الرسمي. لكن

دوق الباني يمضي بعربته كل يوم في الكرنفال، مثيراً انزعاج الجمهور المتضايق من مرور العربات، وهو بذلك يذكّر روما، حاكمة الملوك في قديم الزمان، خلال أيام المسرحية الشاملة هذه، في كوميديا الكرنفال، بدعواه الملوكية كمُطالب بالعرش. وإن السفراء الذين يحظون بالامتياز ذاته، يقتصدون في استخدام هذا الحقّ، وإن استخدموه، فبكثير من الاحتراس والحنو الإنساني.

عالم الأزياء الحديثة
في قصر روسبولي

لا يختلف الشارع المجاور لقصر روسبولي في عرضه عن الشوارع الأخرى، لكن أرصفته أعلى من سواها. هنا يلتئم مجتمع المتأنّقين بأحدث الأزياء، وإن المنصّات والكراسي هنا إمّا مشغولة أو محجوزة. وتجد هنا أجمل نساء الطبقة الوسطى مرتديات أحلى الفساتين التنكّرية، ومحاطات بأصدقائهنّ؛ ليعرضنَ أنفسهنّ أمام عيون المارّة المدقّقين. وإن كل مَن يجد نفسه بالقرب من هذه الجماعة، سيطيل المكوث مدقّقاً النظر في الصفوف العليا والدنيا المبهجة؛ ويبدو على الناظر الفضول المدقّق المتطلّع إلى أن يلتقط بين حشد الذُّكُور الذين يبدون جالسين هناك السيّدات المتنكّرات، عسى أن يكتشف في هذا الضابط الجميل أو ذاك الأنثى المبتغاة.

وفي هذا الموضع بالذات، تهدأ حركة الجموع والمواكب، وتتوقّف؛ لأن العربات تطيل المكوث قدر ما تستطيع، فإن وجب على المرء أن يتوقّف، فإن عليه أن يفعل ذلك؛ حيث تكون الصحبة حلوة.

الحلوى

بين الحين والآخر، تقذف سيدة جميلة مقنّعة بعض الملبّس على

صديق مار؛ لتجذب انتباهه، وبالطبع، فإنه يلتفت تلقائياً؛ ليرى مَن أطلق هذه القذيفة. ولكن الملبّس المعمول من اللوز والسّكّر غالي الثمن، وعليه؛ لابد من إعداد بديل زهيد الثمن لخوض هذا النوع من الحروب الصغيرة، وهناك تجّار متخصّصون في صناعة السكاكر والحلوى البلاستيكية، يحملونها في سلال كبيرة، ويبيعونها إلى الجمهور. ولا يسلم أحد من إصابة، ويحرص الكل على اتخاذ تدابير الدفاع، فتنشب بين الحين والآخر منازلات ومناوشات أو معارك بالحلوى، إمّا بدافع النشوة والفرح، أو لدواعي الضرورة. وترى المارّة والحوذيين والمتفرّجين يتناوبون في الهجوم على الآخرين بالحلوى، أو الدفاع عن النفس.

هناك سيدات يحملنَ سلالاً مذهّبة أو مفضّضة ملأى بمثل هذه الحلوى، ويحرص المرافقون على حماية صاحباتهم الجميلات. ويُغلق الراكبون نوافذ عرباتهم تحسّباً لوقوع هجوم من هذا النوع، أو أنهم يتبادلون هذه اللطائف مع الأصدقاء، أو يذودون عن النفس بقوّة من هجمات الاغراب.

إن أكبر موضع لوقوع هذه المعارك التصويرية هو قصر روسبولي. فالمقنّعون يجلسون هناك حاملين السلال والحقائب والمناديل المعقودة من أطرافها الأربعة؛ ليأخذوا زمام المبادرة في قَذْف الغير بالحلوى: ما من عربة تمرّ من دون أن يتحرّش بها واحد منهم في الأقل، وما من عابر سبيل في مأمن، أما حين يأتي خوري (بالإيطالية) في ردائه الأسود ضمن دائرة الرمي؛ فإن القذائف تتساقط عليه من كل حدب وصوب، ولمّا كان الجبس والكلس يترك آثاره، فإن رداءه سرعان ما يتلطّخ ببقع رمادية وبيضاء. لكن هذه المعارك الفكاهية تتحوّل - أحياناً - إلى حرب حقيقية، ويذهل المرء لرؤية الضغائن والمحاسد الشخصية تنفث نارها جهاراً أمام الملأ.

فمثلاً إن فرداً مقنّعاً يتسلّل خلسة؛ ليقذف حفنة من الحلوى على وجه سيدة جالسة في الصفّ الأمامي، وتبلغ قوّة الرمي ونجاح التسديد مبلغاً يُقرقع معه قناع المرأة، وتُصاب رقبتها بجرح. هنا يحتدم المرافقان الجالسان على جانبي المرأة غيظاً، فيرميان المهاجم بكل ما تحويه حقائبهما وسلالهما؛ لكنه مدثّر ومدرّع بما يكفي لصدّ أذى القذائق المسدّدة إليه، فيزيد من ضراوة هجومه، بينما يسعى المدافعان عن السيدة إلى حمايتها بالمعاطف. وإذ يحمي وطيس المعركة، يصيب المعتدي عدداً من جيران المرأة بالأذى، فيدخل هؤلاء أوار المعركة. ويحمل بعض هؤلاء نوعاً ثقيلاً من الذخائر على سبيل الاحتياط، تبلغ القذيفة حجم اللوز الكبير المكْسُوّ بالسُّكّر الذي نسمّيه: الملبّس، وتنهال هذه القذائف من كل صوب، حتّى يضطر المعتدي إلى التراجع بعد نفاد مخزون ذخيرته.

وإن الشخص الذي يخوض غمار مثل هذه المغامرة يأتي - عادة - في صحبة حذين، يزوّده بالجديد من الذخائر، كما أن باعة الحلوى البلاستيكية يهرعون من ميدان معركة إلى آخر؛ لِيَزِنُوا للمتحاربين قدر ما يبتغون من أرطال. شاهدتُ نشوب حرب كهذه عن كَثَب. ولمّا نفدت ذخائر المتحاربين، راحوا يقذفون سلالهم المذهبّة على رؤوس بعضهم البعض، دون أن يعبؤوا بتحذيرات الحَرَس، الذين أُصيب بعضهم أصلاً.

لا ريب في أن بعض هذه المعارك يمكن أن ينتهي باستلال السكاكين، لولا أن الشرطة الإيطالية ترفع أداة التعذيب الشهيرة المعروفة للجميع: الكرباج (بالإيطالية)، في كل زوايا الكرنفال، تذكرة للجميع، وهم منغمسون في العربدة والقصف، إن الخطر سيحيق بمَن يلجأ إلى سلاح خطير في هذه الآونة.

ها هي ذي عربة مكشوفة محمّلة بالمهرّجين تتّجه إلى قصر روسبولي،

لرشق المتفرّجين، الواحد تلو الآخر، في أثناء سيرها؛ لكن كثافة الحشد تسدّ منافذ السير على العربة، وتُوقفها. ويلتفّ المتفرّجون، بإرادة واحدة، لردّ الصاع صاعين، فينهمر سيل من القذائف على العربة. ولمّا نفدت ذخائر المهرجين، وقعوا فريسة القذائف المتساقطة من كل صوب، وبقوا على هذا الحال حتّى بدت العربة، وكأنها مَكْسُوّة بالثلج والحجارة. وتمضي العربة في بطء وسط الصرخات والقهقهات وصيحات الاستهجان.

في غضون ذلك ثمّة حشد آخر من الجمهور يمارس نوعاً آخر من التسلية عند الطرف العلوي من الكورسو. فها هنا، على مقربة من الأكاديمية الفرنسية، يتقدّم ما يسمّى عميد (كابيتانو) المسرح الإيطالي في ثوب إسباني، وقبّعة ذات ريش وقفّازات كبيرة، خارجاً من وسط حشد من المقنّعين الواقفين على منصّة؛ ليبدأ بسرد حكاية ما اجترحه من أعمال عظيمة في البرّ والبحر، وذلك بنبرة جهيرة. وسرعان ما يتّحداه مهرّج، متظاهراً بادئ الأمر بتصديق ما قيل عن طيب خاطر، ثمّ يأخذ في إثارة الشكوك لنقض الادّعاءات في حكاية البطل، ساخراً من تباهي هذا الأخير بتوريات وإشارات متهكّمة. وهنا أيضاً يتوقّف المارّة للإصغاء إلى هذه المحاورة الشيّقة.

ملك المهرّجين

غالباً ما يأتي موكب جديد؛ ليزيد في حدّة ازدحام الحشود. فمثلاً إن نحو دزينة من المهرّجين تلتئم لانتخاب مليك لها، فتتوجّه، وتضع بيده الصولجان، وتُجلسه على كرسي في عربة مَكْسُوّة بالزينة، وترافقه في موكب على طول شارع الكورسو، مصحوباً بالموسيقى والهتافات المدوّية.

ويلاحظ المرء الآن أن كل واحد من المهرّجين يتميّز بلباسه الفردي عن الآخر رغم اشتراكهم في هذا الزي التنكّري الأكثر شيوعاً. فأحدهم يعتمر

باروكة شعر مستعار، وآخر يعتمر قلنسوة، وثالث يضع على رأس قفص طيور بدل غطاء الرأس، ويحوي القفص زوجاً من الطيور، أُلبسا رداء كاهن، وفستان سيدة، وهما يتقافزان، ويحطّان على مَجثمهما.

الحواري الجانبية

إن فظاعة اكتظاظ الحشود تدفع الكثير من المقنّعين عنوة إلى الدروب الفرعية على جانبي الكورسو. ها هنا يجد أزواج العشاق الخلوة والملاذ، ويندفع الشباب المرح للقيام بكل أنواع العروض الزاهية، وبخاصة في شارع فياديل بابوينو، أو ساحة بياتزا اسبانيا.

وعلى سبيل المثال، تفد ثلّة من الشباب، وهم يرتدون سترات قصيرة فوق صدّاريات من المخرّمات المذهّبة، وهذا هو الزي المألوف الذي يرتديه العوامّ يوم الأحد، لكن شعور هؤلاء الشباب معقودة جميعاً في ما يشبه الشبكات المتدلّية على ظهورهم. ويصحب هؤلاء الرجال فتيان متنكّرون في فساتين نساء، إحداهنّ تبدو في آخر أيام الحمل. تراهم يمشون على غير هدى في وداعة، حتّى ينشب بغتة خصام. تلي ذلك ملاسنات حامية، تشترك فيها النساء، ويزداد الشجار سخونة وعنفاً، حتّى يسحب الطرفان سكاكين من ورقٍ مقوّى فضيّ اللون؛ ليسدّدوا الطعنات إلى بعضهم البعض. وتصرخ النساء من هول الجريمة، ساعيات إلى تفريق أهل الطعان، وجَرّهم إلى هنا وهناك. فيتدخّل عابرو السبيل، ظنّاً منهم أن المعركة جادّة، فيهدّئوا روع الطرفين المتقاتلين.

في هذه الأثناء، يفاجئ الطَّلْق - كما لو كان ذلك لهول الصدمة - المرأةَ الحُبلى، فيُجلب لها كرسي؛ كي تستريح، بينما تهرع النساء الأخريات إلى إغاثتها. فتئنّ هذه وتصرخ، كما لو كانت في آلام الطَّلْق المبرحة، وقبل أن تُلاحظ جلية الأمر، ترى أنها جاءت بمخلوق تَعِسٍ إلى هذه الدنيا، وسط

حبور المتفرّجين. وبذا؛ تنتهي المسرحية، وتنتقل الجوقة إلى مكان آخر، لتكرار هذا العرض، أو أداء عرض هزلي آخر، في موضع ثان.

ويبدو أن أهل روما، الذين يسمعون دوماً الحكايا عن وقوع جرائم القتل، يغتبطون لأية فرصة تسنح للهو بفكرة الاغتيال. حتّى الأطفال يلهون بلعبة، يسمّونها: كيزا؛ أي الكنيسة، وهي تشبه عندنا لعبة "سرداب السجين". البطل في اللعبة هو القاتل الذي اتّخذ من درجات الكنيسة مَلجأ يحتمي به، أما بقية الأطفال؛ فتؤدّي دور أفراد الدرك الذين يتوجّب أن يحاولوا القبض عليه من دون المساس بحرمة الكنيسة.

هناك حشد من المتنكّرين في إهاب الصاحبيين يؤدّون حركات، تثير ضحك الجميع: تأتي دزّينة منهم في صفّ مستقيم؛ لتتقدّم في خَطْو متناسق على أطراف الأصابع، بحركات سريعة قصيرة الخطى. ويبقى الصفّ متماسكاً في أثناء هذه الحركات حتّى يبلغ ساحة ما، فينشطر الصفّ إلى نصفين على حين غرّة، نصف يتّجه ذات اليمين، ونصف ذات الشمال، ثمّ يسقطون متعثّرين كتلة واحدة، ويمضون بعد ذلك إلى شارع آخر، ويجتمعون في كردوس واحد من جديد، ينعطف بسرعة البرق جهة اليسار؛ ويندفع الكردوس، كما لو كان على السفود، في مدخل أحد المنازل؛ ليختفي الطائشون بلا أثر.

المساء

يتكاثر الوافدون على الكورسو مع اقتراب المساء. العربات متحجّرة في مكانها بلا حراك منذ أمد بعيد. ويصادف أن تظلّ العربات محشورة على مدى ساعتين عند حلول المساء.

وينهمك أفراد الحَرَس البابوي والرقباء الآن على أن تصطفّ العربات في

صفوف مستقيمة على جانبي الشارع، وهو تدبير يستثير الكثير من الفوضى والانزعاج وسط الجمهور. ثمّة الكثير من الجَرّ والدفع والرفع. وحين يتراجع أحد الحوذيين بعربته، يتوجّب على العربات الواقفة خلفه أن تتراجع هي الأخرى. وينحشر أحد الحوذيين أخيراً حشراً، يضطرّه إلى أن يوجّه جياده إلى وسط الشارع. فيبدأ الحَرَس بصَبّ اللعنات، وتوجيه الإنذارات، آمرين إيّاه على الانضباط في الصفّ المستقيم، في حين أن الحوذي المنحوس يرسل التوسّلات دون طائل، قائلاً إن العودة إلى الصفّ ضرب من المحال، وإن الذنب ليس ذنبه. ويواجه هذا الحوذي خيارين، إمّا العودة إلى الصف، أو الخروج من شارع فرعي، لكن الشوارع الفرعية مسدودة بعربات واقفة، تنتظر، بفعل تأخّرها في القدوم، فرصة الدخول إلى الكورسو؛ لأن عربات الكورسو كفّت عن الحركة أصلاً.

استعدادات السباق

اقتربت لحظة سباق الخيل، وهي اللحظة التي تبلغ فيها الإثارة عند آلاف المتفرّجين ذروتها.

ويزداد إلحاح مؤجّري الكراسي أكثر من ذي قبل، وهم يزعقون: "أماكن! هلمّوا إلى الأماكن! أيها النبلاء! أماكن، يا سادة!" (بالإيطالية) حريصين على تأجير كل مقاعدهم، عارضين هذه الكراسي في هذه اللحظات الأخيرة بأسعار مخفّضة. محظوظ مَن ينال مقعداً في هذه اللحظة. ويأتي الآن الجنرال على صهوة جواده إلى الكورسو مسبوقاً ببعض أفراد الحَرَس، الذين يدفعون المارّة بعيداً عن المقعد الوحيد الذي ما يزال متروكاً له. ويحاول الجميع أن يجد مكاناً له، أينما كان، على عربة، أو بين عربتين، أو عند نافذة صديق من الأصدقاء.

في هذه الأثناء، تُخلى الفسحة المواجهة للمسلّة من الناس بالكامل،

وهي تؤلّف أجمل مشهد، يمكن للمرء أن يراه في عالم اليوم. ثمّة منصّة كبرى تزدان واجهتها بثلاث قطع من السجّاد، وثمّة آلاف مؤلّفة من الرؤوس المتراصّة، في صفوف متراصّة، توقظ في الذهن صورة المسرح الروماني القديم، أو السيرك. وتشمخ المسلّة عالياً فوق المنصّة المركزية التي تحجب قاعدتها، وإن المرء لن يتمكّن من تصوّر عُلُوّها المذهل إلا حين يقيسه على خلفية هذه الكتلة الهائلة من البشر.

تشخص أبصار الجميع إلى شواخص الانطلاق الخالية، التي ما تزال محجوزة بحبل. خلا شارع الكورسو الآن من الحشود، فالجنرال مقبل، والحرّاس من ورائه يمنعون أي متفرّج من أن يطأ أرض الشارع ثانية. ها هو الجنرال يصل، ويتّخذ مكانه في إحدى المقصورات.

الانطلاق

تجري القرعة لوضع الجياد في خانات الانطلاق، فيقودها إلى مكانها المخصّص سائسون في بزّات زاهية. الجياد مجرّدة من طقم الشكيمة واللجام. يربط السائسون الآن مهاميز على شكل كرات مسنّنة إلى جذوع الجياد بسيور، لكنهم يحمون موضع احتكاك الكرة المسنّنة بالجواد، بواسطة قطعة من الجلد. وتُلصق بها أيضاً قطع من ورق معدني لمّاع.

إن معظم الجياد في تململ ونفاد صبر؛ وإن حضور هذا الجمهور الغفير يثير أعصابها، فيبذل السائسون كل ما في قدرتهم من قوّة ومهارة لشَكْمها. تبدأ الجياد برفس حواجز خانات الانطلاق، أو تحاول اجتياز حبل البداية، فتعمل هذه الاهتياجات على إثارة المتفرّجين.

ويشعر السائسون أيضاً بحدّة الانفعال، والقلق. فمآل السباق، كما يعرفون، يتوقّف إلى حدّ كبير على مهارة إطلاق الجواد في مبتدى السباق.

أخيراً يسقط حبل البداية، وتنطلق الجياد.

يحاول كل جواد أن يتقدّم الصفوف، طالما كان الجميع ما يزال في الساحة، أما بعد دخول شارع الكورسو؛ فإن الفسحة بين صفّي العربات تكون أضيق من أن تسمح لأي جواد بتجاوز غيره من الأجناب.

ثمّة قلّة من الجياد تتقدّم غيرها عادة متوفّزة، في كل عضلة. ورغم تراب الصخر المنثور على أرصفة الشارع، يقدح الشرر من وقع السنابك على بلاط الشارع، وتتطاير أعراف الجياد، وتتكسّر رقائق الورق المعدني الذي يكسو الجياد، وتتساقط في رمشة عين. وتعدو الجياد التي في المؤخّرة مطاردة بعضها البعض، يتبعها جواد متأخّر وحيد، وهو يخبّ للّحاق بالآخرين؛ وتغطّي لدائن الورق المعدني المضمار الخالي. وسرعان ما تتوارى الجياد عن الأنظار، فتتدافع الجموع؛ لتلتئم ثانية من كل صوب، ويختفي مضمار السباق بسيل الحشود المتراصّة.

هناك سائسون آخرون ينتظرون وصول الجياد عند ساحة فينيتزيا. وحين تصل الجياد نقطة النهاية، يتلقّفها السائسون بمهارة، ويوثقون رباطها في الحاجز المخصّص، وتُقدّم الجائزة إلى الفائز.

وهكذا ينتهي الحفل الذي انتظرته الآلاف من المتفرّجين ساعات في رمشة عين؛ ولعلّ هناك قلّة قليلة يمكن أن تفسّر سبب انتظارها ساعات لمشاهدة هذه اللحظة، أو أن تفسّر سبب التذاذها الكبير بمشاهدة ذلك.

واضح من الوصف الذي قدّمتُه أن هذه الرياضة تنطوي على خطورة بالغة للجياد وللبشر على حدّ سواء. فمثلاً إن فسحة العدو بين صفّي العربات تبلغ من الضيق جداً؛ بحيث إن تحرّك عجلة خلفية قليلاً باتجاه وسط الشارع كافٍ لإيقاع أذى كبير. وإن الجواد المحشور بين صفّ من جياد

أخرى قد يحاول أن يجد له فسحة أخرى، فيرتطم بالعجلات بكل سهولة. وقد رأيتُ بأمّ عيني جواداً يتعثّر، ويسقط بهذه الطريقة. أما الجياد الثلاثة التي تلته؛ فقد تعثرت به، وسقطت هي الأخرى. أما الجياد الأخرى التي أعقبتهم؛ فقد اضطرّت إلى الوثوب فوق الجياد الساقطة؛ كيما تواصل العدو في السباق.

وإن الجواد الساقط يلاقي حتفه في الحال، بل إن بعض المتفرّجين يلاقي المصير ذاته، وهذا ما حصل مرّات ومرات. ويمكن أن تقع كارثة مماثلة، لو قام أحد الجياد بالاستدارة على عقبيه. ومعروف أن بعض الأشخاص المعروفين بالضغائن والحُسّد، يحاولون عرقلة أي جواد يتقدّم كثيراً على الجياد الأخرى بأن يفردوا معاطفهم أمام عينيه؛ ليرغموه على الانحراف أو الاستدارة على عقبيه. الأنكى من ذلك أن بعض السائسين في نقطة النهاية في ساحة بياتزا فينيتزيا لا يفلحون في الإمساك بزمام الجياد، وإن هذا الإخفاق بالذات سيزيل أي عائق يمنع الجواد من الاستدارة والجري في الاتجاه المعاكس. ولمّا كان المضمار يمتلئ ثانية بالجمهور، تقع حوادث كثيرة، ولا شكّ، رغم أن المرء لا يسمع بها، أو لا يكترث أحد بذِكْرها.

تعليق النظام

يبدأ سباق الجياد قبيل حلول الظلام في العادة. وما إن تبلغ الجياد نقطة النهاية حتّى تدوّي قذائف الهاون الصغيرة، وتتكرّر هذه الإشارة، مرّة في منتصف الكورسو، ومرّة قرب المسلّة.

وفي الحال، تستدير بعض العربات في وسط الكورسو مثيرة الفوضى. وإذا ما عنّ لهذا الحوذي أن يمضي إلى أعلى الشارع، وذاك الحوذي أن يسلك الاتجاه المعاكس، فلن يقدر أي منهما على أن يتزحزح بوصة واحدة من مكانه، أما الحوذيون المتعقّلون الذين يبقون في الصفّ؛ فلا يلاقون

أي فرصة للتحرّك. وإذا ما انطلق جواد فالت باتجاه هذه الكتل المتشابكة من العربات، وقعت الواقعة.

الليل

تعود الأمور أخيراً إلى مجاريها المعتادة، من دون أن تخلو هذه العودة من التأخيرات والحوادث السيئة. ويجنّ الليل، فيأمل الجميع في أن يحظى بشيء من الهدوء والسكينة.

المسارح

ابتداء من هذه اللحظة، تزول الأقنعة كلها عن الوجوه، ويتّجه شطر كبير من الجمهور إلى المسرح. ويرى المرء في بعض المقصورات بعض العباءات التنكّرية (بالايطالية)، أو بعض النساء في فساتين تنكّرية، لكن الناس في الحدائق يمضون بملابسهم الاعتيادية. ويقدّم مسرحا ألبيرتي وأرجنتينا مسلسلات أوبرالية مع عروض لرقص الباليه بين الفصول؛ أما مسرحا فالي وكابرانيكا؛ فيقدّمان مسرحيات كوميدية وتراجيدية، تتخلّل فواصل الراحة بينها أوبرات هزلية. ويقدّم مسرح باتشه الشيء نفسه رغم أن مستواه أدنى، وهناك كثرة من العروض الثانوية وعروض الدمى والرقص على الحبال.

ولسوء الحظ، لم يعد المسرح العظيم، تياترو دي تور دينانو، قائماً بعد أن احترق بمجرّد الفراغ من بنائه، ثمّ انهار بعد إكمال إعادة البناء، قبل أن يسليّ الناس بالمسرحيات الميلودرامية التاريخية، وغيرها من العروض البديعة.

يعشق أهل روما المسرح عشقاً، وقد كانوا في الأيام الخوالي أكثر حرصاً على الذهاب إلى المسرح أيام الكرنفال؛ لأن ذلك هو الموسم الوحيد لإشباع هذه الرغبة. أما في أيامنا هذه؛ فإن هناك مسرحاً واحد في الأقلّ يفتح أبوابه خلال فصلي الصيف والخريف.

حفلات الرقص

لابد لي من قول بضع كلمات عن حفلات الرقص؛ أي الفستين (festine)، كما يسمّونها بالإيطالية؛ أي حفلات الرقص الكبرى بالملابس التنكّرية، التي تُقام خلال عدّة ليال في مسرح تياترو أليبرتي المزدان بإنارة بديعة. وتُعدّ العباءة السوداء التابارو أبدع زيّ تنكّري للرجال والنساء على حدّ سواء، فتمتلئ قاعة الرقص براقصين وراقصات متّشحين ومتّشحات بالسواد، تتخلّلهم الألوان المتلألئة لمَن اختار غير هذا الزي. ويثور الفضول، بناء على ذلك، حين يظهر إنسان مهيب، وهو متنكّر في هذا الزي أو ذاك متشبّهاً بتماثيل روما. ويرى المرء مَن يتنكّر في ثياب آلهات مصريات، أو عرّافات، أو في أهاب باخوس وأريادن، أو آلهات التراجيديا، أو آلهات التاريخ والمَدَنية، أوعذارى ميستا، أو قنصل روما، وما شاكل.

الرقصات

تُؤدّى الرقصات في هذه الحفلات على الغرار الإنجليزي، في شكل صفوف طويلة، والفارق الوحيد أن الخطوات القليلة في هذا الرقص تحاكي، عادة، فعلاً نموذجياً معيّناً، مثل فعل خصام وتصالح عاشقين، يفترقان ويلتقيان.

لقد عوّد رقصُ الباليه أهاليَ روما على أسلوب الإيماء المشدّد طريقة للتعبير، لذا؛ فإنهم يحبّون الحركات قوية التعبير حتّى في هذا الرقص الاجتماعي، ولعلّها تبدو في نظرنا مغرقة في المغالات والتكلّف. ولا يتجرّأ أحد على الرقص ما لم يدرس أصوله، باعتباره فناً. وإن رقصة المينويت البطيئة الرزينة، بخاصة، تُعامَل بمثابة عمل من أعمال الفن، ولا يؤدّيها سوى قلّة من أزواج الراقصين. ويتحلّق بقية الراقصين حول مثل هذا الزوج؛ ليراقبوا أداءهما في إعجاب كبير، ويصفّقوا لهما طويلاً حين ينتهون من الوصلة.

الصباح

بينما يغرق عالم الأزياء الراقية في إمتاع النفس على هذا النحو في السويعات الباقية، ينهمك الشغّيلة منذ الفجر في تنظيف وترتيب شارع الكورسو. ويحرص هؤلاء حرصاً كبيراً على نثر تراب الصخر باتّساق؛ ليغطّي وسط الشارع.

يأتي الآن السائسون، وهم يعيدون إلى المسلّة الجوادَ الذي جاء ترتيبه الأخير في سباق الأمس. هناك صبي يمتطي الجواد، بينما يقوم راكب آخر بسوقه بالسوط؛ كيما يُوتّر كل عضلة تدفعه إلى قطع المضمار بأسرع ما يمكن.

اليوم الأخير

يجلس الناس في المنصّات والمقاعد في وقت أبكر ممّا جرت عليه العادة في الأيّام السابقة، رغم أن إيجار المقاعد أغلى الآن، والتلهّف على سباق الجياد أشدّ وأقوى من ذي قبل.

وحين تمرّ الجياد بسرعة خاطفة، وتدوّي المدافع مشيرة إلى انتهاء السباق، لا يتحرّك شيء أو أحد من مكانه، لا العربات، ولا المقنّعون، ولا المتفرّجون، ويمكث الكل في مكانه بلا حراك، حتّى يرخي الليل سدوله ببطء. الكل صامت، والكل ساكن.

ذبالات الشموع

ما كادت العتمة تخيّم على الشارع الضيّق المحفوف بالجدران العالية، حتّى انبجست الأضوية، وتحرّكت في النوافذ وعلى المنصّات، وما هي إلا رمشة عين حتّى اتّسعت دائرة النار بعيداً، وعريضاً. فبات الشارع يتلألأ بضوء الشموع الموقدة.

الشرفات مزيّنة بفوانيس من ورق شفّاف، وكل مارّ أو عابر يحمل شمعة، وكل النوافذ وكل المنصّات مضاءة بالشموع، بل إن من المتعة بمكان النظر إلى جوف العربات التي تتدلّى من سقوفها ثريات كريستال صغيرة، أو تحمل السيدات الجالسات فيها شموعاً ملوّنة، كما لو أنهنّ يغمزنَ إلى الناظر؛ كي يُعجب بجمالهنّ.

ويغرز الخَدَم شموعاً صغيرة على حوافّ سقوف العربات؛ أما العربات المكشوفة؛ فتحمل فوانيس ورقية، كما يحمل بعض المارّة على رؤوسهم فوانيس بشكل أهرامات طويلة، ويحمل آخرون الشموع على أعواد قصب طويلة بارتفاع الألسنة باللعنة المفضّلة في روما: "عساك تُقتل" (بالإيطالية).

"عساه يُقتل كل مَن لا يحمل شمعة." (بالإيطالية). تلك هي اللعنة التي ينبغي أن تُطلقها بوجه الآخرين، وأنت تحاول أن تطفئ شمعتهم بالنفخ عليها. وأياً كان صاحب الشمعة، صديقاً أو غريباً، فعليك أن تنفخ لإطفاء أقرب شمعة، أو أن توقد شمعتك قبل أن تطفئ شمعة غيرك. وكلّما علا الصراخ بعبارة "عساك تقتل" زال عنها معناها المشؤوم، ونسيت أنك في روما؛ حيث يمكن لهذه الكلمات المشؤومة أن تتحقّق فعلاً، في أي وقت آخر غير أيام الكرنفال، ولأي سبب، مهما بلغ من التفاهة.

إن اللعنات والكلمات المقذعة تُستخدم كما في أية لغة أخرى، بمثابة تعبيرات عن الفزع والإعجاب، ولذا؛ فإن معنى عبارة "عساك تقتل" في هذه الأمسية، يتلاشى تماماً؛ لتتحوّل إلى كلمة سرّ للمرور، أو صيحة فرح، أو لازمة تُضاف إلى الطّرف والنكات والإطراء. وترى مَن يزعق:

"عسى أن يُقتل السيد أباتي الذي يمارس الحبّ."

ويقوم آخر بتحية صديق حميم قائلاً:

"عساك أن تُقتل، أيها السنيور فيليبو."

ويمزج ثالث العبارة بالمديح والإطراء:

"عساها أن تُقتل الأميرة الفاتنة! عساها أن تُقتل السنيورة إنجيليكا رسّامة القرن الأولى." (كلّ العبارات بالإيطالية).

وهم ينطقون هذه العبارات، بل يزعقون بها بملء الفم، ويلفظونها بسرعة كبيرة، ونَفَس واحد يشدّد على المقطع قبل الأخير، أو المقطع الذي يسبقه. في غضون ذلك، يمضي شغل إطفاء الشموع نفخاً، وإشعالها من جديد دون انقطاع. وحينما يصادف أن تلتقي أحداً، في المنزل، أو على السّلّم، في غرفة مع زوار، أو متكئاً على حافة نافذة مجاورة لك، فعليك أن تبذل كل الجهد لمراوغته وإطفاء كل شموعه.

ويتبارى الناس من كل الأعمار وكل المراتب الاجتماعية تبارياً محموماً فيما بينهم. ولا تنجو درجات المركبات والعربات من اقتحام المقتحمين؛ ولا تسلم ثريا أو فانوس ورقي من الهجوم. وترى صبياً ينفخ شمعة أبيه؛ ليُطفئها، وهو يزعق "عساه أن يُقتل أبي، سيدي!" (بالإيطالية)، وعبثاً يوبّخ الرجل الكهل ابنه على هذا السلوك الشائن؛ فالولد يمارس حقّه في التمتع بحُرّيّة هذه الأمسية، ويلعن أباه لعناً أشدّ وأعتى. وتخفتُ علائم الضجة والهياج على طرفي شارع الكورسو؛ لأن الكل يحتشد في مركز الشارع حتّى يفوق الزحام والتراصّ كل تصوّر، ويصعب حتّى على أقوى مخيّلة أن تتذكّره لاحقاً.

فلا أحد يقدر على التحرّك قيد أنملة من موضعه، واقفاً كان أم جالساً؛ وإن الحرارة المنبعثة من هذا الحشد من الكائنات البشرية، وهذا العدد الغفير من الشموع الموقدة، والدخان المنبعث منها لحظة تُطفأ وتُوقد

من جديد، والهدير المنطلق من هذا العدد الهائل من الحناجر، التي تزعق وتزعق بأعلى جئير؛ لأن أصحابها عاجزون عن تحريك أطرافهم، تصيب بالدوار أكثر الرؤوس حصافة وعقلاً. ويبدو أن من المحال أن تنتهي تلك الأمسية من دون وقوع إصابات خطيرة، أو من دون جموح جياد العربات، أو من دون إصابة الكثيرين بالخدوش، أو الكدمات، أو الدهس.

وبمرور الوقت، يبدأ الجميع بتلمّس وجوب الإفلات من الجمع المتراصّ، وبلوغ أقرب مداخل الشارع، أو بلوغ الساحة لالتقاط نَفَس من الهواء الطري؛ فتبدأ كتلة الجموع بالذوبان تدريجياً، وينتهي احتفال الحُرّيّة والإباحة الشاملة هذا، أو هذه الصيغة المُحدَثة من عيد زُحل الروماني(*)، بإطلاق نداء تحذير عامّ.

يهرع العوامّ في عجلة كبيرة إلى ولائم اللحم الدسم الذي سيُحرّم عليهم تناوله بعد منتصف الليل، أما أفراد عالم الصفوة الراقية، أصحاب الأزياء الصارخة؛ فيتوجّهون إلى شتّى دور المسرح والأوبرا لتوديع آخر المسرحيات التي تُسدل الستائر عليها مبكّراً؛ لأن هذه المتع تصل إلى خاتمتها، بحلول منتصف الليل.

أربعاء الرماد

هكذا تنقضي العربدة الصاخبة مثل حلم، أو مثل حكايا الجنيات، تاركة آثاراً طفيفة، ربمّا، على روح المؤلّف الذي شارك فيها، لا على أرواح قرّائه، الذين سعى إلى أن يقدّم لهم هذا الكرنفال بقدر من الوصف المحكم.

إن انتباهنا يتركّز، في مجرى كل هذه العربدات، على أهمّ مراحل الحياة البشرية: فالمهرّج العاميّ يذكّرنا بلذائذ الحبّ الذي ندين له بوجودنا،

---

*) ساتورناليا، عيد زُحل الروماني هو عيد الفرح والرقص أيام روما القديمة.

والممرّضة باوبو(*) تعرض أمام الملأ خفايا الولادة والأمومة، والشموع الموقدة تذكّرنا بالمآل الأخير: التشييع.

وإن شارع كورسو الضيّق الطويل الضاجّ والمكتظّ بحشود البشر، يذكّرنا هو الآخر بمسار حياتنا الدنيوية. فالإنسان، في هذه الدنيا، ممثّل ومتفرّج أيضاً؛ مقنّع وسافر الوجه، وهو لا يتمتّع بكبير فسحة لنفسه، وسواء كان جالساً في عربة أم واقفاً على القدمين، لا يستطيع التقدّم سوى بوصات، مدفوعاً إلى الأمام أو مسمّراً في موضعه بفعل قوى خارجية عاتية، لا باختيار إرادته الحُرّة؛ وفي هذه الدنيا عينها يصارع ويكابد؛ لكي يصل إلى موقع أفضل، أو أكثر بهجة، لكن القوى الخارجية التي تُوقعه في هذا الحشد الهائج، تقصيه بعيداً عن الموقع المرتجى.

وإذا ما عنّ لي أن أواصل الكلام بنظرة جادّة تتجاوز ما يسمح به موضوعي في الظاهر، فدعوني أشير إلى أن أروع المسّرات وأكثرها حيوية هي، شأن الجياد الخاطفة، تجربة تمرّ في لحظة خاطفة، لا تكاد تكفي لترك أثر في روحنا؛ وإن التمتّع بالحُرّيّة الطليقة والمساواة لا يتحقّق إلا في غمرة الجنون المدوخ، وإن الرغبة لا تصل ذروة الإثارة القصوى إلا في حضور الخطر، وما يثيره من خليط من إثارة شهوانية حلوة، وأحاسيس مزعجة مرّة.

وإذ أختتم تأمّلاتي في أربعاء الرماد هذه، فكلّي ثقة من أنني لم أوقع قرائي في الغمّ. فما هذه النية واردة عندي. على العكس، فمعرفتي بأن الحياة حين تُؤخذ بمنظارها الكُلّي، إنما تشبه كرنفال روما، من حيث تقلّبه وإزعاجه وإشكاليته، يعني أملي بأن هذا الحشد المتبطّر من المقنّعين سيدفع قرّائي إلى إدراك القيمة الكبرى لكل لحظة من لحظات الفرح، مهما بدت عابرة صغيرة.

---

*) باوبو هي ديميتر التي سعت إلى التسرية عن سيدتها عندما فقدت بيرسيفون، بأن تقصّ عليها حكايات داعرة.

شهر شباط ١٧٨٨
مراسلات

روما، ١ شباط (فبراير)

ما أسعدني حين ينصرم الثلاثاء، ويسكت الحمقى. ليس هناك ما يثير الملل أكثر من مراقبة الناس، وهم يتصرّفون كالمجانين حين لا يُصاب المرء نفسه بهذه العدوى.

واصلتُ دراساتي بحدود ما تسمح به الأحوال في مثل هذه الأيام. أحرزتُ بعض التقدّم في كتابة مسرحية "كلودين"، وما لم يتضافر الجنّ على حرماني من كل عون، فإن الفصل الثالث سيأخذ طريقه إلى هيردر، ولسوف أفرغ من المجلّد الخامس تأليفاً وتنقيحاً. ولكني سأواجه بعد هذا متاعب جديدة، لا قِبَل لأحد بإسداء النصح أو العون فيها. لابدّ من إعادة كتابة مسرحية "تاسو" بالكامل: فما كتبتُه منها حتّى الآن لا ينفع بالمرّة. وأنا عاجز عن إنهائها أورميها بعيداً. ذلك هو العناء الذي يرميه الله على كاهل الإنسان! لعلّ المجلّد السادس سيضمّ، على الأرجح، مسرحية تاسو، ومسرحية ليلا، ومسرحية جيري وباتلي(*). بعد تنقيحها جميعاً تنقيحاً، يصعب معه على القارئ أن يتعرّف على الأصل.

عكفتُ على مراجعة قصائدي القصار المخصّصة للمجلّد الثامن، ولعلّني أنشر هذا قبل المجلّد السابع. إنه لأمر غريب أن يجمع المرء زبدة

---

*) إن مسرحية "ليلا" ومسرحية "جيري وباتلي" هما من المسرحيات الغنائية التي وضعها غوته عام ١٧٨٠.

الزبدة (باللاتينية) من حياته على هذا النحو. ما أصغر الآثار المتخلّفة عن وجود كامل!

دأب الناس على مضايقتي بخصوص ترجمات آلام فيرتر، أيها أفضل، وهل القصّة حقيقية فعلاً؟! هذا طاعون سيلاحقني إلى الهند.

٦ شباط (فبراير)

إليكم الفصل الثالث من مسرحية "كلودين". آمل أن تشيع فيكم قراءتها نصف الغبطة التي أشاعها فيّ إكمالها. لقد تعلّمتُ الكثير عن اشتراطات المسرح الغنائي، فضحّيتُ بالكثير إرضاء للمؤلّف الموسيقي والممثّل. إن القماشة المكرّسة للتطريز يجب أن تكون متباعدة الخيوط مثل الشبكة، أما قماشة الأوبرا الهزلية؛ فيجب أن تكون محكمة النسج مثل قماشة الرسم. غير أني سعيتُ، كما فعلتُ مع مسرحية "إيروين"، أن أضفي على النص ما يجعله صالحاً للقراءة. وباختصار، بذلتُ ما أمكن البذل.

أشعر الآن بالسكينة والرضى، وأنا الآن، كما قلتُ لكم، جاهز مستعدّ لأي نداء. لقد كبر عمري أكثر من اللزوم، بالنسبة إلى الفنون البصرية، فأي جدوى - إذنْ - إن عبثتُ فيها أكثر أو أقلّ. لقد أطفأتُ ظمأي، وبتّ أسير على الدرب الصحيح للتأمّل والدراسة، أما ملذّاتي؛ فمسالمة ومتواضعة. رجائي أن تباركوا ذلك كله. أمامي الآن عمل يتجاوز قليلاً مجرّد إنهاء المقاطع الثلاثة الأخيرة. بعد هذا، يأتي دور: فيلهلم مايستر، وغير ذلك.

٩ شباط (فبراير)

كان الحمقى يواصلون القصف والعربدة يومي الاثنين والثلاثاء، وبخاصة يوم الثلاثاء، حين كانت طقوس الشموع في أوج عنفوانها. وفي يوم الأربعاء، حمدتُ الله والكنيسة على الصوم الكبير. لم أذهب إلى أي حفل راقص

(فستين) مثلما تسمّى حفلات الرقص التنكّرية هنا. إنني أثابر على العمل، وأتعلّم قدر ما يتحمّل رأسي من حَشْو المعلومات. فرغتُ لتوّي من قراءة أطروحة ليوناردو دافنشي عن الرسم، فبتُّ أفهم سبب عجزي عن أن أعرف رأسه من ذنبه عند القراءة الأولى.

المتفرّجون المقتصرون على الفرجة أناس محظوظون! إنهم يتخيّلون أنفسهم على قدر كبير من الذكاء، ويظنّون أنهم دوماً على حقّ. أما المتحذلقون والخبراء؛ فلا يقلّون عنهم سوءاً. لن تتصوّروا قط مقدار ما يشعر به هؤلاء من الرضى عن النفس. إن خير ما يفعله الفنان الجيد في صحبتهم هو أن يلتزم الصمت. لقد نشأ عندي مؤخّراً ردّ فعل عنيف لتحاشي الإصغاء إلى أي مخلوق، يُصدر حكماً من دون أن يمارس شيئاً في الميدان. إن هذا الكلام لا يقلّ إزعاجاً لي عن نتانة التبغ.

أطلقت إنجيليكا لنفسها عنان لذّة اقتناء لوحتين، واحدة بريشة تيتيان، وأخرى بريشة باريس بوردون. وقد كلّفتها اللوحتان مبلغاً طائلاً، ولكنْ؛ لمّا كانت على درجة من الثراء؛ بحيث إنها لا تستطيع إنفاق الفائدة المستمدّة من رأسمالها، ولمّا كانت تكسب أرباحاً من الصفقات تتزايد عاماً بعد عام، فإن المفيد أن تقتني أعمالاً، لا تقتصر على إشاعة البهجة في روحها، بل تحفزَ براعتها في الرسم. وما إن علّقتْ هاتين اللوحتين في منزلها، حتّى أخذت ترسم بأسلوب جديد، وتتّخذ من إبداعات هذين الفنانين العظيمين وسائل لها. إنها شغّيلة مثابرة، لا تكلّ، في الرسم، كما في الدراسة، وانني لأصيب متعة كبيرةً في مشاهدة أعمال الفن بصحبتها.

يعكف الموسيقار كايزر على العمل بما عُرف عنه من همّة ومثابرة. وإن الموسيقى التي يؤلّفها لمسرحية "إيجمونت" تحرز تقدّماً ملحوظاً. لم أسمع بعد كامل المقاطع التي ألّفها، غير أن القليل الذي سمعتُ يبدو

لي موفّقاً تماماً. وهو يعكف الآن على تلحين "كيوبيد، أيها الولد اللعوب الحرون". سأرسل المقطوعة إليكم حال فراغه منها، آملاً أن تُغنّى كثيراً في ذِكْراي. فهذه أقرب الأغاني الصغيرة إلى قلبي.

أُصيب رأسي بالدوار من كثرة الزيارات والعمل والتفكير. ولم أزدد حكمة. ما أزال أبهض نفسي بمشاغل أكثر ممّا ينبغي، وآخذ على عاتقي أموراً أكثر من اللازم.

٢٢ شباط (فبراير)

وقع هذا الأسبوع ما أصاب مستعمرتنا الفنية بغمّ كبير. ثمّة شابّ فرنسي يُدعى درويس مات بالجدري. لم يكن له من العمر غير خمسة وعشرين عاماً، وهو الابن الوحيد لأمّ تحبّه حبّاً جمّاً، وهو ثري مثقّف، وواحد من أكثر الفنانين الواعدين، ممّن يدرسون في روما. رأيتُ في مرسمه المهجور لوحة بالحجم الطبيعي لشخص فيلوكتيتس مصوّراً إيّاه، وهو يهدّئ أوجاع جرحه، بمروحة اتّخذها من جناح طير من الجوارح، قنصه لتوّه. يا لها من لوحة قوية الخيال، تشي بقدرة رائعة على التنفيذ، وإن بقيت غير مكتملة.

أشعر بالارتياح وأنا أعمل بجد، منتظراً ما سيُسفر عنه المستقبل. أُدرك بوضوح أشدّ، كل يوم، أنني وُلدتُ؛ لأكون شاعراً. وينبغي لي أن أرعى هذه الموهبة، وأُنتج شعراً حسناً خلال السنوات العشر القادمة، فهي كل ما سيُتاح لي أن أعمل خلاله. لقد انصرم الزمان الذي أتاحت فيه لي وقدة نار الشباب أن أنجز الكثير من الأعمال من دون كثير دراسة. وأما الآن؛ فعندي ثمار مقامي الطويل في روما؛ لأعود إلى تأمّلها، رغم أن ذلك يفرض عليّ التخلّي عن ممارسة الفنون البصرية.

قدّمتْ لي إنجيليكا الثناء بالقول إنها لا تعرف سوى أقلّ من القليل من الناس في روما ممّن يرون الفن خيراً ممّا أراه. إنني أعرف تماماً ما لا أراه البتّة، وأعرف أين موضعه، لكني أشعر أنني في تحسّن، وأعرف بالضبط ما يتوجّب عليّ أن أفعله حتّى أرى بصورة أفضل. كفاني ما قلتُ. لقد تحقّقتْ أمنيتي في أن أكفّ عن تلمّس طريقي كالأعمى في مسألة، تجذبني جَذْباً جامحاً.

سأبعث إليكم في القريب قصيدة جديدة، وهي "آمور. إله الحبّ. كرسّام مناظر طبيعية"، آمل أن تنال إعجابكم. حاولتُ أن أرتّب قصائدي القصار في نظام منسّق من نوع ما. فهي تبدو لي، بالأحرى، غريبة. إن قصيدة "هانز زاكس" وقصيدة "موت ميدنج" ستؤلّفان خاتمة المجلّد الثامن، وبالتالي كامل كتاباتي حتّى اللحظة. وإذا ما وُوريتُ الثرى جوار هرم سيسيتوس، فإن هاتين القصيدتين ينبغي أن تقوما مقام اعترافاتي على فراش الموت، وخطبة تشييعي إلى المثوى الأخير.

سيبدأ الخورس البابوي، من الغد، بإنشاد القدّاسات الموسيقية القديمة الشهيرة، وستكون هذه نقطة جَذْب كبيرة عند حلول الأسبوع المقدّس. ولسوف أتوجّه إليها صباح كل أحد؛ لأتعرف على أسلوبها. والأرجح أن يتولّى كايزر، المتخصّص في هذه الأمور، شرح بنيتها لي. ننتظر أن يحمل لنا البريد النصّ المطبوع لموسيقى ماوندي التي تركها كايزر في زيوريخ. ولسوف نسمعها أولاً معزوفة على البيانو، بعد هذا سنسمعها في كنيسة سيستين.

شهر شباط ١٧٨٨
عودة إلى ما كان

تعتمد المقالة التي كتبتُها عن كرنفال روما، والتي أوردتُها هنا في ثنايا هذا الكتاب، على ملاحظات، دُوِّنت في حينه. وطلبتُ من أحد أفراد المجموعة القاطنة في منزلنا، وهو جيورج شوتز، أن يضع تخطيطات سريعة لبعض الأزياء والأقنعة، وأن يلوّنها، وقد نفّذ الطلب بلطفه المعهود. وحُفرت هذه الرسوم، لاحقاً، على الحجر، بتلوين ميلكيور كراوس من فرانكفورت (وهو الآن مدير المعهد الحُرّ للرسم في فايمار) كنوع من الرسوم الإيضاحية للطبعة الأولى التي نشرها أونجر، وباتت من الكُتُب النادرة. ويعني هذا كله أني خالطت الحشود المقنعّة أكثر ممّا كنتُ أرغب، وبدت لي الأقنعة والأزياء، حتّى عند النظر إليها نظرة فنية صرفاً، منفرة وغريبة. ويبدو لي أنني بعد أن قضيتُ في روما عاماً كاملاً منهمكاً في مشاهدة أعمال الفن السامية، باتت روحي تنفر من روح الكرنفال.

غير أن ثمّة تجربة أخرى رائعة كانت تُعدّ في الخفاء لأجل حياتي الداخلية الأفضل. ففي ساحة بياتزا فينيتزيا؛ حيث تتوقّف العربات قبل أن تنضمّ إلى حلقة المركبات المتحرّكة الأخرى، حتّى يستطيع ركّابها مشاهدة المقنّعين المارّين، لمحتُ مركبة مدام إنجيليكا، فتوجّهتُ إلى باب المركبة؛ لألقي التحية عليها. كانت قد أطلّت برأسها من نافذة العربة؛ لتُومئ إليّ، قبل أن تعود إلى موضعها؛ لكي تفسح لي المجال أن أرى جوارها فتاة ميلانو الشابّة، وقد استعادت كامل عافيتها. لم أجد أي تغيّر قد طرأ عليها، ولكنْ؛ ما الذي يمنع الشباب المعافى من أن يتماثل إلى الشفاء سريعاً؟! بدت

عيناها أكثر حيوية وبريقاً من ذي قبل، وراحتا تنظران في عيني بفرح طاغ، نفذ إلى أولئكأعماق فؤادي. رحنا نحدّق في بعضنا البعض لحظات من دون أن نتبادل كلمة، حتّى كسرت مدام إنجيليكا الصمت، وقالت بينما كانت الشابّة الميلانية تُقرّب أذنها للإصغاء "انني أقوم بوظيفة الترجمة ليس لا، لأن صديقتي الشابّة لا تستطيع أن تجد الكلمات المناسبة لتعبّر عمّا تحسّ به، وترغب في قوله، ممّا ذكرتْه لي مراراً، فهي تشعر بامتنان لا حدّ له لما أبديتَه من اهتمام في أثناء مرضها. وإن السلوان الوحيد الذي ساعدها على التماثل إلى الشفاء، ومكّنها من أن تواجه حياتها ثانية، هو عطف الأصدقاء، وبخاصة ما أبديتَه أنت من حنو. وقد وجدت نفسها، بعد تلك الأيام السود، التي قاست فيها من العزلة، محاطة بدائرة من أناس عطوفين طيّبين، ملؤها الودّ." هتفت الفتاة "هذا هو الحقّ!" وانحنت في اتجاهي مادّة يدها إليّ، فأخذتُها في يدي، لا بشفتي. شعرتُ بالسَكينة والسعادة، وعدتُ إلى حومة المهرّجين المحتشدة، شاعراً بامتنان عميق على ما فعلتْه إنجيليكا لرعاية الفتاة، وإخراجها ممّا كانت فيه من تعاسة. ولقد أدخلتْها في دائرة المقرّبين إليها. وهو أمر نادر الحدوث في روما. في بادرة لطف، هزّت مشاعري بقوّة أكبر، ذلك أن بمقدوري أن أزجي الثناء لنفسي على أن اهتمامي بالفتاة الجميلة لم يكن سبباً بعيداً عن الرعاية التي تنعم بها.

قام سناتور روما، الكونت ريزونيكو، بزيارتي بعد عودته من ألمانيا، حاملاً لي التحايا من اثنين من أعز الأصدقاء والمحسنين لي، هما السيد والسيدة فون ديده، اللذان عقد معهما علاقة حميمة. ورغم أني أبقيتُ، كالمعتاد،على مسافة معيّنة بيني وبينه، إلا أنه جرّني إلى دائرته بشكل محتوم.

جاءت أسرة فون ديده إلى روما لزيارة الكونت بالمقابل، ولم أستطع

الاعتذار عن قبول عدد من الدعوات، وبخاصة أن السيدة فون ديده عازفة بيانو شهيرة، وقد وافقت على أن تقدّم حفلة موسيقية في مقام السناتور في الكابيتول، كما أن صديقي كايزر، ذائع الصيت بقدرته الموسيقية، تلقّى دعوة مماثلة للعزف. كانت الشمس تميل إلى الغروب، ومشهد الكوليسيوم وما يحيطه من مبانٍ يبدو رائعاً من نافذة مقام السناتور، ولكني ما كنتُ أستطيع أن أذوب في هذا المشهد الآسر وإلا بدوتُ كمَن يظهر قلّة أدب واحترام لجَمع المدعوّين الحاضرين. عزفت السيدة فون ديده مقطوعة مثيرة بمهارة عالية. بعد ذلك، طُلب من صديقي أن يعزف، ففعل، وأثبت أن حكمنا على الأمر من شدّة التصفق، أنه جدير بالمناسبة. توالى موسيقيون آخرون على العزف، بمَن فيهم سيدة، غنّت لحناً شائعاً، واختُتم الحفل الموسيقي بعزف، ارتجل فيه كايزر تنويعات عديدة على ثيمة ساحرة.

سارت الأمور كلها على خير ما يرام. وجرت محادثة ودّية بيني وبين السيناتور، الذي لم يستطع، على أي حال، أن يقاوم رغبته في أن يسرّني، شبه معتذر، بلكنة أهل البندقية الناعمة، إنه لا يحبّ كثيراً ارتجال التنويعات من هذا الصنف، إلا أنه سُرّ كثيراً بالمقاطع المتمهّلة من عزف "سيّدته". ولا يمكن لي أن أتجاوز الحدود؛ لأقول له إني لا أحب تلك الأصوات الواهنة التي تعزف عزفاً متمهّلاً أو شديداً البطء، وإني أفضل دوماً الموسيقى الأكثر قدرة على التحريك، نظراً لأن عواطفي وتأمّلاتي عند الخسارة والتعاسة من شأنها أن تطفو وتطغى؛ لتُحزنني. وما كان لي أن أنغّص على السيناتور التذاذه بسماع تلك الأصوات التي كانت تؤكد له أنه مقيم في أجمل مكان في العالم؛ ليستضيف صديقاً عزيزاً، ويكنّ له الإعجاب.

أما بالنسبة لبقية الحضور، وبخاصة نحن الألمان؛ فقد أصبنا متعة كبيرة في سماع سيدة بارزة كنا نعرفها ونعجب بها طويلاً، وهي تستخرج

من البيانو أعذب الألحان، وفي النظر من النوافذ لمشاهدة واحدة من أكثر بقاع العالم فرادة. وما كان عليّ إلا أن أدير رأسي قليلاً؛ لأمسح بناظري مشهداً بانورامياً هائلاً، تُضيئه أنوار الشمس المائلة إلى الغروب، وهو يمتدّ شمالاً من قوس سمبيتميوس سفيروس، إلى كامبو فاكينو، وصولاً إلى معبد منيرفا ومعبد السلام. ويشخص مبنى الكوليسيوم في خلفية هذا المشهد. وسرحتُ ببصري إلى ما وراء قوس تيتوس، حتّى ضاع في متاهة أطلال بالاتين، والبراري المحيطة به المزدانة بالزهور والحدائق الغنّاء.

(انني أوصي قرّائي بمشاهدة بانوراما الجزء الشمالي الغربي من روما، المنظور من برج الكابيتول، والذي رسمه ونفّذه حفراً، فرايس تورمر عام ١٨٢٤. إن زاوية النظر في هذه الرسوم تعلو بعدّة طوابق على نافذة السيناتور، وهي تُصوِّر الحفريات الأخيرة، أما أنوار وظلال الغروب؛ فتماثل ما رأيتُه في ذلك المساء. ويتوجّب عليهم أن يتخيّلوا، بالطبع، الألوان الساطعة وتمايزاتها الزرقاء، وكل البهاء الذي يرفل فيه المشهد بسببها.)

وسنحت لي في هذه المناسبة فرصة حسنة؛ لكي أرى على هواي خير لوحة، رسمها مينجز على الأرجح. وهي بورتريه كليمنت الثالث عشر من أسرة ريزونيكو، وهو الشخص الذي ورث عنه ابن أخته؛ أي مضيفنا، منصبه بوصفه سيناتور روما.

شهر آذار ١٧٨٨
مراسلات

روما، آذار (مارس)

قصدنا كنيسة سيستين يوم الأحد الماضي؛ حيث كان البابا والكرادلة يقيمون القدّاس. كان المشهد جديداً عليّ، نظراً لأن الكرادلة يرتدون ثياباً بنفسجية بدل الحمراء في أيام الصوم الكبير. قبل أيام من ذلك، شاهدتُ بعض لوحات ألبرخت ديورر، لذا؛ تمتّعتُ كثيراً بمشاهدة شيء مشابه لها مجسّداً في الحياة الواقعية. كان الطقس يتميّز بفخامة فريدة مقرونة ببساطة متناهية، لذا؛ لا أستغرب أن أرى الأجانب الذين يتوافدون على روما زرافات في الأسبوع المقدّس، وهم مأخوذون تماماً بقوّة العاطفة. إنني أعرف هذه الكنيسة على خير وجه (فقد تناولتُ فيها طعام الغداء في الصيف الماضي، كما أخذتُ قيلولتي فيها على العرش البابوي) مثلما أحفظ أفاريزها عن ظهر قلب، ولكنْ؛ حين تؤلّف هذه الأفاريز إطاراً للشعائر التي أُقيمت الكنيسة من أجلها، فإن مظهرها يتغيّر تماماً، ولا أعود أتبيّن هذا المكان.

أنشد الخورس الموتيت(*) القديم الذي وضعه المؤلّف الموسيقي الإسباني موراليس، فقدّم لنا عيّنة ذوقية على ما سيأتي. ويقول كايزر إن المرء لا يمكن ولا ينبغي أن يسمع هذا النوع من التراتيل إلا في روما، سبب ذلك أولاً تعذّر العثور على منشدين ذوي قدرة ناضجة على الإنشاد من

---

*) الموتيت تراتيل قدّاس، يُعدّ بمثابة القدّاس الرسمي للكنيسة الكاثوليكية.

دون مصاحبة الأرغن أو الآلات، وثانياً، لأن هذه الطريقة في الإنشاد تتوافق توافقاً تاماً مع وظيفة الكنيسة البابوية ومجموعة أعمال مايكل إنجيلو، ومنها لوحة "يوم الدينونة" و"الأنبياء"، وغيرها من اللوحات التي تُصوِّر قصص الإنجيل. وكايزر معجب مُولَه بالموسيقى القديمة، وهو يعكف على دراستها دراسة جادّة.

ولدينا الآن في المنزل مجموعة من ترانيم المزامير، ترجمها إلى الإيطالية شعراً، ولحّنها للإنشاد نبيل البندقية بنيديتو مارتشيللو، في مطلع هذا القرن. وقد اعتمد في أغلبها على أنغام ترانيم اليهود الألمان والإسبان أساساً للحن؛ واعتمد في الأخريات على ألحان إغريقية، طوّرها بمهارة عظيمة وذائقة أعظم. وقد ألّفها للإنشاد بأصوات منفردة، أو مزدوجة، أو للكورس، وهي ذات أصالة خارقة، رغم أن على المرء أن يطوّر ملكة خاصة لتذوّقها. ويبدي كايزر إعجاباً شديداً بها، وسيقوم بعمل نسخ عن بعضها. ولعلّ بالإمكان الحصول على كامل العمل، الذي طُبع في البندقية عام ١٧٢٤، ويحوي أول خمسين ترتيل للمزامير. أتمنّى أن يحاول هيردر اقتفاء أثر هذا العمل، ولعلّه واجد إيّاه في أحد الكاتالوجات.

لقد بلغ بي التهوّر حدّ تخطيط آخر ثلاثة مجلّدات في آن واحد، وأعرف الآن بالتحديد ما أنا فاعله. عسى أن تمنّ عليّ السماء بالإلهام والحظ الحسن لإتمام المشروع.

كان هذا الأسبوع مثمراً، ويبدو لي عند مراجعة تفاصيله، بمثابة شهر.

فأولاً وضعتُ مخطّط مسرحية "فاوست"، وآمل أن ينفع هذا المخطّط. إن إنجاز هذا العمل الآن أمر مختلف تماماً عن كتابته قبل خمسة عشر عاماً، لكني لا أظن أن النصّ سيفقد شيئاً من وهجه من جرّاء هذا التأخير؛

لأني موقن أني وجدتُ الخيط الهادي ثانية. كما أني واثق من الطابع العام للفكرة. لقد كتبتُ أصلاً مشهداً آخر، ولو شذّبتُ النص قليلاً؛ لتعذّر تمييزه عن المشاهد الأخرى.

إن هذه الفترة المديدة من السكينة والعزلة أعادت إليّ ذاتي، وإني لأعجب أحياناً حين أرى مدى الفارق بيني وبين ذاتي القديمة، وقلّة تأثّر ذاتي الجديدة بكل ما جرى لي خلال سنوات العمر.

ينتابني شعور غريب أحياناً حين أرى إحدى المخطوطات القديمة مطروحة أمامي. فهي ما تزال الصيغة الأولى العذراء التي رميتُ بها المشاهد الأساسية من دون إعداد مسودة أولية، لذا؛ فإنها تبدو حقاً مثل كسرة من مخطوطات قديمة. وبدلاً من أن أطلّق ذاتي؛ لتحلّق عبر التفكير والحَدْس، إلى الماضي السحيق، كما فعلتُ آنذاك، يتعينّ عليّ أن أطلق ذاتي؛ لتحلّق إلى ماض، عشتُه أنا نفسي ذات يوم.

فرغتُ من بَلْوَرَة خطّة مسرحية تاسو الآن أيضاً، كما أنجزتُ معظم القصائد المتفرّقة للمجلّد الأخير، وبيّضتُها تبييضاً حسناً. لابد من أن أعيد كتابة "الفنان في تقلّباته الأرضية" وأن أضيف إليها "التأليه Apotheosis".
وهذه أول مرّة أراجع فيها مؤلّفات الشباب هذه، وقد باتت عندي نابضة بالحياة في كل تفصيل من تفاصيلها. أرعى آمالاً عظيمة بالنسبة للمجلّدات الثلاثة الأخيرة، وأراها كلها ناجزة أمام ناظري بعين الخيال. كل ما يلزمني هو وقت الفراغ وراحة البال حتّى أحقّق نواياي خطوة خطوة.

اتّخذتُ من كتابك "أوراق مبعثرة" مثالاً أحتذيه في ترتيب قصائدي القصار، وآمل أن أطرق السبيل القويم في جمع شتائت متناثرة من الأعمال؛ لأجعل القطع الشخصية المفرطة وقطع المناسبات مستساغة.

وبينما كنتُ أفكّر في ذلك كله وصلتْني الطبعة الجديدة من كتابات

مينجز، وهو مؤلّف أجده الآن بالغ الأهمّيّة، بعد أن اكتسبتُ المقدرة على الإدراك الحسّيّ التي لا يمكن بدونها أن نفقه كلمة واحدة منه. إن هذا العمل رائع من كل النواحي، ولا يطالع المرء صفحة واحدة تخلو من فائدة جمّة. كما أن كتابه "لمحات عن الجمال" أنار عقلي كثيراً، رغم أن الكثيرين يجدون هذا المؤلّف غامضاً.

وانغمرتُ أيضاً في شتّى ضروب التأمّلات في قضية اللون، وهو موضوع، أُثير على قلبي، نظراً لأن هذا الجانب من الفن هو العنصر الذي لا أعرف عنه إلا القليل حتّى اللحظة. وأرى أن الممارسة والتأمّل سوف يتيحان لي أن أتعلّم كيف أتمتّع تماماً بلذّة العالم الخارجي هذه.

٧ آذار (مارس)

مرّ أسبوع آخر، ملؤه السكينة والعمل المثمر. لم أذهب إلى كنيسة سيستين يوم الأحد، بل صحبت إنجيليكا لرؤية لوحة جميلة، يمكن أن تُعزّى، بلا مراء، إلى كوريجيو. شاهدتُ أيضاً مجموعة أخرى في أكاديمية سان لوقا؛ حيث تُحفظ جمجمة رافائيل. إن هذه الرفاة أصلية كما يبدو لي: بنية عظمية بديعة تطوف فيها روح جميلة في هناء. يرغب الدوق في الحصول على قالب مماثل لهذه الجمجمة، وهو ما يسعني على الأرجح أن أحصل عليه.

زرتُ منزل كافا تشيبي، بعد أن أهملتُه طويلاً. ثمّة أشياء كثيرة بديعة في هذا المنزل، أبدعها قوالب لرؤوس العمالقة في مونتي كافالو؛ ولسوء الحظ، فإن أفضل اثنين من هذه القوالب تعرض إلى التلف والتفتّت بفعل الزمن. وفَقْد نحو عُشر بوصة من السطح الناعم لوجهه، لذا؛ صار يبدو، عند النظر عن كثب، وكأنه مصاب بالجدري.

أُقيم اليوم قدّاس على روح الكاردينال فيسكونتي في كنيسة سان كارلو. ولمّا كان الخورس البابوي يتولّى الإنشاد، فقد ذهبنا إلى هناك؛ لنشنّف أسماعنا، ونطهّرها بالنقاء ليوم الغد. حوى قدّاس التأبين على اثنين من المنشدين بطبقات الصوت النسائية الجهيرة (السوبرانو)، وعلى أغرب ألحان سمعتُها. وفي هذه المناسبة أيضاً خلا الإنشاد من مصاحبة الأرغن أو أية آلة موسيقية أخرى.

أية آلة بغيضة هي الأرغن! أدركتُ ذلك، بخاصة، مساء الأمس في كنيسة القدّيس بطرس، حين رافق الأرغن إنشاد الخورس تراتيل صلاة المساء. فالأرغن لا يندغم بالصوت البشري، ونبرته أعلى من اللزوم. ولكنْ؛ أية متعة، بالمقابل، أن نستمع إلى خورس كنيسة سيستين، وهو ينشد دون مصاحبة الآلات الموسيقية؟!.

بات الطقس في الأيام الأخيرة غائماً ودافئاً. تساقطت معظم الأزهار من شجرة اللوز، باستثناء ثلّة منها في ذؤابة الشجرة، وهي الآن خضراء. إن شجرة الدرّاق هي التي تزيّن الجنائن بألوانها البديعة. وإن أشجار الويبرنوم مزهر في كل الأطلال؛ وإن الشجيرات الأكبر سنّاً، ونباتات الأجمات الأخرى، التي لا أعرف أسماءها، تورق جميعاً. وإن الجدران والسقوف تكتسي بخضرة النبات المورق، وبدأ بعضها يطلق أزهاره. ولمّا كنتُ أتوقّع عودة تيشباين من نابولي، فقد غيّرتُ مسكني؛ لأطلّ من غرفتي الجديدة على منظر حلو، قوامه كثرة من الجنائن الصغيرة والشرفات الخلفية.

بدأتُ أرسم قليلاً اعتماداً على موديلات. حين يقتصر الأمر على النظرية، تراني أمضي بصواب ومَقدرة، أما حين يأتي الأمر على التطبيق العملي؛ فتجدني مرتبكاً بعض الشيء. لكن هذا ما يحصل لسائر أقراني التلاميذ.

١٤ آذار (مارس)

في الأسبوع القادم، من المحال أن يفكّر المرء أو يعمل؛ إذ يتوجّب عليه أن يسبح مع تيار الشعائر والطقوس الدينية. بعد عيد الفصح، سأواصل متابعة الشؤون التي يتوجّب أن أنجزها، وأرخي كل الأواصر، وأدفع فواتيري، وأحزم حقائبي؛ لأنطلق مع كايزر. فإن سارت الأمور كلها كما أريد وأشتهي، فسأكون في فلورنسا في نهاية نيسان (ابريل). في غضون ذلك، سأواصل رسائلي.

من الغريب أن اقتراحاً(*) من الخارج يأتي ليُرغمني على اتّخاذ تدابير عديدة، تُسفر عن عقد علائق جديدة، وتستبقيني في روما في بهجة أكبر من ذي قبل.

يمكن لي القول، حقاً، إنني شعرتُ من الرضى، خلال الأسابيع الثماني الماضية، ما لم أشعر به في حياتي كلها، وانني أعرف الآن درجة الحرارة القصوى التي أعتمدها لمعايرة محرار وجودي في المستقبل.

استمرت الحياة على لطفها هذا الأسبوع، رغم رداءة الطقس. استمعنا إلى تراتيل الموتيت الذي وضعه بالسترنيا في كنيسة سيستين يوم الأحد. وفي يوم الثلاثاء، شاء لنا الحظ أن نسمع عدّة مقاطع من موسيقاه المكرّسة للأسبوع المقدّس، أُنشدت على مسامعنا في منزل خاص على شرف سيدة أجنبية، وفي جوّ من الراحة، أتاح لنا أن نأخذ فكرة معقولة عنها بعد عزفها عدّة مرّات على البيانو.

إن تراتيل الموتيت قطعة عظيمة وبسيطة من أعمال الفن، لن تُصان وتُحفظ إلا بفضل تكرار أدائها في هذه الكنيسة. إن مقارنة الأداء بالطبعة

---

*) طلب الدوق من غوته تمديد إقامته في روما لاتّخاذ الاستعدادات لزيارة والدته، الدوقة دوواجر.

التي يملكها كايزر، تُبيّن أن هناك إضافات صوتية عديدة، قد تسلّلت إلى النص، وأصبحت تراثاً، لا مرجع باتّ له. ورغم هذه الإضافات، تظلّ هذه الموسيقى خارقة كالإلهام. سيتمكّن كايزر من أن يقدّم عنها عرضاً تامّاً فيما بعد. وهو يحاول الآن الحصول على إذن خاص لحضور بروفات الأداء في الكنيسة، وهي بروفات لا يُؤذَن لأحد بالاطّلاع عليها حسب العُرف الجاري.

عكفتُ هذا الأسبوع على رَسْم موديل قَدَم، بعد أن درستُ تشريح عظام القَدَم وعضلاته، وأبدى معلّمي الثناء. لو أنني درستُ تشريح كامل الجسم البشري على هذا الغرار، لبتُّ الآن أكثر حكمة. شريطة أن أفعل ذلك، بالطبع، في روما، بما يتيسّر فيها من تسهيلات ووفرة من نصح الخبراء. في حوزتي الآن قَدَم هيكل عظمي، تشريح بديع، أخذ قالباً عن الطبيعة، إضافة إلى نصف دزّينة من القوالب المصبوبة عن أجمل قَدَم من عهد القدماء، بعض هذه القوالب حَسَن، وبعضها سيئ: الحَسَن للتقليد، والسيئ للتحذير. كما أنني ألتمس مَشورة الطبيعة، مثلما أحرص، عند دخول أية فيلا، على مشاهدة الصور لرؤية الطريقة التي عالج بها الرسّامون القَدَم. وهناك ثلاثة إلى أربعة فنانين يزورونني يومياً، وأفيد من تعليقاتهم ونصحهم لي، غير أن الفائدة الحقّ لا تأتيني، في الواقع، إلا من هاينريش ماير. وإذا ما عجزت السفينة، في مثل هذا البحر ومثل هذه الريح، عن أن تتقدّم، فلا بد أنها بلا أشرعة، أو أن ربّان الدفّة مجنون.

أواصل الطواف في أرجاء المدينة، متفرّجاً على الأشياء التي أهملتُها. ذهبتُ بالأمس، أول مرّة، إلى فيلا رافائيل؛ حيث كان يفضّل العيش جوار الحبيبة على كل فن ومجد. اشترى الأمير دوريا هذه الفيلا، وهو ينتوي أن يعاملها بوصفها نصباً مقدّساً، كما تستحقّ فعلاً. رسم رافائيل حبيبته ثمان وعشرين مرّة على الجدران، في كل الأزياء المتخيّلة: حتّى النساء في لوحاته التاريخية يشبهنَ الحبيبة.

ومن هنا انطلقتُ إلى فيلا الباني، غير أني اقتصرتُ على إلقاء نظرات عابرة. كان النهار رائقاً. مساء الأمس انهمر المطر مدراراً، أما الآن؛ فإن الشمس مشرقة، وأرى من النافذة ما يشبه الجنّة. شجر اللوز في أوج اخضراره، والدرّاق يبثّ أزاهيره، أما أشجار الليمون؛ فتتفتّق عن غصون غضّة في الذؤابات.

هناك ثلاثة أشخاص سيفتقدونني حين أغادر. فلن يجد هؤلاء ثانية ما منحتُه لهم، ويؤلمني حقّاً أن ألقي عليهم تحية الوداع. لقد عثرتُ على ذاتي، لأول مرّة في روما. ولأول مرّة وجدتني في توافق مع ذاتي، سعيداً ومتعقّلاً، وعلى هذا الحال تعرّف إليّ هؤلاء الثلاثة، كلّ بطريقته، وكلّ بدرجة مغايرة، واتّخذني صديقاً.

٢٢ آذار (مارس)

لن أذهب اليوم إلى كنيسة القدّيس بطرس، وعوضاً عن ذلك، سأدوّن ملاحظة صغيرة. انتهى الأسبوع المقدّس بمعجزاته وكفّاراته، وأنا ذاهب في الغداة لأتلقّى البركات، وبعدها تنعطف أفكاري نحو حياة جديدة بالكامل.

أمكن لي بفضل وساطة أصدقاء أعزّة أن أرى وأسمع كل شيء، لكن مشاهدة غسل القَدَمين وإطعام الحجيج اقتضى منا الكثير من التدافع والتزاحم.

كانت الموسيقى في كنيسة سيستين جميلة جمالاً، يفوق التصوّر، وبخاصة مقطوعة "المزمور الخمسون"، وأيضاً المقطوعة المسمّاة "تأنيبات" أي زجر(*)، أي تأنيب المصلوب لأتباعه، مما يُنشد عادة في الجمعة الحزينة. هناك لحظة يجرّد فيها البابا من كل هيبته الكَهَنُوتية، فينزل عن

*) مقطوعة "المزمور الخمسون لتسعة أصوات" تأليف فيتوريو أليجري (١٥٨٤-١٦٥٢)، و"تأنيبات" مقطوعة من تأليف باليسترينا (١٥١٤-١٥٩٤).

عرشه البابوي؛ لكي يُقبّل الصليب، في حين يبقى الجميع في أماكنهم في صمت مطبق، حتّى يصدح الخورس بالإنشاد:

"يا شعبي، أيّ هراء......؟؟

مرتلاً: "اسمع، يا شعبي، فأتكلّم"

Populus mens, quid feci tibi?

وهذه واحدة من أجمل هذه الطقوس البديعة. ولسوف تُسمع بعد عودتي، المزيد عن هذه الشعائر، كما ستُسمع الكثير من كايزر ممّا يتعذّر نقله. لقد تحقّقت أمنيتي، وتمتّعتُ بكل ما يطيب التمتّع به في هذه المناسبات، واحتفظتُ لنفسي بأفكاري الخاصة عن بقية الأمور.

إن ما يسمّيه الناس بـ"الوقع المؤثّر" لم يمسّني بشيء: لا أستطيع القول إنني تأثّرتُ شخصياً، لكني أُعجبتُ بكل شيء، وأعترف بأن التقاليد المسيحية بلغت ذروة الكمال. ففي الطقوس التي يشارك فيها البابا، وبخاصة طقوس كنيسة سيستين، تراهم يقومون بأسلوب مرهف ومهابة عظيمة بكل ما يُعدّ جارحاً في الشعائر الكاثوليكية. غير أن رهافة الأسلوب ليست ممكنة إلا في بلد، تخضع فيه الفنون، على مدى قرون وقرون، لسطوة الكنيسة.

لولا نزولي عند اقتراح تمديد بقائي، وقناعتي بوجوب المكوث مدّة أطول، لكنتُ أغادر في الأسبوع المقبل. لقد حمل هذا الأرجاء خيراً. قضيتُ المدّة الإضافية في الدراسة، وقد انقطعتُ عن دراسة الحقبة التي كنتُ أعلّق عليها آمالاً كبيرة. إن الشعور الذي ينتاب المرء حين يهجر بغتة طريقاً كان يتقدّم عليه بخطى واسعة وحثيثة لَشُعور غريب حقّاً، ولكنْ: يتوجّب على المرء أن يوطّن النفس على قبول الضرورة، وألا يجأر منها

بالشكوى. ثمّة في كل فراق لوثة مستترة من الجنون، وينبغي أن نحاذر إبقاءها، أو رعايتها؛ لئلا تنضج في داخل العقل.

أرسل لي كنيب، وهو الرسّام الذي رافقني في رحلة صقلية، بعض الرسوم الجميلة من نابولي. إن بعض هذه الرسوم بديع حقّاً، بفضل ظلال الألوان، ولسوف يصعب عليك أن تصدّق عظمة جمال ذلك العالم. وما هذه الرسوم سوى بعض الثمار الحلوة لرحلاتي، ولسوف تثير عندك أعظم السرور. إن أسلم هدية هي شيء يقدّمه المرء إلى آخر؛ كي يراه بأمّ عينيه.

من المحزن أن يتوجّب عليّ أن أغادر روما في لحظة من اطّراد التقدّم التي تمنحني استحقاق البقاء، غير أن عليّ واجب الشعور بالامتنان لتمكّني من البقاء هذه المدّة الكافية حتّى أبلغ ما بلغتُ.

بينما أكتب لك هذه الكلمات حلّت لحظة قيامة المسيح وسط ضجيج فظيع. فمدافع الكاستيللو تُطلق قذائفها، والأجراس تُقرع من كل زوايا المدينة، ترافقها انفجارات المفرقعات النارية، والقذائف، والمنجنيق. الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً.

شهر آذار ١٧٨٨
عودة إلى ما كان

كان فيليبو نيري يرى أن الواجب يقتضيه أن يقدّم برهاناً قاطعاً على ورعه وتُقاه بأن يُكثر من زيارة الكنائس السبع الكبرى في روما، وهي كنائس: سان بيترو، وسانتا ماريا ماجيوري، وسان لورينزو فوري لامورا، وسان سيباستيانو، وسان جيوفاني لاتيرانو، وسانتا كروشه دي جيروزاليم، وسان باولو فوري لامورا. وإن هذا الطوافَ على الكنائس السبع بات الآن مُلزِماً للحجيج القادم إلى روما في الذكرى اليوبيلية؛ ولابد من أن يتمّ الطوافُ في نهار واحد، وهو رحلة شاقّة، بل حجّ جديد، إذا أخذنا في الاعتبار بُعد المسافات بين هذه الكنائس.

ويقوم بعض المؤمنين القاطنين في روما، برحلة الحجّ هذه إلى الكنائس السبع خلال الأسبوع المقدّس، ويحرص أغلبهم على الطواف في يوم الجمعة الحزينة. وعدا عن الكسب الروحي بالحصول على غفران الكنيسة لمَن يقوم بهذا الطواف من المؤمنين، ثمّة كسب مادي مصاحب، يزيد في جاذبية هذا الطواف. فبعد أن يُكمل الحجيج الطواف، ويتلقّون صكوك الغفران الموثّقة بذلك، يؤوبون إلى بورتا سان باولو، فيحصل كل حاجّ على تذكرة، تتيح له المشاركة، في أيام معيّنة، في المهرجان العمومي في فيلا ماتي. ويحصل ضيوف المهرجان العمومي على وجبة خفيفة من الخبز والنبيذ والجبن أو البيض؛ ويُؤذَن لهم بالتنزّه في أرجاء الحديقة، وبخاصة في المسرح الدائري، وهو المكان المفضّل للزيارة. وفي قبالة

هذا، يبرز المنزل الريفي للفيلا؛ حيث يلتئم شمل المجتمع الراقي. من كرادلة وأساقفة وأمراء ونبلاء. لينعم بالمشهد، الذين يدين بوجوده إلى وقف خيري، أوصت به عائلة ماتي.

ورأيتُ موكباً من أربعين صبياً يافعاً، تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثانية عشرة، وهم يمشون في صفّين متوازيين مشياً وئيداً متواضعاً، ومحتشماً، مرتّلين الأناشيد في ورع. لم تكن ملابسهم ملابس تلاميذ مدارس دينية، بل أزياء أقرب إلى ما يرتديه الصنّاع المتمرّنون يوم الأحد. وكان يقودهم رجل كبير السّنّ، يلوح عليه مظهر حِرَفي مَكين، وكان يسير إلى جانبهم مراقباً إيّاهم بعين فاحصة.

ودُهشتُ حقاً حين رأيتُ في مؤخّرة هذا الموكب من الصبيان حَسَني الهندام جوقة، قوامها نصف دزّينة من أولاد، يرتدون أسمالاً، تضفي عليهم مظهر شحّاذين، يسيرون في مؤخّرة الموكب باللياقة والانضباط ذاته. ولمّا استفسرتُ عن جلية الأمر، حكوا لي الحكاية التالية. قائد الموكب إسكافي من حيث المهنة، إلا أنه أبتر، لا ولد له. وقبل فترة خلت، دعاه ضميره إلى أن يؤوي صبياً في منزله؛ لكي يتمرّن على المهنة، وعُني بكسوته اعتماداً على بعض التبرّعات الخيرية من الغير، ورعاه حتّى قوي عوده؛ ليقيم أوده بنفسه. أثار عمل الإحسان هذا بقية الأسطوات؛ لكي يأخذوا الأولاد الذين كان يعيلهم أو يعينهم بطرق شتّى، وبذا جمع من حوله حشداً من اليافعين. ولكيما يحميهم من غائلة التسكّع أيام الآحاد والأعياد الدينية، أبقى عليهم في أعمال البرّ والشعائر التقية، بل أوجب عليهم الطواف بالكنائس السبع في نهار واحد. نمت هذه المؤسّسة الخيرية باطّراد. ولمّا كان الأطفال الذين يتوافدون على هذه المؤسّسة أكثر من طاقتها على الاستيعاب، فقد التمس هذه الذريعة، وهي أن يضيف إلى موكبه أطفالاً معوزين،

يلتمسون ضرورات المأكل والملبس، كوسيلة لإثارة مشاعر الإحسان عند الناس، وقد أفلح بذلك في أن يجمع من الهبات ما يكفي لإقامة أود واحد منهم في الأقل.

وبينما كنتُ أصغي إلى هذه الحكاية، تقدّم أحد الأولاد الكبار حَسَني الهندام حاملاً صحناً؛ ليطلب بأسلوب بالغ التهذيب والتواضع تبرّعاً لغوث العُراة والحُفاة. تأثّر الأجانب الحاضرون أيما تأثّر، فتبرّعوا بسخاء، بل إن أهل روما المعروفين بالشحّ، تبرّعوا بنزر يسير، من دون أن يتردّدوا في أن يضيفوا إلى هباتهم الشحيحة الثقل الوافر من تبريكاتهم الورعة وآيات الثناء الغزير.

وقيل لي أيضاً إن الأب المتبنّي يوزّع على تلاميذه حصة ممّا جمعوا من هبات، بعيد انفضاض الموكب، ممّا يشير إلى أن الأعطيات التي تُغدق على هذا العرض الحميد لابد أن تكون كبيرة حقّاً.

شهر نيسان ١٧٨٨
مراسلات

١٠ نيسان (أبريل)

أنا في روما بجسدي، لا بروحي. فما إن قرّ قراري على الرحيل، حتّى فقدتُ كل اهتمام. كان حَرياً بي أن أغادر قبل أسبوعين، وألا أمكث إلا لأجل كايزر وبوري. ما يزال يتوجّب على كايزر أن يُكمل بعض الأبحاث التي لا سبيل إليها إلا في روما، وأن يجمع بعض النصوص الموسيقية. كما يتعيّن على بوري إكمال الرسوم الخاصة باللوحة؛ تلك هي فكرتي، وهو بحاجة إلى نصحي. لكني حدّدتُ يوم مغادرتي في الحادي والعشرين أو الثاني والعشرين من نيسان (أبريل).

١١ نيسان (أبريل)

تمرّ الأيام، وأنا عاجز عن أن أقوم بأي شيء جديد. يشقّ عليّ حتّى أن أدفع نفسي دَفْعَاً إلى مشاهدة أيّ شيء. ما يزال صديقي المخلص ماير إلى جانبي، حتّى اللحظة الأخيرة. ولولا وجود كايزر؛ لاصطحبتُه معي. لو اتّخذتُه معلّماً لي لعام واحد لا غير؛ لأحرزتُ تقدّماً كبيراً. ولسوف يكون خير عون لي في تذليل ما ألاقيه من صعاب في رسم الرؤوس(*).

١٤ نيسان (أبريل)

لعلّ ارتباك أحوالي لن يتجاوز هذا القدر الهائل. وبينما كنتُ أتمرّن،

---

*) تحقّقت أمنية غوته؛ حيث استقرّ ماير في فايمار عام ١٧٩٢.

دون انقطاع، على رسم موديل القَدَم، خطر لي أن عليّ أن أتفرّغ لمعالجة مسرحية "تاسو" في الحال، فانصرفت كل أفكاري في هذه الوجهة. وسيكون نصّ تاسو خير رفيق، أصطحبه في رحلتي الوشيكة. في غضون ذلك، شرعتُ في حزم أمتعتي. لم يخطر لي قطّ ضخامة المواد التي تدبّرت أمر مراكمتها حتّى فرغتُ من توضيبها.

شهر نيسان ١٧٨٨
عودة إلى ما كان

لم تحوِ مراسلاتي في الأسابيع الأخيرة من بقائي في روما شيئاً ذا أهمّيّة. شعرتُ أنني ممزّق تماماً بين الفن والصداقة، بين هَوَس الأفكار والإلهام، بين الحاضر المألوف ومستقبل ينبغي أن أتآلف معه، بين الإكثار من الكتابة والإقلال من كتابة الرسائل؛ حيث عبّرتُ بكثير من الاعتدال عن غبطتي بآفاق رؤية أصدقائي القدامى من جديد، من دون التستّر على حزني من فكرة الافتراق عن الأصدقاء الجدد. وما سأذكره أدناه لا يزيد عن سجلّ مقتضب، يقتصر على ما يمكن لي أن أتذكّر، وما أجده محفوظاً في الملاحظات واليوميات.

كان تيشباين ما يزال في نابولي، رغم أنه أعلن مراراً عن عزمه القدوم إلى روما في الربيع. إن العيش معه سهل يسير من معظم النواحي، لكنْ: لديه عادة معيّنة، تجعل العيش معه عسيراً في المدى البعيد. فحيثما كان يبلور مشاريع معيّنة، كان يترك كل شيء مبهماً. فيسبّب بذلك، عن غير قصد، إزعاجاً ومضايقة للآخرين. وفي حالتي أنا، كنتُ أتوقّع عودته، وأردتُ أن ينعم الكل بالراحة، فغادرتُ مكانه إلى مسكن آخر. كان الطابق العلوي قد شغر لتوّه، فاستأجرتُه، وانتقلتُ إليه، حتّى يجد كل أشيائه في الطابق الأدنى، مثلما تركها لحظة غادرنا.

كانت غرف الطابق العلوي تشبه غرف الطابق الأدنى، باستثناء سمة واحدة، هي أن الطابق العلوي يطلّ على حديقة المبنى وعلى الحدائق

المجاورة في كل الجهات؛ لأن المنزل بأسره يقع على زاوية. فكنتُ أرى من نوافذي الكثير من الحدائق من مختلف المساحات، مفصولة بأسيجة متساوية الارتفاع، ومتميّزة بأنواع، لا عَدّ لها من مختلف الأشجار والأزهار. وكانت ثمّة أشكال معمارية سامية في بساطتها، تتجلّى في كل مكان. الجنينة، والجملونات، والشرفات، والفناءات، والسقائف الخلفية أيضاً؛ حيث البيوت عالية.

وفي حديقتنا، ثمّة قسّ دنيوي يعني بعدد من أشجار الليمون متوسّطة الطول، زُرعت في سنادين فخّارية كبيرة. وباختصار، كانت هذه الأشجار تنعم بهواء نقي صيفاً، أما في الشتاء؛ فكانت تُحفظ في بيت زجاجي. وحين ينضج الليمون، يُقطف بعناية بالغة، وتُلّف كل ليمونة بورق ناعم، ويُرصف الليمون في عُلب، ثمّ يُشحن. ويبدو أن هذا الليمون عيّنة من أصناف مختارة، عليها طلب كبير في السوق. وكانت حدائق الحمضيات هذه تُعدّ استثماراً أساسياً عند أُسر الطبقة الوسطى، التي تدفع لقاءها فائدة معيّنة كل عام.

وإن النوافذ ذاتها التي تنفتح على كل هذا الجمال، تزوّدني بالنور الكامل لمعاينة اللوحات. أرسلَ لي كنيب - حسب اتفاقنا - عدداً من الرسوم بالألوان المائية، تنفيذاً للتخطيطات التي رسمها خلال رحلتنا في صقلية. ولعلّه ما من فنان أبلى بلاءً حسناً في التعبير عن شفافية الجوّ في صقلية خيراً من هذا الفنان، الذي اتّخذ من هذا الموضوع اختصاصاً. إن رسوماته المائية لفاتنة حقّاً؛ وحين أرفعها أمام ناظري تحملني على الاعتقاد أنني قد عدتُ إلى صقلية، متلمّساً بعينيّ زرقة المحيط، وظلال الصخر القاتمة، والجبال الضاربة إلى اللون البرتقالي، والأفق المتلاشي في السماء المنيرة. ولم تقتصر فوائد الإنارة الجيدة في المسكن على الرسوم

المائية وحدها؛ فأية لوحة تُوضَع على حامل في الموضع نفسه تظهر بجلاء ساطع خيراً ممّا في أي موضع آخر. فكان سِحْر الفتنة يتلبّسني كلّما دخلتُ الغرفة، ولمحتُ لوحة في هذا المكان.

لم يكن سرّ الإنارة الملائمة في ذلك قد اكتُشف بعد. فقد كانت الناس ترى أن الإنارة إمّا أن تكون موائمة، أو غير موائمة، غير أن هذا التباين كان يُعدّ تصادفياً، وعَصياً على التفسير.

إن حضور إبداعات الفن، شأن إبداعات الطبيعة، يثير فينا التململ. ونتمنّى أن نعبّر عن مشاعرنا وأحكامنا بالكلمات، ولكنْ؛ قبل أن نفعل ذلك، ينبغي لنا أن نشخص أولاً، بالحَدْس والإدراك، ما نحن ناظرون إليه، وبذا؛ نشرع بالفرز، والتحديد، والتمييز، وسرعان ما نكتشف أن هذه العمليات بالغة الصعوبة، إن لم تكن في حُكم المحال، فنعود إلى فعل الرؤية الأبكم.

إن أعظم وقع وأثر في سائر أعمال الفن أنها تُعيدنا إلى ظروف تلك الحقبة، والأفراد الذين أبدعوها. وعند الوقوف وسط تماثيل من زمن القدماء ينتاب المرء شعور بأن قوى الطبيعة تتحرّك وتمور من حولنا. ويُدفع المرء إلى إدراك مدى تنوّع وكثرة الأشكال البشرية، والعودة إلى الإنسان في عمق أصالته، ممّا يجعل الرائي نفسه أكثر إنسانية وأصالة. حتّى لباس هذه التماثيل الوفي للطبيعة، والذي يُبرز تفاصيل الشخص بقوّة أكبر، موائم تماماً. وفي روما؛ حيث يجد المرء نفسه محاطاً بمثل هذه التماثيل يوماً بعد آخر، تنبعث عنده شهوات ورغائب الاستيلاء على هذه التماثيل، وحيازتها الدائمة لنفسه، لكن خير سبيل إلى ذلك هو اقتناء نماذج جيّدة عنها مصبوبة في الجبس. وعندئذ، يفتح المرء عينيه كل صباح؛ ليرى الكمال، يَفتح له ذراعيه؛ ويخترق حضور هذه الأعمال ثنايا التفكير كله، حتّى تصبح العودة إلى البربرية من ضروب المحال.

يحتلّ تمثال جونو لودوفيزي الموقع الأول في غرفتي، وإنني أعتزّ بهذا العمل كثيراً؛ لأن الأصل نادراً ما يُعرَض. وجوار تمثال هذه الآلهة، هناك تماثيل لها أصغر حجماً على سبيل المقارنة، وهناك عدّة تماثيل لجوبيتر، وتمثال ميدوزا روندانيني. وهو عمل مذهل غامض، وفاتن، يمثّل الحالة الوسط بين الحياة والموت، واللذّة والألم. وتمثال هرقل أناكس، وتمثال ميركوري. وإن النسختين الأصليتين للتمثالين الأخيرين موجودتان في إنجلترا الآن.

وقد رُتّبت في نظام لطيف، وفي سائر غُرفي، منحوتات ناتئة، وقوالب مصبوبة لأعمال فخّارية، وأشكالاً مصرية مأخوذة عن قمّة المسلّة، وقطعاً أخرى متناثرة.

لقد مضى على هذه الكنوز، لحظة كتابة هذه السطور، بضعة أسابيع، ليس إلا، مع ذلك، شعرتُ، وأنا أنظر إليها، بتأثّر شديد، ولكنْ؛ صامت، فكنتُ كمَن يكتب وصيّته. إن تعقيدات وتكاليف الشحن، وبعض الغفلة في الروح العملية من جانبي، حالت دون أن أرسل خير هذه الأعمال إلى ألمانيا على الفور. قرّرتُ أن أهدي صديقتي إنجيليكا تمثال جونو لودوفيزي، وهناك قطع أخرى، قرّرتُ إهداءها إلى أقرب الأصدقاء من بين الفنانين؛ وهناك قطع أخرى ستؤول إلى تيشباين، وأخريات، سأتركها إلى بوري الذي سيسكن في غرفي ما إن أغادر.

حلّقتْ أفكاري، وأنا أكتب هذه السطور، عائدة إلى أيام شبابي، فتذكّرتُ المناسبات التي تعرّفتُ فيها أول مرّة على إبداعات الفن من هذا النوع، والتي غمرتْني، رغم يفاعتي وقلّة نضجي، بتلك الحماسة الجيّاشة، والتوق العارم إلى إيطاليا.

في صباي، لم أشهد عملاً واحداً من أعمال الفنون الجميلة في بلدتي. وكان أول إبداع فني أراه في حياتي هو تمثال فاون في لايبزج، وقد بدا لي فاون كأنه يرقص طرباً، وهو يضرب صنّاجتيه، وأستطيع أن أتذكّر بجلاء كل تفاصيل قالب التمثال حتّى يومنا هذا. بعدها مرّ وقت طويل من دون أن أرى شيئاً، حتّى اكتشفتُ مجموعة مانهايم على حين غرّة. أذكر أن القاعة كانت حَسَنَة الإضاءة من علٍ. فَمَلَكَتْ عليّ مشاعري، وأسرتْني.

بعد عدّة سنوات، جلب عدد من الحِرَفيين إلى فرانكفورت عدداً من قوالب الجبس الأصلية من إيطاليا. فصبّوا نسخاً منها، وباعوها بأسعار بخسة. واقتنيتُ بذلك، رأس لاكون، وبنات نيوبي، ورأساً صغيراً، اتضح أنه يمثّل سافو، وتماثيل أخرى. وكانت هذه المنحوتات السامية بمثابة الترياق الخفي الذي أنجاني، وقتذاك، من خطر الوقوع فريسة ما هو عادي، ومنحول، ومتكلّف. الواقع أني تمزّقتُ في تلك السنوات بعذاب التوق الظامئ إلى المجهول، الذي لم أفلح في كَبْته رغم كل مسعاي. لذا؛ حين وجدتني مضطراً إلى مغادرة روما، عانيتُ عناء مريراً من مفارقة كل هذه المقتنيات، التي تمنّيتُها طويلاً، وفزتُ بها أخيراً.

إن القوانين التي تحكم تنظيم بنية النبات، والتي أخذتُ أعيها في صقلية، بقيتْ تشغل ذهني، وهذا شأن كل اهتمام يتّفق وقدرات المرء. لقد تركتْ حديقة علم النبات في تراستفير أثرها الحميد، رغم أن هذا المختبر قد أصابه الإهمال، ولم يعد مثيراً للاهتمام، فكل ما رأيتُه هنا كان، بالنسبة لي، جديداً ومفاجئاً، وقد حفزني ذلك على أن أجمع عيّنات من النباتات النادرة، وأن أراقب مراحل نموّ تلك النبتات التي غرستُ بذورها وفسائلها.

وحين غادرتُ روما، حرص عدّة أصدقاء على تقاسم هذه النبتات

النامية. وزرعتُ سويق بلّوطة واعدة، نموذجاً صغيراً لشجرة المستقبل، في حديقة إنجيليكا. ولقد نما السويق، بعد عدّة سنوات، إلى شجرة كبيرة، وهو ما أفادني به أكثر من مسافر، فتلقّيتُ النبأ في سررو، وأخبرتُهم بالمقابل ما أتذكّره عن موضعها. ولكنْ؛ بعد وفاة صديقتي العزيزة، الأثيرة(*)، جاء مالكٌ جديد رأى، على ما يبدو، أن وجود أشجار بلّوط يتنافر مع قاع الأزهار، ذلك أن بعض المسافرين اللطفاء دقّقوا في مصير البلّوط لأجلي، فوجدوا أن النصب التذكاري لذلك الوجود الودّي قد أُزيل.

غير أن حظّي كان أفضل مع بعض النُّخيلات التي رعيتُ فسائلها. وكنتُ أضحّي بالعيّنات، بين الحين والآخر، خدمة لأغراض ملاحظة مراحل نموّها الغريب. وتخلّيتُ عن النُّخيلات الأخرى، التي كانت في حال حَسَنة، إلى صديق من روما، غرسها في جنينة في شارع سيستينا؛ حيث ما تزال النخيلات قوية مزدهرة، تنمو؛ لتبلغ قامة رجل طولاً، حسب ما أخبرني به زائر حصيف. فعسى ألا تُزعج النُّخيلات أصحاب الحديقة، وأن تواصل النمو هناك؛ لتحافظ على طراوة عود ذكراي.

انطوت قائمة الزيارات الأخيرة قبيل مغادرة روما على نصبين منفصلين؛ قنوات ماكسيما، وسراديب سانت سيباستيان. وإن الأولى أضخم ممّا حملتْني تصاميم بيرانيسي على الاعتقاد به، وتوقّعه. أما زيارتي للسراديب؛ فلم تصبْ كبير نجاح. فما إن خطوتُ خطوة واحدة في السرداب المغلق، الذي لا يصله الهواء، حتّى شعرتُ، بالضيق. فعدتُ إلى نور النهار والهواء الطلق، وانتظرتُ، في ذلك الجزء النائي المجهول، من المدينة، عودة الزوّار الآخرين الذين كانوا أكثر جرأة وأقلّ تحسّساً مني.

وعرفتُ فيما بعد ما كنتُ قد رأيتُه، أو بالأحرى ما أخفقتُ في رؤيته، من خلال كتاب أنطونيو بوسيو: "سراديب روما"، الذي عوّضني عمّا فاتني.

*) ماتت إنجيليكا عام ١٨٠٧.

قمتُ برحلة حجّ أخرى مثمرة تماماً. زرتُ أكاديمية سان لوقا، وطفتُ حول مرقد جمجمة رافائيل(*) التي حُفظتْ هنا منذ فُتح ضريحه إثر بعض أعمال البناء. ما أبدع مرأى هذه الجمجمة. حاضنة الدماغ ذات الأبعاد الجميلة، والانسياب الكامل، الخالية من تلك الانتفاخات والنتوءات الملحوظة في جماجم أخرى التي يعزو لها "جال" Gall، في نظريات فراسة الدماغ، الكثير من الأهمّيّة. لم أفارق مرقد جمجمة رافائيل إلا بمشقّة بالغة، وخطر لي، وأنا أمضي، أن كل عشّاق الفن والطبيعة سيرحّبون بعمل قالب عن هذه الجمجمة، إن أمكن ذلك. وأنعش فيّ صديقي المتنفّذ، هوفرات رايفنشتاين، الأمل في أن يقدر على تدبير قالب للجمجمة، وقد وفى بوعده بعد فترة وجيزة، وأرسل القالب إليّ في ألمانيا، فكنتُ غالباً ما أنظر إليه، وأتأمّل.

وسررتُ أيضاً بلوحة رافائيل التي تُصوِّر السيدة العذراء، وهي تتجلّى للقدّيس لوقا، حتّى يرسمها في كل بهائها وجمالها القدسي(**). ويبرز رافائيل في هذه اللوحة، وهو بعد شابّ، على مبعدة من القدّيس الذي يرسم العذراء. إن من المستحيل أن يعبّر تعبيراً أجمل من هذا عن الطريقة التي يجد فيها الإنسان نفسه منجذباً إلى مهنة معيّنة. كانت هذه اللوحة، في الأصل، ملك بيترو دي كورتونا الذي تركها إلى الأكاديمية في وصيّته. وما تزال هذه اللوحة عملاً بالغ الأهمّيّة، بالرغم ممّا أصابها من تلف، وأُضيف إليها من ترميم.

باغتتْني في تلك الأيام غواية داهمة، هدّدتْ بمنعي من المغادرة، وشدّ وثاقي إلى روما من جديد. هناك سيّد يُدعى السنيور أنطونيو ريجا، وهو فنان وتاجر لوحات، وصل من نابولي، وذهب لزيارة صديقي ماير، ودعاه

*) الواقع أن الجمجمة لم تكن لرافائيل.

**) هذه اللوحة ليست بريشة رافائيل، بل بريشة تيموتيو ديلا فيتا.

إلى أن يرافقه إلى قارب، يرسو على شاطئ ريبا جراندي؛ حيث أسرّ ماير أن القارب يحمل تمثالاً من الآثار الهامّة، هو تمثال آلهة الرقص، أو عروس الشعر تلك الموجودة من زمن سحيق في فناء قصر كارافا كولومبراتو في نابولي، وهو تمثال يُعدّ من أبدع أعمال النحت. أعرب ريجا عن رغبته في بيع التمثال، ولكنْ؛ في السّرّ، واستفسر من ماير إن كان هو، أو أحد أصدقائه الموثوقين، يرغب في هذه الصفقة. أما الثمن الذي يطلبه لقاء هذه المنحوتة النادرة؛ فمتواضع، ولا يزيد عن ثلاثماية سيكوين، وإن هذا السعر كان سيتضاعف بلا مراء، لولا وجود مبرّر للحيطة والتكتّم.

أبلغني ماير بالأمر، فانطلقنا نحن الثلاثة إلى مرسى القارب البعيد بعض الشيء عن مسكني. ثمّة صندوق خشبي جاثم على متن القارب، وقلع ريجا لوحة منه، فتبدّى رأس آلهة الشعر الفاتن،وكأنه لم يُفصل عن جذعه، مُطلاً علينا من حلقاته، وشيئاً فشيئاً برز القوام الجميل الممشوق المزيّن بفستان بديع. ولم يتضرّر التمثال إلا قليلاً، وكانت إحدى اليدين في حالة بديعة من الصيانة.

وفي الحال، عادت إليّ الذكرى الساطعة لمكان وظروف مشاهدتي هذا التمثال أول مرّة، من دون أن يخطر لي أن أرى عروسة الشعر ثانية على هذا القرب.

واستوقفني خاطر، ما كان له أن يفعل خلاف ذلك، لو أن شخصاً ما قام بحفريات آثارية طوال عام كامل، وبكلفة باهضة؛ لاعتبر نفسه ذا حظّ كبير أن عثر، آخر المطاف، على كنز كهذا. ما كنا نستطيع أن نشيح أنظارنا عن التمثال؛ فلم يسبق لنا، إلا في النادر،إن رأينا عملاً من أعمال من الأقدمين على هذه الدرجة من الكمال، بل عمل، فوق هذا وذاك، سهل الترميم. انتزعنا أنفسنا أخيراً، وغادرنا القارب، واعدين ريجا بإعطائه الجواب قريباً.

كان تفكيرنا نحن الاثنين في حومة صراع: فمن نواحٍ عدّة، لم يكن إبرام هذه الصفقة يبدو مُستحباً. لذا؛ عزمنا على أن نُثير القضية أمام إنجيليكا، التي لم تكن على قدر كافٍ من الثراء لشراء التمثال فحسب، بل كانت حَكَماً كفوءاً مؤهّلاً للبتّ في أمور ترميم التماثيل. وتولّى ماير هذه المهمّة؛ إذ سبق له أن قام بدور الوسيط في موضوع شراء لوحة من جانب دانييلا دا فولتيرا، ورعينا آمالاً كبيرة بالتوفيق. غير أن إنجيليكا الحصيفة، وبدرجة كبيرة زوجها المقتّر، أحجما عن الصفقة. لقد رفضا مجرّد النظر في أمر شراء أيّ تمثال، رغم ما كانا يُنفقانه على شراء اللوحات.

بعد هذا الجواب السلبي، فكّرنا في الموضوع كله من جديد، فاستبدّ بنا التوق؛ فقد بدت لنا هذه الفرصة أفضل من أن تُترك للضياع. فَحَصَ ماير التمثال بدقّة، مرّة ثانية، واقتنع بأن كل الدلائل تشير إلى أنه منحوتة إغريقية، يعود تاريخها إلى ما قبل عهد أوجستان، ولعلّها من عهد هيرون الثاني(*). كان لديّ ما يكفي من الرصيد لشراء التمثال، وبدا ريجا مستعدّاً لقبول الدفع على أقساط، وداهمتْني لحظة، تخيّلتُ فيها نفسي المالك الفخور لهذه المنحوتة، وتخيّلتُ التمثال منتصباً وسط إنارة مناسبة في صالتنا.

ومثلما يحصل أن تعترض تأمّلات صاحية اللحظات الفاصلة بين الحبّ الجارف وإبرام عقد الزواج، أصابني التردّد أنا أيضاً، ولم أستطع المضي خطوة أبعد من دون طلب النصح من زوكيس؛ ذلك أن فكرة اقتنائي مخلوقة النحت هذه ضربت جذورها في أولئكأعماق فؤادي على غرار ما حصل للنحّات بيجماليون. ولكيما أبيّن إلى أيّ حدّ أطريتُ نفسي في هذا الأمر، يتوجّب أن أعترف أنني اعتبرتُ هذا الحادث علامة على أن الأرواح السامية

---

*) هيرون الثاني، طاغية سيراكيوز (٢٧٠-٢١٦ قبل الميلاد).

في السماء تريد لي أن أبقى في روما، وأن أنضو عني كل الموجبات العملية التي حملتْني على اتّخاذ قرار السفر.

ولحسن الحظ أني بلغتُ من العمر حدّاً يدفع العقل إلى أن يهبّ لنجدة الروح في مثل هذه الأحوال، فوجدتُ توقي الجامح لاقتناء التمثال، بما رافقه من سفسطة واعتقادات خرافية، يرضخ أخيراً لحكمة إنجيليكا، ولصوت التعقّل. وحين أصختُ السمع لاعتراضاتها، أدركتُ كل الصعاب والمخاطر التي تحيق بمشروع من هذا النوع. لقد دأبتُ حتّى ذلك الحين على أن أكرّس نفسي في صمت لدراسة الفن وزمان الأقدمين؛ وإذا ما عنّ لي الآن أن أورّط نفسي في تجارة الأعمال الفنية، فإنني سأستثير بذلك غيرة التجّار المحترفين. ثمّ إن هناك صعوبات ترميم التمثال، كما أن هناك شكّاً في إمكانية الحصول على ترميم متقن بكلفة معقولة. وحتّى لو اكتملت كل ترتيبات الشحن، كما ينبغي، فليس مضموناً ألا تبرز عقبة في اللحظة الأخيرة، تعترض الحصول على إذن التصدير اللازم لمثل هذه الأعمال الفنية، ناهيك عن احتمال وقوع حادث خلال الرحلة، أوخلال تفريغ الحمولة، وإيصالها إلى المنزل. وقالت إنجيليكا إن تجّار الأعمال الفنية يغفلون، عادة، مثل هذه الاعتبارات، بسبب ضخامة حجم تجارتهم، لكن صفقة واحدة من هذا الصنف تشكّل مجازفة كبيرة.

أدّت هذه الحجج، بالتدريج، إلى إضعاف رغبتي، من دون أن تخمدها تماماً، خصوصاً وأن التمثال حظي أخيراً، بتكريم عظيم؛ لأنه يقف الآن في قاعة صغيرة جوار متحف بيو كليمنتو، وقد ازدانت أرضيّتها بموزاييك بديع من الأقنعة والأكاليل المضفورة. وقد وصف فيسكونتي هذا التمثال، وفسّره بأسلوب الخاص في مجلّده الثالث المكرّس لهذا المتحف. وقد نشر فيسكونتي صورة عن هذا التمثال في اللوحة رَقْم ٣٠، وبذلك بات بوسع

كل عاشق للفن أن يشاركني أساي على الإخفاق في جلبه إلى ألمانيا حتّى يضاف إلى واحدة من المجموعات الآثارية العظيمة في بلادنا.

لن يُفاجأ قرّائي إن سمعوا أنني لم أنس أن أزور السيدة الشابّة الجميلة من ميلانو؛ لأزجيها تحيّة الوداع. كنتُ خلال هذه الفترة قد سمعتُ الكثير من أخبارها المُسرّة، وبالذات تُوثّق علاقتها الحميمة بإنجيليكا، ورهافة سلوكها في المجتمع الراقي، الذي عرّفته عليها صديقتنا. وكان لديّ سببه وجيه، يحملني على الافتراض أن شابّاً ميسوراً من أصدقاء زوكيس لم يكن بعيداً عن تحسّس جمالها وفتنتها، والافتراض أيضاً بأن نواياه جادّة، وأنه يعتزم الإفصاح عنها.

ألفيتُها في ثوب صباحي أنيق، كذاك الذي رأيتُها فيه يوم رأيتُها أول مرّة في كاستل جوندلفو. أبدتْ فرحاً سافراً لرؤيتي، وعبّرتْ من جديد عن امتنانها لي، لما أبديتُه لها من اهتمام. وقالت: "لن أنسى قطّ أنني عندما كنتُ أتعافى من الحمّى، سمعتُ مَن يذكر أنك من بين الأشخاص الأعزاء العطوفين الذين استفسروا عن صحتي. وسألتُ مرّات ومرّات إن كان هذا القول صحيحاً، فقيل لي إنك تستفسر عني باستمرار على مدى أسابيع، حتّى استطاع أخي أن يزورك، وأن يشكرك نيابة عنا نحن الاثنين. لا أدري إن كان أوصل إليك محتوى رسالتي، كما قلتُها له؛ كنتُ سآتي معه إليك، لو كان ذلك مناسباً."

وسألتني عن الطريق الذي سأسلكه، فلمّا وصفت لها المسار، قالت: "أنت محظوظ لأن تكون على قدر من الثراء للقيام بذلك كله؛ أما نحن؛ فيتوجّب أن نوطّن النفس على العيش في المستقرّ الثابت الذي رسمتْه لنا العناية الآلهية والقدّيسين. إنني أراقب السفن الصغيرة التي تحمل الشحنات، وتُفرغها منذ أمد بعيد. إن منظرها لطيف، ولكني غالباً ما أفكّر: من أين تأتي هذه السفن؟ وإلى أين تذهب؟"

كانت نافذة بيتها تطلّ مباشرة على سلّم الريبيتا؛ حيث يبلغ الزحام في هذه الساعة أشدّه.

تحدّثتْ عن أخيها بحنان، ووصفتْ لي مدى سعادتها في أن تدبّر له شؤون منزله؛ لتتيح له ادّخار شيء من مرتّبه المتواضع حتّى يستثمر المال في أعمال مربحة؛ وباختصار، أطلعتْني على كل تفاصيل وضعها العائلي. غمرني حديثها بمتعة عظيمة. والحقّ أقول لكم إنني أخذتُ أتصرّف كشخص آخر بعد أن استرجعتُ، بسرعة خاطفة، كل تفاصيل علاقة الحبّ بيننا من أول إلى آخر لحظة. ولكن أخاها دخل في تلك اللحظة، فاختتمنا الوداع بعبارات نثر وقور.

لمّا غادرتُ المنزل، وجدتُ العربة من غير الحوذي، فأرسلتُ صبياً للبحث عنه. أطلّتْ من نافذة الطابق الوسيط لمنزلهما الجميل. كانت النافذة متدنّية، إلى درجة أن من السهل علينا أن نتصافح. قلتُ لها "أترين؟ إن الاقدار لا تريدني أن أنصرف. يبدو أن هذه الأقدار تعرف أنني أغادرك رغماً عن إرادتي."

وإن ما قالتْه في هذه اللحظة، وما أجبتُه بها آنذاك. في مجرى هذه المحادثة الرقيقة، الخالية من أي قيد، طفحت المشاعر الداخلية لاثنين كانا شبه متيّمين في حب أحدهما الآخر. لن يدنّس الآن بالتكرار.

إن هذا الاعتراف الختامي بالحبّ البريء الرقيق المتبادل، الذي لم تخبُ جذوته في قلبي قطّ، هو اعتراف غريب مقتضب، أذكتْه المصادفة، وأطلقتْه حاجة باطنية.

تبدّت تباشير وداعي لروما بأسلوب جليل: بزغ البدر ثلاث ليال متعاقبات على صفحة سماء صافية، ناشراً سِحْره على المدينة الهائلة، فشعرتُ أن ذاتي تحلّق، من جديد، في عالم آخر أكثر بساطة، وأكثر عَظَمَة.

دأبتُ في خاتمة كل نهار أقضيه في شتّى المشاغل التي يخالطها الحزن، على أن أتنزّه مع نفر من الأصحاب؛ حتّى جاء مساء، تنزّهتُ فيه وحيداً. بعد أن طفتُ طويلاً في أرجاء شارع الكورسو ـ للمرّة الأخيرة على ما أظنّ ـ مشيتُ إلى مبنى الكابيتول الشاخص مثل قصر مسحور في صحراء. وبرز تمثال ماركوس أوريليوس؛ ليذكّرني بشخصية المدّاح في مسرحية "دون جيوفاني"، فقد بدا كمَن يسرني أنا الهائم على وجهه، بأنني أوشك على أن أغامر بما هو خارق. مع هذا نزلتُ من السّلّم الخلفي، فواجهني بغتة ذلك القوس الظافر المعتم، قوس سيبتيموس سفيروس، الذي يلقي ظلاً أكثر قتامة. ألفيتُ نفسي وحيداً معزولاً في شارع فياساكرا؛ حيث تبدّت الأنصاب المعروفة، كما لو أنها أشياء غريبة أشبه بالأشباح. ولكنْ؛ يتوجّب أن أعترف بصراحة أني لمّا بلغتُ الأطلال العظيمة لمبنى الكوليسيوم، ونظرتُ من خلال البوّابة إلى ما في داخله، سَرَتْ رعدة في أوصالي، فعدتُ مسرعاً إلى البيت.

إن الصروح العملاقة تؤثّر فيّ تأثيراً غريباً؛ فهي تتميّز في الآن ذاته بما يسحر، وما يُرهب. جمعتُ زبدة الزبدة (باللاتينية) من كامل مقامي في إيطاليا، فأثار ذلك في روحي المضطربة مزاجاً، يجوز لي أن أصفه بأنه بطولي ـ رثائي؛ لأنه كاد أن يتجسّد في قالب مرثاة شعرية.

كيف لي في مثل هذه اللحظة، ألا أتذكّر مرثاة أوفيد، الشاعر العظيم الذي حُكم عليه بالنفي، وأُقصي عنوة عن روما، فغادرها في ليلة مقمرة؟! حيث يقول: في اللحظة التي تظهر فيها الصورة الحزينة (باللاتينية).

لا قِبَل لي أن أنتزع وافيد من ذهني، بذكرياته الجارفة حنيناً إلى الوطن، وبحزنه وابتئاسه، وهو في منفاه البعيد على شواطئ البحر الأسود. حاولتُ أن أنشد قصيدته لنفسي، فطفتْ في ذاكرتي مقاطع منها، حرفاً حرفاً،

ولكن مفعولها الوحيد أنها زادت كياني ارتباكاً وإحباطاً، وحين حاولتُ أن ألتقط القصيدة ثانية، عجزتُ عن المضي بها.

يقول أوفيد:

في اللحظة نفسها التي تظهر فيها فجأة

الصورة الحزينة لهذه الليلة...[*]

.انتهى.

*) أوفيد: تريستيا، المجلّد الثالث.

فهرس المحتويات



تعتبر هذه اليوميات واحداً من أعظم النصوص الأوروبية التي وضعت في هذا اللون الممتع من الأدب، بقلم شاعر وكاتب مخضرم عاش في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ودون فيها تجربته في السفر والمعرفة والمغامرة نحو ما كان يعتبر مستودع الفنون ومجمع الآثار العظيمة لعصر النهضة.

دون غوتة يومياته هذه استناداً إلى رحلتين إلى إيطاليا، الأولى قام بها في أيلول/ سبتمبر ١٧٨٦، واستمرت حتى شباط/فبراير من العام ١٧٨٧، فقضى خمسة شهور في فيرونا، البندقية، روما. والرحلة الثانية بدأها في حزيران/يونيو من العام ١٧٨٧ واستمرت حتى نيسان/ابريل من العام ١٧٨٨، قضاها هذه المرة كلها في روما عازما على التمتع بمعالمها وآثارها ومتاحفها.

تنعكس في صفحات هذا الكتاب، ليس فقط صور الآثار والأعمال الأدبية والفنية لعصور متتالية من الإبداعات وكنوز المعرفة، ولكن أيضا ثقافة شاعر عظيم خلدته أوروبا ومعها البشرية جمعاء بوصفه نموذجا لأديب تجاوز بفكره المضيء وروحه الخلاقة حدود بلاده ولغته ليكون أديب الإنسانية.

رحلة غوتة إلى إيطاليا كتاب ممتع عندما نفرغ من قراءته نشعر ببهجة المعرفة، وسمو الجمال، وجلال الأفكار العظيمة.

وقد حاز النص على «جائزة ابن بطوطة للرحلة المترجمة» تقديراً للقيمة الأدبية للأثر وبراعة الترجمة التي قدمها له مترجمه.

جائزة ابن بطوطة



ISBN 978-88-99687-69-4



المتوسط